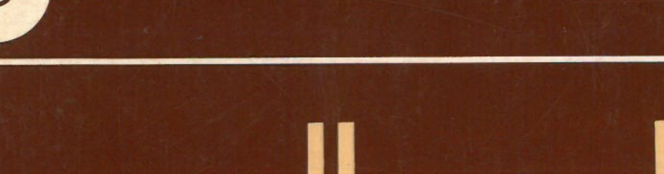
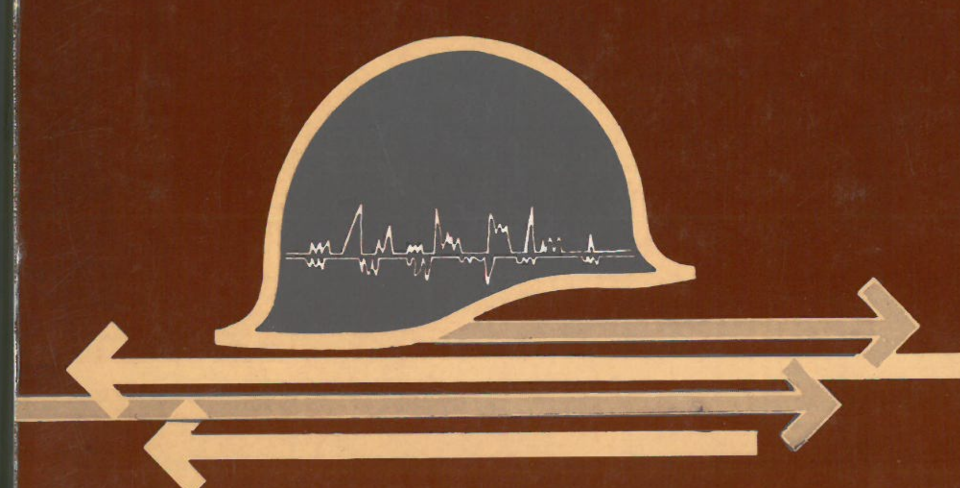


عباقرة الحرب

الجيش والأركان العامة في ألمانيا

١٨٠٧ ـ ١٩٤٥

تأليف العقيد ت. ن. دوبوي



ترجمة : حسن حسن

عباقرة الحرب

الجيش والأركان العامة في المانيا

١٨٠٧ - ١٩٤٥

تأليف: العقيد ت. ن. دوبوي

ترجمة: حسن حسن

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

هذه الترجمة الكاملة لكتاب:

A GENIUS FOR WAR
THE GERMAN ARMY AND GENERAL STAFF,
1807- 1945
By
Colonel T. N. Dupuy
USA Ret.
Macdonald and JANE'S
London 1977

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي بيروت - ص.ب ٥٤٦٠/١١ بيروت

الطبعة الأولى ١٩٨٣

المقدمة

لغز العام ١٩٤٤

كان العام ١٩٤٤ عام كارثة كادت أن تكون بلا نهاية في ألمانيا. وكانت اعظم الصدامات التي هزت وجدان الشعب الألماني وقادته، وأنزلت بهم أفدح الخسائر المادية، تلك التي نجمت عن القصف الجوي المتواصل الذي قامت به ليل نهار أعدادٌ لا تحصى من قاذفات قنابل الحلفاء، وألحقت الدمار في طول المانيا وعرضها. وبهزيمة الغواصات الالمانية في معركة الاطلسي، فَقَدَ الألمان كل أمل في فرض ضغط اقتصادي مجدٍ على الحلفاء الغربيين.

وعلى الجبهة الشرقية، سددت الجيوش السوفييتية المتفوقة في حجم القوات بنسبة تتراوح من ١:٥ الى ١:١٥ الضربة الماحقة تلو الاخرى. وفي الشمال طرد السوفييت القوات الألمانية من ضواحي «لينينغراد» وردوها الى دول البلطيق. وفي الوسط اخرجوها من قلب روسيا البيضاء (بيلوروسيا) وجعلوها ترتد الى شرقي بروسيا وأواسط بولونيا.

وفي الجنوب تقدموا من نهر «الدنيبر» في وسط أوكرانيا الى نهر

الدانوب وجبال الكربات في عمق البلقان. وهكذا بدت الجيوش الألمانية عاجزة عن صد أي هجوم سوفييتي.

وفي «أنزيو» الايطالية كادت تحل بالألمان كارثة محققة في كانون الثاني (يناير) لو لم يسارعوا ببراعة الى خوض معركة دفاعية. لكن المدافعين الذين استهدفهم طيران الحلفاء المتفوق، كانوا اضعف من أن يصدوا الفرق الأميركية والبريطانية التي استأنفت هجومها في أيار بعد فترة استراحة، وطاردت في حزيران فلول جيشين ألمانيين في «روما».

وفي الغرب، وجد الألمان انفسهم، امام السيطرة الأنكلو- اميركية الجوية الكاملة، غير قادرين على منع الحلفاء من النزول على شواطىء النورماندي، وفشلت محاولاتهم لدفع التعزيزات الى الساحل ورد الحلفاء الى القنال الانكليزي، بسبب طيران الحلفاء التكتيكي الذي قام بتدمير الطرق وسكك الحديد في شمال فرنسا. وبتزايد ضغوط الحلفاء وتدفق تعزيزاتهم الى النورماندي عبر رأس الجسر الساحلي، تحطم الخط الدفاعي الألماني في النهاية، وتراجع الألمان على عجل عبر شمال فرنسا باتجاه الحدود الألمانية. ومع بداية أيلول (سبتمبر) ١٩٤٤، فقدت الجيوش الألمانية في الغرب، تحت وطأة الضربات الجوية والبرية المتتالية، قدرتها على إيقاف زحف الحلفاء على وسط المانيا. ذلك الزحف الذي توقف على مقربة من الحدود الألمانية بسبب نفاد الوقود لدى الحلفاء.

ومع ذلك، استطاع الألمان في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٤ ان يعيدوا بناء موانع دفاعية حصينة ضخمة في الشرق وفي ايطاليا، وعلى طول خط سيغفريد في الغرب. وظل الحلفاء محتفظين بتفوقهم الواسع في الرجال والعتاد، وواصلت قاذفاتهم قصفها الجوي. ولم يكن لديهم أدنى شك في استسلام المانيا في النهاية. غير انهم وجدوا ان النصر الذي ظنوه وشيكاً في منتصف صيف ١٩٤٤، ما زال يتطلب مزيداً من القتال الطويل المرير المكلف ضد جيش خطر، فعّال، متماسك أُحسن اعداده وتجهيزه.

وبالنظر الى ما سبق ذكره، تبدو الصحوة الألمانية هذه أقرب الى الاعجوبة. وفي الواقع، كان الناس في ألمانيا قد بدأوا يصفون ما حصل عند

خط سيغفريد في شهري ايلول وتشرين الأول «بمعجزة الغرب» وقد كان معجزة، ولكن قام بتحقيقها، كما في الشرق والجنوب، رجال عاديون، اضحت عيوبهم ومواطن قصورهم وضعفهم مكشوفة، بحيث بات جنود الحلفاء يتندرون «بالسوبرمان» الالماني وبدعاوة «العرق المتفوق» التي اطلقها هتلر. ومع ذلك، لم يكن ما تحقق سوى جزء من المعجزة. وهناك المزيد.

ففي الصباح الباكر من يوم ١٢/١٦، بدأت الدبابات والمشاة الألمان في الزحف غرباً، واكتساح «الآردين» بعنف مفاجىء يذكّر بالهجوم الالماني الذي دمر الجيوش الفرنسية والبريطانية في العام ١٩٤٠. وباندفاع الدبابات الألمانية المتقدمة عبر لوكسمبورغ في خلال هذا الشهر الاسود، انتشرت في بريطانيا والولايات المتحدة حالة من الهلع المسعور، ابرزتها الصحف بوضوح في عناوين سوداء رئيسية.

هل كان الألمان يوشكون على شق جيوش الحلفاء كما فعلوا في العام ١٩٤٠، بعد ان كانوا قاب قوسين من الهزيمة؟ وهل كانوا مقبلين على دفع البريطانيين الى «دنكرك» اخرى؟ كيف كان ذلك ممكناً؟

لم يكن ممكناً بالطبع، فقوة الهجوم الالماني في العام ١٩٤٤ كانت اقل من قوة الهجوم في العام ١٩٤٠ بما لا يقاس. والجيوش التي تصدت للهجوم افضل من تلك التي هُزمت في العام ١٩٤٠. جيوش لم يكن لينعكس على جنودها ما اصاب عائلاتهم في اوطانهم من ذعر وفزع. فبعد وصول الهجوم المعاكس الالماني الى نهر الموز تقريباً تم ايقافه واحتواؤه والسيطرة عليه. وتكبد الألمان من جراء ذلك خسائر جسيمة.

وليس ثمة ما يدهش في فشل الهجوم الالماني. فالمدهش هو ان الألمان كانوا قادرين على القيام بمثل هذا الهجوم في أي حال، والاندفاع مسافة ٨٠ كلم في عمق خطوط عدو متفوق في العدد والعدة جواً وبحراً.

لقد كان الهجوم آنذاك خطأً استراتيجياً عجّل في هزيمة المانيا المحتومة. وكان القادة العسكريون الالمان يدركون بأن مصير محاولاتهم الفشل، ولكن الفوهرر أمرهم فأطاعوا. ومن المشكوك فيه ان يستجيب أي

جيش في التاريخ للأوامر في ظل ظروف مشابهة كاستجابة الجيش الألماني.

كيف استطاعت هذه الجيوش المهزومة ان تقاتل قتالاً حسناً ولماذا؟ كيف ولماذا استطاعت ايقاف عمليات الزحف العنيد التي كان اعداؤها المظفرون الأقوياء ينفذون بها الى المانيا من الشرق، والجنوب، والغرب في آن معاً؟ بل كيف ولماذا استطاعت هذه الجيوش المشتتة ان تعيد تجميع قواها وتشن هجومها المعاكس الرئيسي وتهزم، ولو بصورة مؤقتة، خصوماً يفوقونها في الحجم والتجهيز والثقة، والبلاد من ورائها غارقة في الدمار؟

كان هذا لغز العام ١٩٤٤. لقد كان لغزاً يكمن حله في ماضي المانيا، وتهم مضامين هذا اللغز أي إنسان - جندياً كان أم مدنياً - قد يضطر يوماً الى القتال دفاعاً عن وطنه. لكن الذاكرة البشرية ضعيفة، وبخاصة ذاكرة الاميركيين، الذين يفضلون النظر الى المستقبل وليس الى الماضي. من هنا، ورغم الحاح مسألة الاستفادة من لغز العام ١٩٤٤ ومعرفة المانيا والاسباب التي جعلت الألمان يتفردون بالتفوق العسكري، فقد طوتها العقود التي تلت الحرب.

وبعد عدة أعوام، ظهرت بصورة مفاجئة ضرورة معالجة هذا اللغز. وقد نشأت هذه الحاجة في اثناء قيامي بشرح معركة تاريخية بنموذجية شرحاً مفصلاً، بمساعدةزملاء لي في مؤسسة التقويم التاريخي والبحث (HERO)، مستنداً الى بضعة معطيات، وستين اشتباكاً من اشتباكات عامي ١٩٤٣ و١٩٤٤ في ايطاليا. وبدأت عملي انطلاقاً من الاحتمال بأن الألمان كانوا إبان نزول الحلفاء على شواطىء «ساليرنو» في ايلول ١٩٤٣ متفوقين من حيث الكفاية بنسبة ١٠٪ بسبب تمرسهم في القتال. وبدا من المنطقي ان يكون الحلفاء قد تغلبوا في نهاية العام على هذا التباين الأولي. من هنا افترضت - بناء على هذا المعدل - تساوي الجدارة القتالية لكلا الطرفين، الحلفاء والألمان.

ولقد بدأت الاحظ، لدى شروعي في شرح المعركة النموذج، ظاهرة مثيرة. فبتحديدي العشوائي لفعالية القوة الجوية - وكلها عملياً لصالح الحلفاء

بالطبع - كنت احصل على نتائج حسابية نموذجية متوافقة بصورة معقولة مع النتائج الفعلية. ولكن حين تكون قوة الحلفاء الجوية غائبة عن مسرح القتال، او مشتركة بصورة عابرة، تنشأ مشكلة تعذر التوفيق بين النتائج النموذجية والنتائج الفعلية. ونجد في هذه الحالة ان المعارك التي كان من المفروض ان يكسبها الحلفاء وفقاً للمعادلات قد كسبها الألمان بالفعل. وهناك ظاهرة اخرى تناولت الحالات التي تساوت فيها قوات المعركة النموذج الى درجة جعلت النتائج الفعلية غير الحاسمة تبدو امراً معقولاً. وفي الحقيقة، انتصر الألمان بثبات، سواء ظهرت قوة الحلفاء الجوية بوضوح في الحسابات النموذجية أم لم تظهر.

وسرعان ما اصبح واضحاً ان حاجة الألمان الى زيادة ثقل فاعلية كل فرد أو وحدة لديها أكبر من حاجة الحلفاء، وان تبديلاً مماثلاً كان من الضروري ادخاله على ثقل الفاعلية الخاصة بالقوة الجوية. وقد أصبح جلياً بأنني - كضابط متقاعد في القوات البرية الاميركية - قد ارتكبت عند صياغة معركتي النموذجية خطأين مهنيين: الأول استخفافي بتأثيرات القوة الجوية، والثاني - وهو الأخطر - استخفافي بكفاءة الجنود الألمان القتالية.

وبتصفية نتائج المعركة النموذج، ومقارنتها بدقة متناهية بالحصيلة الفعلية لمختلف المعارك التي كنت أصوغها على مستوى فرقة، تبين بأن معدل تفوق الجندي الألماني على الجندي الاميركي والجندي البريطاني، من حيث الفعالية القتالية، كان بنسبة ٣٠٪ إبان الانزال في ساليرنو، ثم انخفض الى نسبة ٢٠٪ في منتصف العام ١٩٤٤. وكان هناك تباين كبير في الفعالية القتالية داخل الجيوش نفسها - البريطانية والاميركية والألمانية - ولكن على العموم ظل الاختلاف النسبي، عند مقارنة الألمان مع الاميركيين والبريطانيين، على حاله تماماً. فقوة من ١٠٠ جندي الماني كانت تعادل من حيث الفاعلية القتالية قوة من ١٢٠ جندياً أميركياً أو بريطانيا. ومع مزيد من الدقة، بدأ يتضح بأن معدل الفارق في الاصابات كان أعلى من سائر المعدلات. فكل ثلاث اصابات في صفوف الحلفاء كان يقابلها اصابتان في صفوف الألمان. وظلت هذه العلاقة (تفوق في الفاعلية القتالية بنسبة ٢٠٪ وتفوق في معدل الحاق الاصابات بنسبة ٣ الى ٢) قائمة خلال معارك العام

١٩٤٤ في النورماندي وفرنسا، وفي اثناء الهجوم الالماني على الأردين في أواخر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤٤.

وبدأت الاحظ باهتمام ان لعب الحرب War games من منتجات مصانع «افالون هيل» وشركة سيمالتايشن بابليكايشن المتحدة وغيرهما، والتي كانت تباع للتسلية، قد اعتمدت عدة اساليب لإبراز فعالية الجنود الألمان القتالية العالية، مستندة في ذلك الى معارك تاريخية جرت في الحرب العالمية الثانية وكان لا بد لها ان تفعل ذلك، بالطبع، حتى تجيز للنتائج أن تكون مطابقة للنتائج الفعلية.

وكان تحليل أقل تفصيلاً للحرب العالمية الأولى، قد ذكر بأن الألمان في معظم فترة الحرب كانوا يفوقون الحلفاء الغربيين في الفعالية القتالية وفي معدل الاصابات بنسبتين مماثلتين (٢٠٪ و٣ الى ٢)، وان الجنود الاميركيين الجدد لم يجاروا الألمان (الذين كانت تقارير استخباراتنا تصفهم بالمرهقين والمستنزفين) في تفوقهم الا في نهاية الحرب.

وبعد تناولي لنتائج تحليلي للحربين العالميتين الأولى والثانية، بالاشتراك مع اناس آخرين، اكتشفت أمرين:

الأول هو ان الجنود الذين خاضوا معارك برية ضد الألمان في خلال مدة واحدة من الحربين، أو في خلال الحربين معاً، لم تفاجئهم النتائج التي توصلت اليها بالدراسة وليس عبر الخبرة العملية (حيث انني قاتلت اليابانيين في بورما). اذ كانت ردود معظم هؤلاء (وليس كلهم): «وما الجديد في الامر؟ طبعاً كان الجنود الألمان أفضل مما كنا، وإلا كيف استطاعوا القتال مدة طويلة في ظروف غير مؤاتية؟». كما اني وجدت هؤلاء الجنود السابقين الذين قاتلوا الألمان متأثرين أشد التأثر بالمرونة والحنكة والمبادأة التي اظهرها الجنود الألمان على كل المستويات.

والأمر الثاني الذي اكتشفته، هو ان الكثير من الناس الذين لم يشاركوا في الحرب ضد الألمان قد نظروا الى نتائج معركتي النموذجية بمزيج من الشك والتحفظ وزعموا بأنني توسلت التلاعب كعامل مساعد، للحصول على

نتائج من شأنها ان تؤائم واقعاً أُعدّت مفاهيمه سلفاً، ولقد قصدوا من الاشارة الى «عامل التلاعب» بالطبع، إثارة الشكوك حول صحة مقارنتي بين الألمان والحلفاء. وجادلوا بعد ذلك بسؤالهم عن الفارق الذي أحدثه «عامل التلاعب»؟ فالعلم التطبيقي ممعن منذ العام ١٩٤٤ في تغيير طبيعة الحرب، الى درجة باتت الامثلة المأخوذة من هذا التاريخ القديم (١٩٤٤) ضعيفة الصلة، إنها لم تكن معدومة الصلة، بحروب السبعينات.

وبما ان الكثير من الموظفين القابضين على اعتمادات البحوث في البنتاغون كانوا من بين المرتابين بصحة استنتاجاتي فان قناعتي بأهمية ان يجد العسكريون الامريكيون اجوبة على السؤالين اللذين طرحتهما نتائج بحثي (لماذا كان الألمان أفضل منّا في الجندية؟ وكيف حازوا على تفوقهم في القتال؟) لم تتلق سوى النذر اليسير من العون المعنوي، ولا شيء من العون المادي.

وبما أن بحثي ـ الذي شعرت ولا ازال اشعر بأهميته بالنسبة الى امن الولايات المتحدة العسكري ـ لم ينل حقه من الرعاية الرسمية، فقد قررت أن اضع هذا الكتاب.

ومن هنا ستكون الصفحات التالية بمثابة محاولة لتقديم إجابات أولية على الاقل لذينك السؤالين. ومع غياب متطلبات هذا البحث من الوقت والمال، اللذين يحتاجهما الموضوع بسبب رحابته وتعقيده، فإن هذا الكتاب ليس سوى بداية للجواب ولا يمكن اعتباره تحليلاً ناجزاً للكفاءة العسكرية الألمانية، سواء إبان الحربين العالميتين او في الحقبة التي سبقتهما. فهناك سمات شتى للتجربة الالمانية ـ تاريخية، اجتماعية، سياسية، ثقافية، اقتصادية ـ تقتضي عناية اكبر بكثير من العناية التي بذلت في خلال اربع سنوات من الاعداد لهذا الكتاب.

ومع ذلك، فإني احس بقدر من الرضى لاهتدائي الى الجواب الشامل على اسئلتي الاساسية وإنني على يقين بأن الألمان دون غيرهم قد اكتشفوا سرّ إعطاء التفوق العسكري شكلاً مؤسساتياً. وإذا ما بدا بأنني على حق في أي شكل من الاشكال، فلعل زملائي المؤرخين يسبرون أغواراً اعمق، ويجدون

إجابات مفصلة لم تكن إمكاناتي المحدودة لتسمح لي بالوصول اليها. وقبل كل شيء، إذا كانت هناك ثمة مضامين عسكرية امنية ـ كما أعتقد كل الاعتقاد ـ متعلقة بمجالات الادارة والتدريب ووضع القرار، فان علينا ان نتحرى بأنفسنا عن الأجوبة بكل همة ونشاط.

الفصل الأول: الاساطير المتضاربة

النزعة العسكرية والانضباط:

في خلال النصف الاخير من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين، كان ثمة عامل واحد ذو تأثير ثابت على الشؤون الاوروبية، هو التفوق العسكري البروسي ـ الألماني. أما العوامل الاخرى ـ كاحتلال البحرية البريطانية مركز الصدارة، وقوة اميركا الاقتصادية المتنامية، وصعود اليابان السريع في شرقي آسيا ـ فقد تراوحت أهميتها في حسابات دبلوماسيي العالم بين مد وجزر. في حين كان جبروت ألمانيا العسكري، دائماً موضع إجلال ومبعث خوف، حتى وإن كانت قوة ألمانيا العسكرية الحقيقية ضعيفة، كما كان الحال في العقد الذي اعقب الحرب العالمية الأولى مباشرة.

ولم يحدث منذ عصر «اسبارطة» أن اقترن اسم دولة او شعب بالنشاط العسكري كما حدث بالنسبة الى بروسيا والشعب البروسي (أو الامبراطورية الالمانية والشعب الألماني الخاضعين لبروسيا بعد العام ١٨٧١). وكان هذا الامر صحيحاً، رغم حقيقة ان كبريات القوى الاوروبية الاخرى، خاضت في خلال السنوات المئة والثلاثين التي اعقبت الحروب النابليونية عدداً كبيراً من الحروب لم تخضه بروسيا ـ ألمانيا.

وقد عززت شهرة النزعة العسكرية البروسية تلك معتقدين شائقين أسهما في خلق افكار مسبقة خاطئة بقدر ما هي ثابتة، عن الألمان والخصائص الألمانية.

يقول اول هذين المعتقدين بأن النزعة العسكرية عنصر متأصل من عناصر شخصية ألمانيا القومية التي يصفها معجم التراث الاميركي «بالتمجيد لمثل طبقة عسكرية محترفة» وهي حقاً سمة طبيعية منسحبة عملياً على شعب الدولة البروسية ـ الألمانية. ويقول المعتقد الثاني بأن النظام العسكري البروسي قد ارتكز على انضباط قاس صارم، قدم جنوداً جديرين وإنما بآفاق محدودة، ومتماسكين وإنما بغير مرونة. ومن هذين المعتقدين تحاك شخصية الجنود الألمان المتماثلين في البزات العسكرية وفي مشيتهم الشبيهة بخطوات الأوزة، الذين سرعان ما تُحبط مقدرتهم الفائقة على اداء المهام الروتينية دون غيرها، أمام رجال فطنين، ذوي خيال خصب، ينحدرون من أصل أنكلو ـ ساكسوني أو من أصل لاتيني. وقد ظهرت هذه الصورة بوضوح، وبتوكيد ساخر، في عروض سينمائية وتلفزيونية كثيرة من ابرزها مسلسل «أبطال هوغان» Hogan's Heroes.

ولعل المعتقد الأول، رغم ما رافقه من تبسيط مفرط، راسخ في أذهان معظم الاميركيين: «الألمان، كما نراهم، عسكريون بفطرتهم، وجنود ممتازون بطبيعتهم». والمعتقد الثاني، رغم تبسيطه المفرط كذلك، لا يقل رسوخاً في الأفكار التي يحملها معظمنا «الألمان المنظمون المتحجرون يظهرون في احسن أحوالهم عندما لا تستدعي الحاجة الى الخيال والمبادأة». ومن هنا يتراءى بأن في المعتقدين دعماً للرأي الجاهز (المقولب).

ولكن هل هذا ممكن؟ هل يعقل أن يكون جندي بلا خيال او مبادأة جندياً صالحاً يتقن فنون الحرب، ويستحق التبجيل لتفوقه العسكري؟ لو توقفنا للحظة واستعرضنا متطلبات المعركة والحرب، والمزايا التي أدت الى انتصار عسكري في صفحة من صفحات التاريخ، لتبيّنا بأن هناك تناقضاً جوهرياً بين هذين المعتقدين. وبكلمة اوضح: إن الأهمية البالغة للبرهان

التاريخي تتمثل في استحالة تجسيد أي من المعتقدين فكلاهما مدعوم بعدو جبار للتاريخ اسمه نصف الحقيقة[1].

ويشير التاريخ الى انه حتى منتصف القرن ١٨ لم تكن تُعرف للبروسيين أو للألمان بشكل عام شهرة عالمية في الموهبة العسكرية الخاصة. والواقع ان الفرنسيين والسويسريين كانوا يملكون ما يقنع بتسميتهم أصحاب الجدارة العسكرية الخاصة، من دون أن يتردد أوروبيو القرن الثامن عشر في وضعهم بأنهم أكثر أمم القارة الأوروبية «عسكرية» ومن المستطاع في هذا السياق إثبات «عسكرية» البريطانيين أو الإيرلنديين، أو الاسكتلنديين، او السويديين، او الاسبان أو الأتراك أو المغول، أكثر مما يمكن إثبات «عسكرية» الألمان قبل حوالى العام ١٧٥٠.

لقد كان الاغريق أول من تعاطى مهنة المرتزقة في أوروبا وكان أفضل المحترفين لمهنة القتال في خلال العصور الوسطى «السرايا الحرة» الانكليزية، التي كانت رهن إشارة أي حاكم اوروبي يحتاج الى قليل من المحاربين المنظمين المعروفين بالبأس والحنكة. كما كان المرتزقة في إيطاليا، الذين كانوا يستخدمون الى جانب الايطاليين مرتزقة انكليزاً، والماناً، وفرنسيين، يتمتعون بنشاط عال كما كانت زمرهم المسلحة نشطة أيضاً وما كان اختفاء أثر «السرايا الحرة» عن المسرح الأوروبي مع تقوض النظام الاقطاعي في انكلترا الا لاسباب تتعلق جزئياً بالاجتماع والسياسة والاقتصاد (وبقدر قليل جداً من الاسباب العسكرية). فانتقلت مهنة تأجير الجنود من المرتزقة الانكليز الى غيرهم، والى المرتزقة السويسريين تحديداً، الذين ربما كانوا افضل رجال الاعمال العسكريين قاطبة. أما المرتزقة الايطاليون فقد خبا بريقهم امام السويسريين المتفوقين والفرنسيين الذين هزموهم عدة مرات ابان غزوهم لايطاليا. وظل السويسريون محتفظين بمكانتهم بالرغم من ازدهار تجارة الجنود المرتزقة في ألمانيا إبان حرب الثلاثين سنة. وتجدر الملاحظة بأن المرتزقة الألمان Lands knechte قلّدوا السويسريين في بداية بروزهم، وتعلموا على هؤلاء الجبليين الاشداء الكثير من دروس الانضباط والتدريب.

(١) The author must give credit for this epigram to Sewell Tyng, in his masterly *The Marne Campaign* (New York: 1935).

وقد أغاظ الرماحين السويسريين ان يقلدهم الألمان في تكتيكهم وتقنيتهم، وأن ينافسوهم اقتصادياً. من هنا كانوا دوماً متحفزين لمقارعة وحدات المرتزقة الألمان لكي يظهروا للبلاطات الأوروبية بأن لا شيء يضاهي «بضاعة» سويسرا. ومما يثير الانتباه خلو التاريخ المدون من واقعة تبرهن على ان وحدة من المرتزقة الألمان كانت قادرة على تحطيم قوة سويسرية مساوية لها في الحجم. اما السويسريون فكانوا مظفرين بصورة دائمة، او متعادلين مع اخصامهم في اسوأ الاحوال[٢].

ولم يتميز المرتزقة الألمان عن غيرهم في شيء، ولكنهم ـ لاسباب اقتصادية في معظمها ـ واصلوا تكسبهم حيث توقف الأخرون. وكان من البدهي ان يحرص صغار الامراء الألمان على مستوى مرتزقتهم من حيث التدريب والانضباط والتعداد، يوم كانت تجارة الارتزاق لا تزال على اشدها، وكان الانتاج النوعي لا يزال يعني مزيداً من المبيعات بحكم ندرة النقد في ألمانيا القرن الثامن عشر.

ولا مجال للشك في أن وجود تقليد عسكري ألماني حديث يدين جزئياً لاستمرار تجارة الارتزاق العسكري حتى القرن الثامن عشر في ألمانيا، لكنه يرجع في أصوله بصورة مباشرة تقريباً الى جيوش الحكام الاوائل من اسرة «هوهنزولرن» البروسية، والى الطريقة الفريدة التي استخدمت فيها تلك الجيوش على يد الملك البروسي فريدريك الثاني الكبير. ومع ذلك، فإن جيشاً بروسياً مماثلا لجيش فردريك الثاني في كل شيء، وكان يعمل بقيادة فريدريك وليام الثالث،قد تعرض الى هزيمة مهنية حين حاول في سنة ١٨٠٦ تلقين حاكم فرنسي غرّ بعض الدروس. وكان نابليون هو ذلك الحاكم الغرّ الذي دمر جيش فريدريك وليام في معركة استغرقت يوماً واحداً على أرض «بينا» و«أورشتادت». وكيلا تعتبر تلك الهزيمة استثناء، وجب التذكر بأن نابليون أحرز بعد ذلك بتسع سنوات (قبل معركة واترلو بيومين) انتصاراً مبيناً على جيش بروسي متفوق عددياً في «ليني».

(٢) See Charles Oman, *A History of the Art of War in the Sixteenth Century* (New York: 1937).

ومن هنا نجد أن التاريخ لا يدعم فكرة وجود الكفاية العسكرية الألمانية الفريدة قبل القرن الثامن عشر، وينوّه بأن التفوق البروسي بين العامين ١٧٥٠ و١٨١٥ كان نسبياً في أحسن الأحوال. كما لم يَرَ المعاصرون بين الألمان جنوداً متميزين فالعسكرية البروسية ـ الألمانية في الواقع، والى حد كبير صنيعة القرن التاسع عشر اضافة الى ان مختصين في علم السلوك البشري يؤكدون استنتاجاً تاريخياً مفاده بأن الألمان لا يملكون الخصائص الطبيعية المتأصلة التي من شأنها ان تجعلهم جنوداً متفوقين، رغم ما لديهم من المزايا الثقافية المساهمة في الفعالية العسكرية.

ومن المشوق إجراء مقارنة في النشاط العسكري بين بروسيا ـ ألمانيا وبعض الامم الاخرى في خلال القرن وثلث القرن اللذين أعقبا الحروب النابليونية، من العام ١٨١٥ الى العام ١٩٤٥. اي في خلال الحقبة التي نشأت قبيل شهرة المانيا العسكرية الحديثة. ففي السنوات المئة والثلاثين تلك، اشتركت بروسيا وألمانيا في ست حروب هامة (اثنتان منها صغيرتان)، بالاضافة الى قليل من النشاط العسكري الداخلي في العام ١٨٤٨، وبضع عمليات تدخل غير هامة نسبياً في أماكن اخرى من المانيا، وحملات استعمارية محدودة وراء البحار.

ليس من السهل أن نقارن بين سجل بروسيا ـ المانيا العسكري الحافل بالتجارب، وسجلات امم اخرى كالولايات المتحدة وروسيا، اللتين كانتا منهمكتين طوال حوالى نصف هذه الفترة في نزاعات استيطان حدودية. كما انه من الصعوبة بمكان مقارنة هذا السجل بسجلات دول الاستعمار القديم كبريطانيا وفرنسا، اللتين كانتا غارقتين ايضا في بعض انواع التوسع الاستعماري وعمليات إخماد مقاومة الشعوب التي استعمروها. ولكن اذا اسقطنا هذه النزاعات الحدودية او الاستعمارية، واستثنينا منها اخطر فصولها، غدت المقارنة ممكنة.

كانت فرنسا خلال هذه السنوات قد تورطت في حروب عشر، ست حروب في القارة الاوروبية، وأربع حروب فيما وراء البحار. وكذلك روسيا التي بلغت حروبها ١٣ حرباً، عشر منها نزاعات اوروبية بشكل أساسي،

وبريطانيا، التي انغمست في ١٧ نزاعاً على الأقل كانت تستحق ان تسمى حروباً. وقد توزعت نزاعاتها على النحو التالي:

ثلاثة في أوروبا، أربعة في افريقيا، وعشرة في آسيا (اثنان ضد الصين، اثنان ضد بورما، اثنان ضد افغانستان، واربعة في الهند). اما الولايات المتحدة فكانت في هذه الفترة قد خاضت سبع حروب هامة، اذا ما أضيفت حرب السيمينول الثانية والعصيان في الفيليبين.

ولا ريب في ان الحروب التي شهدتها على نحو متتال كل من روسيا، فرنسا، بريطانيا العظمى، والولايات المتحدة كانت اكثر تلاحقاً وقوة من تلك التي عرفتها بروسيا - المانيا.

فإذا لم يكن الالمان أفذاذاً أو بارزين كجنود مرتزقة، وإذا كانوا بمنأى عن النجاح الدائم في حروب القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر، كانت الحروب التي خاضوها اقل من الحروب التي خاضتها الدول العظمى الاخرى، واذا لم يكن لخاصيتهم العسكرية الفطرية اي سند علمي متين، فبأي منطق نقول بأن الألمان كانوا يتمتعون بالنزعة العسكرية؟

إن النزعة العسكرية الفطرية الألمانية اسطورة حاكتها مجموعة من انصاف الحقائق، وبعض المختارات من الأمثلة التاريخية. ومن الواضح أن هناك عوامل ثقافية اسهمت في تنمية قدرات ألمانيا العسكرية قبل القرن التاسع عشر وفي خلاله، ولكن هذه العوامل بالذات لا تقدر على تقديم تفسير للشهرة العسكرية الألمانية الحديثة، ولا للأداء الفريد الذي ساهم في بناء تلك الشهرة.

تناقض ظاهري تاريخي

قد يصح القول بأن للألمان نزعة الى التنظيم والسلوك المنضبط، بل والصارم. ولكن يستحيل التوفيق بين شهرة الألمان كجنود متميزين (وسجل اداء الالمان العسكري في الحروب الحديثة) وبين التأثيرات الخانقة بالطبع للصرامة والانضباط الحديدي. فهل اكتسب الألمان شهرتهم في التفوق العسكري رغم افتقارهم الى الخيال، ورغم ضعف روح المبادرة لديهم؟

وهل يمكن أن يكون مرد الانتصارات الألمانية الى نوع من انواع الاندفاع العسكري الالماني الساحق، ومرد الهزائم الى غياب الحيلة؟

لا أساس لذلك في السجل التاريخي.

ومع ذلك فإن شهرة الألمان في الصرامة والانضباط، سائدة مثل شهرتهم في التفوق العسكري. فهل جرى جدياً تحريف احدى الشهرتين؟ أم ان هناك عنصراً وسيطاً آخر يفسر هذا التناقض الظاهري ويوفق بين عنصريه؟

إن بالإمكان إيجاد الجواب عند مراجعة تاريخ ألمانيا العسكري الحديث، ولكن قبل ذلك، لعل نظرة واحدة الى ما فعله الألمان في الحرب الأهلية الاميركية تغني عملية المراجعة بمنظور مفيد.

كان الفيلق الفدرالي (الشمالي) الحادي عشر، بقيادة اللواء «أوليفر هوارد» يعرف في اوساط «جيش البوتوماك» بالفيلق الألماني. فقد كان معظم ضباط هذا الفيلق وجنوده من مواليد ألمانيا. وكان مجيئهم الى أميركا نتيجة الفوضى السياسية التي عصفت بألمانيا في العالم ١٨٤٨. وكان العديد منهم قد أدى الخدمة العسكرية في ألمانيا.

وكان جل ما اشتهر به ألمان الفيلق الحادي عشر في «جيش البوتوماك»، اهتمامهم المفرط بالتأنق والنظافة. أما كفاءتهم العسكرية فكانت تعيسة للغاية، كما وضح في معركتي تشانسيلورزفيل وغيتسبرغ(*).

وكان الجنرال «ميد» Meade يفكر في إمكانية حل الفيلق، عندما

(*) Cray, John C., Jr., and John C. Ropes, *War Letters of John Chipman Gray and John Codman Ropes,* Boston: 1927. For instance (on p. 114) Ropes wrote to Gray on May 29, 1863, about Chancellorsville: «The enemy attacked the Eleventh Corps... with a force and suddenness which carried all before them, especially as the German troops showed great cowardice....» On page 145 we read a letter Gray wrote to his sister, Elizabeth, on July 17, about Gettysburg: «The Eleventh Corps... has disgraced itself past redemption.... The feeling against this Corps is... intense in the Army...; no terms are too strong to express their contempt. In spite of all the newspapers say, they did not behave well at Gettysburg (at least the German divisions did not). Their conduct was not so bad as at Chancellorsville, but still it was not even decent. Beside they have the worst reputation for stealing and all manner of outrageous conduct towards the citizens. Many of the men and most of the officers do not wear the Corps badge, though in all the other corps it is universally worn...»

وصلته في أواخر ١٨٦٣ أوامر بارسال فيلقين الى الجنرال «غرانت» في «تشاتانوغا» وكانت مناسبة له لحل مشكلته ضمن تقليد عسكري مشرف. حيث قام بارسال الفيلق الحادي عشر الى الجنرال غرانت. وأعطي الفيلق فرصة اخرى لاظهار كفايته في معركة «لوك أوْت ماونتن». ولكن حالما انتهت المعركة نفذ الجنرال غرانت ما تحاشاه «ميد»، فحل الفيلق، ودمج عناصره في فيلق آخر بغية تذويب طابعه الألماني.

والمثال الآخر على أداء الجنود الألمان ـ الاميركيين في خلال الحرب الأهلية، كما ورد واضحاً في فهرس كتاب «معارك وقادة الحرب الأهلية»، كان في معركة «ريمز ستايشن»، التي وقعت في حزيران (يونيو) ١٨٦٤. فعندما شنت قوات «هيل» الكونفدرالية (الجنوبية) هجوماً قوياً، تفرقت عناصر فرقة «جون غيبون» الثانية من الفيلق الثاني وانهزمت أمام الكونفدراليين. وكان المجندون الاميركيون ـ الألمان القادمون من نيويورك أشد من أساء التصرف بين جنود الفرقة[٣].

وسيكون من المسيء إلى الكثير من الأميركيين ـ الألمان الذين برزوا في حروب أميركا، التلميح بأن هذين المثالين نموذجان يندرج تحتهما الأداء العسكري للأميركيين المنحدرين من أصل ألماني. ولكنهما يلمحان فعلا ـ مثل الكثير من الامثلة الاخرى ـ الى ان الألمان كألمان ليسوا جنوداً فوق العادة. فجنود الفيلق الحادي عشر كانوا ينتمون الى الحضارة نفسها والجذور نفسها التي انتمى اليها الجنود الألمان الذين كانوا في الفترة ذاتها يغزون أوروبا الوسطى.

فإن كان من تفسير للحقيقة التاريخية الخاصة بالتفوق العسكري الألماني، فلا شأن للجنود بذلك، وإنما يعود الأمر الى المؤسسة العسكرية الألمانية. فلنلق إذن نظرة إلى بنية تلك المؤسسة، وكيف خرجت الى حيز الوجود.

(٣) *Battles and Leaders of the Civil War* (New York: 1888), p. 573.

الفصل الثاني: فريدريك الكبير والجيش البروسي

لمحة عامة عن بروسيا

تظهر بروسيا على صفحات التاريخ المسيحي المبكر كموطن للبروس، أو البروسيين، وهم قبيلة من قبائل البلطيق كانت تقيم في الأراضي المتاخمة للزاوية الجنوبية الشرقية من بحر البلطيق. وحدث ان تعرضت القبيلة ومنطقة سكنها في القرن الثالث عشر للغزو، والتنصير، والاستعمار، على يد أخوية الفرسان التيوتونيين الدينية. واستطاع هؤلاء الجنود القساوسة في القرن التالي أن يدرأوا عن بروسيا بقدر قليل او كبير من النجاح، ضغوطات البولونيين السلافيين في الجنوب، والروس السلافيين في الشرق. واصبح الرعايا البروسيون جرماناً في اللغة والثقافة. وبعد هزيمة الفرسان التيوتونيين أمام البولونيين والليتوانيين في معركة «تاننبرغ» (١٤١٠)، فقدت الأخوية اراضيها الواقعة جنوبي نهر الفيستولا، لكنها احتفظت كإقطاعة بولونيا، بالقسم الأعظم من المنطقة الساحلية والداخلية بين نهري فيستولا ونايمان السفلي ـ رقعة جرمانية عرفت بادىء ذي بدء بدوقية بروسيا ثم عرفت فيما بعد بشرق بروسيا.

وفي مقدمة التناقضات الظاهرية لبروسيا الحديثة، انعدام العلاقة النسبية بين اصول الدولة السياسية وبين المنطقة التي حملت اسمها لاحقاً وقد

استهلت بروسيا وجودها السياسي كمنطقة حدودية عرفت باسم «براندنبرغ». وهي مقاطعة مغلقة من مقاطعات الامبراطورية الرومانية المقدسة في شمال شرقي ألمانيا، تتوزع رقعتها بين وادي «إلب» ووادي نهر أودر. ثم ازدادت اهمية هذه المنطقة وثروتها في أوائل القرن الخامس عشر، بعد أن أسند الامبراطور منصب المرغزيف (الحاكم العسكري للمنطقة) إلى النبيل الجرماني الجنوبي المخلص «فريدريك هوهنزولرن» وسرعان ما اضحت «براندنبرغ» ناخبية (Electorate) من ناخبيات الامبراطورية، وارتقى «فريدريك» الى مرتبة الناخب (Elector) وخلافاً لنفوذ «براندنبرغ» في المناطق الجرمانية الشمالية، فانها لم تكن تمتلك مكانة عسكرية خاصة في ظل الرعيل الأول من نبلاء أسرة «هوهنزولرن». بيد أن الصدفة ومتاهات الوراثة العائلية الاقطاعية، جعلت ناخب «براندنبرغ» «جون سيجسموند» يرث دوقية بروسيا في سنة ١٦١٨.

وبدا الجمع بين «هوهنزولرن» وبروسيا في شخص «جورج وليام» (ابن سيجسموند) امراً غير ملائم من الناحيتين السياسية والعسكرية، حيث غدا جورج وليام في خلال السنين الاولى من حرب الثلاثين عاماً اضحوكة عسكرية لألمانيا كلها. فقد كان يفتقر الى القوة العسكرية والتصميم وأهلية القيادة، لذا فانه لم يستطع منع الجيوش الكاثوليكية والبروتستانتية (جيوش الامبراطورية والسويد)، من استباحة اراضيه ساعة تشاء.

خلفاء فريدريك الكبير:

غير ان «فريدريك» (ابن جورج وليام) الذي اصبح ناخباً في سنة ١٦٤٠ صمم على الا تظل «براندنبرغ» ممسحة ارجل على أعتاب ألمانيا. وبما أن كلا من «براندنبرغ» وبروسيا لا تملك حدوداً دفاعية طبيعية، عقد «فريدريك» العزم على بناء جيش لا يعادله في القوة أي جيش مجاور. وكان له ما اراد بفضل بأسه وبراعته، وبات التاريخ يعرفه الناخب الكبير. وقد أخذ عنه ابنه، وحفيده، وابن حفيده بعضاً من مواهبه، وجعلوا حدودهم منيعة، كما كانت عليه حدوده، وتابعوا تعزيز جيوشهم وتحسين مستوياتها، ومحاولة دفع حدودهم بقدر قليل بعيداً عن برلين الواقعة في منتصف الطريق بين «إلب» و«أودر» ليس لرغبة في السيطرة العسكرية، وإنما بسبب حب البقاء

وسط الغابة السياسية لأوروبا الوسطى. وقد كان من حسن حظ براندنبرغ ـ بروسيا، ان يتولى حكمها لأكثر من قرن من الزمان رجال عز نظيرهم في المقدرة والاخلاص، وسبقوا «ليو دوروخر» بزمن طويل في فهم القول المأثور: «البارعون آخر من يتمون عملهم».

وفي العام ١٧٠١، أصبح الناخب «فريدريك الثالث» (ابن فريدريك وليام) ملكاً بموافقة من ليوبولد امبراطور الامبراطورية الرومانية المقدسة. ولكن بما أن براندنبرغ كانت جزءاً من الامبراطورية، فقد رأى «ليوبولد» أن يكون لقب (ملك) الممنوح الى «فريدريك الثالث» متعلقاً بجزء من أراضي «هوهنزولرن» خارج حدود الامبراطورية. وبذلك حمل اللقب «الملك في بروسيا» فريدريك الأول. الى جانب لقبه الاساسي «ناخب براندنبرغ».

وكان الملك الثاني «في» بروسيا، فريدريك وليام الأول، واحداً من أغرب شخصيات التاريخ، وأغرب ما يعرف به أمران: الأول احتفاظه برهط من الرجال العمالقة كأعضاء في الحرس الملكي. والثاني إصراره على تنفيذ حكم بالموت، كانت محكمة عسكرية قد أصدرته ـ بتوجيه منه شخصياً ـ بحق ابنه البكر، الذي اعتبر «فاراً من الجندية» فيما كان يحاول اللجوء الى «انكلترا» هرباً من عتو أبيه.. وقد جاء الامر الثاني مصدقاً لرأي فريدريك وليام القائل بأن ولي العهد ضعيف ضعف المخنثين، وبأنه لا يستحق ان يكون خلفاً لقافلة الملوك العسكريين. وفوق ذلك كله، استطاع فريدريك وليام خلق افضل جيش مدرب في أوروبا، مع الحرص على تفادي استخدامه.

فريدريك الكبير وجيشه:

فريدريك الثاني، هو ولي العهد الفاشل الذي كاد ان يفقد رأسه، ويعرفه التاريخ باسم «فريدريك الكبير». ففي العام ١٧٤٠، حمل لقباً لا لَبَس فيه: «ملك بروسيا» (وليس «ملك في بروسيا»). وكان بلا جدال، واحداً من بين سبعة أو ثمانية من عباقرة التاريخ العسكريين. بيد أنه أُصيب في صحته ومعنوياته في العام ١٧٦١ بعد أن خاض بشيء من النجاح سلسلة من الحملات الدفاعية، ضد جيوش متفوقة على جيشه بنسبة تناهز الخمسة الى

واحد. وبات وطنه آنذاك على شفا الانهيار وبدا الموقف ميؤوساً منه. ولم تنقذ فريدريك الثاني عبقريته - رغم انها كثيراً ما اسعفته في سنوات صعبة سلفت - وإنما انقذته وفاة امبراطورة روسيا التي كانت من أعند اعدائه.

لقد عمد القيصر الجديد «بطرس الثالث» الى مسالمة فريدريك بدافع من الاعجاب به، ووقف الى جانبه ضد أعدائه الآخرين. وأبرز ما تبينه هذه الحقائق، هو أن «فريدريك الثاني» لم يكن رجلاً خارقاً رغم مواهبه العسكرية الفريدة. وينطبق هذا القول على جنوده الذين امتازوا عن أعدائهم، قبل ان يُفتك بمعظمهم، بقليل من جودة التدريب والقيادة، وبكثير من حسن الإدارة.

ويقول «هيربرت روسينسكي» في معرض تحليله التاريخي الرائع «الجيش الألماني»(٤) «تعود نشأة الجيش الألماني الى فريدريك الكبير». ولكن هذا الجزم - المقبول على نطاق واسع - لا يصمد امام النظرة الفاحصة. إذ يستطيع المرء أن يحاجج بأن الجيش الذي اتقن فريدريك قيادته، كان من صنع أبي جدّه الكبير الناخب فريدريك وليام، أو مَن صنع أبيه فريدريك وليام الأول، وأن فريدريك الثاني قد ورثه في كلتا الحالين، وادخل عليه تغييرا طفيفاً. وبغض النظر عمن أوجد هذا الجيش. فقد تحطم شر تحطيم على يد «نابليون»، الذي كان من المجددين في فنون القتال. ثم نهض من بين الحطام جيش بروسي جديد، ومع انه استوحى في نهوضه الكثير من ذكرى انتصارات فريدريك العظيمة، فمن الدقة ان تُعزى أصوله الى نابليون أو - بتعبير أدق - الى ردود فعل البروسيين الذين اخذوا عن عدوهم الامبراطور الفرنسي نظام حرب جديدا.

سمعة الجيش البروسي العسكرية في القرن الثامن عشر:

وبرغم تلك الوقائع الدامغة، لم يكن لفريدريك الكبير، وحكام الامارات الالمانية في القرن الثامن عشر تأثير كبير على من تلاهم من مصلحي الجيش الروسي وحسب، وإنما على تاريخ المانيا العسكري

(٤) Herbert Rosinski, *The German Army* (New York: 1940), p. 61.

الحديث أيضاً. وقد أدت عدة تطورات تاريخية الى وضع الامارات الصغيرة في غرب المانيا موضع المحتكرين فعلاً لتجارة المرتزقة في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر. وإذا ما أُضيفت الى هذه الحقيقة جهود ملوك «هوهنزولرن» الاوائل في تحسين جيشهم، نجد تلك التطورات مكنت البروسيين من خلافة السويسريين كأشد جنود أوروبا الوسطى مدعاة للاحترام.

ولقد كتب فريدريك نفسه يقول: «يكمن الجزء الاعظم من قوة الجيش البروسي في انتظامه الرائع الذي اصبح عرفاً بحكم العادة، وفي طاعته العمياء وشجاعة جنوده. . فالانضباط البروسي يجعل هؤلاء الجنود قادرين على تنفيذ أصعب المناورات، ومضاهاة العدو في الصبر والثبات. . . والبروسيون متفوقون على أعدائهم في الثبات، ما دام ضباطهم الذين لا يعرفون مهنة يحترفونها سوى الجندية أو ثروة ينشدونها سوى اسلحتهم، ينشّطون انفسهم بطموح وجسارة لا شك فيهما، ذلك لأن الجندي يثق بنفسه، ويعتبر المسألة تشريفاً لا يتنازل عنه البتة»(٥).

وثمة دليل آخر على خصوصية سمعة بروسيا والبروسيين في القرن الثامن عشر، نجده في كتاب المركيز «أونوريه دو ميرابو» «العرش البروسي في عهد فريدريك الكبير، ١٧٨٨» حيث يقول: «الحرب صناعة بروسيا الوطنية» كما أن هنالك عبارة مشهورة لواحد من كبار المسؤولين البروسيين، وهو البارون «فريدريك ليوبولد فون شروتر»، الذي قال بعد ذلك بعشر سنوات: «ليست بروسيا بلداً ذا جيش، وإنما هي جيش ذو بلد».

وهكذا كانت هيمنة بروسيا العسكرية في أوروبا الوسطى أمراً مسلماً به في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، سواء داخل ألمانيا أو خارجها. ولكن أدرك بعض المفكرين أيضاً بأن تلك الهيمنة مؤقتة أساساً، لأنها كانت وليدة مواهب فئة لأربعة عسكريين عظام من اسرة «هوهنزولرن»، ولأنه لم

(٥) «Frederick the Great's Instructions to His Generals» in *Roots of Strategy*, edited by Thomas R. Phillips (Harrisburg, Pa.: Military Service Publishing Co., 1940), pp. 312, 313. The exact date this was written is not certain; the first edition of this document was issued secretly to Prussian generals in 1747.

يكن من المتوقع ان تدوم بعد موت «فريدريك الكبير»، آخر هؤلاء الاربعة واعظمهم. فعلى سبيل المثال أورد المنظّر العسكري الفرنسي المعروف «الكونت جاك دو غيبير» في كتابه «دفاع عن المذهب العسكري الحديث» في العام ١٧٧٩: «في تلك الدولة التي ندعوها دولة عسكرية، لأن ملكها جندي قدير.. . يدينون بنجاحاتهم لجهل أعدائهم وفطنة ملكهم ولكامل ما ابتدعه ذلك الملك من علم جديد في المناورة. وإذا ما خَلَفَ الملك الذي تمد عبقريته وحدها جهاز الحكم بأسباب الحياة، ملك ضعيف، غير موهوب، سنرى الجيش البروسي يتفسخ ويذوي في غضون سنوات قلائل، وقد نرى تلك القوة الزائلة وهي تنضم من جديد الى القوى ذات المنزلة الوسطى، أو تدفع ثمن سنوات مجدها القليلة غالياً»(٦).

ولا شك في أن الرجال الذين كانوا مسؤولين عن محاولة النهوض من رماد الهزيمة بجيش بروسي جديد، قد اطلعوا بإمعان على تلك الكلمات التي تحمل طابع النبوءة بل ويمكن الجزم بأن السبب الرئيسي لتفوق الجيش الالماني الحديث ـ خليفة ذلك الجيش البروسي الجديد ـ عائد إلى ان صانعيه قد تعمدوا التأكد من أن جيشهم الجديد ليس ذلك الجيش الذي أورثه فريدريك الكبير لخليفتيه.

وكما تنبأ «غيبير»، كان خليفتا فريدريك الكبير ـ ابن اخيه فريدريك وليام الثاني (الذي لم ينجب اولاداً)، وحفيد أخيه فريدريك وليام الثالث ـ يفتقران الى قوة الارادة والجدارة العسكرية اللتين تميز بهما فريدريك وأبوه، وجد أبيه. فقد ورثا عن فريدريك ما ورثه فريدريك عن أسلافه وأعني بذلك أروع جيش في أوروبا. ولكن معظم ذلك الجيش قد تحطم، كما رأينا، على يد نابليون في «يينا» و«أورشتادت». اما بقاياه التي لم يستطع «نابليون» ارغامها على الاستسلام نتيجة مطاردته لها عقب معركة «يينا»، فقد سحقت في بداية العام التالي في معركة «فريدلاند».

---

(٦) Jacques A. H. Guibert, *Defense of the Modern Military System* (Paris: 1805), Vol. I, p. 91.

THE GROWTH OF BRANDENBURG-PRUSSIA, 1600-1815.

خارطة توسع براندنبيرغ ـ بروسيا ١٦٠٠ ـ ١٨١٥

الفصل الثالث: المصلحون وجيشهم الجديد

شارنهورست:

رجل واحد كان مسؤولاً أكثر من سواه عن بناء جيش بروسي جديد على انقاض الجيش السابق، هو غيرهارد يوهان ديفيد فون شارنهورست. ومن مفارقات بروسيا ان شارنهورست لم يكن بروسي الأصل، فلقد ولد في ١٧٥٥/١١/١٢ في «بوردينو»، من أعمال الإمارة الصغيرة «ليب»، التي تبعد مسافة ١٥ ميلاً شمالي «هانوفر»، لأب مزارع سبق له ان خدم كضابط صف في سلاح الفرسان الهانوفري. وبعد أن درس في مدرسة الكونت «ڤيلهلم فون ليب» الحربية، التحق بفوج الفرسان الهانوفري الثامن برتبة مرشح ضابط، وما عتم ان اصبح ملازماً ثانياً في عام ١٧٨٤. ومكنته قدراته ـ التي لم يُعترف بها في اوساط جيش فريدريك الكبير الارستقراطية ـ من نيل ترقية غداة حملات الثورة الفرنسية، (١٧٩٣ ـ ١٧٩٤) في بلجيكا. وسرعان ما اصبح ضابط الأركان الرئيسي لقائد الجيش الهانوفري وهو في بداية العقد الرابع من العمر.

وبحلول السلام في أوروبا، عقب توقيع اتفاقية «لونيڤيل»، في بداية العام ١٨٠١، أدرك «شارنهورست» بأن فرص الارتقاء في الجيش الهانوفري اصبحت قليلة. وقد جعلته تجربة القتال ضد الفرنسيين في بلجيكا، وقراءاته

عن حملات الجنرال الفرنسي «بونابرت» في ايطاليا ومصر، يتحقق من ان الفرنسيين قد بدأوا ثورة عسكرية تشبه في دلالاتها الثورتين السياسية والاجتماعية اللتين عصفتا بالباستيل وأطاحتا بملكية اسرة «بوربون». ورأى بكل وضوح ان بروسيا هي المصدر الوحيد للقوة العسكرية في المانيا لموازاة القوة الفرنسية. فأخذ يعبر عن قناعته تلك في كراسات قام بتوزيعها على أقرانه من الضباط. وبدأت كتاباته حول الأمور العسكرية تجذب اهتماماً كبيراً، ليس في بروسيا وحسب، وإنما في ألمانيا كلها.

وفي العام ١٧٩٦، ارسلت «هانوفر» ١٥ ألف جندي للمساهمة في حماية حدود الامبراطورية من الفرنسيين وكان «شارنهورست» في عداد القوة التي خدمت تحت قيادة القائد البروسي «كارل فيلهلم فرديناند» دوق برونزفيك»، مما سمح له بالاحتكاك بالضباط البروسيين من وقت الى آخر. وفي كانون الثاني (يناير) ١٧٩٧، دُعي «شارنهورست» للخدمة في الجيش البروسي، برتبة رائد وبراتب اكبر بكثير مما كان يتقاضاه في الجيش الهانوفري. وكان رد «هانوفر» على ذلك ترقية شارنهورست الى رتبة مقدم وزيادة راتبه. فبقي في «هانوفر» بيد ان البروسيين كرروا عرضهم، فوافق بشرط أن يحتفظ برتبته العسكرية، ويضمن راتباً تقاعدياً محترماً، ويحظى بلقب نبيل. فعُين ضابطاً برتبة مقدم في فيلق مدفعية الميدان البروسية، والحق بفوج المدفعية الثالث في برلين، ثم رفع الى طبقة النبلاء في شهر كانون الأول (ديسمبر) ١٨٠٢.

وفي البداية، اقتصر عمل «شارنهورست» على شؤون المدفعية، لكن ما لبث ان نقل إلى أركان القيادة العامة، وهي هيئة الاركان العسكرية الرئيسية المساعدة للملك. وطُلب منه اعادة تنظيم معهد الضباط العسكري في برلين. وسرعان ما رفع من مستوى المقررات التعليمية، محولاً المعهد في العام ١٨٠٤ الى اكاديمية محترمة لصغار الضباط. كما انه أنشأ بموافقة من رئيس القيادة العامة الجنرال «ليفن فون غويزاو» جمعية بحث عسكري خاصة بالضباط المقيمين في برلين وضواحيها.

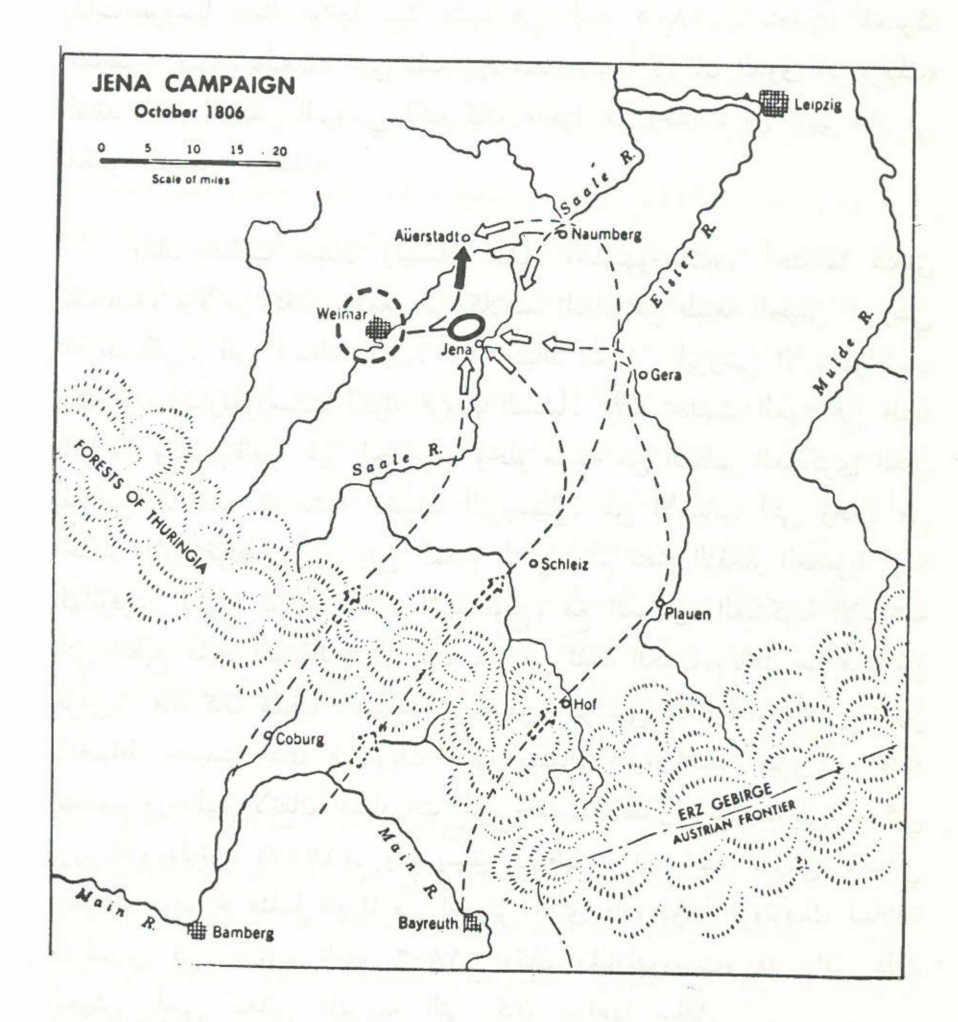
وبالرغم من ان «شارنهورست» استطاع ان يثير، على صعيدي التنظيم

والعقيدة العسكرية، اهتماماً كبيراً بين صغار الضباط البروسيين - بمن فيهم تلميذه في الاكاديمية، كارل فون كلاوزفيتس، فقد وجد بأن تقدمه بين كبار الضباط كان ضئيلاً. وفي آذار (مارس) ١٨٠٤ عين نائباً لرئيس القيادة العامة أسندت اليه قيادة اللواء البروسي الثالث في الجزء الغربي من بروسيا. وحين بدأت بروسيا تعبئة قواتها شيئاً فشيئاً في العام ١٨٠٥، استعداداً للمعركة المحتومة ضد نابوليون، عُين «شارنهورست» رئيساً لاركان الدوق «برونزفيك» القائد العام للجيش البروسي لكنه كان عاجزاً عن إحداث اي تغيير هام في تفكير الجيش وعقيدته.

وكان هنالك سببان رئيسيان لفشل «شارنهورست»، أحدهما متعلق بشخصه، والآخر متعلق بالمعهد، وكلاهما نابعان من طبيعة الجيش البروسي الفريدريكي. ففي المقام الأول، كان ضباط الجيش البروسي الارستقراطيون يحتقرون «شارنهورست» لكونه قروي المنشأ، ولأنه حديث العهد في طبقة النبلاء. وكان مظهره غير الجذاب، وخلو مشيته من المظهر العسكري الذي يفترض ان تتميز به مشية الضباط البروسيين، من الأسباب التي زادت من احتقار الارستقراطيين له. وفي المقام الثاني، لم تتفق الأفكار العصرية لهذا الهانوفري المولع بقراءة الكتب اشد الولع، مع المبادىء العسكرية الاساسية التي انطبع عليها الضباط البروسيون بدلاً من ثقافة الكتب، لاكثر من قرن من الزمن. فقد كان هدف الضباط البروسيين الرئيسي إبقاء جنودهم خاضعين لانضباط حديدي كان فريدريك وأبوه يعلقان عليه أهمية كبرى، وإعداد انفسهم ورجالهم لاتقان المناورات التي حققت انتصار فريدريك في معركتي «روزباخ» و«لوتن» (١٧٥٧). ولم يسبق ان ظهرت انضباطية الجيش الالماني وصرامته بوضوح مثلما ظهرتا في الجيش الذي قاده دوق برونزفيك لملاقاة الفرنسيين في خريف العام ١٨٠٦. وكان «شارنهورست» قد رافق ذلك الجيش بأسى ليعاني الهزيمة التي كان يتوقعها سلفاً.

يينا - أورشتادت

أُصيب دوق «برونزفيك» بجراح قاتلة في معركة «أورشتادت» (١٤/١٠/١٨٠٦)، وما أن غادرت بقايا متناثرة من الجيش البروسي أرض



خارطة حملة يينا

المعركة، لكي تنضم الى قوات اخرى كانت تتجه بعيداً نحو الجنوب هرباً من جحيم «يينا»، حتى انسحب «شارنهورست» مرغماً من خط المناوشة الفرنسي مباشرة، ثم انضم الى فرقة الجنرال «غير هارد ليبريشت فون بلوخر»، التي كانت من الوحدات القليلة التي حافظت على شيء من تماسكها. وتقهقر «بلوخر»، الذي كان يُعرف بحبه للقتال وببأسه الشديد، في الاتجاه الشمالي الشرقي، ومن ثم في الاتجاه الشمالي الغربي قاصداً «لوبيك»، فيما كانت قوات المطاردة الفرنسية تلاحقه عن كثب. وبسبب نفاد الذخيرة، أُرغم «بلوخر» و«شارنهورست» على الاستسلام في ١/٧. وفي هذه الاثناء كانت بقايا هزيلة من الجيش البروسي قد تراجعت مع الملك «فريدريك وليام» باتجاه شرق بروسيا، حيث انضم اليها جيش روسي كان قد تأخر كثيراً عن نجدة حلفائه البروسيين.

وفي عملية تبادل اسرى جرت بعد ذلك بأسابيع قليلة، أُطلق سراح «شارنهورست»، فالتحق بالفيلق الوحيد، المتبقي من الجيش البروسي تحت قيادة الجنرال «انطون ليستوك». وفي اثناء خدمته كرئيس للأركان في فيلق «ليستوك»، الذي كان آنذاك جزءاً من جيش الجنرال الروسي «ليفين فون بينغسن»، استطاع «شارنهورست» ان يضمن وصول البروسيين الى ارض معركة «ايلو» في الوقت الملائم، الامر الذي حول هزيمة البروسيين الى معركة غير حاسمة. كما انه استطاع خلال دفاع عن «كونبغزبرغ» ابان حملة «فريد لاند» المشؤومة ان ينال مزيداً من استحسان الملك «فريدريك وليام الثالث» الذي طالما راقبه.

شتاين ولجنة اعادة التنظيم العسكرية:

ومن هنا، لم يكن امراً مدهشاً ان يتسلم «شارنهورست» (الذي اصبح برتبة لواء) رئاسة لجنة اعادة التنظيم العسكرية، التي عينها الملك بعد الاتفاقية المهينة «تيلسيت»، التي عقدت في ١٨٠٧/٧/٢٥.

وقد كان معظم اعضاء لجنة اصلاح الجيش نماذج من ضباط الجيش البروسي القديم: ضباط ارستقراطيون ذوو ثقافة متدنية، يهيمن عليهم عادة

يونكر(*) أو اكثر من شرق بروسيا، وقناعة بان الحل الناجع لمجمل العلل العسكرية كامن في الانضباط الأشد والعقيدة الأصلب، ولم يفد «شارنهورست» حدوث ما كان يتوقعه بألم، أو بلاؤه في الشدائد، في اقلال شكوك هؤلاء الضباط حياله. ولكن اثنين من أعضاء اللجنة - غير بروسيين مثل شارنهورست - شاركاه في الأصرار على تحطيم الأفكار البالية، والاصرار على ضرورة أن يكون الاصلاح جذرياً وليس تجميلياً. وكان أحد هذين العضوين رئيس الوزراء البارون «فُم أن تسوم شتاين» العضو المدني الوحيد في اللجنة، والذي استغرقت مساعيه الضخمة لاصلاح الجهاز الحكومي البروسي بأكمله معظم وقته بحيث لم يتبق له سوى وقت قصير للاشتراك في المناقشات العسكرية. ومع ذلك، فقد اراد من إصراره على حمل عضوية اللجنة، أن يؤكد اندفاعه الى اتخاذ خطوات جديدة في القضايا العسكرية. أما العضو الثاني فهو العقيد «أوغست فلهلم انتون كونت نيدهاردت فون غنايزناو» وكان المتحدر من امارة «هدرناسو» قد تدرب على العمل في ادارة الامبراطورية. ثم دخل الوزارة البروسية وهو لا يزال في مقتبل العمر، وترقى في مختلف مراتب الحكومة المحلية والاقليمية، حتى اصبح الوزير الاقتصادي الرئيسي في البلاط، ومستشار الملك في الشؤون الاقتصادية في العام ١٨٠٤. ولقد انتقل في العام ١٨٠٦، أي بعد معركة «يينا» من «برلين» الى «كونغزبرغ» وسرعان ما اصبح في شتاء ١٨٠٦ - ١٨٠٧ اكثر اعضاء الحكومة المتبقين في «كونغزبرغ» نفوذاً. ولكنه حين ابلغ الملك فريدريك وليام في بداية ١٨٠٧ بضرورة عدم تدخل أفراد حاشيته المقربين إليه في شؤون الوزراء، ثارت ثائرة الملك وأمر بطرده. وبعد اتفاقية «تيلسيت»، ألح نابليون على فريدريك وليام بطرد رئيس وزرائه، ووضع «شتاين» مكانه. (من الواضح أن نابليون زُوِّد بمعلومات تتعلق بكفاءة شتاين وبأصله غير البروسي، وبالتالي لم يكن يقلقه

(*) مصطلح يونكر Junker تحريف لمصطلح «يونغهر» Jungherr (السيد الصغير)، الذي كان يطلق على أبناء طبقة مالكي الأراضي الذين كانوا يقيمون على املاك العائلة. وقد استخدمت لِلإشارة بصورة ساخرة في الغالب، الى اعضاء طبقة مالكي أراضي الالب الشرقية East Elbe. وكانت هذه المجموعة المحمية بالقانون مصدراً رئيساً لقادة الجيش البروسي وللبيروقراطية المدنية. وقد تلازم المصطلح في الواقع مع بعض الالقاب العسكرية، فكلمة «فاهنينيونكر» Fahnenjunker كانت تعني ضابط صف، ولا تزال هذه الكلمة لقباً يطلق على ضابط الصف بالمعنى نفسه في الجيش الالماني الغربي بعد مضي ٦ اشهر على دخوله الخدمة.

تفاني شتاين الوطني وما تضمنته افكاره بشأن إصلاح الحكومة البروسية).

وعضّ فريدريك وليام على جرحه، ونفذ ما طلبه نابليون، وكان بذلك قد اتخذ أهم خطوة يمكن اتخاذها إزاء إدامة حكم اسرة «هوهنزولرن» في بروسيا لأكثر من قرن جديد.

كان «غنايزناو» ينحدر من اسرة جنوب المانية عسكرية نبيلة ولكن فقيرة، تربطها بالنمسا أوثق الصلات. وقد ولد في «شيلدا» القريبة من «تورغاو» بتاريخ ١٧٦٠/١٠/٢٧. وكان ابوه ضابط مدفعية في الجيش الامبراطوري (أو بالأحرى النمساوي). وبعد فترة وجيزة من الدراسة في جامعة «إرفورت» خدم «غنايزناو» في فوج الخيالة النمساوي لمدة سنتين (١٧٧٨ - ١٧٨٠)، وانتقل في العام ١٧٨٠ الى امارة «أنسباخ»، التي كان اقتصادها يرتكز على تجارة المرتزقة بشكل اساسي، للخدمة في صفوف مرتزقتها، ولما يتجاوز عمره العشرين عاماً. وفي العام ١٧٨٢ أرسل الى كندا مع فرقة مرتزقة كانت قد أُجّرت للحكومة البريطانية في الاشهر الاخيرة من حرب الاستقلال الاميركية. وحين وصلت الفرقة الى «هاليفاكس»، كانت الحرب قد وضعت أوزارها. وعاد «غنايزناو» الى «أنسباخ» بعد ان قضى مدة سنة وبضع السنة في أميركا الشمالية.

وفي عام ١٧٨٥، تقدم «غنايزناو» من الملك «فريدريك الثاني» مباشرة بطلب للحصول على موقع في الجيش البروسي، ونال مراده في السنة التالية بعد مقابلة مع الملك. وظل لمدة عشرين عاماً قائد سرية مغموراً في حامية «سيليزيا» ثم نال شهرة كقائد سرية ممتاز، لكن لم يتسنّ له الترقي، وحين وقعت معركة «يينا» كان لا يزال قائد سرية. وفي «يينا» برز هدوء اعصابه ورباطة جأشه حيال الهزيمة، حيث استطاع الانسحاب مع كتيبة من ساحة القتال بانتظام حسن رغم إصابته بجروح. وكان في عداد عناصر الجيش التي فرت بعد وقوع الكارثة الى شرق بروسيا. وقد عادت عليه شهرته في حسن تراجعه بالحصول على رتبة رائد، واختير في نيسان (ابريل) ١٨٠٧ للسفر بحراً ولتسلم قيادة البلدة البوميرانية الساحلية المحاصرة «كولبرغ» Kolberg،

حيث نجح في صد هجمات الفرنسيين المتكررة الى ما بعد اتفاقية تيلسيت »، فنال على أثر ذلك شعبية كبيرة وحظوة ملكية، بصفته القائد البروسي الوحيد الذي انتصر في الحرب.

ويصف «روسينسكي» هذا الرجل، الذي قُدّر له ان يلعب دوراً رئيسياً في إعادة الحياة الى الجيش البروسي بقوله:

«اختلف «غنايزناو» عن شارنهورست اختلافاً كبيراً كفرد، بقدر ما التقى معه في سمات شخصيته وقناعات جوهرية ككرهه لنابليون وإيمانه بانبعاث بروسيا، فكان بذلك يشكل مكملاً مثالياً لرئيسه. لقد كان عسكرياً عظيماً مؤثراً، كأفضل ما يكون المحارب البطل. وكانت خططه الجريئة وتنفيذها الفعال قادرة على فرض نفسها في ميدان القتال المفتوح بفضل حماسته وحيويته وسرعته في اقتناص الفرصة العابرة. لقد كان أي شيء ما خلا ان يكون مجرد جندي مندفع، وكان يجمع بين فكر لمّاح أحسن تدريبه ومزاج عاطفي شاعري»[1].

معاهدة باريس والمصلحون

بعد وقت قصير من بدء عمل لجنة اعادة التنظيم العسكرية، نقل الجواسيس الى الامبراطور نابليون معلومات حول نشاطات اللجنة ومرامي اعضائها الرئيسيين الثلاثة وعلم نابليون من جواسيسه ومن رسائل وقعت في يده كم كان مخطئاً في حكمه على «شتاين» فطالب نتيجة لذلك بأن يقوم «فريدريك وليام» بتنحية «شتاين» وتعيين رئيس للوزراء اضعف منه، ثم جاءت معاهدة باريس الجائرة في العام ١٨٠٨ ليفرض نابليون شروطاً كفيلة في اعتقاده، بالحؤول دون اي خطوة لاحياء قوة بروسيا العسكرية، فطلب ان يكون تعداد الجيش البروسي في حدود ٤٢ الف ضابط وجندي، وأن يُعتبر الجنود متطوعين يخدمون فترة طويلة. ولم يكن ليسمح لبروسيا بتشكيل ميليشيا وطنية او اي قوة احتياطية.

وكان نابليون بذلك قد حرم شارنهورست من تنفيذ خطوتين اصلاحيتين

(١) Rosinski, *op cit.*, p. 61.

هامتين كانتا تراودانه: إقامة نظام للخدمة الاجبارية الوطنية لتدريب رجال الامة، واستحداث الخطوات التعبوية التي تسمح باستدعاء ذلك الاحتياطي المدرب الى الخدمة الفورية في زمن الحرب.

ولكن رغم اخفاق أولى خططه لاحداث تغيير جذري في نظام بروسيا العسكري، ورغم خسارته لدعم شتاين، فقد شق شارنهورست طريقه قدماً. اذ استطاع تنحية ثلاثة ضباط محافظين من ضباط اللجنة وجاء بثلاثة عناصر شابة من اختياره، وبالتالي اصبح مع عام ١٨٠٨ يتمتع بأغلبية ضئيلة من المصلحين المتوافقين في التفكير. كان اول هؤلاء العناصر المقدم الكونت فريديرش فيلهلم فون غوتسن، وكان الآخران ضابطين شابين برتبة رائد درسا على «شارنهورست» في الاكاديمية وبرزا في خلال الحرب الاخيرة ضد فرنسا وهما: كارل فون غرولمان وهيرمان فون بوين.

وبعد ان أُرسل الكونت «غوتسن» الى «سيليزيا» لتسلم قيادتها، انضم الى اللجنة كأمين لها طالب آخر من طلبة «شارنهورست»، وهو النقيب «كارل فون كلاوزفيتس»، الذي سبق له ان خدم في اركان «شارنهورست» الشخصية.

كان هؤلاء اذن، الجنود الخمسة الذين يذكرهم التاريخ الألماني كمصلحين حقاً: «شارنهورست» و«غنايزناو» و«غرولمان» و«بوين» و«كلاوزفيتس». وهم الذين خلقوا معاً جيشاً بروسياً جديداً، ووضعوا اسس التفوق العسكري الذي اتسم به الجيشان البروسي والألماني لأكثر من قرن.

ومع ان هؤلاء الخمسة شركاء في المسؤولية، فان المسؤولية لم تكن موزعة بينهم بالتساوي. فشارنهورست كان الاعظم بسبب ما تحلى به من صفات الجندي الذي خصّ بالموهبة والفكر، وكان القائد والمفكر وصاحب الروح المتوقدة التي لا بد منها للاصلاح. وقد انطفأت جذوة عبقريته بموته المبكر في العام ١٨١٣، بسبب جرح طفيف ولكنه قاتل اصابه في معركة «لوتسن».

وقد اسهم الاربعة الباقون إسهاماً بيناً في نجاح خطوات الاصلاح

الأولى، وواصلوا مهامهم بعد وفاة «شارنهورست»، تحدوهم روح الاصلاح ومناقبيتهم الفكرية ومقدرتهم البنّاءة،وغدا «غنايزناو» أهم عنصر فيهم، بفضل اقدميته، والمزايا القيادية المتأصلة فيه، ودقة ملاحظته في ميدان القتال، وقوة ارادته.

وكانت الخدمات التي اداها «غرولمان» ذو القامة الفارعة، والبنية الصلبة عديدة، وكان اغلب تلك الخدمات متعلقاً بشؤون التنظيم والمفاهيم، كما سنرى. ولكن لعل اهم خدماته، تلك التي قام بها في ليل ١٨١٥/٦/١٦ في «لينيي» حيث هزم نابليون الجيش البروسي مرة أخرى. ففي ذلك اليوم، فُقد القائد العام «بلوخر»، واعتقد بأنه قتل، وسُحقت معنويات «غنايزناو» المحلقة كلياً دفعة واحدة، ولكن «غرولمان» استطاع ان يقنع «غنايزناو» بألا يصدر أوامره بالانسحاب، وإنما بالتقدم للانضمام الى «ولينغتون» في واترلو.

وكان «بوين» الثابت الجنان، الرجل الذي اتاحت له مساهمته وتوجيهه الشخصيأن يؤكد بأن ضمان أهم بنود برنامج الاصلاح وأخطرها قد نفذت، أو كادت على الأقل أن تأتي أُكلها. واضحى «بوين» بعد خدمته كرئيس فعلي للأركان العامة الجديدة في اول الامر وكوزير للحربية فيما بعد، منفذاً ومخططاً بعيد النظر في آن معاً. وفي الأوقات العصيبة، كان يستدعى الى الخدمة كوزير للحربية رغم كبر سنه، كيما يصون المؤسسات التي ساعد في التخطيط لها وإنشائها.

وبرهن الشاب «كلاوزفيتس» على أنه رجل فكر اكثر منه رجل عمل. ولم يكن ذلك ناجماً عن نقص في طاقته أو في مقدرته على العمل، بقدر ما كان ناجماً عن النتائج غير المتوقعة للحرب والسلام. ولا جدال، في ان «كلاوزفيتس» هو اشهر المصلحين الخمسة، ولسوف يظل كذلك لأن شهرته نابعة من كونه اعمق من درس الحرب بين الفلاسفة والكتاب العسكريين. وقد كان بحثه الموجز في السنوات التي تلت بدء عمل اللجنة مؤثراً كجندي وكرجل عمل. ومع أنه من الصعوبة بمكان تقدير تأثيره على المؤسسات التي تولدت عن الاصلاح لعدد من الاسباب التي ستلحظ لاحقاً، فإن تأثيره كان عظيماً من دون شك.

حين قام الملك «فريدريك وليام الثالث» بتعيين اللجنة، كان يتوقع مخلصاً بأنها ستأتي بإصلاحات. ومن المؤكد ان الجيش الممزق كان بحاجة الى هيئة ادارية جديدة كما كانت الخسائر الجسيمة في الأراضي التي فرضتها اتفاقية «تيلسيت» تتطلب إعادة توحيد نظام الكانتونات الفريد، الذي أقامه «فريدريك وليام الأول»، وجعل وحدات الجيش الفاعلة فيه مرتبطة بتقسيمات جغرافية. وقد أوضحت أحداث العام ١٨٠٦ الحاجة الى أركان ونظام قيادة محسّنين. ومن الواضح أن «شارنهورست» قد بيّن بأدائه الرائع الحاجة الى تقديم بعض التنازلات للبورجوازيين الذين طالبوا بحصتهم في صفوف الضباط. ويبدو ان الملك قد فكر في ضرورة وضع تصميم جديد للباس العسكري، وقد حمل على زيادة الميزانية لدفع اجور سخية. اذ كانت اصلاحات من هذا القبيل امراً اساسيا يتطلب دراسة جدية. ولكن لم تكن المحصلة في النهاية تتعدى عملية تجميل جديدة لجيش غير محسن أساساً من جيوش «هوهنزولرن» الأوائل.

لقد كان المصلحون الخمسة مصممين على الخروج من مهمتهم بنتائج اصلب في مضمونها وابعد في مرماها مما كان يتوقعه «فريدريك وليام» وكان هدفهم الذي كان يتبلور كلما احرزوا تقدماً هو إعادة توثيق العلاقة بشكل أساسي بين الجيش من جهة والدولة والشعب والملك من جهة ثانية وثمة اساس منطقي بسيط، وعسكري في الدرجة الأولى، لتلك الأهداف السياسية ـ العسكرية ، والسياسية ـ الاجتماعية المتشددة. ورغم ان ذلك الأساس المنطقي لم يأت ذكره إلا في كتابات «شارنهورست»، ورغم انه لم يطرح للمناقشة بين المصلحين بالصراحة التامة في أغلب الظن، وبغض النظر عما قالوه ، وفعلوه، وكتبوه، فإنه من الممكن التعبير عنه على النحو الآتي:

إن موهبة مخلصة، موطدة ألعزم، عقلانية وتنظيمية، يمكنها على الأرجح أن تجعل من أية مجموعة من الرجال جيشاً فعالاً. وقد نجح اليونان والمقدونيون في ذلك، وكذا الرومان، واثنان من الملوك الانكليز باسم Edwards، والكثير من ملوك فرنسا، كما نجح «غوستافوس أدولفوس» واسلاف «فريدريك الأكبر» «نابليون». ولكن لا يمكن لجيش رائع لعصر ما أن يتجمد في قالب، ويظل رائعاً في خلال اجيال متعاقبة، حتى لو كان أميناً

للنموذج الاساسي في أدق التفاصيل. فالشؤون الانسانية ديناميكية، وإذا ما بدلت التكنولوجيا السلاح والمعدات، صار على الجيوش ان تتبدل مع الوقت. واذا ما اقتفت موهبة تنظيمية موهبة تنظيمية اخرى - كما صدق ذلك على ملوك «هوهنزولرن» البروسيين الأوائل - فسيظل الجيش ديناميكياً، وسيتعرض للتبدل حتى لو بقي الأنموذج الأول على حاله. بينما اذا انحدرت الموهبة، وظل النموذج كما هو، فسوف يتفسخ الجيش حتماً.

وينسحب هذا ايضاً على المنحى العملياتي لأي جيش. فقد برهن فريدريك ونابليون، مثلما برهن هانيبال على انه ليس من السهل على الجنرالات العاديين والجيوش العادية ان تقهر عبقرياً، حتى لو كان جيش ذلك العبقري ادنى مستوى من جيوشهم. اما العبقرية العملياتية التي تقود جيشاً أوجدته عبقرية تنظيمية فانها عملياً لا تقهر - كما برهن على ذلك الاسكندر المقدوني ويوليوس قيصر، وغوستافوس ادولفوس، وأخيرا فريدريك الكبير ونابليون.

من هنا، رأى «شارنهورست» وصحبه بأن بروسيا بحاجة الى نظام يؤدي - بقدر ما يكون ذلك ممكناً إنسانياً - الى خلق الجيش البروسي بعبقرية تنظيمية، وقيادته في المعركة بعبقرية عملياتية. ولكن كيف السبيل للوصول الى مثل هذا الهدف البسيط جدا، وسط عالم من البشر غير المعصومين عن الخطأ، حيث تندر العبقرية ويستحيل التنبؤ بوجودها؟ وإذا سلمنا بأنهم لم يقولوا ذلك، فلا بد أنهم فكروا في عدم كفاية خلفاء فريدريك الكبير. ومع ذلك، فمن المؤكد - أنهم لم يفكروا - بحكم كونهم ضباطاً مخلصين - في تعديل قانون الموارثة الملكية وتقليدها.

أهداف: تأطير التفوق العسكري ضمن مؤسسة

كان رد الاصلاحيين فذاً وعنيفاً، ويتمثل في محاولة تأثير العبقرية ضمن مؤسسة، أو على الأقل محاولة استحداث نظام يمكّن التفوق العسكري من الثبات في وجه تيارات التغيير. وفي الواقع عبّر «شارنهورست» مرة عما جال في خلده حول ذلك بكل وضوح:

«من الطبيعي انه لا يمكن لأي جيش ان يسرح ببساطة جنرالات

تعوزهم الكفاءة. والسبب الأول هو السلطة التي يمتلكها الجنرالات بحكم مناصبهم القيادية. ناهيك بأن الجنرالات يؤلفون عصبة واحدة، ويدعم احدهم الآخر بإصرار، لقناعتهم بأنهم افضل من يمثل الجيش. ولكننا نستطيع على الاقل تزويدهم بمساعدين بارعين. ومن هنا فان على ضباط الاركان ان يساندوا جنرالات تنقصهم الجدارة، وان يطرحوا مواهبهم عندما ينكشف نقص الجدارة بين الزعماء والقادة»(٢).

وبالطبع، لم يذكر «شارنهورست» ان كان بإمكان الاركان العامة ايضا ان تكون مصدراً للموهبة المفقودة بين افراد الأسرة المالكة؛ فتلك خلجة لم تكن لتكتب في تلك الآونة في أوروبا، وفي بروسيا بصورة خاصة. ولكن قرّاءهُ فهموا ما عناه، كما فهمه المصلحون الآخرون بالتأكيد. وعلى أية حال فان الاجراءات المتعلقة بهيئة الاركان، والتي اعدها بمساعدة زملائه المصلحين، كانت نقلة في هذا الاتجاه من دون شك. وبعد سنتين من هزيمة نابليون الأخيرة في واترلو، قام غنايزناو وبوين بإنشاء أول هيئة اركان جيش حقيقية في التاريخ، مقتدين بنموذج «شارنهورست» الذي لم يكتمل. وكان من المفترض أن تكون هذه الهيئة المؤسسة المفتاح،حيث ان «غنايزناو» وخلفاءه قد حولوا جميع جهودهم باتجاه البحث عن طرق من شأنها ان تضمن الحصول على الوسائط المتماسكة، لكي تحافظ على خاصية التفوق.

ولم يكن المصلحون يبتدعون مفهوماً جديداً، أو حتى مصطلحاً جديداً بالمعنى الكامل، وإنما كانوا يسوقون المفاهيم والمصطلحات المتوافرة الى خاتمة منطقية لم يسبق تصورها من قبل. وكانوا يزيحون في اثناء ذلك شيئاً من الغموض الذي كان يكتنف ما سلف من المفاهيم العسكرية والمصطلحات الفنية. فلقد وُجدت هيئات الأركان على الأقل منذ ان سيّر فراعنة «مصر» جيوشاً منظمة وكانت هيئة الاركان منذ القدم عبارة عن حلقة وصل ذات اتجاهين، بين قائد الجيش والوحدات المقاتلة الخاضعة له وكانت في معظم حقب التاريخ تتألف من حفنة من الضباط المعاونين الذين كان عليهم تسليم الرسائل وتسلمها، وإعلام القائد بكل ما كان يحدث بعيداً عن

(٢) Reinhard Hohn, *Scharnhorsts Vermachtnis* (Bonn: 1952), pp. 312-13.

مدى بصره وقد أُلحق بهؤلاء المعاونين مع الزمن بعض الكتبة لحفظ السجلات، وتدوين الأوامر ونسخها، ووضع الخرائط ونقلها. وكانت هيئة اركان القائد تضم في بعض الاحيان صديقاً موثوقاً، أو ضابطاً ادنى رتبة، لمؤازرة القائد في اتخاذ القررات الصعبة؛ وكان هذا المستشار، إن وجد، رجلاً محترماً يكبر القائد سناً ولا يسمح له عمره إلا بتقديم عصارة تجاربه وحِكَمه الناضجة الى قائد شاب يزيد عن مستشاره حيوية، ولكنه لا يمتلك خبْرته.

وبازدياد حجوم الجيوش، وتعقيدات الأسلحة، ظهرت عدة مستويات أو انساق من هيئات الاركان. فقد كان قادة الفوج، واللواء، والفرقة، والفيلق بحاجة الى مثل ذلك الدعم والمساعدة، من اجل التعامل مع من دونهم من القادة وتلبية اوامر من هم أعلى مرتبة في سلم القيادة. وللتفريق بين هيئات الاركان الدنيا وهيئات الاركان العليا التي كانت تقود الجيش، اعتمد في القرن الثامن عشر اصطلاح «الاركان العامة» للدلالة على الثانية.

وفي خلال ذلك القرن ايضاً، غدت حاجة الجيوش العاملة الى نظام شامل يديرها ويصونها في زمن السلم، ويؤمن جاهزيتها في زمن الحرب أمراً جلياً واصبحت هذه الحاجة مألوفة في السلم والحرب. وللتمييز بين هيئة اركان السلم - و- الحرب وهيئات اركان جيوش الميدان وقادة المراتب الادنى، ولوصف وظائفها العامة غير العملياتية، سميت هيئات الاركان المركزية بالاركان العامة. وبما انه لم يكن لمعظم الأمم غير جيش ميداني واحد، وبما ان اعضاء هيئة الاركان العملياتية لقائد ذلك الجيش في الحرب هم انفسهم الذين تولوا الوظائف غير العملياتية الاعم في زمن السلم، ولم يكونوا في كثير من الاحيان اكثر من «هيئة اركان القائد»، فقد سميوا ايضاً «بالاركان العامة».

وفي بروسيا، كانت هيئة الاركان في زمن السلم تدعى هيئة الاركان العامة، بحكم انها كانت تساعد الضابط الاداري الرئيسي التابع للملك مباشرة في اداء مهامه الاستشارية والادارية في السلم والحرب. وقد وجد المصلحون في هيئة الاركان العامة التي خدموا فيها جميعهم، الأداة

الملائمة لوضع افكارهم الثورية موضع التنفيذ، لكي يصبح لديهم افضل جيش يمكن بناؤه في زمن السلم (عبر ميكانيكية «التفوق المنظم»)، ولكي تتوافر مجموعة مختارة بعناية من الضباط المدربين والمؤهلين (لضمان «التفوق العملياتي») تقدم الى الملك المشورة في زمن الحرب.

كان ذلك هو الاساس المنطقي والفكرة العامة لخلق جيش بروسي جديد. فماذا كانت متطلبات نجاحهما؟

جيش الشعب:

صحيح ان رياح التغيير التي اطلقتها الثورة الفرنسية قد نشرت في ارجاء أوروبا افكاراً جديدة عن الحرية ومسؤولية الشعب السياسية. ولكن حتى لو لم يحدث ذلك فان المصلحين كانوا سيسعون الى ايجاد طرق تجعل الجيش شعبياً، يبادله الشعب البروسي العاطفة وروح المشاركة والشعور بوحدة المصلحة. فقد بلغ من لا مبالاة الشعب البروسي بجيشه حد الترحيب بالغزو الفرنسي في العام ١٨٠٦. اذ كان الشعب يعتبر الحرب حرب الملك، يقاتل فيها جيش الملك، ولا تعني للمواطنين سوى مزيد من الضرائب، وضرورة تقديم الدعم للجيوش اثناء مرورها في مناطقهم. وكان العزوف الشعبي عن مؤازرة الجيش لمقاومة الغزاة، وحالات الفرار المتكررة التي فاقمت من نقصان فعالية الجيش المهزوم إثر أورشتادت - يينا، الأمرين اللذين أولاهما المصلحون عناية خاصة.

قد يكون غياب حس الاندماج مع الجيش لدى الشعب حالة مُرضية في أواسط القرن الثامن عشر، حينما كان يمسك بزمام الدولة الأبوية حاكم مطلق طيب النية مثل فريديريك الكبير، عبقري في الشؤون العسكرية وفي شؤون الحكم، ذو قدرة بارعة على السيطرة. ولكن، في أوائل القرن التاسع عشر، لم يعد للطريقة الابوية السالفة مكان في الشؤون السياسية او العسكرية. وقد استطاع نابليون إخضاع قوى الحرية الجديدة لسيطرة ديكتاتورية، ولكن،رغم انه كان هو ايضاً عبقرياً، فقد اتضح للمصلحين البروسيين بأن نجاحه قد يكون عابراً. وقد كانوا بين العامين ١٨٠٨ و١٨١٢ على الأقل، يبذلون ما في وسعهم ليتحققوا من ان نجاحه كان كذلك.

لقد كان المصلحون الخمسة مثقفين ثقافة جيدة (وإن كانت ثقافة ذاتية الى حد ما)، ومفكرين ليبراليين ـ خلافاً للاكثرية الساحقة من الارستقراطيين ذوي الثقافة الهامشية، والذين ارتدوا بزات الضباط البروسيين(*). فبالرغم مما كان هؤلاء الرجال المفكرون يكنونه من اخلاص للملك وللعرش البروسي، فقد رحبوا باستجابة خطط «شتاين» لمفاهيم الحرية المسؤولة التي نشرتها الثورة الفرنسية وجيوش نابليون، وبالسير قدماً في نقلها الى حياة بروسيا السياسية. وبالتالي كانوا يؤيدون فكرياً وعاطفياً مفهوم الملكية الدستورية، الذي أمل «شتاين» في ابتداعه عبر الاصلاحات العسكرية، ويرون النظام السياسي الجديد هذا رديفاً ضرورياً لفكرة خلق جيش بروسي جديد حتى يكون جيش الشعب بقدر ما هو جيش الملك. وقد اعتقدوا ـ واصابوا في اعتقادهم ـ بأن ناخبين بروسيين مسؤولين سيكونون مواطنين وطنيين يدعمون بحماس أي جيش يمكنهم اعتباره كجيش **«لهم»**.

لقد كان بناء جيش بروسي شعبي اصلاحاً سياسياً وضرورة عسكرية في آن معاً. ولكن المصلحين **ايقنوا** بأنه كان انجازاً اجتماعياً كبيراً ايضاً. وكانوا مدركين لأهمية الانضباط في أي تشكيل قتالي. بيد أنهم رأوا بأن الانضباط يجب ان يتحول الى أداة للسيطرة على القوات وليس الى اداة للقمع الارهابي. وستختفي الحاجة الى ممارسة سياسة الترهيب الصارمة لدفع الجنود الى القتال اذا ما بني الجيش البروسي من مواطنين يعتبرون قضية الملك والجيش قضيتهم. وسيكون الانضباط الحازم والعادل ضرورياً لضمان

(*) بالنسبة الى مستويات الثقافة والى جدارة سلك الضباط البروسيين، لا سيما طبقة «اليونكر» السائدة، فان ما قيل متناقض. وقد اتخذ «فريدريك الكبير»، بدافع من اهتمامه بالفلسفة، وبتأثير من حركة التنوير الفلسفية، خطوات لرفع مستوى الضباط الثقافي، وبخاصة طلاب الكلية العسكرية والمرافقين الشبان العاملين في البلاط، واضعاً مستويات أعلى بكثير من المستويات المعتادة في تلك الايام. وإننا نعرف عن تحصيل ١٥٧ ضابطاً من الضباط الذين رقّاهم فريدريك الى رتبة جنرال، ومن هؤلاء نال ٧٤ ضابطاً ثقافة ثانوية (درس العديد منهم في الجامعة)، وكان ٥٢ ضابطاً اعضاء في جسم الطلاب الضباط، و٤٣ ضابطاً مرافقين لفرسان البلاط. ولا شك ان المقدرة الفكرية الجماعية لدى المصلحين الخمسة كانت أعلى مستوى من مقدرة الضباط العاديين، سواء كانوا من مؤيديهم أو من خصومهم. ولكن ما هو الفارق في يومنا هذا؟ ليس هناك دليل واضح حول ما اذا كان الضابط (الالماني) العادي افضل او اسوأ ثقافة من الضابط في امم اخرى. ومن ناحية ثانية، كانت هناك عاطفة معادية للعقلانية في صفوف الجيش، وشك عميق حيال هؤلاء الضباط الذين اكتسبوا ثقافة استثنائية، وميل لاعتبار الثقافة عموماً دليل «نعومة» لا تليق بضابط بروسي. (أدين بتجرؤي على تناول هذه المسألة المثيرة للجدل للدكتور أوهل فيتلر).

النظام، والاستجابة للأمر، ورفع مستوى الكفاءة التنظيمية. ولكن الوجه الآخر لهذه الانضباطية كان عدلاً وانصافاً في المعاملة وشروطاً مؤاتية لرغبته في الخدمة، وليس حياة عبودته كالتي اتسم بها الجيش الفريدريكي البروسي.

وكان أمراً ضرورياً للانتقال من الجيش القديم الى جيش شعبي جديد، التأكيد على الا تكون فرص الارتقاء الى مراكز القيادة وقفاً على النبلاء بالوراثة، وإنما أن تكون مكافأة للجديرين الذين يثبتون تميّزهم. وكان لا بد ان يشعر «شارنهورست» بأهمية ذلك أكثر من أقرانه الأربعة، بيد ان المصلحين جميعهم اعترفوا بالحاجة الملحة الى هذه الخطوة الاصلاحية الاساسية. فمن نقاط الضعف الرئيسية في الجيش البروسي القديم، كانت سياسة فريدريك الكبير في جعل باب سلك الضباط موصداً أمام اي طبقة، فيما خلا طبقة النبلاء، ومطالبته هؤلاء الاستقراطيين بمزيدٍ من الاقدام والطاعة. وكان هذا الوضع مقبولاً، ما دام القائد عبقرياً يملك القدرة على ممارسة قيادة جيش صغير نسبياً بمفرده. وقد اقر «شارنهورست» بأهمية الإقدام والطاعة عند الضباط، ولكن في الجيش الكبير، حيث تتطلب ممارسة القيادة إبداعاً وذكاء، بدلاً من الصرامة والعنف. لقد كان على الارستقراطية ان تعتمد على الفطنة اكثر من اعتمادها على المولد.

ظهور مفهوم هيئة الاركان العامة:

قد يكون هذا الاصلاح حافزاً للعمل عند الضباط والافراد على حد سواء، وفي جميع مستويات الجيش. وقد يكون جزاء الكفاءة والثقافة. وقد يفتح باب الترقيات لعدد اكبر من الناس. وقد يمارس ضغوطه على الارستقراطيين لكي يطلبوا العلم الذي طالما ازدروه، ولكي يصبح بمقدورهم منافسة العامة. ومن شأن كل هذا ان يزيد من عدد ذوي الكفاءة المعدين لهيئة الاركان العامة؛ الأداة التي كان يقدر لها ان تحتل جزءاً هاماً من برنامج المصلحين الخاص بالجيش الجديد. وعلى هيئة الاركان العامة تلك ان تضم كما تخيلها المصلحون، مجموعة من افضل العقول واغناها تجربة في الجيش كله وعقول منظمة وملتزمة بحيث تعمل معاً كعقل واحد منسجم، وتستجيب دوماً لأوامر القائد العام ورغباته، وضمن الحدود الدستورية التي وضعتها

اصلاحات «شتاين» السياسية. وكان على ذلك ان يتم بطريقة منظمة وديناميكية.

ويتم اختيار ضباط هيئة الاركان العامة الجدد من بين ألمع ضباط الجيش الشبان. ويتم تثقيفهم بعناية وتركيز كي يحلوا محل الضباط الذين يكبرونهم سناً حالما يخبو ذكاؤهم ويتحولون الى التقاعد. ويتولى رئاسة هذه المجموعة المنتقاة الضابط الذي يجمع بين الخبرة والثقافة والخيال والنشاط والألمعية. ولا يعني هذا ان يتولى قيادة الجيش، لأن ذلك المركز سيظل محفوظاً للأسرة المالكة، حتى في ظل الدستور، ولكن من المتوقع ان تكون النصيحة والمعلومات التي يمكن لرئيس هيئة الاركان العامة ان يقدمها الى الملك، والمساعدة التي يمكنه ان يؤمنها مع اركانه في اثناء ممارسة القيادة، كفيلة بأن تمكّن اقل الملوك نباهة من اتخاذ القرارات الصائبة، وبأن تمنح هيئة الاركان صلاحية رفض اية حماقة قد يقدم عليها أي حاكم، حتى ولو كان حاكماً عنيداً.

وأخيراً، كانت هنالك مسألة اساسية وبالغة الدقة والحساسية فيما يتعلق بعملية تحويل الجيش من أداة للأتوقراطية الى مؤسسة للشعب؛ وهي مسألة العلاقة بين الجيش والملك، وبين الجيش والحكومة الدستورية الجديدة، التي سلم المصلحون بكونها مكملاً سياسياً هاماً لاصلاحاتهم العسكرية. وعلى الجيش الشعبي الحقيقي الا يعقد ولاءه للملك فحسب، وإنما عليه أيضاً أن يكون مسؤولاً أمام السلطة الدستورية الممثلة للشعب. وهذا مفهوم كان المصلحون يعلمون بأنه غير مقبول عند اكثرية النبلاء الضيقي الأفق في سلك ضباط الجيش. وكان ثمة امر واضح، هو ان «فريدريك وليام الثالث»، رغم رغبته الصادقة في إحداث إصلاحات في الجيش، لم يكن يطيق كملك من اسرة هوهنزولرن اي تدخل في شؤون قيادته للجيش من اي طرف حكومي آخر.

جيش الملك:

أصاب المصلحون نجاحاً جزئياً ليس الا. فقد كان «فريدريك وليام

الثالث» مستعداً للذهاب بعيداً في تقبل ابتكاراتهم، رغم ان كثيراً من هذه الابتكارات كان من ابغض الامور الى نفسه ـ وبخاصة تلك التي أجازت بروز عناصر بورجوازية في سلك الضباط ـ وقد تذكر جيداً «يينا» وقبول الشعب البروسي الفاتر للغزو الاجنبي بحيث ادرك ان عليه تقبل بعض من تلك الابتكارات، فيما لو اراد الاحتفاظ بعرشه ـ ناهيك عن امله في ان يستعيد اقاليمه المحتلة يوماً. ولكنه لم يكن ليسلم بسيطرة الشعب على الجيش البروسي ـ الذي هو جيشه. وكان يقول في نفسه: «شيء حسن ومفيد ان يمنح الشعب قدراً اكبر من الحرية والحقوق، ما دام ذلك يقوي الامة سياسياً واقتصادياً، ويحث الشعب على دعم الجيش، ولكن ماذا لو ان الحرية والحقوق تلك تملكت رؤوس افراد الشعب؟» يجب ان يبقى الجيش جيشه ورغم ان سلك الضباط لم يعد حكراً على طبقة النبلاء، فقد كان الملك مصمماً على ان يكون قادراً على اختيار مساعديه العسكريين الرئيسيين من بين اعضاء الطبقة النبيلة، الذين كانوا مخلصين للدستور الملكي كإخلاصه له.

ولم يضع عمل لجنة اعادة التنظيم العسكرية في الهواء فبمجرد إحالة توصياتها الى الملك ـ الذي كان يوافق عليها تارة ويعدل فيها تارة اخرى ـ كانت القيادة العسكرية العليا، التي كان يديرها «شارنهورست» ايضا، تنشط لوضع الاصلاحات موضع التنفيذ. ولكي يتسنى للعامة الانضمام الى سلك الضباط إسوة بالارستقراطيين، أعد «شارنهورست» نظام امتحانات، وترك لضباط الأفواج في الوقت نفسه قرار الموافقة ضمن وحدتهم على المهام التي تناط بالمرشحين الناجحين. واعترافاً بأهمية الحس الارستقراطي، وحس الشرف الذي اعتبر دائماً من سمات سلك الضباط البروسيين الأساسية، فقد جعل المصلحون محاكم الشرف تحت سلطة ضباط الوحدة، حيث قامت تلك المحاكم بمحاكمة الضباط المتهمين بأي جريمة عسكرية او حادثة اعتداء.

ولقد تأسست في «برلين»، و«كونغزبرغ» و«برسلدو» ثلاث مدارس عسكرية خاصة بإعداد الضباط المرشحين لرتبة ملازم ثان. ومن ناحية عملية، لم يكن هناك سوى النزر اليسير من الترقيات التدريجية للضباط المرشحين،

ولكن تلك المدارس كانت قد فتحت ابوابها امام جميع الشبان الذين استطاعوا اجتياز امتحان الدخول، بصرف النظر عن الوضع والاصل الاجتماعيين. ولم يكن من غير الطبيعي، في ضوء التقاليد وتوافر فرص التعليم، ان يكون معظم المتقدمين الى المدارس العسكرية من العائلات الارستقراطية، بيد أنه لم يكن ليسمح لهم بالدخول من دون ان يبرهنوا عن مقدرتهم الفكرية والثقافية.

وأُعيد في العام ١٨١٠ تكوين أكاديمية صغار الضباط، التي كان «شارنهورست» قد بدأ في إعادة تنظيمها في السنوات التي سبقت حرب ١٨٠٦. وسُميت الاكاديمية في بادىء الامر بالمدرسة العسكرية للضباط، ثم أُطلق عليها بعد وقت قصير اسم المدرسة العسكرية الألمانية. واصبحت تُعرف في عام ١٨٥٩ باسم الاكاديمية الحربية، وظلت لفترة طويلة ألمع مدرسة للتعليم العسكري العالي في العالم.

تأسيس وزارة الحربية:

في آذار ١٨٠٩ اقترب فريدريك وليام الثالث قليلاً من العلاقة السياسية العسكرية الدستورية، وأسس مجلساً للوزراء يتضمن وزارة للحربية، وهذا ما كان يبتغيه المصلحون. وكان الملك قد بدأ في هذه الفترة يستاء من جهود المصلحين الحثيثة لاضعاف سيطرته على الجيش، بحسب رأيه. من هنا جاء رفضه تعيين وزير للحربية. وكان «شارنهورست» منطقياً المرشّح الوحيد، خلافاً للقائد العام المارشال «بلوخر»، الذي لم يكن يلائم غير قيادة العمليات الميدانية. بيد ان الملك عين «شارنهورست» رئيساً للدائرة العامة (نواة هيئة الاركان العامة العتيدة). ثم عمد الى تحجيم نفوذه بتعيين الكونت «فريدريش كارل هاينريش فون ڤايليش أُند لوتوم» - وهو ضابط تقليدي، ارستقراطي بروسي، وعدو قديم لـ «شارنهورست» - رئيساً لدائرة الوزارة الادارية، ومع ذلك مثل «شارنهورست» وزارة الحربية في مجلس الوزراء، وجمع بالتالي في شخصه منصبي وزير الحربية ورئيس هيئة الاركان العامة.

وبعد اسابيع قليلة من هذا التطور الجديد الهام في الحكومة الدستورية البروسية، تدخلت احداث في مكان آخر من أوروبا في عمل المصلحين.

فمنذ كارثة «أوسترليتز» في العام ١٨٠٥، كانت الامبراطورية النمساوية بدورها تعيد تنظيم جيشها، وتنتظر بسكون اية سانحة للانتقام من نابليون. وفي مطلع العام ١٨٠٩، ظنت الحكومة النمساوية في «ڤيينا» أن فرصتها قد حانت مع انتكاسات الفرنسيين في اسبانيا، وانتقال نابليون من باريس الى اسبانيا لتولي القيادة بنفسه. وفي نيسان (أبريل) غزت القوات النمساوية تحت قيادة الارشيدوق تشارلز الجزء الذي كان خاضعاً للسيادة الفرنسية من باڤاريا. وناشدت الحكومة النمساوية كلا من بروسيا وروسيا بالانضمام الى القوات النمساوية لرفع النير الفرنسي عن أوروبا الوسطى.

وبدت فرصة الانتقام للمصلحين في برلين براقة كما بدت لزملائهم في فيينا. وبذل «شارنهورست» والآخرون - جماعة وأفراداً، ما في وسعهم لاقناع «فريدريك وليام» باعلان الحرب، وتعبئة الاحتياطي الضئيل والمحاربين القدامى، والزحف على الفرنسيين. غير ان «فريدريك وليام» الحَذِر رفض الفكرة.

وانهزم تشارلز على يد نابليون في حملتي «ڤاغرام» و«راتيزبون»، وفرض على النمسا اتفاقية سلام مهينة اخرى (اتفاقية شونبرون Schonbrunn). وبدا لـ «فريدريك وليام» ان انتصار نابليون في النمسا يبرر حذره المبكر، متجاهلاً احتمال اختلاف سير الأحداث لو ان بروسيا اشتركت في الحرب فوراً. وحين علم نابليون، عن طريق جهاز استخباراته، بأن المصلحين قاموا بالتحريض على اشتراك بروسيا بالقتال ضد فرنسا، صوب انظاره الى برلين من جديد، وطالب «فريدريك وليام» بفرط عقد المصلحين وتحجيم نفوذهم. وكان «غرولمان» في الواقع أول من بدأ في تحقيق رغبة «نابليون»، وذلك حين استقال من الجيش لدى رفض الملك إعلان الحرب، وانتقل الى ڤيينا للتطوع في صفوف الجيش النمساوي، ومن ثم الى البرتغال عقب هزيمة «ڤاغرام»، للانضمام الى الجنرال «السير آرثر ويلزلي» (الكونت ولينغتون) لاحقاً الذي كان يواصل حملته ضد مارشالات نابليون في شبه الجزيرة الايبيرية.

وتنفيذاً لمطلب نابليون، اعفي «غنايزناو» من منصبه في وزارة الحربية. وكان الملك «فريدريك وليام» يكن للمصلحين تقديراً كبيراً، لما قدموه -

كأفراد وليس كمجموعة - من خدمات منذ بداية الحرب لذا قام بإرسال «غنايزناو» الى لندن في مهمة دبلوماسية شبه سرية، بيد ان تلك الخطوة لم تكن بمعنى من المعاني، لمصلحة «فريدريك وليام»، او لمصلحة «غنايزناو» لأنها منحت الثاني فرصة ملاحظة سير عمل الملكية الدستورية في خلال الحرب بإعجاب واحترام متزايدين.

وفي العام ١٨١٠ زاد «نابليون» ضغطه على الملك البروسي، بعد ان اغاظه إحجام «فريدريك وليام» عن طرد «شارنهورست». وكان «فريدريك وليام» قد اعترف بأن «شارنهورست» ذلك الجندي المخلص، كان اقوى ركن من اركان حكومته، وانه قد بدأ يرى بعضاً من تأثيرات الاصلاحات المفيدة، التي وضع «شارنهورست» اسسها، رغم امتعاضه من ليبرالية «شارنهورست». لذا قاوم الملك ضغوطات الامبراطور في البداية، بيد ان «شارنهورست» بادر الى الاستقالة من منصبه كرئيس للادارة العامة، بعد ان رأى بأنه اصبح يشكل احراجاً لمليكه، ومصدراً للتصادم مع الحكومة الفرنسية. وحل محله اللواء «كارل جورج البريشت أرنست فون هاكه»، وبقي **«شارنهورست»** مفتشاً عاماً للتحصينات، وحاملاً للقب رئيس القيادة العامة ورئيس هيئة الاركان العامة. وكان «هاكه» ومساعده الاول «بوين» قد تلقيا من الملك اوامر سرية قضت باستشارة «شارنهورست» حول جميع المسائل الهامة في وزارة الحربية. والحقيقة ان «بوين» كان ينوي السعي وراء نصيحة رئيسه السابق، حتى بدون اوامر من الملك.

وفي هذه الاثناء، كانت العلاقات بين فرنسا وروسيا تزداد تفاقماً. وفي العام ١٨١١، بدأ «نابليون» يعد للحرب وطلب الى الملك «فريدريك وليام» بأن يجهز قوات لالحاقها بالجيش الفرنسي الجرار، الذي كان قد حشد استعداداً للحملة المقبلة. وجاء طلبه المرفق بالتهديد تعبيراً عن خشيته من تعاطف الضباط البروسيين مع روسيا. ومرة اخرى حث المصلحون والعديد من الضباط البروسيين الملك على الانضمام الى عدو «نابليون» الخطير. فقد كانت ذكريات «يينا» و«فريدلاند» و«تيلسيت» لا تزال ماثلة في الأذهان، وكذا تجربتا «فاغرام» و«شونبرون» الاخيرتان، اللتان كانتا كافيتين لدفع الملك الحذر الى الاخذ بنصيحة ضباطه غير ان الملك اكد تمسكه بالتحالف

الفرنسي وبالنظام القاري، واستعد لتجهيز القوات العسكرية المطلوبة.

وهنا، استقال كثير من الضباط البروسيين من مناصبهم، وتوجه ثلاثون ضابطاً من بينهم **«كلاوزفيتس»**، الى روسيا، حيث استقبلوا بحفاوة في صفوف جيش القيصر **«الكسندر الأول»**. ولم يتخل «شارنهورست» عن منصبه، لكنه استقال فعلا من هيئة الاركان العامة، وأوضح للملك بكل هدوء بأنه سيظل رهن الاشارة اذا ما دعت الحاجة اليه في زمن الأزمات.

توروغن - الانفصال عن نابليون:

تحولت حملة نابليون الروسية الى مأساة حقيقية في أواخر خريف ١٨١٢. ففيما تشتت الجيش الكبير Grande Armée في الثلوج الروسية، ظلت عناصر قليلة سليمة، هي عناصر الفيلق البروسي المؤلف من ١٨ الف رجل، والتي شاركت في قدر قليل من القتال إبان توليها حراسة مجنبة «نابليون» الشمالية، وكان قائد الفيلق ضابطاً نموذجياً من ضباط المدرسة البروسية القديمة يدعى الجنرال «هانس ديڤيد لودڤيغ فون يورك»(*). ورغم ان «شارنهورست» و«يورك» كانا على طرفي نقيض في آرائهما الاجتماعية والسياسية، فقد بلغ من احترام «شارنهورست» لكفاءة «يورك» العسكرية ان عينه مفتشاً للمشاة في العام ١٨٠٩. وفي اواخر كانون الاول ١٨١٢ وبتشجيع سري من «شارنهورست»، التقى «يورك» بـ **«كلاوزفيتس»** - الذي لم يثق به قط فيما مضى - الذي كان يقوم بمفاوضات الهدنة كضابط اركان روسي في «توروغن» Tauroggen (توريج Taurage حالياً) التي تبعد اميالاً قليلة شمال شرقي نهر «نييمن» وفي ١٢/٣٠ هجر «يورك» الفرنسيين نهائياً وهادن الروس. وقد جهد دون جدوى في الحصول على توجيهات «فريدريك وليام» الذي اكتفى بمراقبة الاحداث من «برلين» البعيدة.

وأخيراً اضطرت خطوة «يورك» الملك الى مواجهة اختيارين صعبين. فإما ان ينهي الهدنة فوراً ويقدم «يورك» الى المحكمة العسكرية (وهو امر توقعه الجنرال جزئياً وتوقعه الملك الساخط بصورة كلية تقريبا) وإما ان يتحلل

(*) جُعل كونتاً في عام ١٨١٤، ومنح اسم ولقب «غراف فون ڤارتنبورغ»، لذا يعرف هو وابنه باسم «يورك فون ڤارتنبورغ».

من التحالف الفرنسي - البروسي، وهي خطوة كانت تعني الحرب تلقائيا. ورغم ان الملك كان يميل الى الاختيار الاول، فقد خشي ان يتخلى عنه الجيش البروسي والشعب البروسي إذا ما رفض الموافقة على رأي «يورك» والانضمام الى الائتلاف المعادي لفرنسا. وبقبوله ما لا يمكن رده، نقل عاصمته الى «بريسبلاو» وبدأ الاستعداد للحرب، وارسل في طلب «شارنهورست» لكي يتولى ادارة استعدادات الامة للحرب واصدر «شارنهورست» بعد تعيينه من جديد رئيساً عاماً لهيئة قيادة الجيش (رغم ان «هاكه» بقي رئيسا للادارة العامة في وزارة الحربية) أوامره بالتعبئة العامة وبفضل الخطط التي اعدها «شارنهورست» وهيئة اركانه، جاءت التعبئة العامة في بروسيا مضاهية للتعبئة العامة التي امر «نابليون» بها في الوقت نفسه، ومع ذلك لم يكن في نية «وليام فريدريك» تسليم «شارنهورست» قيادة عليا. فالملوك والحكام المتسلطون، والرؤساء يستنزفون افضل رجالهم عند الضرورة، لكنهم لا يغفرون لهؤلاء الرجال حين يثبت بأن نصائحهم التي سبق ان رفضت كانت في محلها.

موت شارنهورست

حين نزل الجيش البروسي الى الميدان في ربيع ١٨١٣، اقتضى الامر إرضاء «شارنهورست» الذي كان برتبة فريق، بمنحه منصب رئيس اركان فيلق المارشال العجوز «بلوخر» الذي كان قد تولى قيادة القوة البروسية في الجيش الروسي. وفي ١٨١٣/٥/٢ تقابل جيشا بروسيا وفرنسا في معركة «لوتسن» وكان كلا الجيشين لا يقل احدهما عن الآخر حيوية وسرعة في التعبئة. وقد تولى «شارنهورست» عملية التحريض على القتال بالنسبة الى المجندين البروسيين المتقلقلين، فاصيب بطلقة بندقية في ساقه. وفي الجهة المقابلة قاتل الجنود الفرنسيون في الخط الامامي بتشجيع من امبراطورهم (الذي قيل بانه استخدم الحذاء الامبراطوري في حث المترددين من الجنود). وبسبب ما اسفرت عنه المعركة الصعبة، والتي كسبها الفرنسيون، اشار «بلوخر» فيما بعد الى ان وجود «نابليون» في ارض المعركة كان يعادل وجود ٤٠ الف رجل.

وتابع «شارنهورست» القيام بدوره كرئيس لهيئة اركان «بلوخر» حيث ساعد رئيسه للمرة الثانية في تحجيم الانتصار الفرنسي في معركة «بوتسن».

وبعد وقت قصير، تم الاتفاق على إعلان هدنة. وقد أملت روسيا وبروسيا اللتان انضمت اليهما السويد في إقناع النمسا في الانضمام الى الدول المتحالفة - في حملة كبرى ضد الغازي الفرنسي. بيد أن النمساويين الذين لم ينسوا كيف تركتهم روسيا وبروسيا يقاتلون وحدهم في العام ١٨٠٩، واجهوا الامر، بامتعاض وازدراء، ادراكاً منهم بأنهم لن يخسروا شيئاً بوقوفهم على الحياد، بصرف النظر عمن يكسب الحرب. وهنا اتفق القيصر الكسندر والملك فريدريك وليام على ان «شارنهورست» انسب من يقنع النمساويين بالانضمام الى بروسيا وروسيا لانه الرجل الذي ضحى بمستقبله لدى محاولته دفع بروسيا الى الوقوف الى جانب النمسا في عام ١٨٠٩. فأختير «شارنهورست» ليرأس بعثة مشتركة الى براغ بهدف الالتقاء بالقائد العام النمساوي الامير «كارل فيليب فون شفار تسنبرغ». وبعد لقاء ناجح بالأمير، تابع «شارنهورست» طريقه الى فيينا، لحث كبار مسؤولي الحكومة النمساوية على الاشتراك في الحرب. ولكن لسوء الحظ، أدى إهماله لجرحه السابق الى تورم ساقه وتسمم دمه. فعاد الى براغ محمولاً على محفة، وتوفي هناك في ١٨١٣/٦/٢٨.

وكان «شارنهورست» قبل موته بقليل قد كتب الى ابنته رسالة ضمنها الكثير عن نفسه، وفيما يلي نص الرسالة كما اوردها «روسينسكي».

«لا اريد شيئاً من العالم، فهو لا يعطيني ما ارغب فيه بأي حال؛ وبما اني سأتمكن قريباً من الإبلال من جرحي، فسوف اكون قادراً الى حد ما على تسوية الامور.

ثمة منصب غريب قد تقرر ان استلمه حالما استعيد عافيتي. لكن هذا لا يهمني. فلو اني مُنحت قيادة عليا لأوليتها عناية فائقة، ذلك لأني اجد نفسي ملائماً لها كلياً بكل معنى الكلمة. ولكن بما أن ذلك مستحيل، فكل شيء عداها غير هام في نظري، إذ اني سرعان ما سأجد في اثناء القتال موقعاً أتولى فيه القيادة وحدي، لان رتبتي ومركزي سيسهمان في ذلك، ولان خطوة كهذه لا تواجه اعتراضاً في مثل ذلك الظرف. والأوسمة تبدو لي كلاشيء. فما دمت لا أحظى بما استحقه،

فان اي شيء آخر يعتبر إهانة لي. وإني احتقر نفسي إذا ما فكرت عكس ذلك. اني مستعد لتقديم اوسمتي السبعة وحياتي لقاء تولي القيادة ليوم واحد. وقد يبدو لكِ ان ما اكتبه هنا مخالف لطبيعتي، إذ لم يسبق لي ان رغبت في شيء، أو ظهرت بمظهر المستاء، والآن اكتب لك على نحو مغاير جداً. على كل حال، ليست هذه رسالة عادية، وإنما هي رسالة خاصة تظهر كيف فكّر أبوك في قرارة نفسه يوم اكون قد فارقت الحياة، ولسوف تدركين بأنك لم تحسني الحكم عليّ. فأنا لم اهتم بأي رأي كما سوف ترين، بل تصرفت بمفردي وفقاً لما كنت اراه صحيحاً وملائماً بالنسبة إلي»[٣].

حملة لايبزيغ

كُتب لآخر مهمة قام بها «شارنهورست» في سبيل مليكه النجاح، فقد انضمت النمسا الى الحلف، وكانت النتيجة لدى انتهاء الهدنة في آب (اغسطس) حملة «لايبزيغ»، التي ادت الى إخراج «نابليون» من أوروبا الوسطى الى غير رجعة.

وقد برز في خلال تلك الحملة نموذج مثير من العلاقات بين هيئة الاركان والقيادة، شمل المصلحين الأربعة معاً، واصبح فيما بعد احدى السمات غير المألوفة لنظام القيادة البروسية والألمانية. لقد كان في الميدان اربعة جيوش رئيسية متجانسة: الجيش النمساوي تحت قيادة «شفارتسنبرغ»، الجيش البروسي تحت قيادة «بلوخر»، والجيش الروسي تحت قيادة الكونت «بنينغسن»، والجيش السويدي تحت قيادة ولي العهد «برنادوت» (كان احد مارشالات نابليون فيما سبق). وقد ضم جيش «شفارتسنبرغ» الرئيسي في الجنوب فيلقاً بروسياً، كما ضم جيش «برنادوت» في الشمال فيلقاً بروسياً آخر. وحل «غنايزناو» محل «شارنهورست» كرئيس لهيئة اركان «بلوخر»، وتسلم «غرولمان» بعد عودته من اسبانيا رئاسة هيئة اركان الجنرال «فريدريش هاينريش فون كلايست»، الذي كان يقود الفيلق البروسي العامل مع النمساويين، بينما تسلم «بوين» رئاسة هيئة اركان الجنرال الكونت «فريدريش

(٣) Rosinski, *op. cit.*, p. 79.

فيلهلم» قائد الفيلق البروسي العامل مع السويديين. اما «كلاوزفيتس» الذي كان لا يزال في خدمة الجيش الروسي (اذ رفض الملك فريدريك وليام عودته الى الجيش البروسي)، فقد اصبح رئيسا لهيئة اركان احد فيالق جيش «بنينغسن»، بعد ان خدم كضابط ارتباط روسي في قيادة «بلوخر» العليا.

ولقد كان الجزء الأعظم من التنسيق الرائع الذي لم يسبق له مثيل بين الجيوش المتحالفة في اثناء هذه الحملة وإبان غزوها اللاحق لفرنسا في اوائل ١٨١٤، وليد التفاهم المتبادل، وتبادل المعلومات بصورة ثابتة بين رؤساء هيئات الاركان البروسية الاربعة.

وكان واضحاً في هذا الوقت بأن «غنايزناو» قد صاغ (ومن المحتمل ان يكون ذلك بموافقة من «بلوخر») أحد اعراف الجيش البروسي - الألماني الفريدة، وهو ان يتقاسم رئيس هيئة اركان قطعة كبيرة (جيش، فيلق او فرقة) المسؤولية مع القائد. وقد نجحت أول تجربة لهذا النظام في خلال العمليات الحربية لحملات العامين ١٨١٣ و١٨١٤. وبدت تنحية «نابليون»، بعد فشل حملته الرائعة ضد الجيوش المتحالفة المتفوقة في العام ١٨١٤ خاتمة لعصر. وفي بروسيا عين «بوين» وزيراً للحربية، وتسلم «غرولمان» رئاسة الادارة العامة. وقد اتاح إلغاء اتفاقية باريس (١٨٠٨) كنتيجة لهزيمة «نابليون» لبوين فرصة تحقيق افكار «شارنهورست» حول تطبيق نظام تعبئة وطنية شاملة. كما وافق الملك على القانون المتعلق باخضاع جميع المواطنين الذكور الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٠ و٢٣ عاماً للخدمة العسكرية الالزامية بحيث يتوافر جيش عامل، يخدم المجندون الالزاميون فيه لمدة ثلاث سنوات على ان يساند هذا الجيش احتياطي وسيط، وميليشيا، وان يضم الاحتياطي الوسيط آخر دفعتين من دفعات المجندين الذين تم تسريحهم مؤخراً، والذين قد يدعون للالتحاق بالجيش العامل مباشرة في الحالات الطارئة. وقد تشمل القوات البرية التي هي ميليشيا قائمة بذاتها، سبع دفعات مدربة من الجنود الاحتياطيين (اعمارهم بين ٢٦ سنة و٣٢ سنة)، القادرين على التحشد السريع للقتال الى جانب الجيش العامل في اي لحظة. وبذلك اصبح لبروسيا جيش الشعب الذي طالما تصوره المصلحون.

حملة واترلو

كانت عملية إعادة تنظيم الجيش البروسي لا تزال قائمة حين اغرقت عودة «نابليون» من «إلبا» أوروبا في حرب جديدة. فزحف جيش الميدان البروسي غرباً ليشارك البريطانيين في غزو جديد لفرنسا. وكان هذا الجيش يتألف من أربعة فيالق، وكان يقوده من جديد «بلوخر» الذي عمل معه «غنايزناو» كرئيس لهيئة اركانه للمرة الثانية. وكان من المتوقع ان ينضم الجيشان النمساوي والروسي بسرعة الى الجيشين البروسي والبريطاني على الحدود الفرنسية.

وبرز المصلحون ثانية في جيش الميدان. ففي حين بقي «بوين» في برلين، غادر «غرولمان» وزارة الحربية ليعمل في هيئة اركان «بلوخر»، أي ساعد «غنايزناو» الأيمن وعاد «كلاوزفيتش» (الذي غفر له فريديريك وليام أخيراً) الى الجيش البروسي وتسلم رئاسة اركان الجنرال «ادولف فون تيلمان» قائد الفيلق الثالث. وقد جاء اختيار «غنايزناو» لفيلق «تيلمان» لاعتبارين: الأول تقديره للفيلق الذي استطاع بعد الهزيمة في «ليني» ان يقاتل بمعزل عن بقية الجيش، ويصد الجناح الفرنسي في «ويڤر» والثاني اطمئنان الى وجود «كلاوزفيتس» ضمن هذا الفيلق.. وكان «غرولمان» قد اقنع «غنايزناو» بان يتخذ قرار الانضمام الى ولينغتون مع الفيالق الثلاثة الاخرى..

ويعود الانتصار في «واترلو» مبدئياً الى وصول الجيش البروسي في الموعد الذي حدده «غنايزناو» امام «ولينغتون»، والى نجاح الفيلق الثالث في صد القائد الفرنسي «غروشي» في «ويڤر» ـ بفضل براعة «كلاوزڤيتس» في معاونة «تيلمان» على ادارة المعركة ـ.

وبعد «واترلو» اقتضت الضرورة اتخاذ قرار اساسي موحد: هل ينتظر الجيشان الانكليزي والبروسي وصول الجيشين النمساوي والروسي، ام انهما يبدآن في مطاردة الجيش المهزوم؟ ولم يطل وقت التفكير، اذ حث «غنايزناو» على المبادرة الى المطاردة فوراً، وأيده «بلوخر» و«ولينغتون». اما كيف تمت المطاردة، وماذا كانت نتائجها، فذلك يشكل فصلاً هاماً من الفصول الأولى لتاريخ الجيش البروسي الجديد.

ولما أُعيد فتح مدرسة الحرب العامة في خلال الفترة (١٨٠٩ ـ ١٨١٣) وفي العام ١٨١٤، طالب «شارنهورست» في بداية الامر، ثم «غنايزناو» و«بوين»، و«غرولمان» بأن تتم دراسة حملتي ١٨٠٦ و١٨٠٧ بتركيز. وقد جرى التركيز ضمن الصفوف والحلقات الدراسية المخصصة لقادة الصف الأول، على حقيقة ان الانتصارات الفرنسية في العامين ١٨٠٦ و١٨٠٧ قد تحققت بفضل استجابة القادة الفرنسيين الى ارادة «نابليون» استجابة تامة وعنيفة ـ حتى لو لم يكن هناك توجيهات خاصة من الامبراطور او اشراف مباشر منه. ولم يقتصر الامر على الانتصارات الفرنسية في «يينا ـ أورشتادت» فحسب، وإنما تعداها الى فعالية عمليات المطاردة التي قام بها الفرنسيون بعد هاتين المعركتين. واذا كانت ثمة عبرة تاريخية اشاد بها «شارنهورست» و«غنايزناو» وحاولا تلقينها لقيادة الجيش البروسي الجديدة،، فإنها كانت المطاردة الفرنسية من «يينا» الى بحر البلطيق في العام ١٨٠٦.

المطاردة بعد واترلو

بيد ان «بلوخر» و«غنايزناو» اكتشفا بعد انتصار «واترلو»، ومحاولة القيام بمطاردة شبيهة بمطاردات الفرنسيين، بأن الامر يختلف عما قيل للضباط البروسيين في المدرسة عن اهمية المطاردة اختلافاً كلياً. وهناك نص تاريخي عسكري الماني حديث يصف الموقف على النحو التالي:

«في معظم الحالات، لم تقم القوات البروسية بمطاردة العدو المتراجع مطاردة عنيفة إلا عندما كان القائد العام أو رئيس اركانه يدفعها الى ذلك، او يترأس الرتل المطارد شخصياً... وقد ابدى معظم قادة الفيالق والفرق البروسيين قليلاً من المبادرة... ومع ذلك استطاع «بلوخر» و«غنايزناو» بفضل جهودهما الشخصية، وتقدم قواتهما السريع، ان يمنعا العدو من اتخاذ موقع دفاعي على ابواب باريس»[٤].

من هنا، ورغم ان الجيش البروسي في العام ١٨١٥ كان يختلف عن

---

(٤) *Rückzug und Verfolgung: Zwei Kampfarten, 1757-1944* (Stuttgart: 1960), pp. 235-36; one of a series of publications by the Military History Research Institute of Freiburg im Breisgau, German Federal Republic.

جيش عام ١٨٠٦، فقد وضح للمصلحين الثلاثة الذين رافقوا الجيش الى «باريس»، بأن هدف «شارنهورست» لم يتحقق بعد. ومع ذلك كانوا لا يزالون واثقين من ان الهدف كان سيتحقق في الوقت المناسب، لو ان اصلاحاتهم الجارية لم تكن غير منجزة ولو ان الاصلاح الاضافي الاساسي المتعلق بعلاقات مدينة ـ عسكرية مسؤولة قد تحقق.

لقد حدث مراراً في التاريخ ان استطاعت رؤى عسكرية فردية تخطيط وتنفيذ نقلات عسكرية هامة. ولكن هذه هي المرة الأولى التي يتم التوصل فيها عن طريق المؤسسات الى تغييرات مماثلة عبر حفنة من قادة الصف الثاني، حيث تم تأسيس نموذج تنظيمي وعملياتي يدوم لأكثر من قرن من الزمان.

الفصل الرابع: الإصلاح والرجعية (زواج المصلحة)

بوين وغرولمان ـ السير قدماً في الاصلاح:

في العام ١٨١٥ ومع عودة بروسيا الى السلام الذي وُعدت به في العام ١٨١٤، شعر الاحياء من المصلحين بفخر فيما انجزوه. فقد توصلوا الى خلق جيش شعبي جديد، مرتكز على افضل نظام للتجنيد الالزامي الوطني ابتكر حتى ذلك الحين، سواء من حيث تقدمه او فعاليته. وهم لم يوسعوا قاعدة الجيش ويحسنوا خاصيته بصورة جوهرية وحسب، وإنما جعلوه ايضاً نقطة ارتكاز لروح وطنية جديدة. ولا يمكن الانكار بأن غالبية الضباط كانت لا تزال من الارستقراطيين، بيد أن نسبة الضباط البورجوازيين كانت تتزايد، وان الارستقراطيين قد اجبروا على دراسة اختصاصهم كشرط للبقاء في الجيش. وقد تمخض ضبط توجيه وتنسيق هذه الاداة العسكرية المحسنة عن وزارة حرب فعالة، تضم هيئة اركان عامة نشيطة، مؤلفة من حفنة من الاختصاصيين، تم اختيارهم بعناية، بعد ان اثبتوا جدارتهم في ادائهم المتفوق في الاكاديمية العسكرية والميدان.

غير ان المصلحين كانوا يدركون بأنهم فشلوا في تحقيق هدف مهم واحد. فما زالت البلاد بلا دستور وطني، وما زال الشعب بلا مجلس تمثيلي

كي يعمل جيش الشعب الجديد وفقاً له، على النحو الذي تصوره «شتاين» و«شارنهورست» وزملاؤهما. وكانت هنالك علائم تشير الى ان قوى الرجعية بين النبلاء قد اقنعت الملك بألا يتخذ الخطوة الاخيرة نحو دمقرطة عسكرية، بل كان بين مستشاري الملك المقربين من دعا الى إلغاء الاصلاحات التي قد تهدد سيادة طبقة النبلاء على سلك الضباط. وحامت الشكوك حول «غنايزناو» الذي كان حينذاك قائداً للقوات البرية في غربي ألمانيا، لأنه يحمل افكاراً ليبرالية، ووجد هذا القائد بأن شعبيته في بلاط «بوتسدام» في تناقص مستمر.

وكان وزير الحرب «بوين»، الليبرالي الأول في تاريخ بروسيا، يخشى بأن تحول الصعوبات المتزايدة دون الوصول الى الاصلاح السياسي الضروري لاكتمال الاصلاحات العسكرية. وساورته الشكوك في إمكانية تحقيق ذلك عبر المستشار الامير «كارل أوغست فون هاردنبرغ» إذ بالرغم من ان «هاردنبرغ» شارك «شتاين» آماله في اصلاح دستوري، فقد كان يفتقر الى قوة شخصية «شتاين» الديناميكية. غير ان «بوين» كان مصمماً على توفير قوة الشخصية التي افتقر اليها «هاردنبرغ»، متابعاً في الوقت نفسه، بهدوء وروية، عمله في دمج ما تحقق من اصلاحات عسكرية في إطار ـ وزارة حرب أُعيد تنظيمها، وفي اطار الجهاز العسكري ـ المدرسي الذي اقامه «شارنهورست»، والذي تزداد فعاليته باطراد. وعين «بوين» زميله المصلح «غرولمان» رئيساً للدائرة الثانية، او لهيئة الاركان العامة. وكان «غرولمان» يقاسم «بوين» الأهداف، لكنه كان اكثر منه اعتدالاً من الوجهة السياسية.

وفي جانب آخر من الجيش، كانت القوى الرجعية تهيمن شيئاً فشيئاً، وتسترعي اهتمام الملك وتنتزع دعمه الكامل. وفي العام ١٨١٦، استقال «غنايزناو» من الخدمة العسكرية الفعلية، وتقاعد في وقت مبكر تعبيراً عن معارضته المتشددة لآراء المستشارين المقربين من الملك، وعن امتعاضه لفشل «فريدريك وليام» في اعلان دستور. اما الملك، فبالرغم من قيامه بتعيين «غنايزناو» حاكماً إسمياً على برلين، فإنه لم يغفر له اظهار المجاهرة بمعارضته، التي فسرها لسبب ما، كبادرة تحقير.

وفي العام ١٨١٦، أعاد غرولمان تنظيم الأركان العامة في ثلاثة اقسام

رئيسية، بحيث خُصص لكل مسرح حرب محتملة قسم: القسم الشرقي في مواجهة حرب ضد روسيا. والقسم الجنوبي في مواجهة النمسا، العدو الاكثر احتمالا، والقسم الغربي الذي يتوجب اعداده للقتال ضد فرنسا ثانية، او ضد ائتلاف ولايات المانيا الغربية مع فرنسا، أو بدون فرنسا. وكان كل قسم مسؤولاً عن دراسة الأحوال والتطورات العسكرية للعدو المحتمل ضمن منطقة مسؤوليته. وقام بعض الضباط باختبار طبيعة الأرض التي كان يتوقع ان تجري فيها عمليات حربية، واعداد خطط استراتيجية ملائمة، وقام آخرون بوضع خطط تعبئة وانتشار لكل الاحتمالات.

وفي العام التالي ادخل «غرولمان» ـ بموافقة من «بوين» بالتأكيد ـ تعديلين اساسيين اضافيين على تنظيم الاركان العامة: الأول استحداث قسم رابع مسؤول عن دراسة التاريخ العسكري. . وقد ظل قسم التاريخ العسكري منذئذ عنصراً هاماً في الأركان العامة، رغم العديد من التغييرات التنظيمية. وكان التعديل الثاني توضيح علاقة الدائرة الثانية ـ التي اضحت تعرف رسمياً باسم الاركان ـ بضباط الاركان العامة المساعدين لقادة الفيالق والفرق في الميدان. وقد اعتُبر هؤلاء الضباط منذ ذلك الحين تابعين لقسم خاص يدعى «الاركان العامة للقوات»، يتناوب افراده مع ضباط من التنظيم المركزي في «برلين» العمل في اركانات الفيالق والفرق، بحيث كان مع كل فيلق ثلاثة من هؤلاء الضباط ـ رئيس اركان ومساعدان ـ ومع كل فرقة رئيس اركان واحد. ولتمييز عناصر الأركان العامة للقوات عن هيئة التخطيط المركزية في «برلين»، دعيت الثانية بالأركان العامة الكبرى.

ولعل السنوات الاربع التي عمل «غرولمان» خلالها رئيساً للاركان العامة في وزارة حرب «بوين»، كانت اهم الفترات في تاريخ تلك المؤسسة التي تأكدت فيها خاصية الأركان العامة، ومن الواجب الاعتراف بفضل «شارنهورست» في وضع المفهوم الاساسي للتفوق العسكري المؤطر في مؤسسة (رغم انه تلقى دعماً فكرياً قوياً من غنايزناو وبوين وغرولمان وكلاوزفيتس). وقد اشترك «شارنهورست» و«غنايزناو» في تشذيب المفهوم وإثبات صحته في الحرب. ولكن «بوين» و«غرولمان» هما اللذان وضعا

الاجراءات لترجمة المفهوم الى حقيقة عملياتية مستمرة، وهما اللذان اكدا ديمومة المؤسسة.

وقد أولى «غرولمان» موضوع تحسين كثافة الضابط باستمرار اهتماماً خاصاً، وذلك اولاً، بوضع معايير فكرية راقية كشرط لازم لنيل الرتبة العسكرية، وثانياً، بتحسين نظام الثقافة المدرسية العسكرية. وكان التركيز منصباً على الثقافة العلمية مادة واسلوباً. وكان ينتظر من الضابط البروسي - وضابط الأركان العامة بصورة خاصة - ان ينظر الى عملية التثقيف والدراسة الفردية كعمليات تقص موضوعية عن الحقيقة.

وإدراكا منه للفساد المحتوم الذي يخلفه الروتين في مكاتب الأركان المستقلة في ايام السلم، اصر «غرولمان» على تطبيق برنامج تنقل الضباط بين الأفواج وهيئة الاركان العامة بالتناوب. كما كان برنامج التبادل مطبقاً بين مكاتب الدائرة الثانية في «برلين»، وبين مهام فيالق وفرق هيئة اركان القوات، ضمن هيئة الاركان العامة. وقد ساعد ذلك على ابقاء ضباط هيئة الاركان العامة على اتصال مستمر بأفكار واتجاهات الجيش ككل، كما انه جاد على هيئة الاركان بدفقات متجددة من الدماء والافكار. اضف الى ذلك انه فتحت امام القدامى من ضباط هيئة الاركان فرصة مراقبة الكثير من الضباط الشبان، وتحديد الذين يتوجب اعادتهم بصورة نهائية للخدمة في مواقع عسكرية تتطلب ملكة فكرية اقل.

ومن المهام الاخرى التي انهمك فيها «غرولمان»، مهمة تحسين سبل المواصلات العسكرية داخل بروسيا. وكان في مقدمة تلك السبل واهمها تأمين شبكة طرق صالحة لتنفيذ مختلف خطط التعبئة والانتشار التي كانت تتولى وضعها اقسام هيئة الأركان الثلاثة، مع ما يتصل بتلك الخطط من دعم لوجستيكي يتطلب تحديد مخازن مملوءة بالمؤن والامدادات العسكرية. وقد وجه «غرولمان» عناية كبيرة الى شبكة ابراج تلغراف الجيش، حيث يمكن نقل الرسائل بسرعة بين «برلين» ومقرات قيادة الجيش الرئيسي المنتشرة في الاقاليم، عبر اشارات مشفّرة مرئية (سيمافور).

الرجعية ومراسيم كارلسباد

كان انغماس «غرولمان» في الصراع القائم بين رئيسه «بوين» ومستشاري الملك الرجعيين مصادفة محضة. لكنه كان اجمالاً يشارك «بوين» الرأي وقد صعق مثل «بوين» لإعلان مراسيم «كارلسباد»، التي صدرت عن مؤتمر «كارلسباد»، الذي عقده الوزراء الرئيسيون لأهم الدويلات الألمانية في آب (اغسطس) ١٨١٩ لمجلس (الدايت Diet) الاتحاد الكونفدرالي الألماني تحت الرعاية النمساوية. وقد وافق المؤتمرون، تحت تأثير المستشار النمساوي ووزير الخارجية «كليمنس فون ميترنيخ» على اتخاذ الاجراءات القاسية الكفيلة بالحد من انتشار المفاهيم الليبرالية والجمهورية والقومية بين شباب الدويلات الألمانية بالتحديد. وقضت المراسيم قيام مسؤولين حكوميين بمراقبة الجامعات في جميع انحاء ألمانيا والاشراف عليها عن كثب، واخضاع النشرات الدورية للمراقبة، وإنشاء لجنة مركزية لعموم المانيا في «مينز» تتولى التقصي والكشف عن شبكات التخريب السرية التي كان يفترض وجودها في ألمانيا كلها. وقد بذل «بوين» اقصى جهوده لاقناع الملك «فريدريك وليام الثالث» برفض هذه المراسيم، لكونها تتعارض مع المبادىء التي نشبت من اجلها معارك الحرية ضد الظلم الخارجي. بيد ان الملك اخذ بآراء مستشاريه الآخرين، وصادق على المراسيم.

وبدا استياء الملك من معارضة «بوين» لمراسيم «كارلسباد» فرصة امام الفريق المحافظ في الجيش للتخلص من وزير الحربية الليبرالي. وذلك بإثارة مسألة وضع «الميليشيا» القانوني.

مصير الميليشيا الوطنية

لقد شارك بوين «شارنهورست» مفهومه المبتكر القائل بأن على الميليشيا الوطنية ان تكون صلة وصل بين الجيش والشعب. وكان إيمانه بهذا المفهوم يعادل إخلاصه الثابت للتاج. وكانت النية جعل الميليشيا الوطنية على استعداد للقتال في زمن الحرب جنباً الى جنب مع الجيش، بما يتهيأ لها من كفاءة عسكرية عالية ناجمة عن التدريبات والمناورات السنوية، واعتقد «بوين» من جهة ثانية ان الميليشيا الوطنية في زمن السلم يمكنها ان تكون الحلقة التي

تصل بين الجيش والشعب في حال انفصالها عن الجيش كلياً، بحيث ترفع تقاريرها الى وزير الحربية عبر جهاز تفتيش خاص بها، وليس عبر جهاز تفتيش الجيش. وقد افلح «بوين» في نيل الموافقة على فكرة الفصل هذه من خلال قانون «الميليشيا الوطنية» الذي وقعه الملك في ١٨١٥/١١/٢١.

وكان «بوين» يرى ان الخطوة المنطقية التالية لتثبيت وضع الميليشيا الوطنية القانوني، هي الدستور الوطني، الذي ناضل من أجله منذ العام ١٨٠٧ هو و«شارنهورست» و«شتاين» ومصلحون آخرون. اذ كان من المنطقي في نظره ان يكون للميليشيا الوطنية حق المشاركة في حكومة الدولة ما دامت تؤدي واجب الخدمة العسكرية. غير ان مناورات خريف ١٨١٩ اتاحت للمحافظين في الجيش فرصة مهاجمة مفهوم «الميليشيا الوطنية»، والحؤول دون تحقيق آمال «بوين» في دستور وطني. فقد وجهت الى اداء الميليشيا الوطنية في المناورات انتقادات حادة من قبل عدد كبير من ضباط الجيش، الذين اهتموا باطلاع الملك على هذا الاداء الهزيل. ولم يكن «بوين» او «غرولمان» راضيين عن المناورات، او عن دور «الميليشيا الوطنية»، ولكنهما كانا يعرفان، بأن العجز المالي في خلال السنوات الثلاث الماضية، قد حال دون التزام الميليشيا الوطنية بقواعد الجاهزية المطلوبة. لذا فقد احتجا بشدة لدى قيام الملك في كانون الاول، بدافع من انتقادات الجيش، بانهاء نظام التفتيش المنفصل، ووضع الميليشيا الوطنية تحت مراقبة الجيش واشرافه. وكان «بوين» و«غرولمان» على يقين بأن هذا التغيير لن يحسّن في حد ذاته نوعية الميليشيا الوطنية، بل سيهدم اهميتها كحلقة مستقلة بين الجيش والشعب. ولكن الملك فرض إرادته على «بوين»، واعلن بأن «الميليشيا الوطنية» ستكون منذ ذلك الحين فصاعداً تحت اشراف الجيش مباشرة. فاستقال «بوين» اشمئزازاً، ثم حذا «غرولمان» حذوه.

لقد كان لخطوة اخضاع الميليشيا الوطنية للسلطة العسكرية واستقالة «بوين» و«غرولمان» تأثير سياسي اكثر منه عسكريا. والعلاقات الثلاثية المتبادلة بين الشعب، والدولة، والجيش ـ مأرب «شتاين»، «شارنهورست» وانصارهما ـ التي بدأت تتفكك ببطء منذ العام ١٨١٥، اضحت الآن انقاضاً.

واصبحت البورجوازية المتنامية، مع انعدام الدستور، والمؤسسات التمثيلية، والحض العاطفي للقتال من اجل الوطن، اشد عدوانية ضد الحكم الاوتوقراطي، وبالتالي ضد الجيش، لكونه اوضح مظاهر ذلك الحكم. ولكن الناس ظلوا على ما يبدو اوفياء للتاج وللجيش معاً.

وكان لقوى الرجعية داخل الجيش تأثيرات متنوعة. فنسبة العامة بين مجموعة الضباط ـ التي وصلت الى ٤٠٪ في عام ١٨١٥ ـ انخفضت انخفاضاً شديداً بعد العام ١٨١٩، وكراهية البورجوازيين النافذين المتنامية للجيش تقابلها بالقدر ذاته كراهية الضباط الارستقراطيين لهم. ولكن كانت في الجيش مؤسسة أبصرت النور بعد العام ١٨٠٦، واثبتت قيمتها العسكرية في عام ١٨١٩ لجميع الضباط في الجيش، بصرف النظر عن آرائهم السياسية واصولهم الاجتماعية، وهي هيئة الاركان العامة، التي سار في موازاتها تطوير النظام الجديد للثقافة العسكرية، الذي بطل ايضاً اعتباره اصلاحاً عسكريا، وغدا مسلماً به كمسهم اساسي في معايير الاداء العسكري البروسي. وقد كان جميع الضباط البروسيين يفخرون بأن تلك المعايير تحظى باعجاب متزايد، ويعمل بها في جميع انحاء العالم.

ومن هنا، لم يطرأ على معظم تحسينات «شارنهورست» وأترابه من المصلحين العسكريين اي تبديل، رغم مشاركة العناصر الرجعية في الجيش، ومسؤوليتها الكبرى في انتصار السياسية الرجعية في بروسيا. ويجدر الا يُقلل من الأثر البالغ الذي تركه الانتصار الرجعي في الجيش. فبتقويض مفهوم جيش الشعب، الذي كان من اهم اهداف «شارنهورست»، ضمن الرجعيون ديمومة نموذج من العلاقات المدنية ـ العسكرية البروسية، كانت له اشد النتائج مأساوية ناءت به المانيا والشعب الألماني.

كلاوزفيتس والرجعيون

كان لانتصار الرجعية اثر آخر في الدولة البروسية والجيش البروسي. اثر لم يكن بالامكان التنبؤ به. ففي العام ١٨١٨ رأى «غرولمان» ضرورة تعيين الشريك المصلح «كلاوزفيتس» مديراً لمدرسة الحرب العامة، كجزء من جهوده لتعزيز الجهاز التعليمي. ووافق «بوين» على هذا التعيين رغم فتور

العلاقات بينه وبين «كلاوزفيتس»، بسبب اختلاف في وجهات النظر السياسية. ولكن لم يمض وقت طويل على تسلم «كلاوزفيتس» لمنصبه الجديد، اثر ترقيته الى رتبة لواء، حتى صدرت مراسيم «كارلسباد»، ودار الجدال المشؤوم حول مستقبل الميليشيا الوطنية.

وقرنت قيادة الجيش الرجعية «كلاوزفيتس» بزميليه المصلحين «بوين» و«غرولمان» من الوجهة العسكرية، لكنها فشلت في التحقق من ان آراء «كلاوزفيتس» السياسية كانت محافظة نسبياً سواء بالنسبة لليبرالية «بوين»، او لليبرالية «غرولمان» الاكثر اعتدالاً. اضف الى ذلك ان وزير الحربية الجديد الجنرال «فون هاكه» كان ضابطاً تقليدياً من الرعيل الأول، يقف من مسألة التأكيد المتزايد على الثقافة موقف الشك، ويدرك مدى احتقار «كلاوزفيتس» المثقف له.

وباحتفاظه بالاشراف الاداري على المدرسة، الفى «كلاوزفيتس» نفسه في خيبة ازاء التطبيق الرجعي للنظام التثقيفي الليبرالي الذي اسهم في ابتكاره. وقد تجاهله مجلس الاساتذة عموماً وتجاوزه باتصاله المباشر بوزير الحربية، أو بنظيره المدير الرجعي في القسم الثاني.

ولما ضاقت فرصته للتدخل في منهاج مدرسته، قطع «كلاوزفيتس» معظم اتصالاته وانصرف للكتابة، حيث وضع كتاب «في الحرب» On war، الذي اعتبر بحق، رغم عدم اكتماله، اهم دراسة فلسفية للحرب والصراع. وقد كان الكتاب ذا تأثير مزدوج على جيشه البروسي الأثير الى قلبه، الأول ايجابي والثاني سلبي. كما كان المؤلف الذي منح صاحبه صيتاً عالمياً لم يبلغه اي من المصلحين الآخرين.

روله وموفلينغ

في خلال الازمة السياسية هذه زاولت هيئة الاركان العامة عملها بهدوء لأكثر من سنة تحت القيادة المؤقتة للعقيد «يوهان ياكوب اوتو اوغست روله فون ليلينشترن»، الذي تولى في كانون الاول (ديسمبر) ١٨١٩ منصب قائد

الامدادات ورئيس الدائرة الثانية خلفاً لغرولمان. ورغم ترقية «روله» فوراً الى رتبة لواء، فانه لم يعين رئيساً لهيئة الاركان العامة. ولعل مرد ذلك الى الصلة التي كانت تربطه بـ«شتاين» و«شارنهورست» فيما مضى. ويبدو انه دُفع الى ممارسة اختصاصه في الطوبوغرافيا العسكرية وفي التثقيف العسكري، وحُدّ من تأثيره المباشر، الايجابي او السلبي، على عمل هيئة الاركان العامة.

وفي كانون الثاني (يناير) ١٨٢١، عين رجل اقوى من «روله» بكثير (وفي الواقع انه كان اعمق منه خبرة) رئيساً لهيئة الاركان العامة. وكان ذلك الجنرال «فيليب فريدريتس كارل فيردناند البارون فون موفلينغ». وكانت العلاقة بين «موفلينغ» و«روله» غريبة في بداية الامر. ففي حين بقي «روله» رئيساً للدائرة الثانية، ومسؤولاً عن التثقيف العسكري، كان «موفلينغ»، الأعلى منه رتبة، مساعداً له كرئيس لهيئة الاركان العامة بالاسم. وفور تولي موفلينغ لمنصبه في ١٨٢١/١/١١، غير اسم هيئة الاركان العامة رسمياً الى هيئة الاركان العامة الكبرى. وذلك للتمييز بين هيئة اركان وزارة الحربية وبين هيئات اركان الفيالق والفرق. ومُنح رئيس هيئة الاركان العامة الكبرى استقلالاً لا يستهان به (رغم انه اسمياً طرد من الدائرة الثانية). وجُعل مستشاراً لوزير الحربية.

وفيما بدا ان التغيير هذا قد هون على «موفلينغ» الخدمة الصورية تحت قيادة «روله»، فقد ظلت العلاقة بين الرجلين متوترة حتى العام ١٨٢٥، حين حلت المشكلة بحل الدائرة الثانية، مع الابقاء على استقلالية رئيس هيئة الاركان العامة، الذي تكرس موقعه كمستشار لوزير الحربية.

ظهور المجلس العسكري

في خلال الفترة ذاتها، كانت دائرة اخرى من دائرتي وزارة الحربية ـ الدائرة الثالثة ـ تكافح للحصول على استقلال مماثل. وليس من الواضح فيما اذا كان ذاك الوضع السيىء ناجماً عن ضعف «هاكه» ام عن قوة شخصيتي «موفلينغ» ورئيس الدائرة الثالثة العقيد «كارل ارنست يوب ڤيلهلم فون ڤتسليبن»، كبير مساعدي الملك وصديقه الحميم. وفي العام ١٨٢٤، أعيدت

تسمية الدائرة الثالثة بدائرة شؤون الأفراد، تحت رئاسة «فون ڤتسليين» الذي رقي فجأة الى رتبة لواء. وبالرغم من هذه التسمية، فقد اقتصرت مسؤولية هذه الدائرة على حفظ ذاتيات الضباط ليس إلا. وكانت العلاقة الشخصية بين الملك و«ڤتسليين» تعني بأن هذه الدائرة في خدمة الملك بصورة مباشرة، رغم انها كانت لا تزال اسمياً جزءاً من وزارة الحربية. وكان ذلك إيذاناً بإعادة تشكيل المجلس العسكري، اي القيادة العليا الخاصة بالملك، وهي واحدة من المؤسسات القديمة التي ألغاها «شارنهورست» في العام ١٨٠٧.

وقد قيل بأن استقلال كبير مساعدي الملك ورئيس هيئة الاركان العامة في وقت واحد تقريباً، كان بداية لظهور علاقة تنافس على التفوق بين وزير الحربية، وكبير مساعدي الملك، ورئيس هيئة الاركان العامة.[1] ورغم ان التنافس بين هؤلاء الثلاثة لم يكن مستبعداً، فانه لم يحدث عملياً في هذا الوقت. ذلك ان سلطة «هاكه»، رغم تقلّصها بعض الشيء، كانت لا تزال متقدمة على سلطتي «موفلينغ» و«ڤتسليين»، ناهيك بأن «موفلينغ» لم يكن يطمح الى منافسة وزير الحربية، اذ انه كان واحداً من الضباط الذين خدموا تحت امرة «شارنهورست» و«غنايزناو» وتأثروا بديناميتهما، بالرغم من انه كان رجعياً من الناحية السياسية. وقد برز بصورة خاصة في حملة «واترلو»، حيث عمل تحت قيادة «غرولمان» كضابط عمليات. وكان ضابطاً دؤوباً متوقد الذكاء، يصبو بصورة دائمة الى تحسين الجيش البروسي عبر تحسين هيئة الاركان العامة.

(١) Walter Georlits, *History of the German General Staff* (New York: 1953), p. 58. For another assessment, see Gordon Craig, *The Politics of the Prussian Army* (New York: 1956), p. 78.

الفصل الخامس: تأطير التفوق العسكري في مؤسسة

هيئة الاركان العامة والاحترافية البروسية

سلّم بعض المؤرخين العسكريين والسياسيين المحدثين، بأن انتصار الرجعية، والعزل الواضح للجيش عن الشعب (أو على الأقل عن اكثر العناصر تأثيراً من السكان)، والنقص في الخبرة العملياتية العسكرية، كل تلك العوامل قد تضافرت لإيجاد مناخ من الانحدار العسكري، شبيه بذلك الذي ساد بروسيا في الفترة الواقعة بين وفاة فريدريك الكبير ومعركة «يينا». وهم يعزون الانقلاب المفاجيء لهذا الانحدار العسكري المزعوم، كما تبين من انتصارات ١٨٦٤ و١٨٦٦ و١٨٧٠ و١٨٧١، الى مصادفة تاريخية تمثلت في ظهور «بسمارك» و«مولتكه» و«رون» في وقت واحد تقريباً، واحتلالهم لمواقع هامة في الدولة البروسية قبل تلك الانتصارات بقليل من جهة، والى عودة الحياة الى هيئة الاركان العامة على يد «مولتكه» من جهة ثانية[1]. لكن

(١) See for instance Michael Howard, *The Franco-Prussian War* (New York: 1962), p, 12: Hoffman Nickerson, *The Armed Horde, 1793-1939* (New York: 1940), p. 177: and Cyril Falls, *A Hundred Years of War* (London: 1953), p. 62. For a Different point of view, see Hajo Holborn, *A History of Modern Germany, 1648-1840* (New York: 1964), p. 459; Gordon A. Craig, *The Politics of the Prussian Army* (Oxford: Oxford University Press, 1955), pp. 77 *ff;* Goerlits, *op. cit.*, p. 57 *ff.*

هذه النظرة الى التاريخ البروسي خاطئة في الحقيقة، وتؤدي الى تفسير الاحداث العسكرية في هذه الحقبة الهامة تفسيراً مشوهاً.

لقد كان صعود «بسمارك» الى السلطة وليد مصادفة سياسية حقاً. ولا احد يُنكر بأنه استثمر انتصارات الجيش البروسي العسكرية واستغلها الى درجة لم يكن ليبلغها سواه. بيد ان بروز «مولتكه» و«رون» لم يتم صدفة، وإنما كانت عملية التحسين المستمرة الهادئة المحترفة للجيش البروسي في خلال العقود الأربعة التي تلت العام ١٨١٩، من العظم بحيث ان اسمي «مولتكه» و«رون» لم يكونا من الأهمية بمكان. فأي رجل تولى وزارة الحربية او رئاسة هيئة الاركان العامة، كان فيما مضى ضابطاً محترفاً ذا كفاءة عالية. وانتصارات بروسيا العسكرية، في اواسط القرن التاسع عشر كانت نتيجة حتمية لتفوق عسكري بروسي عريق، وليس نتيجة ظهور مفاجىء لعبقري عسكري واحد او اكثر. وبالرغم من التقلبات المحتومة التي ترافق شؤون البشر، والأثر التصادفي للاحداث غير المتوقعة وللشخصيات الفريدة، فقد تم الوصول الى غاية «شارنهورست» والعقل الجماعي لهيئة الاركان العامة قد منح بروسيا التفوق العسكري المؤطر في مؤسسة.

كان «مولتكه» رجلا كفؤاً، بل وبارعاً، لكنه لم يكن عبقرياً مثل الاسكندر الكبير، او «فريدريك» أو «نابليون» غير ان قدراته اوصلته الى القمة في جهاز عامل بصمت، قام بانتقاء الكفايات وتشجيعها ومكّنته من تنسيق الاعمال المنظمة لغيره من الضباط المؤهلين، في جهد جماعي قورن عن استحقاق بانجازات العباقرة.

السؤال هو: كيف تم ذلك في اربعة عقود؟

كان من الطبيعي بعد استقالة «بوين» وغرولمان» في اواخر العام ١٨١٩، ان يقوم «فريدريك وليام الثالث» بتعيين وزير جديد للحربية من بين اكثر الضباط رجعية. وكان الجنرال «فون هاكه» اكثر من ينطبق عليهم هذا الوصف، وكان في الوقت نفسه عسكرياً قد تعلم بالضرورة شيئاً من تجربتي «يينا» و«واترلو» ومن مجرد بقائه على قيد الحياة، وارتقائه الى القيادة العليا، ولم يكن بوسعه تغيير النظام العسكري الناجح الذي اقامه «شارنهورست»،

كما لم يكن بوسعه او بوسع اي ضابط بروسي آخر في العام ١٧٨٦ تغيير النظام العسكري الناجح الذي اقامه «فريدريك الكبير». ولكنه سواء اعجبه التغيير ام لم يعجبه ـ وقد اعجبه على الأرجح ـ فقد كان هنالك اختلاف جوهري بين النظامين، فنظام «فريدريك الكبير» كان متحجراً لا يغيره سوى «فريدريك» الذي كان قد مات، بينما كان نظام «شارنهورست» ديناميكياً، ومعداً لتلبية متطلبات توجيه مؤسسة دائمة بذاتها، وتضم رجالا محترفين ذوي ثقافة عالية، وهي هيئة الاركان العامة.

وكان ثمة اختلاف آخر بين نظام «شارنهورست» ونظام «فريدريك»، وهو اختلاف احدثه نظام الأول. فقد كان نظام «فريدريك» يسلم بأن يكون وضع الخطط الاستراتيجية، واتخاذ القرارات العملياتية، وتولي السيطرة التكتيكية، من عمل الملك البروسي، الذي تقوم بمساعدته في تنفيذ هذه المهام هيئة من ضباط قادرين على اقامة المعسكرات، والاشراف على تجميع المؤن، وتدوين الاوامر، ونقل الرسائل، واستطلاع مواقع العدو القائمة او المحتملة. وتتوافر فيهم مزايا الذكاء، والسرعة واليقظة. اما الضباط ذوو الخبرات القتالية، فوظيفتهم تقديم النصيحة او التعليق عندما يستدعون لذلك. وهي وظيفة لا تتطلب فكراً استراتيجياً او معرفة عميقة، لأنهم ليسوا اكثر من اياد، وعيون، وارجل اضافية تعمل كلها وفقاً لخطط الملك وقراراته، حتى لو اخذ الملك بنصيحة مساعديه الأوسع خبرة.

اما نظام «شارنهورست» فقد سلم بأن يتولى الملك القيادة العامة، ويتخذ القرارات المتعلقة بالحرب والسلم والاستراتيجية الوطنية، وحتى بتكتيكات ميدان المعركة، إذا ما شاء. ولكن التفكير والتخطيط اللذين تقوم عليهما تلك القرارات، وجملة العمليات التي تسبق قرار الملك، فهي مسؤولية مجموعة خاصة من الضباط المحترفين. واذا ما كان الملك جنرالاً موهوباً، كـ «فريدريك» الكبير، فان وجود هيئة كهذه يعزز موهبته. اما اذا كان حاكماً مدنياً ذا خبرة عسكرية يسيرة، فباستطاعته الاعتماد على هذه الهيئة كيما ينفذ مهام القيادة، ويتزوّد بالنصيحة العسكرية الضرورية لاتخاذ القرارات السياسية والسياسية ـ العسكرية.

وكان هذا هو النظام الذي استهله «شارنهورست» في العام ١٨٠٨، إبان اعادة تنظيم الجيش البروسي، عقب الهزائم التي لحقت به على يد «نابليون»، والذي تصوره «شارنهورست» ضمن المنهاج المدرسي الموسع للضباط الشبان، كما كان النظام الذي عمل به في خضم المعارك التي دارت بين عامي ١٨١٣ و١٩١٥.

واتخذ المصلحون الاربعة الباقون ومن تلاهم نموذج هيئة الاركان العامة الذي وضعه شارنهورست منطلقاً، وجعلوه مثالاً يحتذى عند الألمان وغيرهم حتى يومنا هذا.

طبيعة هيئة الاركان العامة

كانت الغاية الرئيسية للأركان العامة الوطنية، كما رآها «شارنهورست» وخلفاؤه، العمل كأداة بروسيا الأولى للتخطيط، والتنسيق، وللاشراف العسكري، وبالتالي التأكيد للملك بأن الجيش كان في حالة قصوى من الجاهزية العسكرية. وكانت الوظيفة الأولى لهيئة الاركان العامة تتمثل في التخطيط، اي اعداد الخطط في زمن السلم لتنفيذها في زمن الحرب. ولم تكن الأركان، كي تقوم بوظيفتها، بحاجة فقط الى اكبر قدر من المعلومات عن القوات المسلحة وعن الاستعداد الوطني للقتال ضد جميع الاعداء المحتملين، بل كانت بحاجة ايضاً الى اكبر قدر من المعلومات عن الحلفاء، وجغرافية مسارح العمليات الحربية المحتملة. واستناداً الى تلك المعلومات، يقوم كل قسم إقليمي من اقسام هيئة اركان «غرولمان» العامة الثلاثة بتحضير خطط لجميع الظروف التي يمكن ان تسبب حرباً وتستوجب قتالاً في المنطقة الواقعة ضمن مسؤوليته الاقليمية. ويقتضي الامر تنسيقا بين خطط الاقسام الاقليمية لمواجهة احتمال توزع القوات المسلحة على جبهات متعددة، واحتمال اشتراك دول اخرى في الصراع، سواء الى جانب بروسيا ام الى جانب اعدائها. وكان تعديل هذه الخطط وتحديثها يجري دورياً، وبشكل سنوي (عادة)، وكلما استجد حدث هام ذو تأثير على عملية التخطيط. وقد شهدت بروسيا في الفترة (١٨١٥ ـ ١٨٤٨) كثيراً من الاحداث المؤثرة التي لم تؤد عملياً الى نشوب حرب.

وكان من اهم عناصر الخطط الحربية البروسية عملية انتقال الجيش من وضعية زمن السلم الى الاستعداد الكلي للحرب. حيث توجب ان تكون عملية تعبئة الجيش سريعة وفاعلة، وان تكون موافقة تماماً للخطط العملياتية المعدّة لبداية العمل القتالي. كما توجب استدعاء الاحتياط، وتنظيمه، وتجهيزه، من اجل المعركة. وكان يفرض تحريك التشكيلات النظامية والاحتياط الى المواقع المحددة لها في بداية العمليات الدائرة، واتخاذ الاجراءات المتعلقة بتأمين الطعام والعلف والذخيرة لهذه القوات المجتمعة، والحفاظ على وتيرة وصول الامدادات الى القوات ما دامت الحملة مستمرة.

وكان اهم الخطط المرتبطة بشؤون التعبئة والشؤون الادارية، تلك الخطط المتعلقة بمد الجبهة بمزيد من الجنود، لكي يأخذوا مكان الجنود الذين قتلوا او جرحوا او اسروا في العمليات. وكان هذا يعني وضع خطة تجنيد مسبقة في زمن السلم، والاحتفاظ بضباط مدربين ومؤهلين بعيداً عن جبهة القتال، مهمتهم تدريب المجندين الجدد بما يكفل التعويض عن الخسائر بالأرواح.

ويأتي التنسيق بعد التخطيط، وهو يعتبر ثاني أهم وظائف هيئة الاركان العامة. وما كان هذا الاجراء للتنسيق بين خطط وعمليات تشكيلات الجيش الكبرى ـ الفيالق والفرق ـ فحسب، بل وللتنسيق بين انشطة التشكيلات نفسها، بحيث قام كل تشكيل باداء مهامه على اكمل وجه ممكن. وقد عنى التنسيق في جوهره، ترجمة خطط ما قبل الحرب الى عمل، وتولي ضباط واقسام هيئة الاركان العامة المسؤولين عن مختلف اوجه التخطيط، مسؤولية الوقوف على حسن سير التنفيذ، وإجراء التعديلات التي تفرضها الظروف المتبدلة وغير المتوقعة، وارتجال خطط بديلة عندما يتبين ان الخطط المرسومة غير موائمة.

وكان الإشراف في الواقع مرتبطاً بالتنسيق، بحكم ادائه الوظيفة ذاتها. وقد اعتقد «شارنهورست» بأن على هيئة الاركان العامة الا تتدخل في شؤون اركان قيادة النسق الادنى، ما دامت تلك الاركان تقوم بواجباتها بكفاءة وفعالية. ولكن ضباط هيئة الاركان كانوا مهيئين للتدخل فور تبيان عجز في

الاداء او ظهور ظروف مستجدة. ومن هنا، اقتضى الامر وجود إشراف دائم في المستويات الادنى، مع تحديد مسؤوليات اشراف خاصة لكل اركان، ولكل ضابط من ضباطها. وقد كان من نتائج هذا الاشراف نجاح «بلوخر» و«غنايزناو» بمساعدة من «غرولمان» وغيره من ضباط الاركان، في حث الجيش على مطاردة الخصم مطاردة فعالة اثر معركة «واترلو».

وكـان ثالث مهام هيئة الاركان العامة الرئيسية تتعلق بالجاهزية العملياتية، وهي مهمة ذات صلة وثيقة بالتخطيط والتنسيق، ووليدة كل منهما. وقد اشترطت عدة سمات كثقافة الضابط وتنظيمه وادارة مناوراته، اضافة الى تطوير عقيدة عملياتية جديدة. وكانت الدائرة الأولى، او الدائرة الادارية في وزارة الحربية، مسؤولة، بتوجيه من وزير الحربية، عن برنامج تدريب الجيش عبر سلسلة قيادات الجيش، وعن تأمين الأسلحة. ولكن هيئة الاركان العامة مارست مع مرور السنين تأثيراً متزايداً في هذا المضمار بحكم الارتباط بين التدريب والسلاح من جهة والعقيدة والخطط التي وضعتها هيئة الاركان من جهة ثانية وبالتالي كانت هيئة الاركان العامة معنية بصورة مباشرة او غير مباشرة بكل ما من شأنه تأمين الأداء الجيد لخطط ما قبل الحرب في حال نشوب حرب. وبالمقدار نفسه، قبلت هيئة الاركان مسؤولية ضمان تطابق الخطط مع امكانيات الجيش المعروفة والمثبتة، ومع ظروف الحروب المحتملة.

ومن الواضح ان هيئة الاركان العامة كانت في زمن السلم مهتمة بمسألتي التخطيط والجاهزية العملياتية رغم ان التنسيق والاشراف لم يكونا يقلان اهمية. ومع ان بروسيا شهدت سلاماً دام اكثر من ثلاثين عاماً عقب معركة «واترلو»، ظلت هيئة الاركان العامة على استعداد دائم للانتقال الى حالة الحرب، حيث يزداد التركيز على الاشراف والتنسيق الى جانب التخطيط والجاهزية العملياتية.

وقد لخص مؤرخ عسكري حديث(٢) روح نظام القرن التاسع عشر

(٢) Theodore Ropp, *War in the Modern World* (Durham, N.C.: Duke University Press 1959), pp. 137.

لهيئة الاركان العامة البروسية على النحو التالي:

«كانت ابرز ملامح نظام هيئة الاركان البروسية ـ التي عادت كلها الى عهد «شارنهورست» ـ هي:

١) استقلال هيئة الاركان العامة شبه التام ضمن اطار وزارة الحربية.

٢) اهتمامها الفريد بالنظرية والعقيدة العسكريتين، وبما يمكن تسميته بالتثقيف الذي يلي التخرج للضباط القدامى.

٣) تداور ضباط هيئة الاركان العامة بين هيئة الاركان العامة الكبرى وقوات الميدان. وكان دخول الكلية الحربية يتم عبر امتحانات تنافسية. وكان عدد الخريجين في اواخر القرن التاسع عشر لا يتعدى الخمسين ضابطاً تقريباً في السنة، عند ذلك يُلحقون بهيئة الاركان العامة الكبرى لمدة سنتين لزيادة خبرتهم في أعمال الطوبوغرافيا، وتمارين الخرائط، والسجال الحربي War game. وبعد الاشتراك في تدريبات هيئة الاركان السنوية، تحت اشراف شخصي من رئيس هيئة الاركان العامة، كان يتم اختيار ثلاثة او اربعة مرشحين اعضاء دائمين في هيئة الأركان العامة. (وكان يسمح لهؤلاء المرشحين بارتداء سراويل هيئة الاركان العامة ذات الخطوط الحمراء، حتى لو كانوا يخدمون في مراكز قيادية) اما الآخرون فينشرون مبادىء هيئة الاركان العامة، نظراً الى ان الضباط الذين ينهون تدريبهم في الكلية الحربية وهيئة الاركان العامة كانوا يكلفون عادة بمهام افضل، ويُرقّون بسرعة اكبر. ومع حلول العام ١٨٧٠، كان معظم كبار الضباط البروسيين قد دُرّبوا بهذه الطريقة.

وانطلاقاً من مثال هيئة الاركان العامة البروسية للقرن التاسع عشر، يمكننا ان نستخلص تعريفاً لهيئة الاركان العامة، ينسحب على جميع هيئات الاركان العامة اللاحقة:

هيئة الاركان العامة مجموعة مدربة تدريباً عالياً ومنتقاة من ذوي المواهب العسكرية المتعددة، مهمتها في وقت السلم او الحرب مساعدة قيادة

الامة العسكرية - او جنرال يقود قوة قتال تضم عناصر من مختلف صنوف الاسلحة - في تخطيط نشاطات جميع العناصر العسكرية التابعة له وضبطها، وتوجيهها، والتنسيق فيما بينها، والاشراف عليها، ببذل اقصى الجهود المتبادلة الممكنة الكفيلة بتحقيق المرمى او الهدف المنشود، او بالوقوف على اهبة الاستعداد الاقصى لبذل تلك الجهود.

ولما كان عمل القائد أو القيادة اتخاذ القرارات واصدار الاوامر، فان مسؤولية هيئة الاركان العامة تتمثل في تقديم كل دعم لضمان ان القرارات والاوامر قد جاءت في وقتها المناسب سليمة وفعالة.

موفلينغ رئيساً لهيئة الاركان

في اوائل منتصف عشرينات القرن التاسع عشر، أحدث موفلينغ عدة تغييرات في تنظيم هيئة الاركان واجراءاتها. فبعد تسلمه رئاسة هيئة الاركان العامة بقليل، وضع اسساً جديدة لجولات هيئة الاركان العامة، التي بدأها «شارنهورست» قبل حملة ١٨١٣، والتي هجرت في خلال الحرب بطبيعة الحال. وقد كانت الغاية من تلك الجولات الراكبة، جعل هيئة الاركان بأكملها تطلع عن كثب على احد مسارح العمليات المحتملة، التي بُذل الكثير من اجل وضع خطط الانتشار والقتال فيها. فكان الضباط يتنقلون في انحاء الريف مدة اسبوع او اكثر، ويتعرفون على تضاريسه محاولين تخيل المناورات المبنية على الخرائط في ارض الواقع. وعند المساء، تجرى مناقشة ما رأوه وما فعلوه في خلال النهار، حيث تدون ملاحظات ويقدم «موفلينغ» اقتراحات او يتخذ قرارات، بحيث يجري تعديل الخطط بعد العودة الى «برلين» بما يتلاءم مع المعطيات المستجدة.

ولدى اعادة تنظيمه لهيئة الاركان العامة، تخلى «موفلينغ» عن التصنيف الجغرافي الذي اسسه «غرولمان»، وحدد المسؤوليات على اسس محلية. وقد ظلت اقسام هيئة الاركان الاربعة على حالها. القسم الأول لشؤون الأفراد وخطة تزويد الجيش بالأفراد، وكانت مسؤوليته بصورة عامة التنسيق بين التخطيط ومسؤوليات ادارة الافراد في الدائرة الثالثة من وزارة الحربية. وكانت مسؤولية القسم الثاني محصورة في التنظيم والمناورات، وفي خطط

الانتشار والتحريك. كما انه ينسّق بين خطط الحرب والمناورات وبين برامج التدريب التي وضعتها الدائرة الأولى في وزارة الحربية. وكان القسم الثالث مسؤولاً عن شؤون التكنولوجيا والمدفعية. اما القسم الرابع الصغير فكان لا يزال معنياً بالتاريخ العسكري.

وقلما تجاوز عدد الضباط العاملين ضمن الاقسام الاربعة تلك العشرين ضابطاً. في حين كان هنالك ثمانية وثلاثون ضابطاً عاملين في مكتبي الطوبوغرافيا وعلم المثلثات، وملحقين بهيئة الأركان العامة، علماً بانهم لم يكونوا اعضاء في هيئة الاركان العامة. كما كان خمسون آخرون من ضباط هيئة الاركان العامة عاملين مع القوات.

وكان جلياً ان جهود المصلحين المتعلقة بتلازم الترقية مع الجدارة قد اصابت نجاحاً كبيراً، بالرغم من التيارين المحافظ والرجعي في الجيش. فقبل العام ١٨٣٠ بقليل، كان هنالك عشرون ضابطاً من اصل واحد وسبعين من ضباط هيئة الاركان العامة لا يحملون القاباً. وفي الوقت نفسه، كان سبعة عشر ضابطاً من اصل خمسة وثلاثين من ضباط هيئة الاركان العامة العاملين في مكتب الطوبوغرافيا، وضابطان من اصل ثلاثة ضباط من المسؤولين امام هيئة الاركان العامة عن اعمال المسح في مكتب علم المثلثات من عامة الشعب.

وكان «موفلينغ» - شأن جميع الاستراتيجيين البروسيين الذين جاؤوا قبله وبعده، قلقاً حيال قلة العوائق الطبيعية الكفيلة بمساعدة الجيش المدافع في تأخير اي غاز اجنبي على طول الحدود البروسية. فشرقي بروسيا كان مكشوفاً كلياً امام غزو روسي وسيليزيا مكشوفة امام غزو نمساوي، واقاليم الراين امام هجوم فرنسي. وقد وجد «موفلينغ» بأن لا مفر من التحالف مع النمسا في حال الصراع مع روسيا، او التحالف مع روسيا ضد النمسا، اذا ما انقلبت الاخيرة الى عدو لبروسيا. بيد انه ادرك بأن فرنسا ستكون ضد بروسيا في كلا الحالين.

وكان «موفلينغ» مجبراً على الافتراض بأن الاستراتيجية المعادية ستكون في البداية حشد قوات هائلة ضد بروسيا، أنى كان التكتل المضاد. وبالتالي

كان همه الأول وضع استراتيجية دفاعية كاملة، تمكّن بروسيا من مواجهة قوات كبيرة تغزو البلاد من جهتين. وكان مفهومه في الاساس عصرنة لاستراتيجية «فريدريك» الكبير التي شهدت نجاحها في العام ١٧٥٧: استخدام خطوط المواصلات الداخلية على نحو يسمح بحشد القوات الرئيسية من الجيش البروسي ضد كل تهديد على حدة، فيما تقوم قوات صغيرة بتأخير تقدم الجيوش المتجمعة الاخرى. وكانت النقطة الاساسية في ما تقتضيه استراتيجية كهذه، القدرة على تعبئة القوات وتحريكها وحشدها بسرعة وفعالية.

وكان اهتمام «موفلينغ» بنوعية الثقافة العسكرية لا يقل عن اهتمام اسلافه، حيث إنه خصص الكثير من الوقت والجهد من اجل زيادة تحسين نظام الجيش الثقافي، ووضع بالتعاون مع هيئة اركانه، كتاب الأركان الاول، لضمان الشمولية والتماسك. كما وانه كتب تاريخاً مفصّلاً للعمليات البروسية التي جرت إبان الحملات الاخيرة ضد «نابليون» (١٨١٣ - ١٨١٥) اثناء اوقات فراغه. ولا عجب انه اولى استراتيجية ١٨١٤ عناية بالغة، وهي الاستراتيجية التي اعتمدها «نابليون» ببراعة في دفاعه عن فرنسا ضد جيوش غزو متحالفة.

«كراوزينيك» رئيساً لهيئة الاركان العامة

تقاعد «موفلينغ» بعد ثمانية اعوام، وحل مكانه اللواء «فيلهلم يوهان فون كراوزينيك»، الذي ولد لأسرة من عامة الشعب، وارتقى سلم الرتب في خلال الحروب النابليونية، ثم نال لقب النبالة مكافأة له على خدمته المبرزة، وكان فيما مضى قد ساعد «شارنهورست» في إعداد انظمة التدريب الخاصة بالجيش البروسي بعد معركة «يينا».

وكان «كراوزينيك» اقل من «موفلينغ» إقداماً وديناميكية، ولكنه كان يشغل مركزه بكفاية وهدوء. ولم تشهد فترة توليه رئاسة الاركان الطويلة (١٨٢٩ - ١٨٤٨) اية ابتكارات او تغييرات، اذ كان قانعاً بتقفي آثار اسلافه. والحقيقة انه في ظل عدم وجود معضلات استراتيجية جديدة، فإن الديناميكية المتضمنة في النظام كانت كفيلة بتأمين مراجعة الخطط وتحديثها. بحيث

تعكس التطورات العسكرية والتكنولوجية الجديدة، كما تعكس توجهات التغيير في جيوش العدو المحتمل. وفي العام ١٨٣٣، ضمن تعديل شامل في جهاز التلغراف المرئي، تأمن انتقال الاوامر سريعاً الى جميع القيادات المساعدة، واستلام المعلومات من المخافر الحدودية بشكل فوري. وقبل ان يتقاعد «كراوزينيك» كان الجيش البروسي يختبر التلغراف الكهربائي الجديد. الذي تمت تجربته لاول مرة على يد «صموئيل ف. ب. مورس» في العام ١٨٤٤.

وكان اوضح ما يدل على استجابة الاركان العامة وحساسيتها تجاه التطورات المستجدة في عهد «كراوزينيك»، رد فعل الاركان ازاء ظهور السكك الحديدية. وكان الخط الاول في ألمانيا قصيراً امتد بين «نورنبرغ» و«فورث» Furth في العام ١٨٣٥. وفي خلال عامين، كانت الاركان العامة تعد دراسات حول احتمالات استخدام السكك الحديدية لتسريع وتيرة التعبئة البروسية. وقبل هذا، كانت الاركان تدرس الامكانات العسكرية لبندقية «دريزه» التي تلقم من الخلف، والتي اخترعها «يوهان نيكولاس فون دريزه» في حوالى العام ١٨٢٩.

وكان من المقرر ان تؤدي تلك الدراسات المبكرة الى جعل الجيش البروسي في عام تقاعد «كراوزينيك» (١٨٤٨)، أول جيش في العالم يزود مشاته بالبنادق الحديثة التي تلقم من الخلف(*).

وارتفع في اثناء ذلك مستوى الثقافة والاحترافية في الجيش على نحو ثابت. ولكن عزلة الضباط عن الشعب ازدادت اكثر فأكثر في الوقت نفسه، وازدادت معها نسبة الضباط الحاملين للألقاب، بحكم تفضيل ضباط الوحدات أبناء عائلات (اليونكر) على ابناء التجار او المزارعين، رغم تساوي الطرفين في المؤهلات. ومع ذلك لم ينجح هذا التطور الرجعي في ترجيح كفة حاملي الالقاب على غيرهم من الضباط.

(*) في الواقع لم يتم الانتقال من البندقية «الموسكيت» Musket ذات السبطانة الملساء التي تلقم من الامام الى البندقية التي تلقم من الخلف إلا في حوالى عام ١٨٦٠.

وقد نمت في الوقت ذاته بذور الليبرالية بين صفوف الشعب وكان سبب ذلك عائداً بدرجة كبيرة الى اتساع الفجوة بين افراد الطبقة الوسطى والعسكريين. وفي غضون سنوات قليلة، بدأ التفاعل الناجم عن ازدياد السكان وتصاعد الحس الليبرالي يرمي بثقله على العلاقات المدنية - العسكرية البروسية، مسبباً سلسلة من الازمات الحادة.

وفي اوائل الثلاثينات، اضطر تزايد السكان الاركان العامة الى اعادة النظر في خطط التأهيل والتعبئة. فقد كانَ عدد الشبان الصالحين للخدمة العسكرية في ارتفاع سنوي يتجاوز قدره مستويات التأهيل في الجيش على مجاراته. وبما ان الميزانية والسياسة كانتا عاجزتين عن تلبية مستلزمات ازدياد حجم الجيش، فقد أُعفي عدد كبير من الشبان من الخدمة العسكرية، الأمر الذي كان يعني بالطبع، بأن قدرة الامة على التعبئة بقيت على حالها رغم ازدياد عدد السكان، وبأن الشبان المعفيين من الخدمة قد اصبحوا بصورة نهائية خارج الاحتياط او على الأصح خارج الميليشيا الوطنية. ورغم ان معظم الضباط المحافظين قد حذروا من ان تقليص مدة الخدمة سيعرض مستوى الجيش الى الانحدار، فقد اوصت اركان «كراوزينيك» العامة بتخفيض فترة الخدمة العسكرية الفعلية من ثلاث سنوات الى سنتين، وزيادة فترة الخدمة الالزامية في الميليشيا الوطنية سنة واحدة، وذلك لتجنيد جميع العناصر الشابة دون زيادة حجم الجيش او زيادة اعبائه المالية. وقد وافق الملك على التوصية، وتم العمل بهذا التغيير في العام ١٨٣٣. ولم ينخفض مستوى الجيش في الحقيقة، بل ازدادت طاقة الامة على التعبئة سريعاً بنسبة ٥٠٪، تماماً كما توقعت دراسات «كراوزينيك».

جعل السجال (لعبة الحرب) تدبيراً رسمياً

بسبب كبر حجم احتياطي الجيش بالنسبة الى القوات العاملة، زاد «كراوزينيك» من تشديده على مناورات الخريف السنوية ولم يضمن هذا استعداد الاحتياطيين لأخذ اماكنهم في صفوف الجيش العامل فحسب، بل ضمن ايضاً استعداد وحدات الميليشيا الوطنية للعمل بفعالية الى جانب التشكيلات النظامية. ومن اجل إعداد الضباط للعمل بكفاءة قصوى في تلك

المناورات ادخل «كراوزينيك» الى جميع قطعات الجيش شكلا جديدا من السجال (العاب الحرب) War gaming، التي وصلت في العشرينات الى مستوى عال من التطور ضمن الاركان العامة، كنتيجة منطقية لتحليل الخطط ولجولات الاركان الاستطلاعية.

ويبدو ان «موفلينغ» هو الذي ادرك قيمة السجال العسكري كأداة للتخطيط الحربي. وكانت بروسيا وفرنسا قد شهدتا التعديلات المعقدة التي أُدخلت على لعبة الشطرنج، في القرن السابق. وهي اللعبة التي كانت تجري على لوحات معقدة، وتحدث بمربعاتها، التي كانت تصل احيانا الى ٣٦٠٠ مربع، اثارة ذهنية كالتي تحدثها لعبة الشطرنج ذاتها، ولكن من دون ان تعود على العسكريين بمنفعة عملية تذكر سوى تزجية اوقات فراغهم في اثناء قضائهم اجازات بعيداً عن ثكناتهم.

غير انه في بداية العشرينات، توصل ضابط شاب من ضباط حرس المدفعية (الملازم م. فون رايسڤيتس) مع ابيه الى طريقة لإضفاء مزيد من الواقعية، وذلك بأن نقلا تفاصيل لوحة لعبة «الداما» الى خريطة. (ولعلهما توصلا الى الفكرة بعد ان قرآ كيف كان «نابليون» يستخدم الدبابيس الملونة فوق الخرائط إبان التخطيط لحملاته). وعلى كل حال، اثارت هذه اللعبة اهتمام الامير الشاب «وليام» (الابن الثاني لفردريك وليام الثالث، والذي اصبح فيما بعد الامبراطور وليام الاول) الذي كان ملازماً في حرس المدفعية وصديقاً لـ «رايسڤيتس». وبعد وقت قصير، رآه «موفلينغ» يلعب مع اصدقائه هذه اللعبة، ويقال بأن «موفلينغ» صاح قائلا: «إنها ليست لعبة اطلاقاً! انها تدريب على الحرب! وانها ذات قيمة عظيمة للجيش كله».

وسواء قال ذلك ام لم يقله، فان «موفلينغ» تبنى بسرعة مفهوم الخريطة - اللعبة في الاركان العامة ووجد «رايسفيتس» نفسه ضمن الاركان، يرسم الخرائط ويسهم في ابتكار قواعد اللعبة. ثم شارك زملاءه الجدد في اصدار كتيب بعنوان «قواعد تمثيل المناورات التكتيكية على هيئة لعبة

حرب»[٣]. وعدل هذا الكتيب الذي اصدر في عام ١٨٢٤ مرتين، الاولى في عام ١٨٢٥ والثانية في عام ١٨٢٨(*).

وفي اواخر الثلاثينات، شاع في صفوف الجيش، وبتوجيه من «كراوزينيك»، استخدام هذا التمرين العسكري البسيط، ولكن الممتع عقلياً. وقد استخدمت مرحلة الكتابة Sand box في الوحدات الأدنى - فوج فما دون - الى جانب الخرائط، وذلك زيادة في توضيح خطوط اللعبة البيانية، واسهاماً في تبيان قيمتها كشكل من اشكال التدريب التكتيكي الممتع، وتسهيلاً لاستخدامها من قبل ضباط الصف.

وكانت لعبة الحرب في حقيقتها، كما طورتها الاركان العامة، فرصة أُتيحت للضباط التعامل كفريق واحد من القادة والاركانات مع مواقف قتالية حقيقية على الخرائط، التي قد توضح تضاريس ارض المعركة او لا توضحها. وكان يشرف على سير اللعبة حَكَمٌ واحد او اكثر لضمان تطابق التنفيذ مع التدريب والعقيدة. وكان يتم تحديد «الظروف الصدفية في الحرب» بمجموعة من مكعبات نرد صغيرة ملحقة باللعبة. وكان كل فريق يقوم بحركته عندما يحين دوره، حيث يدون ضباط محددون الأوامر ويقدمونها الى الحكم، الذي كان يطلق حكمه على نتائج تلك الاوامر، مستعيناً بالنرد حيناً، ومستغنياً عنه أحياناً. وتتحرك العلامات - قصاصات ورق او قطع خشبية او رصاصية عليها رموز ملائمة - على الخريطة وفقاً للأوامر ولظروف القتال. وبعد عدة سنوات، قام الامير «كرافت كارل اوغست تسو هوهنلوهه - اينغلفنغن»، احد ألمع ضباط الاركان العامة، بمحاولة شرح «لعبة الحرب» البروسية لفريق من الضباط النمساويين، بصفته ملحقاً عسكرياً في فيينا.

---

(٣) For an interesting description of the Reisswitz game and other reference sources on *Kriegsspiel*, see Sidney R. Giffin, *The Crisis Game* (New York: 1965), Chapter I.

(*) لقد كان لصعود رايسفيتس المفاجىء آثار مأساوية؛ اذ سرعان ما نقل من حياة الدعة في برلين الى حياة التقشف في حامية «تورغاو» اما بسبب مكائد زملائه السابقين، واما بسبب اخفاقه في التوفيق بين التواضع والنجاح. ولما وجد ان الامير وليام وموفلينغ قد احجما عن حمايته من الخدمة في الحامية الكئيبة، شعر باحباط شديد واقدم على الانتحار في عام ١٨٢٧.

وحين سأله ضابط نمساوي كان قد اخذته الحيرة كيف يتم تسجيل نقاط اللعبة، اوضح له بكل أناة بأن الغرض من اللعبة هو التعلّم، وبأن ليس هناك رابحون وخاسرون، وبان النقاط امر غير ضروري ما دام لا يهدف الى كسب المال. فهز النمساوي كتفيه عجباً وانصرف وهو يتمتم: «اذا ما الفائدة من كل ذلك؟».

وبالطبع، عرف ذلك النمساوي الجواب في العام ١٨٦٦(*).

وفي خلال الثلاثينات، انضم الى اركان «كراوزينيك» العامة ضابطان شابان، كان ينتظر لهما مستقبل باهر: الاول هو الملازم «**هيلموت** كارل بيرنارد **فون مولتكه**» (١٨٣٣)، وهو احد ابناء عائلة نبيلة من «ميكلينبورغ». والثاني هو النقيب «البريشت تيودور اميل فون رون»، الذي عين في الاركان العامة في العام ١٨٣٦. ومن المشكوك فيه ان يكون اي من هذين الضابطين المنضبطين قد اطلع على الممارسات غير المنضبطة، التي كان يقوم بها السياسي المعاصر لهما «اوتوفون بسمارك - شونهاوزن»، الذي كان يعمل في الخدمة البروسية المدنية بصفته احد ابناء «اليونكر»، والذي استقال من الخدمة في العام ١٨٤٠ قبل ان يطرد بسبب تقصيره.

(*) أي في الحرب البروسية - النمساوية التي اسفرت عن انتصار الجيش البروسي الساحق.

الفصل السادس: الجيش البروسي والاركان العامة

(منتصف القرن)

عودة بوين الى وزارة الحربية

أدى موت الملك «فريدريك وليام الثالث» في العام ١٨٤٠ الى تولي ابنه البكر، «فريدريك وليام الرابع»، العرش وأنعش مجيء الملك الجديد، المعروف كمفكر مرهف الحس، آمال الليبراليين البروسيين، المتزايد عددهم، في أن يحل التنوير في عهده. بيد ان «فريدريك وليام» الشاب كان رجلاً معقداً ذا تناقضات عديدة، فبالرغم من انسانيته واهتمامه المخلص بمتابعة الشؤون الفكرية والثقافية، فقد وقف بصرامة ضد هدفي الليبراليين البروسيين الاساسيين: وضع دستور لبروسيا وتوحيد المانيا قومياً.

وحين ووجه الدستوريون والقوميون بالمعارضة الملكية للاصلاح الليبرالي، ساد بين اكثر قطاعات المجتمع البروسي نفوذاً، رد فعل عنيف ضد الملك الجديد. وابتغاء لمرضاة هؤلاء الناس، أعاد الملك تعيين الليبرالي البروسي الأول «هيرمان فون بوين» ـ أحد مصلحي «شارنهورست» ـ وزيراً للحربية في العام ١٨٤١، وكان «بوين» الذي تقدم به السن لا يزال ليبرالياً، ولا يزال مخلصاً تماماً كما كان إبان نزاعه مع والد «فريدريك وليام». وكان ايضاً بعيد النظر في الشؤون العسكرية شأنه في كل وقت، ومستعداً للعمل

الى جانب «كراوزينيك»، رغم الاختلاف السياسي الكبير بين الرجلين. وقد أمر «بوين» بتبني بندقية «دريزه» التي تلقم من الخلف، والتي كانت اركان «كراوزينيك» قد استنفدت جهوداً كبيرة في اختبارها كسلاح اساسي للمشاة. كما انه آزر جهود «كراوزينيك» لتحسين الكفاءة التكتيكية للجيش والميليشيا، وزاد رواتب الجيش وارزاقه، ووضع للقضاء العسكري مجموعة قوانين اكثر ليبرالية، واشرف عن كثب على كتاب الرماية الجديد الخاص بالجيش.

ولكن «بوين» وجد نفسه عاجزاً عن التأثير على الملك سياسياً. وعن الاتصال به شخصياً بسبب المجلس العسكري الصاعد. الذي كان بادارة المعاون الأول للملك اللواء «لودفيغ ڤريدريش ليوبولد فون غيرلاخ»، صديق الملك الحميم. وبعد خمس سنوات من الاحباط، قدم «بوين» استقالته ثانية في العام ١٨٤٧.

ثورة ١٨٤٨

واجتاحت اوروبا في العام الثاني ثورة ليبرالية، كانت شرارتها انتفاضة شباط (فبراير) في باريس. واوشكت ان تصل الى هدفها في بروسيا. وجرى في منتصف آذار (مارس) قتال دام في شوارع «برلين» بين الجيش من جهة، ومجموعات من الشعب واعضاء بارزين من ليبراليي الميليشيا الوطنية من جهة ثانية. وأمر الملك الذي ارعبته اراقة الدماء بانسحاب الجيش من المدينة، ورضخ لمطالب الليبراليين. وقد أثار وعده بوضع دستور، ودعوته فوراً الى انعقاد جمعية دستورية، ترحيباً من قبل الثوار، وكآبة عميقة في صفوف ضباط الجيش المحافظين. وبدأ عدد من الجنرالات في التخطيط لانقلاب ملكي. وذلك إما لإعادة السلطة المطلقة «لفريدريك وليام» او للاطاحة به لمصلحة اخيه الاصغر، «وليام»، امير بروسيا. وكان «فريدريك وليام» في خلال هذه الفترة قد بدأ في زيادة اعتماده على مشورة مرافقه العسكري الرائد البارون «ادڤن فون مانتومل». وهو ضابط محافظ عنيد مكافح ومفعم بالحيوية والطموح، من الضباط الذين انجبتهم الأركان العامة.

وسرعان ما تحرر الشعب البروسي عامة، وسكان «برلين» خاصة، من تطرف غلاة الليبراليين في «برلين»، ومن رموز اليساريين المتحمسين في

الجمعية الدستورية. وأحس «فريدريك وليام» بلذة البادرة الشعبية، واستطاع الافادة منها، حيث امر الجيش في تشرين الثاني (نوفمبر) باحتلال «برلين» ثانية، وعطل اعمال الجمعية، من دون ان تبدر عن الشعب أية معارضة، رغم صرخات الليبراليين العالية. ثم وطّد مركزه في ٥ كانون الاول (ديسمبر) بإعلان الدستور، الذي ضمنه معظم التدابير التي وافقت الجمعية عليها.

دستور الملك

وبالرغم من التردد والحيرة إبان اشهر الاضطرابات التي مرت، أحرز «فريديرك وليام» انتصاراً هاماً على الصعيد الشخصي وعلى صعيد الحكم. فقد استعاد ولاء الجيش وكامل الدعم له من ناحية، وحقق مطالب الليبراليين الاساسية من ناحية ثانية. ومع ان الدستور الجديد قد حد بعض الشيء من سلطته الملكية، فقد ضمن له السلطة العليا في الدولة، وذلك بحصر حق القيادة العليا للجيش في شخص الملك.

ومع توضيح الملك لتسلسل القيادة العسكرية شعر معظم المحافظين من ضباط الملك بالرضى التام عن استخلاص افضل حل ممكن من أحداث ١٨٤٨ البائسة. وقد حذف من دستور الملك اقتراح الجمعية السابق القاضي بأن يؤدي الضباط اليمين الدستورية ـ وهو الاقتراح الذي وعد الملك بالاخذ به، والذي كاد ان يكون شرارة بدء الانقلاب الذي خطط له الجيش ـ واكتُفي بالقسم التقليدي بالولاء للملك.

غير أنه كانت في الدستور الجديد نقطة واحدة يكتنفها الغموض، وهي علاقة وزير الحربية ـ العسكرية ـ بالبرلمان والملك، فمن جهة، كان على وزير الحربية ان يقسم بأن يدعم الدستور كواحد من وزراء الملك، بينما هو مسؤول من جهة ثانية امام الملك مباشرة، بموجب تسلسل المراتب العسكرية وقسم الولاء، وبصفته كبير ضباط جيش الملك. ولم يكن هذا بحد ذاته يقلق أي وزير للحربية عُين من قبل الملك. إذ لم يكن لدى أي جنرال أدنى شك في ولائه. إنما المشكلة كانت تكمن في تطبيق هذا الشرط على بند آخر من الدستور، وهو الذي منح البرلمان حق جباية الضرائب، وتخصيص الاعتمادات المالية للاعمال الحكومية.

ولا ريب ان المسؤولين المدنيين الأعضاء في البرلمان كانوا يتمنون صون امن بروسيا بقوة عسكرية كافية، ولكن كان من الممكن ان يخالف المدنيون العسكريين فيما يتعلق بالكفاية. من هنا، كان على الجنرال وزير الحربية ان يفي بالتزاماته بجدية امام الدستور والبرلمان، شاء ذلك ام ابى. وقد عبّر «غوردون كرايغ» عن هذا الوضع بالكلمات القليلة التالية: «وهكذا اصبح وزير الحربية في فترة ما بعد الثورة، تجسيداً حياً للثنائية المحتومة التي وسمت الجهاز الحكومي الجديد ولطالما افضت مناسبات مثوله امام البرلمان الى اثارة نقد الجيش ومثله السياسية التي ناضل من **اجلها**»(١).

وكانت الاركان العامة منهمكة بمهام اخرى، بحيث لم يتسع لأعضائها المجال للالتفات الى الاحداث التاريخية التي كانت تأخذ مجراها في برلين وحولها في خلال ثورة ١٨٤٨. وفي الواقع، بالرغم من اهمية الثورة الكبرى على الصعيدين التاريخي والسياسي، والدور الكبير الذي لعبه الجيش، وبالرغم من المشاعر العارمة التي سادت آنذاك داخل الجيش وخارجه، فقد كان لتلك الاحداث في النهاية، وبصورة مثيرة للدهشة، اثر مباشر ضئيل، سواء على الجيش ام على دوره المقبل في التاريخ البروسي. وكانت هذه الحقيقة واحدة من اعمق مآسي ذلك التاريخ.

شليسڤيغ ـ هولشتاين وحرب الدانمارك ١٨٤٨

عندما انسحب الجيش من «برلين» في آذار (مارس)، انتقلت الاركان العامة الى قيادة مؤقتة في بوتسدام، ثم سرعان ما وجدت نفسها منغمسة في تنسيق القوى استعداداً لحرب خارجية مع الدانيمارك. وقد قلل المؤرخون من اهتمامهم بتلك الحرب وعلاقتها بالصراع الداخلي بين الملك وشعب بروسيا. ولفهم الخلفية المعقدة للصراع، وعلاقتها بالغليان في «برلين»، تجدر العودة الى مؤتمر فيينا (١٨١٤ ـ ١٨١٥).

لقد حاولت الدبلوماسية الجديدة التي انتهجها وزير خارجية النمسا المستشار الامير «فون ميترنيخ»، إعادة أوروبا، بقدر الامكان، الى الحدود وموازين القوى التي كانت قائمة قبل اندلاع الثورة الفرنسية وقبل مجيء

(١) Craig op. cit, p. 125.

«نابليون»، وكان من بين قراراتها التي لا تحصى قرار قبول التنازل عن الامبراطورية الرومانية المقدسة في العام ١٨٠٦، واستبدالها باتحاد كونفدرالي الماني يجمع تسعاً وثلاثين دولة ذات سيادة ضمن حدود الامبراطورية القديمة، او ضمن حدود ألمانيا. فانشىء «البندستاغ» او «الدايت» Diet (مجلس تشريعي) يضمن ممثلين عن تلك الدول ذات السيادة في «فرانكورت» ـ آم ـ ماين. ولم يكن (الدايت) هيئة تشريعية حقيقية، وإنما تركيباً آلياً ذا سلطات محدودة، للوصول الى المشورة داخل الاتحاد الكونفدرالي. وقد قدم هذا المجلس توصيات الى الحكومات المتعاقبة للدول الألمانية المستقلة، ولكن التوصيات لم تكن تعني شيئاً، ما لم تأخذ بها إحدى قوتي الاتحاد العظميين او كلاهما معاً:

النمسا وبروسيا

وكانت من بين كيانات الاتحاد التسع والثلاثين ، المانيا الشمالية، أو دوقية «هولشتاين»، التي كانت تشوب عضويتها في الاتحاد تعقيدات ناجمة عن ارتباطها التقليدي بدوقية «شليسڤيغ» النمساوية، المتاخمة لها من جهة الشمال وفي حين كان شعب «هولشتاين» المانياً، كان شعب «شليسفيغ» المانياً في الجنوب ودانيماركياً في الشمال. وكان دوق «شليسفيغ» دوقاً لـ «هولشتاين» لعدة سنوات، وملكاً على الدانيمارك في بعض الاحيان ولم تكن هذه العلاقات في حد ذاتها لتتعارض مع عضوية «هولشتاين» في الاتحاد الكونفدرالي الالماني، كوقوع معظم ممتلكات «هابسبرغ» النمساوية واراضي «هوهنزولرن»، بما فيها اقليم بروسيا نفسه ـ خارج حدود الاتحاد.

ونشأت بموت عاهل الدانيمارك الملك «كريستيان الثامن» في كانون الثاني (يناير) ١٨٤٨، وتولي ابنه «فريدريك السابع» العرش، معضلات جمة. فقد كان «فريدريك السابع» بلا وريث مباشر، الامر الذي ادى الى نشوب نزاع بينه وبين «دايت» هولشتاين حول مسألة الوراثة سيما ان وريث الملك الوحيد كانت ابنة اخيه لأن «هولشتاين» كانت تأبى بموجب قانون Salic law(*) ان تتولى امرأة الحكم. وقد وقف «دايت شليسفيغ» الى جانب «هولشتاين» بصدد هذا الامر، واغتنم المجلسان في

(*) قانون يحظر على الإناث وراثة العرش.

٣/٢٤ سانحة اشتعال المانيا بالثورات واعلنا عدم اعترافهما بالوراثة الدانيماركية، وتقدما من الاتحاد الكونفدرالي الألماني بطلب الانضمام الى الاتحاد تحت اسم «دولة شليسفيغ - هولشتاين المستقلة».

وافق «دايت الاتحاد في فرانكفورت» عل ذلك الطلب. وكان من الطبيعي ان يطلب من النمسا وبروسيا تطبيق حكم «الدايت»، ولكن النمسا كانت لا تزال تعاني من هزات الثورة. ورغم ان الاوضاع في بروسيا كانت لا تزال متوترة، فقد كانت الحكومة تقوم بتصريف اعمالها كالمعتاد في بوتسدام. وقرر «فريدريك وليام»، بدافع من مناصرته المفاجئة للقومية الألمانية ان يرسل جنوداً بروسيين الى الدوقيتين لحماية استقلالهما من القوات الدانيماركية التي كانت تحاول اخضاع الثوار المتمردين. وفي بداية نيسان (ابريل)، دخل جيش بروسي صغير «هولشتاين» تحت قيادة الجنرال الكونت «فريدريش **هايزيش** ارنست هون فرانفل»، ثم واصل سيره الى «**شليسفيغ**» مكتسحاً الجيش الدانيماركي بكل سهولة، وتم احتلال الدوقيتين بسرعة، في حين قام جزء من الجيش بغزو جنوب اقليم «جوتلاند» الدانيماركي، مهدداً باحتلالِ الاقليم بأكمله.

وبعد مناورات دبلوماسية معقدة، وضغوطات كبيرة من القوى الاوروبية، انسحب البروسيون من «جوتلاند»، ووافقوا على عقد هدنة. ولقد احس «فريدريك وليام الرابع» بشيء من الحرج حين وجد نفسه يساند متمردين ضد مملكة مجاورة، في وقت كان منغمساً في صراع مرير ضد ثوار بلده الليبراليين. وحين وصلت المفاوضات الى طريق مسدود، ورفض البروسيون الانسحاب من «شليسفيغ» و«هولشتاين»، جدد الدانيماركيون الحرب في نيسان (ابريل) ١٨٤٩، لكنهم أُصيبوا بهزيمة سريعة من جديد، وقام البروسيون مرة اخرى باحتلال اجزاء من «جوتلاند». وتعرضت بروسيا كما في السابق الى ضغوطات من روسيا والسويد وبريطانيا العظمى وفرنسا. وأخذ «فريدريك وليام» يبحث عن معادلة لبقة تمكن البروسيين من الانسحاب، بعد ان اشتد الضغط عليه وافضى سعيه الى تسوية سلمية صُدّقت في السنة التالية في «برلين»، واعترفت بروسيا بموجبها بالروابط بين «شليسفيغ» و«الدانيمارك». ولما كانت قضية استقلال دوقية «هولشتاين» قد أُهملت عملياً في التسوية

السلمية، فقد جاء اعتراف بروسيا بسيادة الدانيمارك على هذه الدوقية امراً واقعاً. وما ان انسحب البروسيون، حتى عاد الدانيماركيون الى الدوقيتين، ليجدوا انفسهم من جديد امام تمرد مسلح.

وكان الملك «فريدريك وليام» في هذه الاثناء، يبذل اقصى ما في وسعه لتجاهل الحرب الدائرة في «هولشتاين»، والتمرد المتواصل في «شليسفيغ»، موجهاً كل اهتمامه الى التطورات الجديدة التي طرأت على الاتحاد الكونفدرالي في «فرانكفورت»، حيث كان مجلس الاتحاد يحاول من خلال جلسات خاصة خلق امة ألمانية جديدة وكان التمثيل النمساوي في هذه الجلسات ضعيفاً، بسبب انهماك النمسا في إخماد التمرد المنتشر في انحاء البلاد. وفي نيسان (ابريل) ١٨٤٩، قدم المجلس الى «فريدريك وليام» تاج امبراطورية المانية جديدة مستثناة من «النمسا».

«المسألة الألمانية» والمواجهة مع النمسا

دار في بروسيا جدال طويل حول قضية إنشاء دولة ألمانية منفردة، وهي القضية التي سميت بالمسألة الألمانية. وكان معظم اعضاء البرلمان البروسي الجديد من القوميين، وكانت المشاعر في صفوف الجيش مختلطة، ولكن كان معظم الضباط المحافظين تقليديين، وبالتالي تحولت معاداتهم لليبرالية بصورة آلية تقريباً نحو القومية؛ بل انهم تبنوا هذا الموقف بسبب إعلان «فريدريك وليام الرابع» معارضته لانشاء دولة ألمانية منفردة انطلاقاً من قناعته بأن دولة كهذه ستكون تحت السيادة النمساوية، ووجدوا صعوبة في اعادة توجيه تفكيرهم بما ينسجم مع تقلبات السياسة الملكية المفاجئة.

وكان الى جانب «فريدريك وليام» إبان تقديم مجلس «فرانكفورت» التاج له ، الجنرال «جوزيف ماريا فون رادوفيتس» الذي كان واحداً من اقرب مستشاريه، وأحد وجوه المحافظين البروسيين في فرانكفورت. وكاد «رادوفيتس» ان يقنع الملك بقبول ما قدم اليه، لولا الرأي المخالف الذي ابداه المحافظون من امثال «مانتوفل»، وأوقع الملك في حيرة. وبعد ان نوه برحابة صدره، طالب الملك بأن يأتي العرض من امراء المانيا ومن الجمعية في آن معاً.

وفي هذا الوقت، كانت النمسا قد بدأت تحت زعامة الامير «فيليكس فون شفارتسنبرغ»، بالخروج من أهوال ثورة ١٨٤٨. وكان اشد ما يقلق النمسا تنامي القوة البروسية، كمصدر تهديد للأولوية النمساوية التقليدية في الشؤون الألمانية. كما كان واضحاً أمام «شفارتسنبرغ» بأنه اذا ما اصبح «فريدريك وليام» امبراطوراً على امة المانية جديدة لا تضم النمسا، فسوف يتقلص نفوذ امبراطورية هابسبرغ وهيبتها على نحو خطير فقرر «شفارتسنبرغ» القيام بعمل عنيف يحول دون ذلك رغم ما كانت النمسا تعانيه من ضعف نتيجة الثورات الاخيرة. وكان يشجعه على ذلك، كما هو جلي، إدراكه بأن معظم العناصر المتنفذة في الجيش البروسي ستؤازر جهوده الرامية الى الحؤول دون قيام ألمانيا موحدة.

ومع تصاعد التوتر بين الدولتين الألمانيتين الكبريين، اشعل الاضطراب الشعبي في «هسه ـ كاسيل» حرب مواجهة، وتلبية لنداءات من ناخب «هسه ـ كاسيل»، تحركت قوات نمساوية وباڤارية الى الناخبية لاخماد الانتفاضة، الامر الذي اقلق بروسيا، وجعل الحرب محتومة، ذلك لأن الطرق الرئيسية بين وسط بروسيا وبين اقاليمها في الراين، تمر عبر ناخبية «هسه ـ كاسيل». فدخلت قوات بروسية اراضي الناخبية لحماية تلك الطرق. وسارع «رادوفيتس» ـ الذي اصبح وزيرا للخارجية ـ ورئيس الوزراء «فريدريش ڤيلهلم فون براندنبرغ»، الى حث الملك على إعلان التعبئة العامة، ثم توجه «براندنبرغ» الى «وارسو» سعياً وراء تحالف روسي ـ بروسي ضد النمسا.

رايهر رئيسا للاركان

وحدث ان جرى مؤخراً تبديل في قيادة الاركان العامة البروسية. ففي أيار (مايو) ١٨٤٨، تقاعد «كراوزينيك»، وخلفه الجنرال «كارل فريدريش ڤلهلم فون رايهر» الذي كان ضابطاً من ضباط الاركان العامة منذ العام ١٨١٥. وقد كان الرئيس الجديد، شأنه شأن «كراوزينيك»، رجلا من عامة الشعب نجح في احراز ترقيات خلال الحروب النابوليونية، ونال لقب النبيل تقديراً لقدراته العسكرية الممتازة.

وكان «رايهر» الذي اعتبر خلفاً مناسباً لمنصب محترم، رجلاً بالغ

الذكاء، وواحداً من طلاب التاريخ العسكري، وإداريا كفؤاً وذا اخلاص للملك لا يحيد، وعزم صادق على تحسين الجيش البروسي. وكما في الماضي، كان رئيس الاركان العامة الجديد مساعداً اسمياً لوزير الحربية ـ وكان آنذاك الجنرال «كارل أدولف فون شتروتا». لكنه كان يتمتع عملياً باستقلال كامل بصفته مستشاراً للوزير.

ووجه «رايهر» عنايته الى خطر الحرب مع النمسا، فراجع خطط التعبئة والعمليات، وتأهب لاصدار الأوامر بتنفيذها في اية لحظة. وقد شارك الامير «وليام»، شقيق «فريدريك وليام»، الرأي القائل بأن كفاءة الجيش البروسي القتالية تبزُّ التفوق العددي الذي يتمتع به الجيش النمساوي. فمكث ينتظر امراً من الملك لوضع الخطط موضع التنفيذ.

ولكن الملك لم يصدر امره جرياً على عادته. فمنذ اشهر ثورة ١٨٤٨، وهو يتقلب في رأيه بصورة مباغتة، وتحت ضغط هائل من المحافظين التقليديين ـ الذين لم يكونوا يخشون النمسا، وإنما نفوذ القوميين الليبراليين الساعين الى امبراطورية المانية جديدة ـ بدأ «فريدريك وليام»، بالتخلي عن فكرة محاربة النمسا، وعن فكرة القومية الألمانية. وكان الناطق باسم المحافظين مرافق الملك «ادڤن فون مانتوفل» الذي تفوق على «رادوڤيتس» في الاقناع. وفجأة سحب «فريدريك وليام» دعمه «لرادوڤيتس» الذي لم يكن امامه سوى الاستقالة.

وقد كان «فريدريك وليام» يخشى النمسا ويحترمها دوماً. ورغم التأكيدات ـ من أخيه الأصغر العسكري ومن «رايهر» ـ بأن بروسيا قادرة على الحاق هزيمة بالنمسا، فان الملك غير العسكري لم يكن قادراً على ركوب المخاطر، بل كان خائفاً من تلك المقامرة، سيما وان مستشاريه المحافظين في الجيش قد ركزوا على عبثية حرب كهذه، أملاً في كبح اندفاع بروسيا نحو القومية اضف الى ذلك، أنه مع إزاحة «رادوفيتس» من مسرح الاحداث، عادت اعتراضات الملك القديمة على وحدة المانيا القومية الى السطح وقد اتاح موت «براندنبرغ» المفاجيء المجال للملك في تعيين «اوتو فون مانتوفل» شقيق «إدفن»، رئيساً للوزراء.

اتفاقية أولموتس

في ٢٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٩، وقّع «أوتو فون مانتوفل» والمستشار النمساوي الامير «شفارتسنبرغ» على اتفاقية في «أولموتس»، وافقت بروسيا بموجبها على سحب قواتها من «هسه - كاسيل»، ومساعدة الدانيمارك على اعادة بسط سلطتها في «شليسفيغ» و«هولشتاين» وأُحيلت مسألة مستقبل ألمانيا الى مؤتمر يعقد في «درزدن»، وتحضره النمسا. ومن هنا، وضح بأن «فريدريك وليام» قد تخلى نهائياً عن فكرة قيام امبراطورية المانية جديدة، مستثناة من النمسا، وأُعيد التأكيد على الاتحاد الكونفدرالي القديم.

وكانت نتائج «مذلة اولمتس» مخجلة، الى حد ان محافظي الجيش أنفسهم قد شعروا بالخجل حيالها، ولكنهم كانوا والملك، الذي نسي تودده الى دعاة القومية أميل الى التسليم بالأمر في ضوء تراجع القضيتين المتلازمتين: الليبرالية والقومية.

وكنتيجة لاتفاقية «أولموتس»، قامت قوة نمساوية - بروسية مشتركة بغزو «هولشتاين» و«شليسفيغ» من جديد. وكان الهدف هذه المرة اعادة السلطة الملكية الدانيماركية اليهما وبذلك اكتملت السياسة المرتدة!

وكانت احدى النتائج غير المتوقعة، الأثر الذي خلفته الحرب البروسية - الدانيماركية التافهة (١٨٤٨ - ١٨٤٩) وصلح «شليسفيغ - هولشتاين» الذي اعقبها، على الجيش النمساوي. فقد صعق اصحاب الفكر النمساويون من التناقض بين قدرة البروسيين على تشتيت القوات الدانيماركية والعصاة الدانيماركيين، وتعثر قمع الجيوش النمساوية إبان قمع ثورات ١٨٤٨ في النمسا، وبوهيميا، وهنغاريا، وشمال ايطاليا، خاصة وان الامبراطورية لم تعد الى اراضي هابسبرغ إلا بفضل غزو روسي شامل لهنغاريا. فبدأ كبار المسؤولين النمساويين في الحكومة والجيش يعون بأن التفوق العددي الهائل غير كفيل بالانتصار في حال وقوع حرب. لقد كان نجاح خديعة «شفار تسنبرغ» في «أولموتس» يعود بشكل رئيسي الى التفاهم الذي جرى مع مستشاري «فريدريك وليام» خلف الكواليس. ولكن النمساويين ايقنوا بأن

المحافظين انفسهم لن يتورعوا في قضايا أُخرى عن تحريض «فريدريك وليام» على مقاتلة النمسا لذلك بُذلت في اوائل الخمسينات جهود هائلة لإعادة الحياة الى الجيش النمساوي.

وصاية الامير وليام

في ٧ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٥٧، توفي الجنرال الموهوب «فون رايهر» فجأة، وعانى الملك «فريدريك وليام» قبل ان يتمكن من ملء المنصب الشاغر، من صدمة عنيفة جعلته عاجزاً كلياً عن تولي الحكم طوال السنوات الثلاث الاخيرة من حياته فسارع المجلس الى استدعاء امير بروسيا «وليام» شقيق «فريدريك وليام» للخدمة كنائب للملك السقيم في بداية الامر، ثم كوصي على العرش.

وكان الامير وليام، الذي ولد في العام ١٧٩٧، قد خدم كجندي منذ ان كان في السابعة عشرة من عمره. وكان ساعة استدعائه الى برلين الحاكم العسكري لاقليم الراين، وكانت قيادته العليا في «كوبلينتس» وشغل في السنوات الواحدة والثلاثين التالية منصب حاكم بروسيا، ثم اصبح نائباً للملك مدة سنة واحدة، ووصياً على العرش لمدة سبعة وعشرين شهراً، وملكاً مدة سبعة وعشرين عاماً. كما كان في السنوات السبع عشرة الاخيرة من حياته امبراطوراً على ألمانيا.

وكرجل عسكري، كانت اولى اهتمامات «وليام» لدى حلوله في برلين ان يضمن استمرار الاركان العامة وقيادتها. وفي ٢٩/١٠، اعلن عن تعيين اللواء «هيلموت كارل برنارد فون مولتكه»، البالغ من العمر سبعة وخمسين عاماً، رئيساً مؤقتاً للأركان العامة، حيث انه أحجم في البداية عن إجراء تعيينات نهائية، لانه كان يتوقع اعادة مقاليد الحكم الى «فريدريك وليام» خلال اسابيع او شهور قليلة.

سيرة الجنرال فون مولتكه

ولد «هيلموت فون مولتكه» في العام ١٨٠٠ لاب ضابط في الجيش البروسي، واسرة نبيلة غير ميسورة من اسر «مكلينبرغ» وقد التحق في شبابه بمدرسة صغار الضباط الملكية في كوبنهاغن، نتيجة استقالة ابيه من الجيش

البروسي وانضمامه الى الجيش الدانيماركي، وتخرج برتبة ملازم والتحق بفوج دانيماركي، ولما يتجاوز عمره التاسعة عشرة. بيد ان علاقته بأبيه غير الوثيقة، وحنينه الى الوطن، دفعاه في العام ١٨٢٢ الى طلب الخدمة في الجيش البروسي وكان آنذاك برتبة ملازم اول ولم يحظ بالموافقة على طلبه وحسب، بل سمح له ايضاً، بعد عام واحد من الخدمة كضابط فوج، بالالتحاق بالمدرسة الحربية العامة في العام ١٨٢٣.

وكان «كلاوزفيتس» حينذاك مديراً للمدرسة الحربية العامة، ولكن كما رأينا، كان احتكاكه بطلابه ضئيلاً. وليس هناك ما يثبت القصص التي حيكت حول نشوء علاقة بين الاستاذ والطالب «مولتكه» بل لعل «كلاوزفيتس» لم يشعر كلياً بوجود الملازم «فون مولتكه».

ولم يحس «مولتكه» بأول تأثير حقيقي ازاء «كلاوزفيتس» الا في عام ١٨٣٢، حين قرأ كتاب «في الحرب» الذي صدر بعد وفاة مؤلفه، والذي اعتبره «مولتكه» فوراً اهم شرح مطبوع للفلسفة العسكرية على الاطلاق.

وبعد اتمامه دراسته التي استغرقت ثلاث سنوات، عاد «مولتكه» الى فوجه، وخدم فيه مدة عامين. وفي العام ١٨٢٨، ونظراً الى سجله في المدرسة الحربية العامة والى آراء رؤسائه ومعلميه فيه، عُين في الاركان العامة التي ظل يخدم فيها لمدة ستين عاماً. ولم يسبق «لمولتكه»، قبل قيادته لمجموعة جيوش في العام ١٨٦٦، أن قاد وحدة، حتى على مستوى سرية.

وكان «مولتكه» في خلال فترة شبابه معدماً، فكان يسخر موهبته الفريدة في الكتابة لتسديد ثمن ملابسه. وكانت قصصه القصيرة ومقالاته في التاريخ تنشر في مجلات شعبية وصحف ثقافية، واستفاد من إلمامه باللغتين الالمانية والانكليزية، في ترجمة كلاسيكيات الانكليزية الى الالمانية (وفي الزواج من الانكليزية «ماري بورت» في العام ١٨٤٢). وشحذ في خلال تلك السنوات براعته في الكتابة الى درجة جعلت مؤرخاً اميركياً من اصل الماني يقول بأن «مولتكه» «اصبح واحداً من اعلام النثر الالماني»[٢].

---

(٢) Holborn, op. cit, p. 185.

واسندت الى «مولتكه» إبان خدمته في الاركان مهمتان في بلدين اجنبيين. ففي الفترة (١٨٣٥ - ١٨٣٩) خدم في تركيا كمستشار عسكري للسلطان محمود الثاني. وكان السلطان يحاول إحياء الجيش التركي بعد الهزيمة النكراء التي مني بها على يدي والي مصر «محمد علي باشا» وابنه «ابراهيم باشا». وفي ١٨٣٩ رافق «مولتكه» «حافظ باشا»، قائد الجيش المطوّر الذي ارسلته تركيا لغزو سوريا والانتقام من المصريين. وفي ٦/٢٤ التقى الاتراك بجيش «ابراهيم باشا» في «نيزيب» Nezib، وفضّل «حافظ باشا» نصيحة منجّمه على نصيحة مستشاره البروسي، فانتصر «ابراهيم باشا» مرة اخرى. وأثار ذلك استياء «مولتكه» وجعله يطلب العودة الى برلين. وفي نهاية العام عاد الى العمل في الاركان العامة، حيث لم يلبث ان حاز على رتبة رائد.

وكانت خطوط السكك الحديدية في هذا الوقت في بداية انتشارها عبر أوروبا. وكان اول خط حديدي في المانيا قد دُشن مؤخراً في العام ١٨٣٥. وقد وعى «مولتكه» اهمية الاختراع الجديد قبل الشروع في بناء خط «نورنبرغ - فورث»، وجعل يحث الاركان العامة على بناء الخطوط الحديدية لأهميتها العسكرية فيما يتعلق بتحرك الجيوش وامداداتها. كما انه استشف اهمية واسطة النقل الجديدة من الوجهة الاقتصادية، وعمد الى استثمار كل ما ادخره من مردود كتاباته وفائض راتبه في مشروع السكك الحديدية الدولية. ولسوء حظه، لم يرزق بابناء يرثون الثروة التي عادت بها عليه استثماراته.

وفي مستهل العام ١٨٤٥، أرسل «مولتكه» الى روما للخدمة كمساعد عسكري للامير العازب المتوحد «هنري» عم الملك «فريديرك وليام». ومات الامير قبل انقضاء عامين على خدمته، فعين، بعد ترقيته الى رتبة مقدم، رئيساً لاركان الجيش الرابع في كوبلنتس (راينلاند) ولا بد أنه التقى في هذا المجال الأمير «وليام»؛ الامير الجندي والحاكم العسكري للراينلاند. وقد استدعاه «رايهر» الى الاركان العامة في عام نشوب الحرب مع الدانيمارك (١٨٤٨)، ثم عُين في «بوتسدام» بصورة مؤقتة.

ومن الواضح ان الامير «وليام» قد راقب عمل «مولتكه» في الاركان

العامة في خلال السنوات التالية. وفي العام ١٨٥٥ عين الملك «فريدريك وليام» «فون مولتكه» الذي رقي مؤخراً الى رتبة لواء، مرافقاً للامير الشاب «فريدريك وليام»، الابن الوحيد للامير العسكري. ومالت الافتراضات الى ان التعيين قد جاء بطلب من «وليام»، ما دام التعيين في مثل هذا المركز امراً غير عادي بالنسبة الى ضابط كبير.

واتيحت للامير «وليام»، في السنتين التاليتين، عدة فرص لمراقبة معلم ابنه، العسكري الخاص والتحدث إليه. ودفعه اعجابه «بمولتكه» واحترامه له الى اختياره رئيس اركان عامة بالنيابة، وانصرافه بعد ذلك الى العناية بالتنظيم العسكري، واثقاً من جدارة «مولتكه» في التخطيط.

وقد اثار تعيين «مولتكه» حيرة كثير من الضباط البروسيين خارج الاركان العامة. اذ كان «مولتكه» المتواضع في نظرهم، إما ضابطاً غير معروف كلياً، واما معروفاً كمؤرخ عسكري ومؤلف لبعض الروايات التافهة. وكان الضابط العجوز الذي بلغ من العمر سبعة وخمسين عاماً قد تحدث في الفترة الاخيرة عن تقاعده.

الجنرال فون رون والاصلاحات في الجيش

كان «وليام» قد توصل، في خلال سنوات خدمته كقائد في الراينلاند الى استنتاج مفاده بان الجيش البروسي يحتاج الى تنظيم حقيقي جديد. وسنحت له، بعد تعيينه وصياً على العرش، فرصة عمل شيء ما بهذا الخصوص. ولكنه ادرك بأن من شأن اي اقتراح بتوسيع الجيش أو إعادة تنظيمه سيثير شكوك المجلس الاقليمي في البرلمان البروسي، اي «اللاندتاغ» الليبرالي. (وكان واثقاً من دعم الاوتوقراطيين اعضاء المجلس الأعلى له، لكونهم اما ضباطاً، او ضباطاً سابقين، او قريبين من اوساط الضباط). وكان اي اقتراح بإعادة التنظيم يتطلب تعليلاً عسكرياً قوياً لتخطي معارضة المجلس الاقليمي وشكوكه السياسية. واعتقد «وليام» بأنه وجد ضالته في المذكرة التي رفعها اليه اللواء «البريشت فون رون»، قائد الفرقة الرابعة عشر في دوسلدورف في تموز ١٨٥٨، اي إبان خدمته تحت قيادة الامير «وليام»، وقبل إصابة الملك المفاجئة.

وكانت ورقة «رون»، التي اسماها «الدستور العسكري في سبيل الوطن»، قد اقترحت زيادة حجم الجيش العامل، وذلك بالعودة الى نظام الثلاث سنوات للخدمة الالزامية. فقد كان تجنيد اربعين الف رجل في السنة مرتكزاً على خطة التجنيد التي وضعها «كراوزينيك» في العام ١٨٣٣، حين كان عدد سكان بروسيا اكثر من اثني عشر مليوناً بقليل، بينما بلغ عدد السكان في العام ١٨٥٩ اكثر من ثمانية عشر مليون نسمة. وبالرغم من تقليص مدة الخدمة بدءاً من العام ١٨٣٣، فقد تبين بعد ربع قرن ان ثلث رجال بروسيا قد حرموا من التدريب العسكري، وكان حرمانهم من التدريب خسارة للجيش الدائم وللاحتياط على حد سواء. ومن هنا، اوصى «رون» بأن يكون عدد المجندين سنوياً ثلاثة وستين الف رجل، بالاضافة الى خدمة الثلاث سنوات، وهذا يعني زيادة حجم الجيش العامل بنسبة ٤٠٪، وزيادة عدد الجيش الى مئتي الف رجل، وزيادة في عدد افراد الاحتياط المدربين.

وكان الهدف الرئيسي الثاني الذي ابتغته اصلاحات «رون»، تحسين جاهزية بروسيا العسكرية برفع مستوى فعالية الميليشيا الوطنية، بحيث يتضاعف نظرياً حجم الجيش العامل بصورة آلية، من جراء تعبئة ما كان يسمى بمجندي الصف الأول من الميليشيا الوطنية وفقاً لقانون ١٨١٥. غير ان رجال الجيش النظامي كانوا يعتبرون ذلك قولاً مضللاً، لأن الميليشيا الوطنية لم تدرب لتضارع مستويات الجيش، رغم التغييرات التي جرت في العام ١٨١٩. وقد أكدت الحرب الفرنسية ـ النمساوية في عام ١٨٥٩ الحاجة الى جيش يناهز المئتي الف رجل، يمكن زجه في الميدان فوراً، على ان يكون اداء هذا الجيش افضل مما لو كان نصف تعداده مؤلفاً من الميليشيا الوطنية السيئة التدريب.

من هنا، كان اقتراح «رون» ان يوسع الجيش العامل الى الحجم المطلوب، بمضاعفة عدد كتائب المشاة، وزيادة كل من الخيالة والمدفعية بنسبة ٢٥٪ تقريباً. (وبالنسبة للخيالة، يمكن تحقيق الزيادة بجعل سنوات الخدمة اربع سنوات بدلاً من ثلاث). وهذا الاصلاح كفيل بأن ينهي الحاجة الى مجندي الصف الأول من الميليشيا الوطنية، الذين لم يكونوا مؤهلين في أي حال. وعوضاً عن ذلك يجري دمج الميليشيا الوطنية المستقلة جزئياً

باحتياطي الجيش النظامي ووضعها تحت سيطرة الجيش الكاملة، وصولاً الى تأمين زيادة حقيقية في احتياطي مدرب تدريباً افضل ومهيأ لصراع طويل.

ورغم ان بعض ضباط الجيش قد شك في ان تكون اطالة فترة الخدمة امراً مرغوباً فيه، فان معظم الضباط كانوا موافقين كلياً على الهدف الذي رمت اليه خطوات «رون» الاصلاحية، ولم يعِ المضامين السياسية الخطيرة للاقتراحات سوى عدد قليل من الضباط، ووزير الحربية الجديد الجنرال «ادوارد فون بونين»، الذي كان قد شغل المنصب نفسه من عام ١٨٥٢ الى عام ١٨٥٤. ولقد انخفض الدعم الشعبي الشامل للجيش بين المواطنين البروسيين في السنوات التي اعقبت حروب التحرير، مع أن الميليشيا الوطنية كانت لا تزال تعتبر ميليشيا الشعب رغم خضوعها بشكل جزئي لسيطرة الجيش. ذلك ان أحداث ١٨٤٨ قد اكدت بأن الجيش لا يزال جيش الملك وكانت الميليشيا الوطنية الحافز الرئيسي لانتشار حس المساهمة الشعبية العسكرية بين فئات واسعة من الشعب، رغم العلاقة المضطربة القائمة بين مجموعة الضباط الارستقراطيين ومعظم افراد الطبقة الوسطى. من هنا كان اللجوء الى حل الميليشيا الوطنية، او تحجيم دورها في حفظ امن الامة، يعني القضاء على واحد من اهم اصلاحات «شارنهورست» واجداها. وقد اعترف «بونين» المعجب كثيراً «ببوين»، بالحاجة الى اصلاحات عسكرية جديدة، لكنه شك في ان يكون اقتراح «رون» السبيل الى ذلك. وكان يعرف ان البرلمان لن يوافق على تخصيص اعتمادات مالية لجيش يكاد أن يتضاعف تعداده.

وكان «رون» يعي تماماً المعاني السياسية التي تضمنتها اقتراحاته بخصوص الميليشيا الوطنية. واعتبر لدى تذكره بشيء من المرارة دور الميليشيا الوطنية في ثورة ١٨٤٨، ان هذا الاخضاع للميليشيا غير الجديرة بالثقة حتى الساعة قد اسبغت علاوة سياسية لخطة وضعت اساساً وفقاً لاعتبارات عسكرية. ولعل «وليم» الذي شارك «رون» تزمته السياسي مشاركة تامة، كان اشد رضى على التبعات السياسية تلك. ويبدو ان الوصي على العرش قد قام في اواخر ١٨٥٨ او أوائل ١٨٥٩ باستشارة «رون» مراراً حول افضل السبل لتنفيذ التغييرات المقترحة. ويبدو واضحاً ايضاً ان العقيد «فون

مانتوفل»، الذي اصبح رئيس قسم شؤون الافراد في وزارة الحربية، واللواء «غوستاف فون ألفنسليبين» قد شاركا في الاستشارات تلك. وليس من الواضح الى اي مدى كانت استشارة الوصي لوزير الحربية «فون بونين»، الذي كان يعارض بشدة المواجهة السياسية ـ العسكرية مع البرلمان، تلك المواجهة التي بدا ان «مانتوفل» و«ألفنسليبين» قد سعيا اليها.

مولتكه رئيساً للاركان

لم يكن الرئيس المؤقت للأركان، الجنرال «فون مولتكه» مهتماً بالمناقشات الدائرة. وظن الأمير الوصي بأن شؤون التنظيم والامور السياسية والعسكرية كانت خارج دائرة اختصاص الأركان العامة، وان «مولتكه» كان قانعاً بألا يتورط في الجدال العسير حول الاصلاح العسكري. ووجد الوصي بأنه يكفي اشغال «مولتكه» بالتفكير في معضلات بروسيا الاستراتيجية، وبالانصراف الى اعادة تنظيم الاركان العامة تنظيماً شاملا.

وحالما تم تعيينه رئيساً دائما للاركان في ١٨٥٨/٩/١٨، بدأ «مولتكه» تقديم التغييرات التنظيمية التي شعر بأنها ضرورية. وقرر العودة بشكل جزئي الى التنظيم القائم على التوجه الجغرافي او التوجه الاستراتيجي، والذي اعتمده «غرولمان» و«موفلينغ»، من دون التغاضي كلياً عن التوجه الوظيفي الذي بدأه «كراوزنيك»، وحافظ عليه «رايهر». وادى التنظيم الذي وضعه «مولتكه» في ١٨٥٨ ـ ١٨٥٩ الى تقسيم الاركان الى اربعة اقسام تخطيط رئيسية، او الى اربع دوائر تخطيط كما اصبحت التسمية.

كانت الدائرة الشرقية مسؤولة عن الاستراتيجية والتخطيط المتعلقين باعتداءات محتملة، وتحالفات تشمل روسيا، والامبراطورية النمساوية ـ الهنغارية، والسويد وتركيا. وكانت الدائرة الالمانية معنية بكل ما يتعلق بالدول الالمانية (بما فيها النمسا)، والدانيمارك وسويسرا وإيطاليا. اما الدائرة الغربية او الدائرة الفرنسية، فلم تكن معنية بفرنسا نابليون الثالث وحسب، بل معنية ايضاً ببريطانيا العظمى، والأراضي الواطئة (هولندا)، وبلجيكا، واسبانيا، والولايات المتحدة. وقد انشئت دائرة جديدة للسكك الحديدية وكانت هذه الدائرة مسؤولة عن استخدام السكك الحديدية لأغراض عسكرية، بالتنسيق

مع وزارة التجارة، ووفقاً لخطط التعبئة والعمليات التي تضعها الدوائر الجغرافية الثلاث(*).

ورغم انه لم تحدد لدائرة التاريخ العسكري مسؤوليات تخطيطية فقد أبقي عليها كعنصر هام في الاركان العامة وأنيطت بها وظيفتان: الأولى تلبية احتياجات الدوائر الاخرى من معلومات ومؤازرة، والثانية إعداد دراسات تقوم بتحليل استراتيجية وتكتيكات عمليات تاريخية جرت في الماضي القريب او البعيد.

الحرب الفرنسية ـ النمساوية والتعبئة البروسية

جرى اول اختبار هام للتنظيم المعدل، ولدائرة السكك الحديدية بالتحديد، في منتصف العام ١٨٥٩، ففي نيسان (ابريل) من ذلك العام، نشبت حرب في شمال ايطاليا بين النمسا من جهة ومملكة «سردينيا» (او بيدمون Piedmont) تدعمها فرنسا من جهة ثانية. وكان غزو «لومبارديا» النمساوية في بداية حزيران (يونيو) من قبل الجيشين الفرنسي والسرديني تحت قيادة «نابليون الثالث» شخصيا، قد جعل الامبراطور النمساوي «فرانسيس جوزيف» يناشد الوصي على عرش بروسيا القيام بعمل مشترك ضد العدو التقليدي: فرنسا. وفي ٤ حزيران (يونيو) دحر الفرنسيون النمساويين في «ماجينتا» وبعد ذلك باربعة ايام دخل الملك السرديني «فيكتور ايمانويل» «ميلانو» دخول الفاتحين. واتجه الجيش الفرنسي ـ السرديني شرقاً قاصداً «البندقية».

وفي ١٤ حزيران (يونيو) أمر «وليام» بالتعبئة العامة البروسية ضد فرنسا. وكانت الاوامر قد صدرت فوراً استناداً الى خطط «مولتكه»، واصبحت السكك الحديدية لأول مرة الوسائط الرئيسية لتحريك القوات والمواد الى مناطق التجمع التعبوية. بيد ان التعبئة لم تدرك دلالتها الاقتصادية او النفسانية، التي كان من المفترض ادراكها كتطور منطقي لمفاهيم «مولتكه»، ساعة طبقت على «امة تحت السلاح». وكان من المشكوك فيه ان يبادر الامير

(*) يعتقد الاميركيون بأن الأهمية العسكرية للسكك الحديدية لم تظهر عملياً الا إبان الحرب الأهلية الاميركية. غير ان مولتكه كان يسبقنا بعشرين سنة. وقد بدت فذلكة الاركان العامة الالمانية في هذا المجال لدى انشائها دائرة للسكك الحديدية كقسم هام من اقسام الاركان في العام ١٨٥٩ تقريبا، اي قبل اكثر من سنتين على اندلاع الحرب الاهلية.

«وليام» الى اصدار اوامر بالتعبئة لو انه كان وسواه يعتبرون ذلك قراراً نهائياً بخوض الحرب. ويبدو انه في الواقع لم يتخذ هذه الخطوة بسبب من قناعات متعلقة بشؤون الحرب، او حتى من ضرورة لاظهار التضامن البروسي مع النمسا على اعتبار ان الدولتين عضوان في الاتحاد الكونفدرالي الألماني. وإنما الحقيقة بكل بساطة، هي ان الصراع بين خصمي بروسيا الرئيسيين كان فرصة لا تعوض كي تغنم بروسيا شيئاً على حساب احد الطرفين المتنازعين او على حساب الطرفين معاً. وبدأ «وليام» يفاوض الامبراطور «فرانسيس جوزيف» حول قيام الاتحاد الكونفدرالي الألماني بغزو فرنسا.

وفيما كان الجزء الرئيسي من الجيش البروسي يحتشد في اقليم «راينلاند» ببطء وارتباك شديدين، خلافاً لتوقعات «مولتكه»، غادر «فرانسيس جوزيف» فيينا كيما يتولى قيادة الجيوش النمساوية في ايطاليا. وبعد مضي ايام (٢٤ حزيران) التقى جيوش الخصمين: الامبراطور «نابليون الثالث» و«فرانسيس جوزيف» في «سولفيرينو»، بعد مناورة غير بارعة من الطرفين. وفي معركة دموية، قلل الامبراطور النمساوي من قدر «نابليون»، فسيطر الجيش الفرنسي على ميدان القتال، وانسحب النمساويون خلف مضلع رباعي هائل شكلت اضلاعه المدن الحصينة: مانتوفا، بيشييرا Peschiera فيرونا، ليناياغو.

وبصورة غير متوقعة، فتح «نابليون الثالث» باب التفاوض مع «فرانسيس جوزيف»، وتوصل الامبراطوران الى تسوية في «ڤيلافرانكا» إيذاناً بنهاية الحرب في ١١ تموز (يوليو)، الامر الذي اثار اشمئزاز حلفاء «نابليون» الايطاليين، وازعج «وليام بروسيا» ذلك لان الايطاليين اعتقدوا بأن الامبراطور الفرنسي وعدهم بغزو «ڤينيزيا» Venezia واحتلالها، ولأن وصي عرش بروسيا لم ينتزع من اي من الجانبين المتنازعين أية تنازلات.

أما «مولتكه»، فقد غمره شعور غامض، تراوح بين الارتياح والاحباط، إزاء النهاية المفاجئة للحرب الفرنسية ـ النمساوية. وبادر هو واركانه الى التحرك باقصى سرعة للاستفادة من دروس التعبئة الفاشلة، وخبرات الحملة في شمال ايطاليا. وعمل شخصياً الى جانب دائرة السكك الحديدية، والدائرة الالمانية،

ودائرة التاريخ العسكري. وظهرت نتائج كل ذلك في العام ١٨٦٢.

وكان مشروع مناورات بروسيا السنوية في ذلك الصيف يتمحور حول تحقيق التعبئة والنقل بالسكك الحديدية في حرب محتملة في شمال المانيا او ضد الدانيمارك. وجرى التنسيق في هذه المرة بين عمل القوات والسكك الحديدية على أفضل وجه، وتم تجاوز كبوة ١٨٥٩.

وانتهى «مولتكه» في السنة نفسها ايضاً من وضع واصدار دراسة عن حملة ١٨٥٩ الايطالية، واستطاع من خلال التغطيات الصحفية وتقارير المراقبين البروسيين في فرنسا، وايطاليا والنمسا، ان يرسم صورة متكاملة ودقيقة للعمليات التي كانت اكبر حملة ميدانية اوروبية تجري منذ «واترلو». ويبدو ان العامل الذي ترك ابلغ الأثر في فكر «مولتكه»، هو المشقة البالغة التي لقيتها القيادات العليا في مواصلة السيطرة على قوات ميدانية يقارب عددها المئتي الف رجل، حيث انهارت كلياً جهود الطرفين للحفاظ على التماسك في «سولفيرينو»، ووضح «لمولتكه» ان ذلك لم يكن مجرد نتيجة لتدخل الامبراطورين القائدين غير المحترفين. فمنذ اللحظة الاولى من احتشاد جيوش الجانبين المتصارعين في شمالي ايطاليا ـ وبالرغم من استخدام الجانبين السكك الحديدية في تحريك القوات والامدادات ـ كانت وتيرة العمليات ابطأ من وتيرة عمليات الحروب النابليونية. ولاحظ «مولتكه» ان قادة الصف الثاني وقواتهم في الجيشين الفرنسي والنمساوي، كانوا يقومون بمهامهم على اكمل وجه حين تكون الاوامر الصادرة اليهم واضحة، ويتوقفون بانتظار مزيد من التعليمات حين يجدون ان الاوامر ناقصة او متضاربة.

ومن المحتمل ان «مولتكه» لم يعتقد بأن القادة البروسيين كانوا مترددين كالفرنسيين والنمساويين، بحكم كون البروسيين اقرب الى مفاهيم الحرب الهجومية، ولكنه كان عازماً على بذل اقصر ما يمكن لتجنب اي احتمال كهذا. وقد اكدت امثلة الحملة الايطالية رأيه القائل بأنه يتوجب تكليف القادة بمهام عامة متصلة بأهداف رئيسية ومستوعبة بوضوح، ومن ثم تزويدهم بتعليمات لتنفيذ تلك المهام بنقل ثقل المعركة الى ارض العدو، كما وضح له بأن المبدأ النابليوني القديم: «تفرقوا لتنجوا واتحدوا لتقاتلوا» قد احتاج الى

تعديل يناسب جيوش القرن التاسع عشر الجرارة بحيث يصبح: «تفرقوا لتنجوا وتتحركوا، واتحدوا لتقاتلوا وحسب».

كانت هذه الدروس مفهومة ضمناً في دراسة «مولتكه»، فقام هو بتوضيحها لاركانه في الدليل الذي زود به المعلمين في الاكاديمية الحربية، وفي محاضراته التي القاها في تلك المؤسسة. ومن هنا كانت الدروس المستفادة التي استخلصها التفوق المؤطر داخل مؤسسة، والمتمثل في الاركان العامة البروسية، من حملة ١٨٥٩ الايطالية، اكثر من الدروس التي استخلصها الضباط الفرنسيون او النمساويون الذين شاركوا في تلك الحملة.

أزمة اصلاحات الجيش

ابتعد «مولتكه» إبّان انصرافه واركانه الى دروس حرب ١٨٥٩، عن الاحداث السياسية ـ العسكرية الدراماتيكية الجارية في بروسيا. وكان الامير «وليام» في بداية ١٨٥٩ قد طلب من وزير الحربية «بونين» اعداد القوانين والترتيبات الضرورية للأخذ باقتراح «رون» الخاص باصلاح الجيش.

ولقد حاول «بونين» دون جدوى ان يشرح للوصي على العرش ما تنطوي عليه الاصلاحات المقترحة من مضامين سياسية. والاهم من ذلك انه حاول تسليط الضوء على أن هذه التغييرات ستكون غير شعبية بالنسبة للبرلمان. وسرعان ما ادرك ان «وليام» كان أميل الى فكرة اظهار الجيش البروسي بأنه جيش الملكية، وليس جيش البرلمان او جيش الشعب الذي يمثله. اما جهود «بونين» لدفع «وليام» الى تعديل الاصلاحات المقترحة، ومواصلة العمل بنظام خدمة السنتين، والابقاء على شيء من استقلالية دور الميليشيا الوطنية، فقد تضاءل اثرها امام حجج «مانتوفل» و«القنسليبين» المقنعة.

وكان جلياً للامير «وليام»، ولكل من «رون» و«مانتوفل» و«القنسليبين»، ان التعبئة في العام ١٨٥٩ قد قدمت فرصة رائعة لبدء اصلاحات «رون» المقترحة، حيث يمكن ابقاء افواج الميليشيا الوطنية المستدعاة للخدمة العملية معدة بمستوى اقل من القوة، ضمن ملاك الجيش النظامي ساعة يتم

تسريح المدنيين المجندين، ثم يجري اتمامها حين يستدعى الصف الجديد من المجندين الشبان الى الخدمة. وفي ايلول (سبتمبر) ١٨٥٩، وفي ضوء معارضة «بونين» للفكرة استطاع «مانتوفل» و«الفنسليبين» اقناع الامير بتخطي وزارة الحربية، وتعيين «رون» على رأس لجنة عسكرية تقوم بتحويل اقتراحات الاصلاح الى البرلمان لمناقشتها. وقام «وليام» في الوقت نفسه باحياء المجلس العسكري القديم، جاعلاً «مانتوفل» رئيساً له. وسحبت جميع تعيينات الضباط من وزارة الحربية، ليتولى المجلس الحربي معالجتها فيما بعد.

إزاء هذا الاحراج الملكي، قدم «بونين» استقالته كوزير للحربية في نهاية تشرين الاول (اكتوبر). ومضى قرابة شهر والوصي ينظر في امر الاستقالة. وما ان انتهى «رون» ولجنته من إعداد الاقتراح في نهاية تشرين الثاني (نوفمبر)، حتى قبل الاستقالة، وعُين «رون» وزيراً جديداً للحربية في ٥ كانون الاول (ديسمبر). وقام «رون» في يوم تعيينه بالذات بتقديم مقترح الاصلاح إلى البرلمان.

وكان رد الفعل مطابقاً لتوقعات «بونين».وحين رأى «وليام» ذلك، سحب المشروع من البرلمان، وحال بالتالي دون مناقشته. وطالب البرلمان بدلاً من ذلك بمبلغ تسعة ملايين «تالر» كاعتماد مالي «مؤقت». واستبقى، بصفته الدستورية كقائد عام للجيش، افواج الميليشيا الوطنية في الخدمة الفعلية، رغم ان الجنود غير المتفرغين كانوا قد سُرّحوا.

ومن المشكوك فيه ان يكون «وليام» قد قصد أي عمل ماكر من وراء طلبه الاعتماد «المؤقت». وفي اي حال، فقد آثر أعضاء البرلمان ان يعتبروا سحبه للمشروع مؤشراً على رغبة ملكية في التفاوض، وبالطبع، لم يثنهم «رون» و«مانتوفل» و«الفنسليبين» عن هذا الافتراض. وهكذا قام المجلس في بداية ١٨٦٠ بالمقابل بالتصويت على مبلغ ٧,٢ مليون تالر كاعتماد مؤقت، لقاء التحرر من اي التزام برلماني دائم تجاه الاصلاح. وقد وضح من المناقشة بأن الموافقة على صيغة «المؤقت» قد عنت بألا تخصص اي مصروفات لتسهيلات دائمة كالثكنات. وفي مناقشات المجلس، أكد القادة

المسؤولون دعمهم الوطني للحماية العسكرية «الكافية»، ومعارضتهم لـ «القوة العسكرية غير الخاضعة للمراقبة».

ولم يعر الامير «وليام» ووزير الحربية «فون رون» الملاحظات البرلمانية اهتماماً يذكر. فزيد تعداد الجيش وأُحيلت الميليشيا الوطنية الى الاحتياط فوراً، بل وشرع «رون» يمارس سلطة تدريب الميليشيا الوطنية وتجهيزها من خلال الجيش، خلافاً لما جاء في قانون العام ١٨١٥. كما تجاهل ما جاء في توصية البرلمان حول التسهيلات الدائمة.

وبقيت القضية معلقة لاكثر من سنة، ولكن في العام ١٨٦١، اشار البرلمان الى رغبته في تخصيص «بصورة مؤقتة» مبلغ آخر قيمته ٧,٣ مليون تالر، شرط ان يتسلم في خلال سنة واحدة، او سنتين على الاكثر قانون تسوية الجيش. (اقترح «رون» تسوية السنتين)، بيد ان «وليام»، الذي كان قد اصبح ملكاً منذ وفاة اخيه في كانون الثاني (يناير)، لم ير سبباً للتسوية. فقد كان امر تأييد الجيش البروسي الحالي ودعمه متوقفاً على البرلمان، انطلاقاً من شعور الملك بضرورة الجيش لأمن المملكة. وفي ضوء موقف مليكه، سحب «رون» اتفاقية التسوية. وعندما رفض البرلمان في آذار (مارس) ١٨٦٢ تخصيص مبالغ جديدة، قام «وليام» بحله والدعوة الى انتخابات جديدة. غير ان المجلس الجديد، الذي التأم بعد ذلك بأسابيع قليلة، لم يكن اقل تصلباً من المجلس السابق.

بسمارك يعتلي المسرح

عند هذه النقطة، هدد «وليام» في بداية ايلول (سبتمبر) ١٨٦٢ بالتخلي عن العرش. وقد نصحه مستشاروه بالعدول عن موقفه، ولكن «رون» بعث برقية الى «اوتو فون بسمارك»، السياسي الملكي المهيب الذي كان يشغل وقتذاك منصب سفير بروسيا في فرنسا، يطالبه بالعودة الى برلين للمساعدة في الخروج من المأزق. ووصل بسمارك في ٢٢ ايلول، وعُين في اليوم التالي رئيساً للوزراء.

وقام «بسمارك» بفض النزاع بمناورة سياسية بارعة. فقد كان الدستور

ينص على ان اقرار الموازنة يتم بموافقة المجلسين الأعلى والأدنى. وبما ان المجلس الأعلى الارستقراطي كان مؤيداً طبيعياً للملك، غدا بمقدور «بسمارك» الادعاء بان ثمة «ثغرة» في الدستور. وبما ان الضرائب حُصّلت، والاموال متوافرة، والحكومة ملزمة بالعمل، فقد جزم «بسمارك» بان الملك مسؤول عن إنفاق مصروفات ملحة، ريثما يتم إقرار الموازنة. وقد احتج البرلمان ذو الغالبية الليبرالية دون جدوى، اذ لم يرد في الدستور ما يحول دون قيام الملك بانفاق مصروفات في حال عدم وجود موازنة، وما من سبيل للوصول الى اقرار موازنة حسب الأصول الدستورية.

الفصل السابع: مولتكه يتولى القيادة

النمسا وبروسيا، وشليزڤيغ - هولشتاين

كان لمجيء «بسمارك» على رأس الدبلوماسية البروسية اثر فوري على «مولتكه» واركانه العامة. وسرعان ما وضح أن بسمارك كان يسعى وراء تسوية مع النمسا حول مسألة التفوق في المانيا، وان مرماه السياسي كان وحدة المانيا - دون النمسا - تحت الزعامة البروسية. وفي خلال شتاء ١٩٦٢ - ١٨٦٣، نشأ نزاع ناجم عن جهود النمسا لتعزيز «دايت» الاتحاد الكونفدرالي في «فرانكفورت»، حيث كان يقدر لها ان تكسب سلطة بموجب التغيير المقترح، ما دامت مدعومة من قبل غالبية الامراء الالمان، وما دام التمثيل في «الدايت» محصوراً بالدول. وفي المقابل كان من شأن اقتراح «بسمارك» بانتخاب برلمان الماني شعبي، ان يضمن سيادة بروسيا الكثيفة السكان، ذلك ان معظم ممتلكات هابسبرغ واقعة خارج حدود الاتحاد الكونفدرالي.

وما ان هدأت هذه الازمة بعد لأي، حتى نشأت أزمة اخرى في فرنسا، بسبب مساندة بروسيا لروسيا في إخماد ثورة ١٨٦٣ في بولونيا. فسارع «مولتكه» الى توجيه عناية الاركان العامة الى الجبهة الغربية، ناقلاً مركز الاهتمام من الجبهة الجنوبية. بيد أن «بسمارك» لم يكن قد أتم استعداده لمواجهة مع فرنسا، فأوقف الدعم عن روسيا.

ولم يمض وقت طويل، حتى عادت مشكلة الاتحاد الكونفدرالي الألماني الى السطح، حيث اقترح الامبراطور «فرانسيس جوزيف» عقد مؤتمر للامراء الألمان في «فرانكفورت»، من اجل النظر في ادخال اصلاحات ممكنة على الاتحاد. واعتبر «بسمارك» ذلك في الحال محاولة اخرى من النمسا لزيادة نفوذها في المانيا، فاقنع «وليام» بعد جهد بألا يحضر المؤتمر. وازدادت العلاقات مع النمسا توتراً في تشرين الثاني (نوفمبر)، حين غدا «بسمارك» قادراً على عزل النمسا اقتصادياً عن بقية انحاء المانيا، بفضل اتفاقية تجارية بين فرنسا والاتحاد الجمركي الألماني، الذي كان تحت سيطرة بروسيا.

وفي الشهر ذاته، توفي ملك الدانيمارك «فريدريك السابع» الذي لم يكن له ابن يرثه. وكانت قضية «شليزڤيغ - هولشتاين» اي مشكلة وراثة التاج الدانيماركي ووراثة إمارتي «شليزڤيغ - هولشتاين»، في حالة غليان منذ الحرب الدانيماركية - البروسية (١٨٤٨ - ١٨٤٩). وكانت القوى الاوروبية قد وضعت بمقتضى اتفاقية لندن ١٨٥٢ معادلة لوراثة الدانمارك - «شليزفيغ - هولشتاين مجتمعة تحت سلطان ملك دانيماركي، ولكن الدوقيتين انكرتا اعترافهما بالمعادلة، واعلنتا الامير «فريدريك اوف اوغستنبرغ» دوقاً عليهما، في حين اعلنت الدانيمارك «كريستيان التاسع» ملكاً وفقاً لاتفاقية لندن. واستناداً على بعض الامور الفنية في تلك الاتفاقية، اعترف معظم الامراء الألمان، بمن فيهم امبراطور النمسا «فرانسيس جوزيف» وملك بروسيا «وليام» بحق «فريدريك» في الدوقيتين. اما الدانيمارك، فلم تعترف بذلك الحق، بل تحركت لاقامة سلطة مركزية في الدوقيتين المتمردتين.

وادرك «مولتكه» فوراً ان ما جرى سيؤدي حتماً الى صدامات بين الدانيمارك وهولشتاين تطال «شليزفيغ» ايضا وكان من المؤكد تقريباً ان يشهد شمال المانيا نوعاً من العمل العسكري، لكون «هولشتاين» عضواً في الاتحاد الكونفدرالي الألماني. وكان الامر الاقل وضوحاً هو السؤال عما اذا كانت النمسا وبروسيا ستقفان صفاً واحداً حيال هذه القضية، كما فعلتا في الماضي، ام ان القضية ستؤدي الى نشوب حرب على جبهتين. وراجع «مولتكه» الامر بروية، ووضع لمساته الاخيرة على خطتي الاحتمالين، ثم اخذ يراقب التطورات وينتظر تعليمات الملك.

الحرب الدانيماركية الثانية

ولم تستغرق التطورات وقتاً طويلاً، اذ لم تكن كل من النمسا وبروسيا لتسمح بأن تظهر إحداهما اكثر اندفاعاً من الاخرى لاظهار تعاطف الاتحاد الكونفدرالي مع شعب هولشتاين الالماني. وفي كانون الاول (ديسمبر) وافقت الأمتان على ارسال جيش فدرالي من قوات سكسونية وهانوفرية، قام باحتلال هولشتاين، في اثناء تقدم القوات الدانيماركية في شليزفيغ، وفي ١٦ كانون الثاني (يناير) وقّعت النمسا وبروسيا تحالفاً ضد الدانيمارك، وبادرتا الى تقديم مذكرة الى الدانيمارك تطالبانها بالانسحاب من شليزفيغ. وعندما رفض الدانيماركيون المذكرة، اعلنت النمسا وبروسيا الحرب على الدانيمارك في ١٨٦٤/٢/١، وقامتا بارسال جيش غزو مشترك الى شليزفيغ تحت قيادة الفيلد مارشال «فريدريش فون فرانغل».

وكان موقف «مولتكه» في هذا الوقت شاذاً. فخلال الاجتماعات التي انعقدت قبيل الحرب بحضور الملك «وليام»، ووزير الحربية «فون رون»، وكبار ضباط الجيش، رفض «ڤرانغل» باستخفاف الاقتراح القائل بان يتولى «مولتكه» او واحد من كبار ضباط الاركان العامة رئاسة اركان جيش الغزو. واستناداً الى احد المؤرخين، منح هذا الاقتراح «فرانغل» فرصة طال انتظارها للتعبير عن آرائه الشخصية بخصوص الاركان العامة، حيث قال بأن الاركان العامة مؤسسة غير ضرورية كليا، وبأنه من المشين ان يكون على مارشال ملكي بروسي احتمال هذا القدر الكبير من «الحسابات اللعينة»[1]. وقام «فرانغل» باختيار الجنرال الارستقراطي العنيد «كارل ارنست ادوارد فوغل فون فلاكنشتاين» رئيساً لاركانه العامة بدلا من «مولتكه» وكان «فون فلاكنشتاين» يزدري ايضا الأركان العامة، لعدم اختياره لرئاستها ولو مرة واحدة، لذا فانه لم يكلف اطلاع «مولتكه» على سير العمليات الحربية. وكان من حسن حظ «مولتكه» ان يتسلم تقارير وافية متتالية من العقيد «كارل فون بلومنتال»، ضابط الاركان العامة الذي رئس اركان الفيلق الذي كان يقوده الامير «فريدريك تشالرلز» (ابن شقيق الملك).

---

(١) Goerlitz, op. cit, pp. 83-84.

وفي الحقيقة، لم يكن لدى «بلومنتال» الكثير ليفيد «مولتكه». فكما توقع «مولتكه» في مذكرة الخطة الاستراتيجية التي رفعها قبيل الحرب الى «رون» والى الملك، تراجع الدانيماركيون بسرعة عن الحدود، متجنبين خوض معركة كبرى، خوفاً من ان تسحقهم وتدمرهم، وانسحبوا الى تحصينات، «ديبول» (دوبل) شرقي «شليسڤيغ»، لمنع اي تقدم الى جزيرة «الز» (الزن) عبر «الزنسون»، والى «فريدريشيا» الواقعة على الحزام الصغير في جنوبي شرقي «جوتلاند» Jutland، حيث احكموا السيطرة على الأرض المؤدية الى جزيرة «فاين». وكانت «دوبل» (حسب التسمية الالمانية)، واحدة من اقوى التحصينات الاوروبية في ذلك العصر.

وكانت مذكرة «مولتكه» قد اشارت الى استحالة توجيه ضربة موجعة الى الدانيمارك من دون اسطول بحري قادر على مقارعة البحرية الدانيماركية، او احتلال اقليم «جوتلاند» الخصب. بيد ان النمساويين خشوا من تدخل محتمل من الدول الاخرى الموقعة على اتفاقية لندن (بريطانيا، فرنسا، روسيا، السويد)، في حال انتقال العمليات الحربية الى الأراضي الدانيماركية، وبالتالي عارضوا دخول «جوتلاند». وبناء على ذلك، وبتحريض من «بسمارك»، أُلغي ذلك الجانب من خطة الاركان العامة من الامر الذي اصدره «رون» الى «ڤرانغل» باسم الملك.

وقام جيش «فرانغل» النمساوي ـ البروسي سريعاً باحتلال شليسفيغ كلها، ما خلا دفاعات «دوبل». وادراكاً منه بأن أي هجوم على الدفاعات سيكلف غالياً في احسن الاحوال، وبانه لا يمكن اخضاع الدانيماركيين بالتجويع من دون قوة بحرية، ابلغ «فرانغل» برلين عزمه على غزو «جوتلاند». وجاءه الرد اوامر سريعة بتوصية من «بسمارك»، قضت بأن يلغي خطة الغزو هذه، وان يتحاشى عبور حدود شليزفيغ ـ جوتلاند. ولكن وحدة بروسية عبرت الحدود في ١٧ شباط (فبراير)، واحتلت في اليوم التالي بلدة «كولدينغ» الدانيماركية. وبالرغم من الاوامر المتكررة بعدم عبور الحدود، اندفع البروسيون من جديد في اوائل آذار (مارس)، وتوغلوا مسافة اميال قليلة داخل «جوتلاند».

مولتكه رئيساً لأركان قوات الميدان

اعتقد الجنرال «ادفن فون مانتوفل»، رئيس المجلس العسكري، بان مسؤولية الجنرال «فوغل فون فلاكنشتاين» في مخالفة الاوامر اكبر من مسؤولية المارشال العجوز، فأقنع الملك بإحلال «مولتكه» محل «فوغل» كرئيس لاركان «فرانغل». ووصل «مولتكه» الى مقر قيادة «فرانغل» في اواخر نيسان (ابريل)، اي قبل انتهاء المرحلة الاولى من الحرب بوقت قصير.

وكان النمساويون قد اقتنعوا في آذار (مارس)، بأن مواصلة العمليات ضد «دوبل» و«إلز» ستزيد من خطر تدخل القوات النمساوية في «فريدريشيا». ومن هنا، وافق النمساويون على التقدم لحصار «فريدريشيا»، لكنهم اصروا على ان تتركز العمليات بصورة رئيسية ضد «دوبل» و«إلز». (ما دامت القوة النمساوية على الجانب الغربي من شبه الجزيرة، لم يكن هناك خوف من ان تعاني من اصابات فادحة محققة من جراء عمليات كهذه).

وقد عزز هذا الاصرار النمساوي من موقف «بسمارك» في اثناء الجدال الذي كان يدور بينه وبين الملك والجنرالات البروسيين. فالبريطانيون كانوا يسعون بتأييد من القوى العظمى الاخرى الى اتفاقية لوقف اطلاق النار، كمنطلق لمفاوضات سلمية. لكن «بسمارك» كان يأبى الذهاب الى طاولة المفاوضات خالي الوفاض من ورقة ضاغطة قد تأتيه من انتصار بروسي كبير. وكانت الامكانية الوحيدة لتحقيق هذا الانتصار، في رأيه، شن هجوم على «دوبل» واحتلال «إلز». وقد عارض الهجوم المزمع الامير فريدريك تشارلز، الذي كان قد تُرك امام «دوبل» حين اتجه «فرانغل» شمالاً لمحاصرة«فريدريشيا». واعتبر الامر ان الهجوم لا يعني شيئاً من الوجهة العسكرية. وكان الامير و«بلومنتال» قد وضعا خطة لعبور برمائي نحو «إلز» يتجاوز «دوبل»، ويسمح عملياً بتجويع ذلك الحصن. وطالب الاثنان بان يؤذن لهما بتنفيذ تلك الخطة بدلاً من الهجوم. وقد ايد خطتهما «مولتكه» ثم «رون»، ولكن «بسمارك» كان يعلم بأنه لا يستطيع إيقاف المفاوضات فترة كافية لارغام «دوبل» على الاستسلام. فالحاجة الى نصر سريع كانت ملحة للغاية. فأصدر الملك الامر بالهجوم بعد تردد. واقتحمت القوات البروسية الحصن في ١٨ نيسان وسجلت انتصاراً ساحقاً.

ونال «بسمارك» مراده، (ادرك النمساويون في وقت متأخر، كيف ساعدوه على كسب ورقة المساومة الضاغطة التي كان بصدد استخدامها في مؤتمر لندن). وتمّ الاتفاق على هدنة مدتها شهر، وبدأت المفاوضات في نهاية نيسان (ابريل)، ثم مددت الهدنة شهراً آخر، بسبب عدم إحراز تقدم في مفاوضات لندن. وازعج هذا الامر الجيش البروسي. وفي ٢٨ حزيران (يونيو)، ومع اقتراب موعد انتهاء الهدنة الثانية، انهار مؤتمر لندن، واشتعلت الحرب من جديد.

وفي منتصف شهر ايار (مايو) وبتحريض من «رون» و«مانتوفل»، كان الملك «وليام» قد اعفى «فرانغل»، بلباقة من قيادة القوات المتحالفة في شليسفيغ و«جوتلاند» وسلّم القيادة العامة الى الامير «فريدريك تشارلز» وبقي «مولتكه» رئيساً لاركان قيادة الميدان. وانطلاقاً من توقعه فشل المؤتمر (وإدراكا منه بأن بسمارك ايضاً كان راغباً في فشل المؤتمر)، نال «مولتكه» موافقة «فريدريك تشارلز» على خطة منقحة لهجوم برمائي ضد «إلز» وكان قد اعد ايضا خططاً لاتمام احتلال «جوتلاند».

وحين تجددت الحرب في ٢٨ حزيران (يونيو) كانت القوات البروسية على اهبة الاستعداد. وفي غضون اسبوعين تم احتلال «إلز» و«جوتلاند»، وجعلت الدانيمارك تطلب الصلح. وكانت فاعلية هذه العمليات متناقضة كلياً مع الارتباك والخلاف في الرأي اللذين شهدهما الغزو الاول لشليسفيغ. واقر الملك «وليام»، الذي كان برفقة الجيش في خلال الاسابيع الاخيرة من الحملة، بأن الاختلاف كان عائداً «لـ «مولتكه»، ولنظام التنسيق الذي ساد بين رئيس الاركان العامة ورؤساء اركانات القيادات الصغرى.

وبعد نهاية الحرب الدانيماركية بوقت قصير، قرر «مولتكه» بأن الوقت قد حان كي يتقاعد، ويفسح المجال لمن يصغرونه سناً في الاركان العامة بعد ان بلغ الرابعة والستين من العمر. ولكن لم يحدث شيء من هذا، فالتقاعد كان لا يزال يبعد اربعة وعشرين عاماً. صحيح ان «رون» والملك كانا يحترمان «مولتكه»، ولكنهما الآن بدآ يشعران بأنه لا يمكن الاستغناء عنه. وأحس «رون» بأن «مانتوفل» الذي جمع بين منصب المعاون الأول للملك

ومنصب رئيس المجلس العسكري، اصبح يشعر بحسد حيال الاهتمام المفاجىء الذي بدأ «مولتكه» يحظى به من الملك وامراء الاسرة المالكة.

وفي بداية العامَ ١٨٦٥ استطاع «رون»، العسكري الدبلوماسي، ان يبعد «مانتوفل» عن البلاط باقناع «وليام» بترقيته وتعيينه قائداً للقوات البروسية في شليسفيغ - هولشتاين. واصبح الرئيس الجديد للمجلس العسكري اللواء «هيرمان فون تريشكوف»، الذي سبق له ان خدم في الاركان العامة تحت قيادة «مولتكه». ولم يبذل «رون» و«تريشكوف» كبير جهد لاقناع الملك في ضم «مولتكه» الى اجتماعات المجلس الملكي لدى مناقشة القضايا العسكرية.

مولتكه وبسمارك

صدف «مولتكه» في ٢٩/٥/١٨٦٥ اول خلاف في الرأي في المجلس الملكي بينه وبين «بسمارك». وكانت موضوعات الخلاف قضايا تقليدية: العلاقات مع النمسا، ومستقبل شليسفيغ - هولشتاين؛ حيث كان «بسمارك» مصراً على ان تقوم بروسيا اما بضم دوقيتي شليسفيغ - هولشتاين اليها او ببسط سيطرتها عليهما. وكانت النمسا تعارض ذلك بشدة، متسلحة بتأييد معظم اعضاء الاتحاد الكونفدرالي الالماني. وفي حين اعلن «مولتكه»، في كلمة القاها امام الضباط الحاضرين في المجلس، موافقته على مواقف «بسمارك» من الدوقيتين، وعمد الى حث الملك على اتخاذ قرار الحرب ضد النمسا فقد بدل «بسمارك» موقفه. وبالرغم من الضمانات التي قدمها «رون» و«مولتكه»، لم يكن «بسمارك» راغباً في المخاطرة في حرب ضد النمسا والاتحاد الكونفدرالي الألماني بأكمله. وأصر على القول بألا يُتخذ قرار الحرب إلا في حال قيام بروسيا بعقد تحالف مع فرنسا. وبعد جدال قصير بين «مولتكه» و«بسمارك»، تدخل الملك، وقرر عقد تسوية مع النمسا، نظراً الى استحالة فكرة التحالف مع العدو اللدود، ومع الامبراطور «نابليون الثالث» بالتحديد. وتم التوصل الى اتفاقية قضت باحتلال القوات النمساوية «هولشتاين»، وباحتلال القوات البروسية «شليسفيغ».

ورغم نفور «وليام» الواضح من التحالف مع فرنسا، سعى «بسمارك» الى التفاهم على الاقل مع «نابليون الثالث»، وبعد لقائه مع الامبراطور

الفرنسي مرتين، واقتناعه بأن فرنسا غير عازمة على التدخل ضد بروسيا في حال نشوب حرب بين بروسيا والنمسا، عمل المستشار الماكر على التحالف مع ايطاليا، خصم النمسا التقليدي الآخر. وفي ٨ نيسان (ابريل) ١٨٦٦، وقعت بروسيا وايطاليا اتفاقية تعهدت ايطاليا بموجبها بان تنضم الى بروسيا اذا ما اندلعت حرب بين بروسيا والنمسا في غضون ثلاثة اشهر.

وكان واضحاً بالنسبة الى «مولتكه» بأن الامر اصبح مسألة حظ. فإذا حال مسار الاحداث الطبيعي دون نشوب حرب، سيتولى «بسمارك» إيجاد سبب للحرب في ايار (مايو) او حزيران (يونيو). ولم يكن «مولتكه» يخشى المعضلات العسكرية على ضخامتها، حيث كان قبل اقل من سنة قد اكد لـ «بسمارك» في إحدى جلسات المجلس الملكي، بأن بروسيا قادرة على ايقاع الهزيمة بالنمسا، وبجميع دول الاتحاد الكونفدرالي الاخرى، حتى بدون الاستعانة بحلفاء. ورغم انه لم يكن يعول كثيراً على الايطاليين في إشغال جزء هام من القوة النمساوية، فقد اقر بأن لدورهم مردوداً نفسياً.

التخطيط للحرب ضد النمسا

وفي المانيا، بدا التحيز ضد بروسيا حقيقياً. فقد كان باستطاعة النمسا تحريك اكثر من ٢٤٠ الف رجل في بوهيميا لشن هجوم فوري على «برلين»، وكان باستطاعة حلفاء النمسا الالمان التدخل بما يقارب ٢٠٠ الف رجل في اقاليم بروسيا الغربية، ومساندة الهجوم النمساوي على برلين في الوقت ذاته. وكان «مولتكه» يعلم بأنه قادر على تعبئة ما مجموعه ٣٠٠ الف جندي تقريبا في خلال اربعة اسابيع - اي اسرع من قدرة النمسا على التعبئة بمرتين - (*) وكان بامكان البروسيين اجتياح الدول المجاورة كسكسونيا مثلا، قبل ان يتسنى للنمسا نجدتها، في حين يتولى ٥٠ الف جندي صد قوات الدول الالمانية الجنوبية الاكبر والابعد، كبافاريا وبادن وڤورتمبرغ، عن اقاليم بروسيا في الراين، ويقوم ١٠ آلاف آخرين بتأمين «سيليزيا». وكان شأن ذلك

(*) كان هنالك نحو مئة الف جندي بروسي اضافي، موزعين في حالة التأهب في حاميات ومراكز تدريب في جميع انحاء بروسيا، وكان للنمسا بالطبع نحو ٨٠ الف جندي في ايطاليا، واكثر من مئتي الف آخرين موزعين في حاميات في جميع انحاء امبراطورية هابسبرغ المترامية الاطراف.

ان يوفر لبروسيا جيشاً من حوالى ٢٥٠ الف مقاتل لمقارعة النمسا. وكان «مولتكه» يعتقد بأنه يستطيع تجميع الجيوش البروسية المبعثرة في شمال بوهيميا قبل ان يستعد النمساويون لبدء هجومهم المتوقع على برلين، وذلك نظراً الى سرعة تحرك البروسيين، رغم التأخير الذي فرضه الاهتمام بسكسونيا وهسه - كاسل. كما كان يعتقد بأن سرعة التعبئة وجودة نوعية القوات البروسية والسرعة والاقدام، ستسمح له حشد قوات متفوقة في ارض المعركة، وإحراز انتصار ساحق في معركة واحدة على الطريقة النابليونية.

وكان «مولتكه» يعلم بأن الجيش البروسي قد تحسن منذ العام ١٨٥٩، لكنه كان مطمئناً الى ثلاثة عناصر هي: التسلح والتفوق البروسي + التدريب والقيادة. فمن جهة التسليح، كانت بندقية المشاة «دريزه» ذات الابرة والتلقيم من الخلف والتي تبنتها بروسيا في اواخر الاربعينات، قد عممت على جميع قطعات الجيش البروسي، العاملة والاحتياطية وكانت تمتاز على البندقية النمساوية، في إمكانية إعادة حشوها والجندي في وضعية الانبطاح، علماً بأن البندقية النمساوية التي تلقم من الامام، كانت ادق من نظيرتها البروسية في اصابة الهدف، وابعد مدى، ولكنها كانت ابطأ في معدل الرمي، حيث لم يكن بالامكان إعادة حشوها الا في وضعية الوقوف.

وكان «مولتكه» يعلم كذلك بان المدافع النمساوية التي تلقم من الامام كانت ادق في اصابة الهدف وابعد مدى من المدافع البروسية السريعة الرمي، التي كان ثلثا عددها تقريبا تلقم من الخلف. ولكنه كان يعوّل اجمالاً على مستويات التدريب البروسية الارقى، والتي يعود الفضل فيها الى ضابط الاركان العامة الفريق «ادوارد فون هندرسن» المفتش العام للمدفعية الذي حرص على سد ثغرة التفوق النمساوي البسيط في المدفعية. وكان «مولتكه» واثقاً من تفوق وحدات المشاة البروسية على المشاة النمساوية ولا يعترف الا بتفوق الخيالة النمساويين، الذين استمدوا خبرتهم الطويلة من معاركهم ضد الاتراك.

وكانت القيادة، كالتي اسندت الى «هندرسن»، في مقدمة مزايا الجيش البروسي في نظر «مولتكه» وكان قد درس النمساويين ابان الحرب الدانيماركية

(١٨٦٤) ولمس ضآلة تحسن مستويات القيادة لديهم منذ العام ١٨٥٩، ووثق من ان القادة البروسيين، ورؤساء اركاناتهم، سيبزّون النمساويين. وتوقع تفوقاً مماثلا على مستوى القيادات الادنى.

ولدى تحريكه عجلة الحرب بتحالفه مع ايطاليا، رأى «بسمارك» بأنه لم يعد في حاجة ماسة الى تحريك «حساء الساحرات». فسكسونيا بادرت في ١٤ نيسان الى اعلان التعبئة الجزئية، خوفاً من هجوم بروسي مفاجىء. وبلغ من حماس ايطاليا في اتخاذ استعداداتها، ان دفعت النمسا في ٤/١ الى تعبئة جيشها الجنوبي، البالغ نحو ٨٠ الف رجل، تحت قيادة الأرشيدوق ألبرت. وفي ٤/٢٧، بدأت التعبئة النمساوية في بوهيميا، تحت قيادة الجنرال «لودفيغ أوغست رتر فون بنيدك». ثم اعلنت الدول الالمانية الجنوبية في الايام التالية التعبئة الجزئية لجيوشها.

وكانت بروسيا حتى بداية شهر أيار، (مايو) الدولة الالمانية الوحيدة التي لم تعلن اي شكل من اشكال التعبئة. وكان «مولتكه» الذي بدأ الامر يعنيه، كما كان يعني «وليام»، قد أخذته الحيرة، لانه كان لا يزال غير مقتنع بحتمية وقوع الحرب. أما بسمارك، الذي كان يعرف بأن الحرب واقعة لا ريب فيها، فقد احجم عن حث الملك على اعلان التعبئة العامة، لوثوقه بالجيش وبـ «مولتكه» من جهة، ولتجنيب بروسيا أن تتهمها القوى العظمى الاخرى بالعدوان. واخيراً، أمر الملك بتعبئة جزئية في ٣ ايار (مايو)، ثم بتعبئة عامة في ٨ منه.

وهنا انغمس «مولتكه» و«بسمارك» بالعمل، بحيث كان الجنرال الذي انهمك كلياً بمسائله العسكرية لا يدري انه يعمل بالتناغم مع المستشار، في حين كان «بسمارك» يعلم ذلك تماماً، فهو الذي خطط لكي يأتي العمل على هذا النحو. وفيما كان «بسمارك» يدفع عن بروسيا اتهامات الدول الالمانية الاخرى في «دايت» فرانكفورت، اكد لحكومات فرنسا وبريطانيا وروسيا — في محاولة لعقد مؤتمر أوروبي لحفظ السلام - بأن بروسيا مستعدة للتفاوض. وحضّ الجنرال البروسي «انطون فون دير غابلينتس» Anton von der Gablenz على دخول مفاوضات مع أخيه الجنرال النمساوي «لودفيغ فون دير

غابلينتس»، للتوصل الى حل سلمي لقضيتي المانيا وشليسفيغ - هولشتاين.

ولكن النمسا اقدمت في اثناء انعقاد «دايت» فرانكفورت في ١ حزيران (يونيو) على توجيه اتهامات ضد اهداف بروسيا في شليسفيغ - هولشتاين. وعاد عليها هذا التصرف بالضرر. اذ كان يعتبر خرقاً لاتفاقية «غاشتاين»، التي وافقت بروسيا والنمسا بموجبها على حل جميع خلافاتهما المتعلقة بالدوقيتين. وعندما ايقن بسمارك ان «مولتكه» قد انتهى من التعبئة العامة، اتهم النمسا بخرق الاتفاقية، وأحاط في ٣ حزيران (يونيو) القوى الاخرى علماً بأنه لا يمكن عقد المؤتمر الأوروبي قبل ان تطبق النمسا تعهداتها في الاتفاقية. وفي ٧ حزيران (يونيو) زحفت اعداد غفيرة من القوات البروسية الى «هولشتاين».

الحرب مع النمسا

قامت النمسا في ١٢ حزيران (يونيو) بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع بروسيا، وتداعى ممثلوها في دايت فرانكفورت الى عمل كونفدرالي مشترك ضد بروسيا، فأعلن «بسمارك»، في ١٤ حزيران (يونيو)، ان الاتحاد اصبح لاغياً، لعلمه بأن التصويت في «الدايت» سيكون في غير مصلحة بروسيا. وفي اليوم التالي تلقت سكسونيا، وهانوفر، وهسه - كاسيل مذكرات بروسية تطالبها بالوقوف على الحياد. وحين رفضت المذكرات، قامت القوات البروسية بغزو البلدان الصغيرة الثلاثة ولم تكن الحرب قد أعلنت بعد. وكان اقرب ما دل الى وجود حالة الحرب، الرسالة التي بعث بها ولي العهد «فريدريك وليام» الذي كان يتولى قيادة الجيش البروسي الثاني المحتشد في شمال سيليزيا، الى اقرب قائد نمساوي في بوهيميا.

وفي هذه الاثناء، حافظت التعبئة على سيرها الطبيعي، مع بقاء «مولتكه» على اتصال برؤساء الاركانات المساعدين. ولكن في نهاية ايار (مايو)، حدث ما كان له صدى كبير في تاريخ بروسيا العسكري على المدين القريب والبعيد. فخشية تدخل محتمل من قبل «نابليون الثالث»، اقنع «بسمارك» الملك - من دون علم «مولتكه» - بإصدار اوامر تقضي بإلغاء تعليمات التعبئة الخاصة بالفيلق الثامن الذي كان «مولتكه» قد امره بالتحرك

من إقليم الراينلاد، والتوجه شرقاً للانضمام الى التجمع البروسي الرئيسي في جنوب وسط بروسيا. فاستشاط «مولتكه» غضباً، وبادر هو و«رون» الى مقابلة الملك. وقبل «وليام» الوديع احتجاج «مولتكه» الدبلوماسي والحازم في آن، والغى امره الاخير.

مولتكه قائد ميدان

في ٢ حزيران (يونيو)، اصدر الملك بموافقة من وزير الحربية «فون رون» امراً موجزاً وخطيراً خوّل رئيس الاركان العامة حتى اشعار آخر، اصدار اوامره مباشرة الى وحدات الجيش البروسي، من دون العودة الى الملك او الى وزير الحربية.

وكان الامر من الاهمية انه شمل قوساً يزيد طوله على ثلاثمئة ميل، ويمتد من نهر «نيسّه» في الشرق الى نهر «ألِر» في الغرب، وكان ينتشر في اواسط «سليزيا» جيش ولي العهد (الجيش الثاني) المؤلف من حوالى ١١٥ الف رجل. وتمركز في جنوب «براندنبرغ» الجيش الاول المؤلف من ٩٣ الف رجل، والذي كان يجتاح شرقي سكسونيا تحت قيادة الامير «فريدريك تشارلز». وفي اقصى الغرب، كان جيش «الإلب» البالغ عدده ٤٨ الف رجل يتقدم جنوباً من «تورغو» الى «درسدن»، تحت قيادة الجنرال «كارل إيبرهارد هير ڤارت فون بيتنفيلد». اما جيش الجنرال «فوغل فون فلاكنشتاين» الغربي، فكان محتشداً برجاله الخمسين الفاً في سكسونيا البروسية.

وكانت مهمة «فون فلاكنشتاين» إخراج «هانوفر» من الحرب، والانعطاف جنوباً وتكرار عملية «كيسل»، ومن ثم التقدم في اتجاه جنوبي شرقي لجذب انتباه «بافاريا» و«هسه ـ دارمشتادت» و«بادن» و«ڤوريمبرغ»، بعيداً عن المسرح الرئيسي للعمليات في بوهيميا. وكان على الجيوش البروسية الثلاثة الاخرى التقدم في هذه الاثناء الى بوهيميا والالتقاء الى الشرق من «براغ»، ومن ثم الزحف شرقاً باتجاه «أولموتس»، النقطة المتوقعة لتجمع جيش الجنرال النمساوي «بينيدك».

وكان «مولتكه» قد بقي إبان التعبئة والعمليات الاولى في برلين مشدوداً

الى التلغراف، لكي يتأكد من ان ترتيباته تسير وفقاً للخطة. وحسناً فعل ببقائه، لان المستشار الجامح «بسمارك» عاد الى اقحام نفسه في الصورة العسكرية من جديد.

ففي ١٩ حزيران (يونيو) أرسل «بسمارك» برقية الى «ڤوغل فون فلاكنشتاين» مباشرة، دون ان يعلم الملك أو «رون» أو «مولتكه»، واشار عليه بالتقدم من جنوب هانوڤر الى فرانكفورت في الجنوب الغربي، لأن من شأن ذلك في رأيه ان يحول دون تجمع جيوش الاتحاد الكونفدرالي و«ان يقودها الى روسباخ ثانية» وكان «ڤوغل فون فلاكنشتاين» قد اكتشف لتوه ان الجيش الهانوڤري كان يتجه جنوباً في طريقه الى «بافاريا»، فبدأ بمطاردته، ولكنه فقدَ في ٢٢ حزيران (يونيو) التماس مع الهانوفريين، فيما كان يفكر بما جاء في برقية «بسمارك». وبما انه وقف الى جانب الاركان العامة من قبل، ولم يكن لـ«مولتكه» منذ الحرب الدانيماركية سوى الحسد، فقد قرر اتباع نصيحة «بسمارك»، وبدأ تقدمه نحو الجنوب الغربي. ولا عجب في انه لم يكلف نفسه اعلام «مولتكه» بذلك.

ولكن «مولتكه» ادرك بسرعة ان أمراً غير طبيعي يجري في منطقة الجيش الغربي اذ كان الهانوفريون، الذين استفادوا من توقف «فوغل» عن مطاردتهم، يتجهون جنوباً بلا أي عائق عبر الطرف الغربي من سكسونيا البروسية، لعلهم يتصلون بالباڤاريين او بالنمساويين. لذا دفع «مولتكه» عدة وحدات من قوات الاحتياط لتأخير الهانوفريين، واصدر الى «فوغل» امراً بالعودة الى متابعة مهمته المحددة. وكانت النتيجة وقوع معركة في ٦/٢٧ في لانغنسالتسا الواقعة رأسا شمالي «إيرفورت»، حيث تمكن الجنرال الهانوفري الكسندر ارنتشيلدن» من الحاق هزيمة قاسية بطليعة قوات «فون فلاكنشتاين». بيد ان بقية جيش «ڤوغل» ادركت ميدان المعركة قبل مغيب الشمس، وسدت طريق تقدم الهانوفريين. وفي ٦/٢٩ قام عاهل «هانوفر» الأعمى الملك جورج الخامس بتسليم جيشه لفوغل.

حملة كونيغراتس ـ سادوڤا

كانت الجيوش البروسية الرئيسية الثلاثة في خلال ذلك تتقدم بثبات

نحو بوهيميا. واستولى جيش «إلب» على «درسدن» في ١٩ حزيران (يونيو)، ثم شرع في مطاردة جيش هانوفري يضم ٣٥ الف رجل باتجاه الجبال البوهيمية. وفي ٢٢ حزيران (يونيو) امر «مولتكه» قادة الجيوش الثلاثة بعبور الجبال والالتقاء بالقرب من «غيتشين» قبالة الجيش النمساوي الرئيسي، الذي كان يتقدم آنذاك آتياً من أولموتس. وكان على هؤلاء القادة الثلاثة التحرك بسرعة لتفادي خطر الهزيمة المجزأة.

وما ان اقترب جيش «إلب» والجيش الاول من الحدود، حتى التقيا في نقطة واحدة، ثم اندفعا مباشرة الى الممرات الجبلية بقيادة الامير «فريدريك تشارلز». وعلى مسافة اقل من مئة ميل الى الشرق، كان الجيش الثاني يتدفق عبر الممرات الواقعة جنوبي «بريسلو». وادرك «مولتكه» الذي كان يتلقى التقارير التلغرافية اليومية في برلين، بان خطر قيام «بينيديك» بحشد جيشه ضد جيش «الإلب» والجيش الاول في الغرب، او ضد الجيش الثاني في الشرق، لا يزال ماثلاً، حيث يُخشى إلحاق الهزيمة بالجيوش الثلاثة على التوالي. غير ان التقارير التي تلقاها «مولتكه» في ٢٧ حزيران (يونيو) - يوم معركة لانغنسالتسا - اقنعته بأن جرأة النمساويين وتحشدهم لم يكونا كافيين، حتى لمحاولة إنزال الهزيمة المجزأة بالبروسيين، ناهيك عن النجاح في تحقيقها.

وجرت في بوهيميا في ذلك اليوم ثلاث معارك عنيفة. فإلى الشمال من براغ ناوشت طليعة الجيش الاول الفيلق النمساوي الاول الذي كان يقوده الجنرال الكونت «ادوارد فون كْلام - غالاس» وعناصر حرس مؤخرة الجيش السكسوني. وبعد مقاومة قصيرة فاترة، تراجع «كْلام - غالاس» باتجاه «غيتشين».

وبعيداً في الشرق، خاض الجيش الثاني، في اثناء خروجه من الممرات، اشتباكين في اليوم نفسه. ففي «تروتينو»، اصطدمت عناصر الجناح الايمن من فيلق الجنرال «أدولف بونين» الأول التابع لجيش «فريدريك وليام» بفيلق نمساوي كان بقيادة الجنرال «فون دِرْ غابلينتس». واستطاع «غابلينتس»، بعد انتصار بروسي أولي، ان يشن هجوماً معاكساً، رغم ما الحقته البنادق البروسية من خسائر في فيلقه، وان يرغم البروسيين على العودة بارتباك من

حيث اتوا. ولكنه لم يستثمر فوزه، بسبب الانهاك الذي اصاب جنوده، والخسائر الفادحة التي نزلت به (٥٧٠٠ قتيل وجريح مقابل ١٣٠٠ اصابة فقط في صفوف البروسيين)، اضافة الى التهديد الناجم عن تقدم ارتال بروسية اخرى عبر الممرات.

غير ان النتائج في «ناخود» الواقعة على بعد ١٦ ميلا الى الجنوب الشرقي، كانت مختلفة. فهناك كان الفيلق البروسي الخامس بقيادة الجنرال «كارل فريدريش فون شتاينمتس» بمواجهة مع الفيلق النمساوي السادس بقيادة الجنرال «ڤلهلم رامنغ فون رايدكرش»، حيث قام حرس المقدمة البروسيون بصد هجوم نمساوي، واندفع «شتاينمتس» بقواته الرئيسية الى الامام، ودحر النمساويين.

وكانت ردود فعل قادة الطرفين إزاء التقارير التي وصلتهم عن تلك العمليات في ٢٧ حزيران (يونيو) متباينة بشكل واضح. فبالرغم من الانتصار في «تروتينو»، فقد وجد «بينيديك» ان اسوأ مخاوفه قد تأكدت، سيما وانه كان يواجه ايضاً عدة مشكلات لوجيستيكية. وحين عوض البروسيون عن نتائج «تروتينو» بانتصار على «غابلينتس» في «سور» قام «بينيديك» بارسال برقية متشائمة الى ڤيينا، يحذر فيها من كارثة، وسحب فيلقه المبعثر لحشد قواه، استعداداً لمعركة دفاعية غربي أعالي نهر «إلب»، بالقرب من حصن «كونيغراتس».

وكان مولتكه من جانبه يعلم لدى تلقيه اخبار اشتباكات ٢٧ حزيران (يونيو)، بأن معركة كبرى توشك ان تجري في شمال شرقي بوهيميا في غضون ايام. فأصدر اوامره بتجميع الجيوش الثلاثة قرب «غيتشين»، ثم اقترح على الملك انضمام القيادة العليا الملكية الى جيوش «فريدريك تشارلز» و«بتنفيلد» المجتمعة. وفي ٣٠ حزيران (يونيو)، ادرك كبار القادة، بمن فيهم «وليام الاول» و«بسمارك». و«رون» و«مولتكه»، وسوقة عسكرية صغيرة من الاركان العامة الجيش الاول بالقرب من «غيتشين» حيث كانت تجري مواجهة اخرى. وسرعان ما وصلت برقية من «فريدريك وليام» تفيد بأنه طرد

النمساويين من «شكاليتس» الواقعة على مسافة ٣٠ ميلاً الى الشرق. ولم تكن هنالك خيالة استطلاع، ولكن دراسة الاركان العامة للتقارير الصحفية، والتحقيقات التي اجريت مع المدنيين المحليين اشارت الى ان الجيش النمساوي الرئيسي محتشد في منطقة «كونيغراتس». وتوصلت المعلومات غير الوافية الى ان التحشد يجري شرقي النهر، وتصور «مولتكه» بأن «بينيديك» لن يقدم على التحضير لمعركة، وفي مؤخرة قواته نهر لا يمكنه خوضه.

واذ رأى «مولتكه» فرصته لتطويق النمساويين اصدر في ١ تموز (يوليو) امراً الى الجيش الاول بالتقدم جنوباً نحو «كونيغراتس»، على ان يواصل الجيش الثاني تقدمه نحو الجنوب الغربي ضد ميمنة النمساويين، ويعبر جيش «إلب» نهر «إلب» جنوبي «كونيغراتس» لضرب مجنبة النمساويين اليسرى ومؤخرتهم. وتوقع «مولتكه» وقوع معركة في ٣ او ٤ تموز (يوليو): في ٣ تموز (يوليو) اذا ما قرر «بينيديك» التقدم من «كونيغراتس» نحو الجيش الاول وجيش «الالب»، وفي ٤ تموز (يوليو) اذا ما انتظر النمساويون تقدم البروسيين وراء الالب(*). وادرك «مولتكه» ايضا، إمكانية تطويق النمساويين في كلا الحالين، ما دام التقدم النمساوي في ٢ و٣ تموز (والذي اعتبره «مولتكه» امراً غير مرجح) سيقلص المسافة التي على جيشي «فريدريك وليام» و«بتنفيلد» اجتيازها.

(*) في خلال هذه العاصفة من الاوامر البرقية (التلغرافية) حدث ما يمكن اعتباره امراً مريباً. اذ يشير المؤرخ الموثوق «هايو هولبورن» في مقالة له عن «مولتكه» بعنوان «صناع الاستراتيجية الحديثة»، الى ان «مولتكه» كان لا يزال غير معروف في بروسيا، رغم انه كان قد امضى تسع سنين كرئيس للاركان العامة، كما لم يكن معروفاً بصورة جيدة في الجيش: ويروي ان قائد فرقة علّق بعد تلقيه رسالة مباشرة من «مولتكه» قائلاً: «كل هذا جميل، ولكن من هو الجنرال مولتكه»؟. ويكرر «غوردون كريغ» الرواية بشيء من الشك في حاشية كتابه «سياسات الجيش البروسي» مستنداً الى ما جاء على لسان «هولبورن». ويورد «فالتر غويرليتس» في كتابه «تاريخ الاركان العامة» الحادثة نفسها. ورغم ان الكلمات التي استشهد بها مختلفة بعض الشيء، وان مصدرها غير مذكور، فمن الصعب الا نشك في ان «غورليتس» كان ينمق قصة «هولبورن» ليس الا وهناك سببان قاهران للشك في موثوقية القصة. ففي الدرجة الأولى، يصعب تقبل فكرة ان رئيس الاركان العامة المحترم كان غير معروف من قبل قائد فرقة، حتى لو كان قائد فرقة احتياط (التي كان من المؤكد تقريباً انها كانت تحت قيادة ضابط نظامي)، رئيس اركانه من الاركان العامة بالتأكيد. اضف الى ذلك ان مفهوم مولتكه بكامله فيما يتعلق بادارة الحرب الحديثة، والذي تأكد في دراسته لحملة ١٨٥٩ الايطالية، كان اعداد تعليمات عامة لكبار الضباط التابعين له، وايضاح الهدف والمهمة، تاركاً لهم بقية التفاصيل، من هنا يبدو القول بأن مولتكه قد بعث برسالة مباشرة، حتى الى قائد فيلق، امراً غير معقول، ومنافياً لطبيعة الامور.

ولقد انتُقد «مولتكه» بشيء من الانصاف، لعدم استخدامه خيالة احتياطه في مهام الستارة والاستكشاف، ولعدم اصراره على ان قادته يمكنهم استخدام خيالتهم على نحو افضل مما ظهر خلال هذه الحملة. ولكن يقتضي التذكير بأن الجنرالات البروسيين لم يكونوا يحترمون من عناصر جيش «بينيديك» سوى الخيالة. وبالتالي، جُعلت الخيالة البروسية في الاحتياط، كي تتولى فيما بعد استثمار انتصار المشاة المتوقع. ولم يدرك القادة البروسيون ان «بينيديك» الذي كانت علامة فشله اقوى من ان يستخدم افضل جنوده، كان بدوره محتفظاً بخيالته في الاحتياط، بدلا من استخدامها في اعمال هجومية في مقدمة جيشه. وفي أي حال كانت النتيجة انه لم يكن اي من الجيشين يعلم مواقع خصمه كما يفترض ان يكون. ولم يكن «مولتكه»، بافتراض ان النمساويين كانوا محتشدين شرقي النهر، متنبهاً الى حقيقة انه كان يقدم لـ«بينيديك» فرصة لا تعوض لضرب مجنبة الجيش الاول والتقدم عبر جبهته. كما ان «بينيديك» بدوره لم يكن متنبهاً الى الفرصة، التي لم يكن ليحاول اغتنامها، ما دام انه اضاع فرصاً اثمن في خلال الايام الاربعة الماضية. . ولكن في ٢ تموز (يوليو) نقلت دوريات الجيش الاول الى الامير «فريدريك تشارلز» بان هنالك ثلاثة فيالق نمساوية على الاقل منتشرة عند ميسرته بالقرب من «سادوفا». فسارع الامير الى تبديل وجهته نحو الشرق، واصدر اوامره بالهجوم في اليوم التالي. وبينما كان جيشه يستعد لضرب ما بدا انه الموقع النمساوي الرئيسي بين «سادوفا» و«كونيغراتس»، امر جيش «الإلب» بتبديل وجهة تقدمه من الجنوب الشرقي الى الشرق، كي ينفذ «بتنفليد» مهمة الالتفاف حول مجنبة النمساويين اليسرى في غربي «كونيغراتس»، بدلا من شرقي «الإلب»، كما كان مقرراً. كما ارسل «فريدريك تشارلز» برقية الى الامير «فريدريك وليام». يطلب فيها ان يقوم جيشه الثاني بتغطية مجنبة الجيش الاول اليسرى، وضرب ميمنة النمساويين. وبعث برسالة اخرى الى «غيتشين» لاطلاع «مولتكه» على الموقف وعلى خطط «فريدريك تشارلز» واوامره.

وانتقدت بعض الجهات المسؤولة «فريدريك تشارلز» لشدة عناده، ولمحاولته تولي مسؤولية الحملة، ونوهوا الى ان تفادي الكارثة قد تم فقط

بفضل حسن تصرف «مولتكه» السريع، ولم تكن هذه الانتقادات منصفة بحق «فريدريك تشارلز» و«مولتكه». فأوامر «فريدريك تشارلز» الى جيشه والى «بيتنفيلد» كانت مطابقة كلياً للتعليمات العامة التي تلقاها من «مولتكه» ومع الهدف الذي حدده رئيس الاركان العامة. فالأمير كان يعالج موقفاً لم يكن له تأثير على مهمته، رغم الاختلاف غير المتوقع في التفاصيل. فلو انه انتظر وصول الجيش الثاني لكي يقوم بالمناورة كما وضعها «مولتكه» في الأصل، لمنح العدو فرصة تغيير الموقف بصورة اكبر، وذلك إما بالتركيز على هذ القوة او تلك من القوتين البروسيتين الرئيسيتين، او على الارجح، بالانسحاب من الشرك، ولو ان النمساويين المواجهين لجبهته كانوا ثلاثة فيالق وحسب، كما كان الامير يعتقد، لكان التأخير بدون مبرر مقنعاً تماماً وقد كانت غلطة «فريدريك تشارلز» الوحيدة، هي فشله في توضيح اللجاجة الكامنة في الموقف الجديد لولي العهد.

ومن المشكوك فيه ان يكون اي عمل قام به «فريدريك تشارلز» مغايراً لما كان يتوخاه «مولتكه»، اللهم نص الرسالة التي بعث بها الى الجيش الثاني. ولقد أوقظ «مولتكه» من نومه قبيل منتصف الليل، لدى وصول تقرير «فريدريك تشارلز» الى القيادة العليا الملكية. وقرأ البرقيات التي ارسلها الامير، ولمس خطر سوء تصرف «فريدريك وليام»، بعد ان تأكد له ان الجيش الاول لا تواجهه ثلاثة فيالق وحسب، بل جيش «بينيديك» بكامله. ولم يكلف الجنرال نفسه حتى اصدار امر الى «فريدريك تشارلز» بتأخير هجومه ريثما يصل الجيش الثاني. بل بعث ببرقية خاصة الى فريدريك وليام، يأمره فيها بالزحف فوراً بكل ما أوتي من قوة وسرعة باتجاه مجنبة النمساويين اليمنى. وحرصا على إيفاء برقيته الملحة حقها من التقدير، ايقظ «مولتكه» الملك في منتصف الليل، وطلب منه توقيع الامر.

وكان «فريدريك وليام»، ورئيس اركانه «بلومنتال» قد اجابا على رسالة «فريدريك تشارلز»، يخبرانه بأنه ليس لديهما سوى فيلق واحد لمساندة الجيش الاول في ٣ تموز. ولكن حين وصلهما امر «مولتكه» في الساعة ٤,٠٠ صباحاً، تراجعا عن موقفهما، واصدرا اوامر فورية بالزحف الى

الجيش كله. اما طليعة الجيش الثاني، فقد وصلت الى ارض المعركة في الساعة الحادية عشرة صباحاً.

ولا شك ان الأمر الذي وجهه «مولتكه» الى «فريدريك وليام» كان مفتاح الانتصار الذي أحرز في ذلك اليوم. كان اللواء «ادوارد ب.ك. فون فرانسيكي»، قائد الفرقة السابعة من مجنبة الجيش الاول اليسرى قد سمح لنفسه بأن تجرفها حماسة النجاح الاولي في الصباح الباكر. وكانت اوامره تقتضي ببساطة دفع مواقع النمساويين الامامية الى خط نهر «بيزتريتس» احد روافد نهر «الإلب»، ولكنه عبر النهر رغم المطر والضباب، وشن هجوماً على كبد الجيش النمساوي. فاضطر «فريدريك تشارلز» الى زج مزيد من الفرق في القتال الدائر الى ميسرته، لتفادي الكارثة، ولضمان التقائه بالجيش الثاني. وكان القتال يدور قبل وصول حرس مقدمة «وليام» على شكل «اضرب واهرب».

غير ان آمال «مولتكه» في تطويق النمساويين قد تقوضت، بفعل حذر «بيتنفيلد» المفرط، وخوفاً من ان يصبح معزولاً، سارع ذلك الجنرال الى توجيه جيشه (جيش الإلب) نحو الشرق، متقاطعاً مع الجناح الايمن للجيش الاول. وبذلك، اقتصر العمل على دفع مجنبة النمساويين اليسرى باتجاه النهر والحصن، بدلاً من الالتفاف حولها وعزلها عن «كونيغراتس».

وبحلول الساعة ١٤,٣٠ كان جناح «بينيديك» الايمن في فوضى تامة، تحت ضربات الجيش الثاني، كما كان جناحه الايسر في تراجع. وكان واضحاً ان معركته خاسرة، فجيشه واقع في فخ امام نهر. وقام الجنرال النمساوي باستعراض امكاناته كقائد مدافع في زمن الكوارث، على غرار ما فعله في العام ١٨٥٩، يوم انقذ جيش امبراطوره من كارثة بحسن ادارته لحرس المؤخرة في «سولفيرينو» فأمر بانسحاب عام، ثم زج خيالته بدعم مؤثر من مدفعيته، في سلسلة من الهجمات المعاكسة، التي نجحت في إبطاء التقدم البروسي. ورغم الخسائر المخيفة، فقد انجز الخيالة النمساويون مهمتهم بكفاءة وتحت تلك التغطية الجزئية، أمكن للنمساويين غير المنظمين

عبور مخاضات الإلب وجسوره، بدون ان يتكبدوا خسائر فادحة.

أما البروسيون المرهقون من جراء الزحف العنيف، والقتال وسط قيظ منتصف الصيف، فلم يكونوا في وضع يسمح لهم بمطاردة العدو. وتراجع «بينيديك» الى «اولموتس» بعد ان أحسن استخدام الخيالة في الانسحاب، وكانت خسائر النمساويين نحو ٤٠ الف اصابة، كان نصفهم اسرى، بينما كانت خسائر البروسيين نحو ١٠ آلاف اصابة.

نهاية حرب الاسابيع السبعة:

بعد يوم من إعادة تنظيم الصفوف، استأنف البروسيون تقدمهم نحو الجنوب، في اثر «بينيديك»، الذي تراجع نحو «لينتس» و«فيينا». وبقي «بسمارك» و«مولتكه» على اتصال بالتطورات الجارية عبر التلغراف وعلم البروسيون حتى قبل وصولهم الى «كونغراتس»، بان النمساويين قد الحقوا بالايطاليين هزيمة كبرى في كوستوزا مما منحهم إمكانية ارسال تعزيزات الى جيش «بينيديك» قبل وصوله الى فيينا. وفي المواقع، كان بطل «كوستوزا» الارشيدوق البرت، قد أمر بالتوجه شمالا للحلول محل «بينيديك».

وفي المانيا، كانت قوات «فوغل فون فلاكنشتاين» - التي اصبحت الآن تعرف باسم جيش الماين - تتقدم نحو فرانكفورت، بعد انتصارها على البافاريين في «ديرمباخ» و«كيسينغن»، ولكن «بسمارك» بات يخشى بشكل متزايد تدخلاً فرنسياً محتملاً. وكان واضحاً ان الامبراطور النمساوي «فرنسيس جوزيف» يميل الى عقد صلح اذا ما كانت شروط بروسيا محقة. واذا ما حاولت بروسيا إذلال النمسا، فليس من المستبعد، على المدى الطويل، ان تُرغم بروسيا على اتخاذ موقف دفاعي، بصورة مؤقتة على الاقل، كما جاء في قول «مولتكه» لـ «بسمارك». وفوق كل ذلك، كان «بسمارك» يفكر بحرب مماثلة مع فرنسا، وسيكون من المهم في حال حدوث ذلك ان تكون امبراطورية هابسبرغ صديقة، او محايدة على الاقل، ومن هنا، تم عقد اتفاقية سلام سريعة مع النمسا، التي نالت عقابها، ولكن دون ان تُذل.

الفصل الثامن: الاركان العامة

الحرب الفرنسية - البروسية

دروس تطبيقية من حرب الاسابيع السبعة

بالرغم من الشهرة والهيبة اللتين جناهما «مولتكه» من انتصاره الحاسم على النمسا في العام ١٨٦٦، فإنه كان ابعد من ان يرضى عن نفسه او عن الاركان العامة او عن الجيش البروسي. ولم يكن ذلك وليد تواضع زائد - مزيف او غير مزيف - من جانبه، رغم انه كان وديعاً لا يحب الضجيج، فقد كان يعرف مقدار قوته ويدرك اهمية نفسه، علاوة على ان ثقته بتفوق الجيش البروسي على الاعداء المتربصين قد اكدتها معركة «كونيغراتس». كما انه كان يدرك اهمية دوره، ودور الاركان العامة وخططها في ابراز ذلك التفوق. بيد انه عرف، كجندي موضوعي محترف ذي هدف، الاخطاء التي ارتكبت، ولمس بعضاً من عيوب تنظيم الجيش البروسي وتسليحه وعقيدته. وهي عيوب كان بإمكان عدو فطن ان يستغل اياً منها، وان يحصد نتائج لا تحصى.

وأشد ما كان يكدر نفس «مولتكه» فشله في استخدام الخيالة البروسيين استخداماً صحيحاً، ويقينه بأن جميع قادة المراتب الصغرى كانوا غير موفقين في استثمار خيالة قواتهم. وكان من الواضح ان ثمة خللاً جوهرياً في العقيدة البروسية، كاد ان يؤدي الى عواقب وخيمة في الاسبوع الذي سبق معركة كونيغراتس، حين كانت الجيوش البروسية تندفع عبر ممرات جبل «بوهيميا»،

وكانت عناصرها المتقدمة قد زجت نفسها في اشتباكات غير منتظرة حول حدود بوهيميا الشمالية. ورأى «مولتكه» منذ ذلك الحين بأن يذكّر القادة على كافة المستويات بأهمية الخيالة الفائقة لاستطلاع مواقع العدو وتحقيق التماس به، وبالتالي تحقيق مراقبة مستمرة للنشاطات المعادية كلها. كما تركز الاهتمام على استخدام الخيالة في تغطية تحركات العناصر الرئيسية من الجيش، لمنع خيالة العدو من الحصول على معلومات مماثلة، ولتأمين الحماية في مواقع امامية بهدف إعاقة عدو مقترب، ومضايقته بإغارات متواصلة.

وكانت العيوب الهامة الاخرى التي اكتشفت تطال المدفعية البروسية، سلاحاً وعقيدة. وكان الجواب بالنسبة الى السلاح، الاسراع بقدر الامكان في الانتهاء من تحويل جزء من المدفعية البروسية الى مدافع فولاذية محلزنة يتم تلقيمها من الخلف. ولكن الاهم من ذلك مسألة تشغيل تلك المدافع. فقد كان من عادة البروسيين جعل المدفعية في مؤخرة الارتال السائرة، مرتكزين في ذلك على افتراض منطقي يقول بأن ذلك يسمح بانتشارها وراء قطعات المشاة كِلها ما عدا الاحتياط، وحرس المؤخرة. غير ان ذلك ادى الى حرمان الارتال المتدفقة عبر ممرات الجبل من الدعم المدفعي، لدى اصطدامها بالنمساويين عند التلال الواقعة عند سفح الجبل. وقد ظهرت مشكلة التأخر في تأمين الدعم المدفعي للعناصر المشتبكة ايضا، ولو بصورة اخف، فوق الميدان الرئيسي لمعركة كونيغراتس.

وكانت العقيدة البروسية الجديدة التي احتلت مكان العقيدة السابقة بسرعة، قد وضعت من قبل مفتش المدفعية الجنرال «فون هندرسن» في اغلب الظن، واعتمدت من قبل «مولتكه» بالتأكيد. وكان «هندرسن»، جندي المشاة بالأصل، قد قضى معظم حياته العسكرية في الاركان العامة، وخدم كرئيس لأركان قوة الاتحاد الكونفدرالي، التي اعادت السلام في بادن في العام ١٨٤٩. وقد ادت براعته في قيادة المدفعية ابان الهجوم على «دوبل» الى تعيينه مفتشاً للمدفعية قبل الحرب النمساوية بقليل. وكان «هندرسن» راضياً على وجه العموم عن اداء المدفعية ساعة اشتراكها في القتال، ولكن كانت تقلقه حقيقة انها كانت تتأخر غالباً في دخول المعركة. لذا فقد وضع

حلا من شقين قضى في المقام الاول بإلحاق مفرزة مدفعية بالحرس المتقدم لكل فرقة او فيلق او جيش، على ان يوضع القسم الباقي من المدفعية على مقربة من مقدمة القوة الرئيسية لأي رتل سائر، بحيث يتمكن من تقديم اسرع دعم ممكن لحرس متقدم في حال الاشتباك، وتأمين غطاء بالنيران لانتشار القوة الرئيسية. وأوصى «هندرسن» في المقام الثاني بأن يتم التخلي عن مزاولة الاحتفاظ بمدفعية في الاحتياط. اذ يتوجب - بحسب رأيه - اشتراك كل المدافع في المعركة في اقرب فرصة ممكنة. ويبدو ان «هندرسن» هو صاحب المفهوم الحديث القائل بأن احتياطي المدفعية هو ذخيرتها.

ومن الامور التي اقلقت «مولتكه»، الارتباك الذي ظهر على ارض معركة «كونيغراتس»، إثر تراجع النمساويين، فاختلاط وحدات وعناصر الجيشين الاول والثاني، والوقت الذي تطلبته اجراءات اعادة تنظيم الصفوف، كانا مسؤولين الى حد كبير عن نجاح الخيالة النمساويين في الساعات الاخيرة من النهار، وعن ضياع فرصة المطاردة التي تمناها «مولتكه». ولما استأنف البروسيون تقدمهم، كان النمساويون قد ابتعدوا مسافة يوم كامل (حوالى ٣٥,٣٠ كلم) تحميهم خيالتهم على اتم وجه. ولم يكن حل هذه المعضلة واضحاً وضوح تغييرات العقيدة العسكرية التي استحدثت للخيالة والمدفعية. فمن اجل الا تعطل جهود القادة الفردية الهادفة الى الاندفاع قدماً بأكبر قدر من الاقدام والحيوية، واصل «مولتكه» تأكيده على اهمية المبادهة والجرأة على جميع مستويات القيادة. (وقد كان للعمل بهذه العقيدة شأن كبير في دخول العناصر المتقدمة من الجيش الثاني المعركة بشكل سريع وحاسم في صباح وظهيرة يوم ٧/٣).

وكان هناك تأكيد متزايد على التنسيق بين الوحدات المتجاورة، وعلى كافة مستويات القيادة. وحُمِّل القادة في الوقت نفسه مسؤولية السيطرة المتواصلة على جميع وحداتهم؛ اي معرفة اماكن وجودها في كل الاوقات، وإمكانية البقاء على اتصال بها، والحرص في الوقت ذاته على اطلاع مرؤوسيهم على ما يجري.

ولعل اهم درس تكتيكي تعليمي استخلص من الحرب هو ان تلك

الحرب اكدت تقدير «مولتكه» لاهمية قوة نيران المشاة المتزايدة قبل الحرب، كنتيجة لظهور بندقية المشاة في المقام الاول برصاصتها المخروطية، الدقيقة الاصابة والطويلة المدى. وقد تعزز ذلك في الجيش البروسي بتزامن استخدام هذه الرصاصة مع حركة التلقيم من الخلف التي كانت بندقية الابرة «دريزيه» تعمل بها. ووضح لـ «مولتكه» من جراء ملاحظته لفعالية الرماية الدانيماركية الدفاعية في حرب ١٨٦٤، وبنتيجة التقارير المتعلقة بالحرب الاهلية الاميركية(*) ايضاً، بأن ثمة ثورة حقيقية في تأثيرات الاسلحة. فكتب في منتصف ١٨٦٥ يقول: «لقد بات من الملاحظ ان مهاجمة موقع غدا اصعب من الدفاع عنه. فالدفاع في خلال المرحلة الاولى من المعركة يمنح تفوقاً حاسماً. وسيكون على اي هجوم بارع ارغام عدونا على مهاجمة موقع من اختيارنا نحن، بحيث لا نقوم بهجومنا التكتيكي الا بعد ان تستنزف قواه الخسائر المادية والمعنوية. وعليه يجب ان تكون استراتيجيتنا هجومية وان تكون تكتيكاتنا دفاعية»[1].

ولم يكن الوقت المتاح قبل اندلاع الحرب مع النمسا كافياً لقيام الجيش البروسي المحافظ بترجمة هذا المفهوم ـ الذي كان ثورياً بقدر ما كانت تأثيرات الاسلحة التي دفعت اليه ـ الى عقيدة تكتيكية نافذة، رغم انه لم يكن من المستبعد ان يكون «مولتكه» قد وضعه نصب عينيه ساعة وضع خطة الاحاطة بـ «كونيغراتس». بيد أن الآثار التي تركتها قوة النيران في ذلك الميدان، وفي ميادين اخرى من الحرب، قدمت دليلا جديدا على سلامة

(*) تعكس كتابات «مولتكه» اليسير من الاهتمام بالحرب الاهلية الاميركية، ولكن يبدو ان لا اساس من البرهان لما قيل عن الملاحظة الساخرة التي نُسبت اليه، والقائلة بأن الجيوش الفدرالية والكونفدرالية كانت «عصابات مسلحة». فخبراته الخاصة في الأعوام ١٨٦٤، ١٨٦٦، ١٨٧١ اثبتت الكثير من خبرات الحرب الاهلية، حيث تسببت بنادق المشاة في وقوع ٨٥/٩٠٪ من الاصابات، في حين لم توقع المدفعية سوى ٩/١٠٪ من الاصابات. وكان ذلك مغايراً لما شهدته الحرب الاميركية ـ المكسيكية وحروب القرم في بداية القرن ١٩، حيث تساوت نسبة الاصابات التي اوقعتها المدفعية مع تلك التي اوقعتها اسلحة المشاة. كما رفعت الفعالية المتزايدة اسلحة المشاة الصغيرة من اجمالي معدلات الاصابات، متجاوزة بذلك معدلات اصابات بداية القرن ١٩، بل ومعدلات اصابات اعنف معارك نابليون.

(١) As quoted in Eugene Carrias, *La Pense militaire ullemande* (Paris: 1948), p. 250. See also Howard, *op. cit.*, p. 7.

المفهوم، مما جعل «مولتكه» مصمماً على جعله عقيدة.

ولم يكن «مولتكه» يملك سلطة شخصية تخوله إدخال تلك التغييرات على العقيدة القتالية المتعلقة بالخيالة والمدفعية والمشاة، وبعودة السلام، عاد الى مركزه التابع لوزير الحربية ولكن لم تكن هنالك علاقات شخصية ودية بين «رون» و«مولتكه» فحسب، بل كان وزير الحربية قد تأثر ايضاً بنجاح خطط «مولتكه»، وبالطريقة البارعة والسهلة التي نُفذت بها تلك الخطط. وتفهم كجندي سبب التغيير والحاجة اليه، وبلغ من اهتمامه ان اصدر اوامره الضرورية. وقام «رون» و«مولتكه» معاً باجراء مشاورات مع مفتشي المدفعية، والمشاة، والخيالة على التوالي في خلال السنوات التي تلت الحرب. واكد بأن صحة المفاهيم الجديدة ونجاح اندماجها بعقيدة الجيش، سيبرزان بعد مضي اقل من اربع سنوات على معركة «كونيغراتس».

اعادة تنظيم الاركان العامة

وقام «مولتكه» في اثناء الحرب وبعدها باجراء بعض التغييرات الداخلية في تنظيم هيئة الاركان العامة. وتمت المصادقة على هذه التغييرات بأمر ملكي في ١٨٦٧/١/٣١ فكان ان قسمت الاركان العامة الى مؤسستين اساسيتين: مؤسسة رئيسية Hauptetat، ومؤسسة مساندة Nebenetat. وقد تألفت المؤسسة الرئيسية من ثلاث دوائر تقليدية تعنى بمهام جغرافية، مع قليل من إعادة ترتيب مجالات المسؤولية. وكانت الدائرة الأولى معنية بخطط متعلقة بالنمسا وروسيا وسكندنافيا وتركيا واليونان وآسيا، وكانت الدائرة الثانية مسؤولة عن بروسيا والمانيا وسويسرا وايطاليا. في حين وجهت الدائرة الثالثة عنايتها نحو القضايا المتعلقة بفرنسا وبريطانيا العظمى وبلجيكا وهولندا واسبانيا والبرتغال واميركا. وكان ضمن الدائرة الثانية قسم انحصرت مسؤوليته بالسكك الحديدية البروسية الالمانية، وكان ذلك القسم دائرة رابعة عملياً، حيث لم تمضِ بضع سنين حتى اعتبرت كذلك.

وكان للمؤسسة المساندة خمس دوائر: دائرة التاريخ العسكري، دائرة

الجغرافيا ـ الاحصاء، ودائرة الطوبوغرافيا، وغرفة الحرب، ومكتب مسح الاراضي.

الانسجام السياسي واتحاد شمال المانيا الفدرالي

في هذا الوقت، برز تطوران سياسيان، كانت لهما اهمية عسكرية غير مباشرة. ففي ٣ ايلول (سبتمبر) ١٨٦٦، وافق «بسمارك» وليبراليو البرلمان الاقليمي على قرار العفو، الذي حل العقدة البرلمانية التي ولدت منذ ان كان «بسمارك» رئيساً للوزراء، اثر هزيمة مذكرة اصلاح الجيش في البرلمان في العام ١٨٦٢. فاستناداً الى اعتراف الليبراليين بشعبية الجيش الجديدة، والتأثيرات التي نجمت عن استعراض الجيش لكفاءته، كما عرفه الملك و«رون» في العام ١٨٥٨، فكر «بسمارك» بأن الوقت قد حان لاجراء تسوية.. وكان ميالاً الى الموافقة على ان تحصيل الضرائب كان يتم منذ العام ١٨٦٢ بصورة غير دستورية، لو منح «البرلمان الاقليمي» موافقته الآن على ميزانية لخمس سنوات تخصص بمذكرة الملك الاصلية المتعلقة باصلاح الجيش. واشار في الوقت ذاته الى ان من شأن هذا تسهيل التعاون بين المستشار والبرلمان الاقليمي في تحركات دبلوماسية. ووافق البرلمان الاقليمي بكل حماس. وكانت تلك ضربة معلم سياسي اذ استطاع ارضاء جميع الاطراف في بروسيا: الملك والجيش والليبراليون والجماهير عموماً.

وبعودة الانسجام السياسي الى بروسيا، سارع «بسمارك» الى تعزيز انتصار ١٨٦٦ العسكري، ووعد «نابليون الثالث» بألا تحاول بروسيا ضم دول جنوب المانيا، او بسط سيادتها عليها، مقابل حياد فرنسا في اثناء تلك الحرب. لكن يده كانت مطلقة في مناطق شمال المانيا، التي احتلها الجنود البروسيون عملياً. وفي ١٧ نيسان (ابريل) ١٨٦٧، اقام «بسمارك» اتحاد شمال المانيا، بدستور تمت الموافقة عليه من قبل ممثلي ساكسونيا، وهس ـ دارمشتادت وميكلينبرغ، وأولدنبرغ، وجميع الدول الألمانية الصغيرة الواقعة في حوض نهر «الماين» وكان هذا بالطبع تنظيماً سياسياً قد تدعى دول جنوب المانيا ايضا للانضمام اليه في ظرف سياسي ملائم.

وفي حين ظهر اتحاد شمال المانيا صورياً كمجموعة من الكيانات

المستقلة، كان في الواقع دولة متماسكة اقيمت حول بروسيا مع حكومة دستورية مركزية عاملة، والبرلمان الاتحادي Bundestag منتخب بالاجماع. وكان مما اغضب «رون» رفض «بسمارك» تضمين حكومة الاتحاد الجديد وزارة للحربية. فقد كان «بسمارك» يخشى نشوء مشكلات سياسية كالتي نشأت في العام ١٨٦٢ اذا ما اعطي «الرايخستاغ» الالماني سبباً لتولي اية مسؤولية حيال الجيش، غير المسؤولية المتعلقة بالميزانية. من هنا، كان واضحاً بأن مسؤولية «الرايخستاغ» الدستورية قد انحصرت في مؤسسات بروسيا السياسية ـ الملك والبرلمان الاقليمي وليس في مؤسسات الاتحاد: رئيس الاتحاد (اي ملك بروسيا) ومستشاره (اي بسمارك) والرايخستاغ.

ازمة «لوكسمبورغ» مع فرنسا

ادى نشوء هذا الاتحاد الجديد فوراً الى نزاع مع فرنسا، التي صعقها هذا التزايد المفاجىء في حجم بروسيا وسلطانها. وبعد مطالب غامضة متعلقة بتعويضات تمثلت في تخلي المانيا عن الضفة اليسرى من «الراين»، او بضم فرنسا الى بلجيكا المحايدة ـ وقد رفضهما «بسمارك» معاً ـ رأت حكومة «نابليون الثالث» امكانية الوصول الى تسوية دبلوماسية عبر قيام فرنسا بضم «لوكسمبورغ» اليها. وكاد «بسمارك» ان يوافق على ذلك الحل، لكنه احجم عن ذلك امام احتجاج الرأي العام الالماني ضد تسليم منطقة المانية تقليدية الى فرنسا. واثارت مخاوف فرنسا وكبرياؤها المجروحة الى جانب الحماس الوطني الذي تجدد في المانيا بفعل الحادثة، احتمالات نشوب حرب حقيقية.

ولقد كانت لوكسمبورغ، التي كان دوقها الاكبر ملكاً على هولندا ايضاً، جزءاً من الاتحاد الكونفدرالي الالماني، قبل قيام «بسمارك» بحلّ تلك المنظمة في حزيران ١٨٦٦. وكانت إبان انضمامها الى الاتحاد الكونفدرالي تحت حماية القوات البروسية، التي ظلت في مدينة «لوكسمبورغ»، رغم ان الامارة لم تكن جزءاً من اتحاد شمال المانيا الجديد.

وهنا، قدم «بسمارك» بدبلوماسية بارعة تسوية خاصة، قبلتها فرنسا في مؤتمر دولي عقد خصيصاً في لندن لمعالجة الأزمة. وجاء في التسوية ان

تصبح لوكسمبورغ دولة مستقلة ومحايدة كلياً، لا تربطها بهولندا او باتحاد شمال المانيا اي صلات سياسية، على ان تنسحب القوات البروسية منها. وقد ارضى الانسحاب البروسي كبرياء فرنسا، فتبددت بنتيجة ذلك سحب الحرب.

وقد اقلقت هذه الازمة الخطيرة «مولتكه»، حيث كان من المقرر دمج القدرة العسكرية لباقي شمال المانيا فوراً مع قدرة بروسيا العسكرية، فيما لو قامت حرب مع فرنسا. وكان واثقاً من تفوق الجيش البروسي على فرنسا، ولكن كان احتمال تحالف فرنسا مع النمسا امراً غير مستبعد. وقد نقل اليه جهاز استخباراته بان الامتين كانتا تفكران في هذا الاحتمال.

من هنا، نشط «بسمارك» بإلحاح من «مولتكه»، في سبيل وضع الاسس القانونية لجيش مركزي في شمال المانيا، خاص بالاتحاد الفدرالي الجديد وكان «بسمارك»، شأنه شأن «مولتكه»، مطلعاً على ما كان يدور بين حكومتي فرنسا والنمسا من محادثات عسكرية وسياسية غير رسمية، ووافق مع رئيس هيئة الاركان العامة على انه في حال قيام تحالف عسكري بين هذين العدوين المحتملين، يتوجب على «مولتكه» ان يخطط لاستخدام قوة عسكرية تتلاءم مع انتصارات ١٨٦٦ العسكرية، ونجاحات ١٨٦٦ و١٨٦٧ السياسية.

وبالرغم من ان أزمة لوكسمبورغ قد وجدت حلا نهائيا لها في ايلول (سبتمبر)، واصل «بسمارك» جهوده مع السلطات التشريعية لتوحيد مؤسسات الاتحاد الفدرالي العسكرية. ونجم عن ذلك صدور قانون الخدمة العسكرية الالزامية لعموم شمال المانيا، وموافقة «الرايخستاغ» على هذا القانون في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٦٧، ليصبح نافذ المفعول لمدة سبع سنوات. وقد امّن ذلك تجنيداً سنوياً كافياً للابقاء على جيش عامل قوامه ٤٠١٠٠٠ جندي وضابط صف تقريباً، اي ما يعادل ١٪ من عدد السكان. وكان هذا بكل بساطة امتداداً للنظام العسكري البروسي في جميع أنحاء شمال المانيا لثلاث سنوات اكثر مما كان قانون الحماية البروسية قد اشترطه في العام السابق، وكان هذا الجيش الجديد عملياً جيشاً بروسياً موسعاً، رغم انه سُمح لسكسونيا بالاحتفاظ بقوة مستقلة إسمياً.

استمرار المواجهة مع فرنسا

رحب «مولتكه» بالقانون الجديد، الذي زاد من حجم الجيش البروسي اكثر من ٣٠٪. لكنه علم بأن فرنسا كانت بصدد اجراء إصلاحات عسكرية هامة، بعد ان فاجأها تعاظم قوة بروسيا العسكرية كما كانت النمسا تعيد تنظيم قواتها انطلاقاً من الدروس التي استخلصتها في العام ١٨٦٦. لذلك اقترح «مولتكه» على «بسمارك» شن حرب وقائية، قبل ان تتم فرنسا أو النمسا استعدادتها. لكن «بسمارك» رفض الاخذ بالاقتراح، بالرغم من ادراكه لضرورة محاربة فرنسا قبل تحقيق وحدة المانيا. وقد قدر «بسمارك» رغبة «مولتكه» ببدء الحرب في ظل ظروف مواتية لبروسيا، لكنه كان حريصا على توافر ظروف سياسية تحول دون اتهام بروسيا بالعدوان. وقام في هذه الاثناء، وبتوصية من «مولتكه» ايضا، بعقد تحالف مع دول اتحاد جنوب المانيا الكونفدرالي (بادن وباڤاريا وڤوتمبرغ).

وفي الحقيقة، كانت الاحداث في اسبانيا وقتذاك تتسارع باتجاه الظروف السياسية التي كان «بسمارك» ينتظرها. ففي ايلول (سبتمبر) ١٨٦٨، اطاحت ثورة بملكة اسبانيا إيزابيلا الثانية. وتولى الجنرال «خوان بريم» رئاسة الحكومة المؤقتة التي تشكلت في بداية العام ١٨٦٩، ثم راح يفتش بين الأسر الملكية الأوروبية عن ملك جديد لأسبانيا. وفي أيار (مايو) ١٨٦٩، طرح «بسمارك» سراً اسم «ليوبولد» من اسرة «هوهنزولرن ـ زيغمارينغن» وهو امير تربطه بملك بروسيا قرابة بعيدة. وحين باحث «بريم» الامير «ليوبولد» في الامر، رفض الامير في الوهلة الاولى، لكنه رضخ للامر في حزيران (يونيو) ١٨٧٠، بضغط من «بسمارك» والملك.

وفي بداية تموز (يوليو)، وقبل ان تتاح للبرلمان الاسباني فرصة التصويت على دعوة «ليوبولد»، علمت الحكومة الفرنسية بخطة تولية «ليوبولد» ملكاً على اسبانيا (وصدف ان كان مبعوث فرنسي في هذا الوقت بالذات يحاول في فيينا انهاء الترتيبات الخاصة بالحلف الذي يضم فرنسا والنمسا وايطاليا ضد بروسيا). وخلق الخوف من تولي ملك موال لألمانيا عرش بلد يقع على الحدود الجنوبية لفرنسا، حالة إنذار ورعب في فرنسا نفسها. وقرر «نابليون الثالث» ان الوقت قد حان لكشف المواقف، فأرسل الى بروسيا

يطلب سحب اسم «ليوبولد». ورأى «بسمارك» ان هناك إمكانية لاعتبار الطلب الفرنسي اهانة لبروسيا وبالتالي سبباً للحرب، وراجع «مولتكه» فيما يتعلق باستعدادات بروسيا العسكرية. وحين تأكد بان الجيش في كامل استعـداده، بدأ تحريك الرأي العام في بروسيا والمانيا ضد التدخل الفرنسي« غير المبرر» في شؤون اسبانيا والمانيا. ولكن حدث ما ازعج «بسمارك»، فقد اعلن « ليوبولد» في ١٢ تموز (يوليو) بتشجيع من «وليام»، سحب ترشيحه للعرش الاسباني.

حادثة ايمز Ems ـ الحرب مع فرنسا

ولحماقته، لم يكتف «نابليون الثالث» بهذا الانتصار الدبلوماسي، بل ارسل الى السفير الفرنسي في بروسيا، «فنسان بينيدتي» Vincen Benedetti يأمره بالحصول على ضمان «وليام» بألا يسمح للأمير «ليوبولد» بترشيح نفسه للعرش الاسباني ثانية. فقصد «بينيديتي» بلدة «إيمز» حيث كان «وليام» يمضي فترة راحته، وقابل الملك في صباح ١٣ تموز (يوليو). وفي لقاء اتسم بالودية واللياقة، قال «وليام» بانه يوافق على قرار «ليوبولد» بالانسحاب، ولكنه يرفض طلب الامبراطور الفرنسي. وبعد تلقيه برقية جديدة من «باريس»، طلب السفير مقابلة الملك مرة اخرى، فأرسل «وليام» الى «بينيديتي» رداً يقول له بلطف وحزم في الوقت نفسه، بأنه لا يرى ضرورة لمزيد من النقاش، وان لقاء الصباح كافٍ لتقديم الضمانات المناسبة الى فرنسا. فكان رد السفير الفرنسي بأنه يكتفي بذلك.

وفي مساء ذلك اليوم، كان «بسمارك» و«مولتكه» و«رون» يتناولون معاً طعام العشاء، حين وصلت رسالة من «إيمز»، كان قد ارسلها عضو من هيئة الملك الدبلوماسية، يطلع «بسمارك» فيها على اللقاء والرسائل المتبادلة بين الملك والسفير، وقام «بسمارك»، كما اعترف فيما بعد، بتحريف نص البرقية، بحيث اضحت توحي بأن السفير الفرنسي كان غير دبلوماسي في مطالبة الملك بوعد عدم السماح للامير «ليوبولد» بقبول التاج الاسباني، وبأن هذا ما جعل ملك بروسيا فظاً وقاسياً في رفضه التحدث الى السفير الفرنسي. ثم دفع بالبرقية المحرفة الى الصحافة، بهدف اثارة عواطف الفرنسيين والالمان معاً. وقد افلح في الوصول الى مرماه.

وقرر «نابليون الثالث» بعد لقاء مطول مع مجلس وزرائه شن الحرب في فجر ١٥ تموز (يوليو)، وأمر بتعبئة عامة في الحال، وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، اعتبر الطرفان صدور مذكرة برلمانية بتأمين الاموال اللازمة للحرب بمثابة اعلان للحرب. وبعد ساعات قليلة، ابرق «مولتكه» أوامره بالتعبئة العامة البروسية، بموافقة من الملك. ولم تبلغ برلين قرار فرنسا باعلان الحرب رسمياً إلا في ١٩ تموز (يوليو).

وفي هذا الوقت كانت حكومات دول جنوب المانيا الثلاث (بافاريا وبادن فورتمبرغ)، قد أصدرت في ١٦ و١٧ تموز (يوليو) اوامر بالتعبئة العامة، دعماً لبروسيا واتحاد شمال المانيا، وفقاً لالتزاماتها التي نصت عليها الاتفاقية الاخيرة. وكان ذلك يعني بان مجموع القوات الالمانية التي نفذت التعبئة العامة الفورية قد قارب ٤٧٥ الف جندي، مع اكثر من نصف مليون جندي احتياطي مستعدين للتعبئة العامة خلال اسابيع قليلة(*).

وقدر «مولكته» بأن اقصى ما كان بمقدور فرنسا ان تزجه في المعركة، لدى انتهاء المانيا من تعبئتها العامة في بداية آب (اغسطس)، يقارب ٣٤٠ الف رجل، او ٢٥٠ الف رجل على الأصح. وكان همه الوحيد احتمال تقدم الفرنسيين الى «راينلاند» بقوة من ١٥٠ الف جندي نظامي، بين ٢٠ و٣٠ تموز (يوليو)، اي حين تكون الجيوش الالمانية لا تزال في مرحلة التحشد، وكان ثمة سببان لاتخاذ الفرنسيين مثل هذه الخطوة الجريئة والخطيرة في الوقت نفسه. الاول هو ان اي انتصار مبكر لفرنسا قد يغري النمسا، بل وايطاليا، للتحالف معها ضد بروسيا. وكان «مولتكه» يعلم ما كان يدور بين حكومات الدول الثلاث من محادثات. والسبب الثاني هو ان الفرنسيين قد يجعلون من ضربة كهذه وسيلة لتعطيل التعبئة العامة الالمانية، وانتهاز الفرصة لاحتلال كامل الضفة الغربية لنهر الراين.

ولم يكن «مولتكه» بالغ القلق فيما يتعلق بالاحتمال الاخير، اذ كان

(*) بلغ مجموع القوات الخاضعة للتعبئة العامة في الاسبوع الاول من آب (أغسطس) ١,١٨٣ مليون رجل. وكانت اكبر قوة استطاعت فرنسا تعبئتها في الوقت نفسه ٥٦٧ الف رجل بما فيهم حاميات ما وراء البحار والحرس المتحرك السيىء التدريب.

مستعداً للرد عليه بقوات تعادل قدراتها على الاقل القوات التي يمكن للفرنسيين استخدامها في نهاية تموز (يوليو). وبعد حلول شهر آب (اغسطس) سيتزايد تفوق الالمان العددي يوماً بعد يوم. وإنما الامر الذي كان يشغل باله هو احتمال تدخل النمسا، وهذا ما جعله يستثني نحو ٩٥ الف رجل من التعبئة في منطقة الراين. ومع ذلك، قام في ٣٠ تموز (يوليو) بحشد بضعة و٣٨٠ الف رجل في ثلاثة جيوش غربي الراين، وقد احتشد الجيش الاول (٦٠ الف رجل) تحت قيادة الجنرال «كارل ف. فون شتاينميتس» جنوبي «فيتليش»، مع عناصر متقدمة على مقربة من «ترير» Trier و«زار بروكن»، وتمركز الجيش الثاني (١٧٥ الف رجل) تحت قيادة الامير «فريدريك تشالرز» في منطقة كايزرز لوترن. أما الجيش الثالث (١٤٥ الف رجل)، فقد احتشد تحت قيادة ولي العهد «فريدريك وليام» بالقرب من «لاندو» و«غرمير شايم».

وفي ٣٠ تموز (يوليو) قام «مولتكه»، لدى مغادرته برلين برفقة قيادة الملك «وليام» العليا، بارسال اوامر الى الجيش الثالث ببدء التقدم نحو الحدود، وكان على الجيشين الآخرين الانتظار حيث هما لايام قليلة اخرى. وقد توقع «مولتكه» تقدماً فرنسياً من زاربروكن وميتز، وقام بالتخطيط لحشد ميداني في شمال شرقي زاربروكن على الارجح، لتطويق الفرنسيين في «كونيفراتس» بطريقة افضل هذه المرة.

وقبل ذلك بيومين، اي في ٢٨ تموز (يوليو)، كان «نابليون الثالث» قد وصل الى ميتز في شمال شرقي فرنسا لكي يتولى قيادة جيوشه، التي لم تكن منظمة كجيوش عملياً وإنما كانت عبارة عن ثمانية فيالق منفصلة، ومنتشرة عبر منطقة الحدود الشمالية من «تيونڤيل» الى الراين. ولم تكن القيادة الفرنسية العليا تتعدى الامبراطور ووزير الحربية الجنرال «ادمون لوبوف» وهيئة اركان صغيرة لشؤون الأفراد. ومثل «مولتكه»، اصدر «نابليون» اوامره الاولى للتقدم في ٣٠ تموز (يوليو)، وكان بذلك يدفع الفيالق الفرنسية باتجاه فخ التطويق، الذي كان رئيس هيئة الاركان الالماني ينصبه لها.

ويسود اعتقاد بأن تقدم الفيالق الفرنسية الثمانية المنفصلة، على هذا النحو البطيء والمفكك وغير المتناسق، كان من شأنه ان يؤدي بها الى

الطوق الذي خطط «مولتكه» له في شمال «زاربروكن» لولا تهور الجنرال «فون شتاينميتس» الذي كان يقود الجيش الالماني الاول، فقد اندفع «شتاينميتس» باتجاه «زاربروكن» من دون ان يتلقى اوامر بذلك، وخاض هنالك اول اشتباك من الحملة. ولم تكن خطوة «شتاينميتس» بالغة الاهمية، لكنها استطاعت ان توقف تقدم الفرنسيين كلياً. ولم يكن الامبراطور يدرك بأن قوات بروسية رئيسية قريبة الى ذلك الحد.

وامر «نابليون الثالث» متأخراً بدمج القيادة في جيشين: الاول جيش اللورين الذي تشكل من ٥ فيالق في منطقة «ميتز- زاربروكن» تحت قيادة الماريشال «فرانسوا آشيل بازين»، والثاني جيش الألزاس الذي ضم ٣ فيالق في الزاوية الشمالية الشرقية من فرنسا، تحت قيادة الماريشال «موريس دو ماكماهون». واضطر عدم وجود هيئة اركان القائدين الجديدين الى الاعتماد على اركانات فيالقهما من اجل توجيه الجيشين، ومن اجل تأدية وظيفتهما الاعتيادية في الاشراف على عمليات الفيالق، وقد انقذ التأخير والارباك الناجمان عن سلسلة الاحداث تلك الفرنسيين من التدمير في الاسبوع الاول من آب (اغسطس) فكان ان حل صراع طويل ادى الى النتيجة ذاتها.

عمليات هيئة الاركان العامة الميدانية:

لم تكن حصيلة الحرب الفرنسية ـ البروسية او الحرب الفرنسية ـ الالمانية موضوع شك قط، صحيح ان البروسيين قد ارتكبوا اخطاء فادحة في بعض الاحيان، وان «مولتكه» وغيره من القادة وضباط الأركان قد أخطأوا في حساباتهم. ولكن حتى لو لم تكن بروسيا تتمتع بتفوق عددي في مستهل الحرب، فان هزيمة الفرنسيين كانت مؤكدة، بسبب التفوق النوعي لاداء الاركان البروسية، والتفوق العام لدى القيادة البروسية، سيما في اعلى مستويات القيادة. ولا جدال ان وجوه التفوق البروسي الثلاثة: ـ القوة الاعظم والتعبئة الاسرع، وعمل الاركان الأكفأ، ونوعية القيادة الأرقى ـ كانت كلها عائدة بصورة مباشرة للفعالية الفريدة لهيئة الاركان العامة البروسية.

وكان جل ما اصطحبه «مولتكه» لدى مغادرته برلين، لا يشكل سوى جزء من الاركان العامة: ١٤ ضابطاً، و١٠ رسامي خرائط، و٧ كتبة و٥٩

مجنداً بين مراسلين ومساعدي كتبة، وآخرين للخدمات العامة. وكانت هيئة الاركان العامة الميدانية هذه، المركز العصبي العملياتي للقيادة العليا الملكية الموسعة والمتثاقلة، التي رافقت الملك «وليام» الى الميدان. وقد ضمت هذه الاخيرة فريقاً كبيراً من وزارة الحربية باشراف «رون»، وعمل اثنان من كبار ضباط وزارة الحربية الى جانب «مولتكه» ومساعديه المباشرين، بحيث كانا عملياً جزءاً من الاركان العامة الميدانية، وكان هذان الضابطان: الفريق «تيوڤيل فون بودبالسكي» (مسؤول العمليات)، والفريق «البرت فون شتوش» (كبير الضباط الاداريين).

وكانت الاركان العامة الميدانية منظمة في ثلاثة اقسام وظيفية عاملة بتوجيه مباشر من «مولتكه»: قسم العمليات والتحركات بقيادة العقيد «باول برونزارت فون شيلندورف»، وقسم السكك الحديدية والتموين بادارة العقيد «كارل فون براند نشتاين»، وقسم الاستخبارات بقيادة العقيد «جوليوس فون ڤيردي دو ڤيرنوا»، الذي عمل في الوقت نفسه كضابط اداري رئيسي، او كمعاون لهذه الاركان الصغيرة في حجمها والكبيرة في فعاليتها. وكان رؤساء الاقسام الثلاثة محط إكبار وحسد في صفوف الجيش البروسي، وكان ينظر اليهم كأنصاف آلهة «مولتكه».

مقارنة بين الجيشين الفرنسي والألماني

على الرغم من كفاءة الجيوش البروسية الفائقة تحت ادارة «مولتكه» واركان قيادته العليا، فقد ابلى الفرنسيون بلاء حسناً في عدد من الاشتباكات المنعزلة، فالتدريب والخبرة القتالية اللذين استمدهما الجندي الفرنسي من خدمته الطويلة في شمال افريقيا وايطاليا، جعلاه يقابل خصمه البروسي مقابلة الند للند. كما ان سمات الاقدام والتفاني والاندفاع لدى القادة الفرنسيين المنخفضي المستوى كانت تعادل كفاءة صغار الضباط البروسيين. بل لعل كبار القادة الفرنسيين وأفضلهم، مثل «شانزي» و«تروشو» و«فيديرب»، كانوا لا يقلون منزلة البتة عن خيرة القادة البروسيين. ولكن في الوقت الذي اتيحت للجنرالات البروسيين فرصة اظهار امكاناتهم، كان الجنود النظاميون الفرنسيون اما صرعى، او سجناء، او محاصرين، وكان تحت تصرف قادتهم محاربون رديئو التدريب لا امل لهم في النجاح.

ومن هنا، حتى لو قيض لفرنسا ان تحسن استخدام طاقتها البشرية العسكرية، كما احسن البروسيون (وذلك امر مستبعد بدون هيئة اركان عامة شبيهة بهيئة الاركان العامة البروسية)، وحتى لو كان خيرة قادتها يحتلون مواقع المسؤولية الرئيسية منذ البداية (وذلك امر مستبعد ايضا بدون نظام عسكري تستطيع الاركان العامة بمقتضاه اتخاذ إجراءات اختيار الأفضل في زمن السلم)، ما كان لترتيبات العمليات القتالية ان تماثل ابداً الكفاية الاكيدة لضباط هيئة اركان عامة، كأنصاف آلهة «مولتكه».

ويمكن ان نجد واحدة من اجمل التعليقات حول الطبيعة العامة للتفوق البروسي، في بعض التقديرات التي ضمنها المؤرخ العسكري الفرنسي المقدم «ليونس روسيه» في عمل مرتكز على المحاضرات التي القاها في «مدرسة الحرب العليا»، في السنوات التي اعقبت الحرب:

«لا جدال في ان بندقية «شاسبو» Chassepot قد شكلت تفوقنا المادي الوحيد وكانت قطعة خفيفة نسبياً، دقيقة ومُحكمة على نحو مثير للاعجاب، وذات مدى طويل (١٨٠٠ متر)، ومتفوقة بشكل رئيسي على البندقية الالمانية الشهيرة «دريزيه» Dreyse. وقد صممت حربتها بحيث يمكن تثبيتها في طرفها، دون ان تقلل من خصائصها الباليستيكية قيد انملة، وبحيث ضمنت لمشاتنا امكانية تطبيق طريقتها المفضلة في الهجوم. لذا فقد كنا في هذا المجال متقدمين على اعدائنا، وبالتالي فان خسائرهم الدامية التي تكبدوها في مستهل الحرب، وهزائمهم الجزئية العديدة ناجمة الى حد بعيد عن تفوق سلاحنا وعن ثبات مشاتنا...

ولكن والحق يقال، فقد تمتع الجندي الألماني بخلفية تدريبية صلبة جدا ضمنت انضباطاً محكماً في الرماية، ولا بد من رد جزء من نجاحه على الاقل الى هذا التدريب، وبالمقدار نفسه الى تحسس الواجب والشرف العسكري اللذين استوحاهما هذا التدريب على جميع مستويات السلطة. ونتيجة لذلك شارك الضباط في التصميم على الامساك بزمام المبادرة بكل الوسائل الممكنة، وعلى بذل اقصى ما يملكون من قدرة. وعلى الرغم من ان الجنود كانوا يدفعون الى الحماسة والفردية، فانه كان على كل واحد منهم ان يفكر،

ويحلل، ويصيغ افكاره الخاصة، وقد جعل القادة البروسيون مهام الحاميات (في زمن السلم)، من محافظة على الثكنات، وحراسة، واعمال غير عسكرية، في حدودها الدنيا، لكي يُخصص القسم الاعظم من الوقت للواجبات العسكرية، وبالتالي لكي يُقلل بقدر الامكان من الاهتمام بما يشغل الجندي عن مرماه الاخير: تعلم مهنته. وبفضل اللامركزية العقلانية، عُهد بتدريب الجندي الى رؤسائه المباشرين، والى ضباط الصف والملازمين، والنقباء، وهو تطور منطقي وتقدمي، ساعد في الوصول الى مستوى من الكمال لم يتم بلوغه في اي مكان آخر. ومن هذا المنطلق، كان الجيش البروسي بلا جدال افضل جيش في اوروبا، وكان لنظام التدريب فيه (الذي سهل تنفيذه احترام الالمان لمبدأ السلطة) ولتنظيمه الرائع، فضل في احراز انتصاراته المدهشة»[٢].

وفي معرض المقارنة بين الخيالة البروسيين والخيالة الفرنسيين، كانت لـ«روسيه» الملاحظات التالية:

«وبالنسبة الى الخيالة ـ التي كان دورها العمل بسرعة، وتتقدم الجيش في سبيل تغطيته وحمايته ـ كان انعدام جاهزية الخيالة الفرنسية مصيبة المصائب. فبدلا من ان تندفع الى الجبهة لتمهيد الطريق امام تقدم الارتال، او حتى لتتدخل في شؤون التعبئة والتجمع لدى العدو، وُجدت الخيالة مع القوات العملياتية في وقت متأخر جداً، وأُرغمت على تنسيق تحركاتها مع هذه القوات، دون ان يُترك لها فسحة المقدمة للعمل بالاستقلالية الضرورية... فكانت مجرد اداة قتال، استطاعت اسلحة العدو سلبها معظم قوتها، وكل فعاليتها تقريبا...

«كانت الخيالة البروسية متدربة تدريبا افضل، وكانت بارعة في اعمال الاستطلاع، وتتحلى بالاقدام والجرأة اللذين استمدتهما من قادتها الشبان، المفعمين بالحيوية. وكان الأوْلن (الفرسان البروسيون) سادة من قام بأعمال الدورية على مسافات طويلة بعيداً امام الارتال الزاحفة... لقد كانت الخيالة عيون الجيش البروسي وسيقانه».

(٢) Lieutenant Colonel Leonce Rousset, *Histoire Generale de la Guerre Franco-Allemande* (Paris: 1886, 2d edition 1911), pp. 22, 34.

وكانت تعليقات «روليه» اشد واقسى على بؤس المدفعية الفرنسية المتبجحة، بالمقارنة مع المدفعية البروسية.

«في حين تزود خصومنا بقطع مدفعية فولاذية سريعة الرمي، ابقينا نحن على المدفع البرونزي ذي التلقيم من الامام الذي كان قد تجاوزه الزمن حتى في العام ١٨٥٩. وفي حين ادرك الألمان بفعل التجربة، محاسن وفرة المدافع التي عملت بتناغم فيما بينها، واعتمدت الرمي المركز، كانت بطارياتنا لا تزال ترتكب خطأ العمل جميعاً في آن واحد. وقد عنى هذا الاجراء العقيم والضعيف ان عدد القطع الفرنسية العاملة لم يكن كافياً قط لاحراز التفوق بالنيران. واخيراً، في حين اننا جعلنا عدداً من مدافع الاحتياط في مؤخرة ارتالنا، بحيث لم يكن باستطاعتها فتح النار الا في وقت متأخر، كانت بطاريات مدفعية فيالق خُصومنا تتعامل عند الضرورة كبطاريات فرقية تماماً حالما يبدأ القتال. وكانت بالتالي تؤمن للقوات تفوقاً فورياً يصعب الصمود امامه».

ولقد فهم «روسيه» بوضوح دور الاركان العامة البروسية في تأمين كل من التفوق الالماني قبل الحرب، والكفاية غير العادية لعمليات الالمان الميدانية:

«كان السند الرئيسي للقيادة العليا، هيئة الاركان العامة التي جندت افضل ضباط الاسلحة الذين اتموا دراستهم في الاكاديمية الحربية بنجاح وقد اولى رئيس هذه الهيئة عناية يقظة واهتماماً راسخاً لا يعرف الكلل او التواني، في سبيل قضية الحرب. وقام «مولتكه» بتوجيه هذه الدقة شخصياً، فاختار ضباطه الرئيسيين من بين نخبة استبعد منها الضباط متوسطو القدرات، الامر الذي امن له تلك القوة الدافعة الزاخرة التي اعطت نتائج باهرة في العام ١٨٧٠.

«هذا فضلا عن ان سلك الضباط بكامله، بما ضم في غالبيته من اعضاء ينتمون الى طبقة النبلاء، او الى صفوة الطبقة الوسطى، كان فريداً. وقد حافظت بروسيا على اعجابها المفرط بمهنة السلاح، مما أمّن لسلك الضباط مركزاً اجتماعياً مرموقاً وامتيازات خاصة، الى حد انه خلق نوعاً من الطبقة المفعمة بروح الانضباط واحساس الكرامة، واحترام للذات تجاوز

الحدود. وكان التدريب والاستقلال النسبي، الذي كان هذا السلك يتمتع به ضمن حدود مسؤوليته، والنظم التي قامت بإرشاده، واخيرا الفكرة السامية التي استخلصت من رسالته، كل ذلك عمل على تطوير روح المبادرة والتآزر التي ظهرت اكثر من مرة في خلال الحرب. لقد كان تفانيه في سبيل العرش بلا حدود.

«اما فيما يتعلق بضباط الصف، فهم الذين اعطوا القوة الحقيقية للقوات البروسية. وكان قد جيء بمعظمها من مدارس عسكرية خاصة تلقوا فيها الثقافة العسكرية الصارمة، التي رسخوها ضمن افواجهم، حيث كانوا مساعدين للضباط، بكل ما في الكلمة من معنى. هذه المكانة الخاصة، المحاطة باحترام ورفاهية غير معروفين آنذاك في جيوش اخرى، ضمنت لهم مهنة شريفة كانوا يحسدون عليها. وانطلاقاً من الدور الذي أُسند اليهم في البناء القيادي، كان باستطاعة ضباط الصف وضع كفاءتهم العسكرية موضع التنفيذ، وتطويرها في الوقت ذاته. لقد فخر بهم الجيش البروسي، واعتبرهم بحق احد العناصر الرئيسية التي حققت انتصارات المستقبل».

ان تعليقات «روسيه» على عدو جديد بالاحترام، تمنح مادة دسمة للتفكر فيها.

«من الواضح ان ثمة تحولاً قد جرى فيما يتعلق باستخدام الخيالة البروسية منذ العام ١٨٦٦ باتجاهنا. فتقدمت في ربع رتل من «امانفيلر» وهاجمتنا بكل حيوية. وحين اصبحت طليعة الرتل بادية فوق التلة، ادركتها قذائف إحكام الرمي على بعد ١٩٠٠ متر، وفتحت مدافعي الثلاثون نيران سريعة. واحاط الدخان الكثيف الذي احدثته انفجارات القذائف بمشاة العدو. ولكننا بعد وقت قصير شاهدنا عدداً هائلاً من السراويل الحمراء تقترب منا عبر الدخان. فأوقفت النيران. وامرت باطلاق قذيفة احكام رمي على مسافة ١٧٠٠ متر، وذلك لتحديدي النقطة التي يجب الا يتجاوزها المشاة في تقدمهم قبل إعادة فتح النيران السريعة. وفعلنا الامر نفسه بالنسبة للامدية ١٥٠٠، ١٣٠٠، ١١٠٠، ٩٠٠ متر. وبالرغم من الدمار الرهيب الذي احدثته القذائف، فقد تابع الاعداء الشجعان تقدمهم غير ان فعالية

نيراننا على مسافة ٩٠٠ متر كانت مميتة؛ الامر الذي حملهم على الفرار. وقد طاردناهم بالقذائف حتى تواروا عن انظارنا. وهكذا تم صد هجوم للمشاة بكل بساطة بوساطة نيران المدفعية»(٣).

إننا لن نجد مثالا عن العمل المتناسق بين عدد كبير من قطع المدفعية افضل من هذا المثال الذي، كما اشار «روسيه»، منح المشاة البروسيين «تفوقاً فورياً يصعب الصمود امامه». كما كان مثالاً لروح المبادرة والتآزر، التي كتب عنها «روسيه» باعجاب يخالطه الحسد. ولم يحدث منذ عهد نابليون الاول ان استُخدمت الخيالة بفعالية في ساحات المعارك الاوروبية ولم يحدث ايضاً ان زُود أية جيش بمعلومات عن الترتيبات والتحركات المعادية، افضل مما زُود به الجيش البروسي في العام ١٨٧٠.

وكان التحسين الذي طرأ على المدفعية البروسية خلال السنوات الاربع التي اعقبت «كونيغراتس» من الامور البارزة ايضاً. وتقدم لنا «رسائل عن المدفعية» التي وضعها الامير «هوهنلوهه ـ انغلفغن»، القائد العام للواء مدفعية الحرس، إثباتاً رائعاً لتقديرات «روسيه». فعلى سبيل المثال، كان باستطاعة الفرنسيين كسب معركة «سانت بريڤا»، نتيجة بعض الاخطار التي ارتكبها الجنرال «شتاينميتس» قائد الجيش البروسي الاول. وكان اهم ما اسهم في تمكين بروسيا من الامساك بزمام الامور في ارض المعركة، الاداء الجيد الذي قامت به المدفعية البروسية، لا سيما مدافع لواء مدفعية الحرس. ويصف «هوهنلوهه» جانباً من المعركة، حين وجد لواؤه نفسه في طريق هجوم معاكس لفرقة فرنسية، ولم يكن لديه سوى ٣٠ مدفعاً وحفنة من المشاة.

«لم يكن امامنا متسع من الوقت لانتظار التحرك الاول الذي كان على مشاة العدو القيام به ولا شك انه قدّر، مثلما فعل قليل من المحللين غير الإلمان للعمليات الحربية الالمانية، كيف امكن استخدام العناية الفائقة بالتدريب والطاعة الاكيدة في الانضباط، بشكل متناقض ظاهرياً، لترسيخ

(٣) Prince Kraft zu Hohenlohe-Ingelfingen. *Letters on Artillery*, translated by N.L. Walford (London, 1898), 3d edition, p. 86 (some terminology modified).

روح المبادرة بالتدريج، وفرض الاستقلال الذهني العميق على القادة كلهم، بدءاً من العريف وانتهاء بقادة الجيش وقد ادرك «روسيه» بان التفوق البروسي في جميع اوجه «مهنة الحرب»، كان نتيجة نظام بدا صارماً في متطلباته التدريبية، ومرناً الى ابعد حد في جني ثمار ذلك التدريب في ساحة المعركة. ولعل اهم تعليقات «روسيه» كانت تلك التي اعترفت بمسؤولية الاركان العامة عن كل «تلك القوة الدافعة الزاخرة التي اعطت نتائج باهرة في العام ١٨٧٠».

ونجم عن هذا الدرس الذي تعلمه «روسيه» وغيره من الضباط الفرنسيين بعيدي النظر، تطوير نظام هيئة اركان فرنسية مماثل خلال السنوات الماحقة بين الحرب الفرنسية ـ البروسية والحرب العالمية الاولى. وكان ان امنت هيئة الاركان تلك التنظيم العسكري والقيادة اللذين استطاعا في العام ١٩١٤ تحمل الهزيمة الماحقة والانتقال منها الى النصر في «المارن». فقد كانت هيئة الاركان العامة الفرنسية في العام ١٩١٤ ناجحة مثل هيئة الاركان العامة الالمانية ـ تقريباً وليس كلياً ـ. اما كيف ولماذا وجد الفارق (رغم الجهود الفرنسية المكثفة)، ومغزى ذلك الفارق، فانه يمكن ايجاد الاجابة عليها في السجلات العسكرية لفترة ما بين الحربين، وفي سجلات الحرب العالمية الأولى.

«مولتكه» وهيئة الاركان العامة، والجيش البروسي

توحي تقديرات «روسيه» عن الجيش البروسي وعن ميزاته القتالية الثابتة في الحرب الفرنسية ـ البروسية ، باننا امام جيش قد تم تنظيمه وتدريبه وتحريضه وقيادته وتوجيهه، بحيث لا تضاهيه من جيوش التاريخ القديم سوى جيوش اكبر العباقرة العسكريين امثال الاسكندر الاكبر، وهانيبال، ويوليوس قيصر، وجنكيز خان، وغوستافوس ادولفوس، وفريدريك الكبير، ونابليون الاول. بيد ان وقائع تلك الحرب التي كتب عنها «روسيه» وغيره من النقاد العسكريين المشهود لهم تدل ايضا على ان «مولتكه»، رغم قدراته الفريدة، لم يكن عبقرياً من ذلك الوزن. وقد أفرط «ج.ف.سي فولر» الذي يعد من افضل المعلقين العسكريين في القرن العشرين في انتقاداته اللاذعة التي وجهها الى «مولتكه». لذا لا مندوحة من قراءة، ما قاله «فولر».

«كان «مولتكه» منظم حرب من الطراز الاول، ممن فضلوا المنطق على اغتنام الفرص. وقد اعتمد فنه على التقيد بعقيدة ساكنة تستمد حركتها من التوجيهات اكثر مما تستمدها من الاوامر. وكانت حرب الجموع بالنسبة اليه حرب صدامات تكون العبقرية فيها امرا ثانوياً بالنسبة الى الروح الهجومية. ففي حين قاد «نابليون الاول» قواته فإن «مولتكه» أوصل جيوشه الى نقاط انطلاقها، ثم تخلى عن قيادتها، واطلق لها العنان. (في سيدان) لم يصدر امرا واحدا ما خلا القليل من الاقتراحات التي طرحها على الجنرال «بلومنتال» رئيس اركان الجيش الثالث. ولم يتوقع قط عملية تطويق الفرنسيين، التي تمت بسبب حماقة الفرنسيين، ومبادرة قادة الجيش البروسي، وحسن تدبير المدفعية البروسية. فليس «مولتكه» قائداً يُقلّد، وإنما هو قائد يُدرس. كانت تقديراته رائعة ولكن مجازفاته كانت ستظهر سوء تقديراته، لو انها جوبهت بخصم قوي، لأنه كان يميل الى جعل مرؤوسيه يتفوقون عليه»[٤].

ولعل فولر جَانَبَ الإنصاف في بعض تعليقاته. كقوله بأن «مولتكه» لم يستطع رغم اسلوبه التوجيهي، اقتناص الفرص، وبأنه لم يتوقع تطويق الفرنسيين في سيدان. وكان ذلك التطويق ـ رغم انه لم يكن بوضوح ودراماتيكية التطويق في «غرافلوت ـ سان بريفا» ـ ترجمة مدروسة وفعالة لمفهوم «مولتكه» للعقيدة التكتيكية «هجوم استراتيجي ـ دفاع تكتيكي». وقد كانت توجيهات «مولتكه» الى مرؤوسيه في حملتي «ميتز» و«سيدان»، مصممة على اساس وضع الجيوش البروسية على خطوط المواصلات الفرنسية. وسارت المعركة في كلتا الحالتين وفق النبوءة التي جاءت في مذكرته في العام ١٨٦٥: «ستكون مهمة اي هجوم بارع إجبار عدونا على مهاجمة موقع من اختيارنا نحن، وعندما تُستنزف قواه بفعل وقوع الاصابات، وهبوط المعنويات، والانهاك، عند ذلك فقط، نبادر نحن الى الهجوم التكتيكي».

وعلى الرغم من عبارات الاستخفاف «بمولتكه»، يزودنا «فولر» بتقديرات اكثر اتزاناً من تقديرات المعجبين الذين غشيت ابصارهم. لقد كان «مولتكه» قائداً رائعاً، لكنه لم يكن قائداً موهوباً كمعاصريه الاميركيين

(٤) J. F. C. Fuller, *A Military History of the Western Wold* (New York: 1956), Vol. III, p. 134.

الكبيرين «غرانت» و«لي». حيث انه كان نتاج نظام لاختيار النخبة الفريدة الذي وصفه «روسيه» بأنه نظام يصنعه «مولتكه» وإنما ورثه. وفي حدود ذلك، كان «مولتكه» بارزاً. ولكن لعله لم يكن افضل من عدد من نتاجات النظام نفسه، مثل «رون» و«هندرسن» و«هوهنلوهه» والفنسليين» و«مانتوفل» و«مانشتاين» والاميرين.

ويقودنا كل هذا الى الاستنتاج الذي لا مفر منه، وهو ان البناء الذي وضعه «شارنهورست»، و«كراوزينيك»، و«رايهر»، قد برهن تحت رعاية «مولتكه» بانه التفوق المؤطر في مؤسسة ـ بل العبقرية المؤطرة في مؤسسة، ما دام اداؤه يمكن مقارنته بكل ارتياح بملكة القيادة لدى القادة العظام ـ المرتقبة. ومن الامور الفريدة الى حد ما في التاريخ، كون الاركان العامة البروسية مؤسسة متجددة بنفسها، وغير متوقفة على الظهور العشوائي لقادة عظام، ذلك لأنها ـ من بين امور اخرى عديدة ـ انجبت قادة بارزين بصورة آلية.

عيب في النظام. العلاقات المدنية ـ العسكرية

كانت المؤسسة العسكرية البروسية، حتى في اوج اعظم انتصاراتها، تعاني من عيب في داخلها، وهو انعدام مسؤوليتها تجاه الامة ككل. وكان «شارنهورست» ورفاقه الاربعة المصلحون، قد ادركوا هذا العيب وتوقعوه، واملوا في عدم استفحاله، عبر إقامة الملكية الدستورية التي عارضها «فريدريك وليام الثالث» وبالتالي، فكما ان «مولتكه» هو النموذج المثالي للقوة العسكرية للنظام الذي استخدم رجالا ذوي كفاية لخلق تفوق مؤطر في مؤسسة، فانه ايضاً نموذج مثالي لنقطة ضعف بارزة في النظام.

ففي الجزء الاخير من الحرب الفرنسية ـ البروسية، وبعد تدمير الجيش الفرنسي، عجز «مولتكه» وآلته العسكرية المدهشة لعدة شهور عن اختتام عملية اخضاع عدو مهزوم لم يعترف بهزيمته. فللمرة الثانية في اقل من قرن، غدت فرنسا امة ثورية تحت السلاح، كرد وطني على غزو الماني بقيادة بروسية. وفي هذه المرة ـ وبسبب هيئة الاركان العامة ـ جاءت النتائج مغايرة. فبنتيجة انتفاضة الشعب الفرنسي غير المتوقعة بزعامة «غامبيتا»

السياسية، كانت الأشهر الختامية للحرب اشق في بعض الأوجه على «مولتكه» وجيوشه من الاسابيع الأربعة الأولى، التي تدمر في خلالها الجيش الفرنسي بدءاً من معركة «فورث» مروراً بمعركة «ميتز»، وانتهاء بمعركة «سيدان». ولكن حتى في خلال شهور المعاناة تلك، كانت اقسى ضربة واجهها «مولتكه» تتمثل في معارضة «بسمارك» الذي كان في الميدان برفقة القيادة العليا الملكية، وقد تفاقم الخلاف بين هذين الصديقين وبلغ الذروة في خلال حصار «باريس».

كان «مولتكه»، تلميذ «كلاوزفيتس» المثابر، قد فهم مسألة تقدم القيادة المدنية على القيادة العسكرية في زمن السلم، وفي الدبلوماسية التي تسبق الحرب وتعقبها. لكنه كثيراً ما عبر عن قناعته الراسخة بأنه حالما تبدأ الحرب، ينبغي على السياسيين التراجع خطوة، وترك جميع شؤون صناعة الحرب للقادة العسكريين. ويبدو ان «مولتكه» قد ركز كل اهتمامه على فقرة واحدة من اقوال «كلاوزفيتس»، حول العلاقة بين الحرب والسياسة: «إدارة الحرب... وضع السيف موضع القلم»، واهمل عملياً اقوال «كلاوزفيتس» التي وضعت ذلك المقطع في منظور صحيح، كقوله مثلاً: «ان القول بان على وجهة النظر السياسية ان تختفي كلياً في لحظة ابتداء الحرب، أمر لا يمكن تخيله ومن غير المنطقي اخضاع وجهة النظر السياسية لوجهة النظر العسكرية، ذلك لأن السياسة هي التي خلقت الحرب، فالسياسة هي الرأس المفكر، وما الحرب سوى الاداة، وليس العكس. لذا، فان خضوع وجهة النظر العسكرية لوجهة النظر السياسية هو الامر الوحيد الممكن»[٥].

ولقد كان فهم «بسمارك»، الذي لعله لم يقرأ «كلاوزفيتس» من الغلاف الى الغلاف قط، لما عناه «كلاوزفيتس» في حديثه عن العلاقة بين الحرب والسياسة، افضل بكثير من فهم «مولتكه» له. ومن هنا وقع «بسمارك» في الايام الاولى من الحرب في قلق متزايد، واستحال قلقه في النهاية الى غضب، حين وجد بأنه لم يكن قد اطلع كلياً على تقدم العمليات الحربية.

(٥) Kark von Causewitz, *On War,* translated by O. S. Mathis Jolles (Washington, D.C.: 1950), p. 589.

واحتج اخيراً الى الملك، الذي امر «مولتكه» بتزويد رئيس الوزراء بكافة المعلومات.

ثم ان «بسمارك» خشي في خلال حصار «باريس» في خريف ١٨٧٠، ان ترغمه جهود الوساطة التي كانت تبذلها الدول الاخرى على دخول مفاوضات الصلح قبل ان يتحقق كسب الحرب، وجيوش «غامبيتا» لا تزال في الميدان تزعج المواقع البروسية الامامية، والعاصمة الفرنسية ما انفكت تقاوم جيوش «مولتكه» القائمة بالحصار. فطلب من «مولتكه» قصف باريس لارغامها على الاستسلام في اسرع وقت. ولكن «مولتكه» رفض طلبه، ولم يكن رفضه نابعاً من دافع اخلاقي راود عقله، حيث انه لم ير سبباً لما اعتبره سفكاً غير ضروري للدماء، ما دامت «باريس» سترغم على الاستسلام حتماً بالتجويع. وكان السبب الرئيسي لرفضه، هو انه لم ير ايضاً حاجة الى اشغال خطوط السكك الحديدية في نقل ما لا ضرورة له من مدفعية الحصار وذخائر المدافع الثقيلة، في وقت كانت وحداته الموزعة بعيداً في شمال فرنسا تعاني من وضع تمويني دقيق.

وفي نهاية تشرين الثاني (نوفمبر)، اشتكى «بسمارك» ثانية الى الملك الذي طلب من «مولتكه» بقساوة ان يوضح اسباب تأخر قصف المدينة. وجاء رد «مولتكه» نموذجياً: «إن مسألة متى يتوجب او متى يمكن للمدفعية مهاجمة باريس، يمكن تقريرها بناء على وجهات نظر عسكرية ليس إلا. فالدوافع السياسية لها اعتبارها الى ابعد حد ما دامت لا تطالب بأي شيء غير مقبول او مستحيل عسكرياً». ومن الواضح انه شعر بأنه كان من غير المقبول البدء في القصف قبل اثبات ضرورة القصف، وكان من المستحيل إحضار المدافع أو الذخائر الى مشارف العاصمة الفرنسية بالسرعة المطلوبة، (الا اذا قام بتعديل الاولويات على خطوط السكك الحديدية ـ كما اغفل ان يقول). وتابع «مولتكه» مساعيه ليوضح بأنه يعتبر القصف اجراء مُكلفاً وغير فعال، ولن يتخذ الا في حال فشل التجويع[٦].

(٦) تستند هذه التعليقات حول مذكرة «مولتكه»، مع تعديل طفيف، على التقييم الصحيح الذي قام به «هوارد» =

وغدا «رون»، الذي كان دوماً اكثر تبصراً سياسياً من «مولتكه»، متضايقاً كـ «بسمارك». وفي ١٧ كانون الاول (ديسمبر)، وفي اثناء انعقاد المجلس الحربي، مارس الملك مزيداً من الضغط على «مولتكه». وفي غضون الاسبوعين التاليين، أخذت المدفعية والذخائر تتكدس.

وبدأ القصف في ٥ كانون الثاني (يناير) ١٨٧١. وكان لذلك معنى هام جداً، سواء على الصعيد الدولي، ام على صعيد فرنسا من الناحية السياسية ام على صعيد المانيا في الدرجة الاولى، حيث ان الاحراج الظاهر كان يثير ذعراً مفهوماً ولكن غير ضروري ـ وهو الامر الذي تابع «بسمارك»، كما هو واضح اثارته إبان خلافاته مع «مولتكه».

وكان قصف «باريس» باشراف الامير «هوهنلوهه ـ انغلفنغن» رمزاً لاستعادة الثقة الالمانية ـ كما كان «بسمارك» يتوقع ـ في وضع نهاية سريعة وناجحة للحرب التي طالت على نحو غير منتظر. وحدث في خضم هذا المناخ السياسي ان حقق «بسمارك» في ١٨ كانون الثاني (يناير)، اي بعد اقل من اسبوعين من بدء القصف، وقبل ثمانية ايام فقط من قيام الحامية الفرنسية بطلب الهدنة، طموحه الاعظم: توحيد المانيا كامبراطورية جديدة، يتولى عرشها «وليام كارل» وقد جرى الاحتفال بالحدث في قاعة المرايا الشهيرة في قصر فرساي.

بيد ان «مولتكه» كان محقاً في تنبئه بأن الأثر العسكري للقصف سيكون تافهاً. فحين طالبت الحامية وحكومة المدينة بالهدنة، بعد اسبوع من تتويج «وليام » امبراطوراً، كان عملها ناجماً عن التجويع، كما تنبأ «مولتكه»، وليس بسبب «وخزات» القصف.

= op. cit. p 325 ولكن هناك وجهة نظر اخرى لا يمكن تجاهلها. فبدون التجويع، كما وضح سريعاً، لشكل القصف فشلاً من الوجهة السياسية، حيث انه كان مؤهلاً لانعاش الآمال السامية وابداء عبثية جهود البروسيين امام الجمهور. ومن هنا، قيل بأن بسمارك طالب بأمر لا معنى له من الناحية العسكرية، وغير مفيد من الناحية السياسية. ويسأل اولئك النقاد عن السبب الذي يمنع «مولتكه» من مقاومة (بسمارك). وكان هذا واحداً من الامثلة على تدخل بسمارك المستمر في الامور العسكرية البحتة من دون ان يكلف نفسه ابلاغ مولتكه بتدخله. وتحتوي مذكرات «برونزارت فون شيليندورف» على الكثير من الامثلة حول الاقحام السياسي غير الضروري.

وكما كتب فولر: «كانت حسابات «مولتكه» مدهشة، وكان تقديره العسكري لحصار باريس نموذجياً. وهو يستحق ان يدرس اكثر مما يدعو اليه مديح «فولر» الفاتر نوعا ما. فقد كان بحق واحداً من انجح القادة في التاريخ. ولكن ماذا كان مصير «مولتكه» لو لم يُقدر له «بسمارك» لإرشاده وكبح جماحه؟ ومن الممتع ان التاريخ يمنحنا فرصة لالقاء لمحة خاطفة على وضع كهذا في المانيا بعد اقل من نصف قرن ومن الصعوبة بمكان تجنب الاستنتاج القائل بأنه لو لم يكن «بسمارك» موجوداً، لكان «مولتكه» على الأغلب نسخة مطابقة عن «لودندورف».

الفصل التاسع: تحاشي اللعنة في الحرب

استثناء لقاعدة توينبي

في مناقشة لما اسماه «اللعنة في الحرب»، وصل «توينبي»، في فقرة مشهورة، استمرار النزاع المسلح بين الأمم بسلسلة لا نهاية لها:

> «لقد كانت كل حلقة تمثل عصراً من الاختراع والانتصار العسكري ومن الانحطاط والغلبة. واستناداً الى السوابق المتراكمة عبر ثلاثة آلاف سنة من التاريخ العسكري، بدءاً من المواجهة بين غوليات وداوود الى اختراق خط ماجينو والجدار الغربي بفعل اندفاع فرسان ميكانيكيين ومهارة رماة السهام فوق جياد مطهمة مجنحة، يمكننا ان نتوقع ظهور الجديد من الشواهد على موضوع حديثنا على نحو ثابت ورتيب ما دام الجنس البشري منحرفاً الى درجة الاستمرار في رعاية فن الحرب»[1]

هناك على الأقل استثناء واحد لقاعدة «توينبي». ان سلسلة الانتصارات المذهلة التي حققها البروسيون ـ الالمان خلال السنوات السبع (١٨٦٤ ـ ١٨٧١)، قد اوجدت في المانيا وجيشها الغطرسة التي تعقب النصر في

(١) Arnold J. Toynbee, *A Study of History,* Somervell abridgment of vols. 1-6 (New York: 1947), p. 336.

حتمية تكاد لا تتغير. ولكن لم يظهر التراخي ولا الرضا الذاتي اللذان يفترض ان يكتنفا المنتصرين ايضاً. لقد كانت المؤسسة التي اوجدها «شارنهورست» ورفاقه المصلحون قد شُكلت على اساس مقاومة التراخي الذي وسم بروسيا وجيشها بعد «فريدريك الكبير»، وها هي تقوم بمهمتها على النحو الذي تمناه المصلحون وتوقعوه. وكان من الممكن ان تمثل اللعنة اخيراً لتنال انصافاً جزائياً ولكن بطريقة غابت عن بال «توينبي» - رغم ان ظهورها، لسخرية الامر، لم يكن ليفاجىء شارنهورست، غنايزناو، بوين، غرولمان، او حتى «كلاوزفيتس».

وبفضل الانتصارات التي تحققت في حروب منتصف القرن الثامن عشر غدا الجيش الكيان الاكثر شعبية واعجاباً واحتراماً ونفوذاً في الامبراطورية الالمانية الجديدة. اضف الى ذلك ان التطورات السياسية في الربع الثالث من القرن التاسع عشر قد اسهمت بدورها في زيادة مشاعر الاعتزاز القومي والتعاطف تجاه الجيش الألماني، كتأكيد واضح لدور الزعامة البروسية في وحدة المانية ذات شعبية واسعة. وكان البورجوازيون قد بدأوا يتحولون الى ملكيين مخلصين خشية الافكار الاشتراكية. وكان الكثير من غلاة المؤيدين لـ «بسمارك» وللوحدة الالمانية ثواراً في العام ١٨٤٨ - وبالنسبة لغالبية الالمان، كان جيشهم - جيش الامبراطور - يمثل الاستقرار، كما كان يمثل الشرف والمجد. وبدا الامر من الناحية السطحية كأنما حقق المصلحون الانتصار الناجز، بالرغم من فشل احد عناصر خطتهم. ومع ذلك ظل الخلل المميت قائماً. فقد سحب دستورا المانيا وبروسيا الجيش من تحت سيطرة الشعب وممثليه. ولسوء الحظ لم يكشف الخلل عن ذاته لمدة نصف قرن تقريبا.

وفي خلال السنوات التي تلت مباشرة الحرب الفرنسية - البروسية، تركزت انشطة «مولتكه» ورئيس اركانه على ثلاث مهام، كانا قد اعتبراها ذات اهمية متساوية، رغم انها تطلبت مقادير متباينة من العناية، والمهام هي: تهذيب التخطيط الاستراتيجي وتحسينه، تطويرات تقنية وتحسينات في الجيش الالماني عموماً وفي هيئة الاركان العامة على وجه الخصوص. وكانت ثالث هذه المهام - زيادة حجم الجيش واعادة تنظيمه - مرتبطة بالطبع بالمهمة

الاولى: التخطيط الاستراتيجي. وسارت جهود هيئة الاركان العامة لمعالجة كلتا المهمتين جنباً الى جنب.

وفي غضون سنوات السلام الأربع والاربعين ازدهرت هيئة الاركان العامة - التي اضحت الآن هيئة الاركان العامة الالمانية - ونمت، لكنها لم تسمح للازدهار او للنمو بالتأثير على ادائها لمهمتها الرئيسية الوحيدة: البحث الدائم عن الجاهزية العسكرية والتفوق. اما الاعتبار الذي احرزته الاركان العامة ورئيسها الشهير بسبب الانتصار على الدانيمارك، والنمسا - هنغاريا، وفرنسا فقد تُرجم في زمن السلم نفوذاً متزايداً، ومسؤولية عن تدريب الجيش وتنظيمه وتجهيزه، الى جانب مهام التخطيط التي كانت مسؤوليتها المباشرة الوحيدة.

ولقد مارس الامبراطور، كقائد عام للجيش الألماني، مهام القيادة من خلال آلية وزارة الحربية البروسية(*) (كان بسمارك قد نظم الحكومة الامبراطورية الجديدة بحيث يتولى اي وزير الماني للحربية مسؤولية «الرايخستاغ» رغم ان وزير الحربية البروسي كان يتولى هذه المسؤولية ما دامت بروسيا مهتمة بذلك). وحتى ادارة الافراد لسلك ضباط الجيش الالماني كانت في قبضة الملك عبر رئيس مجلسه العسكري، الذي كان قد اصبح في هذا الوقت مستقلاً تقريباً، لا تربطه بوزارة الحربية سوى روابط شكلية. وأما رئيس الاركان العامة، الذي قلما استشاره الملك في خلال السنوات الخمس الماضية، فقد اصبح المستشار العسكري الاول للامبراطور، وفي حين أبقى «مولتكه» نفسه الوسواسة بمنأى عن التدخل في شؤون «رون» وزير الحربية، او شؤون اللواء «إميل ل. فون البيديل»، الرئيس الجديد للمجلس العسكري، كان «رون» وضباطه يجدون في طلب آرائه في قضايا القيادة والتنظيم والتدريب وتطوير الأسلحة، بينما كان «ألبيديل» ينشد دائما نصيحته لتعيين ضباط في مراكز عليا في القيادة والأركان.

ولكن «مولتكه» كان يعتقد بالفعل بأن من المفروض ان تصبح هيئة

(*) كان وزراء الحربية في بافاريا وفورتمبرغ وسكسونيا مسؤولين عن إدارة الجيوش شبه المستقلة لهذه الامارات.

الأركان العامة مسؤولة عن نشاطين هامين من نشاطات زمن السلم، كان لها حيالهما تأثير بالغ: مراقبة مديرية المواصلات والسكك الحديدية ومراقبة تعليم الضباط. ولقد كان اداء مديرية المواصلات والسكك الحديدية مطابقاً لخطط التعبئة الحيوية التي سبق ان اعدتها هيئة الاركان العامة، وبالتالي كان من المنطقي ان يرغب «مولتكه» في تبؤ مركز يمكنه من الاطمئنان الى ان هذا الاداء كان مطابقاً لمخططه كلياً. وكان من شأن مسؤولية تعليم الضباط ان تخول هيئة الاركان العامة الاشراف على اعداد صغار الضباط لمراكز في القيادة والاركان، وبالتالي ان تسهل عملية اختيار الضابط المرجو من بينهم لهيئة الاركان العامة. كما انها كانت لتضمن للأركان بأن التدريب والعقيدة متساوقان مع الخطط الحربية تماماً.

ونزولاً عند رغباته، مُنح «مولتكه» سلطة الاشراف على مديرية المواصلات والسكك الحديدية في ١٨٧٢/٦/٢. وفي ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر)، وضعت الاكاديمية الحربية ايضا تحت ادارته، الامر الذي جعله يحيط بكامل عملية تعليم الضباط إحاطة فعالة، لانه كان على جميع مدارس الضباط الاخرى - من أكاديميات ومدارس فرعية - ان تضع مناهجها بما يتوافق مع المتطلبات المعدة للأكاديمية الحربية.

مقلدون اجانب لهيئة الاركان العامة

في هذه الاثناء، كانت نجاحات هيئة الاركان العامة في زمن الحرب تترك بصماتها على الشؤون العسكرية لأمم اخرى في جميع انحاء العالم. ففي بداية العام ١٨٧٢ أنشأت فرنسا هيئة اركانها العامة كأول خطوة على الطريق الطويلة التي صممت فرنسا ان تمشيها بغية الانتقام لهزائم ١٨٧٠، واستعادة إقليمي الالزاس واللورين المفقودين. وقد كان تنظيم هيئة الاركان العامة الفرنسية في بادىء الامر نسخة طبق الاصل عن تنظيم الاركان البروسية المعدة حسب المهام. وفيما بعد، استطاع الفرنسيون أن يعيدوا تنظيم الاركان في مجموعات ذات مهام محددة: ادارة الافراد، الاستخبارات، التدريب والعمليات، والشؤون الادارية. وجرى هذا التبديل بسبب اهتمام فرنسي خاص بالتناغم بين النظرية والممارسة، والى حد ما بسبب وجود جبهة واحدة

وعدو واحد عليها ان تحسب حسابه، في حين كان على الالمان ان يستعدوا لحرب كبرى في واحدة من الجبهات الثلاث، او في الجبهات كلها في آن معاً. وفي اي حال، ظلت هيئة الاركان العامة الفرنسية وفية للمفهوم الدستوري المأخوذ عن الالمان. وكان لذلك علاقة كبيرة بنهوض فرنسا السريع والمدهش من هزائم ١٨٧٠ - ١٨٨٧، وللاداء الممتاز الذي قامت به الجيوش الفرنسية حين عادت مجدداً الى الحرب.

وكانت النمسا - هنغاريا ايضا بصدد اقتباس هيئة اركان عامة شبيهة بهيئة الاركان العامة البروسية. وككثير من الجيوش الاخرى، كان للجيش النمساوي - الهنغاري هيئة اركان عامة صورية، تضم نبلاء، كانوا قد تسلموا مراكزهم في القيادة العليا بيسر، وتدرجوا في سلم الترقيات بسرعة عن طريق المحاباة والمحسوبية. وكان من الطبيعي ان تناقش هذه القضايا في فيينا عقب هزيمة «كونيغراتس»، لتحسم تلك المناقشات بصورة مفاجئة في العام ١٨٧١، بعد ان ادرك النمساويون ما اسفرت عنه الحرب الفرنسية - البروسية. وتم حل هيئة الاركان العامة النمساوية القديمة. وبعد فترة اضطراب قصيرة، اقتفى النمساويون في العام ١٨٧٥ آثار الفرنسيين، وشكلوا هيئة اركان عامة جديدة وفقاً للنموذج البروسي. وبقيت هيئة الاركان هذه محافظة على تقليدها للنموذج البروسي او الالماني طوال خمس واربعين سنة، لكنها - خلافاً للاركان العامة الفرنسية - لم تدرك قط مستوى مماثلاً من التفوق.

وكجارتها بروسيا، وقبل قرن تقريبا من قيام «شارنهورست» بانشاء هيئة اركان عامة حقيقية في العام ١٨٠٨، كان لروسيا هيئة اركان عامة صورية. لكنها تبنت بعد ستين عاماً، تنظيماً جديداً، اشبه بالتنظيم البروسي، بعد ان اعجبت باداء البروسيين في الحربين الدانيماركية والنمساوية. وفي السنوات التي تلت، اجرى الروس عدة تغييرات وتعديلات ثانوية، وجعلوا تنظيم هيئة اركانهم اقرب الى النموذج البروسي او الالماني، ولكن من دون ان تتسنى لهم شرارة العبقرية البروسية او الالمانية.

وفي السنوات اللاحقة، نهجت كل جيوش العالم المحترمة - بدرجات متفاوتة من الاقبال او الاحجام - نهج هيئة الاركان العامة البروسية. وكان من

بين آخر تلك الجيوش جيشا بريطانيا والولايات المتحدة. وقد وجدت هيئات الاركان العامة الانكلو- ساكسونية صعوبة في التغلب على مخاوف انظمتها الديمقراطية التي اعتبرت ان تقليد النموذج البروسي عبارة عن نزعة عسكرية، وان كفاءة هيئة الاركان العامة بالذات مظهر من مظاهر العسكريتاريا.

إعادة تقويم هيئة الاركان العامة والتحسين الذاتي

في الوقت الذي كانت المؤسسات العسكرية للامم الاخرى تحاول اجراء تحسينات نقلاً عن هيئة الاركان العامة الالمانية، كانت هذه الاخيرة تراقبها بدقة متناهية، ليس من اجل تقدير قدراتها العسكرية وحسب، بل ايضاً من اجل رصد اي ابتكار جديد تجد فيه منفعة لهيئة الاركان العامة الالمانية. وكانت الدراسات التاريخية المكثفة تجري على قدم وساق، وبخاصة فيما يخص مراجعة عمليات الحربين الاخيرتين. وقد تضمنت هذه الدراسات تحليلات دقيقة لتأثيرات الاسلحة، ولاجراءات التعبئة لدى الالمان والنمساويين والفرنسيين، . وللاداء التكتيكي لكل المشاركين في الحربين.

وبدأ في الفترة نفسها برنامج دراسي كبير لإعادة تقويم دور هيئة الاركان العامة، فيما يتعلق بمهمتها وبجاهزية سائر الجيش في ضوء الخبرات الاخيرة التي استخلصت من زمن السلم وزمن الحرب. وجاءت النتيجة تأكيداً للمبادىء التي وجهت سياسات هيئة الاركان العامة واجراءاتها في الفترة التي سبقت العام ١٨٧٠ وقد جرت إعادة تنظيم هيئة الاركان العامة تنظيماً كلياً، رغم ان ذلك لم يؤد الى اي تغيير اساسي في العلاقات الداخلية وفي الخطط التنظيمية. واقترح في الوقت نفسه، بأن تكون هنالك روابط اوثق بين هيئة الاركان العامة وبقية وزارة الحربية، وبين هيئة الاركان العامة والجيش ككل. وقد ووفق على هذه التوصيات من قبل «رون» وخلفه الجنرال «جورج ارنولد كارل فون كامكه»، الذي غدا وزيراً للحربية البروسية يوم تقاعد «رون» في ١٨٧٣/١١/٩.

ونجم عن كل هذه التحركات ان وُضع عمل كل قسم هام داخل وزارة الحربية تحت مراقبة عامة (وليس اشراف عام)يتولاها فرد او قسم اداري من داخل هيئة الاركان العامة، كما كان القسم الاقليمي الالماني من هيئة

الاركان مسؤولاً عن مواكبة النشاطات التدريبية لفيالق الجيش ووحداتها التابعة لها لكل جديد، وعن البقاء على اتصال مع جميع مفتشي الفروع الذين كانوا مسؤولين عن وضع تدريب جيش الميدان.

وفي الوقت ذاته، تمت مراجعة الدراسات التاريخية العسكرية في اقسام ادارية أخرى من هيئة الاركان، وذلك بغرض التحقق من الدروس التي استخلصت من اجل التوجيه التدريبي للجيش ككل، ومن اجل البرنامج التعليمي للضباط وضباط الصف في الاكاديمية الحربية وفي المدارس العسكرية الاخرى. وادى هذا كله الى اعداد سلسلة من التوجيهات التدريبية للقوات الميدانية، ولمفتشي الفروع، وللمدارس.

وكانت التحليلات التاريخية هذه قد دُققت ايضا من قبل الاقسام الادارية في الهيئة المسؤولة عن متابعة مهمة وزارة الحربية المتعلقة للحصول على الاسلحة والمعدات. وانبثق من ذلك دليل كان على وزير الحربية العمل بمقتضاه لدى وضع المتطلبات، والاجراء اللازم لتصميم لوازم الجيش وتطويرها وشرائها.

واولى «مولتكه» العقيد «باول برونزارت فون شيلندورف» (وهو واحد من انصاف الهة القيادة العليا العامة الميدانية إبان الحرب الفرنسية - البروسية) مسؤولية اعداد كتيب عن اجراءات هيئة الاركان العامة وسياساتها. وقد صدر هذا الكتيب في جزءين في العامين ١٨٧٥ و١٨٧٦ تحت عنوان «جهاز الاركان العامة في السلم والحرب». وكان هذا الكتيب ولا يزال مرجعاً هاماً حول الطبيعة العامة لأنشطة هيئة الاركان العامة الكبرى وضباط هيئة الاركان العامة العاملين مع وحدات ميدانية. وسرعان ما ظهرت ترجمات لهذا الكتيب في بلدان اخرى، ودرست هذه الترجمات بعناية في مدارس الضباط وفي هيئات الاركان العامة في الدول العظمى. ورغم ان هذه الدراسة قد اعطت من دون شك بعض المعلومات الخاصة حول اجراءات السيطرة وادارة العمليات داخل الجيش الالماني، فان قيمتها الخاصة كامنة في تمكينها الجيوش الاخرى من تحسين اجراءات اركانها.

وكان من الطبيعي ان يشعر «مولتكه» ومساعدوه باعتزاز كبير ازاء قيام

الجيوش الاخرى بمحاكاة انجازاتهم. وقد ادركوا ولا ريب انهم اسهموا الى حد ما في تحسين المؤسسات العسكرية المعادية. ولكن، كان ذلك امراً لا مفر منه، وبقي انهم كانوا واثقين بحق في قدرتهم على الاحتفاظ بزمام المبادرة الفكرية، والبقاء دائماً في طليعة خصومهم. كما انهم ادركوا الحقيقة التي بانت بكل وضوح عن طريق التحسن العسكري البروسي بين حربي التحرير والتوحيد: وهي ان معرفة النظرية العسكرية ومبادئها لا تكفي لضمان اداء ميداني فعال بكل معنى الكلمة، فالمهارة في الاداء وفقاً للنظرية، يجب أن تكون مترسخة تماماً في نفوس القادة كلهم ـ والجنود ايضاً ـ بحيث يقومون آلياً بمهامهم الحربية بكل ذكاء ومرونة.

ومن هذا المنطلق، كان هنالك تأكيد متواصل على ضرورة المناورات الميدانية كتتويج لبرنامج التدريب في كل عام. وقد كانت مشاريع هذه المناورات من وضع هيئة الاركان العامة. او كانت مصممة لتجري في مناطق يحتمل ان تكون المسرح الحقيقي للحرب، ولتؤكد الاستجابة الى التحديات التقنية والتكتيكية، التي كانت تبدو الاهم في نظر «مولتكه» ومفتشي الشعب. اضافة الى ان «مولتكه» واصل العمل في قيام هيئة الاركان في كل سنة بجولات راكبة في المناطق الحدودية الخطرة، بغية منح ضباط هيئة الاركان مزيداً من الخبرة في معالجة المعضلات غير المتوقعة (والتي كان «مولتكه» يزجهم فيها بدون سابق انذار).

تكتيكات المهمة

لقد حدث خلال فترة الاستبطان والتقويم لما بعد الحرب، ان تبلور واحد من اهم مفاهيم «شارنهورست» و«غنايزناو» العسكرية في عقيدة واضحة التعريف، ومفهومة من قبل جميع الضباط في الجيش، وحمل هذا المفهوم اسم «تكتيكات المهمة». وقد ادلى «مولتكه» نفسه بدلوه في التمهيد لكتيب تكتيكي جديد خاص بكبار القادة فقال:

«ما من موقف مؤات استُغل والقادة ينتظرون الاوامر. ان على الجميع، من اكبر قائد الى اصغر جندي، ان يعوا دائماً حقيقة ان اهمال الواجب والركود اسوأ من اللجوء الى التدبير الخاطىء».

وقد توالى ردود هذه الكلمات في كل طبقة جديدة للكتيب.

وكان هذا ولا شك ما حاول «غنايزناو» و«بلوخر» إدخاله في اذهان مرؤوسيهم في خلال عملية المطاردة التي جرت من «واترلو» الى «باريس»، وما امكن لـ«مولتكه» ان يتوقعه من مرؤوسيه ـ بعد تعلمهم من غرولمان، وموفالينغ، وكراوزينيك، ورايهر ـ لحظة كلّفهم بمهامهم في حرب الاسابيع السبعة والحرب الفرنسية ـ البروسية.

وما من شيء لخص وجهة نظر هيئة الاركان العامة وعملها، ووجهة نظر الجيش الالماني الذي تعاون معها وعمله، اكثر من مفهوم تكتيكات المهمة، القائل بأن مسؤولية كل ضابط وضابط صف الماني ـ بل و«اصغر جندي» عند «مولتكه» ـ هي التصرف بدون اي سؤال او شك على النحو الذي يراه ملائماً، مهما اقتضى الموقف. وكان هذا يعني بأن عليه التصرف بدون انتظار اوامر، اذا ما لزم الامر. وكان يعني ايضاً بأن عليه التصرف بما يخالف الاوامر، اذا ما بدا ان الاوامر لا تتفق والموقف. وبغية التوضيح بأن التصرف المغاير للأوامر لا يعد عصياناً او قلة انضباط، شرع القادة الألمان في ترداد قصة من القصص الأثيرة الى قلب «مولتكه»، وهي التي تتحدث عن الرائد الذي برر للامير «فريدريك تشارلز» ارتكابه للخطأ التكتيكي قائلا: بأنه كان يطيع الاوامر، ومذكراً الامير بان الضابط البروسي قد تعلم بأن الامر الصادر عن اي قائد كان بمثابة الامر الصادر عن الملك. وكان لـ«فريديريك تشارلز» الرد الفوري: «ان جلالته جعلك رائداً اعتقاداً منه بانك ستعرف متى تخالف اوامره»، هذه القصة البسيطة اصبحت هدياً لكل الاجيال اللاحقة من الضباط الالمان.

تطوير خطط استراتيجية جديدة

ومن ناحية ثانية، بقيت مهمة هيئة الاركان العامة الرئيسية إعداد التعبئة والخطط العملياتية، استعداداً لأي نزاع محتمل. وبغض النظر عما كان ضباط هيئة الاركان العامة ينصرفون اليه، فان افكارهم وغاياتهم لم تبتعد قط عن هذه المهمة الدقيقة.

وبعد استسلام «باريس» بأقل من ثلاثة اشهر، وضع «مولتكه» وهيئة

اركانه خطة استراتيجية جديدة خاصة بحرب على جبهتين، ضد حلف فرنسي ـ روسي محتمل. ولم يكن «مولتكه» يتوقع قيام تحالف بين الجمهورية الفرنسية الجديدة وامبراطورية «رومانوف» المحافظة، لكنه كان يرى إمكانية انعقاد شراكة غير مرغوب فيها بين الامتين، بدافع من خوفهما المشترك من الامبراطورية الالمانية القوية الجديدة. (كان ذلك في العام الذي كتب «تشارلز دادلي» Charles Dudley في مقالته «My Summer in a Garden» «السياسة تصنع رفقة فراش غريبة»).

ولا شك في ان «بسمارك» قد ادرك هذا الخطر بدوره. ويمكن للمرء ان يقدر انه على الرغم من العلاقات المتوترة التي كانت سائدة على الصعيد الرسمي بين الصديقين القديمين ، بسمارك ومولتكه، فانهما غالباً ما تباحثا في هذا الامر في اثناء لقاءاتهما المتكررة الرسمية. ومن السهل القول ان «بسمارك» السياسي الاكثر تبصراً، قد نبه «مولتكه» العسكري الى هذا الخطر. ولكن «مولتكه» كان مؤرخاً، لذا فانه لم يكن بحاجة الى ذاك التنبه. ولعلهما وقفا على هذا الوضع في آن معاً واتخذا الاجراء المناسب، كل في مجال عمله. ففي حين قاد «بسمارك» الدبلوماسية الالمانية الى ما يحول دون قيام تحالف فرنسي ـ روسي، او الى تطويق هذا التحالف في حال قيامه، كان «مولتكه» يخطط لمعالجة الامر عسكرياً في حال فشل دبلوماسية «بسمارك».

واستطاع «مولتكه» ان يستشف المضامين الاستراتيجية التي كان ينطوي عليها التهديد المباشر الصادر عن جيش فرنسي أعيد تنظيمه وتجديده، والتهديد الذي كانت تشكله، على المدى البعيد، التعبئة البطيئة للطاقة البشرية الروسية الهائلة. وكان اول ما تبادر الى ذهنه حيال هذه المعضلة الاستراتيجية، السعي الى تلافي الوضع الذي كاد ان يدمر بروسيا بكاملها في عهد «فريدريك الكبير» اي القتال على جبهتين ضد قوات متفوقة غازية من الشرق والغرب في وقت واحد. وفكر فوراً، في ضوء أحداث ونزاعات الاعوام الخمسة والسبعين السابقة، في حشد قوة ساحقة بما اوتي من تعبئة المانية سريعة، لايقاع الهزيمة بفرنسا، وبالتالي إخراجها من الحرب، ومن ثم تحويل هذه القوة الى الجبهة الروسية قبل ان تُتاح للروس فرصة غزو بروسيا.

ولكن بعد ان قلّب الامر قليلاً، توصل الى الاستنتاج بأن الاستراتيجية هذه لن تصيب النجاح: «فألمانيا لا تستطيع ان تأمل التخلص من احد العدوين بنصر هجومي سريع في الغرب لتتحول بعد ذلك الى القتال ضد العدو الاخر، فقد لمسنا قبل قليل كم كان عسيراً انهاء حتى الحرب المنتصرة ضد فرنسا»[٢].

واستقر قرار «مولتكه» عند ذلك على وضع خطة للتعبئة، يقسم الجيش بمقتضاها الى قسمين متساويين تقريباً، بحيث يخصص لكل جبهة قسم، ويستخدم كل قسم استراتيجيا في عمليات هجومية ـ دفاعية، ويطبق بأقصى ما يمكن التكتيكات الهجومية ـ الدفاعية التي برع «مولتكه» في تطبيقها في الحربين الاخيرتين ضد النمسا وفرنسا. وخطط لدخول اراضي العدو، والسيطرة على منحدرات يسهل الدفاع عنها لحماية الحدود الالمانية، وشن هجمات محلية ضد جيوش عدوة متقدمة، كلما توافرت الفرصة المناسبة لذلك، على أن يكون الغرض من هذه الهجمات، بشكل عام، اجبار الفرنسيين والروس على الاندفاع بصفوف غير متراصة باتجاه قوة نيران دفاعية المانية.

التهديدات الخارجية ودبلوماسية بسمارك

وسرعان ما قامت الدول الثلاث الكبرى المجاورة لالمانيا والمعادية لها ـ النمسا وفرنسا وروسيا ـ بتبني خطط التعبئة المرسومة على غرار خطط التعبئة البروسية، التي ادهشت العالم في العامين ١٨٦٦ و١٨٧٠. ومن هنا ظهر انه اذا فرض على المانيا خوض حرب ضد اي من هذه الدول، فان المعضلة الاستراتيجية ستكون اكبر من المعضلات التي ظهرت في الحربين الاخيرتين. واذا ما تطلب الامر مواجهة تحالف بين تلك الدول المجاورة، كما كان يخشى «مولتكه» و«بسمارك»، فان خطر هزيمة المانيا امام الاعداد الهائلة يصبح خطراً حقيقياً. ولذلك، اعتقدت هيئة الاركان العامة بأن هناك حاجة عاجلة لزيادة هامة في قوة الجيش العامل، وفي مقدرة الامة على تحقيق التعبئة العامة.

---

(٢) As quoted in Gerhard Ritter, *The Schlieffen Plan* (New York: 1958), p. 18.

ولكن لم يكن من السهل الحصول على مثل تلك الزيادات. فحين أُنشىء اتحاد شمال المانيا الفدرالي، تبنى «بسمارك» سياسة البرامج العسكرية السبعية، كيما يتفادى في «الرايخستاغ» الاتحادي الصراع السياسي الدائم حول الميزانية العسكرية السنوية، التي زادت من مرارة السياسة البروسية طويلا في خلال خمسينات وستينات القرن التاسع عشر. وقد تقيد بهذه السياسة ضمن اطار الامبراطورية، رغم انه قام فيما بعد بتخفيض الفترات الى خمس سنوات. وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً بأنه يستطيع بذلك تأمين اعلى الميزانيات العسكرية. ومن هنا جاء رفضه العودة الى اي زيادة هامة في الاعتمادات المالية العسكرية في بداية السبعينات، رغم حجج «رون» و«مولتكه» في هذا الامر. وقد اوضح «بسمارك» بأنه سيسعى في سبيل المزيد من الاعتمادات المالية في الحالات الطارئة، لكنه لا يرى حالياً اية حالة طارئة. وفي الواقع، كانت دبلوماسيته الناجحة ترمي الى تفادي حدوث الحالة الطارئة.

وفي العام ١٨٧٣ انشأ «بسمارك» «حلف الاباطرة الثلاثة» Dreikaiser bund الذي ربط بين الممالك القارية الثلاث الكبرى: المانيا والنمسا وروسيا، في شبركة محافظة غير وثيقة، كانت تعبيراً عن تضامن ملكي في وجه التيار الجمهوري الذي كانت تمثله فرنسا، وكادت تهدد هذا التحالف غير الرسمي النزاعات الناشبة بين النمسا وروسيا حول سياسات كل منهما المتعلقة بأقاليمهما التركية والبلقانية، في خلال الفترة (١٨٧٥ - ١٨٧٨). غير انه قُدر لـ«بسمارك» ان يحول دون نشوب حرب بين هاتين الامبراطوريتين بدبلوماسية بارعة تتوجت بمؤتمر برلين، الذي استطاع على الاقل وضع حل «للمسألة الشرقية». وقد الحق بذلك سلسلة اخرى من التحركات الدبلوماسية. فلكي يظهر لروسيا استياءه من حربها مع تركيا (١٨٧٧ - ١٨٧٨)، على اعتبار انها تهدد السلام في أوروبا، ويؤكد حرصه على إبقاء النمسا في مصاف الدول العظمى، عقد حلفاً دفاعياً مع النمسا - هنغاريا في ٧/١٠/ ١٨٧٩ واستطاع من خلال ذلك ان يقنع روسيا بأن عمله هذا قد ابعد النمسا - هنغاريا عن الانضمام الى بريطانيا العظمى في تحالف معاد لروسيا.

ومع ان مشاعر عدم الثقة ظلت سائدة الى حد ما بين روسيا والنمسا -

هنغاريا، فانهما انضمتا الى المانيا، تعبيراً عن التأكيد من جديد على حلف الاباطرة الثلاثة في ١٨/٦/١٨٨١. وعندها هندس «بسمارك» لحلف ثلاثي مع ايطاليا والنمسا - هنغاريا، وذلك لزيادة عزلة فرنسا عن اي دولة قارية اخرى. وقد ضمنت المانيا في هذا الحلف بان تهب لمساعدة ايطاليا في حال تورطها في حرب ضد فرنسا، مقابل التزام ايطاليا بالوقوف على الحياد في حال نشوب حرب بين النمسا - هنغاريا وروسيا.

فرنسا، وروسيا، وخطر حرب الجبهتين

وفي الوقت الذي اعترف «مولتكه» باحتمال نجاح بسمارك في تجنب حرب على جبهتين فانه حافظ بكل اصرار على خطط المانيا المعدة لأسوأ المواقف، التي كانت لا تزال عبارة عن حرب على جبهتين ضد روسيا وفرنسا. وغدا من الواضح في العام ١٨٧٧ ان التهديد الفرنسي كان اشد خطراً من التهديد الروسي. فقد تسنى لفرنسا زيادة طاقتها البشرية بصورة دراماتيكية، عن طريق سياسة خدمة العلم الوطنية التي اعتمدتها منذ العام ١٨٧٢، واستطاعت ان تطور نظام تعبئة سريعة وفعالة يضاهي النظام الالماني. وقرر «مولتكه» ان يزيد من حجم القوة المخصصة للجبهة الفرنسية، على حساب القوة المخصصة للجبهة الشرقية، وان يوسع الى حد ما مدى الهجوم المحدود الذي سبق ان خطط له ضد فرنسا منذ العام ١٨٧١.

وقد احدث «مولتكه» هذا التبديل في الانتشار الأولي المرسوم مرغماً، ذلك لأن امارات التحسن بدأت بالظهور على الجيش الروسي.. فقد كانت روسيا آخذة في تصحيح عيوب السياسة العسكرية وعيوب التنظيم والعقيدة التي ظهرت ابان الحرب الروسية - التركية (١٨٧٧ - ١٨٧٨) وفي التحول الى عدو محتمل يحسب حسابه. ولكن هذه الحقيقة زادت من خطر التهديد الفرنسي الاعظم والاقرب، حيث كان من المشكوك فيه ان تكون الاستراتيجية الالمانية السابقة، التي اعتمدت توزيع القوات على الجبهتين بالتساوي والقيام بدفاعات - هجومية محدودة على الجبهتين في وقت واحد، ما تزال قابلة للتطبيق في أي من الجبهتين.

ولذلك، قضت استراتيجية «مولتكه» الجديدة بحشد الجزء الرئيسي من الجيوش الالمانية ضد فرنسا في المقام الاول، ومن ثم ضد روسيا. وكان لا يزال على موقفه في ان يظل الهجوم الاولي ضد فرنسا محدودا. وكان يأمل، في حال تعرض الجيوش الفرنسية الى ضربات موجعة في معارك هامة في شرقي فرنسا، بأن تتسنى لـ«بسمارك» إمكانية التفاوض مع فرنسا بشأن صلح مقبول - ولكن بشروط مؤاتية لألمانيا. وفي حال رفض فرنسا لشروط الصلح المتهاونة نسبياً، يكون وضعها من الضعف بحيث يصبح بامكان الالمان استبقاء قوات قليلة للدفاع عن الجبهة الغربية الى وقت غير محدد، (وبالتراجع الى الراين اذا لزم الامر)، ونقل القوات الرئيسية الى الجبهة الشرقية للقتال ضد روسيا.

وكان اشد ما يقلق الجانب الالماني بعد وضع الخطة الجديدة ان يكون بمقدور روسيا، رغم بطء تعبئة قواتها، البدء في غزو شرقي بروسيا، وسيليزيا، قبل اتمام نقل القوات الالمانية الرئيسية من فرنسا. وفيما عدا ذلك، كانت هيئة الاركان العامة الالمانية تعتبر هذه الخطة تحسينا متقدماً لخطة ١٨٧١. وكان الحل الوحيد لمواجهة الخطر الروسي في شرقي بروسيا وسيليزيا، زيادة حجم الجيش الالماني زيادة حقيقية، خلافاً للزيادة المتواضعة التي شهدها كل من الجيش العامل وقاعدة التعبئة الاحتياطية في ايار (مايو) ١٨٧٤، يوم صادق «الرايخستاغ» بعد مناقشة حادة على قانون الرايخ العسكري، الذي تقرر ان ينهض بأعباء جيش عامل قوامه ٤٠١٦٥٩ جندياً. وفي العام ١٨٨٠، زاد «الرايخستاغ» تعداد الجيش العامل الى ٤٢٧٧٢٤ جندياً. ومع ان هذه الزيادة كانت اقل مما كان مولتكه يتوقعه، فإنها مكّنته من التخطيط لتركيز القوات الاضافية، بما فيها القوات التي تؤمنها قاعدة التعبئة، في الشرق. وكان هذا كفيلاً بحماية جبهتي شرق بروسيا وسيليزيا الضعيفتين، في اثناء تحشد الجيش الالماني الرئيسي في الغرب.

ولكن سرعان ما حدثت تطورات جديدة في فرنسا، ارغمت «مولتكه» وهيئة اركانه العامة على إحداث تبديل أساسي آخر في الاستراتيجية وفي خطة التعبئة. ففي العام ١٨٧٩، بلغ نظام التحصينات الفرنسية الجديد حداً جعل

احتمال تحقيق حسم سريع في الغرب امراً يتطرق اليه الشك. وامن نظام التحصينات الفرنسي، في الوقت نفسه، قاعدة لانطلاق الجيش الفرنسي المحسن في هجوم مبكر داخل المانيا - وبخاصة داخل الاقليمين الفرنسيين السابقين «الألزاس» و«اللورين». وبناء على ذلك، بدأ «مولتكه» في بداية العام ١٨٧٩ سعيه الدؤوب لحث «بسمارك» على عقد تحالف مع النمسا.

وعلى الفور، جرت محادثات غير رسمية بين هيئتي الاركان العامة الالمانية والنمساوية في فيينا ومن ثم في برلين. وحالما تم التوقيع على الاتفاقية في نهاية العام ١٨٧٩، اعد «مولتكه» خطته الجديدة. وتركزت الفكرة - كما في الماضي - على تحشيد اولي للجزء الاعظم من القوة على احدى الجبهتين، لحسم الموقف سريعاً، ومن ثم الانتقال بسرعة الى الجبهة الاخرى. ولكن الامر اختلف هنا، فانتقلت نقطة التركيز من الغرب الى الشرق، حيث كان نصف مليون جندي الماني ونمساوي يتدفقون عبر الحدود الى داخل اراضي بولونيا الروسية، في حين قام جيش الماني صغير باعاقة الفرنسيين في الغرب.

وادرك «مولتكه» بان التوصل الى حسم كامل سيستغرق في الشرق وقتاً اطول مما سيستغرقه في الغرب، ولكن كان من شأن انتشار الجيش النمساوي - الهنغاري بسرعة في الشرق ان يتيح له استبقاء جيش محترم للدفاع عن الالزاس واللورين واقاليم الراين، بل والتراجع الى الراين بدون ان يشكل تراجعه اي خطر حقيقي على المانيا.

ومع ذلك، طلب «مولتكه» الى هيئة الاركان إعداد خطة انتشار بديلة، تأخذ في حسابها تحريك القوات الرئيسية ضد فرنسا، شرط ان يحدث ما يؤدي الى تبديل في التحالفات في زمن الحرب، او ما يسمح بخوض حرب بجبهة واحدة ضد فرنسا. وقد استمر العمل بمفهوم الاستعداد لحرب على جبهة واحدة او لحرب على جبهتين طوال السنوات التسع التالية، مع وضع خطتي تعبئة بديلتين من قبل هيئة الاركان العامة في كل سنة. وفي العام ١٨٨٢، قدم انعقاد الحلف الثلاثي الى «مولتكه» فرصة التخطيط لامكانية نقل ستة فيالق ايطالية الى الراين الاعلى، وبتركيز قوات كبيرة ضد روسيا، او-

وفقاً لخطة الحرب على الجبهة الواحدة البديلة ـ تمكينه من حشد جيش كبير في اللورين، متخذاً من قلعة «ميتز» الجديدة قاعدة له، لاجتياح دفاعات شمال فرنسا بغية الوصول الى ارض «شامبانيا» المؤاتية للمناورة، والى الطريق المؤدية مباشرة الى باريس.

«ڤالدرسي» كنائب لمولتكه

في هذا الوقت، بدأ «مولتكه» يحس بوطأة اعوانه الاثنين والثمانين، فناشد مليكه مرة اخرى ان يأذن له بالتقاعد. لكن «وليام» كان على اعتاب الشيخوخة، وكان مجرد التفكير بأن يعهد امن الامبراطورية الى رجل غير «مولتكه» امرا يخيفه. لذا فقد اصر على بقاء «مولتكه» في منصبه، ولكنه وافق على طلب تعيين نائب لرئيس هيئة الاركان، يتولى الكثير من مسؤوليات الاشراف والادارة في هيئة الاركان العامة.

وكان الضابط الذي وقع عليه اختيار «مولتكه» كنائب له وبالتالي كخليفة له، هو الجنرال «الكونت الفرد فون ڤالدرسي»، الذي كان يبلغ الخمسين من العمر. وكان هذا الجنرال قد التحق بالاركان العامة في العام ١٨٦٦ وهو في الخامسة والثلاثين من عمره، أي انه كان اكبر سناً من معظم الوافدين الى هيئة الاركان العامة حديثاً. وبعد ان قضى عاماً في هيئة الاركان في برلين، عُين ملحقاً عسكرياً في باريس، حيث اثار بتقاريره الدقيقة إعجاب «مولتكه». وعاد الى برلين فور اعلان الحرب، لكنه سرعان ما رجع الى فرنسا في صحبة القيادة العليا الملكية كضابط مرافق للملك «وليام»، ولما كان واحداً من الأسرة المالكة العاملة في الميدان، فقد كان من الطبيعي ان يلتقي بـ«مولكته» بين وقت وآخر، وبالتحديد في الوقت الذي تتأكد فيه دقة تقارير «فالدرسي» على ارض الواقع. وتأكد منذ ذلك الحين المستقبل العسكري لهذا الضابط الشاب، وها هو الآن يتقلد منصب نائب رئيس هيئة الاركان العامة، ويتسلم سلطات واسعة من «مولتكه» العجوز.

كان «مولتكه» في خلال الحربين النمساوية ـ البروسية والفرنسية ـ البروسية يتمتع بحق رفع تقاريره الخاصة الى الملك (الامبراطور) مباشرة، وبعد الحربين كان الامبراطور يستدعيه من حين الى آخر للتباحث بشؤون

الاركان العامة. ولكن، من الناحية النظرية، كان على «مولتكه» ان يرفع تقاريره الى الملك عبر وزير الحربية، لكونه تابعاً اسمياً للوزير، وظل «مولتكه» شديد الحرص بصورة دائمة على تزويد صديقه القديم «رون» بدقائق لقاءاته بـ«وليام» الى ان استقال «رون» من منصبه كوزير للحربية في بداية تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٣، وجاء بعده الجنرال «فون كامكه»، الذي نشأت بينه وبين «مولتكه» علاقات ودية وخالية من اي تعقيد.

ولكن بعض مرؤوسي «مولتكه» كانوا يشعرون باستياء حيال حقيقة ان رئيسهم ـ المعروف كأعظم عسكري في عصره ـ قد ارغم على لعب دور التابع لرجل اصغر منه سناً واقل منه شهرة. بل كان لديهم انطباع بأن تفوق هيئة الاركان العامة في شؤون المانيا العسكرية قد بلغ بانتصاره على النمسا وفرنسا شأواً لا يستقيم معه جعل رئيس هيئة الاركان العامة مرؤوساً لموظف حكومي، حتى ولو كان ذلك الموظف رجلاً عسكرياً، وضابطاً سابقاً من ضباط هيئة الاركان العامة.

مكيدة: وزارة الحربية، هيئة الاركان العامة، المجلس العسكري:

كان «فالدرسي» واحداً من الذين اصروا على الا تكون هيئة الاركان العامة خاضعة لوزارة الحربية، وإنما خاضعة للامبراطور مباشرة. وبما انه غدا بحكم منصبه صاحب نفوذ كبير، قرر بأن يعمل شيئاً في هذا الشأن. ولما اصبح واضحاً بأن «كامكه» لا ينوي التخلي عن مسؤوليته كوزير للحربية، بدأ «ڤالدرسي» يتآمر ضده. ووجد على الفور شريكاً له في المؤامرة، هو الجنرال «فون البيديل»، رئيس المجلس العسكري. وكان «ألبيديل» تحت رعاية «مانتوفل»، فتولى رئاسة المجلس العسكري في العام ١٨١٥، اي بعد خمس سنوات من تسلم «مانتوفل» منصب حاكم «شلسفيغ» وكرس «البيديل» ـ كما فعل مانتوفل» ـ جهوده في سبيل استقلال المجلس العسكري التام عن وزارة الحربية، وفي سبيل احكام قبضته على القضايا الاساسية في الادارة العسكرية. ولما لم تكن لديه رغبة واضحة في تولي مسؤولية مهام التخطيط في الاركان العامة، غدا حليفاً طبيعياً لـ«ڤالدرسي». وكان من الطبيعي ان يكون وزير الحربية «فون كامكه» عدو الرجلين، اذ انه، الى جانب ولائه للامبراطور، يُعد من اشد

مؤيدي فلسفة «شارنهورست» ـ «غنايزناو» ـ «بوين» حول مركزية السيطرة على الجيش الخاضعة لممثلي الشعب المنتخبين. وكان «بسمارك» الحليف الثالث غير المتوقع ضد «كامكه». ومن الجلي انه لم يكن هناك خلاف شخصي بين «بسمارك» و«كامكه»، ولكن «بسمارك» كان غير موافق مطلقاً على مفهوم بسط سلطة تشريعية على الجيش. وكانت الليبرالية المتنامية ـ بل ونفحات الاشتراكية ـ في صفوف المشترعين، قد جعلت «بسمارك» لا يثق بالرايخستاغ كله، ولا بالعمل الديمقراطي، وبما انه كان يرى في الجيش ملاذ الامة الاخير ضد اية ثورة محتملة، فقد وجد بانه من المرغوب فيه القيام بأي عمل ممكن للإقلال من السلطة الاشتراعية على الجيش. وبناء عليه، بدأ سعيه لاضعاف نفوذ وزير الحربية ـ المسؤول العسكري الوحيد الذي يتحمل مسؤولية غير مباشرة امام الرايخستاغ. وكانت افضل طريقة لتحقيق ذلك، تحويل بعض من هذا النفوذ الى المجلس العسكري وهيئة الاركان العامة، اللذين كانا مسؤولين امام الامبراطور بالدرجة الاولى.

وفي بداية العام ١٨٨٣، تحول الخلاف الفلسفي بين «بسمارك» و«كامكه» الى قضية هامة، وذلك حين اتهمت مجموعة من المشترعين الجيش بالعجز المالي، ووصفت رجال الحرس البروسي بأنهم جنود استعراض، لا يتمتعون الا بالقليل من الكفاءة العسكرية. وما ان تفاقمت هذه الهجمات ضد الجيش في خلال مناقشات الرايخستاغ، حتى استشاط الامبراطور العجوز غضباً والمح «ألبيديل» لـ«وليام» بأن «كامكه» لم يكن يدافع عن الجيش بجدارة كافية. ولا يستبعد ان يكون «بسمارك» قد صب الزيت فوق نار غضب الامبراطور، الذي وجه الى وزير الحربية تعليمات عليا، يطالبه فيها بأن يوضح للرايخستاغ بأن الجيش خاضع لسلطة الامبراطور وليس لسلطة الهيئة التشريعية. واعتبر «كامكه» كلام الامبراطور دليلاً على انه فقد ثقته به فاستقال في ١٨٨٣/٣/٣، وبادر «بسمارك» فوراً الى «وليام» بنصحه بقبول الاستقالة.

وبدا على «ألبيديل» و«فالدرسي» انهما موافقان ـ بموافقة «بسمارك» في اغلب الظن ـ على ان البديل المنطقي هو الجنرال «باول برونزارت فون شلندورف»، الذي كان فيما مضى واحدا من اهم ضباط الاركان في مقر قيادة «مولتكه» العليا الميدانية ابان الحرب الفرنسية ـ البروسية، ومؤلف كتيب

«واجبات هيئة الاركان العامة». وقد فهم «برونزارت» اللعبة، ويبدو انه كان يشارك «بسمارك» رغبته في اضعاف سلطة «الرايخستاغ» حيال الجيش، وبالتالي كان لا يجد غضاضة في قبول منصب وزير الحربية بسلطات اقل. كما انه كان ـ انطلاقاً من خبرته كضابط هيئة اركان عامة ـ قد تعاطف مع مطلب تقرب رئيس هيئة الاركان العامة من الامبراطور مباشرة. بل انه كان في الواقع احد الذين حثوا على اتخاذ مثل هذه الخطوة. ولعله كان اقل حماسة إزاء زيادة سلطة رئيس المجلس العسكري. ولكن بدا له ان نقل سلطة الاشراف على شؤون الافراد من يد وزير الحربية الى المجلس العسكري اهون سبيل الى تحجيم مسؤولية وزارة الحربية من دون تدميرها كلياً.

حق الاتصال المباشر بالامبراطور

لهذا السبب، صدر في ٨ آذار (مارس) ١٨٨٣ امر امبراطوري بالغاء قسم شؤون الافراد في وزارة الحربية، وتحويل مسؤولية شؤون الافراد العسكريين كلها الى المجلس العسكري. وفي ٢٤ ايار (مايو) صدر امر امبراطوري آخر يمنح رئيس هيئة الاركان العامة ونائبه حق الاتصال المباشر بالامبراطور.

وجاء على لسان «غوردون كريغ» بأن «برونزارت» قد مكّن «ألبيديل»، انطلاقاً من رغبته في زيادة نفوذ هيئة الاركان العامة والمجلس العسكري على حساب وزارة الحربية، من «تدمير الوحدة الادارية التي عايشها الجيش منذ عهد «شارنهورست» و«بوين» وخلف نوعاً من المزاحمة بين الدوائر لم تكن معروفة قبل العام ١٨٣٣. وغدت وزارة الحربية، والمجلس العسكري وهيئة الاركان العامة هيئات مستقلة. ولكن كان من الصعب عملياً تبيان حدود ميادين التنافس فيما بينها. وما انفكت الصراعات بين العامين ١٨٨٣ و١٩١٤ تتوالى على نحو قاس ومؤثر في فعالية الجيش»[٣].

ومن دون رفض كل هذه التقديرات بالضرورة، يقتضي الانتباه الى ان هناك تقويماً آخر. فالتنافس بين الدوائر مضر حين يزيد عن حده، لكنه من ناحية ثانية، كما تم التوصل اليه في الولايات المتحدة، يحول دون نمو

(٣) Craig, *op. cit.*, p. 230.

«عسكريتاريا متراصة»، ويحض على التنافس الشريف. وتكمن الصعوبة بالطبع في تعريف الكلمات العملية: «يزيد عن حده» و«التنافس الشريف». وليس عدم الكفاءة صنيعة **الجدال** حكماً. ولعل من وجهة نظر عسكرية بحتة، لم يكن لهذه التغييرات في الواقع تأثير على كفاءة الجيش الالماني. ومن المؤكد ان «برونزارت» لم يكن يعتقد ذلك. وهناك شك فيما اذا كانت هناك قوة ضاغطة اعظم، والشيء الاكيد ان تأثير هيئة الاركان العامة على جميع القضايا التي اثرت فعلاً بالكفاءة العسكرية لم يخفف كما انه لم يزدد بفعل حق الاتصال المباشر بالامبراطور.

لقد كان الضرر الحاصل فادحاً حقاً، ولكنه انحصر في **المجالين** السياسي والسياسي ـ العسكري، اللذين لم يكن لبرونزارت او لضباط **هيئة** الاركان العامة فيها باع طويل. والمعركة التي فتحها «شارنهورست» و«بوين»، ثم «كامكه» فيما بعد، لضمان شيء من الاشراف الشعبي على القضايا العسكرية كانت خاسرة تماماً. اذ ان سلطة التاج وسيطرته على الجيش قد أعيد تثبيتهما على نحو لم يعهد منذ ايام «فريدريك الكبير»، وارادة الشعب ـ الديمقراطية ـ أضعفت بشكل خطير في المانيا. وبما ان شؤون الدولة كانت في يد براغماتي بارع مثل «بسمارك»، فإن خطر استخدام قوة المانيا العسكرية الهائلة على نحو غير مسؤول بقي ضئيلاً. ولكن الامر بين يدي امبراطور متردد، ومستشار ضعيف، لرجحت كفة القرارات المتهورة، ولاستخدمت القوة العسكرية على نحو غير مسؤول من قبل عسكريين ـ مثل «مولتكه» او «لودندورف» ـ لا يملكون الخبرة في شؤون الدولة، هذا الى جانب ان نموذجا يحتذى كان قد أسس، الامر الذي كان يمكن ان يسهل اساءة استخدام القوة العسكرية الالمانية من قبل رجل مجنون شرير يشغل منصب رئيس الدولة.

لقد كان ارتقاء «ڤالدرسي» السلطة في هيئة الاركان العامة دليلاً على صعود وهبوط التفوق العسكري المؤطر في مؤسسة. وكانت المؤسسة فوق كل شيء من لحم ودم، وتتألف من بني البشر. وكان «ڤالدرسي» من دون جدال صاحب كفاءة عسكرية عالية، وتأثيره على نشاطات هيئة الاركان خلال توليه منصب نائب رئيس هيئة الاركان العامة، ومن ثم منصب رئيس هيئة

الاركان، لم يكن له بالتأكيد اثر معاكس على ادائها بصفتها «عقل» الجيش الالماني المفكر. (كان سبنسر ولكينسون قد كتب في هذه الفترة بالذات تحليله الرائع لهيئة الاركان العامة الالمانية، الذي اعطاه عنوان «عقل جيش»)[٤].

وكان «ڤالدرسي»، بالرغم من تفوقه هذا، يفتقر الى الذكاء الحاد الذي كان يتمتع به سلفه او خلفه. لقد كان متآمراً، وكان من الممكن ان تؤثر مؤامراته على كفاءة هيئة الاركان العامة، ولكنها لم تنجح في ذلك. وكان بالاضافة الى ذلك مختالاً، متعجرفاً وطموحاً على نحو غير عادي. وبما أن الجيش الالماني لم يواجه في خلال توليه منصبه في هيئة الاركان العامة اي ازمة خطيرة ـ غير الازمات التي سببها هو نفسه ـ، فانه من غير الممكن التصور كيف كان سيتصرف تحت وطأة المسؤولية الجسيمة الملقاة على عاتقه في وقت الازمات القومية.

وليام الثاني يصبح امبراطوراً

توفي الامبراطور «وليام الاول»، في بداية العام ١٨٨٨، وخلفه ولي العهد، الذي اصبح ملكاً تحت اسم «فريدريك الثالث»(*) لفترة قصيرة دامت ثلاثة اشهر او اكثر بقليل. فقد توفي في ١٥ حزيران (يونيو) متأثراً بمرض السرطان، وخلفه ابنه الشاب وليام الثاني.

وبعد وفاة «وليام الاول» بقليل، أمل «مولتكه» في ان يتقاعد، ولكن استقالته من منصبه كرئيس لهيئة الاركان العامة كانت قد جُمدت حتى تتضح نتيجة مرض الامبراطور الجديد. ومع صعود امبراطور يافع مفعم بالحيوية، الى **العرش، لم ينتظر «مولتكه» طويلاً. فقد قبل «وليام» الثاني استقالته بأدب جم، وفي** ١٠/٨/١٨٨٨ ترك الفيلد مارشال ذو الثمانية والثمانين عاما منصبه الذي

(٤) Spenser Wilkinson, *The Brain of an Army* (London: 1890).

(*) من المثير ان الاسم «وليام» كان اسمه الأول بصفته ملك بروسيا وامبراطور المانيا، وقرار ابنه ـ المعروف سابقاً بالامير فريدريك وليام ـ باطلاق اسم فريدريك الثالث على نفسه، بدلاً من اسم فريدريك الأول، يبين ان اسرة هوهنزولرن كانت تعتبر ان الخلافة الملكية كملوك لبروسيا كانت متقدمة على اللقب الامبراطوري.

تقلده مدة ٣١ سنة. وجاء من بعده «فالدرسي»، الذي كانت تربطه بالامبراطور الجديد روابط صداقة.

مكائد ڤالدرسي مستمرة

كان «فالدرسي» في هذا الوقت قد بلغ شأوا يخوله مواصلة تنفيذ المكائد التي كان قد خطط لها او التي انغمس فيها، وهي مكائد حيكت ضد الرجال الثلاثة الذين كانوا حلفاءه منذ سنوات قليلة خلت: «ألبيديل، وبرونزارت فون شلندورف، وبسمارك».

كانت الخلافات القائمة بين «فالدرسي» و«ألبيديل» في مقدمة الخلافات التي ظهرت على سطح الاحداث وكان «فالدرسي» يعلم ان الامبراطور الجديد كان صديقاً حميماً للواء «فون هانكه» قائد لواء مشاة الحرس الاول، الذي كان ايضاً صديقاً «لفالدرسي»، لذا شرع «فالدرسي» في قطع تحالفاته السابقة بالتداول مع «وليام»، كما شرع في الوقت ذاته في حث الامبراطور على اخذ امكانية تعيين «هانكه» رئيساً للمجلس العسكري في الاعتبار. وفي وقت لاحق من العام ١٨٨٨، حدث التغيير، فغادر «ألبيديل» برلين، ليمضي السنوات الاخيرة القليلة من خدمته بعيداً عن الاضواء كقائد للفيلق السابع. وسرعان ما ضم رئيس المجلس العسكري الجديد جهوده الى جهود «فالدرسي»، الذي احسن اليه، وعملا معاً في مكيدة اكثر تعقيداً ضد وزير الحربية الجنرال «باول برونزارت فون شلندورف».

ولقد ادرك «برونزارت»، بفضل خبرته كأحد اعضاء الحكومة وكمشترع، بأن عملية اضعاف سلطة وزير الحربية لا علاقة لها كلياً بعمل هيئة الاركان العامة. وكان الامر الذي اقلقه حقيقة أنه لا يملك سلطة الاشراف على الافراد الذين بنوا الجيش، بالرغم من مسؤوليته العامة الادارية والمالية حيال الجيش ككل. ولم يجد ذلك مخيباً للآمال من وجهة ادارية وحسب، بل ومربكاً من الوجهة السياسية ايضاً. وكان من المستحسن احياناً ان يمتلك القدرة على تحاشي الاجابة على اسئلة صعبة في الرايخستاغ، حينما كانت هذه الاسئلة متعلقة بشؤون الافراد او التخطيط. بل ان الاحراج بلغ حد ارغامه على الاعتراف امام اعضاء الهيئة التشريعية بأنه لا يعلم شيئاً عن

الشؤون العسكرية، التي شعر «اللاندتاغ» البروسي و«الرايخستاغ» الالماني بأن لهما كامل الحق بالاطلاع عليها.

ولشدة ما اثار هذا الوضع سخط «برونزارت» في خلال المناقشة لموازنة الجيش السباعية في ربيع العام ١٨٨٧، حيث لم يوافق «الرايخستاغ» على زيادة تعداد الجيش الى ٤٦٨٤٠٩ رجال، الا بعد ان بذل المستشار ووزير الحربية جهوداً جبارة لاقناع «الرايخستاغ». وقد ظهرت المتاعب امامه في كانون الاول من العام نفسه، حين طرح «برونزارت» بغباء مشروع قانون لاعادة تنظيم قوات الاحتياط وزيادة حجمها.

وهكذا شعر وزير الحربية بانزعاج شديد حين بدأ يلمس بان الامبراطور الشاب يهتم بنصائح رئيس المجلس العسكري الجديد ورئيس هيئة الاركان العامة الجديد، اكثر من اهتمامه بالنصائح التي كان يتلقاها ـ بوتيرة متناقصة ـ من وزير حربيته المجرّب. وكانت علاقاته الحميمة مع «فالدرسي» قد بدأت تفتر، وايقن وزير الحربية بأنه يخوض صراعاً على السلطة ضد رئيس هيئة الاركان العامة. وفي اوائل ١٨٨٩، وجه الى «وليام» مذكرتين، يشير فيهما الى انه لا يستطيع القيام بمهامه في الرايخستاغ على النحو المطلوب، ما لم يكن باستطاعته الاجابة على اسئلة متعلقة بالجيش بدلا من تحاشي مثل هذه الاسئلة، وما لم يتأكد بأنه لا يزال يحظى بثقة الامبراطور.

ولما لم يتلق رداً امبراطورياً مرضياً، استقال «برونزارت» وقُبلت استقالته. وفي ٨ نيسان (ابريل) ١٨٨٩ استعيض عنه بزميله القديم «جوليوس فون فيردي فيرنوا». وكان ذلك في نظر «فالدرسي» و«هانكه» (الذي كان خلفاً روحياً حقيقياً لمانتوفل وألبيديل) فرصته لسلب وزارة الحربية المزيد من سلطتها لمصلحة هيئاتهما. وقد وافق «فيردي» على ذلك وهو يفضي الى «فالدرسي» بشيء من الأسى: «لا بد ان يجعل وزير الحربية الجديد من ظهوره في مكتبه ضرباً من ضروب الانتحار»(٥).

كان «فالدرسي» يكيد سراً «لبسمارك» منذ العام ١٨٨٦، وقد بات مقتنعاً

(٥) Alfred von Waldersee, *Diaries* (Berlin: 1928), p. 325.

بأن دبلوماسية المستشار المراوغة إزاء روسيا والنمسا كانت بلا معنى بسبب تأرجحها، وبأن «بسمارك» قد فقد طاقته النشطة العنيدة. وكان في اعتقاد «فالدرسي» بأن قوة روسيا المتعاظمة وطموحها الواضح للتوسع حتى «القسطنطينية» كانا اعظم ما يهدد المانيا. وكان في اعتقاده ايضا بأنه قد آن لألمانيا والنمسا ـ هنغاريا ان تدمرا القوة الروسية. واذا ما دخلت فرنسا الحرب، فسيكون ذلك افضل. ولم يكن هناك ما يدل على ان «فالدرسي» قد بدأت تراوده طموحات ان يصبح مستشاراً[٦]، لكي ينفذ هذه السياسة.

ومن غير الواضح ان كان «بسمارك» قد وعى بأن «فالدرسي» يكيد له. وقد ساورته شكوك حول مؤهلات «فالدرسي» كرئيس جديد لهيئة الاركان العامة، لكن شكوكه تبددت بفعل تطمينات «مولتكه»، وقدّم بدوره توصية الموافقة على تعيينه الى الامبراطور الجديد. وبعد اقل من سنتين، رد «فالدرسي» التحية بأن بارك قرار الامبراطور بالتخلص من «بسمارك». ولكن المفاجأة حلت، حين اختار «وليام» الجنرال الكونت «ليو فون كابريفي»، احد ضباط الاركان السابقين، مستشاراً بدلاً عن «بسمارك».

وفي هذا الوقت، قدم «فيردي دو فيرنوا» استقالته ايضاً، لمساهمته في دفع «برونزارت» الى الاستقالة. وحل محله كوزير للحربية الجنرال «هانس كارل جورج فون كالتنبورن ـ ستاخاو».

وفي هذا الظرف بالذات، بدأ «فالدرسي» يدرك بأنه فقد ثقة «وليام» وصداقته. وكان إدراكه جزءاً من تقويمه السليم لما تضمنه عزم الامبراطور على انشاء البحرية الالمانية. ولم يأبه «وليام» بمحاولة «فالدرسي» لاقناعه بان المانيا، كقوة قارية يحيط بها اكثر من عدو محتمل، لا تستطيع تقسيم مواردها المحدودة بين جيش عظيم وبحرية عظيمة. وقد حاول «فالدرسي» التقاعد، لكن «وليام» اقنعه بقبول قيادة فيلق من فيالق الجيش. وفي ١٨٩١/٢/٩ تم تعيين الجنرال الكونت «فون شليفن» رئيساً لهيئة الاركان العامة.

(٦) See Goerlitz, *op. cit.*, pp. 111-126, for an interesting discussion of Waldersee's ambition in relation to his post in the General Staff.

الفصل العاشر: خطة «شليفن»

عجز في الكمال

الفرد فون شليفن

كان رئيس هيئة الاركان العامة الجديد ينحدر من اسرة بروسية نبيلة عريقة، وابن ضابط بروسي. ولقد ولد في برلين في العام ١٨٣٣. وفي العام ١٨٣٧ تقاعد ابوه، الرائد «ماغنوس فون شليفن» لاعتلال صحته، وانتقل الى ارض له في سيليزيا، حيث نشأ «الفرد فون شليفن» حتى دخوله المدرسة في عام ١٨٤٢. وخلافاً لبعض الذين عاصروه من العسكريين، والذين كانوا يتباهون بأصولهم الارستقراطية، لم يكن «شليفن» الشاب فخوراً باجداده الارستقراطيين وحسب، بل بحقيقة ان عدداً منهم كانوا من رجاحة العقل ان تزوجوا من عامة الناس. ولقد كان مغرماً في إيعاز صفات الحيوية والمثابرة والاجتهاد التي كان يتحلى بها الى الدم الغريب الذي خالط الدم الازرق.

ولم يبد «شليفن» في مقتبل عمره اهتماماً بالحياة العسكرية، بل انه واجه في الواقع مشكلة تقرير مستقبله المهني. ولم يدخل اياً من الاكاديميات العسكرية البروسية، بل انتسب الى كلية الحقوق في جامعة برلين حين دخل الجيش في العام ١٨٥٣ لاداء الخدمة العسكرية الالزامية كمتطوع لمدة سنة واحدة. وقد تم ذلك وفقاً للقانون الذي كان يسمح للمتعلمين بان يصبحوا ضباطاً بعد سنة واحدة من الخدمة الفعلية، استعداداً لاحقاً كضباط احتياط.

ولقد اصيب هذا الشاب الغض، ذو الجسم الضئيل ـ ومن دون حماس كبير ـ بالدهشة عندما لاحظ ان الحياة العسكرية لم تكن غير مرضية. وبدلا من الالتحاق بالاحتياط، عُين في العام ١٨٥٤ ضابطاً مرشحاً في فوج الحرس البروسي الثاني. وسُمح له في العام ١٨٥٨ بدخول مدرسة الحرب العامة قبل ان يبلغ السن القانونية، بفضل توصيات حارة من قادته. وبتخرجه في الأكاديمية الحربية (حسب التسمية الجديدة التي اقرت في العام ١٨٥٩) في العام ١٨٦١ بامتياز، تحدد مستقبله كضابط من ضباط هيئة الاركان العامة.

وبعد ان قضى عاماً كضابط معاون لقائد فوجه، نقل «شليفن» في العام ١٨٦٢ الى المكتب الطوبوغرافي في هيئة الاركان العامة، ثم الى هيئة الاركان نفسها في العام ١٨٦٥. وخدم إبان الحرب النمساوية ـ البروسية كضابط اركان في فيلق الخيالة تحت قيادة الامير «البرت»، وقاتل في معركة «كونيغراتس». وفي العام ١٨٦٨ تزوج من ابنة عمه الكونتيسة «انا شليفن». وكان في هذا الوقت قد اشتهر بمثابرته، ولكن بعد وفاة زوجته الجميلة في العام ١٨٧٢، اثر ولادة طفله الثاني، انصرف الضابط الشاب الحزين الى عمله كلياً، وبقي طوال حياته بعيداً عن مباهج الدنيا وزينتها.

وحين اندلعت الحرب الفرنسية ـ البروسية، خشي «شليفن»، الذي كان يخدم آنذاك ضمن هيئة الاركان العامة في برلين، من الا تتاح له فرصة الخدمة الفعلية في الميدان. وكم كانت سعادته عارمة حين أُلحق بهيئة اركان الدوق الاكبر «فريدريك الثاني»، دوق «ميكلينبرغ ـ شفيرين»، الذي كان يقود الفيلق الثالث عشر المشكل حديثاً لحماية ساحل بحر الشمال من أي غزو فرنسي برمائي محتمل. ولكنه سرعان ما رافق الدوق الأكبر «فريدريك» الى فرنسا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر). وكان الدوق قد استدعي آنذاك لتسلم قيادة جيش صغير كان يعمل في وادي نهر «اللوار» الواقع بين «أورليان» و«لومان». وبذلك حقق «شليفن» مراده في نيل خبرة الخدمة الحربية الفعلية كضابط اركان موثوق به ونافذ، في واحدة من أشق الحملات التي خاضها الجيش البروسي في تلك الحرب. وكان قد رُقي الى رتبة رائد.

وبين العامين ١٨٧١ و١٨٨٤ تنقل «شليفن» بين فوجه وهيئة الاركان

العامة. وفي العام الاخير اعيد تعيينه (وقد اصبح عقيداً) في هيئة الاركان العامة في برلين، مسؤولاً عن قسم التاريخ العسكري. وكان من الواضح ان «شليفن»، الذي كان «مولتكه» و«فالدرسي» قد اعداه كرئيس فعلي لهيئة الاركان، قد خدم كمدير لمختلف اقسام الاركان بين العامين ١٨٨٥ و١٨٨٨. وفي ٤/١٢/١٨٨٦ رقي الى رتبة لواء. وفور تقاعد «مولتكه» وتعيين «فالدرسي» رئيساً لهيئة الاركان العامة، اصبح «شليفن» نائباً لرئيس هيئة الاركان (كان هناك نائبان آخران لرئيس هيئة الاركان) ومسؤولا عن العمليات، ثم رقي الى رتبة فريق في ٤/١٢/١٨٨٨.

وخلافاً لرئيسه، تحاشى «شليفن» الخوض في الشؤون السياسية والانغماس في المكائد، وكرس نفسه بكل مثابرة للاشراف والاستغراق الفعلي في مهمتين رئيسيتين من مهام هيئة الاركان العامة: تحضير الخطط الحربية، والسير قدماً في اعداد الجيش الالماني للحرب. وغدا، مثله مثل «مولتكه»، متحسساً لخطر تنامي العلاقة بين روسيا وفرنسا، وحقيقة ان هذين العدوين المحتملين، قادران على حشد قوات هائلة على حدود المانيا الشرقية والغربية الضعيفة. وبات مقتنعاً بان امل المانيا في النصر، في حال تورطها في حرب ضد الائتلاف الفرنسي ـ الروسي، لا يكمن في نظام التعبئة السريع والخطط الاستراتيجية العليا فحسب، بل وفي استمرارية التفوق الحقيقي في الفعالية القتالية للقوات المقاتلة ايضاً، بدءاً من الجنرالات وانتهاء بالجنود. ومع ذلك، كان يرى ان محاكاة روسيا وفرنسا لجهاز هيئة الاركان العامة الالمانية، قد ساهمت في زيادة كفاءة جيوشهما زيادة مضطردة.

ويعرف «شليفن» تاريخياً كاستراتيجي ومخطط في المقام الاول. ومن الامور المنسية إجمالاً ان مضمون مفاهيمه الاستراتيجية كان يتمثل في امتلاك قوة عسكرية ذات كفاءة قتالية متفوقة على كفاءة خصومها. لذا فقد اولى التدريب والتثقيف العسكريين وتكييف التقنية الحديثة مع الاغراض العسكرية، عناية لا تقل عن عنايته بالتخطيط الاستراتيجي. غير انه لم يحتفظ بمنصبه الجديد مدة طويلة. فبعد عامين ونصف العام من تعيينه، الفى نفسه رئيساً لهيئة الاركان العامة، بدلاً من «فالدرسي». وفي ٢٧/١/١٨٩٣ تسلم منصب قائد الخيالة.

خطة «شليفن» الأولى

لم يبد «شليفن» حتى ذلك الحين اية محاولة لتغيير الخطط الحربية الاساسية، التي تبناها «مولتكه»، وحافظ عليها «ڤالدرسي» مع شيء من التعديل. ولكن في غمرة تفاقم خطر التحالف الروسي ـ الفرنسي، بدأ يشك في جدوى المفهوم الاستراتيجي القائم حول الحرب الهجومية ـ الدفاعية على جبهتين، مع منح الاولوية للجبهة الشرقية. وحين اصبح الحلف امراً واقعاً في العام ١٨٩٣، استنتج «شليفن» بأن الوقت قد أزف لاحداث تبديل حقيقي في الاستراتيجية.

وكان شليفن فيما مضى، قد وافق «مولتكه» الرأي بأن «روسيا» اقل خطراً من فرنسا، بيد انه اخذ يرتاب في امكانية احراز نصر حاسم على روسيا، وتحاشي خطر قيام فرنسا القوية لغزو المانيا. واستعاد في ذاكرته ما حدث لجيش «نابليون» لدى غزوه لروسيا في العام ١٨١٢. فقد كان باستطاعة الروس استغلال الوقت الذي يستغرقه توغل الجيوش الالمانية عميقاً في الأراضي الروسية، ريثما تصبح فرنسا مستعدة لسحق الجيش الصغير الذي اعتقد «مولتكه» بأنه يكفي للحفاظ على خط جبال «الڤوج» او على نهر الراين.

وزاد من قلق «شليفن» تنامي التقارب بين فرنسا وبريطانيا، وتزايد خطر الرد البريطاني على سياسات الامبراطور «وليام الثاني» الاستعمارية التوسعية. وبما انه لم يكن يرى ما يشير الى تغير محتمل في هذه السياسات، فقد رأى في انضمام طاقة بريطانيا البشرية الى التفوق العددي الهائل الذي يتمتع به التحالف الروسي الفرنسي، تهديداً لا يمكن تجاهله. وبالرغم من ان تحالف المانيا مع النمسا ـ هنغاريا وايطاليا كان يؤمن تعادلاً في الطاقة البشرية مع الطاقة البشرية لدى الجيشين الفرنسي والروسي، فان ثمة مادة في الحلف الثلاثي تعفي ايطاليا من الوقوف الى جانب حليفتيها في حال انخراطهما في قتال ضد بريطانيا العظمى.

لقد كان المفهوم الاساسي لخطة الحرب الجديدة، الذي تكونت ملامحه في عقل «شليفن» بسيطاً جداً فأية قوة المانية صغيرة نسبياً في

الشرق، تستطيع ان تقف في وجه الخطر الروسي على بروسيا وسيليزيا، ليس بسبب بطء خطة التعبئة الروسية وبلادتها فحسب، بل ايضاً بسبب تفوق الالمان على الروس في ميدان القتال تفوقاً لا لبس فيه. وفي الوقت الذي كان «شليفن» واثقاً من ان الجيش الالماني كان افضل من الجيش الفرنسي ايضاً، فإنه كان يعلم بان الجيش الفرنسي قد احرز تحسناً هائلاً، وبات في اغلب الظن ثاني افضل جيش في العالم. (وكان هذا بالطبع السبب الآخر الذي جعل «شليفن» يعتبر ان استراتيجية تأخير القتال ضد فرنسا في الغرب كانت اقل واقعية من استراتيجية تأخير القتال، ضد روسيا في الشرق). لكنه فكر في ضوء قناعته بالتفوق الالماني على الفرنسيين، في ان يدفع بالجزء الرئيسي من الجيش الالماني ـ اي ما يعادل ٩٠٪ من قوته المعبأة ـ ضد فرنسا، لاحراز نتيجة حاسمة قبل ان يستعد الفرنسيون للمعركة كلياً. وقد يسعى بفضل السرعة والمناورة الى تدمير الجيوش الفرنسية والاستيلاء على باريس، قبل ان يتسنى لبريطانيا التدخل في الحرب، او قبل ان يحدث تدخلها ـ في حال التدخل ـ اثراً في القارة الاوروبية.

وكان «مولتكه» في نهاية السبعينات يفكر في هذا الاتجاه الى حد ما، لكنه عدل عن ذلك بسبب طبيعة التحصينات الفرنسية الهائلة في «اللورين». وكان «شليفن» قد ادرك بأن خطته القاضية بشن هجوم عبر تلك التحصينات ستكون باهظة الثمن. وسيرافقها قدر كبير من المجازفة. ولكن خطر في باله ان الحرب الطويلة ستكون اعظم هولاً، وكذا المجازفة، حيث تواجه بريطانيا وفرنسا وروسيا مجتمعة ألمانيا وحدها، او معها النمسا ـ هنغاريا (وليس انضمام الاخيرة مؤكداً).

وتم تبني الخطة الجديدة في العام ١٨٩٤، وكان «شليفن» واركانه في هذا الوقت يكثفون جهودهم بحثاً عن السبل الكفيلة بزيادة الكفاءة القتالية الالمانية، واضفاء مزيد من المرونة وسرعة التحرك على جيوش الميدان، ولجأ «شليفن» الى التكنولوجيا يلتمس منها المراد.

شليفن رئيساً لهيئة الاركان العامة

تبين «لشليفن» أن اعظم خطر يهدد خطته الجديدة، هو احتمال نجاح الجيوش الفرنسية، المرتكزة على تحصيناتها القوية في شرقي اللورين، في

ايقاف التقدم الالماني، وخلق موقف محرج على طول الحدود. وفكر«شليفن» في ان الجواب عن هذا الاحتمال هو تزويد القوات المحاربة بقوة نيران اعظم بكثير مما سبق استخدامه في الميادين المفتوحة. ورأى ذلك في جعل المدفعية الثقيلة، المعروفة تقليدياً بمدفعية الحصار، متحركة بما يكفي لمرافقة جيوش الميدان، الى حيث يمكن استخدام المدافع ليس لزيادة قوة نيران مدفعية الميدان التقليدية في ارض المعركة فحسب، وانما ايضاً لتحطيم التحصينات الفرنسية بسرعة، ومن دون التأخير الذي كان ينجم عادة عن «جلب بطاريات الحصار».

واما الجنود الالمان التقليديون ـ بمن فيهم رجال المدفعية ـ فقد ارتاعوا لطرح «شليفن». فقد تصوروا البطء الشديد الذي سيصيب تقدم الجيش بكامله من جراء جلب المدافع العملاقة مقطورة وراء عدد هائل من الخيل، ورأوا بالتالي أن إدخال المدفعية الثقيلة الى ميدان المعركة سيؤدي الى عكس ما كان يتوخاه «شليفن». ولكن رئيس هيئة الاركان العامة لم يأبه لمعارضتهم. فقد كان يخطط للاستفادة من السكك الحديدية في نقل المدفعية ـ ومعظم بقية عناصر الجيش ـ الى مكان من ارض المعركة لم يسبق ان وصلت اليه قوات من قبل، كما كان يفكر ايضاً في امكانية استخدام المحركات البخارية لجر المدفع، اما بمساعدة من الخيل او من دونها. ولكن قبل ان تصل الفكرة الى مرحلة التطوير، كان المحرك الجديد ذو الاحتراق الداخلي قد ظهر ليقدم الى «شليفن» مبتغاه.

وفي هذا الوقت، دفعته افكاره حول مزاوجة شؤون السكك الحديدية بخطط القتال الى حد لم يبلغه «مولتكه» من قبل، الى استحداث شعبة جديدة هي شعبة هندسة السكك الحديدية. وكانت مهمتها الرئيسية ابقاء السكك الحديدية ناشطة خلف خطوط الجبهة مباشرة، بحيث لا تظل القوات المحاربة الراغبة في الحصول على امداداتها، ملتزمة بالتقيد بالقطارات البطيئة، التي كان عليها ان تقطع اميالاً لا تحصى بين الجيوش المتقدمة والحدود الألمانية.

ومن الممتكن ايضاً استخدام ما يقع في ايدي الالمان من سكك

حديدية، وان كانت قد تدمرت على ايدي الفرنسيين المتقهقرين، وذلك في حال استطاعة وحدات هندسة السكك الحديدية، المدربة والمعدة والمجهزة على النحو الامثل، ان تقوم باصلاح تلك السكك الحديدية وإعادة تشغيلها بالسرعة المطلوبة. ومرة اخرى تصاعدت صرخات غلاة المحافظين من الضباط الالمان تتهم «شليفن» بانه يقوم بأعمال حقيرة قذرة تنافي نبالة فن الحرب. ولعل «شليفن» رد عليهم بأسلوبه الساخر بأن الحرب بحد ذاتها قذرة وحقيرة، وبأن التقيد بالعادات والأعراف لا يبرر الإحجام عن خوض الحرب بكفاءة.

واشد ما كان يقلق «شليفن» الخوف من ان تؤدي العادة والعرف الى اجراءات، كانت ضرورة مُرّة، ثم غدت روتيناً غير لازب فيما بعد، يحميها اعتقاد خاطىء بأنها كانت شؤوناً تقليدية يتوجب احترامها.

ولعله كان، كما دلت ابتكارات رجال المدفعية ومهندسي السكك الحديدية، اقل التزاماً بالأعراف حتى ممن سبقوه من المتنورين.وكان «شليفن» يصر على ان تتم معالجة القضايا الروتينية بطرق روتينية، وبسرعة وكفاءة، كي يتاح الوقت الكافي للتفكير بالمسائل الهامة حقاً.

وبناء على ذلك، ادخل «شليفن» بعد وقت قصير من توليه رئاسة هيئة الاركان تغييرات طفيفة على تنظيم هيئة الاركان العامة ومناهجها. وقد تناولت هذه التغييرات اموراً كانت في معظم الاحوال اثيرة لديه خلال السنوات الطويلة التي امضاها بين ضباط هيئة الاركان العامة، وها هو الان في مركز يخوله بأن يفعل شيئاً بشأنها. وقد ذكرت هذه التغييرات في صفحات كتاب «برونزارت فون شليندورف» «واجبات هيئة الاركان العامة» الذي تم تنقيحه وتحديثه بادارة «شليفن» في عام ١٨٩٣.

بيد ان المناهج في معظمها قد اختلفت اختلافاً يسيراً عما كانت عليه سابقاً، حتى قبل ان يصبح «مولتكه» رئيساً لهيئة الاركان العامة. فقد ابقى «شليفن» على جولة هيئة الاركان السنوية، كتقليد مضى عليه ثلاثة ارباع القرن، لانه وجد ان الاسباب الداعية اليها ما زالت سليمة منذ ان وضعها «موفلينغ». وواصل تأكيده على التاريخ العسكري، لأنه كان كـ« مولتكه»

يؤمن بقيمة دراسة العبر التاريخية. بل انه كان في الواقع، يسرق بضع دقائق من ايامه الحافلة بالعمل لكتابة بحث تاريخي حول مادة المناورة عبر التاريخ، وهي مادة طالما اثارت اهتمامه ورأى فيها اهمية خاصة لدى تفكيره في المعضلات التي قد تسببها حرب على جبهتين، ضد فرنسا وروسيا.

شليفن و«كاني»

كان «شليفن» يرمي من وراء هذا البحث، الذي نشره في وقت لاحق تحت عنوان «كاني» الى هدفين اثنين: اولهما توضيح مفاهيمه الخاصة بالمناورة، وبالتحديد مناورة الالتفاف بالارتباط مع اسس الحرب الاخرى. والهدف الثاني ولعله اهم من الأول، ما دامت افكار «شليفن» الخاصة قد تبلورت كلياً قبل ان ينهي العمل بوقت طويل ـ هو جعل البحث واسطة تعليم لدى هيئة الاركان، والاكاديمية الحربية، والجيش ككل.

وثمة تقويم عسكري رائع للكتاب نجده في فقرتين من مقدمة طبعة ١٩٢٥، كان قد كتبه ضابط سبق له ان خدم في هيئة الاركان العامة تحت اشراف «شليفن». والضابط هو الجنرال «البارون هوغو فُون فراتياغ لورينغهومن».

لقد كان نشاط الفيلد مارشال الكونت «فون شليفن» كرئيس لهيئة الاركان العامة للجيش الالماني، بعيداً عن الاضواء. ولكن اسمه غدا على كل شفة ولسان منذ الحرب العالمية. واصبح معروفاً بان إرثه الروحي هو الذي جلب الانتصارات الهامة التي حققها الجيش الالماني في بداية الحرب. وبالرغم من ان تعاليمه قد أسيء تطبيقها، فقد ظلت تعاليمه لهيئة الاركان العامة ثروة لا تقدر بثمن.

ان دراسات الكونت «شليفن» عن «كاني» ليست صورا مأخوذة عن التاريخ العسكري كلياً. وانما تحتوي على وثيقة تعليمات متداولة. وكما ان الفيلد مارشال قد وجه عنايته دوماً، كرئيس لهيئة الاركان العامة خلال فترة سلام طويلة، الى ابقاء فكرة حرب الابادة حية في صفوف ضباط هيئة

الاركان العامة وبالتالي في صفوف الجيش ككل، فانه حرص على التعبير عن ذلك في كتاباته. ولقد كان وضع المانيا يتطلب قراراً سريعاً. ورغم ان الكونت قد عول كثيراً على كفاءة الجيش الالماني، فقد كانت تشغل باله باستمرار الاسئلة الدائرة حول كيف سيبلي قادتنا البلاء الحسن حين يجد الجد. ولهذا السبب، فانه يعزو افكاره الخاصة عادة الى قادة الماضي ـ ومنهم «مولتكه» ـ حين يريد ان يبرهن بانه من اجل تحقيق نصر حاسم، يجب اللجوء الى الالتفاف الماحق ـ ويفضل ان يكون ذلك من جانبين او من ثلاثة جوانب ـ كما فعل «هانيبال» في «كاني». اما خطر الحرب على الجبهتين الذي كان يهدد المانيا فكان ماثلا امام الكونت «شليفن» في كل ما كتبه. ففي حرب مثل هذه الحرب، لا يمكننا ان نحقق الانتصار ما لم ننجح فور اندلاعها في انزال هزيمة ماحقة بفرنسا. فالكونت «شليفن» يصف المعارك الحديثة بـ «الصراع من اجل الاجنحة» اكثر مما يصف المعارك التي سبقتها ومن هنا، يؤكد «شليفن» في حال قيام اجزاء من جيشه باحتكاك جبهي مع العدو، ينبغي السماح للارتال المجاورة بالسير قدماً بحيث تصبح قادرة على الالتفاف حول مجنبة العدو او حول مؤخرته. ومن هذا المنطلق، لا ينصف «شليفن» دائماً العاملين في تاريخ الحرب. وعلى الاخص القادةَ الثانويين من جيشنا في العام ١٨٦٦ و١٨٧٠ ـ ١٨٧١. ولكنه من ناحية ثانية يفسر سلوكهم بأنه وليد التقاليد النابليونية في غياب خبرة الحرب لدى جيلهم. ورغم حكمه القاسي، فان كتابات الفيلد مارشال تبدي تقديراً حقيقياً للفن العسكري الصحيح، ذلك لان جوارحه كانت مسكونة بنار عسكرية لا مثيل لها. وهو يؤكد بأن اندفاع مشاتنا نحو الهجوم كان الشرط الاساسي للنصر[١].

ومنذ بداية توليه رئاسة هيئة الاركان العامة، اعتبر «شليفن» بأن احدى مهامه الاساسية كانت اعداد صغار ضباط هيئة الأركان لتحمل المسؤولية، وللتفكير بخيال واسع، ومما زاد من استياء الكثير من كبار الضباط، ان «شليفن» لم يكلف صغار اعضاء هيئة الاركان بالتخطيط للمناورات فحسب، بل وبإدارة تحركات القوات المناورة ايضاً.

(١) Count Alfred von Schlieffen, *Cannae*, authorized translation (Fort Leavenworth, Kan.: 1913), pp. vii-lx.

جعل بعض الكتاب المحدثين من «شليفن» ذلك الرجل الملتزم بالقوالب الاستراتيجية والتكتيكية التزاماً لا يحيد. وذلك يدل على نقص في فهم الرجل وفهم مفاهيمه حول الحرب في آن.

ولعل «شليفن» كواحد من تلامذة «كلاوزفيتس»، كان اقل التزاماً بالقوالب والقواعد من ابي المرونة «مولتكه»، لكنه من جهة ثانية، اعترف مثل «مولتكه»، او ربما اكثر منه بوجود مبادىء اساسية محددة للحرب. وتبين كتاباته وافعاله بانه نظر الى الحرب مبدئياً انطلاقاً من اربعة مبادىء وهي ما تعرف حالياً بالهجوم، والمناورة، والتحشد، والاقتصاد بالقوى. وكان مما قاله ان التطبيق العملي لهذه المبادىء يتوقف على الوضع، وعلى ما يتوافر من قوات، وعلى تصرف العدو وترتيباته، ولكنه، من منطلق مبدأ الهجوم والامساك بزمام المبادأة، كان يؤمن بامكانية اجبار العدو على التصرف وفقاً لخطة المهاجم. وكان كـ «نابليون»، يؤمن بمحاولة تحريك الجزء الرئيسي من قواته ضد اجنحة العدو بغية تلافي الخسائر التي قد تنجم عن الهجمات الجبهية في وجه قوة نيران الاسلحة الحديثة، وافقاد الخصم توازنه، واجباره على حصر اهتمامه بالمبادأة ايضاً. وقال ايضاً بانه يمكن تجميع كتلة المناورة هذه وتوجيهها الى نقطة حاسمة بممارسة مبدأ الاقتصاد بالقوى في مواقع لا يستطيع العدو ان يحدث فيها سوى اقل قدر من الضرر، او حيث تسمح طبيعة الأرض لعدد قليل من الرجال بالدفاع كما يجب ضد مهاجمين يفوقونهم عدداً.

ومن دروس «شليفن» كذلك، ان هذه المبادىء صالحة على المستويين التكتيكي والاستراتيجي. وكانت معركته التكتيكية المثلى من حيث المناورة والالتفاف، والتي استطاع في خلالها جيش قليل العدد ان يركز قوة كبيرة ضد مجنبتي خصم يفوقه عدداً، انتصار «هانيبال» بالتفاف تقليدي مزدوج في «كاني» (٢١٦ق.م). ومن هنا، جعل اسم المعركة عنواناً لكتابه، الذي استطرد فيه مبيناً كيف نجح «فريدريك الكبير» و«نابليون» واخيراً «مولتكه»، في تطبيق هذه المبادىء في عمليات حملة استراتيجية وفي مناورات ميدانية تكتيكية.

ولم يسمح «شليفن» لاعتزازه الشوفيني بمنجزات «فريدريك الكبير» و«مولتكه» ان يعميه عن منجزات العبقري الاكبر «نابليون». لكنه شعر بان القيمة العسكرية الرئيسية للتاريخ العسكري تكمن في تحليل المعارك الحديثة ـ التي كانت اسلحتها، ومعداتها، وظروفها اقرب الى تلك المعاصرة للتلميذ ـ ضمن فهم عام لكيفية قيام العسكريين الاقدمين العظام بتطبيق المبادىء اياها بانواع مغايرة من السلاح والقوات. ولذلك، اولى «شليفن» في كتابه وفي احاديثه مع هيئة اركانه اهتماماً اكبر لمعركة «سيدان» اكثر من اهتمامه بأية معركة اخرى. ولم تكن هذه المعركة من المعارك الكبرى التي وقعت مؤخراً فحسب، بل كانت ايضاً استعراضاً رائعاً لكيفية استخدام مناورة الالتفاف استراتيجياً وتكتيكياً.

وكان «شليفن» مولعاً بوضع ضباط هيئة أركانه في مواجهة معضلات تكتيكية. ولم يكن ليفعل ذلك فقط ضمن احاديث ومناقشات، او في خلال جولات الاركان السنوية، وانما في اي سانحة يجدها ملائمة ـ وغالباً ما كان ذلك عندما لا يدرك السانحة احد سواه ـ فعلى سبيل المثال، كانت تهانيه لنخبة من هيئة الاركان بمناسبة عيد الميلاد ان يطرح عليهم معضلة تكتيكية في ليلة الميلاد ويتوقع الحصول على الحل في مساء عيد الميلاد. وكان واضحاً انه بسبب انغماسه في عمله، لم يدرك قط ان ذلك قد خلق مشكلة لا يستهان بها امام مرؤوسيه، الذين كانوا كلهم تقريباً متزوجين، وكان لمعظمهم اطفال ينتظرونهم في البيت.

وفي العام ١٨٩٧، عدل «شليفن» من خطته الاصلية التي وضعها في العام ١٨٩٢ (اندفاع بالقوة الى اللورين)، بحيث جعلها نسخة اشد تعقيداً وكثافة عن خطة «مولتكه» في الالتفاف الاستراتيجي في المراحل الأولى من عملية «سيدان». ولكي يتحاشى القيام بهجمات باهظة الثمن ضد التحصينات الفرنسية، قام بوضع خطة تقضي بالالتفاف بالجزء الرئيسي من الجيش الالماني حول التحصينات شمالاً، حيث يصبح باستطاعته عندئذ طرد الجيش الفرنسي بواسطة قوة مسيطرة هائلة الى جبال «الفوج» والحدود السويسرية، وارغامه على خوض معركة حامية، في ظروف مشابهة للظروف التي واجه «نابليون الثالث» و«ماكماهون» في خلالها جيوش «مولتكه» المطوِّقة في نقطة

قريبة من الحدود البلجيكية. وكانت المشكلة الوحيدة فيما يتعلق بهذه الخطة، انه كان على «شليفن» الزحف عبر بلجيكا، واللوكسمبورغ، وهولندا، لكي يتمكن من تجنب التحصينات الفرنسية، ذلك ان المانيا كانت ملتزمة بالحفاظ على حياد هذه الدول الثلاث.

ولقد هُذبت الخطة في السنوات التي تلت. وفي العام ١٩٠٥ خُطط لاجراء مزيد من التحسينات، التي كان يعزم على ادخالها شيئاً فشيئاً في خلال السنوات القليلة التالية. (وكان من شأن ذلك التقدم التدريجي ان يسمح باختبار كل ابتكار جديد خلال لعب الحرب والمناورات). بيد ان «شليفن» ـ الذي كان قد رقي قبل عامين الى رتبة فريق اول ـ تعرض في ذلك العام الى اصابة بالغة اثر سقوطه عن ظهر جواده، واضطر الى التقاعد. وكان قبل تقاعده بقليل قد اعد لخلفه في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٥ مذكرة مفصلة، بين فيها تصوره لخطة السنوات القليلة المقبلة. (لم تكتمل هذه المذكرة في الواقع، ولم تنقل الى رئيس هيئة الاركان العامة الجديد الا في شباط ١٩٠٦). وقد اصبحت اساساً للخطة العملياتية التي دخل بها الالمان الحرب العالمية الأولى، والتي كان يشار اليها عادة بـ«خطة شليفن».

جوهر خطة شليفن

ما هي هذه الخطة، التي اثنى عليها معجبون واعتبروها عنوان البراعة الاستراتيجية، وهاجمها بعض النقاد اللاذعين، الذين اعتبروها مغامرة جريئة في خرق المبادىء العسكرية الصحيحة؟

كان لدى «شليفن» في الواقع اربع خطط مختلفة ومتشابهة في الوقت ذاته بما فيها الخطة الثانية، التي خرجت الى حيز الواقع لدى تقاعد «شليفن». وهي خطة ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥، آخر خطة حربية عملياتية تم اعدادها بكامل تفاصيلها من قبل هيئة الاركان العامة بتوجيه من «شليفن». وقد قضت بانتشار نحو ٢٠ فرقة في منطقة آخن ـ ترير» بهدف التقدم عبر جنوب بلجيكا واللوكسمبورغ باتجاه «مينرير» و«ستيناي» لكي تقوم بالالتفاف حول ميسرة الفرنسيين، وتتقدم ٢٢ فرقة اخرى من منطقة «تيونفيل ـ ميتز» بعمليات دفاعية ـ هجومية لتثبيت الجيوش الفرنسية الرئيسة التي كان من المتوقع ان

تقوم بهجوم من «كوت دو لورين»، وكانت هنالك نحو ١٩ فرقة مكلفة بالدفاع عن الالزاس ضد الجناح الايمن للهجوم الفرنسي المتوقع. ولهذا، فان ذلك كان يعني ان نحواً من ٥٢٪ من جيش المانيا الغربي ستُنشر في شمال «ميتز»، و٣٠٪ من الجيش ستُشكل تحشد مناورة لتنفيذ التفاف هام على الصعيدين الاستراتيجي والتكتيكي على الميسرة الفرنسية. وبما انه كان من المقرر تكليف نحو عشر فرق بصورة اولية صدَّ تقدم الروس على الجبهة الشرقية ريثما يتم في الغرب، يصبح من الواجب نشر ٤٥٪ تقريبا من مجموع كامل قوة الجيش الالماني الى الشمال من «ميتز»، و٤١٪ الى الجنوب منها، و١٤٪ في الشرق.

غير ان العاب الحرب (السجالات) في خلال العامين ١٩٠٤ و١٩٠٥ قد اقنعت شليفن بأن القوة المنتشرة الى الشمال من ميتز ليست من القوة بما يكفي لسحق الجناح الفرنسي الايسر بشكل حاسم، ولا تشكل تهديداً كافياً ضد مؤخرة الفرنسيين وخطوط مواصلاتهم بما يكفل تنفيذ المهمة الحقيقية الاستراتيجية للالتفاف. اضف الى ذلك، ان القوات الالمانية في اللورين والالزاس كانت انجح في العاب الحرب تلك مما كان «شليفن» يتوقعه، ولكنها لم تكن قوية كفاية (ولم يكن بالامكان تقويتها) الى درجة توقع نجاحها في خرق التحصينات الفرنسية. وجاء في مقدمة ذلك كله انكشاف نقاط ضعف الجيش الروسي في حربه ضد اليابان، وهشاشة الوضع الداخلي للامبراطورية الروسية لدى اندلاع الثورة في روسيا نفسها في بداية العام ١٩٠٥. وكانت هذه الاعتبارات هي التي دفعت «شليفن» الى احداث تغيير رئيسي في خطته، في الوقت الذي ارغمته حادثة سقوطه عن الجواد على التقاعد.

ومن هنا، لم تكن مذكرته التي خرج بها خطة، وانما تقديماً عميقاً لمفهوم استراتيجي معدل لخطة اعيد النظر فيها. ولكنها بقيت رغم بعض التعديلات التي سوف يجيء ذكرها لاحقاً، ركيزة المفاهيم لخطة الحرب الالمانية في بداية الحرب العالمية الاولى، اي المفهوم المعروف عادة بخطة «شليفن».

وقد ادرك «شليفن»، كما كتب في مذكرته، بان اي غزو هجومي «يستدعي قوة هائلة ويستنفد قوة هائلة، بحيث تتضاءل هذه القوة بشكل ثابت، في حين تتعاظم قوة المدافع، سيما اذا كان موضوع الغزو بلداً يعج بالحصون». ومن هنا، كان من الضروري لتعزيز الجناح الايمن ليس تقليص القوات الموجودة في جنوب «ميتز» والقوات المقرر نشرها في الشرق فحسب، بل وبناء جيش اكبر ايضاً. واشار «شليفن» الى ان ذلك ليس بعسير، ما دامت فرنسا ذات الـ ٣٩ مليوناً قادرة على تعبئة جيش يعادل في تعداده ما خطط لتعبئته في المانيا ذات الـ ٥٦ مليوناً. ولكي يتسنى تقليص القوات الفرنسية في اللورين والالزاس بأكبر قدر ممكن، أوصى «شليفن» بوضع برنامج بناء تحصينات كبرى في «ميتز». كما أوصى بإحداث تغيير في قوانين الخدمة الالزامية والتمرينات بغية استخدام الطاقة البشرية بفاعلية اكبر، وزيادة عدد القوات.

وانطلاقاً من افتراضه بأن التوصيات تلك سيعمل بها في السنوات القليلة التالية (وقد حصل ذلك)، فقد جعل «شليفن» خطته المعدلة على اساس توافر جيش يضم ٨٤ فرقة تقريباً من القوات النظامية وقوات الاحتياط، على ان تضاف اليه في زمن التعبئة ١٢ فرقة بديلة ـ فرق أنشئت حديثاً ـ بحيث يصبح مجموع القوات المستنفرة ٩٦ فرقة. (كانت خطته في العام ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ مبنية على اساس جيش من ٧٢ فرقة)، وكان من المقرر ان توزع ٧١ فرقة من بين الـ ٩٦ فرقة في خمسة جيوش كقوة التفاف في شمال تحصينات «ميتز»، على ان تنشر في جنوبي «ميتز» عشر فرق فقط في جيشين في الالزاس واللورين، أما جيشا الجناح الايمن، اللذان قد يجتاحان جنوب هولندا ووسط بلجيكا باتجاه «ليل» و«أميان» في شمال فرنسا فإنهما سيتألفان من ٣٢ فرقة، وسيتيسر للجيوش الثلاثة الاخرى المتمحورة ببطء في شمال «ميتز» ٣٩ فرقة اخرى. وتأتي وراء هذا التحرك الدوراني الهائل الفرق الاثنتا عشر الجديدة. بالاضافة الى الفرق الاربع التي سيتم نقلها من الالزاس واللورين الى الشمال، بعد ايقاف الهجوم الفرنسي المتوقع في هذين الاقليمين، على النحو الذي كان «شليفن» يتوقعه بثقة.

ولم يأت «شليفن» في مذكرته على ذكر الشرق قط، ولكن علم من

موضوعات اخرى كتبت وقيلت بأنه كان يفكر بلغة القوات المصغرة، كوحدات الحاميات والميليشيا الوطنية والقوات البديلة (ersatz)، اي بما لا تتعدى قوتها مجتمعة قوة ثلاث فرق. وكان على هذه الوحدات الدفاع بفعالية، والانكفاء إذا لزم الامر الى ما وراء نهر «الفيستولا». وتوقع «شليفن» ان تنجح هذه القوة الصغيرة في مهمتها بتسهيل من هجوم نمساوي ـ هنغاري على جنوب بولونيا يحول دون تمكن الروس من حشد قوات كبيرة في وجه القوات الالمانية الصغيرة المتمركزة في شرقي بروسيا وسيليزيا. وكان «شليفن» واثقاً من ان انتصاراً حاسماً على فرنسا سيكون قد تحقق في هذا الوقت ـ بعد خمسة او سبعة اسابيع ـ بحيث يصبح بالامكان نقل القسم الرئيسي من الفرق الثلاث والتسعين المتمركزة في الغرب بواسطة السكك الحديدية الألمانية النشطة، لملاقاة الروس على نهر «الفيستولا» او شرقه.

من هنا يتبين بان «شليفن» قد تخيل مبدئياً انتشار القوات الالمانية في شمال «ميتز» بنسبة ٧ الى ١ بالمقارنة مع القوات المنتشرة في الجنوب. ولكن بنقل قوات من الجنوب الى الشمال، ونقل قوات حشدت حديثاً من داخل المانيا الى الجزء الشمالي من الجبهة، تصبح جيوش الالتفاف الخمسة مؤلفة مما يقارب ٩٦٪ من كامل القوات الميدانية التي قامت المانيا بحشدها في الغرب. وبكلمة أخرى، اذا اخذنا في اعتبارنا القوات الصغيرة المنتشرة في الشرق، تكون قوة الالتفاف هذه متراوحة بين ٨٦ و٩١٪ من مجموع القوة الميدانية التي قام الجيش الالماني بحشدها.

وبالرغم من تقاعده، كان «شليفن» خلال السنوات الست التالية دائم التفكير بالمعضلات الاستراتيجية المتعلقة بالحرب على جبهتين. كما كان دائم التفكير بالمعضلات العملية المتعلقة بالسيطرة على جيوش لم يسبق ان بلغت هذا الحجم. وبالنسبة الى الفيالق الالمانية، توصل «شليفن» الى ان تشكيل الفيلق الالماني من فرقتين تشكيل غير ضروري، ويستخدم الكثير من الافراد في مقرات قيادات الفيالق والجيش. وفي هذا الوقت، وكنتيجة للزيادات التي اوصى «شليفن» بها في مذكرة ١٩٠٥، كان عدد فرق جيش الميدان في وضعية التعبئة، قد ارتفع الى اكثر من مئة فرقة مع ٥٢ مقراً لقيادات الفيالق.

ولذلك، وضع «شليفن» في كانون الثاني (يناير) ١٩١٢، اي بعد سبع سنوات من كتابته لمذكرة ١٩٠٥، مذكرته الرابعة (او خطته الرابعة) التي عالجت على وجه العموم الموضوع ذاته. وخصص جزءاً من مذكرته لمسألة اعادة تنظيم الجيش، حيث اشار الى امكانية توفير الطاقة البشرية، والفعالية تحديداً، عن طريق الغاء الفيالق، واعادة تنظيمها في فرق ومن ثم تأطير هذه الفرق في اربعة جيوش: جيش اول من ١٢ فرقة، يقوم بعد عبور «فال» و«الموز» في هولندا وبلجيكا بالتقدم نحو «آبفيل» و«سان كانتان». وجيش ثان من ٨ فرق يتقدم جنوبي «موز سامبر» باتجاه «لافير» و«لاوون»، وجيش ثالث من ١٠ فرق يتحرك باتجاه «ميزيير» و«فردان» وجيش رابع من ١٢ فرقة، يجمد الجيوش الفرنسية الرئيسية بين «فردان» و«بلفورت». وخلف الجيشين الاول والثاني تقوم قوة لاحقة من ٩ فرق تقريباً باحتلال المناطق التي اجتيحت من هولندا وبلجيكا واستثمار الحصون التي تجاوزتها قوات الهجوم.

وقد ذكر «شليفن» الشرق هذه المرة، ولكنه لم يكن ادق مما كان عليه في مذكرة ١٩٠٥ الا لماماً. فبعد قوله الخالي من الواقعية بأن روسيا ستتردد في غزو شرق بروسيا وسيليزيا حين يتضح عدم وجود قوات هجوم المانية في هذين الاقليمين(*)، كتب «شليفن» مبرراً عملية ابقاء قوات ضئيلة في الشرق: «لقد كان «فريدريك الكبير» من اشد المتحمسين للرأي القائل بأنه من الافضل التضحية بأقليم على ان يقسم الجيش الذي به يتحقق النصر، فعلى المانيا كلها ان ترمي بثقلها ضد عدو واحد - العدو الاقوى والاخطر، وليس هناك سوى العدو الانكلو - فرنسي»[٢]. ولكنه من قبيل الافتراض، كان لا يزال يفكر في استخدام قوات دفاعية قليلة في الشرق، اي ما يعادل فرقتين من الفرق الجديدة المقترحة.

ويتبين لنا بأن «شليفن» قد توصل الى الاستنتاج بضرورة تعزيز القوة المتمركزة جنوبي «ميتز». وذلك لمنع الفرنسيين من نقل قوات من الجنوب

(*) يعلّق الجنرال هـ. ج. ل. فون مولتكه، خليفة «شليفن» في رئاسة الأركان، على المذكرة بقوله: «لا جدال في ان روسيا ستتردد في غزو بروسيا، في حال عدم وجود قوات مدافعة، وفقاً للظروف السياسية الحالية وللاتفاقات».

(٢) As quoted in Ritter, *op. cit.*, p. 172. The emphasis is Schlieffen's.

بهدف ملاقاة حركة الالتفاف الشمالية، ومع ذلك، كان على الجيوش الشمالية الثلاثة، اي قوة الالتفاف، ان تضم اكثر من ٧٦٪ من الجيش الغربي، و٧٤٪ على الاقل من كامل قوة الجيش الالماني المتحركة.

مولتكه الصغير وخطة شليفن

وحين تولى الجنرال «هـ.ج.ل. فون مولتكه» رئاسة هيئة الاركان في ١٩٠٦/١/١ خلفاً لـ«شليفن» فانه لم يتبين خطط «شليفن» فحسب، بل وافق ايضاً، من دون اي اعتراض او تغيير حقيقي، على كل ما جاء في مذكرة ١٩٠٥. وقد اجرى بعض التعديلات في التفاصيل واستمر مع مرور الزمن في اجراء بعض التغييرات الطفيفة. فلكي يتفادى جعل هولندا في صف اعداء المانيا، على سبيل المثال، قرر البحث عن طريقة يطبق فيها مفهوم «شليفن» من دون غزوها. وخلص الى ان هذا ممكن اذا ما تم الاستيلاء على «لييج» بسرعة، على اعتبار ان ذلك يسمح للجيشين الاول والثاني بالتقدم في وقت واحد عبر الممر الضيق الواقع بين الآردين والحدود الهولندية. وقد كانت هذه الفكرة بالذات كافية على الصعيدين النظري والعملي لابراز «مولتكه» الصغير كجندي كفوء واسع الحيلة، إن لم نقل كجندي من مستوى معظم اقرانه الذين سبقوه في رئاسة هيئة الأركان العامة.

وفي العام، ١٩١٠ صرف «مولتكه» النظر عن فكرة نقل فيلقين من جيوش الجناح الأيسر، بل انه نقل القوة الاضافية من فرق الاحتياط الى «ميتز»، حيث شعر، بامكانية تحريكها الى الشمال او الى الجنوب، حسبما يسمح به الموقف. وبما ان قوات كبيرة كانت لا تزال في متناول «الريخستاغ»، فقد تم توزيع الفرق الاضافية التي استحدثت على الجيشين السادس في «اللورين» والسابع في «الالزاس». كما ان «مولتكه» رفض فكرة «شليفن» القاضية باقتصار الدفاع الى الشرق على قوات ضئيلة. فانشأ جيشاً ثامناً من ٩ فرق بدلاً من ثلاث، للدفاع عن شرق بروسيا، على الرغم من معرفته بأن قوة روسيا المتفوقة قد تجبر هذه القوة المتزايدة ايضاً على الانسحاب الى ما وراء «الفستولا»، وكانت الفرق الست الاضافية قد جيء بها كلها من جيوش الجناح الايمن.

اما مذكرة «شليفن» التي كتبت في العام ١٩١٢، فان «مولتكه» لم يتخذ إزاءها اي تصرف جدي.

ومن جراء التغييرات التي اجراها «مولتكه» على مذكرة ١٩٠٥، بدأ الجناح الايمن تحركه الدائري العظيم، فور نشوب الحرب في العام ١٩١٤، بخمس وخمسين فرقة فقط بدلاً من احدى وسبعين فرقة، كما جاء في خطة «شليفن»، ومن دون القوة اللاحقة المؤلفة من ١٦ فرقة. وكان هذا يعني بان الجناح الايمن كان يضم ٦٥٪ فقط من قوة الجيش الغربي. وبدلا من ان تتراوح قوته بين ٧٤ و٩٠٪ من كامل القوة المتحركة، كما اوصى «شليفن»، جاءت قوته في حدود ٥٤٪ تقريباً. وقد جزم منتقدو «مولتكه» والمعجبون بـ«شليفن»، بأن «مولتكه» قد افسد بعمله هذا خطة «شليفن»، وحكم عليها بالفشل. وهذا رأي غير منصف بحق «مولتكه»، لأن احداث العام ١٩١٤ قد ابانت بأنه لو كانت خطة «شليفن» قابلة للتطبيق حقاً، لتمكنت الفرق الخمس والخمسون من انجاز المهمة التي تصورها «شليفن»، وخطط لها «مولتكه». بيد ان ما سمي بالانتقاص قد اشار الى طبيعة الحذر المتأصلة لدى جنرال «عركته الايام» حسب تعبير «نابليون»، والذي لم يكن بمقدوره بالتالي تطبيق المفهوم بالنشاط والجرأة العنيدين اللذين كانا المقومين الضروريين لخطة «شليفن».

انتقادات موجهة الى خطة شليفن

غير ان عدداً من المؤرخين المحدثين، في طليعتهم «غيرهارد ريلر» والسير «بازيل ليدل هارت»[٣]، يرون الامور من وجهة مختلفة تماماً. فانهم ينتقدون «مولتكه» لعدم ملاحظته ـ رغم التغيير الذي احدثه بشأن غزو الاراضي الواطئة (هولندا) ـ بأن الخطة كانت تحمل بذور فشلها سياسياً واستحالة تنفيذها عسكرياً. ولكن هؤلاء المؤرخين وجهوا الانتقاد الرئيسي الى صاحب المفهوم ـ «شليفن» ـ ودون ان يرفعوا المسؤولية عن «مولتكه»، الذي تحمل قسطاً من المسؤولية بالفعل في العام ١٩٠٦.

(٣) In particular, see Ritter, *op. cit.*, and Basil Liddell Hart's Foreword to that book.

ويمكن تلخيص الانتقادات السياسية كالآتي: إن صياغة «شليفن» للخطة قد ورط المانيا في خرق لا يغتفر لحياد «بلجيكا» و«اللوكسمبورغ» (والأراضي الواطئة كما جاء في خطته ايضاً)، بالرغم من تعهد المانيا في العام ١٨٣٩ ـ وتأكيدها لتعهدها في العام ١٨٧٠ ـ باحترام حياد هذه البلدان الصغيرة، وحمايته اذا لزم الامر. ووفقاً لهذه الانتقادات، عجز «شليفن» عن الادراك بأن هزيمة فرنسا (حتى ولو تمت بالسرعة والحسم اللذين تخيلهما شليفن) لن ترغم بريطانيا بالضرورة على عقد صلح، بل على العكس من ذلك، فان خطر سيطرة المانيا على أوروبا قد يعود في بريطانيا رد فعل شبيها بما حدث في الحروب النابليونية، التي ادى التعاون البحري البريطاني فيها مع الطاقة البشرية الروسية الى سحق «نابليون» عملياً. وانتقد «شليفن» اخيراً لعدم ادراكه بأن اي تحويل في مصادر المانيا من مال ورجال ومواد لحساب البحرية، كان يعني اضعافاً جدياً للقوات البرية. ولهذا، كان على «شليفن»، كما قيل، ان يجد السبل التي تمكنه من منع «وليام» عن هذاالتحويل الخطير، وعن مناصرة السياسات التوسعية المؤدية الى الحرب حتماً.

ونظراً الى الشهرة التي كان «شليفن» يتمتع بها في المانيا، وفي اوساط العسكريين في جميع انحاء العالم لسنوات عديدة، فان الانتقادات العسكرية اشد حدة وتأتي في المقدمة الانتقادات الموجهة الى تهوره في المقامرة بمستقبل امته، اذ انه اعتمد استراتيجية بائسة تقتضي نصراً سريعاً على عدو متفوق عدداً وعدة. ولم يكن لدى «شليفن» ما يضمن نجاح هذه المقامرة الجريئة، بل كان عليه ـ كما تقول الانتقادات ـ أن يتعلم من دراسته للتاريخ، بأن ليس في المقامرة ادنى نسبة من النجاح. وكان اهم سبب للحكم عليها بالفشل، حقيقة ان المتطلبات اللوجستيكية الضرورية لدعم جيشي الجناح الايمن ـ وبخاصة الجيش الاول ـ كانت اعقد فنياً من ان يقوم بها الجيش الالماني، او اي جيش في مطلع القرن العشرين، وفي النهاية ـ واستناداً الى الانتقادات ـ اظهر «شليفن» تصلباً في العقل والتفكير الاستراتيجي، بشكل لم يكن جديراً بهيئة الاركان العامة الألمانية او بخليفة من خلفاء «مولتكه»، وخلافاً لـ«مولتكه» الاول الذي لم يخطط قط لحملة تتعدى الاشتباك المكشوف، والذي ادرك بأن الحرب لا تصلح لان توضع في قوالب جامدة،

اعد «شليفن» استراتيجية فرضت نهجاً غير مرن في العمل ابان حملة خطيرة، ضد عدو كان منذ اللحظة الاولى وحتى النصر الاخير مرناً ووافر الامكانات. ومن بين الانتقادات الهامشية الاخرى سوء فهمه للتاريخ العسكري، والذي تجلى في استنتاجه الخاطىء بأن النجاح العسكري لا يتحقق الا بحركة الاجنحة وبحركات الالتفاف، كما تجلى في حقيقة انه كان، كما كتب «ريتر» «رجلاً مشرفاً على الثمانين» لدى اقتراحه إجراء التعديلات الاخيرة على خطة ١٩١٢.

النقد السياسي

بالرغم من ان الانتقادات الموجهة الى تبلد حس «شليفن» السياسي مبررة الى حد ما، فان هناك لمصلحته بعض الحجج التي يتوجب اعادة النظر فيها. فلقد كان «شليفن» يعتبر نفسه خادماً للدولة، واجبه توجيه عمل القوات البرية المسلحة دعماً لمصالح الدولة وسياستها الوطنية. ولقد كان عمله بالتحديد، الاعداد بواقعية لنوع من انواع الحرب التي قد تدخلها المانيا، على ان يأتي الاعداد بما يحفظ مصالح ألمانيا ووحدة اراضيها. وقد كان يرى ـ كـ «بسمارك» و«مولتكه الاكبر» ان شن حرب على جبهات متعددة ضد خصوم متفوقين عددياً سيهدد امن الدولة الألمانية، لا بل سيهدد وجود الدولة ذاتها.

ولا بد ان «شليفن» قد تذكر، حيال التبعات السياسية والقانونية والاخلاقية، للاقتراح الخاص بغزو بلجيكا وهولندا قول «شيشرو»: «في الحرب تخرس القوانين».

لقد خدم «شليفن» ملكاً كان بالنسبة اليه ممثلا للدولة، وبالتالي لم يكن مسؤولا امام الشعب او امام ممثليه بأي شكل من الاشكال. وانه لمن غير الانصاف الحكم على صياغته للاستراتيجية انطلاقاً من المعايير التي كان جندي الديمقراطية يسلم بها. فاستراتيجيته المقترحة التي وضعت باخلاص ووطنية لكسب حرب خطيرة ومشؤومة باسرع وقت ممكن ـ مع اقل قدر من الاضطراب ضمن مؤسسات المانيا وبنيتها الاجتماعية والاقتصادية ـ قد نالت رضى الملك الذي وافق على خطط الحرب. ولعله كان حرياً بـ «شليفن»

الكشف عن المضامين السياسية لهذه الاستراتيجية وعرضها امام الامبراطور. ولعله فعل ذلك، من يدري؟ ومن جهة ثانية، تعود «شليفن» على الاعتقاد بأن المضامين السياسية مسائل خاصة بالملك، وبوزير خارجيته وبرئيس وزرائه، وطالما عززت تصرفات الدولة الالمانية هذا الاعتقاد لديه. ولو انه تعاطى بهذه المسائل، لاتهمه «وليام» بالتجاوز.

ولقد لوحظ بأن «شليفن» رأى ما حصل لسلفه حين حاول «فالدرسي» ان يشير على الملك بأن اية استراتيجية سياسية بعيدة عن عالم الاستراتيجية البرية هي استراتيجية خاطئة. وقد تكون لـ «شليفن» آراء بصدد مخاطر سياسة المانيا البحرية، او مخاطر سياستها الخارجية او المضامين السياسية التي قد تتضمنها الاستراتيجية، وقد لا تكون له مثل تلك الآراء، ولكن اذا ما احجم عن الادلاء بهذه الآراء، فسبب ذلك عائد الى اعتقاده بأنه من غير اللائق ان يفعل ذلك.

ومن هنا، يجدر الا يكون نقد تبلّد الحس السياسي لدى استراتيجية «شليفن» موجهاً الى «شليفن» نفسه، وانما الى النظام السياسي والى الثغرة التي نشأت في هذا النظام عن فشل «شارنهورست» وزملائه في تحقيق هدفهم في ان يكون جيشهم الجديد مسؤولاً امام الشعب(*).

والدليل التاريخي غير حاسم فيما يتعلق بالنتائج السياسية المرجوة من وراء نصر سريع على فرنسا ـ هذا اذا كان بالامكان تحقيقه عسكرياً، فهل كانت فرنسا مطلع القرن العشرين سترد على الهزيمة العسكرية المشؤومة كردها في العام ١٩٤٠، ام كردها في العام ١٧٩٣ وفي العام ١٨٧٠؟ ان عناد المقاومة الفرنسية في الايام العصيبة من العام ١٩١٤ يؤكد ان حرباً شعبية يمكن لها ان تستمر كما حدث في العام ١٨٧٠. ولعل حركات التمرد الفرنسية التي ظهرت في العام ١٩١٧، والانهيار الفرنسي الاولي الذي حصل في حزيرا (يونيو) ١٩١٨ كانت نتيجة الارهاق الناجم عن الحرب، ولكن لم

(*) من الواضح ان ذلك لا يعني عرض تفاصيل خطة الحرب السرية على الشعب او على ممثليه لنيل الموافقة، وإنما مراجعة هذه الخطة من قبل احد كبار مسؤولي الحكومة، كما هو مفترض في حال خضوع الجيش لمراقبة ديموقراطية. ولكن هذا لم يحدث في المانيا.

يكن هناك تعب ناجم عن الحرب في العام ١٩٤٠. اضف الى ذلك، ان استمرار المقاومة الفرنسية بعد هزيمة الجيوش الفرنسية لم يكن ليؤثر البتة على استمرار المرحلة الثانية من الخطة ضد روسيا. فما ان يتحقق نصر عسكري، حتى تصبح النتيجة النهائية في فرنسا حتمية كما حصل في العام ١٨٧١.

وفيما يتعلق ببريطانيا، كان بالإمكان التفاوض بشأن صلح يحفظ ماء الوجه، بين مملكة «ادوارد السابع» (أو جورج الخامس)، وبين امبراطورية «وليام الثاني». ومهما كان الرأي في «وليام»، فانه لم يكن «هتلراً»، سواء في الحقيقة أو في الرمز. والتفاوض حول صلح كان اقرب الى الانعقاد لو ان الامور جرت على النحو الذي كان «شليفن» يريده.

فإذا سلّمنا بأن «شليفن» لم يكن، ولم يطمح، ولم يستطع ان يكون «نابليوناً» سياسياً، فان من المتعذر ايضاً اتهامه بالعجز السياسي.

الانتقادات العسكرية

ماذا عن الانتقادات العسكرية؟ وماذا، على سبيل المثال، عن تهمة المجازفة غير المبررة في مقامرة يائسة برمية نرد واحدة؟

ماذا كانت البدائل، غير النصيحة بالاستسلام من دون حرب على غرار ما حصل في «أولمتس»؟ لقد كان هناك في الحقيقة بديل واحد، وهو العودة الى شكل من اشكال استراتيجية «مولتكه» القاضية بالدفاع - الهجوم على جبهتين. لعل احتمالاً غير متوقع يأتي بحل قبل ان يؤدي المأزق بالعالم الى الافلاس اقتصاديا واجتماعيا (كما كان شليفن يتوقع حدوثه بكل ثقة). وكان من الممكن الاخذ بهذا البديل في السبعينات والثمانينات، حين كان في اوروبا مجال رحب للمناورة السياسية. وكان بالنسبة لـ «شليفن» غير مقبول البتة ما دام تفاديه ممكناً. ومن المؤكد ان آثار الحرب العالمية الأولى، التي استمرت حتى الحرب العالمية الثانية، لم تكن متعارضة مع مخاوفه من الآثار التي يمكن ان يخلفها المأزق، كما تدل بصيرته النفاذة على انه لم يكن ذلك المفسر السطحي للتاريخ، كما قال بعضهم.

واذا نظرنا الى الامر من وجهة اخرى وتساءلنا: ماذا ستكون العاقبة في حال فشل مقامرة الرمية الواحدة؟ اننا نعرف الاجابة عن هذا السؤال بالاستناد الى سجل الحرب العالمية الأولى. ستكون الطريق المسدود الذي كان بالامكان تفاديه، لكنه طريق مسدود في ظل ظروف مناسبة لالمانيا (في البداية على اقل) اكثر مما هي مناسبة لأعدائها، وطريق مسدود كان يمكن ان يؤدي الى صلح يرضي ألمانيا، حتى في العام ١٩١٧.

وببساطة، إن تهمة التهور العسكري لن تصمد امام الحجج، فلقد كان التهور في الواقع نوعاً من المقامرة الاستراتيجية التي كانت اثيرة لدى «نابليون»، حيث ان أسوأ النتائج كانت غير خطيرة على الأرجح، وحيث ان امكانية الحصول على افضل النتائج كانت مغرية للغاية. ولقد كان [التهور] في الواقع، ومن حيث الفكرة العامة، نابليونيا يقيناً، وشبيهاً في بساطته المكثفة المثيرة للاعجاب لحملات ١٨٠٠، و١٨٠٥، و١٨٠٦.

إن القول بأن «شليفن» أساء فهم أهمية مناورات المجنبات في التاريخ، تدحضه كلمات واحد من نقاده الرئيسيين، «ليدل هارت»، الذي كان شغوفاً بالكتابة عن «استراتيجية التقرب غير المباشر». فالمناورات ضد المجنبات على الصعيدين التكتيكي والاستراتيجي كانت تاريخياً مفتاح النصر المؤزر. ولم يكن «شليفن» باستعراضه لامثلة التاريخ القديم والحديث، ليحرف او يحجب او يبالغ، كما لم يكن ليغش نفسه واركانه العامة حين اكتشف، كما اكتشف «نابليون»، بأن العمليات المضادة للمجنبات المعادية كانت محك الانتصار. هذا بالاضافة الى ان دروس الحرب الاهلية الاميركية، والحرب الفرنسية - البروسية والحرب الروسية - اليابانية قد اظهرت ان النجاح التكتيكي في الحرب الحديثة في مواجهة قوة النيران الحديثة كان ممكناً فقط بالعمل ضد المجنبات المعادية، وكانت بعض الظروف تفرض كما ادرك «شليفن» خلق المجنبات بالاختراق. ولكن الهجوم الجبهي لتحقيق اي غاية غير خلق المجنبة التي تؤمن المناورة، كان عملاً انتحارياً وجريمة.

وقد ظهر افتقار «ريتر» للموضوعية في معرض انتقاده لـ «شليفن»، حين رفض بازدراء خطة «شليفن» (١٩١٢) لانها من وضع «مؤلف يشرف على

الثمانين». فـ«شليفن» كان في الواقع في الثانية والسبعين من عمره، حين أعد «خطة شليفن»، التي تركزت عليها انتقادات «ريتر». زد على ذلك وجوب مقارنة تعليق «ريتر» بمصادقته على خطط «مولتكه» ابتداء من العام ١٨٨١ وحتى ١٨٨٧، مع ان «مولتكه» قد بلغ الثمانين في العام ١٨٨٠.

وفي معرض القوة لخطة «شليفن»، يوافق «ليدل هارت» على «انها كانت فكرة ذات جرأة نابليونية». ولكنه يضيف قائلاً:

«لقد فشل «شليفن» في أن يأخذ في الحسبان الفارق الكبير بين ظروف عصر «نابليون» وظروف عصره ـ حلول الخط الحديدي...

وخطة الاجتياح على شكل منجل عظيم، التي وضعها «شليفن» كانت مناورة يمكن تنفيذها في عصر «نابليون» وقد تصبح ممكنة ثانية في الجيل التالي ـ حين غدا بمقدور الطيران شل محاولة الجانب المدافع الرامية الى نقل قواته، بينما أدى تطور القوات الميكانيكية الى تسريع تحركات التطويق، وزيادة مداها، ولكن كان حظ خطة «شليفن» من النجاح الناجز ضئيلاً جداً حين اصبح تطبيقها ممكناً.. فالتقدم الألماني اعتراه ضعف كبير في قوته، وفقد تماسكه لدى توغله بعيداً في الأراضي الفرنسية. وقد عانى كثيرا من نقص في الامدادات نتيجة قيام الفرنسيين والبلجيكيين بتدمير السكك الحديدية».وغدا على شفير الانهيار في الوقت الذي وجه الفرنسيون ضربة مضادة، انطلاقاً من منطقة باريس ـ وكانت الضربة كافية لاشاعة البلبلة في الجناح الالماني الايمن، والتسبب في تراجع عام.

«وفي ضوء دراسات «شليفن»، ودزوس الحرب العالمية الاولى، من الصعب ايجاد السبب الذي من اجله اعتبر «شليفن» العقل الموجه، والانسان الذي كان بامكانه احراز النصر لو قدر له ان يعيش لكي ينفذ خطته»[٤].

حملة المارن: خطة مولتكه الشليفينية في التطبيق

لقد خفض «مولتكه الصغير» من قوام خطة «شليفن»، بحيث غدا الجناح الايمن يشكل ٥٣٪ من الجيش بدلاً من نسبة ٧٤ ـ ٩٠٪ التي كان

---

(٤) Liddell Hart, *op. cit.*

«شليفن» قد دعا اليها. ثم اقتطع اربع فرق (فيلقين) ليتم ارسالها في رحلة غير ملحة الى الشرق، وكانت قطعات هذه الفرق في اواسط المانيا حيْن كانت معركتا «مارن» و«تانبرغ» دائرتين وعندها فقَدَ سيطرته على عمليات جيشيه العاملين الى يمينه حيث قام بارسالهما وهما يتخبطان في حالة ارتباك مع تعليمات مرتبكة. ومع ذلك، كان جيش الجناح الايمن، بعد اسرع زحف للمشاة واشقّه (٥٧٥ كلم في خلال ٢٥ يوماً، مع خوض معركتين وعدد من المناوشات) كان بعيداً عن ان يكون على حافة الانهيار.

وما ان انطلق جيش «مونوري» (الجيش السادس) من باريس، املاً في ضرب مجنبة الالمان المرهقين، حتى وجد نفسه بدلا من ذلك يتلقى ضربة بفعل هجوم معاكس عنيف، وفقد زمام المبادأة امام الألمان. وفيما كان «أورك» يحرز انتصاره على الفرنسيين المتفوقين عدداً في معركة «أورك»، جاء[التهور] من ضابط هيئة اركان «مولتكه» الفريق «ريتشارد هنتش»، بالتراجع الى نهر «ايسن» وتبين وقائع معركة «اورك» بوضوح، ان هذا الجيش لم يكن على حافة التفكك، ولم يكن على وشك الانهيار بسبب النقص في الارزاق والعتاد. لقد كان جيشاً متعباً، ولكن ليس الى حد عدم القدرة على اظهار ثباته وفعاليته كواحد من افضلَ الجيوش المحاربة في تاريخ الحروب[٥].

ولا يفهم من هذا ان معركة «المارن» كانت نصراً ألمانياً أُسيء تقديمه في التاريخ. فهذا ابعد ما يكون عن الواقع. فبالرغم من نجاح «كلوك» في

---

(٥) See also Edmund L. Spears, *Liaison, 1914: A Narrative of the Great Retreat* (Garden City, N.Y., 1931), pp. 558-572, passim; and Hermann J. von Kuhl, *The Marne Campaign, 1914* (Fort Leavenworth, Kan,), p. 219.

نظر كل من «كوهل» و«سبيرز» الى المعركة من زاويتين متعارضتين. وتوصل كلاهما الى نتيجة واحدة: لقد كان جيش الجنرال «فون كلوك» الأول ينزل بالجيش الفرنسي الاكبر عدداً والأقل انهاكاً تحت قيادة «مونوري» Maunoury هزيمة حين اضطر (الجيش الاول) إلى الانسحاب لتجنب حركة احتواء من قبل قوة الحملة البريطانية.

The discussion of this subject by Ritter and Liddel Hart in Ritter, *op. cit.*, and in Larry H. Addington, *The Blitzkrieg Era and the German General Staff* (New Brunswick, N.J., 1971), pp. 19-20, however, ignores fundamental points in sources to which they refer.

«أورك»، فان حملة المارن ككل كانت هزيمة واضحة للالمان، تسبب في حدوثها الى حد ما فشل القائد الألماني ـ «مولتكه» ـ في اغتنام اعظم فرصة يمكن ان تتاح لقائد عسكري من جهة، وعزم خصمه الذي لا يقهر، «جوفر»، من جهة ثانية. ولكن اداء جيش «كلوك» قبل معركة **«أورك»** وفي خلالها قد اظهر بما لا يدعُ مجالاً للشك ان خطة «شليفن» كانت قابلة للتطبيق، وبأنها كانت قد وضعت بما يلائم قدرات القوات الالمانية القتالية وخدماتها اللوجستيكية. كما بينت ان اعتزاز «شليفن» ووثوقه بالجيش الذي قام بتحسينه واعداده لهذه المهمة الكبيرة كانا في محلهما على كافة الاصعدة. هذا الى جانب ان الاداء كان رداً حاسماً على الزعم الغريب القائل بأنه كان لخطة «شليفن» حظ ضئيل جداً من النجاح الناجز حين اصبح تطبيقها ممكناً. فالتجربة اكبر برهان كما يقال.

ولكن، ما تزال هناك نقطة واحدة من شهادة «ليدل هارت» تجدر معالجتها، وهي قوله بأن «شليفن» لم يكن متمشياً مع التكنولوجيا الحديثة، ما **دام انه لم يستوعب حتى القدرات العسكرية للسكك الحديدية ومحدوديتها. وفي ضوء ما فعله «شليفن» في سبيل استخدام السكك الحديدية لأغراض** عسكرية، حتى بما يتعدى انجازات سلفه الكبير، فان ما قاله «ليدل هارت» حجة هامة. ولعل «ليدل هارت» لم يدرك ايضاً بان من عناصر تفوق الالمان التكنولوجي على الفرنسيين والبريطانيين في العام ١٩١٤، حسن استخدامهم الاستطلاع الجوي. فقد انشأ «شليفن» (الذي بزّ مرة اخرى معاصريه المحافظين) اول سلاح جوي عسكري نظامي في التاريخ(*).

وأخيراً، ماذا عن صلابة(**) خطة «شليفن» او عن الحجة القائلة بأنها كانت نمطاً غير واقعي من انماط العمليات، بحيث كان من المتعذرتخطيطها بالتفصيل على نحو ما فعله «شليفن»، فمجرد واقع ان الجيش الاول قد أبلى

(*) يمكن القول بأن الاستطلاع الجوي كان ابتكاراً اميركياً طبّقه رجال المناطيد إبان الحرب الاهلية. ولكن هذا القول غير ذي موضوع، ما دام السلاح الاتحادي الذي كان يضم رجال مناطيد مدنيين قد اختفى من بين صفوف الجيش الاتحادي ومن التاريخ قبل نهاية الحرب.

(**) المقصود بالصلابة Rigidity هنا انعدام المرونة.

بلاء حسناً لا يجيب على الانتقاد القائل بأنه رغم الاداء الجيد لم تتم العملية على النحو الذي خططه لها «شليفن».

ولم يكن «شليفن» ليفكر، اكثر من «مولتكه الكبير» في التخطيط لتفاصيل العمليات الحربية خلال حملة ما. فكما كان يتوجب على كل مخطِّط كفوء، كان لديه فكرة واضحة عن كيفية سير العملية ـ بصورة عامة، وليس بصورة مفصلة. وكان لديه جدول بالتوقيتات، وكان لديه على الخرائط اسهم وخطوط تطورات المواقف، ولكن فكرته عن استخدام اكثر من مليون رجل كانت بسيطة، وموضحة في اقل من عشرين صفحة مطبوعة. وكان واثقاً (وقد ثبت ذلك بحق) من ان التفوق القتالي للقطعات الالمانية كان يسمح لها بالاحتفاظ بالمبادأة، وتمكينها بالتالي من فرض مفهومها العملياتي العام على العدو ـ شريطة ان يكون لدى القائد العام الارادة، والاصرار والمهارة اللازمة لمجاراة قواته. وقد ترك «شليفن» لخلفائه وللقادة الميدانيين مفهوماً مقروناً بخطة تعبئة وتحرك أولي، كانت قد أُعدت بعد لأي. وكان المظهر الوحيد من مظاهر الصلابة في خطته، إصراره على التقيد بمبادىء الحرب الجوهرية: الحفاظ على الهدف، استخدام الحشد في مناورة التفاف وضعت من اجل تطويق الجيش المعادي، الاقتصاد في القوى للمساعدة في الحصول على الحشد الضروري للمناورة. ولم تكن هذه الخطة اكثر صلابة من خطة «نابليون» الاستراتيجية الخاصة بحملتي «أولم» و«يينا»، او من خطط «مولتكه» في العامين ١٨٦٦ و١٨٧٠.

وكغيرها من الانتقادات الموجهة الى شليفن وفقاً لاعتبارات عسكرية، فان هذا الانتقاد لن يصمد طويلاً، ولن يتوصل المحلل العسكري الموضوعي إلا الى الاستنتاجات التي وردت بمهارة في تحليل «هربرت روسنسكي» حول الخطة وصاحبها(٦).

وكما حدث لـ«شارنهورست» حالت حقائق التاريخ القاسية دون ان يثبت «شليفن» ما اذا كان عبقرياً عسكرياً بحد ذاته ام لا. ولكن على أي حال، **فإن في** «شليفن» **وهيئة** اركانه العامة وجيشه ما يبين صحة مفهوم

(٦) Rosinski, *op. cit.*, pp. 134-139, 144-147.

«شارنهورست الأول» المتعلق بتأطير العبقرية العسكرية داخل مؤسسة.

وتجدر الاشارة هنا الى ان اشد ما ادهش هيئة الاركان العامة الفرنسية من تطورات آب (أغسطس) ١٩١٤، حقيقة اشتراك قوات الاحتياط، الالمانية في الحملات الاولى، بكفاءة تماثل كفاءة قوات الجيش النظامي. وكانت هذه الحقيقة ثمرة الجهود المضنية التي بذلها «شليفن» في سبيل تحسين الجاهزية الالمانية والتعبئة الالمانية، وهي جهود واصلها «مولتكه الصغير» بكفاءة. ان هذا التطور الذي لم يتوقعه الفرنسيون مطلقاً، كان بكل بساطة مثالا آخر من امثلة براعة هيئة الاركان العامة الألمانية.

الفصل الحادي عشر: خنادق واسلاك شائكة وهزيمة

مولتكه الصغير رئيساً للاركان العامة

ورث رئيس هيئة الاركان العامة الجديد الجنرال «هيلموث يوهان لودفيغ فون مولتكه» ما يمكن وصفها بأنها اروع قوة عسكرية تشكلت في التاريخ. لكن التاريخ كان شديد القسوة حياله. ففي المقام الاول، جعله محط مقارنة مع عمه الشهير، ومع خلفه الشهير ايضاً، وقلما شهد التاريخ عسكريين اصابوا نجاحاً بفضل مقارنة كهذه. والسبب الثاني هو انه لم يكن اهلاً لمهمة تنفيذ استراتيجية «شليفن»، وقد نبذه معظم المؤرخين بغير حق بحجة انه رجل غير كفوء ارتقى الى المراتب العليا بفضل اسمه ونفوذ عائلته ليس الا.

ولكن في الحقيقة، حين اندلعت الحرب العالمية الأولى، كانت هيئة الاركان العامة الالمانية والجيش الالماني لا يزالان في احسن حال، تماماً كما كانا حين تسلم «مولتكه» منصبه قبل ذلك بتسع سنوات تقريباً. فقد قام بواجبه كرئيس لهيئة الاركان في زمن السلم على اكمل وجه. ولو ان «مولتكه» شارك في الحرب كواحد من قادة الجيش الثمانية، لكانت شهرته اليوم مختلفة اختلافاً كبيراً.

كان «مولتكه الصغير» قد رأى النور في ٢٥ ايار (مايو) ١٨٤٨ في

«غيرزدورف» من أعمال «مكلينبورغ» Mecklenburg. وأطلق عليه اسم «هيلموث» تيمناً بعمه الذي كان يومذاك ضابطاً برتبة عقيد. حين نشبت الحرب الفرنسية ـ البروسية كان «هيلموث الصغير» ضابطاً برتبة ملازم في وحدات رماة القنابل. وخاض ببسالة عدة معارك، ثم دخل الكلية الحربية بعد الحرب، وغدا مؤهلاً لمهام الاركان العامة. وكان أول مركز يتولاه في هيئة **الاركان العامة مركز الضابط المرافق لعمه. وأصبح في بداية التسعينات مساعداً شخصياً للامبراطور الشاب «وليام الثاني» الذي نشأت بينه وبين مساعده أواصر الود والصداقة، وفي الحقيقة، أمضى «مولتكه» معظم سني خدمته بين الضباط أكثر مما** امضاه بين الجنود. وفي ٢٥ آذار ١٨٩٩ رقي الى رتبة لواء، ثم الى رتبة فريق في ٢٧ كانون الثاني ١٩٠٢، وكان آنذاك يتولى قيادة فرقة حرس بروسية، وفي نهاية العام ١٩٠٣، ضمه «وليام» الى هيئة الاركان العامة، حيث عينه «شليفن» على مضض رئيساً للعمليات، ومن ثم نائباً له نزولاً عند رغبة «وليام». ولم يكن استياء «شليفن» نابعاً من شك في قدرات «مولتكه»، بقدر ما كان وليد قناعة بأن «مولتكه» كان يفتقر الى التجربة العملية في مراتب هيئة الاركان الدنيا والوسطى. وظلت الشكوك تساور «شليفن» طوال العامين التاليين، سيما حين تقاعد ليخلفه «مولتكه» كرئيس لهيئة الاركان العامة. وفي ١٦ تشرين الاول (اكتوبر) رقي «مولتكه» الى منصب قائد المشاة.

اما «وليام الثاني»، ذلك الانسان المفعم بالغرور، فقد كان يمقت اباه، لكنه كان معجباً بجده الى درجة العبادة. ولعل هذا هو الدافع الاول لقراره في ان يحل «مولتكه» محل «شليفن»، رغبة منه (عن وعي او غير وعي) في محاكاة جده بأن يكون له «مولتكه» كرئيس لهيئة الاركان العامة.

وفي السنوات التسع التالية، استطاع رئيس هيئة الاركان العامة الجديد ان ينزع عن نفسه ما أُلصقت به من نعوت، وان يحوز على احترام شركائه في هيئة الاركان كجندي فطن مفكر وكفء. إذ انه سرعان ما ادرك اهمية الطائرة للاستطلاع والاتصالات، واقتفى اثر «شليفن» في الحض على تطوير الطيران العسكري في الجيش الالماني. كما انه وجه عنايته الى تحسين الاسلحة، وبالتحديد الرشاش الجديد والمدفعية الثقيلة. الى جانب اهتمامه

الكبير بأعمال هيئة الاركان ضمن هيئة الاركان العامة وبشؤون التدريب في جميع قطعات الجيش. وفي ١٩١٤/١/١، رقي مرة اخرى فأصبح برتبة فريق اول.

ولكن من جهة اخرى، اظهر «مولتكه» في ميدان التخطيط الاستراتيجي ضحالة في المخيلة، حيث انه تبنى في العام ١٩٠٦ مفهوم «شليفن» الاستراتيجي من دون اي تعليق. وقد رأينا انه اجرى في التفاصيل تغييرات من النوع الذي كشف عن نقص في الفهم الكامل لما كان «شليفن» يحاول انجازه. فطبيعته الحذرة ذات الافق الضيق، كانت اميل الى الاجراءات البعيدة بقدر الامكان عن المخاطر (التي كان «شليفن» يتقبل تحدياتها على احسن وجه)، بدلا عن الطرق الكفيلة باستثمار القوة والزخم الناجمين عن اتحاد المناورة مع التحشد، او حتى الحفاظ عليهما.

مقارنة بين مولتكه وجوفر

بالرغم من ان «مولتكه» كان ادارياً قديراً، ومنظماً ومدرباً بارعاً، وجندي ميدان باسلاً، فانه كان يفتقر الى ومضة العبقرية التي تتطلبها مهمته كقائد عام في ساحة الوغى. ولكن تأطير العبقرية العسكرية داخل مؤسسة، كان كفيلاً بانقاذه من محنته على الرغم من كل شيء، بل والوصول به الى النصر والشهرة، لو ان التاريخ لم يسدد اليه ضربة قاسية ثالثة. فقد كان من سوء حظه ان يكون خصمه الجنرال الفرنسي القائد «جوزيف ج. سي. جوفر» الذي كان يتمتع بقبس من عبقرية. وكانت في خدمة «جوفر» هيئة اركان لا تقل كفاءة عن هيئة اركان «مولتكه» الا بقدر محدود. وكان تحت امرته جيش جيد، وان لم يكن بجودة الجيش الالماني. ودخل الحرب بخطة متوسطة المستوى، وما ان فشلت تلك الخطة، حتى ادرك فوراً سبب فشلها، وأحاط بجوهر مفهوم «شليفن» الذي تمثل في الخطر الذي كان يتهدد شمال فرنسا والجيوش الفرنسية.

ولم يُصب «جوفر» بالذعر امام ذلك، وإنما استعان بمبدأي التحشد والمناورة ذاتهما لوضع خطة جديدة على الفور. وبفضل جودة عمل هيئة

الاركان، وحُسن استخدام السكك الحديدية الفرنسية الى أقصى الحدود، وبعد اجراء تغييرات في سلم القيادة المرؤوسة، استطاع «جوفر» الافادة من مرونة الجندي الفرنسي واندفاعه. زد على ذلك انه في حين كان زمام السيطرة على الجيوش الالمانية يفلت من يدي «مولتكه»، كانت لدى «جوفر» صورة واضحة وكاملة عن الموقف وسيطرة تامة على جيوشه كلها، ما عدا الجيش البريطاني. غير انه استطاع، إثر توجيه نداء حار وبليغ الى القائد العام البريطاني، ان يضمن التنسيق الكامل بين الجيشين المتحالفين: الفرنسي والبريطاني، وان يصدر اوامره بتوجيه ضربة مضادة في اللحظة المناسبة. ولقد كان هذا امراً صعب المنال اذا جاز القول، ولو كان «فالكينهاين» او «لودندورف» مكان «مولتكه»، لبرأت ساحة «شليفن» على الأرجح، ولتعرض «جوفر» للهزيمة.

والحقيقة ان الجيوش الالمانية ظلت على الرغم من هزيمتها في معركة «المارن»، تحتل معظم الجزء الشمالي من فرنسا، وظل وضعها الاستراتيجي بصورة عامة افضل من وضع الحلفاء الظافرين، وهذه الحصيلة الفريدة لمعركة اعتبرت عموماً كواحدة من صدامات التاريخ الحاسمة، تنطوي على الشيء الكثير فيما يتعلق بتأطير التفوق العسكري في مؤسسة، وبالسؤال حول ما اذا كانت خطة «شليفن» مقامرة متهورة ام لا.

لقد كان كل ما قام به الجيش الالماني والقادة الالمان في الحرب العالمية الأولى من الامور التي توقعها «شليفن».

غروناو ومعركة «أورك»

لقد كان هنالك على سبيل المثال «هانس هـ.ك. فون غروناو» الذي كان عمره في العام ١٩١٤ اربعة وستين عاماً. وهو ضابط مدفعي، ترقى الى رتبة قائد المدفعية في العام ١٩٠٨، واستُدعي من تقاعده الجزئي لقيادة الفيلق الرابع احتياط كجزء من الجيش الاول الذي كان تحت امرة الجنرال «الكسندر فون كلوك». وكان «غروناو» فور تخرجه في مدرسة الضباط قد التحق ببطارية مدفعية برتبة ملازم للمشاركة في الحرب الفرنسية ـ البروسية،

التي حصل إبانها على وسام تقديراً لشجاعته، وتخرج بعد ذلك في الاكاديمية الحربية في العام ١٨٧٨، وسلخ معظم بقية حياته العسكرية متنقلاً بين مهام هيئة الاركان العامة ومهام المدفعية. وفي العام ١٩٠٣، اصبح قائد فرقة، ثم غدا في الفترة (١٩٠٨ ـ ١٩١١) حاكماً عسكرياً على «ثورن» وتقاعد اثر ذلك الى ان استُدعي الى الخدمة الفعلية من جديد ابان اندلاع الحرب (العالمية الأولى).

وحدث في ٥ ايلول (سبتمبر) ١٩١٤، ان كان الفيلق الرابع احتياطاً يزحف باتجاه الجنوب، على مسافة ٣٥ كلم شرقي باريس، والى الشمال من «مو» Meaux على نهر المارن، وكان «غروناو» يحمي المؤخرة اليمنى لكبد جيش «كلوك»، الذي كانت فيالقه الاربعة الاخرى قد وصلت تواً الى جنوبي نهر المارن. وبعد مسيرة دامت نحو خمس ساعات، وصل الفيلق الرابع الى أهدافه المحددة في ضحى اليوم نفسه (٩/٥)، وبدأ يعد للتخييم. وأخذ «غروناو» يتلقى من دورياته الراكبة النشطة تقارير مثيرة للقلق حول تحركات كثيفة يقوم بها الفرنسيون الى الغرب من مواقعه، باتجاه باريس وسان دينيس St. Denis ولما كانت الخيالة الالمانية قد قامت بمسح المنطقة نفسها قبل يومين، دون ان تلحظ أي تحرك للفرنسيين، فقد أولى «غروناو» التقارير التي وصلته بالغ اهتمامه. فكثف دوريات الخيالة، ولكن الخيالة الفرنسية عرقلت مهمة خيالته، كما عرقلتها نيران المشاة الغزيرة بعيدة المدى. وبما أن جميع طائرات الاستطلاع الألمانية كانت منهمكة في هذا الوقت بمهام في جنوب «المارن»، التقى «غروناو» رئيس هيئة أركانه قبيل الظهر وقال له: «أيها العقيد، لا فائدة من الانتظار اكثر من ذلك، وعلينا ان نهاجم».

وكان له ما اراد، حيث وجّه فرقتيه غرباً شطر باريس. وتولت نيران المدفعية الخفيفة والمشاة الالمان ارباك ثلاث فرق من الجيش الفرنسي السادس، ثم تحركت باتجاه المواقع التي انطلقت منها تحسباً لهجوم مفاجىء قد يشنه الفرنسيون في صباح اليوم التالي (٩/٦) وكان هذا الهجوم الذي اعده «جوفر» ضد ميمنة الجيش الالماني الاول ومؤخرته مؤشر بدء الهجوم الفرنسي المعاكس، الذي عرف في التاريخ باسم معركة «المارن». ولكن

بفضل مواهب «غروناو» العسكرية فوجىء الذين كانوا يُعدون لتحقيق المفاجأة.

وعلى الرغم من ان الفرنسيين تغلبوا على الصدمة الأولى، فان الزخم الألماني الناتج عن المفاجأة لم يتوقف، بل واصلت فرقتا «غروناو» التقدم ببطء حتى هبوط الظلام، بالرغم من ان الفرنسيين كانوا يتمتعون بتفوق عددي يقارب ٣ الى واحد. وعندما ادرك «غروناو» بأنه قد اثار قفير نحل، وخامرته شكوك حول مهمة القوات الضخمة التي اكتشفها، قام باستعراض يبين كيف مزجت العقيدة الألمانية بين الاقدام والحذر. وبعد ان ارسل الى قائده برقية يشرح له فيها طبيعة الاشتباك، ويطالبه بتعزيزات، انسحب في خلال الليل الى مواقع دفاعية غربي نهر «أورك» بانتظار الهجوم الفرنسي المحتوم.

وقد كان للجنرال «غروناو» تأثير على حصيلة معركة «المارن»، اكثر من اي شخص آخر في الجيشين الفرنسي والألماني، فلو انه لم يهاجم في الوقت الذي هاجم فيه، لهزم الجيش الالماني الاول شر هزيمة، او لتحطم تماماً بفعل الهجوم الفرنسي المعاكس. ولكن كما حصل، استطاع الجيش الأول ان ينقذ نفسه بمعركة دفاعية هجومية على نهر «أورك»، وأن ينسحب بانتظام في لحظة مواجهته لخطر الخرق البريطاني الذي كان يهدد بعزله عن جناح الجيش الثاني الايمن، الذي كان آخذاً في الانسحاب بعد ان تلقى ضربة موجعة.

هندنبرغ ولودندورف يتوجهان الى الجبهة الشرقية

وفيما ثلاثة ملايين جندي تقريباً يخوضون هذه المعمعة في شرقي فرنسا، بين باريس وجبال الألب، كان هنالك ما يقارب سدس هذا العدد يشاركون في عمليات لا تقل ضراوة في شرقي بروسيا. فقد عجلت روسيا وتيرة التعبئة استجابة لمناشدة فرنسا المهددة، وسارعت الى ارسال جيشين كثيفين متقاربين الى شرقي بروسيا. وعبر الجيش الاول بقيادة الجنرال «بامل ك. فون رننكامبف» نهر «نيمن» عند الطرف الشرقي من ذلك الاقليم الألماني، في حين اتجه الجيش الثاني بقيادة الجنرال «الكسندر سامسونوف» شمالاً عبر شرقي بروسيا الجنوبية. وواجه الجيشين جيش الماني يبلغ تعداد

رجاله نصف عدد رجالهما. وكان ذلك الجيش هو الجيش الثامن تحت قيادة الفريق اول «ماكس فون بريتيفيتس أند غافرون».

وتحرك الالمان في البداية لملاقاة جيش «رننكامبف»، ولكن اهتمام بريتفيتس بتقدم «سامسونوف» الى الجنوب الغربي، جعله مضطربا الى اقصى حد، بحيث لم يكن باستطاعته سوى مواجهة «رننكامبف» في قتال تراجعي عند «غمبينن» في ٢٠ آب (اغسطس). وخوفاً من الوقوع في الطوق، فقد «بريتفيتس» اعصابه، وقرر الانسحاب في وقت مبكر الى نهر «الفيستولا». ومن هناك، اتصل بـ«مولتكه» هاتفياً في مقر قيادته في «كوبلنتس»، وطلب منه تعزيزات للدفاع عن خط نهر «الفيستولا»، وتحت تأثير هذا المنعطف من الاحداث، اتخذ «مولتكه» قرارين هامين احدهما مصيب والآخر خاطىء. وكان القرار المصيب إصدار أمر بإعفاء «برينتيفتس» من القيادة، واستدعاء ضابط آخر من ضباط هيئة الاركان العامة المتقاعدين، وهو الفريق اول «باول فون هندنبرغ أند فون بنيكندورف». كما عين لرئاسة هيئة اركان هندنبرغ اللواء «اريك لودندورف»، الذي كان واحداً من ضباط هيئة الاركان العامة المحترمين، وكان «لودندورف» قد الحق مؤخراً بمقر قيادة الجيش الثاني، وكان يعد خطة لاحتلال «نامور»، إثر مساهمته في احتلال «لييج»، وذلك بتوليه شخصياً قيادة هجوم جريء على الحصن [حصن لييج]. وبموجب اوامر معجلة، قفل «لودندورف» عائداً الى «كوبلنتس»، حيث اطلع على شرح مقتضب للوضع في الشرق - وفقاً لمعلومات مقر القيادة العُليا -، ثم استقل قطاراً من عربتين باتجاه «هانوفر» لاصطحاب «هندنبرغ». وفي الساعة ٤،٠٠ من صباح ٢٣ آب (اغسطس)، صعد «هندنبرغ» الى ذلك القطار، والتقى برئيس هيئة اركانه الجديد.

أما القرار الخاطىء، فكان قرار سحب فيلقين من الجبهة الغربية (فيلق من الجيش الثاني وفيلق من الجيش الثالث) لتعزيز الجيش الثامن في الجبهة الشرقية. وكان على «مولتكه» ان يعرف بأن وصول هذين الفيلقين لن يتحقق قبل ان يُرغم الجيش الثامن على مواجهة تهديد «سامسونوف». وكان على «مولتكه» ان يتنبه الى انه كان بعمله هذا يقلل جديا من قوة الجناح

الايمن، الذي علق «شليفن» عليه اهمية كبرى ثم اضعفه «مولتكه» على نحو خطير. وفي الوقت الذي كانت فرقة الفيلقين تعبر بالقطارات وسط المانيا، كانت معركتا «تاننبرغ» و«المارن» الكبريان آخر فصليهما: وبالتالي لم تكن الحاجة تدعو الى وجود تلك الفرق في الشرق، كما سبق ان تصوّر «شليفن» من قبل. ولو ان هذه الفرق كانت موجودة في الغرب، لاستطاع الجيشان الثاني والثالث ان يحرزا نصراً في المعارك القاسية التي خاضاها في مستنقعات «بيتي مورين» و«سان غوند»، ولاصبحت معركة «المارن» انتصاراً المانياً، ولعاش اسم «مولتكه الصغير» في تاريخ المانيا الى الأبد كثاني «مولتكه» يهزم فرنسا. وفي الواقع، بعد وصوله الى الشرق، اتصل الجنرال «لودندورف» ـ انطلاقاً من تقدمه على «مولتكه» في فهم خطة «شليفن» ـ بمقر القيادة العامة ليعلمها بأنها لم تكن هناك حاجة الى الفيلقين في الشرق، رغم انهما كانا على الرحب والسعة بالطبع.

هوفمان، لودندورف، ومعركة «تاننبرغ»

في هذا الوقت، كان المقدم «ماكس هوفمان»، كبير مخططي هيئة الاركان في مقر قيادة الجيش الثامن في «مولهاوزن» قد افلح في اقناع الجنرال «بريتفيتس» ورئيس هيئة اركانه اللواء الكونت «جورج فون فالدرسي»، بأن التراجع المزمع الى «الفيستولا» سيكون خطأً مميتاً. فجيش «سامسونوف» كان اقرب من الألمان الى النهر، وكان التراجع سيؤدي الى خوض معركة يائسة من اجل عبور النهر، في ظروف غير ملائمة، مع احتمال تعرض الجيش الثامن الى الابادة عند النهر على يد قوات الجيشين البروسيين الأول والثاني.

واشار «هوفمان» في المقابل، الى ان الوقت لا يزال يسمح بتطبيق خطة شليفن الخاصة بالجبهة الشرقية على الموقف الجديد، حيث تقوم قوة صغيرة من الخيالة يدعمها اكبر عدد من المشاة، بإعاقة تقدم جيش «ريننكامبف» في حين يتم حشد بقية الجيش الثامن في وجه «سامسونوف». ووجد «بريتفيتس» في اشارة «هوفمان» المنطق السليم، فطلب منه اصدار الاوامر اللازمة لذلك، ولكنه لسوء حظه وحظ منزلته في التاريخ، لم يخطر

في باله الاتصال بـ«مولتكه» لاطلاعه على قراره الجديد القاضي بالقتال شرقي «الفيستولا».

ولم يكن من قبيل الصدفة ان ينصرف «لودندورف»، في اثناء وجوده على متن القطار الخاص الذي كان يقله و «هندنبرغ» الى موعدهما مع القدر في الشرق، الى دراسة خريطة مشابهة لتلك التي سبق لـ«هوفمان» ان استخدمها في مؤتمر «مولهاوزن». فقبل مغادرته لكوبلنتس، في ٨/٢٢، بيّن «لودندورف» على خريطته الوضع في شرقي روسيا على نحو ما كان معروفاً لدى مقر القيادة العامة. ووصل الى ان حركة تأخير تعرضية يقوم بها جزء من الجيش الثامن تستطيع ايقاف «رننكامبف»، في حين تكون القوة الرئيسية من الجيش قد تمكنت من ايقاف «سامسونوف» او لربما من ايقاع الهزيمة به. وناقش هذا الامر مع «هندنبرغ» الذي وافق على الطرح، ولدى وصول القطار الى المحطة التالية، بعث «لودندورف» الى مقر قيادة الجيش الثامن والى قادة الفيالق برقية، طالباً منهم القيام بالتحركات الضرورية. ولم يكن يدري بالطبع، بأن «هوفمان» قد سبقه بيوم واحد في إصدار اوامر مشابهة ـ بموافقة من بريتفيتس ـ وفي الواقع، حين وصل «هندنبرغ» و«لودندورف» في اليوم التالي الى «مارينبرغ»، حيث امرا بإقامة مقر قيادة الجيش الجديد، اكتشفا بان «هوفمان» قد امر جميع قطعات الجيش، ما عدا فرقة واحدة من الخيالة، بالتحشد ضد «سامسونوف».

وليس من المهم التساؤل ما اذا كان الانتصار الذي أُحرز في «تاننبرغ» كان من صنع «هوفمان» او «لودندورف»، وهو الانتصار الذي طُوِّق فيه جيش «سامسونوف» ثم دُمر بمعركة على غرار «كاني». واذا كان هناك من يستحق الثناء، فانه في الحقيقة «شليفن»، لانه كان الرجل الذي درب جميع ضباط هيئة اركانه على البحث في فرص كهذه واستغلالها بإقدام. ولكن الحكمة تقتضي بألا يمنح الثناء الى فرد، وانما الى جهاز هيئة الاركان العامة الالمانية، والى التفوق المؤطر في مؤسسة اللذين جعلا ضابطين (لودندورف وهوفمان) مختلفين كلياً على المستوى الشخصي، يقومان بتحليل موقف عسكري واحد تحليلاً عميقاً وموضوعياً، الى حد جعل مجموعة

الحقائق ذاتها تؤدي بهما الى وضع حلين متماثلين لمسألة استخدام ما يتوافر من قوات، بأقصى ما يمكن من الفعالية والجاهزية القتالية.

ولكن، رغم ان «هوفمان» و«لودندورف» كانا صديقين حميمن، فانهما قلما اتفقا حول مسائل اخرى. وكنتيجة لذلك، فان «هوفمان» لم يرفع الى رتبة لواء الا في العام ١٩١٧، حين غدا رئيساً لهيئة اركان الجيوش الالمانية المشتركة في الجبهة الشرقية تحت القيادة الاسمية للامير «ليوبولد اوف بافاريا». ولم يحصل على ترقية اخرى بعد ذلك، مع انه كان منذ ذلك الحين وحتى نهاية الحرب، القائد العام الفعلي لتلك الجبهة، وصاحب الفضل الأول في تحقيق الانتصارات، التي ادت في النهاية الى انهيار الامبراطورية الروسية. وكان اهم ما عارض به «لودندورف»، موضوع ضم «بولونيا»، بيد انه نفذ الاوامر القاضية بالتفاوض مع حكومة روسيا الشيوعية الجديدة في «بريست ليتوفسك». وحين رأى من «تروتسكي» مماطلة، اجبر القائد البلشفي، بما أوتي من حكمة المزج بين القوة والدبلوماسية، على توقيع اتفاقية «بريست ليتوفسك» التي اقرت انتصارات الالمان في الشرق ـ الى ان ابطلت مفعولها هدنة ١٩١٨ على الجبهة الغربية.

شيفر ـ بويادل ومعركة لودز

مرة اخرى، أعيد احد خريجي الاركان العامة الى الخدمة الفعلية لقيادة فيلق احتياط، وهو قائد المشاة البارون «رينهارد فون شيفر ـ بويادل» الذي تقاعد في العام ١٩١٣، بعد ان بلغ الثانية والستين من العمر. ففي خريف ١٩١٤ أسندت اليه قيادة الفيلق ٢٥ احتياط، الذي كان قد تشكل منذ وقت قريب، ودمج في الجيش الالماني التاسع الجديد تحت قيادة الجنرال «اوغست فون كاكنسن».

وفي بداية شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، انتهى الروس تحت القيادة العامة للدوق الاكبر «نيقولا» من التعبئة وكانوا قد تجاوزوا جزئياً الازمات النفسية التي كانت كارثة «تاننبرغ» قد خلفتها فيهم. وعمد «نيقولا»، الذي كان تحت قيادته في شمال الكاربات نحو مليون رجل، الى حشد قوات هائلة في غربي بولونيا تمهيداً لغزو سيليزيا الألمانية. فقرر «هندنبرغ»

و«لودندورف» تعطيل خطة الروس بتكليف الجيش التاسع ـ اي نحو ٢٦٠ الف رجل ـ بالقيام بهجوم معاكس محدود باتجاه «كوتنو» و«لودز»، وذلك بغية اختراق الجيوش الروسية المنتشرة على مساحات شاسعة، وتدمير اكبر عدد ممكن من الوحدات الروسية المتمركزة بين «لودز» ونهر «الفيستولا»، كما تم ارسال حوالى ١٠٠ الف جندي الماني آخـر الى الشمال، والى الجنوب، في تشكيل دفاعي متحرك.

وفي ١١ تشرين الثاني (نوفمبر)، بدأ الجيش التاسع تقدمه انطلاقاً من الحدود الالمانية جنوبي «ثورن»، وكان في اقصى اليسار، فيلق «شيفر ـ بويادل» الخامس والعشرون احتياط، الذي كان قد زحف في بداية الامر على طول الضفة اليسرى لنهر «الفيستولا». وقد استطاع هذا الفيلق ان يسحق في ١١/١٢ و١١/١٦، وبالتعاون مع فيلقين آخرين من الجيش التاسع، الجناح الايسر من الجيش الروسي الاول جنوبي «الفيستولا». وكان الفيلق في الوقت نفسه قد سار مسافة ٧٥ ميلا في خمسة ايام دون ان يشتبك في اي قتال، وهي مسافة لا يستهان بها، وفي حين ان الفيالق الثلاثة حققت خرقاً حقيقياً، فقد واصلت بقية الجيش التاسع تقدمها باتجاه «لودز»، حيث كان الجيش الروسي الثاني يتجمع بسرعة ويستعد للدفاع

وواصل «شيفر ـ بويادل» اندفاعه باتجاه الجنوب الشرقي، الى ان اصبح فيلقه في ١١/٢١ خلف الجيش الروسي الثاني في شرقي «لودز» بعد ان عزز بفرقة واحدة. وبتقدمه عبر «برزيزيني»، انعطف الى الغرب، وهاجم مؤخرة المدافعين عن «لودز».

وكان الرد الروسي ابطأ من الرد الألماني بكثير، ولكن القائد الروسي ـ الدوق الاكبر «نيقولا» ـ كان جندياً فذاً. فقد قامت عناصر جيشه الخامس، وجيشه الاول، وعناصر احتياطيه في «وارسو» بالاطباق على قوات «شيفر ـ بويادل» من الجنوب والشمال والشرق على التوالي. وكانت قوات «شيفر ـ بويادل» مؤلفة من بضع وخمسين الف جندي الماني مجهزين بمدفعية فرقية ومدفعية الفيلق. وفي الوقت ذاته، قام نصف الجيش الروسي الثاني تقريباً،

مع بقية القوات التي تثبتت في خنادقها امام «لودز»، بحركة التفاف لاحكام عملية تطويق الفيلق الألماني.

وتابع «شيفر ـ بويادل» من جهته زحفه باتجاه «لودز» قادماً من الشرق، ومكلفاً فصائل قوية بحماية المجنبتين والمؤخرة. وسرعان ما تبين له بأن القوات الروسية امامه بالغة القوة وبأنه لم يعد لديه عناصر احتياطية يستخدمها. وتسلم في ١١/٢٢ برقية من الجنرال «ماكنسن» يطلعه فيها على صعوبة مهاجمة واجهة دفاعات «لودز»، وعلى ضرورة اخراج فيلقه من الوضع الذي كان فيه بأفضل صورة ممكنة، ولعل «ماكنسن» لم يتوقع قط ان يرى «شيفر ـ بويادل» ثانية. فقد كان الروس، الذين كانوا يطوقون الفيلق الخامس والعشرين احتياط بنحو ٢٠٠ الف رجل، قد طلبوا ارسال قطارات من «وارسو»، بغية نقل ما كان يتوقع ان يؤسر من الجنود الالمان.

وبعد تقدير سريع للموقف، قام «شيفر ـ بويادل» بآخر ما كان الروس يتوقعونه من تدبير: الهجوم شرقاً، باتجاه «وارسو» و«موسكو»، واستطاع ان يفتح ثغرة في النطاق المضروب حوله، وزحف شمالاً في اثناء محاولة الروس اعادة احكام الطوق. وبعد ان ابتعد الفيلق الاحتياطي الخامس والعشرون مسافة ١٥ ميلاً خلف الخطوط الروسية الامامية، توجه نحو الشمال في تشكيل قتالي شبيه «بمربعات نابليون»، ثم تحول الى الجنوب بعد ان اكتسح فرقة روسية في طريقه، وانضم ثانية الى الجيش التاسع، حيث عاد في ١١/٢٦ الى مواقعه في الخط الالماني شمالي «لودز».

وتكبد فيلق «شيفر ـ بويادل» في خلال اسبوعين من القتال والزحف المتواصلين ما يزيد قليلا عن ٤٣٠٠ اصابة، في حين انه اوقع في صفوف الروس ما لا يقل عن ثلاثة اضعاف اصاباته، واستطاع لدى افلاته من الطوق ان يخلي معظم جرحاه، وجميع معداته الثقيلة ومدافعه، وان يصطحب معه ١٦ الف اسير روسي و٦٤ مدفعاً روسياً، وكان ذلك عملاً بطوليا من اعظم ما شهدته الحرب، بل والتاريخ العسكري كله.

فالكنهاين رئيساً لهيئة الاركان

اذا عدنا الى شمال فرنسا، وجدنا ان كل طرف قد حاول، إثر معركة

«المارن»، ان يلتف حول مجنبة الطرف الآخر الشمالية المكشوفة، وقد نجم عن هذا ما سمي «بالسباق نحو البحر»، وتتوج في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) بمعركة «إيبر».

وكان «مولتكه» في ١٤ ايلول (سبتمبر) قد أُعفي من منصبه كرئيس للاركان العامة وكقائد عام فعلي للجيوش في الغرب. (طبعاً، كان الامبراطور القائد العام الفخري) واحتل مركز «مولتكه» الجنرال «إريك فون فالكنهاين»، الذي كان وزيراً لحربية بروسيا منذ ٦ حزيران (يونيو) ١٩١٣، وبالتالي وزيراً لحربية المانيا الامبراطورية. وقد أُخفي نبأ هذا التغيير عدة اسابيع، بغية تجنب امتداد أخبار هزيمة «المارن» الى الرأي العام الالماني. وظل «فالكنهاين» لأكثر من أربعة اشهر (حتى ١٩١٥/١/٢١) رئيساً لهيئة الاركان العام ووزيراً للحربية في وقت واحد.

وأمام هذا المأزق، الذي كان اشد ما يخيف «شليفن»، ترتب على «فالكنهاين» وضع استراتيجية جديدة. وكان اول عمل قام به، هو محاولة السيطرة على اكبر رقعة ممكنة من ساحل القتال الانكليزي، لعرقلة محاولات بريطانيا في ارسال تعزيزات الى فرنسا، ومن ثم حشد اكبر عدد من الجيش الالماني في وجه الفرنسيين. وقد امل في الحاق الهزيمة بالجيوش الفرنسية، قبل ان يتسنى لبريطانيا ـ التي كان جيشها قبل الحرب عبارة عن جيش صغير من المتطوعين ـ بناء جيش يمكّنها من بسط نفوذها على القارة. ولهذا، كانت خطوته الاولى نقل عدة فيالق مشكلة حديثاً من المانيا الى دنكرك وكاليه بالاضافة الى سحب فرق من الجبهة الممتدة على طول نهر «إيسن» والطرف الجنوبي.

ولكن سبق خطوة «فالكنهاين» انسحاب الجيش البلجيكي وبعض الوحدات البريطانية الملتحقة به من «انتويرب»، بغية اقامة مرتكز جديد لخط الحلفاء بين «نيويورت» و«إيبر» في غربي بلجيكا. ثم عزز هذه الوحدات وصول قوة حملة السير «جون فرنش» البريطانية، قادمة من الجنوب بالقطارات، لتخوض قتالاً دموياً من اجل «إيبر» خلال شهري تشرين الأول (اكتوبر) وتشرين الثاني (نوفمبر).

وتفاقم الوضع في الشرق والغرب معاً إثر معركتي «إيبر» و«لودز» غير الحاسمتين. لكن «فالكنهاين» الذي درس الموقف على كلتا الجبهتين، ظل على اعتقاده بأن النصر كامن في الغرب. فقد رأى بأن حجم روسيا من جهة، وتفوقها الساحق في ميدان الطاقة البشرية من جهة ثانية، سيقفان حائلاً دون الوصول الى حسم سريع في الشرق. ومع ذلك بدا ان القوات الالمانية الضئيلة نسبياً كانت قادرة على احتواء القوات الروسية الهائلة.

ومن جهة اخرى، كانت فرنسا في الغرب تعتصر كل ما لديها من طاقة بشرية، في حين كان لدى المانيا عدد كبير من عناصر الاحتياط المستنفرة، وان لم تكن مدربة. وفكر «فالكنهاين» في ان بالامكان انهاء الحرب بمجرد الحاق الهزيمة ببريطانيا. ولكن اذا ما هزمت فرنسا اولاً، يصبح من الصعب ارغام الطاقة البشرية البريطانية على الانتقال الى القارة. وقد تكبدت فرنسا اكثر من مليون اصابة في العام ١٩١٤. ومع ان المانيا من جهتها قد فقدت ما يقارب ٩٠٠ الف رجل، فانها كانت قادرة على تحمل خسائرها رغم جسامتها، واخيراً ابيدت قوة الحملة البريطانية او كادت ان تباد في معركة «إيبر»، ولم يكن بوسع بريطانيا زج قوات برية كبيرة اخرى في المعركة قبل منتصف العام ١٩١٥. وبدأ «فالكنهاين» في اعداد عناصر احتياط لمعركة ربيع ١٩١٥ في الغرب واعتقد بأن «جوفر» قد اختار السبيل الاسهل بشن هجوم في «شامبانيا» في كانون الاول (ديسمبر)، حيث كان الفرنسيون يعانون من خسائر كبيرة؛ بينما كان الالمان المتحصنون وراء خنادق منيعة والمزوّدون بعدد كبير من الرشاشات والمدافع الثقيلة، والمتوسطة، يعانون من خسائر قليلة نسبياً.

وسرعان ما واجه قرار «فالكنهاين» الاستراتيجي معارضة شديدة. فقد كان قائد الجبهة الشرقية الجنرال «فون هندنبرغ» ورئيس هيئة اركانه الجنرال «لودندورف» يعتقدان بأن الانتصارات التي حققاها على القوات الروسية المتفوقة عددياً، دليل واضح على ان النصر النهائي في الشرق سيكون اسرع واقل كلفة مما هو في الغرب. وكان يؤيدهما في ذلك رئيس اركان الجيش النمساوي - الهنغاري الجنرال «فرانس كونراد فون هُتسندورف».

وفي ٨/١/١٩١٥، اتخذ الامبراطور قراره المخالف لرأي رئيس هيئة

اركانه والمؤيد لبطلي معركة «تاننبرغ» (هندنبرغ ولودندورف). فشرع «فالكنهاين» في نقل الاحتياطي الى الشرق تنفيذاً لقرار الامبراطور، ونقل مقر قيادته الى «بليس» في بولونيا، لكي يشرف على الخطط والاستعدادات. ولكنه بدأ في الوقت نفسه إنشاء احتياطي جديد من فرق معبأة حديثاً، وكان «فالكنهاين» قد خطط لاستخدامها في الغرب سواء كانت نتيجة الهجوم في الشرق ناجحة ام فاشلة. ولكن دخول ايطاليا الحرب الى جانب الحلفاء في بداية العام ١٩١٥ قوض هذه الخطة ايضاً، حيث اقتضت الضرورة نقل الاحتياط الجديد الى الشرق ايضاً، لكي يتسنى للنمسا - هنغاريا ارسال قوات الى الجبهة الايطالية الجديدة.

ثغرة غورليتس - تارنوف في الشرق

بغض النظر عن ان «فالكنهاين» قد أُرغم على نقل قوات الاحتياط الجديدة الى الشرق، فإن اعلان ايطاليا الحرب قد خلف تأثيراً طفيفاً على الهجوم الألماني المخطط له. ذلك ان اعلان الحرب قد جاء تلو خطة شاملة كان قد وضعها «فالكنهاين»، واعتنى بتفاصيلها المقدم «هانس فون سيكت»، رئيس هيئة اركان الجيش الحادي عشر، الذي كان تحت قيادة الجنرال «فون ماكنسن». وقام الالمان باقتحام مواقع الجيش الروسي الثالث في هجوم كبير عبر مدينتي «تارنوف» و«غورليتس»، وتمكنوا بمعاونة النمساويين من إحداث خرق كبير في جبهة الروس في ٥/٤، ولم يُسمح «لهندنبرغ» و«لودندورف» بغير هجوم محدود من شرقي بروسيا، بالتنسيق مع عمليات الانهاك النمساوية - الالمانية في جنوب بولونيا.

ومكّنت ثغرة «غورليتس - تارنوف» الألمان من التقدم بثبات في بولونيا خلال الاشهر الثلاثة حزيران (يونيو)، وتموز (يوليو) وآب (اغسطس). غير ان الدوق الاكبر «نيقولا» استطاع في ذلك الوقت ان يقيم نسقاً جديداً يمتد من خليج «ريغا» غربي نهر «دفينا» وعبر بحيرة «ناروتش»، ومستنقعات «بريبيت» الى الكاربات في شرقي «غاليسيا»، وذلك بعد ان ضحى بآلاف الاميال المربعة. وكان الالمان قد احتلوا بولونيا كلها وروسيا البيضاء عملياً، ولكن قلما اثر ذلك على وضع الامبراطورية الروسية، بل كانت الجيوش الروسية

الجرارة قد بدأت تتلقى ذخائر جديدة لاسلحتها التي كانت صامتة في خلال جزء كبير من الصيف.

اما «فالكنهاين» الذي لم يتوقع قط اتخاذ قرار بشأن الجبهة الشرقية قبل هزيمة فرنسا، فقد نظر الى نتائج القتال برضى وحبور. اذ ان روسيا قد تلقت ضربة موجعة، ولكنها ـ كما سبق له ان تنبأ ـ لم تُرغم على وقف القتال. اضف الى ذلك ان الجبهة الشرقية قد استتب وضعها، الامر الذي كان يسمح له بحشد الجزء الاعظم من الجيش الالماني في الغرب، في حال موافقة «وليام» على ذلك. بيد أنه من جهة اخرى، كان باستطاعة «هندنبرغ» و«لودندورف» الادعاء بأنه كان يمكن للنتائج ان تكون حاسمة لو تم الهجوم على النحو الذي كانا يبغيانه. ومرة اخرى طلبوا ان تُطلق ايديهم في الشرق.

ڤردان والسوم

في هذه الجبهة، وافق الامبراطور على مفهوم «فالكنهاين». وبدأ رئيس هيئة الاركان العامة الاعداد لخرق هجومي شامل في الغرب. وقد امل في تدمير الجيوش الفرنسية، وإرغام البريطانيين على الانسحاب، والعودة عبر القنال الانكليزي. وكانت خطته تهدف الى «تركيع فرنسا» بهجوم يهدد قلعة «ڤردان» الرمز التاريخي لفرنسا، والمرتكز الدفاعي منذ معركة «المارن».

وبالفعل، «ركعت فرنسا» في معركة «ڤردان» الكبرى، التي دامت من ١٩١٦/٢/٢١، الى ١٩١٦/١٢/١٨، وتكبدت فرنسا فيها اكثر من نصف مليون اصابة، ولكن المانيا فقدت بدورها ٤٣٤ الف رجل، مقابل بضعة اميال مربعة من الأرض الموات المليئة بحفر القنابل، وبالرغم من ان فرنسا كانت على شفا الانهيار، فانها بقيت محتفظة بڤردان، وكسبت بذلك نصراً معنوياً.

وفي غمرة تلك المعركة الكبرى، شن البريطانيون ـ الذين كان عددهم في فرنسا قد بلغ مليون رجل ـ هجوماً معاكساً كبيراً على نهر السوم. وفي اليوم الاول من الهجوم تكبد البريطانيون ٦٠ الف اصابة، وهذه اكبر خسارة يتكبدها الجيش البريطاني في يوم واحد. ولكن البريطانيين واصلوا هجومهم، وانغمسوا في صراع مرير لم يوقفه سوى عاصفة ثلجية هبت في منتصف

تشرين الثاني (نوفمبر). وما غنمه البريطانيون من ارض في السوم يوازن بالكاد خسائر الفرنسيين في فردان، اذ ان اكبر تقدم تم احرازه خلال اربعة اشهر ونصف الشهر من القتال كان ثمانية اميال. وكانت الخسائر البشرية في السوم أكبر بكثير من الخسائر في فردان، حيث انها اسفرت عن قتل وجرح واسر ٤٧٥ الف بريطاني، و١٩٥ الف فرنسي، و٥٠٠ الف الماني، ومع ان خسائر الالمان الاجمالية في معركتي العام ١٩١٦ الكبيرتين كانت اقل بكثير من خسائر الحليفين معاً، فانها كانت اكبر من خسائر فرنسا وبريطانيا، كلاً على حدة. وهكذا، فان استراتيجية «فالكنهاين» ارتدت وبالاً عليه، لأن نزيف المانيا في العام ١٩١٦ كان اغزر من نزيف فرنسا. وكانت النتيجة قرار «وليام» بعزل «فالكنهاين» من رئاسة هيئة الأركان العامة، وتسليم المنصب الى «هندنبرغ» ـ الذي كان قد رقي الى رتبة فيلد مارشال في ٩١٤/١١/٢٧ ـ مع تعيين «لودندورف» رئيساً للعمليات.

هندنبرغ ولودندورف يتوليان القيادة

وصلت الحرب في هذا الوقت الى مرحلة جمود تام. ولم يبذل «هندنبرغ» و«لودندورف»ـ اللذان كانا عملياً اعلى سلطة عسكرية ـ جهوداً تذكر بالنسبة الى الوضع في الغرب في العام ١٩١٧، وإنما اهتما بالتخطيط من اجل العام ١٩١٨. وقد كان هنالك سبيلان لا ثالث لهما للخروج من المأزق، فإمّا الدخول في مفاوضات صلح عامة ليس فيها طرف منتصر، وإما تحوّل جديد في الحرب يقلب ميزان القوى بشكل حاسم. وقد رفض القائدان العسكريان الجديدان الخيار الأول كلياً، بدعم من الامبراطور. ولكن كان العمل بالخيار الثاني يقتضي اما استراتيجية جديدة، او نظاماً تكتيكياً جديداً، او سلاحاً جديداً، او حلفاً جديداً، او انسحاب بعض اعدائهم من الحرب، او مزيجاً من كل ذلك.

لقد بدا في نهاية العام ١٩١٦ ان سلاماً منفصلاً يعقد مع روسيا امر ممكن، وكان من شأن ذلك اتاحة الفرصة لألمانيا كي تحشد كل جيوشها في وجه حلفاء الغرب وتفرض تسوية تحقق مصالحه. ولكن، في عالم السياسة والدبلوماسية تعثرت خطى «هندنبرغ» و«لودندورف».

هندنبرغ ولودندورف ونهج المانيا السياسي

تقدم حاكم «وارسو» الالماني العام باقتراح يقضي بانشاء دولة بولونية مستقلة فوق رقعة من اراضي بولونيا الروسية التي كانت تحت الاحتلال الالماني، وبناء جيش بولوني للقتال الى جانب الألمان، ولوح الحاكم العام امام عيني «هندنبرغ» بامكانية تشكيل خمس فرق مدربة مع قدوم الربيع، واعداد مليون رجل حالما يبدأ العمل بالخدمة الالزامية.

وقد احتج المستشار الالماني «تيوبالد فون بيتمان ـ هولفيغ» على ما تقدم به الحاكم العام، نظراً الى ان اتصالات سلمية قد أُجريت مع ممثلي روسيا في السويد. فهو يعلم ان روسيا لن تعقد صلحاً الا في حال عودة المناطق البولونية اليها. كما ان «هندنبرغ» رفض الاقتراح لسبب مختلف. اذ كان يخشى كبروسي مجرب اقامة دولة بولونية تطالب دون شك ببسط سيادتها على جزء من بولونيا البروسية، وكان يشك في ان يتعاطف الجيش البولوني العتيد مع القضية الألمانية، انطلاقاً من معرفته بمقدار الكراهية التي يكنها البولونيون للألمان. أما فيما عدا ذلك، فإنه قلما تطرق الى ما ليس به علم، فيما يتعلق بالعوامل السياسية المعقدة المحيطة بمسألة اقامة الدولة البولونية، والتي كان يعتقد بان على العسكريين الا ينغمسوا في امور كهذه.

بيد ان «لودندورف» اقنع «هندنبرغ» بالسعي وراء اقامة دولة بولونية على اسس عسكرية بحتة. ولم يكن امام «بيتمان» سوى ان يماشيهما، لما كان لهما من تأثير على «وليام». وما عتم ان أُقيمت الدولة البولونية، فخمدت امال الساعين الى السلام من الروس. ولا عجب في انه لم يكن هناك ثمة مكاسب عسكرية من وراء هذه الدولة. وبما ان «هندنبرغ» و«لودندورف» لم يكونا يريدان دولة بولونية قوية، فلم ترسم حدود لهذه الدولة الجديدة، ولم تطرح ضمانات تحفظ وجودها الدائم. من هنا، ليس من المدهش ان البولونيين لم يتحمسوا للتطوع من اجل القتال الى جانب المانيا.

وفي ١٨ كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨ وجه الرئيس الاميركي «وودرو ويلسون» نداء الى الامم المتحاربة، يحثها فيه على اقامة سلام يشترط فيه عدم ممارسة سياسة الالحاق او الضم، واعادة «الالزاس» و«اللورين» الى

فرنسا. ووافقت بريطانيا على هذه الشروط، لكنها طالبت ايضاً بأن تُدفع لها تعويضات. ولم يكن بوسع المانيا التفكير بدفع تعويضات في تلك المرحلة من الحرب، لان ذلك يعني الاعتراف بخطئها في اشعال الحرب. كما ان المانيا لم تكن مستعدة ـ وجيوشها متوغلة اراضي العدو ـ لقبول سلام من دون ضم اراضٍ، او إعادة «الالزاس» و«اللورين».

وكانت الصحف الالمانية قد صورت الحرب امام الشعب الالماني بأنها عدوان روسي، تشترك فيه فرنسا وبريطانيا. كما صورت غزو بلجيكا كاجراء دفاعي لا بد منه. واكدت الصحف الالمانية للناس بأن المانيا على ابواب النصر. وكانت الخسائر في السوم وفردان قد اثرت على ثقة الالمان بعض الشيء، ولكن لم يخطر في بال احد عقد صلح في العام ١٩١٧ من دون مكاسب مادية تعوض عن التضحيات وتحمي الامة من عدوان جديد في المستقبل. وشعر الناس لدى تولي بطلي الشرق «هندنبرغ» ولودندورف» مقاليد القيادة، بان سير الحرب سيكون على ما يرام.

ومن بين احزاب «الرايخستاغ» السياسية، لم يرحب بفكرة اجراء مفاوضات سلام في العام ١٩١٧ سوى الحزب الاشتراكي الديمقراطي. ذلك لأن الاحزاب الاخرى مالت الى دعم القيادة العسكرية في كل ما من شأنه ان يؤدي الى كسب الحرب.

وكان «بيتمان ـ هولفيغ» من جهته يفتش عن امكانية اخرى لعقد السلام، ساعة تولي «هندنبرغ» و«لودندورف» القيادة العليا. واعتقد بأن افضل عرض يقدمه في هذا السبيل، هو إعادة الاستقلال الوطني الى بلجيكا. فغزو بلجيكا هو الذي جعل انكلترا تدخل الحرب، وألّب الرأي العام العالمي ضد المانيا. من هنا، كانت إعادة بلجيكا الى وضعها السابق بمثابة امل حقيقي للسلام.

ولكن «هندنبرغ» و«لودندورف» احتجا لدى الامبراطور على ذلك الاقتراح. ورأى «هندنبرغ» بأن على المانيا ان تواصل احتلالها لبلجيكا الى ان تصبح حليفاً يمكن ان يعول عليه من النواحي السياسية والعسكرية

والاقتصادية. وعزز هذا التوجه دعم تجمعات كالعصبة الالمانية المتعصبة لقوميتها، ومختلف اتحادات الصناعيين.

وكان انصار سياسة الضم، اصحاب النفوذ السياسي الكبير، يريدون جعل بلجيكا تحت السيادة الالمانية بصورة دائمة، بالاضافة الى ضم المناطق الساحلية الغنية بمناجم الفحم في شمال فرنسا نزولاً الى مصب نهر السوم، وضم عدد من القلاع الفرنسية بما فيها قلعة فردان، كما انهم كانوا يريدون ضم المناطق الزراعية البولونية في الشرق لخلق نوع من التوازن مع المناطق الصناعية التي كان يزمع احتلالها في الغرب. وقد عارض «بيتمان ـ هولفيغ» سياسة الضم، ولكنه كان يفتقر الى السند السياسي لاعلان معارضته بصراحة وقوة. اما «وليام»، فانه وافق انصار سياسة الضم على مبتغاهم، لانه كان يميل شخصياً الى تلك السياسة من جهة، ولان شخصيته الضعيفة والمتهورة جعلته عرضة لضغوطات العسكريين ورجال الصناعة. وكان من التقاليد الالمانية الا يكون لزعماء الكتل السياسية في البرلمان تأثير كبير على الامبراطور، وبالطبع لم يكن للاشتراكيين ذلك التأثير.

وكان كل من «هندنبرغ» و«لودندورف» فخوراً بثقافته، التي كانت ثقافة عسكرية، تقنية شديدة التمسك بطابعها القومي. وقد قال «لودندورف» مرة بأنه لم يقرأ طوال حياته كتاباً لا يُعنى بالقضايا العسكرية. (وهذا من دون شك يدل على ضعف في جهاز هيئة الاركان العامة). من هنا ادى خلل النظام السياسي الالماني والزعامة السياسية الالمانية الى ارغام هذين القائدين الموهوبين على الخوض في اتون صناعة ـ القرار، فكان جهلهما للامور السياسية سبباً في ارتكاب اخطاء مأساوية.

الحصار ومسألة حرب الغواصات

كانت معضلة المانيا الاستراتيجية الكبرى عزلتها عن مصادر الأغذية والمواد الخام فيما وراء البحار، وكانت البحرية الملكية البريطانية القوية قد ضربت حصاراً بحرياً على المانيا منذ بداية الحرب. وبالرغم من قدرات الحكومة الالمانية الفعالة على تسريب الامدادات وتطوير منتجات بديلة، فان الحصار اخذ يضيق الخناق على المانيا شيئاً فشيئاً.

وقيض لالمانيا سلاح مضاد للحصار، يتمثل في اسطول غواصاتها.

بيد ان القانون الدولي جعل استخدام الغواصات بفعالية امراً عسيراً. فلم يعد لها من فائدة ترجى سوى اعتماد المفاجأة. فلو انها لجأت الى الانذار قبل ان توجه ضرباتها، لغدت هدفاً سهلاً ولتمكنت ضحيتها من اتخاذ تدابير وقائية سريعة. ومع انه كان باستطاعتها ضرب السفن الحربية المعادية بدون سابق انذار، فان القانون الدولي كان ينص على تحذير السفن التجارية قبل القيام بأي هجوم بحري، بمنح المسافرين والملاحين فرصة الهرب بقوارب النجاة. ولكن، اذا تم مثل هذا التحذير، فان من السهل على معظم السفن التجارية ان تسبق الغواصات البطيئة وتنجح في الفرار. زد على ذلك، ان البريطانيين كانوا يسلحون سفنهم التجارية، مما جعل اجراءات «التوقف والتفتيش»، كما جاء في القانون الدولي، امراً مستحيلاً.

وكان الألمان يؤمنون بأن السفن التجارية المسلحة اهداف حربية كالسفن الحربية تماماً. وكانوا يؤمنون بحقهم في حرمان بريطانيا من المواد التموينية والامدادات رداً على الحصار البحري البريطاني لالمانيا. وفي ١٩١٥/٥/٧، اصيبت سفينة الركاب البريطانية «لوزيتانيا» قبل وصولها الى محطتها الاخيرة في «ليفربول» قادمة من «نيويورك»، بقنابل طوربيد. (ولعل احدى هذه القنابل نسفت المتفجرات التي كانت تنقلها السفينة) فغرقت في غضون عشرين دقيقة، قبل ان يتمكن احد من الركاب استخدام قوارب النجاة، وغرق معها ١١٩٨ شخصاً، كان من بينهم ١٢٨ اميركيا. وقد عللت المانيا إغراقها للسفينة بقولها ان «لوزيتانيا» كانت تحمل ١٧٣ طناً من ذخائر البنادق والمدفعية، ولكن معظم سكان الولايات المتحدة ودول محايدة اخرى اغضبهم خرق المانيا للقانون الدولي، متناسين الخرق البريطاني له.

وبعد تصاعد الاحتجاج الاميركي إثر إغراق سفينة اخرى كان من بين ركابها اميركيون، اعلنت الحكومة الالمانية في ١٩١٥/٨/٣٠ بأن الغواصات لن تقدم على اغراق اية سفينة تجارية قبل توجيه الانذار اليها. فالخوف من دخول الولايات المتحدة الحرب اقنع «بيثمان ـ هولفيغ» والامبراطور «وليام» بضرورة اتخاذ مثل تلك الخطوة.

ولكن مع نهاية العام ١٩١٦، ووصول الحرب الى موقف دموي حرج، استطاعت القيادة البحرية العليا اقناع «هندنبرغ» و«لودندورف»، بأن رفع القيود عن الغواصات يؤدي الى تجويع بريطانيا وحرمانها من الأسلحة، وبالتالي الى كسب الحرب. واصر قادة البحرية على القول بأن دخول الولايات المتحدة الحرب نتيجة لسياسة حرب الغواصات لن يؤثر على مسار الحرب في شيء، ذلك لأنها اضعف عسكرياً من ان تستطيع التأثير في الوقت المناسب. ووافق «هندنبرغ» و«لودندورف» على طروحات القيادة البحرية. وشرعا في اقناع الامبراطور بذلك. غير ان «بيتمان ـ هولفيغ» ظل متمسكا بموقفه حتى النهاية، انطلاقاً من التزامه بالوعد الذي قطع للولايات المتحدة في العام ١٩١٥، وخشيته من النتائج المدمرة التي يمكن ان يجلبها دخول الولايات المتحدة الحرب. وكان في موقفه هذا وحيداً.

وبالرغم من ان قرار العودة الى حرب الغواصات قد تضمن اخطر التبعات السياسية، فإن «هندنبرغ» و«لودندورف» هما اللذان اتخذا ذلك القرار. وكان ردهما على حجج «بيتمان» رداً لا يحتمل الدحض. فقد جاء فيه «انهما غير مسؤولين» عن النتائج العسكرية التي قد تنجم عن عدم الاخذ بنصيحتهما. ومن ناحية اخرى، اعلنا عن استعدادهما لتحمل كامل المسؤولية اذا ما اصدر الامبراطور اوامر شن حرب غواصات غير محدودة. وفي ٣١ كانون الثاني (يناير) ١٩١٧ ابلغت الحكومة الالمانية الولايات المتحدة انها قررت إغراق، من دون سابق انذار، اي سفينة تبحر في المياه البريطانية او في مياه حلفائها مهما كانت جنسيتها. وفي شباط (فبراير) نفذ الالمان قرارهم وبدأت عمليات اغراق السفن على نحو دراماتيكي.

الولايات المتحدة تدخل الحرب

وبعد غرق خمس سفن ومصرع عدد من الاميركيين، وبعد محاولة الالمان الفاشلة في كسب دعم المكسيك ضد الولايات المتحدة، طلب الرئيس «ولسون» من مجلس الشيوخ الأميركي اعلان الحرب في ٢ نيسان (ابريل). وتمت الموافقة على طلب الرئيس بعد اربعة ايام بأغلبية ساحقة. ودخلت الولايات المتحدة الاميركية الحرب كقوة جديدة الى جانب الحلفاء.

ولم تهزم الغواصات بريطانيا كما جاء في وعود البحرية الالمانية. وكان البريطانيون قد توجسوا خيفة في البداية من ان ينجح الالمان في ارغامهم على الاستسلام، ولكن مع حلول الصيف بدأ العمل في نظام جديد فعال، تمثل في مرافقة السفن الحربية لقوافل السفن التجارية عبر المحيط الأطلسي.

وكان الملايين من الشبان الاميركيين في هذا الوقت يتدربون استعداداً للقتال. وارتكب «هندنبرغ» و«لودندورف» حماقة مأساوية جديدة، بارغامهما الحكومة الالمانية على اتخاذ قرارات سياسية استناداً الى اعتبارات عسكرية.

«ديكتاتورية» هندنبرغ ـ لودندورف

كان القائدان العسكريان الالمانيان في غضون ذلك مسؤولين عن عدد من القرارات السياسية الاخرى، التي اتخذت تحت شعار «الضرورة العسكرية». وفي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٦ ضغط «هندنبرغ» باتجاه استقالة وزير الخارجية «غوتليب فون ياغوف» بحجة انه لم يكن قوياً بدرجة كافية، أو على حد قوله «انه رجل فطن، ولكنه ليس من النوع الذي يضرب بقبضته على الطاولة».

وسرعان ما توصل رئيس هيئة الاركان العامة الى الاعتقاد، حسبما ذكر «لودندورف» امامه غير مرة، بأن «بيتمان ـ هولفيغ» كان سبب اضطرابات المانيا الداخلية كلها. وبعد مكائد عدة لتحطيم المستشار، استخدم «هندنبرغ» و«لودندورف» سلاحهما الاخير، اذ انهما هددا بالاستقالة ما لم يتخل «بيتمان ـ هولفيغ» عن المستشارية. وفي ١٩١٧/٧/١٣ طلب الامبراطور الى المستشار تقديم استقالته.

وكان في مقدمة المآخذ التي سجلها «هندنبرغ» ولودندورف» على «بيتمان ـ هولفيغ»، فشله في الحؤول دون مناقشة «الرايخستاغ» للحل السلمي. ولقد أقر حل سلمي في ٧/١٩، اي بعد استقالة «بيتمان ـ هولفيغ» بوقت قصير. وقد دعا ذلك الحل الى «سلام قائم على التفاهم والمصالحة الدائمة بين الشعوب كلها» ورفض عمليات الالحاق كهدف من اهداف الحرب. وكان هذا الحل قد اغضب قادة هيئة الاركان العامة ايما غضب. وخلف «بيتمان ـ هولفيغ»، بموافقة مسبقة من فريق قيادة الاركان العامة،

الغربية، وكان آخرها الاختراق الفاشل الذي قام به «نيفيل». وكان النمط في كل مرة هو ذاته. ففي البداية كان يجري التمهيد بقصف مدفعي عنيف يدوم احياناً اسبوعاً كاملاً، ثم يغادر المشاة خنادقهم مندفعين عبر «الأرض الحرام» باتجاه خنادق اعدائهم. فكانت المدافع عادة تقضي على جنود النسق الاول من خنادق العدو او تصعقهم، وكان المشاة يحققون التقدم الملموس في خلال الساعات الاولى من هجماتهم.

بيد ان التمهيد المدفعي كان ايضاً ينذر العدو بالهجوم المزمع، ويمنحه الوقت الكافي لاستقدام احتياطيه الى القطاع المهدد. واذ يقوم المهاجمون بمواجهة النسق الدفاعي الثاني، يعجز الدعم المدفعي والمؤن عن اللحاق بهم، لصعوبة تحرك المدافع الثقيلة والمعدات فوق الأرض المليئة بحفر القنابل. وكان هنالك دائماً مواقع مقاومة قوية لم تصبها قنابل القصف التمهيدي، وكانت تلك المواقع قادرة على ايقاف التقدم عدة ساعات، ومع ذلك كان قادة الميدان يواصلون الاندفاع، آملين بأن تحقق المحاولة الاخيرة الخرق المأمول، وتسمح للخيالة الجاهزة بصورة دائمة من التوغل في منطقة الخرق لاستثمار ما تحقق. وتأتي المحصلة النهائية الاستيلاء على اميال قليلة من الأرض، وهلاك آلاف الجنود. ولم يحدث قط ان اتيحت للخيالة فرصة تذوق حلاوة النصر.

واختار الطرفان المتصارعان طرقاً متباينة لحل «لغز الخنادق» هذا. فالحلفاء بزعامة بريطانيا، وبوحي خاص من «ونستون تشرشل»، وزير البحرية، ارتأوا حلاً ميكانيكياً، فقاموا بتطوير الدبابة، التي مكّنها جنزيرها من عبور الخنادق، وتحطيم الاسلاك الشائكة، والسير في الأراضي المحفورة بفعل القذائف، كما حمت جوانبها المدرعة الطاقم والسلاح من جميع اسلحة المشاة العادية.

وتوصلت هيئة الاركان العامة الالمانية برئاسة «فالكنهاين» ومن ثم «هندنبرغ» و«لودندورف» الى حل تكتيكي بدلا من الحل الميكانيكي. فقد غير الالمان في البداية تنظيمهم الفرقي من الفرقة «المربعة» المؤلفة من ٤ افواج مؤطرة في لواءين، الى تنظيم «المثلث» المؤلف من ثلاثة افواج مشاة،

وذلك لزيادة مقدار المناورة والمرونة. ثم تطور داخل الفرقة اسلوب قتالي جديد تمحور حول المناورة المرنة للانساق المرؤوسة الاصغر، وصولاً الى مجموعات القتال الاساسية داخل كل سرية.

وكانت تكتيكات «لودندورف» المرنة الخاصة بالدفاع في العمق، قد اثبتت فعاليتها حين استطاعت ايقاف هجمات الحلفاء في العام ١٩١٧، مع عدد قليل نسبياً من الاصابات في صفوف الالمان. وكان «لودندورف» في الوقت نفسه قد دعا هيئة الاركان العامة الى انجاز دراسات عن التكتيكات الهجومية. وكانت الحرب قد قدمت لهم في وقت غير بعيد عدداً من ملامح حل اللغز.

وفي الهجوم الالماني الاول على فردان، تحققت المفاجأة بالقصف التمهيدي المركز، الذي استغرق ساعات قليلة وليس اياماً. وتقدمت مجموعات صغيرة من المشاة كفرق تسلل، تبتغي الوصول الى نقاط ضعيفة بدلاً من تحرك مئات الآلاف في صفوف طويلة متواصلة باتجاه العدو. وقد اثبتت الابتكارات التكتيكية تلك فعاليتها، ولكنها استخدمت في «فردان» على جبهة ضيقة جداً فقط، دون ان تبذل محاولة لاستثمارها على نطاق واسع.

وفي اليوم الاول الرهيب من معركة «السوم»، لم يحقق احد نجاحاً حقيقياً سوى الفيلق البريطاني الثالث عشر. وقد عزا قائد الفيلق الجنرال «والتر كنغريف» هذا النجاح الى استخدامه للسد الناري الزاحف، حيث استمر القصف التمهيدي المركز الى ما بعد مغادرة المشاة لخنادقهم وتقدمهم باتجاه خنادق العدو، وحرم الالمان بالتالي من فرصة الاستفاقة من وهلة الرمايات التحضيرية قبل وصول المشاة المهاجمين.

التكتيك الالماني الجديد

كانت هيئة الاركان العامة الالمانية منكبة بصورة متواصلة على دراسة النجاحات المحدودة التي احرزها الطرفان، وعلى وضع نظام تكتيكي يتلاءم مع شروط مبادىء الحرب المعاصرة الاساسية: المفاجأة، والتحشد، والاقتصاد في القوى، والمناورة، والامن، وكان ابرز ما في الحرب الحديثة واخطره الاسلحة الآلية السريعة المهلكة، والقذائف الشديدة الانفجار التي

جورج ميخائيليس»، الذي كان وزيراً ناجحاً للتموين. وكان قد أوصى به الجنرال «هانز جورج هيرمان فون بليسين»، مدير مقرات القيادة العسكرية. ورغم انه لم يسبق «لهندنبرغ» و«لودندورف» ان التقيا به، فانهما اوصيا به بدورهما امام «وليام»، الذي لم يكن قد التقى به هو ايضاً من قبل. وكانت هذه مأساة القيادة السياسية الالمانية في العام ١٩١٧. ولا عجب ان نرى «ميخائيليس» مستشاراً ضعيفا تعوزه الكفاية، ذلك ان «هندنبرغ» و«لودندورف» كانا في هذا الوقت الزعيمين الأوحدين دون منازع في المانيا. ولا يفهم من هذا ان الفيلد مارشال والجنرال (هندنبرغ ولودندورف) قد استوليا على السلطة، فالحقيقة ان الزعماء السياسيين المقلدين لـ «بسمارك» أسوأ تقليد، هم الذين تخلوا عن سلطتهم لصالحهما.

ويكاد يكون من المؤكد ان فكرة الاستيلاء على السلطة لاقامة ديكتاتورية عسكرية لم تخطر في بال «هندنبرغ» قط، كما ان «لودندورف» رفض باصرار التفكير في ان يصبح هو او «هندنبرغ» دكتاتوراً اسمياً او ان يتحمل رسمياً مسؤولية السيطرة على البلاد سياسياً، بل انه واظب على البحث عن «رجل قوي» قادر على منح المانيا ما تحتاجه من الزعامة المدنية المقتدرة. ولم يكن تدخله و«هندنبرغ» في شؤون السياسة في معظمه، سوى دفع نحو ذلك الاتجاه. غير انه لم يستطع ان يمنع نفسه عن اتخاذ قرارات سياسية واقتصادية، ودائماً تحت شعار «الضرورة العسكرية». واصبح دكتاتوراً بالفعل بلا مسؤولية حقيقية، وبلا تمرس او خبرة تخوله وضع سياسة وطنية سياسية.

اما «هندنبرغ»، فقد اعترف من جانبه بعدم كفايته. حيث انه كتب بعد الحرب قائلاً: «سيكون من الدقة القول بأن مزاجي غير ميال للسياسة» و«لقد **كان ضد رغبتي ان انخرط في السياسات الراهنة». واعترف بعد ذلك بقوله: «إني** اسلم بأنني قد جعلت من اسمي ومنصبي غطاءين لكثير من وجهات النظر المعبرة عن مسائل سياسية، حتى حينما كانت تلك المسائل مرتبطة بموقفنا العسكري ارتباطاً غير وثيق». والذي عناه هذا القول، هو ان «لودندورف» كان يحكم البلاد باسم «هندنبرغ»، في حين كان الامبراطور والمستشار والرايخستاغ بلا حول ولا قوة.

براعة «لودندورف» العسكرية

وبالرغم من العثرات التي اعترضته في قضايا سياسة الحكومة العليا، فان «لودندورف» كان يبدي براعته كمفكر عسكري وكقائد. فبإصداره امراً بعدم القيام بأي هجوم الماني في الجبهة الغربية في العام ١٩١٧، وبتطوعه في اخضاع الجزء الاكبر من نتوء «نويون»، تكفلت عقيدته القائلة بالدفاع في العمق في تحطيم قوة فرنسية كبيرة كانت تحت قيادة الجنرال «روبرت نيفيل»، ولم تحقق جهود الحلفاء الهجومية بأجمعها شيئاً.

وفي الشرق، كانت رومانيا قد دخلت في نهاية العام ١٩١٦ الحرب الى جانب الحلفاء، وتعرضت فور دخولها للحرب تقريباً الى هزيمة واجتياح الماني - بلغاري تحت قيادة الجنرالين «فون فالكنهاين» و«ماكنسين»، ثم تلا ذلك في منتصف العام ١٩١٧ انهيار الروس. وفي وقت متأخر من العام نفسه، هُزمت ايطاليا هزيمة حاسمة في معركة «كابوريتو». وقد اصابت حرب الغواصات بعض النجاحات المأساوية في بداية الأمر، ولكن وضح في صيف ١٩١٧ ان اجراءات الحلفاء المضادة كانت تسلبها فعاليتها على نحو متزايد.

وايقن «لودندورف» بانه على الرغم من الانتصارات المؤقتة، لم يكن في مقدور المانيا ان تأمل كسب حرب الاستنزاف على المدى البعيد. فالطاقة البشرية والمصادر المادية التي كانت تملكها المانيا وحلفاؤها كانت اقل بكثير مما كانت تملكه دول الحلف. سيما وان خروج روسيا من الحرب كان قد قابله دخول الولايات المتحدة اليها. من هنا كان «لودندورف» يعلم بأنه من الضروري التوصل الى الحسم في بداية العام ١٩١٨، قبل ان تتمكن الولايات المتحدة من ان ترمي بثقلها في الحرب. والحسم هو ان يحرز الالمان نصراً كبيراً في الغرب، مستفيدين مما وفره الانتصار في الشرق من طاقة بشرية. وبما ان ليس في الجبهة الغربية مجنبات قابلة للتطويق، اقتضى الحسم ضرورة اختراق خطوط الحلفاء بعمق عند نقطة حاسمة، بشرط ان يتم الاختراق بسرعة، وان يستثمر كلياً، بحيث يدفع العدو الى الاقتناع بأنه خسر الحرب، ويجعله يسعى الى الصلح.

لقد سبق ان جُرب الاختراق العميق والشامل مرات على الجبهة

كانت تطلقها المدافع السريعة الرمي، والميزة العظيمة التي قدمتها هذه الاسلحة والخنادق والأسلاك الشائكة مجتمعة الى المدافعين. ومن هنا اقتضى الامر استحداث تكتيك جديد للتغلب على هذه الميزة.

وكانت المفاجأة هي المدخل الى التكتيك الالماني الجديد. والمفاجأة تتحقق بجعل القصف التمهيدي عنيفاً لا يتجاوز الساعات القليلة، وبتوجيه عناية فائقة الى مسألة سرية تحشد القوات، بحيث يتم التحرك في اثناء الليل فقط. وقبل الهجوم بأقصر وقت ممكن. مع توجيه اهتمام خاص الى مسألة خداع العدو بالهجمات الكاذبة وضروب الخدع الحربية. وكانت قد طورت تقنيات جديدة لتوزيع نيران المدفعية بما يؤمن المفاجأة والدقة.

وتقرر ان تكون الوحدة التكتيكية حضيرة مؤلفة من ١٤ الى ١٨ رجلاً، على ان يكون لكل حضيرة قاعدتها النارية الخاصة، اي رشاش خفيف او بندقية آلية ومدفع هاون خفيف. وكان على جنود مدربين تدريباً خاصاً من مشاة الاقتحام، ويعرفون باسم قوات العاصفة، التقدم على جبهة عريضة خلف سِد زاحف، والتوغل بحثاً عن نقاط ضعيفة. وكان على المهاجمين عدم التعرض لمراكز المقاومة القوية. وكان المبدأ الموجه الحفاظ على زخم الهجوم لمواصلة الاندفاع قدماً.

وبقيام وحدات الاقتحام بفتح ثغرة بالسرعة القصوى، تستلم قوات احتياطية المواقع التي تحقق فيها تقدم كبير، وتكون مهمتها تعزيز الثغرة وتوسيعها. وقد دعي هذا العمل باستغلال «النقاط الضعيفة». وتتولى قوات احتياطية اخرى تطهير جيوب المقاومة التي تم تجاوزها من قبل. وتقوم وحدات اكبر، بحجم الفوج او الفرقة، بتوسيع نقطة الخرق، وذلك بمهاجمة مجنبات العدو التي تشكلت بفعل الخرق من الامام ومن الخلف، على كلا جانبي الثغرة. وكان على المدفعية ان تنتشر على مسافات غير منتظمة من الخطوط الامامية وان تتحرك في وثبات خلف المشاة، للحفاظ على ديمومة السد الزاحف، وكان دور الطائرات الآخذة في احتلال مكان بارز في الحرب، تأمين دعم قريب وقصف جيوب المقاومة المعادية وتحركات احتياطي العدو.

ولم يكن في التكتيك الجديد اي ابتكار مثير، فقد كان جميع القادة يحاولون منذ العام ١٩١٤ تطبيق مبادىء الحرب بمقتضى ظروف مستجدة لتحقيق المفاجأة، وفتح ثغرة، ومن ثم استثمار الثغرة. وكل ما بادر الألمان اليه، هو استنباط طرائق منظمة وعملية، يمكن من خلالها العمل بما سلف (المفاجأة، وفتح الثغرة، واستثمارها)، في ظل ظروف القتال الجديدة، وتوفير الاجراءات التفصيلية الخاصة بتدريب ودعم الرجال الذين كان عليهم القيام بالمهمة.

هوتيير، وريغا، وكابوريتو

بعد فشل الهجوم الروسي الاخير في تموز (يوليو) ١٩١٧، انهارت الجبهة الجنوبية الغربية الروسية بكاملها، ولكن الحكومة الروسية الجديدة لم تطالب بعقد هدنة. ولذلك قرر الالمان الاستيلاء على مرفأ «ريغا» الهام في اقصى الشمال. وكانت «ريغا» مركزاً امامياً حصيناً من مراكز العاصمة الروسية «بترُوغراد»، الواقعة على مسافة ٣٠٠ ميل الى الشمال الشرقي. وتلقى قائد الجيش الالماني الثامن آنذاك الجنرال «اوسكار فون هوتيير» توجيهات من القيادة العليا لتطبيق تكتيك هيئة الاركان العامة الجديد في هجومه على «ريغا»، التي كانت قد صمدت امام الالمان لمدة سنتين. واستبقى «هوتيير» جنوده بعيداً عن الجبهة حتى آخر لحظة. واعتمد قصفاً تمهيدياً كثيفاً وقصيراً، وفقاً للخطة الدقيقة التي وضعها ضابط المدفعية العامل تحت امرته العقيد «جورج بروخمُلر». وفي ١ ايلول (سبتمبر) بدأ القصف وهجوم المشاة في وقت واحد. وتقدم المشاة في وحدات تسلل صغيرة، ومع كل وحدة تسليحها الذاتي الخاص. وفي ٣ ايلول (سبتمبر) سقطت «ريغا». ومنذ ذلك اليوم اعتبر «تكتيك هوتيير» الجواب الالماني على لغز الخنادق[1].

وفي جبال الألب الايطالية في الجنوب، استُخدم تكتيك «هوتيير» مرة اخرى في تشرين الاول (اكتوبر) من قبل الجنرال «اوتو فون بيلوف»، الذي

(١) لمزيد من الاطلاع المشوق على كيفية تسمية التكتيكات الالمانية الجديدة، التي لم يضع هوتير تصميمها وإنما كان اول من استخدمها في عملية كبيرة، بتكتيكات هوتير انظر كتاب الدكتور ل. م. الفولدي L. M. Alfoldi «اسطورة هوتير» المجلد ٥ رقم ٢.

كان قائد فيلق في معركة «تاننبرغ» في العام ١٩١٤، ففي «كابوريتو»، هزم «بيلوف» جيشاً ايطالياً سيىء الاعداد، وحقق نصراً ساحقاً بتحطيمه المعنويات العسكرية الايطالية. ولم ينقذ ايطاليا من الانهيار الكامل سوى توجه التعزيزات البريطانية والفرنسية الهائلة عبر «الالب» لدعم الجبهة الايطالية المهددة.

وقد عزز هذان الانتصاران من ثقة «لودندورف» ورئيس هيئة الاركان العامة، ودفعاهما الى الاطمئنان الى انهما اصبحا قادرين على تحقيق النجاح في الجبهة الغربية، التي فشلت كل الجهود المبذولة لاختراقها منذ العام ١٩١٤. فقد كانا على قناعة بأنهما اصبحا يعرفان الآن كيف يمكن اختراق الخنادق وصولاً الى النصر الحاسم.

هجمات الألمان في عام ١٩١٨.

بعد توصل هيئة الاركان العامة الى تكتيك ناجح جديد، بات عليها الاعداد لخطة استراتيجية، بهدف استخدام هذا التكتيك على اكمل وجه. وفي مؤتمر هام لاعضاء هيئة الأركان عقد في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٧ في مقر القيادة العليا الالمانية في بلدة «سبا» (بلجيكا)، عرض «لودندورف» المشكلة على رؤساء الفرق الرئيسية وكان «هندنبرغ» قد تغيب عن هذا المؤتمر، ولعب دوراً جزئياً لاتخاذ القرار الاستراتيجي الذي نتج عنه.

واثر مناقشة طويلة لعدد من الخطط المحتملة، رأى «لودندورف» بأن يشن الهجوم ضد البريطانيين. فقد كان يعتقد، كما اعتقد «فالكنهاين» من قبل، بأن بريطانيا هي العدو الاساسي، ذلك ان بريطانيا كانت، حسب رأيه، قادرة على مواصلة القتال بدون فرنسا، في حين لم يكن بمقدور فرنسا الاستمرار في الحرب دون ان تقف بريطانيا الى جانبها. وتوقع «لودندورف» كسب الحرب قبل ان يتسنى للولايات المتحدة لعب اي دور هام.

ورفعت هيئة الاركان العامة ست خطط مختلفة ومفصلة، تتعلق بعمليات في مختلف انحاء «الفلاندر» ومنطقة «السوم»، بالاضافة الى عدد آخر من الخطط الخاصة بمواقع بديلة محتملة، كالجبهة الواقعة تحت السيطرة الفرنسية في «فردان». وتلخصت الخطة التي اختيرت اخيراً وأُطلق عليها

الاسم الرمزي «ميخائيل»، بتوجيه ضربة موجعة الى الجناح الايمن للجيوش البريطانية، في قطاع يمتد من بلدة «سان كانتان» عند نهر «السوم»، الى «آراس» الواقعة على مسافة ٤٧ ميلاً الى الشمال. وهو قطاع يحميه الجيش البريطاني الخامس بشكل ضعيف. فما ان يتم الخرق حتى يصبح من السهل تحطيم بقية القوات البريطانية على شواطىء القنال الانكليزي.

وتم توجيه الضربة الالمانية في ٣/٢١، حيث برع رجال العاصفة الالمان في تنفيذ تكتيكهم الجديد على النحو الذي توقعه «لودندورف». ففي اعقاب القصف المدفعي الذي لم يدم طويلاً، ولكنه كان عنيفاً بشكل لم يشهده اي ميدان قتال من قبل، تسللت مجموعة قتالية صغيرة الى المواقع البريطانية، وشقت طريقها عبر نقاط المقاومة الضعيفة تاركة النقاط الدفاعية القوية المعزولة للموجات اللاحقة من قوات العاصفة. وما لبثت جبهة الجيش البريطاني الخامس ان تصدعت، وتدفقت عبرها القوات الالمانية بنجاح مذهل. وناشد الفيلد مارشال السير «دوغلاس هيغ» الجنرال «فيليب بيتان» المساعدة، ولكن القائد العام الفرنسي كان يدفع باحتياطيه باتجاه «باريس» للحؤول دون تقدم الالمان اليها. وكان رده على مناشدة «هيغ» بأنه لم يعد لديه قوات كافية لتقديم المساعدة اليه. وهذا ما كان «لودندورف» قد توقعه.

وعلى الرغم من الخسائر الجسيمة، حقق «هيغ» وضباطه تراجعاً بارعاً. وكان الانهاك قد بدأ يتسلل الى قوات الخط الامامي الالمانية، ذلك ان تقدمها كان سريعاً الى درجة جعلت المدفعية والتعزيزات والمؤن عاجزة عن اللحاق بها، نظراً الى الصعوبات التي كانت تواجه الشاحنات والعربات في اثناء المسير عبر الحقول التي مزقتها القنابل. ولهذا السبب، اخذ زخم الهجوم الالماني يتضاءل، وبدأ الجنود البريطانيون العنيدون العمل على تشكيل خط دفاعي حقيقي جديد بدعم من سلاح الجو الملكي.

وفي هذا الوقت، اجتمع مجلس الحلفاء الحربي الأعلى بطلب ملح من «هيغ»، واخذ بتوصيته الداعية الى تعيين رئيس هيئة الاركان العامة للجيش الفرنسي الجنرال «فرديناند فوش» قائداً عاماً لقوات الحلفاء في الجبهة الغربية. وهنا بدأ «فوش» تأمين التعزيزات الفرنسية لمساعدة

البريطانيين. وبحلول اليوم الرابع من نيسان (ابريل)، أُرغم الزحف الالماني على التوقف. ومع ان البريطانيين تكبدوا خسائر فادحة، فان جيوشهم ظلت متماسكة.

واعتقد «لودندورف» بأن ضربة موجعة اخرى قد تدمر قوات «هيغ». وفي ٤/٩ وجه الالمان ضربتهم هذه المرة ضد الجزء الشمالي من الخط البريطاني في «الفلاندر». وكاد الالمان يحققون الخرق هنا ايضاً، ولكنهم فشلوا من جديد في تحقيق الهدف، بفضل عناد الجنود البريطانيين، وقيادة «هيغ». اضافة الى عجزهم عن الاحتفاظ بالاسناد المدفعي وتدفق المؤن او التعزيزات خلف الخط الامامي لقوات العاصفة مباشرة.

وفي ذروة الموقف الحرج، ابلغ الجنرال الاميركي «جون ج. بيرشينغ» الجنرال الفرنسي «فوش»، بأنه غدا باستطاعته الاستعانة بالجنود الاميركيين الذين وصلوا مؤخراً الى فرنسا، واستخدامهم كاحتياطي او بدائل في اية نقطة من الجبهة. وبالفعل، دُفعت وحدات من الفرقة الاميركية الأولى الى الجبهة قرب «أميان» استجابة لطلب «فوش».

وكان «لودندورف» لا يزال يعتقد بأن ضربة كبيرة اخرى يمكن ان تدمر الجيوش البريطانية، ولكن اراد قبل كل شيء ارغام الحلفاء على ابعاد الاحتياطي الذي كان «فوش» قد حشده خلف الجبهة البريطانية. وقرر لهذا الغرض الهجوم عبر نهر «ايسن»، في وسط الخطوط الفرنسية، والتقدم مباشرة نحو «باريس». وما ان ينقل الحلفاء الاحتياطي لحماية العاصمة الفرنسية، حتى يقوم بتوجيه ضربته الاخيرة الحاسمة الى البريطانيين في «الفلاندر».

وحقق الهجوم الالماني عبر نهر «الايسن»، في ٥/٢٧، نجاحاً اكبر مما تصوره «لودندورف». فقد بلغت خسائر الجيوش الفرنسية، وسرعة تقدم قوات العاصفة، حداً جعل «لودندورف» يقرر السماح لقوات العاصفة بمواصلة الزحف باتجاه نهر «المارن»، ومن ثم باتجاه «باريس». ولكن التقدم الالماني توقف عند نهر «المارن» بفضل وحدات اميركية ـ فرنسيّة مشتركة، كان «فوش» قد دفعها الى الجبهة.

وللمرة الثانية، حقق الالمان نجاحات تكتيكية رائعة، ولكنهم اخفقوا في الوصول الى هدفهم الاستراتيجي. وكان اخطر تطور تشهده الحرب في نظرهم القدرة القتالية التي ابداها الاميركيون.

وفي محاولة لربط النتوءات الدفاعية الجديدة التي انشأها في قطاعي «السوم» و«إيسن ـ مارن» شن «لودندورف» هجوماً آخر ضد الفرنسيين في منطقة «نوايون ـ مونديديه» في بداية شهر تموز (يوليو). ولكن لم يحدث أي خرق هذه المرة، بل اوقف التقدم الألماني بعد ان حقق مكاسب ضئيلة.

واعاد «لودندورف» الكرة بعد مضي شهر، وبعد ان اعد للهجوم بعناية فائقة. وهاجم الألمان عبر نهر «المارن» هذه المرة، وبدا الموقف في ١٥ و١٦ تموز (يوليو)، وكأن النصر سيكون حليف الألمان في معركة «المارن الثانية»، وكأن قواتهم توشك على احتلال «باريس» ولكن القوات الفرنسية ـ والاميركية استطاعت ايقاف الهجوم في اليوم التالي.

وادرك «لودندورف» بأن الوقت قد بدأ يعمل ضد الألمان. وكان الاميركيون مصممين على جعل وجودهم مؤثراً. وعلى الرغم من ان هجمات الالمان الخمس قد اوقعت في صفوف البريطانيين والفرنسيين خسائر جسيمة للغاية، فان الالمان بدورهم خسروا الكثير من الرجال، بل انهم فقدوا القسم الاعظم من قوات العاصفة المختارة بعناية والمدربة تدريباً خاصاً. ومع هذا، فقد اعتقد «لودندورف» ان لديه الوقت والقوة الكافيين لشن هجوم كبير آخر ضد البريطانيين في «الفلاندر». واعتقد بأن البريطانيين سيفاجأون بعملية «هاغن» الجديدة، نظراً الى ان الهجمات الثلاث الاخيرة قد جرت في الجنوب البعيد، واعتقد ايضاً بانه سيحرز الانتصار الذي ينشده. واصدر اوامره بمواصلة الهجمات المحدودة ضد «ريمس» Rheims في حين توجه شخصياً الى جبهة «الفلاندر» للاشراف على الاستعدادات الاخيرة لعملية «هاغن».

لودندورف وفشل هجمات العام ١٩١٨

لقد كان الهجوم الاخير ضربة لن تتكرر ثانية. وصحيح ان هجمات «لودندورف» قد حددت مصير الحرب في العام ١٩١٨، ولكن القرار لم يكن

المانياً. ففي ١٨ تموز (يوليو) دفع «فوش» بقوات فرنسية واميركية في هجوم باتجاه «سواسون» وبذلك امسك الحلفاء بزمام المبادرة، ولم يستعدها الألمان بعد ذلك ابداً.

وهذا لا يعني ان استراتيجية «لودندورف» كانت فاشلة منذ البداية. فلقد كان الالمان اقرب الى النصر الحاسم في معارك آذار (مارس) ونيسان (ابريل)، وايار (مايو). وكان من غير المستبعد ان تؤدي نجاحاتهم خلال هجماتهم الثلاث الاولى الى ارغام الجيوش البريطانية والفرنسية على طلب تسوية سلمية تغدو المانيا بمقتضاها زعيمة لأوروبا. فمن كان يستطيع التنبؤ بردود افعال الحكومات البريطانية والفرنسية والايطالية - او ردود افعال شعوبها اليائسة الممزقة - لو ان باريس سقطت، او ان البريطانيين دحروا عبر القنال، او ان ايطاليا تعرضت لخطر الجيوش الالمانية الظافرة؟ وماذا كان باستطاعة الحكومة الاميركية والشعب الاميركي ان يفعلا حينذاك؟

ولكن الهجومين الأولين فشلا كلياً في تحقيق هدفيهما الاستراتيجيين لاسباب سبق ان اطلعنا عليها بالرغم مما احرزاه من مكاسب تكتيكية رائعة. وفي نهاية هجومه الثالث - ورغم المكاسب التكتيكية التي احرزت ايضا - فقد «لودندورف» كل امل في كسب الحرب في عام ١٩١٨، او حتى في التوصل الى تسوية سلمية في العام ١٩١٨ او العام ١٩١٩. وكان كل ما انجزه في ذلك الهجوم، وفي الهجومين اللذين تلياه، حرمان الجيش الالماني من افضل رجاله، وتحطيم معنويات الباقين. وهو الامر الذي كان يمهد طريق الحلفاء الى النصر. وكان على «لودندورف» ان يعي ذلك ولكنه فَقَد موضوعيته التحليلية البارعة التي تحلى بها فيما مضى.

هجوم الحلفاء المعاكس

ولكن الموقف بدا مفهوماً بكل وضوح بالنسبة الى الجنرال «فوش»، الذي كان في طريقه الى اغتنام الفرصة الذهبية التي لاحت امامه وكان الفضل في كون «فوش» قادراً على اتخاذ خطوات ازاء هذا الموقف عائداً بصورة مباشرة الى هجمات «لودندورف» بالذات. إذ ان دفعه للحلفاء الى شفير الكارثة، جعلهم يتخذون خطوتهم الاخيرة باتجاه توحيد الجهد والهدف -

وهي الخطوة التي احجموا طويلاً عن اتخاذها لاسباب قومية انانية. وكانت فرصة الحلفاء لتحقيق النصر في عامي ١٩١٨ او ١٩١٩ نابعة من حقيقة ان هجمات «لودندورف» جعلتهم يلجأون الى قيادة موحدة، ويعينون قائداً عاماً سبق له ان اثبت جدارته وبراعته.

وحلت ضربة الحلفاء التالية في ٨ آب (اغسطس)، حين دفع «الفيلد مارشال» هيغ بقوات بريطانية واميركية باتجاه «اميان». ففي نهاية اليوم ذاته، توغل الحلفاء مسافة ٧ اميال في عمق الدفاعات الالمانية على جبهة طولها ١٥ ميلاً. فتداعت ست فرق المانية، ووقع العديد من الجنود الألمان في الأسر، وانحدرت معنويات الالمان كما لم تنحدر من قبل. وقد استقبلت التعزيزات التي وصلت الى الجبهة بشتائم الجنود المتراجعين، الذين كانوا يصيحون قائلين: «انكم تطيلون امد الحرب». وقد سجل «لودندورف» فيما بعد بأن يوم ٨ آب (اغسطس) «كان اليوم الاسود بالنسبة الى الجيش الالماني... فقد انكشف انحدار القوة القتالية بما لا يدع مجالاً للشك. ولم يعد الجيش الاداة القتالية المثالية... من هنا وجب وقف الحرب». وحطم ٨ آب (أغسطس) اي امل عنده في هجوم في «الفلاندر»، او في اي مكان آخر، فأبلغ الامبراطور بضرورة البدء في مفاوضات سلام قبل ان يتحول الموقف الى موقف اسوأ غير مستبعد.

ولكن المرونة الحازمة لمعظم القوات الالمانية، والمهارة الدفاعية لدى قادتها اجلاّ النهاية المحتومة مدة ثلاثة اشهر. بل ان «لودندورف» استعاد شيئاً من ثقته القديمة. ولكنه لم يستعد موضوعيته، وبدأ يخطط لاقامة خط دفاعي جديد على طول الحدود الالمانية، اعتقاداً منه بأن جيوشه تستطيع الصمود عند الخط الدفاعي الى ما لا نهاية، الامر الذي يقنع الحلفاء المنهكين بالتفاوض من اجل صلح ملائم لالمانيا.

الانهيار - ذهاب «لودندورف» ومجيء «غرونر»

ولكن احداثاً جديدة جعلت الامر مستحيلاً. ففيما كانت جيوش «لودندورف» تجاهد لايقاف تقدم الحلفاء في ايلول (سبتمبر) وتشرين الاول (اكتوبر)، كان حلفاء المانيا على الجبهات الاخرى يتعرضون لهزيمة ساحقة.

ففي ٣٠ ايلول (سبتمبر)، وقّع البلغاريون هدنة كانت في حقيقتها استسلاماً واستسلمت تركيا في ٣٠ تشرين الاول (اكتوبر). وطالبت النمسا ـ هنغاريا في اليوم ذاته عقد هدنة جرى توقيعها في ٣ تشرين الثاني (نوفمبر).

وفي المانيا نفسها، كان المدنيون مشرفين على الانهيار، ففشل المانيا في تأمين مقتضيات الحرب الطويلة، واشتداد خناق الحصار، اديا الى بروز مشكلات لا تصدق، لقد كان الناس يموتون جوعاً بكل معنى الكلمة، ولم تعد الامة راغبة في استمرار الحرب، ولم تعد قادرة على تحمل الجوع في شتاء آخر.

وفي ٣ تشرين الاول (اكتوبر) دعا الامبراطور «وليام الثاني» الامير الليبرالي «ماكس اوف بادن» Max of Baden لتولي المستشارية وفتح باب المفاوضات. وبعد يومين تلقى الامير «ماكس» دعوة ملحة من «هندنبرغ» من اجل توقيع هدنة قبل ان تنهار الجيوش الالمانية.

وأرسل المستشار الجديد في اليوم التالي (١٠/٦) مذكرة الى الرئيس «ولسون». يقول فيها: «حقناً للدماء، تطالب الحكومة الالمانية الرئيس بترتيب هدنة فورية لوقف القتال براً وبحراً وجواً». بيد ان «ولسون» رفض التفاوض الا مع الممثلين الحقيقيين للشعب الالماني، موضحاً بان الحلفاء لا يعتقدون بان حكومة الامبراطورية تمثل الشعب حقاً.

وسرعان ما اتخذت الحكومة الالمانية الجديدة الاجراءات الكفيلة باخضاع جميع فعاليات الدولة لسيطرة «الرايخستاغ»، مؤكدة للرئيس «ولسون» في ١٠/٢٠ بأن المانيا شعباً وقادة تطالب بالهدنة، وجاء رد «ولسون» في ١٠/٢٣ بأنه يوافق على النظر في مسألة المفاوضات، لكنه صرح بأنها لن تُجرى مع «سادة المانيا العسكريين الملكيين».

وتحت تأثير تحذيرات «ولسون» الصارمة والحاح الامير «ماكس»، قام الامبراطور بارغام «لودندورف» على الاستقالة. وفي ١٠/٢٦ رحلت الشخصية المهيبة التي بسطت سيطرتها على الجبهة الغربية لعدة اشهر، وقزّمت قادة المانيا السياسيين الى جانب قائده الاسمي «هندنبرغ»، وانتقل «لودندورف»

الى منفاه الاختياري في السويد. وحل محله كتائب «لهندنبرغ» الجنرال «فيلهلم غرونر».

الاداء الحربي الالماني في خلال الحرب العالمية الاولى

هل كانت هزيمة المانيا، واختفاء «لودندورف» المنكوب يعنيان بأن العسكرية الالمانية المؤطرة في مؤسسة كانت شيئاً خرافياً حقاً؟ لنتفحص صفحات التاريخ.

ولنبدأ قبل كل شيء ببعض الاحصائيات العامة، ففي الحرب العالمية الأولى، عبأ الألمان قوات عسكرية بلغ مجموعها ما يقارب ١١ مليون رجل، وتكبدوا ٦ ملايين اصابة تقريباً، في حين عبأ الحلفاء ضد المانيا وحدها نحو ٢٨ مليون رجل، اي ما يزيد على ضعفين ونصف ضعف القوات الالمانية، وبلغت اصابات الحلفاء في المعارك ضد المانيا ١٢ مليون اصابة (عدا الخسائر التي تكبدوها في قتالهم ضد النمسا ـ هنغاريا، وتركيا، وبلغاريا). من هنا فان كل جندي الماني قد قتل او جرح اكثر من جندي واحد من جنود الحلفاء، ولزم الامر خمسة جنود من الحلفاء لاخراج جندي الماني واحد من المعركة. ولكن الالمان كانوا غالباً في موقف الدفاع اكثر مما كانوا في موقف الهجوم، وهذا ما كان «كلاوزفيتس» يدعوه «بالشكل الاقوى من اشكال القتال». وقد بينت التجربة بأن القوات في حال الدفاع تفيد من مزايا مواقعها المحصنة، بما يمكّنها من مواجهة المهاجمين رجلاً لرجل، وايقاع خسائر كبيرة في صفوفهم. ودل بحث اخير على ان هذه المزايا قد شكلت في خلال الحرب العالمية الثانية عاملاً مقداره ١,٣، وقد يكون هذا العامل اقل مما كان عليه في الحرب العالمية الأولى ولكنه بالطبع ليس اقل بكثير. واذا ما سُلّم بأن ١,٣ كان العامل المضاعف لمزية الدفاع امام المهاجم، يكون الالمان على هذا الاساس قد تمتعوا بتفوق في ايقاع الاصابات بنسبة ١:٣.

وثمة طريقة حديثة في التحليل التاريخي للقتال(٢) تسمى القدرة الكمية لقوة ما، في تحقيق اصابات في صفوف الطرف المقابل تسميها «مقدار الفعالية».

(٢) Colonel T. N. Dupuy, *The Quantified Judgment Method of Analysis of Historical Combat Data* (Dunn Loring, Va.: 1976).

وكان الالمان في خلال الحرب يتمتعون بفعالية - هي بالطبع مقياس للكفاءة القتالية - اكبر بكثير من فعالية الحلفاء.وقد ظهر هذا التفوق الالماني في القتال اكثر من مرة، بدءاً من المعارك الأولى في العام ١٩١٤ وانتهاء بالقتال الدفاعي اليائس الاخير في نهاية العام ١٩١٨.

لنأخذ مثلاً زحف الجيوش الالمانية عبر فرنسا في آب (اغسطس) وبداية ايلول (سبتمبر) ١٩١٤، حين طرح الجنرال «فون مولتكه» جانباً معادلة النصر التي ورثها عن خطة «شليفن». فقد نفذ مرؤوسوه من القادة والجنود مهامهم بشكل بارع. وفي طريقها الى «المارن»، تكبدت الجيوش الالمانية السبعة في الغرب (نيّفا و١,٢ مليون رجل) اكثر من ٢٠٠ الف اصابة في معارك الحدود. ولكن الفرنسيين الذين كانوا قد حشدوا في ذلك الوقت اكثر من ١,٣ مليون جندي، خسروا ٣٠٠ الف رجل ودحروا في هزيمة دامية. وبالنظر الى المعارك العنيفة التي دارت في خلال الايام العشرة من تلك الفترة، نرى ان «مقدار فعالية» الالمان ٣,١، بينما كان «مقدار فعالية» الفرنسيين ١,٨ فقط. وكانت جيوش الجناح الايمن الالماني في هذا الوقت تقطع نحو عشرين ميلاً في اليوم وتخوض القتال في الوقت نفسه.

وفي «المارن»، ادى انخفاض براعة «مولتكه» وقدرة «جوفر» على استرداد النشاط، الى ايقاف الالمان بهزيمة حاسمة. وكان الالمان قد وقعوا في اخطاء استراتيجية كادت ان تؤدي بهم الى التهلكة. ورغم ذلك، فقد ظلت الاصابات التي الحقوها بالفرنسيين في خضم تلك المعركة الدموية الضارية اكبر من اصاباتهم اذا كانت وفقاً لقاعدة رجل لرجل في حدود ٥,٨ الى ٥,٢.

ولم يبد الفرنسيون فعالية مرة اخرى في خلال الفترة الباقية من الحرب، والتي كانت تتجاوز الاربع سنوات. وبقي مقدار فعالية الاداء لدى الالمان اكبر من مقدار فعالية الاداء لدى الفرنسيين، سواء كان الالمان في موقف الدفاع او موقف الهجوم، وسواء كانوا يفوقون الفرنسيين عدداً، او كانوا يقلون عنهم عدداً.

ولقد صح الامر نفسه فيما يتعلق بمعارك الالمان ضد البريطانيين. ذلك

ان الالمان الحقوا بالبريطانيين الذين بادروا الى الهجوم في السوم، وآراس وفي معركة الايبر الثالثة ضعف ما تكبدوه من اصابات. وصح الامر ايضاً عندما تولى الالمان الهجوم، كما حدث في معركتي «الايبر» الأولى والثانية، وفي المراحل الأولى من هجمات «السوم» و«ليس» في بداية العام ١٩١٨. ولكن في الهجومين الاخيرين، حين طالب «لودندورف» قوات الصدمة المنتشرة والمرهقة بمواصلة الهجمات العميقة ضد احتياطي الفرنسيين والبريطانيين الجديدين وتحت وابل من قنابل طائرات سلاح الجو الملكي، ارتفع عدد الاصابات الالمانية، في حين انخفض معدل خسائر الحلفاء الى درجة ان النتائج الاخيرة تظهر ان مقدار فعالية الالمان في إيقاع الخسائر خلال الهجومين المذكورين كان يعادل نحو ٩٠٪ فقط من مقدار فعالية البريطانيين.

ويورد الملحق «ج» المثبت في هذا الكتاب الاحصائيات الاساسية - بما فيها مقدار فعالية الأداء لدى كل طرف - لأهمّ خمس عشرة معركة من معارك الحرب العالمية الأولى، عشر معارك منها في الجبهة الغربية وخمس معارك في الجبهة الشرقية. وخلاصة الاحصائيات ان تفوق الالمان في مقدار فعالية الاداء ضد البريطانيين كان بمعدل ١,٤٩ الى ١، وضد الفرنسيين بمعدل ١,٥٣ الى ١ (المعدلان متساويان تقريباً)، وضد الاميركيين في الموز - ارغون، حيث وصفت تقارير استخباراتنا الفرق الالمانية بالفرق «المنهكة المستنزفة»، كان التفوق بمعدل ١,٠٤ الى ١. وقد عدلت هذه الارقام أخذاً بعين الاعتبار مقدار الفعالية المتزايدة للنيران الدفاعية، بحيث انها تشير الى ان الجنود الالمان استطاعوا تجميد ثلاثة حلفاء، سواء كانوا في حالة الدفاع او في حالة الهجوم.

اما احصائيات الجبهة الشرقية فهي غير موثوق بها. وقد تكون حسابات فعالية الاداء غير دقيقة نتيجة لوفرة عدد الاسرى الذين وقعوا في قبضة الالمان وبخاصة في معارك «تاننبرغ» و«البحيرات المازورية» و«غورليتش»، ومعركة الشتاء. فاذا ما استُثني الاسرى الروس تصبح النتيجة تفوقاً المانياً في مقدار فعالية الاداء يعادل ٢,٨ الى ١؛ واذا ما تضمنت الحسابات الاسرى الروس،

يصبح التفوق في مقدار فعالية الاداء ٧,٩ الى ١. وهذا يوضح بأن الجيوش الالمانية قد استطاعت، حين توافر لها متسع من حرية المناورة على جبهة عريضة، ومجال رحب لتوظيف تفوق القيادة على الصعيدين الاستراتيجي والتكتيكي، ان تقف في وجه جيوش روسية تفوقها عددياً بما يتراوح بين ثلاثة وخمسة اضعاف.

وتميل معركة «لودز» الى التأكيد بأن هذا ما حدث بالفعل. ويقتضي الامر التذكر بأنه في نهاية ١٩١٤، جوبه هجوم روسي باتجاه «سيليزيا» و«بريسلاو» في غرب «بولونيا» بهجوم الماني مباشر تقريباً عبر «لودز» وباتجاه «وارسو». فقد حشد «هندنبرغ» و«لودندورف» قوة من ٢٦٠ الف رجل الى الغرب من «لودز» مباشرة. وكان تحت امرة الدوق الاكبر «نيقولا» في شمال «الكاربات» نيف ومليون رجل، اشتبك حوالى ٤٠٠ الف منهم مع الألمان في معركة «لودز»، بينما بقي الـ ٦٠٠ الف الآخرون اما في الاحتياط غير المكلف بمهام، واما منتشرين على طول الحدود في مواجهة اقل من ١٠٠ الف الماني. من هنا، كان الروس قادرين ـ بما كانوا يتمتعون به من تفوق استراتيجي يعادل ٣ الى ١ ـ على إحراز تفوق ميداني يقارب ١,٥ الى ١. ولكن جاءت النتيجة قتالاً مريراً دام اسبوعين، وانتهى الى توقف تكتيكي؛ بل ان الروس اخلوا «لودز» على الفور، وارتدوا الى الخلف مسافة ٣٠ كلم تقريباً باتجاه «وارسو». وبكلمات اخرى، انتزع الألمان من اعدائهم الذين كانوا يفوقونهم عدداً بنسبة ٣ الى ١، نصراً استراتيجياً كبيراً.

وباستطاعة المرء ان يتصور مآل الحرب العالمية الأولى، لو ان خطة «شليفن» نُفذت بأمانة. وحتى لو سلمنا بالتأكيد القائل بأنه كان يمكن لمعركة «المارن» ان تكون نصراً المانياً، فان هذا لا يعني بالضرورة انهيار فرنسا، او قبول بريطانيا ـ في حال انهيار فرنسا ـ بنتيجة اقل حسماً من النتيجة التي انتهت اليها الحروب النابليونية.

وفي تقديمه لكتاب «كاني» الذي وضعه «شليفن»، يوضح الجنرال «فون فرايتاغ ـ لورينغهومن» تقديره الشخصي لما كان يمكن ان يحدث، كما انه يدلي بتوكيد يتعلق بالتفوق العسكري الالماني على الحلفاء. وهو التفوق

الذي قد يظهر ـ بمعزل عن الاحصائيات التي سبق ذكرها ـ غير متوافق مع حصيلة الحرب:

«على الرغم من الرسم الدقيق لعقائد معركة «كاني»، فان الكونت «شليفن» لم يكن تخطيطياً البتة. لقد كان يعلم بأن في الحرب طرقاً عدة تؤدي الى الهدف. ومع ان معرفته لمنجزات تقنية الحرب الحديثة كانت واسعة، ومع انه واظب على المضي قدماً في تطويرتقنية الحرب في جيشنا، فان آراءه في هذا الميدان بقيت تجريبية بشكل دائم، بسبب انعدام امكانية اختبار تقنية اسلحة جديدة على نطاق واسع في زمن السلم. ولم يكن في وسعنا جميعاً قبل الحرب سوى تخيل عملها على الأرض وفي الجو. وقد اثبتت عناصر الاستطلاع والنصر، والمطاردة، وهي العناصر الممهدة للطريق المؤدية الى «كاني»، كما انها مؤدية الى الخرق، اكثر من ذي قبل، وبدرجة اكثر تقدماً، بأنها (اي العناصر) قد اعتمدت على ما كانت تخلفه اسلحة العدو من تأثير. وهذا يوضح جزئياً ـ عدا ما يخص تاننبرغ ـ سبب عدم حدوث «كاني» حقيقية في الحرب العالمية. وكان خطأ عدم حدوث «كاني» في الغرب في مستهل الحرب، يقع بالدرجة الأولى على عاتق القيادة العليا. صحيح ان عملياتنا اتخذت من خطة «شليفن» مرتكزاً، ولكنها كانت في اثناء التنفيذ الفعلي منفصلة عن تلك الخطة، فتحذيره المتواصل الداعي الى جعل مجنبة الجيش اليمنى قوية بقدر الامكان لم يلق حقه من الاهتمام.

«وفي هذا الاتجاه ايضاً، تحقق نذير الفيلد مارشال في مؤلفه (حرب الزمن الراهن). فالحرب الطويلة التي أشعلت قد دمرت الصناعة العالمية. والترتيب الجبهي للقوات قد منح تحقيق الحسم الكامل. والمناشدة التي اطلقها «شليفن» في مؤلفه (عن جيوش الملايين) لاقامة مؤسسة حرب اقوى من اجل المانيا، قد لقيت اهتماماً في وقت متأخر جداً... وغرض الكونت «شليفن» من كتابه (قيادة بينيديك للجيش انطلاقاً من احدث الابحاث)، هو الاشارة الى ما قد يؤدي اليه سوء اختيار القائد العام للجيش...

«ويظهر الفيلد مارشال في كتاباته بأنه كان دائم التوق الى المثالية، من منطلق العارف بأن على المرء ان يصبو الى المثالية لكي يحقق اي شيء

ذي مستوى عال. وقد اصبنا نجاحاً في هذا المجال على الأقل في الحرب العالمية. فمن منشورات أعدائنا، نعرف كم كنا قريبين من النصر النهائي لاكثر من مرة، رغم قلة عددنا. وليس هذا بقليل. وعقيدة الابادة في الجيش الالماني لم تمت، والكونت «شليفن» كان افضل المؤهلين لمتابعة فن «مولتكه» في الحرب. اذ انه استخلص اشد الاستنتاجات التصاقاً بالأمر من الحركة المستمرة لنمو الجيوش ومن الظروف الموسعة للزمن الراهن. فالخوف من الجيوش الضخمة قهرناه بفضله، واظهرنا بحسن استخدامنا للاسلحةبأننا متفوقون على خصومنا الى أبعد حد. فاذا ما كانت الحرب العالمية شرفاً عظيماً لنا، فإن للفيلد مارشال الكونت «شليفن» القسط الاكبر من ذلك الشرف»[3].

لقد كان «شليفن» رجلاً فذاً ذا سجل يصعب معه الا نثني على المديح الذي كتبه فيه «فرايتاغ - لورينغهومن». ولكن يجدر القول، بانه كان من الممكن ان يظل «شليفن» مغموراً لولا المؤسسة التي ترسأها، اي لـولا هيئة الاركان العامة. فقد كان الممثل والناطق باسم التفوق العسكري المؤطر في مؤسسة، ولا بد من الاعتراف بفضل المؤسسة التي سمحت لكفاءته الشخصية ان تترك بصماتها على صفحات من التاريخ.

ورغم ذلك التفوق، فقد ذاقت المؤسسة طعم الهزيمة المرة. واعتقد الحلفاء بانهم وفقاً لمضمون اتفاقية «فرساي» قد حطموا المانيا بمعركة اشبه بمعركة «زاما» او معركة «واترلو». ولكن رغم ضراوة الهزيمة، فان نتيجتها كانت - كما سنرى - اشبه بنتيجة معركة «ميتوروس» او معركة «لايبزغ»(*).

(*) في «ميتوروس» Metaurus (٢٠٧ ق.م.) هُزم «هاسدروبال» (شقيق هانيبال) ولقي مصرعه على يد القنصل الروماني «نيرو»، ولكن «هانيبال» استطاع ان يواصل الحرب وأن يحقق انتصارات الى ان هزمه أخيراً «سيبيون الأفريقي» في معركة «زاما» (٢٠٢ ق.م) وهذا ما حدث ايضاً عندما أنزل الحلفاء بنابليون هزيمة قاسية في «لايبزغ»، حيث انه خاض حملتين ناجحتين أخريين، قبل آن يتمكن «بلوخر» و«ولينغتون» من هزيمته في «واترلو» (١٨١٠).

Schlieffen, *op. cit.*, pp. VIII-IX.

الفصل الثاني عشر: النهوض من الكبوة

غرونر، وسيكت، وهيئة الأركان العامة

غرونر كمساعد لرئيس الاركان العامة

وسط اعاصير التسريح والثورة والثورة المضادة التي هبت على المانيا في خلال الاشهر التي تلت توقيع الهدنة، ظل ضباط الجيش العنصر الصلب الوحيد الذي كان يؤمل أن تلتف امة جديدة حوله، وكانت نواة ذلك العنصر بالطبع، الاركان العامة، التي تولى رئاستها واحسن ادارتها في هذه الحقبة الجنرال «غرونر» الذي كان قد احتل مكان «لودندورف» كرئيس لهيئة العمليات العليا في الاسابيع الاخيرة من الحرب. وبالجمع بين الحزم - الذي تحول في بعض الاحيان الى قسوة - وقوةالاقناع والحجة، استطاع «غرونر»، وضباط آخرون ان يبنوا معاً جيشاً عملياً فعالاً قمعوا به حركات العصيان والتمرد، واستعادوا النظام رغم كل محاولات البلاشفة لمد نفوذهم من موسكو، ولينينغراد، والبلطيق إلى برلين والراين.

لقد كان «غرونر»، بما اجتمعت فيه من مواهب فكرية وعسكرية وادارية، الخليفة الحقيقي «لمولتكه» و«شليفن». وكان عليه بناء جيش جديد وفق نظام اجتماعي جديد من حطام الفوضى والهزيمة، شأنه في ذلك شأن «شارنهورست». وفي حين ان آراءه السياسية الخاصة كانت اقرب على الأرجح الى آراء «كلاوزفيتس» منها الى آراء «غنايزناو» و«بوين»،

و«غرولمان»، فان مقدرته الاكيدة على إقامة روابط بين الجيش والمجتمع تحت توجيه حكومة قوية ومسؤولة، تسمح لنا بمقارنته «بشارنهورست». ولكنه كسلفه الشهير، اصاب نجاحاً جزئياً، وحمل ذلك النجاح الجزئي معه ـ كما في حالة «شارنهورست» ـ بذور الكارثة النهائية.

واستطراداً في المقارنة، لم يكن «غرونر» بروسياً او ارستقراطي المولد. وكان ابوه كأبي «شارنهورست»، ضابط صف في جيش «فورتمبرغ»، الذي التحق به «فيلهلم غرونر» في العام ١٨٨٤ كمرشح ضابط ولما يناهز السبعة عشر عاماً. وبعد ترقيته إلى رتبة ملازم ثان في العام ١٨٨٦، دخل الاكاديمية الحربية في العام ١٨٩٣، ثم الحق في العام ١٨٩٧، اي بعد تخرجه بعام واحد، بالاركان العامة الكبرى في برلين، وطفق يتنقل منذ ذلك الحين وحتى العام ١٩١١ بين مشاة «فورتنمبرغ» والاركان العامة. ثم غدا في العام ١٩١٢ رئيس دائرة من دوائر الاركان العامة الكبرى، ورقي بعد نشوب حرب ١٩١٤ بوقت قصير الى رتبة عقيد، وعين رئيساً لسكك الحديد الميدانية. وقد اظهر من البراعة في هذا المنصب ما جعله يفوز بوسام طالما تاقت النفوس اليه وهو وسام الاستحقاق، الذي لم يكن يمنح الا للذين يبرزون في الميدان او يقومون بأعمال بطولية فذة. كما انه رقي الى رتبة لواء. وفي العام ١٩١٦، اصبح رئيساً للمكتب الحربي في وزارة الحربية، وبالتالي مسؤولاً عن عمليتي الاشراف على الانتاج الصناعي الحربي والتنسيق بين الانتاج الصناعي والمجهود الحربي. وفي بداية ١٩١٨ أسندت اليه قيادة فيلق على الجبهة الشرقية الهادئة، ثم اصبح في آذار (مارس) رئيس اركان مجموعة الجيش التي كانت تحتل اوكرانيا الروسية. ومن هذا الموقع استدعي في تشرين الاول (أكتوبر) ١٩١٨ لأخذ مكان «لودندورف» كرئيس لهيئة العمليات العليا.

وبدأ دور «غرونر» كواحد من الأشخاص الثلاثة الذين كلفوا بالتعاون فيما بينهم لانقاذ المانيا (كان الشخصان الآخران الاشتراكيين المدنيين «إبرت» و«نوسكه»)، بعد وصوله الى بلدة «سبا» في ٢٨ تشرين الاول (اكتوبر) بوقت قصير؛ اي عند وصول الامبراطور الى مقر القيادة العليا للجبهة، ولجوئه الى الجيش هرباً من الضغوطات السياسية التي كانت تطالبه في برلين

بالتنحي. تلك الضغوطات التي تصاعدت بنتيجة رفض الرئيس الاميركي «ولسون» التعامل مع «أسياد المانيا الملكيين والعسكريين». وكان الامبراطور «وليام» قد امل في ان تؤدي تضحيته «بلودندورف» ـ الذي استقال في ١٠/٢٦ ـ الى سكوت «ولسون» عنه. ولكن كان من الواضح امام جميع زعماء المانيا السياسيين ان «ولسون» كان يرغب في تنحية الامبراطور أيضاً. وحين وجد الامبراطور ان اقطاب الرايخستاغ يطالبونه بالتنازل عن العرش، وان الامير «ماكس» يؤيدهم في ذلك، غادر «برلين» باحثاً عن الحماية بين جنرالاته المخلصين، ووجد مبتغاه بما لقيه من مؤازرة وتعاطف عند «هندنبرغ» و«غرونر» اللذين صعقتهما فكرة تنازل الامبراطور عن العرش، فأحجما عن دفع الامبراطور اليها. واصدق ما يدل على موقف «هندنبرغ» من الامبراطور اشارته اليه في مذكراته بآيات التعظيم «ارحم قيصر، وملك، وسيد».

الثورة في المانيا

ولكن سرعان ما بدأ «غرونر» يوقن بأن ثمة ثورة تستعر داخل المانيا. فالمعاناة الاجتماعية الطويلة انقلبت الى انتفاضة بفعل الجوع، وهزيمة الجيوش، ودعايات البلاشفة وانصارهم. وكان «غرونر» قد تعرف في خلال توليه الاشراف على الانتاج الحربي في بداية الحرب على الزعيمين الاشتراكيين المعتدلين «فريدريش ايبرت» و«فيليب شادمان» وشعر بالتقدير تجاه زعيمي اتحاد العمال هذين، سيما بعد ان اصبحا عضوين في الحكومة الجديدة، وتأثر بمطالبتهما بضرورة تنازل الامبراطور عن العرش لمصلحة المانيا.

ولم يلبث الوضع ان شهد في ١٩١٨/١١/٤ عصيان الاسطول في قاعدة «كييل» البحرية. فحين صدرت الاوامر بالابحار والبحث عن الاسطول البريطاني، رفض البحارة الاوامر وفرضوا سيطرتهم على القاعدة البحرية. ثم على ميناءي «هامبورغ» و«بريمين» وفي ١١/٧ اندلعت الثورة في «ميونيخ» وأعلنت «بافاريا» جمهورية سوفييتية.

وكانت الثورة التي ارادها «ايبرت» و«شايدمان» ثورة اشتراكية ديموقراطية

سلمية، ولكن هذه الثورة كانت مهددة من قبل جماعات اكثر تطرفاً تدعى الاشتراكيين المستقلين والسبارتاكيين وهي جماعات متأثرة بأفكار الثورة الروسية البلشفية ومؤيديها. وهنا، حث الزعيمان الاشتراكيان المعتدلان «غرونر» على دفع «وليام» الى التنحي وانقاذ العرش. وحاول «غرونر» هذه المرة اقناع «هندنبرغ» بذلك، ولكن الخادم الامبراطوري الامين كان لا يزال يعارض فكرة التنحي.

تنحي الامبراطور

في ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) اوضح «غرونر» للمارشال «هندنبرغ» بأن نار الثورة تمتد الى جميع انحاء المانيا. وكان من الجلي وقتذاك بأن الجيش لم يكن في وضع يمكّنه من إخماد الثورة الداخلية، واذا ما حاول ذلك، سيجد صعوبة بالغة في حماية الجبهة الغربية المتداعية وخوض حرب أهلية في آن معاً. وأيقن «هندنبرغ» أخيراً بأن المانيا سائرة نحو التفكك. وبعد ليلة لم يغمض له فيها جفن، استعد لابلاغ «وليام» بأن عليه التنازل عن العرش. بيد انه حين وقف و«غرونر» في حضرة الامبراطور، خانته الجرأة، فترك الكلام لـ «غرونر»، الذي اوضح بأسلوب ملتو بأن على الامبراطور التنازل عن العرش. وعندها أكد «هندنبرغ» ببالغ الأسى ما قاله «غرونر»..

وفيما كان الامبراطور الحزين يحاول اتخاذ قرار ما، تولى الامير «ماكس» زمام الامور معلناً بأن «وليام» وولي العهد قد تنازلا عن عرشي المانيا وبروسيا، وبأنه شخصياً استقال من المستشارية. بحيث يتسلم «ايبرت» منصب المستشار، ويقوم بتعيين وصي كي يحكم بالنيابة عن الوريث الصغير. وتوسم الامير «ماكس» و«إيبرت» بذلك انقاذ الحكم الملكي، الذي كان كل منهما يجله ايما تبجيل. غير ان محاولتهما جاءت متأخرة. فالسبارتاكيون استولوا على القصر الامبراطوري وأعلنوا جمهورية سوفييتية. ورد الاشتراكيون المعتدلون من الرايخستاغ باعلان جمهورية المانية اشتراكية، وبشيء من العفوية، وفي ظل انهيار الجيوش والحياة الاقتصادية، اصبحت المانيا جمهورية.

وبقي على «هندنبرغ» ان يبلغ الامبراطور بضرورة مغادرة المانيا، لانه

لم يعد آمناً في بلده. ومرة اخرى القى الفيلد مارشال «هندنبرغ» عبء المهمة الصعبة على كاهل «غرونر». وبعد ساعات من التردد، تقبل «وليام» ما ليس منه مفر. وقام في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) بتعيين «هندنبرغ» خلفاً له كقائد اعلى للقوات المسلحة الألمانية، فأصبح رئيس هيئة العمليات العليا و«غرونر» بصورة آلية الرئيس الفعلي للاركان العامة، رغم انه لم يطرأ اي تبدل على رتبته او على مهامه.

«هندنبرغ» والاستقرار

وفي ذلك المساء أيضاً اتخذ «هندنبرغ» القرار الخطير الذي يخدم الجمهورية الجديدة. فبعد ان اطلعه «غرونر» على شروط الهدنة التي تقدم بها الحلفاء، والتي كانت شروط المظفر المفروضة على الجيش المهزوم، رأى و«غرونر» بأن لا خيار امامهما سوى القبول، وقاما بنقل موقفيهما الى «ايبرت». كما انهما كانا يعلمان بأن بقاء «هندنبرغ» قائداً أعلى، يتيح الفرصة لتسريح الجيش بشكل منظم، وتحاشي انهيار معنويات الشعب دفعة واحدة، كما انه يتيح المجال للحكومة الجديدة لكي تخمد الانتفاضات الشيوعية الآخذة في الانتشار.

وكان العديد من الضباط الألمان يحاولون معرفة الجهة التي سيمنحونها اخلاصهم، وتقرير موقفهم من الجمهورية، وذلك خيار لم تألفه تقاليدهم الملكية. وفكر «هندنبرغ» في انه كان باستطاعته، كما كتب فيما بعد، «ان أساعد الكثير من افضل الضباط على اتخاذ القرار المناسب في هذا النزاع بمواصلة السير في الطريق الذي دفعتني اليه رغبة الامبراطور، وحبي للوطن وللجيش، وشعوري للواجب». وكان ما قام به مثالا حاسماً اذ قررت غالبية جسم الضباط الألمان على مضض، بأن ولاءها لألمانيا قد تغلب على نفورها من الجمهورية، وحافظ «هندنبرغ» والضباط بذلك على تماسك الجيش في ظل هزيمته. ولكن الكثير من الضباط الموالين للملكية وجهوا الى «غرونر» (واستثنوا هندنبرغ) تهمة العمل على ابعاد مليكهم وامبراطورهم.

لقد كان «غرونر» يعتقد على الارجح بأنه سيكون كبش المحرقة في المستقبل. اما في ذلك الحين، فكانت امور اخرى اشد الحاحاً تدور في

رأسه. فقد كان عليه وعلى هيئة الاركان وضع خطط لانسحاب الجيش الالماني من فرنسا وبلجيكا، في خلال الوقت القصير الذي كانت تسمح به الهدنة. وكان «غرونر» في الوقت ذاته قد ورث ـ بصفته رئيساً فعلياً للاركان العامة ـ مسؤولية التخطيط لأمن المانيا، وأخذ المسؤولية على محمل الجد. اذ لم يبق شيء سوى الامة، التي كان وجودها مهدداً بقوى داخلية، بالاضافة الى قوى الحلفاء التي كانت تتقدم نحو الحدود طلباً للثأر.

اتفاقية غرونر ـ ايبرت

في مساء ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ومن مكتبه في فندق «بريتانيك» في بلدة «سبا»، رفع «غرونر» سماعة هاتف خاص، واتصل مباشرة وعن طريق خط خاص بمكتب المستشار في برلين. وكان «لودندورف» قد استخدم الخط من قبل لفرض سيطرته الحقيقية على المانيا لمدة سنتين تقريباً، كما استخدمه «غرونر» في عدة مناسبات للتحدث الى الامير «ماكس» امير «بادن»، والى «فريدريش ايبرت»، وذلك حين اشار على الحكومة بقبول شروط الهدنة. وكان غرض «غرونر» من الاتصال الهاتفي هذه المرةمختلفاً، فلقد دفعه الى ذلك رحيل الامبراطور، ودفاع الجمهورية الجديدة عن وجودها في برلين، وكون «هندنبرغ» القائد الأعلى الجديد للجيش. فألمانيا قد عانت بما فيه الكفاية، واصبح من الواجب حمايتها من اهوال الثورة والحرب الاهلية اللتين كانتا تجتاحان روسيا آنئذٍ. ولم يكن ذلك ممكناً الا ببقاء الحكومة الشرعية والجيش، وبإقامة رابط جديد بينهما، يختلف عن الرابط الشخصي الذي كان يتمثل بقسم الضباط امام الملك والامبراطور.

ولحسن الحظ، كان «إيبرت» في مكتبه لحظة اتصال «غرونر»، فردّ على المكالمة فوراً. ولم يُضع «غرونر» لحظة واحدة، وعرض على «إيبرت» دعم الجيش للحكومة، مؤكداً له بان القيادة العليا ستتمكن من اعادة الجيش الى المانيا بانتظام. وفهم «إيبرت» بأن وراء عرض «غرونر» امراً ما، فسأله ماذا يريد الجيش لقاء دعمه للنظام الجديد. فأجابه «غرونر» بأن الفيلد مارشال ـ أو على الأصح القيادة العليا ـ تتوقع بأن تقوم الحكومة بمساعدة الجيش على الاحتفاظ بانضباطه، وذلك بتأمين الامدادات في خلال

الانسحاب العاجل من فرنسا وبلجيكا، مع العمل قبل كل شيء على التصدي للخطر البلشفي الذي يحدق بالأمة، واستخدام الجيش كأداة لهذا التصدي.

وعجل «ايبرت» بكل سرور في قبول هذه الشروط المبطنة من اجل نيل ولاء الجيش. وقام وفقاً لمطلب «غرونر» بإرسال برقية الى مقر القيادة العليا للجبهة في «سبا»، يؤكد فيها تفهمه للموقف، ويأمر الجنود باطاعة ضباطهم، والحفاظ على الانضباط «تحت كافة الظروف»، ويحث مجالس الجنود على التعاون مع الضباط ومع القيادة العليا «للحؤول دون الفوضى والتمرد».

اسطورة «الطعن في الظهر»

ولكن بعد مضي شهر، ارتكب «إيبرت» ذو العقل الراجح حماقة إبان محاولته تجسيد الروابط القائمة بين الحكومة والجيش، رغم انه من غير المستبعد ان «إيبرت» لم يكن يعي ما سوف تجره محاولته عليه وعلى المانيا وعلى العالم بأسره. فكخطوة من خطوات حملته البارعة للحفاظ على شرعية حكومته المزعزعة وشعبيتها، امر في ١١ كانون الاول (ديسمبر) بإقامة عرض عسكري في برلين، متحدياً ما تضمنته الهدنة من موافقة متبادلة على انهاء الحرب، مفسراً هذه الموافقة على انها ليست اتفاقية استسلام، في حين انها كانت في الواقع كذلك. وتوكيداً لتفسيره، وقف في الارتال العائدة من فرنسا، والتي احتشدت امام المنصة الرئيسية عند بوابة «براندنبرغ» بعد مسيرة مؤثرة، وألقى خطبة استهلها بالكلمات المنذرة بالسوء: «أحييكم، يا من عدتم من ارض المعركة غير مهزومين».

وهكذا مهد «ايبرت» بكلمته للاسطورة القائلة بأن الجيش الألماني لم يهزمه الحلفاء ، وإنما «طعن في الظهر» من قبل عناصر غير مخلصة في الداخل قامت بجر البلاد الى سلام غير مؤات. وفي حين ان «ايبرت» تنبه من دون شك الى مضامين كلماته، وافترض في اغلب الظن بأن جزءاً من كلماته سوف ينسب الى الشوفينية المبررة، والجزء الآخر الى محاولة القاء اللون على السبارتاكيين وغيرهم من الشيوعيين، فقد كانت هنالك مضامين اخرى. فبما انه كان على رأس الحكومة المدنية يوم ان قبلت المانيا اتفاقية الهدنة،

وانه صادق بنفسه على الاتفاقية، فانه كان يحمل نفسه بعضاً من مسؤولية خيانة الجيش «غير المهزوم»، ويعفي القيادة العليا (وهيئة الاركان العامة) من اية مسؤولية تجاه هذا السلام، فأسطورة «الطعن في الظهر» هذه كانت تحمل في طيّاتها امكانية الاسهام في شحذ رغبة المانيا للقتال مجدداً بعد عقدين من الزمن.

الأركان العامة تلملم الأشلاء

وفي حين ان «غرونر» وضباط الاركان العامة قد اعجبوا من دون ادنى شك بكلمات «إيبرت»، فانه من المشكوك فيه ان يكون اي منهم قد تنبأ بتأثيراتها البعيدة، رغم ان كثيراً من الضباط الألمان قد رحبوا بها. ذلك أنهم كانوا منهمكين في وضع الترتيبات التي ادت الى عودة الجنود الذين شاركوا في الاستعراض، والملايين من رفاقهم من جبهات القتال. وحالما بدأ الانسحاب من الراين وفقاً للخطط الموضوعة، انتقلت القيادة العليا من «سبا» الى المانيا، وتوقفت، في بادىء الامر في «بادهومبورغ»، ثم اقامت مقراً دائماً في «كاسيل». وهناك انغمس «غرونر» والاركان العامة على الفور في معضلات التخطيط للمديين القريب والبعيد. وكانت هنالك خمس معضلات، اثنتان منها ادارية وتنظيمية، واثنتان عملياتية، وواحدة نظرية.

وكانت المعضلة التنظيمية مؤلفة من شقين: الشق الأول اعادة بناء جيش فعّال، رغم ان الجنود الذين ارهقتهم الحرب، والذين حافظوا على انضباطهم حتى حدود الراين، قد تفرقوا حالما غدوا في امان في وسط المانيا. والشق الثاني ضمان استمرارية وفعالية الاركان العامة بدون نقصان.

وكانت في مقدمة المعضلات العملياتية، توفير الدعم الذي طلبته الحكومة، ووعد به «غرونر»، لاعادة النظام واقامة سلطة مركزية كاملة في المانيا. اما المعضلة العملياتية الثانية فكانت تتمثل في ضمان امن الحدود الشرقية للجمهورية الالمانية الجديدة على نحو يقي الامة من خطر عدوان بولوني محتمل، ويستجيب لمطالب الحلفاء المرتبكة والمربكة.

وتمثلت المعضلة النظرية في إجراء تقويم لتجارب الحرب الاخيرة،

بحيث يمكن استخدام الجيش الالماني بأكبر قدر من الفعالية للقيام بمهام توفير الامنين الداخلي والخارجي.

ولقد تولت الاقسام العملياتية والأقليمية في الاركان العامة معالجة المعضلات العملياتية والنظرية، حيث لعب العقيدان «فلهلم هييه» و«ارنست هاسه» دورين هامين في هذا المجال. أما أولى المعضلات الادارية، فكانت تتعلق بالاحتفاظ بقوة عسكرية فعالة يمكن ان تكون اساساً لجيش جديد - فأنشأ «غرونر» مجموعة عمل خاصة مؤلفة من ثقاة ضباط الاركان العامة، ومن بينهم الرائد «فرنر فون فريتش»، والرائد «كورت فون همرشتاين - ايكورد»، والرائد البارون «لودفيغ فيلهلم فون فيليسين»، والنقيب «كورت فون شلايخر».

اما «غرونر»، الذي سبق له ان عمل معلماً في الاكاديمية الحربية قبل الحرب، فقد كان مهتماً اهتماماً خاصاً بالتخطيط لاستمرارية الأركان العامة. وفي الوقتَ الذي كانت الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع تنفذ على يد مجموعة العمل في الشعبة المركزية من هيئة الاركان، كان «غرونر» على ما يبدو قد اولى تلك المعضلات الكثير من العناية الشخصية، قبل ان يضطر الى توجيه انتباهه الى مسائل اخرى.

وعلى الرغم من الهزيمة، كانت الاركان العامة فخورة بما سجلته في اثناء الحرب العالمية الأولى من حُسن ضبط، وتوجيه، وادارة في صفوف الجيوش التي ابلت بلاءً حسناً في ساحات المعارك، بدءاً من القنال الانكليزي وانتهاء بشواطىء البحر الاحمر. وكانت دواعي الافتخار كثيرة: منها اداء الهيئات الصغيرة والبارعة لاركان الجيوش، والفيالق، والفرق، والفعالية القتالية المتفوقة المتماسكة لكافة الوحدات الالمانية، وتفوق العدد الكبير من القادة الميدانيين الالمان، الذين بزوا قادة الخصوم في جميع مستويات القيادة - الجيش، الفيلق، الفرقة، الفوج، السرية - والمثير في الامر انه ليس هناك من بين ما يقارب المئة من الجنرالات الالمان (ناهيك عن الامراء الملكيين) الذين تولوا قيادة الجيوش، ومجموعات الجيوش، او ما

يشابهها من القيادات المستقلة، من لم يعمل من قبل ضمن هيئة الاركان، سوى ضابط واحد هو الجنرال «كلوك».

ولكن ماذا فعلت الحرب بالمؤسسة؟

حين اندلعت المعارك الأولى، اغلقت الاكاديمية الحربية ابوابها، وعهدت الى الطلبة الذين كانوا بانتظار متابعة السنتين الثانية والثالثة من مناهجهم مناصب في هيئة الاركان العامة العليا، او في هيئات اركان الجيوش والفيالق، وكان الطلبة يشغلون في الغالب أماكن الضباط الذين كانوا قد انتزعوا من مواقعهم لتسليمهم وظائف حساسة في هيئة اركان او قيادة الفيالق والفرق المعبأة حديثاً. وكان كلما استحدثت فرق، وفيالق، وجيوش، وكلما تكبد ضباط اركان القوات العامة نصيبهم من الاصابات، يزداد النقص الخطير في صفوف ضباط الاركان العامة المدربين والمؤهلين. وكانت القيادة تخفف من حدة ذلك النقص جزئياً بتعيين ضباط كانوا قد تخرجوا في الاكاديمية الحربية، ولكن لم يسبق لهم ان عملوا ضمن الاركان العامة.

ومع اسَتفحال المواقف المحرجة في جبهات القتال، واستمرار الاستنزاف في انقاص عدد ضباط الاركان العامة، اصبح من الضروري ابتكار نظام تكميلي خاص بالاركان العامة. فكان الضباط الشبان المرموقون الذين تحلوا بالفكر والشخصية، يشجعون على تقديم طلبات للانضمام الى الاركان العامة. وكانت طلباتهم تشفع بتوصيات من قادتهم المباشرين، وتدقق سجلاتهم من قبل هيئات اركان اعلى، ومن ثم يُدعون الى امتحان سهل نسبياً. (كانت الاولوية للضباط الذين انهوا سنة دراسية او سنتين دراسيتين في الاكاديمية الحربية في العام ١٩١٤) ثم يُعين من وقع عليهم الاختيار في مراكز الأركان العامة الميدانية، حيث كان عليهم ان يخدموا فترة تمرين تدوم تسعة اشهر، ليتم اختيار نصف عددهم في اغلب الاحيان، وتعيينهم في هيئة الاركان العامة على اساس المفاضلة بين تقارير القادة.

وكان العديد من ضباط الاركان العامة، يُقلقهم واقع ان هؤلاء الضباط الجدد الملحقين بالاركان العامة لم يجر تدريبهم وتقويمهم وفقاً لمقاييس عامة، وبالتالي لم يطلعوا على كيفية معالجة المعضلات العسكرية من منطلق

مفاهيم مشتركة، ووفق الاساليب التي كان يكمن فيها سر نجاح الاركان العامة. وفي بداية العام ١٩١٧، اعد رئيس اركان مجموعة جيش ولي العهد دورة تدريبية مكثفة مدتها ثلاثة اسابيع للمتقدمين الى الاركان العامة للمجموعة في سيدان. وجاءت النتائج مرضية بحيث رُفعت توصية الى الدائرة المركزية في مقر القيادة العليا للجبهة تطالب بتطبيق هذا البرنامج على مستوى الجيش، تحت اشراف القيادة العليا للجبهة وادارتها. وسرعان ما تمت الموافقة على التوصية، وعُقد في الفترة الواقعة بين تموز (يوليو) ١٩١٧ وايلول (سبتمبر) ١٩١٨ ما مجموعه ثلاث عشرة دورة، تراوحت فتراتها بين ٣ و٤ اسابيع. واشترك في هذه الدورات نحو ٥٠٠ ضابط. وفي نهاية العام ١٩١٧ غدا اتمام دورة «سيدان» - الى جانب فترة التمرين - شرطين اساسيين للانتقال الى هيئة الاركان العامة.

وبهذه الطريقة، جمعت الثقافة المنهجية وخبرة الاركان في القتال العملي الى الامتحان التقليدي وعمليات الاختيار، لضمان ديمومة المستويات العليا للاركان العامة، على الرغم من مقتضيات الحرب. واضحت مشكلة «غرونر» في هذا الوقت العودة الى اجراءات زمن السلم من دون تخفيض هذه المستويات.

ولم تسمح متطلبات المعضلتين العملياتيتين - الامن الداخلي والتهديدات الآتية من الشرق - لـ «غرونر» بأن يكرس ما كان يرغب فيه من وقت لاجراء تقويم مبدئي لدروس الحرب او للتخطيط لاعادة الحيوية والنشاط الى الاركان العامة. وحين توافر له الوقت الكافي لذلك فيما بعد، كانت شروط معاهدة «فرساي» قد بدلت كلياً من طابع معضلات المانيا العسكرية، رغم ان المتطلبات قد ظلت ملحة.

انحطاط الجيش الالماني

تصدرت هموم الامن الداخلي الأحداث بعد وقت قصير من عرض برلين، الذي جرى في ١١ كانون الاول (ديسمبر). فقد نُمي الى العناصر الراديكالية واليسارية - التي كان يقودها السبارتاكيون الشيوعيون والاشتراكيون المستقلون - بأن الحكومة قد استدعت جنوداً الى برلين. فقامت هذه العناصر

عبثاً بمحاولة السيطرة على نقابة العمال وعلى المجالس الاجتماعية المنعقدة في برلين من ١٢/١٦ الى ١٢/٢٠، ظناً منها بانها مدعومة بموجة عارمة من النقمة الشعبية. ولدى فشل المحاولة، قرر اليساريون المتطرفون اللجوء الى العنف. وفي عصر ١٢/٢٣، احتلت جموع مؤلفة في معظمها من بحارة فرقة الشعب البحرية عدة مبان عامة، بما فيها القصر الامبراطوري القديم، وقامت بتطويق مبنى المستشارية. كما سيطرت على مركز اتصالات الحكومة، عازلة بذلك المستشارية عن الاتصالات الخارجية، او هكذا خيل اليها.

غير ان «إيبرت» كان لا يزال يملك خطاً سرياً يصله بمكتب «غرونر». فقام بالاتصال برئيس هيئة العمليات العليا «غرونر» ليطلعه على حقيقة الازمة القائمة في برلين، فبادر «غرونر» على الفور الى اصدار اوامر الى الجنرال «ارنولد فون كليس» قائد القوات العسكرية في منطقة «بوتسدام - برلين» لاخماد الانتفاضة.

وقد كان لحل الجيش في تلك الآونة اثر كبير في تخفيض عدد الجنود الفاعلين تحت امرة «كليس» نحو الف رجل فقط. وكان من الجلي ان القيادة العليا للجبهة لم تكن تعلم شيئاً عن الوضع المتردي الذي وصلت اليه قيادة «كليس»، ولم يكن «لكيس» قد حرك ساكناً لابلاغ «غرونر» عن الوضع. وليس من الواضح ما اذا كان السبب عائداً الى عدم تحققه من ضعف قيادته ام الى خوفه من الكشف عن هذا الضعف. وفي اية حال، ارسل «لكيس» كل من استطاع من جمعهم من رجال الى القصر الامبراطوري. وفيما رجاله يقتربون من انجاز مهمتهم ضد البحارة الاقل تنظيماً. احتشدت جموع من سكان «برلين»، بتوجيه من زعماء يساريين، وهجمت على الجنود من الخلف. وفي الوقت نفسه تدفق جزء من الجماهير - وكان من بينها عدد كبير من النسوة - الى ساحة القصر، متحدياً الجنود بأن يطلقوا النار، ونشأ من جراء ذلك وضع بالغ الصعوبة، دفع الغالبية منهم الى التخفي بين الجماهير، في حين رافقت حفنة من الجنود الضباط الذين كان يغمرهم الاشمئزاز، الى «بوتسدام»، للابلاغ عن هزيمة «لكيس».

ولا ريب في ان ذلك يعد انحطاطا في تاريخ الجيش الالماني او

الجيش البروسي. ولكن اذا كان «غرونر» وصحبه قد احسوا بالارتباك لدى مشاهدتهم العرض المُخزي الذي قام به الجيش عشية عيد الميلاد في برلين، فإن تدني مستوى جنودهم لم يكن مفاجأة لهم، كما جاء على لسان بعض المؤرخين. ففي الواقع، كانت الاحوال في دول البلطيق قد بينت ضعف الجيش العامل والحاجة الملحة الى قوات يعول عليها. وكانت مجموعة «غرونر» الخاصة المكلفة بدراسة اوضاع الجيش، قد اقترحت اتخاذ اجراء مؤقت لتأمين قوات فاعلة ومؤهلة على جناح السرعة. وكان ذلك الاقتراح وليد التطورات غير المتوقعة في منطقة البلطيق. او وليد التقدير المستقل للمجموعة الخاصة. وكان الاقتراح يقضي تخويل نخبة من القادة تشكيل وحدات مستقلة تضم مجندين متطوعين من بين مئات آلاف من المحاربين العاطلين عن العمل، على ان تقوم الحكومة بتأمين المعدات والمؤن والرواتب لتلك الوحدات.

ظهور الفيالق الحرة

لقد نسبت فكرة الفيالق الحرة، كما غدت تدعى، الى عدة اشخاص. ويميل الاعتقاد الى ان صاحب الفكرة، التي طرحت في تشرين الثاني (نوفمبر)، هو الرائد «فون فيليسبن»، احد اعضاء مجموعة الدراسة الخاصة. ولكن من غير المستبعد ان تكون الفكرة قد استوحيت من عملية انشاء المجموعات شبه العسكرية المحنية، التي كانت تتشكل في ذلك الوقت بالذات، وعلى نحو عفوي، من الجنود المسرحين في جميع انحاء المانيا. وكان المحاربون القدامى قد شكلوا، بمبادرة خاصة منهم أو برعاية من اصحاب الاطيان او التجار الاغنياء، مجموعات امن لحماية الارواح والممتلكات من عصابات الشيوعيين، التي خرجت على القانون وظهرت في شتى ارجاء المانيا في بداية تشرين الثاني (نوفمبر) ومنتصفه. وقد شُكل العدد الأكبر، من تلك المجموعات المحلية في كانون الاول (ديسمبر) وفي الشهور التالية. وليس من المهم معرفة الفكرة التي اوحت بالأخرى. وهل كان انشاء المجموعات شبه العسكرية قد اوحى بانشاء الفيالق الحرة ام لا. والمهم هو ان الوحدة الأولى التي تلقت رعاية الحكومة ودعمها، قد تشكلت في منتصف كانون الاول (ديسمبر) على يد الجنرال «جورج ميركر» في «زالتسكوتن» كما

شُكلت عدة وحدات مشابهة اخرى في برلين في نهاية كانون الأول (ديسمبر). ووضعت تلك الوحدات تحت قيادة الجنرال البارون «فولتز فون لوتفيتس» الذي كان قد عين رئيساً لقيادة برلين العامة خلفاً للجنرال «فون لكيس»، بعد وقت قصير من كارثة عشية الميلاد أمام القصر الامبراطوري.

وكان المحاربون الذين التحقوا بوحدات الفيالق الحرة، إما من العاطلين عن العمل كنتيجة من نتائج انهيار اقتصاد المانيا المهزومة، او من الذين آثروا العودة الى الحياة العسكرية التي الفوها خلال سني الحرب. وكانت نظرة اولئك الى الخدمة العسكرية مختلفة الى حد بعيد عن نظرة الجنود النظاميين الذين تواروا عند اول اشارة للتسريح واول بادرة من بوادر انهيار المعنويات، ذلك لان الاولين متطوعون يخدمون تحت امرة قادة يعرفونهم ويثقون بهم. ومن سخرية المفارقات ان كثيراً من متطوعي الفيالق الحرة كانوا جنوداً لا يعتمد عليهم في نهاية العام ١٩١٨. فقبل اسابيع قليلة، كانوا دائمي التذمر من الانضباط، ويبذلون ما في وسعهم للتهرب من التدريب او من مشقات الخدمات الداخلية في الوحدات. وها هم الآن يرحبون بالانضباط الصارم المطبق في الحرس البروسي (الذي كان يضم بعضاً منهم)، ويقبلون بطواعية وشغف على أعمال التدريب من تمارين ميدانية ومناورات ورماية، علماً بأنهم لم يكونوا بحاجة كبيرة الى التدريب لاكتساب الفعالية العسكرية العالية. خاصة وانهم رجال قاتلوا بمهارة ملحوظة في جميع انحاء اوروبا، الى ان جرفهم الحلفاء بتفوقهم في الطاقة البشرية.

عمليات ما بعد الحرب في دول البلطيق.

كانت هيئة اركان «غرونر» تخطط قبل كارثة ليلة الميلاد لانتداب وحدات الفيالق الحرة للخدمة في دول البلطيق، وبخاصة في «لاتفيا». ومن سخرية الامور، ان هؤلاء الرجال قد اعدوا للخدمة القتالية وهم خارج المانيا، عملاً بالشروط التي فرضها الحلفاء المنتصرون على المانيا. وينص جزء من البند الثاني عشر من اتفاقية الهدنة على ما يلي: «ستقوم كل القوات الالمانية الموجودة حالياً في المناطق التي شكلت جزءاً من روسيا ما قبل الحرب، بالانسحاب الى داخل حدود المانيا، (أي الى حدود ١٩١٤/٨/١)،

على ان يتم الانسحاب حالما يرى الحلفاء ذلك مناسباً، واستناداً الى الوضع الداخلي لهذه المناطق».

وكانت المنطقة التي لم يرد الحلفاء ان ينسحب الألمان منها قبل اتخاذ ترتيبات للدفاع، هي منطقة البلطيق التي كانت تضم الاقاليم الروسية سابقا «استونيا» و«لاتفيا»، و«ليتوانيا»، وتلك الاقاليم التي كان الالمان قد ضموها بمقتضى اتفاقية «بريست - ليتوفسك». ولكن الهدنة كانت قد الغت الاتفاقية، وكان معظم الجنود الالمان المنهكين في اقاليم البلطيق مشتاقين الى العودة الى الوطن، رغبة في التسريح. وحين أمروا بالبقاء، اعلنوا العصيان. وكانت الحكومة السوفياتية ايضاً قد نقضت اتفاقية «بريست - ليتوفسك» بعد عقد الهدنة مباشرة، وبدأت في ارسال قوات الى اقاليم البلطيق، رغم ان تقدمها تعرض للتأخير بنتيجة للمقاومة المحلية من جانب شعوب البلطيق.

لقد كان عصيان القوات الالمانية في منطقة البلطيق اول دليل يكشف امام «غرونر» وهيئة اركانه عن عدم اهلية جيشهما وكان اهم حافز دعا الى تبني مفهوم «الفيالق الحرة» مطالب الحلفاء التي الحت على وجوب قيام المانيا بالعمل على تطبيق البند الثاني عشر من الهدنة، بحيث يتوجب على القوات الالمانية الحد من تمادي السوفييت في دول البلطيق، الى ان تتمكن حكومات الدول الصغيرة الثلاث من الدفاع عن انفسها.

ولا عجب في ان الطلب الى المانيا بعد التهديد البلشفي خارج منطقة البلطيق، قد عنى لبعض اعضاء هيئة الاركان العامة سانحة لاعادة ضم تلك الاقاليم الى المانيا. وبالرغم من ان «غرونر» كان اوعى من ان يصدق بان الحلفاء سيسهمون بذلك، فلا بد ان تكون الفكرة قد راودته. ولكن بغض النظر عن الامنيات والدوافع، فان المطلوب كان واضحاً: وهو ان تقوم المانيا بارسال قوات يعول عليها للاحتفاظ بتلك الاقاليم، وبطرد السوفييت منها اذا كان ذلك ممكناً. وفي بداية كانون الثاني (يناير) بدأت وحدات «الفيالق الحرة» تحركها الى «لاتفيا»، وقام «غرونر» في وقت لاحق من الشهر نفسه، بتعيين الجنرال الكونت «روديغر فون در غولتس»، القائد السابق للقوات الالمانية في فنلندا، قائداً لجيش الفيالق الحرة المحتشد في جنوب لاتفيا وليتوانيا وبالقرب

من ليباو. وكان رئيس اركان هذا الجيش اللواء «هانس فون سيكت»، الذي عاد مؤخرا من تركيا. وقد مارس «سيكت» قيادة «الشمال» من مقر القيادة العليا في «كوينغزبرغ»، في حين تولى «فون درغولتس» بنفسه القيادة الميدانية لوحدات الفيالق الحرة في لاتفيا وليتوانيا.

وبعد نجاحه في اخراج السوفييت من القسم الاكبر من لاتفيا، طالب «فون درغولتس» في نهاية شباط (فبراير)، بإعادة بسط سيطرة المانيا على أقاليم البلطيق، مستفيداً من فرصة انشغال القيادة العليا الالمانية بالاضطرابات الداخلية. وكان ذلك، كما توقع «غرونر»، غير مقبول لدى الحلفاء الذين سرعان ما ارغموا القيادة الالمانية على ايقاف تدفق المؤن والامدادات الى «فون درغولتس»، الامر الذي مكن القوات المحلية، مع مساعدة فرنسية وبريطانية، من الانتصار عليه عمليا. وفي نهاية ١٩١٩ تراجعت وحدات الفيالق الحرة الى بروسيا الشرقية، حيث تم تسريح معظم افرادها.

وكان «غرونر» في بداية العام قد نقل القيادة العليا للجبهة من «كاسيل» الى «كولبرغ» المطلة على شواطىء «بوميرانيا» في البلطيق، وذلك لكي يتسنى له الاشراف على حملة «لاتفيا» عن كثب. ولكن سرعان ما اجبرت الاحداث في المانيا هيئة الاركان العامة على تركيز اهتمامها باتجاه الجنوب. ولفهم تلك الاحداث تجدر العودة الى اسبوع الميلاد من العام ١٩١٨، اي قبل انتقال القيادة العليا للجبهة الى «كولبرغ».

نوسكه والسلطة المدنية

عقب هزيمة الجيش عند القصر الامبراطوري، مكثت «برلين» في حالة من اللاحسم، حيث ان جزءا منها كان تحت سيطرة السبارتاكيين وحلفائهم، في حين كان جزء آخر يتساءل عن موعد نزول ضربة الثورة الثانية على العاصمة. وفي خضم هذا الموقف المتفجر خطرت في بال «ايبرت» فكرة مؤاتية. فخلال الاسبوع الاول من تشرين الثاني (نوفمبر)، وبعد وقوع حركات تمرد في قاعدة «كييل» البحرية، ادت الى انهيار المانيا، لجأ المستشار «ماكس» امير بادن الى «إيبرت»، الذي كان وقتذاك رئيس الحزب الاشتراكي وعضو المجلس الاستشاري في إمارة «بادن» يسأله المعونة لايجاد

اشتراكي يتحلى بالبأس والوطنية الكافيين لاعادة النظام الى «كييل». وقد زكّى «إيبرت» آنئذ الرجل العسكري في الحزب «غوستاف نوسكه»، ذلك الرجل العملاق الذي كان يمتلك النفوذ الكبير في اوساط اتحاد العمال ويشتعل حماساً ووطنية مخلصة. وقام «بادن» بتعيين «نوسكه» حاكماً على «كييل». وفي غضون اسبوع، استخدم زعيم اتحاد العمال الجلف كل ما أوتي من دهاء وقساوة، لتسخير حفنة من الوحدات الموالية بمهمة اعادة النظام والانضباط الى الاسطول. وقد ساعدته هيبته على إلقاء الرعب في قلوب خصومه الاشداء.

واذ تذكر «إيبرت» انتصار «نوسكه» في «كييل»، قام باستدعاء زميله الاشتراكي ثانية - بعد مكالمة هاتفية حاسمة مع «غرونر» - في ٢٧ كانون الاول (ديسمبر)، وعينه وزيراً للدفاع الوطني. وبما انه لم يكن هناك منصب كهذا في الدستور (ويعود الفضل في ذلك الى بسمارك)، خلع «إيبرت» على «نوسكه» لقب القائد العام بصورة مؤقتة، رغم انه كان هناك قائد عام للجيش (هندنبرغ). وكان الجيش يعرف «نوسكه» ويحبه. كما ان «نوسكه» كان يعرف الجيش ويحبه. وكان كلاهما سعيداً بتوليه القيادة وممارسته لمسؤوليات وزير الدفاع. فلم يكن الوقت يتسع للاهتمام بتفاصيل البروتوكول العسكري او دقائق مدلولات اللغة.

وبعد ان انتزع من مجلس البحارة في «كييل» وعداً بعدم التدخل في الوضع المضطرب في «برلين»، غادر «نوسكه» «كييل» وتسلم منصبه الجديد. وهناك قبل دعوة الجنرال «فون لوتفيتس» لتفقد وحدات الفيالق الحرة عقب قيام الاخير باطلاع «نوسكه» (مخاطباً اياه بصفته القائد العام بكل طيبة خاطر) على وجود وحدات الفيالق الحرة الجديدة ضمن قيادته في «برلين». وفي ١٩١٩/١/٤، زار «نوسكه» و«إيبرت» معسكراً في «تسوسن» القريبة من «برلين». وقيل بأنه بعد تفقد جنود «ميركر» ذوي الاناقة المفرطة وخطوات الأوزة، ربت على ظهر «إيبرت» قائلا: لا تقلق، سيكون كل شيء على ما يرام».

نوسكه وقيام الجيش بإعادة النظام الى المانيا

وعلى اثر تداول الامر مع «غرونر»، اصدر «نوسكه» امراً الى «لوتفيتس» بتطهير «برلين» من السبارتاكيين. ونُفذ الامر خلال ما سمي

بالاسبوع الدامي (١١ ـ ١/١٣)،وثأرت الفيالق الحرة لهزيمة الجيش في عشية الميلاد. وعلى اثر تلك الاحداث، أتمت القيادة العليا خطوات الانتقال الى «كولبرغ»، ووجهت عنايتها الى الاشراف على العمليات في لاتفيا، وعلى مغامرة الفيالق الحرة في مدينة «بوزن». وقد انتزعت هذه المدينة (بموافقة ضمنية من القيادة العليا) من البولونيين الذين استعادوا نشاطهم. ولكن لم تلبث وحدات الفيالق الحرة ان سُحبت منها، في نهاية شباط (فبراير) نزولاً عند مطالب الحلفاء.

عندئذ اجتاحت «برلين» موجة ثالثة من الفوضى العارمة بتحريض من السبارتاكيين، وانتشرت في شتى انحاء البلاد. وكانت الجمعية الوطنية في هذا الوقت مجتمعة في «فيمار» لوضع دستور جديد وتبنيه. وبموافقة من «غرونر» ، طلب »إيبرت» من «نوسكه» مُغادرة «فيمار» والعودة الى «برلين»، مانحاً اياه لقب القائد العام في «براندنبرغ». وفي ٤ آذار (مارس) وجه «نوسكه» الى «لوتفيتس» أمراً بالتوجه الى «برلين»، على رأس نحو ٤٢ الف رجل، وتطهير المدينة. وفي ٩ آذار (مارس) أُنجزت المهمة تحت إشراف «نوسكه» نفسه. فأرسل «غرونر» بعد ذلك أفضل قوات الفيالق الحرة ـ لا سيما كتيبة «ميركر» التي استطاعت اعادة النظام مع اقل قدر من أعمال القتل ـ الى مناطق اخرى كانت تشهد نشاطات شيوعية محرضة على العنف. وتمكنت الفيالق الحرة من تحطيم مقاومة السبارتاكيين في كل من «براونشفيغ» و«ماغديبرغ» في نيسان (ابريل)، و«ميونيخ» و«شتيتين» في ايار (مايو)، وأخيراً «هامبورغ» في حزيران (يونيو).

اعادة تنظيم الجيش ومعاهدة فرساي

وفيما كانت عملية «برلين» تأخذ مجراها بكل زخم، توصلت الجمعية الوطنية الملتئمة في «فيمار» الى اصدار قانون «رايشسفيهر» Reichswehr مؤقت غامض وإنما عملي. وكان من شأن هذا القانون الذي كرسته الحكومة، ان حل الجيش الامبراطوري القديم، واقام لأول مرة وزارة دفاع ألمانية مركزية، رغم ان هذه الوزارة كانت قائمة عملياً قبل شهرين، حين قام «إيبرت» باستدعاء «نوسكه» الى «برلين». وها هو القانون يكرس منصب «توسكه» ومسؤ ولياته.

وسارع «غرونر» الى البدء في وضع القانون الجديد موضع التنفيذ، مستهلاً ذلك بتحويل وحدات الفيالق الحرة الى تشكيلات رايشسفيهر Reichswehr. وتوقع ان ينتهي ذلك في منتصف العام ١٩٢٠، وان يصبح تعداد الجيش الجديد في زمن السلم حوالى ٣٠٠ الف رجل، اي اقل بمئة الف رجل من تعداد الجيش في نيسان (ابريل) وايار (مايو) ١٩١٩.

بيد ان التخطيط هذا، وبرنامج تطوير ـ القوة، الذي توصلت اليه دراسات الاركان العامة، اصطدما بجدار شروط معاهدة الصلح التي قدمها الحلفاء في ١٩١٩/٥/٧ الى الممثلين الألمان في فرساي. وكان الالمان يتوقعون مثل تلك الشروط القاسية، انطلاقاً من ان المفاوضين يتشددون دائماً في بداية مفاوضاتهم. ولكن أُبلغ الالمان هذه المرة بأنه لن تكون هناك مفاوضات، وإنما قاعدة «اقبله او ارفضه». وكان هذا يعني بأن الامتناع عن التوقيع في ١٩١٩/٦/٢٠ سيجعل قوات الحلفاء الموجودة في منطقة «راينلاند» تزحف شرقاً لاحتلال المانيا بأسرها.

وقام الجنرال «فون سيكت»، بصفته مستشار الوفد الألماني في مفاوضات «فرساي»، بارسال نسخة عن الشروط الى «غرونر» في «كولبرغ». وشرعت الاركان العامة على الفور في تحليل اهم ما جاء في تلك الشروط.

كان على الجيش الألماني ان يجعل تعداد افراده في حدود مئة الف ضابط وجندي. وكان على الجنود ان يخدموا في الجيش لمدة اثني عشر عاماً، في حين فرض على الضباط الا يتقاعدوا قبل ان يمضوا فترة ٢٥ عاماً من الخدمة. واشترط بأن يخفض الجيش من عدد قواته حتى ٢٠٠ الف رجل خلال ثلاثة اشهر، ثم الى مئة الف رجل (من بينهم ٤ آلاف ضابط) مع حلول ١٩٢٠/٣/٣. وحظر على المانيا ان يكون لديها طائرات حربية، او مدافع ثقيلة، أو دبابات، او اي سلاح آخر يعتبره الحلفاء سلاحاً «هجومياً». وفُرض بأن تحل الاركان العامة «والا يعاد تأسيسها في اي شكل كان». كما فُرض اقفال الاكاديمية الحربية وجميع مدارس تدريب الطلاب العسكريين.

ولما كان من المقرر ان يستمر احتلال الحلفاء لمنطقة «راينلاند»، بدت خطوة تجريد المنطقة المحتلة من صفتها العسكرية كلياً خطوة لا طائل تحتها

الى حد ما. بيد ان الامر اقتضى وجود قطاع اضافي منزوع السلاح بعمق ٥٠ كلم الى الشرق من المنطقة المحتلة. وسُمح لألمانيا بالاحتفاظ ببحرية رمزية مجردة من الغواصات والقطع البحرية التي يَزيد وزن الواحدة منها على ١٠ آلاف طن. وانيطت مهمة تطبيق التدابير العسكرية تلك بلجنة مراقبة تابعة للحلفاء.

وكان من بين شروط اتفاقية معاهدة الصلح شرطان اثارا استياء حاداً، ليس في صفوف الضباط وحسب، بل وفي نفوس الشعب الالماني كله، رغم انهما لا يمتان الى الشؤون العسكرية بصورة مباشرة. وكان الشرط الاول موافقة المانيا على تسليم قادتها لتقديمهم الى المحكمة بتهمة خرق قوانين الحرب، والشرط الثاني اعتراف الامة الالمانية بذنب مبادرتها في بدء حرب عدوانية وخوضها.

رد الفعل الألماني على معاهدة فرساي:

وبالنسبة الى المانيا، نتجت عن إعلان شروط المعاهدة ونشرها ايجابية واحدة، وهي توحد مشاعر الشعب ازاء المعاهدة. فقد اجمع الالمان بمختلف مشاربهم السياسية على ان الشروط غير مقبولة.

ولا ريب في ان رد فعل ضباط الاركان العامة في «كولبرغ» كان اشد مرارة من رد فعل الناس بشكل عام. ولكنهم التزموا بموضوعية الاركان العامة واخضعوا شروط المعاهدة لتحليل عميق، ودرسوا سائر تبعاتها المحتملة، بما فيها امكانية رفض المانيا لتوقيع المعاهدة. وفي نهاية ايار (مايو) بعث «غرونر» **بنتائج التحليل الى «هندنبرغ». وكانت تتلخص في أن تبعات الامتناع عن توقيع المعاهدة ستكون بالرغم من مساوىء المعاهدة، أسوأ خطوة يمكن اتخاذها. اذ لم يكن هناك شك في أن الحلفاء سيقومون في هذه الحالة باحتلال المانيا كلها، من دون ان يكون بمقدور رجال الجيش الجديد والفيالق الحرة (ومجموعهما ٤٠٠ ألف رجل) أن يفعلوا شيئاً سوى قتل عدد من جنود الحلفاء قبل ان يتم سحقهم.**

وأخذ «غرونر» وهيئة الاركان في اعتبارهما امكانية قيام الشعب الالماني

«بحرب تحرير شعبية» ضد الحلفاء الغزاة، انطلاقاً من وقائع حروب التحرير التي شُنت ضد «نابليون»، ولكنهما سرعان ما استُبعدت الفكرة، ليس بسبب استحالة قيام الشعب المنهك بانتفاضة شاملة فحسب، بل لاحتمال مبادرة السبارتاكيين الى اغتنام الفرصة واشعال ثورة عارمة ايضاً. وتكون النتيجة وقوع الكارثة وانتشار الفوضى وتفكك المانيا. ولا شك ان الحلفاء سيعملون عندها على الحؤول دون توحد الامة المجزأة في المستقبل المتطور. من هنا لم يكن هناك بد من توقيع المعاهدة وقبول شروطها، رغم ان تلك الشروط كانت قاسية ومكروهة. وتداول «غرونر» الامر مع الفيلد مارشال، الذي ابدى موافقته على مضض، وفي نهاية ايار (مايو) اتصل «غرونر» بـ«إيبرت» واطلعه على نتائج دراسته.

ولكن خلال حزيران (يونيو)، ومع اقتراب موعد توقيع المعاهدة (٦/٢٠)، تنامت المعارضة الشعبية. وكان «إيبرت» نفسه راغباً في رفض المعاهدة، فيما لو كان ذلك ممكناً دون المجازفة في تجديد الحرب والاهوال. وقد لمس عند معظم العسكريين، وعند الاغلبية الساحقة من اعضاء مجلسه، ميلاً الى تحدي الحلفاء مهما كانت التبعات. وبعد جلسة عاصفة في مجلس الوزراء في ٤ حزيران (يونيو)، طلب «إيبرت» من «غرونر» تقويماً رسمياً وعسكرياً للوضع.

غرونر وقبول المانيا لمعاهدة فرساي

ولما كان «غرونر» لا يعرف الاستسلام في مسألة العزة الوطنية، ويدرك بان ثمة شعوراً عارماً مناهضاً للمعاهدة سائد بين كبار ضباط الجيش، قام بمراجعة الوضع من جديد مراجعة دقيقة باحثاً عن امل في امكانية نجاح الجيش ـ مع دعم من غالبية الشعب ـ في الدفاع ضد غزو الحلفاء. ولكنه بعث الى «إيبرت» في ١٥ حزيران (يونيو) بأن الوضع ميؤوس منه. فقوات الاحتلال الحليفة كانت على اهبة التحرك اذا ما امتنعت المانيا عن قبول المعاهدة، من دون ان يكون، باستطاعة الجيش الالماني سوى تأخير تقدم تلك القوات او ايقاع بعض الخسائر فيها. فالشعب غير مستعد لدعم الجيش، رغم اعتراضه على المعاهدة. وخلص «غرونر» الى القول بأن المقاومة ستجر على المانيا الكوارث.

وقد سلم «إيبرت» بذلك الرأي العسكري من وجهة فلسفية، ولكن اصر على كتابة ذلك الرأي ونيل موافقة «هندنبرغ» عليه، ليتسنى له عرضه على المجلس. وحين حاول «هندنبرغ» ايجاد اساس للمقاومة، عاد «غرونر» الى تذكيره بالتبعات من جديد قائلا[1] بأن من شأن ذلك ان يطلق صيحة المعارضة ضد الثورة المضادة والعسكريتاريا.

«فالنتيجة تهدد بسقوط الرايخ، وتجعل الحلفاء يظهرون عدم الرأفة حالما يتبين لهم بأن طريقهم الى السلام غير سالكة، كما ان النتائج قد تسفر عن تدمير هيئة الضباط ومحو المانيا عن الخريطة». وبعد لأي اذعن العجوز للمقدور، وارسل الى «إيبرت» في ١٧ حزيران (يونيو) مصادقته على تقرير «غرونر». بيد انه اصر على ان ينهي رسالته بالكلمات التالية:

> **«وفي حال وقوع هجوم خطير للحلفاء، فان فرصة نجاحنا في الدفاع ضئيلة نظراً لتفوقهم العددي ومقدرتهم على احتواء كلتا المجنبتين. من هنا فان تحقيق نتائج لصالحنا امر محاط بالشك. ولكنني كرجل عسكري افضّل هزيمة مشرفة على سلام مهين»**[2].

وكان «غرونر» يدرك ما قد يعترض «إيبرت» من صعوبات للوقوف في وجه ضغوطات الشوفينيين المتهورين، الذين قد يحاولون تحريف كلمات الفيلد مارشال الاخيرة او تفسيرها خطأ بأنها تشكل أساساً لدفاع انتحاري ضد الحلفاء. لذا نقل الرسالة بنفسه الى «فيمار»، التي وصل اليها في ليلة يوم ١٧ حزيران (يونيو) وشارك في خلال اليومين التاليين في سلسلة من اللقاءات مع كبار العسكريين، ومع الرئيس «ايبرت» ورئيس الوزراء «شايدمان» ووزير الدفاع «نوسكه». ولما كان «شايدمان» غير متحمس لتوقيع المعاهدة، او للطلب الى «الرايخستاغ» بالموافقة عليها، وغير قادر على قيادة الامة الى حرب لا تحظى بموافقة الاركان العامة، فانه لم يجد امامه سوى الاستقالة. وفكر الرئيس نفسه بالاستقالة، ولكنه ما لبث ان تراجع. وقام الحلفاء في هذه الاثناء بتحديد موعد التوقيع الى ٢٣ حزيران (يونيو).

---

(1) John W. Wheeler-Bennett, *The Nemesis of Power* (New York: 1954), p. 52.
(2) Wilhelm Groener, *Lebenserinnerungen* (Gottingen: 1957), p. 501.

وخامر «نوسكه» اعتقاد بانه سيطلب منه تأليف حكومة خلفاً لـ «شايدمان»، فسأل «غرونر» عن امكانية الاعتماد على ولاء الجيش. وردد «غرونر» أمام عدد من الجنرالات الذين كانوا يخالفونه الرأي، ما سبق ان كررته الاركان العامة عن عبثية المقاومة، ولكنه اكد لـ «نوسكه»، بانه في حال اتخاذ الحكومة لقرار التصدي للحلفاء، فانه سيدير واركانه العامة العمليات العسكرية بكل اخلاص، وانهما سيبذلان المستطاع للدفاع عن الامة مهما كان الامل في الانتصار ضعيفاً. وقد لمس «غرونر» قبل عودته الى «كولمار» فشله في اقناع العسكريين المتصلبين، لكنه امل في ان يكون «نوسكه» قد ادرك المنطق الذي كان ينطوي عليه التقويم الذي قدمته الاركان العامة. وكان «نوسكه» شديد الحرص على اخفاء آرائه الشخصية، ولكن كان من الواضح أنه تقبل تقويم الاركان العامة ورفض شوفينية الجنرالات الآخرين، الذين اعتقدوا بان وزير الدفاع يقف في صفهم. من هنا، كان من المرجح ان يقوم «نوسكه» في حال اختياره رئيساً للوزراء، بالطلب الى «الرايخستاغ» بالتصويت لصالح توقيع المعاهدة. غير ان اختيار «إيبرت» وقع على «غوستاف بوير». وفي ٢٢ حزيران (يونيو) حظي «بوير» بموافقة «الرايخستاغ»، على اساس التوصية القاضية بأن توقع المانيا على المعاهدة، ولكن من دون الموافقة على قبول تهمة التسبب بالحرب او تسليم ما يسمون بمجرمي الحرب لمحاكمتهم. ونقل هذا القرار الى الوفد الالماني في مؤتمر السلام في صبيحة اليوم التالي، ولكن ما عتم ان رفضه الحلفاء عند العصر، مصدرين مذكرة تتضمن انذاراً بضرورة توقيع المعاهدة في مهلة اقصاها الساعة ١٨,٠٠ من يوم ٦/٢٤.

وكانت النتيجة وصول حكومة «إيبرت ـ بوير» في «فيمار» الى حافة الانهيار.

فقد كانت مجموعة من كبار الضباط في هذا الوقت قد صورت لـ «نوسكه» بانه سيصبح الحاكم المطلق في المانيا، اذا ما قام بالدفاع عن شرف الامة ورفض توقيع المعاهدة، وكان السبارتاكيون ومجموعات يسارية اخرى قد اوضحت آنذاك بأن الفشل في توقيع المعاهدة سيعني انتفاضة

شعبية ضد الحكومة. ومن هنا، بدا أن الحكومة ستواجه انتفاضة وحرباً اهلية بغض النظر عن الخطوة التي ستقدم عليها.

وكان «غرونر» واركانه في خلال ذلك قد راجعا الموقف، في حين كانت اربع مدمرات بريطانية تبحر في مياه البلطيق على مسافة غير بعيدة من المقر المؤقت لقيادة الاركان العامة. وقام «غرونر» و«هندنبرغ» من جديد بدراسة التقويم الموضوعي الذي وضعه مرؤوسوهما، وتوصلا الى النتيجة ذاتها. ونُقل عن «هندنبرغ» بانه قال لـ«غرونر» في إحدى المناسبات: «إنك تعلم مثلي بان المقاومة المسلحة ضرب من المستحيل!»(٣).

وكانت هذه المرة الثالثة التي يواجه فيها «إيبرت»، في خلال سبعة اشهر او اكثر بقليل، خطر انزلاق ألمانيا الى هاوية الفوضى الدامية. وهنا ايضاً، تذكر الخط الهاتفي الخاص الذي يصله بالمسؤول الاول عن هيئة العمليات العليا فدعا الى اجتماع لمجلس الوزراء يعقد عند ظهر ٢٤/٦، وبعد الساعة ١١,٠٠ بقليل، اتصل بـ«غرونر»، ولم يكن قد بقي على انتهاء فترة إنذار الحلفاء سوى اقل من سبع ساعات.

وكان هندنبرغ عند «غرونر» حين رن جرس الهاتف، فأحس بما كان يدور لما سمع «غرونر» يتحدث عن نفسه وعن الاركان العامة، متحاشياً الاشارة الى «هندنبرغ»، فغادر الغرفة بهدوء، حتى يتسنى لـ«غرونر» التحدث بحرية اكبر.

وكرر «غرونر» بتؤدة رأي الاركان العامة القائل بأن لا طائل وراء المقاومة، ثم اضاف بأن عليه «كألماني» ان يقول للرئس بأنه «يتوجب بناء على ذلك التوصل الى السلام وفقاً للشروط التي وضعها العدو». ومع ان «غرونر» كان يعلم بأنه سيُتّهم هذه المرة، كما في مرات سابقة، بالخيانة، فإنه أصرّ على هذا الموقف البغيض الى نفسه، والضروري لبقاء ألمانيا، وظل يتحاشى في اثناء المكالمة اسم «هندنبرغ»، فقدر «إيبرت» الموقف، وحرص هذه المرة على عدم الطلب الى الفيلد مارشال باعطاء رأيه. عندها

(٣) Wheeler-Bennett, *op. cit.*, p. 58.

عبر «غرونر» عن رأيه القائل بان الحكومة تستطيع ان تتوقع دعماً موالياً من الجيش، اذا ما تم عرض الموقف والمضامين بوضوح وقوة، وقال بأن على «نوسكه» المحبوب من قبل الجيش ان يؤمن ذاك الولاء، ليس كبديل عن غزو الحلفاء فحسب، بل وعن الحرب الاهلية المحتومة التي قد تصاحب ذلك الغزو ايضاً(٤).

وعمل «إيبرت» باقتراحات «غرونر» بدقة. ووافق المجلس على ما تقدم به «إيبرت». فالتأم «الرايخستاغ» وأجمع اعضاؤه على قبول المعاهدة وتبلغ الحلفاء القرار الألماني برقياً قبل انتهاء فترة الانذار ببضع دقائق. ونفذ «نوسكه» من جهته اقتراح «غرونر»، فتململ الجيش، ولكنه ظل محافظاً على ولائه.

وفي هذه الاثناء، عاد «هندنبرغ» الى مكتب «غرونر». وفي اشارة يعرف «لودندورف» و«غرونر» معناها، القى بيده على كتف المسؤول الأول على هيئة العمليات العليا. فقد تفهم خطوة «غرونر» والسبب الذي دفعه الى الاقدام عليها. ولم يكن «هندنبرغ» جباناً، ولكنه كان يدرك بأن عليه ان يكون في حل من القرار البغيض، فقال بحزم تخالطه الوداعة: «انك مصيب. والعبء الذي القيته على كاهلك عبء ثقيل، ولا بد لك ان تكون مرة اخرى كبش المحرقة»(٥).

وهكذا تحملت اركان الجيش العامة مسؤولية قبول المانيا لاتفاقية فرساي. بيد أن «غرونر» وقى مرؤوسيه شر المسؤولية، جرياً على التقليد، كما انه تعمد حماية قائده العام، بطل المانيا، من تبعات المسؤولية. وكنتيجة لذلك، كان باستطاعة قادة الجيش الآخرين القول، بل انهم قالوا، بأنهم ليسوا كمجموعة ولا «هندنبرغ» كفرد من اتخذ ذلك القرار المميت. وان المسؤول عن ذلك هو «غرونر».

(٤) Groener, *op. cit.*, p. 507.

(٥) *Ibid.* See also Dorothea Groener-Geyer, *General Groener: Soldat un Staatsmann* (Frankfurt: 1955), p. 162.

ظهور سيكت

وفي اليوم التالي، ٢٥ حزيران (يونيو)، استقال «هندنبرغ» من منصبه كقائد عام. وفي حفلة وداع أُقيمت على شرفه في ٢ تموز (يوليو)، ودع «غرونر» الرجل العجوز باسم الجيش والاركان العامة في جو مؤثر. وكانت هذه هي المرة الثانية التي يتقاعد فيها «هندنبرغ» وينصرف الى حياته الخاصة. ولم يلبث «غرونر» ان تقدم باستقالته في ٧/١٣ كي يتقاعد ابتداء من ٧/١٥، بعد ان نقل الى «نوسكه» توصياته المتعلقة بتأمين ديمومة القيادة العسكرية. وكان «نوسكه» قد اعلن في (٧/٥) عن تشكيل لجنة تحضيرية خاصة بجيش فترة السلم، حسبما اقترح «غرونر». كما تم بناء على توصية من تعيين الجنرال «فون سيكت» رئيساً لتلك اللجنة، ورئيساً لمكتب قيادة قوات الجيش، الذي كان يناط به تولي جميع السلطات الشرعية، ضمن ما سمحت معاهدة فرساي. وهي سلطات كانت تمارسها فيما سبق الاركان العامة المنحلة.

كان «سيكت»، المولود في «شليسفيغ» بتاريخ ١٨٦٦/٤/٢٢ ينحدر من اسرة بروسية نبيلة، ذات تقاليد عسكرية. وكان والده من الذين نالوا العديد من الاوسمة في عهد «وليام الأول» و«مولتكه الكبير». ولم يلتحق «هانس» (سيكت) الشاب بمدرسة الضباط، وإنما انضم الى فوج الحرس كملازم ولما يتجاوز التاسعة عشر من العمر. وبعد مضي عشر سنوات قُبل تلميذاً في الاكاديمية الحربية، وغدا في العام ١٨٩٩، اي بعد تخرجه في تلك المؤسسة بأقل من سنة واحدة، أحد ضباط الاركان العامة. وقدر له في السنوات الخمس عشرة التي تلت ان يمضي حياة زاخرة، تخللها قضاء فترات قصيرة متفرقة في الخدمة بين الجنود والتقلب في مناصب مرموقة ضمن الاركان العامة واغتنام الفرص السانحة للسفر الى خارج البلاد كمراقب عسكري. ولدى اندلاع الحرب، كان برتبة مقدم، ثم ما لبث ان لفت نظر الآخرين كرئيس لاركان الفيلق الثالث من جيش «كلوك» (الجيش الاول). وبسبب نجاحه إبان توليه ذلك المركز، منحه الجنرال «فون فلكنهاين» رتبة عقيد في ١٩١٥/١/٢٧، وعينه في ٣/٩ رئيساً لاركان الجيش الحادي عشر الذي تم تشكيله حديثاً تحت قيادة الجنرال «اوغست فون ماكنسن».

وكان «فلكنهاين» قد شكل الجيش المذكور ليتقدم كرأس حربة ضمن خطة اختراق الخطوط الروسية في بولونيا في ايار (مايو) ١٩١٥. وقد تُوجت خطط «سيكت» بالنصر إبان واحدة من الانتصارات الحاسمة التي تحققت في الحرب، والتي ادت الى ترقية «ماكنسن» الى رتبة (فيلد مارشال). كما رُقي «سيكت» في ١٩١٥/٥/٢٦ الى رتبة لواء، الامر الذي اغاظ بعض زملائه، لانه اصبح بذلك على رأس عدد من ضباط الاركان العامة الاقدم منه.

وعندما عُين «ماكنسن»، في بداية العام ١٩١٦ قائداً لمجموعة الجيش الالماني ـ النمساوي ـ البلغاري الخاص بالحملة الرومانية، طلب ان يُكلف «سيكت» برئاسة اركانه. وأُتيحت لـ «سيكت» بذلك فرصة ثانية لرؤية خططه وهي تكلل بنصر فوزه. غير انه تولى في خلال الجزء الاكبر من العامين ١٩١٦ و١٩١٧ رئاسة اركان مجموعة جيش الارشيدوق النمساوي« تشارلز»، وظل محتفظاً بذلك المنصب الى ما بعد تولي «تشارلز» العرش النمساوي كآخر اباطرة النمسا، وتولى الارشيدوق «جوزيف» قيادة الجيش. وبالرغم من ان «سيكت» كان القائد الفعلي لمجموعة الجيش، فانه لم يذق طعم النجاح على النحو الذي يريده. وفي مذكرات «هوفمان» العديد من التقارير التي تضمنت مطالبة «سيكت» بالتعزيزات الالمانية، وبخاصة إبان الايام السوداء التي رافقت الهجوم الروسي الذي قام به «بروسيلوف» في العام ١٩١٦.

وكان المنصب الأخير الذي تسنمه «سيكت» في خلال الحرب، رئاسة اركان الجيش التركي. وهو منصب تولاه طوال الفترة الواقعة بين كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٧ وتشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨. وكان آنئذ واحداً من اوسع رؤساء اركان الجيش الالمان خبرة وقد قيل في بعض المناسبات بأنه كان صاحب الحظ الاوفر لاحتلال مكان «لودندورف» في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨، لو لم يكن بعيداً عن المانيا، بالرغم من رجحان كفة «هوفمان» في هذا المضمار. ولكن الاختيار استقرّ أخيراً على «غرونر» تقديراً من الامبراطور والامير «ماكس اوف بادن» لكفاءته العالية كمدير للسكك الحديدية في «برلين»، التي تجلت في قدرته على الوصول الى «سبا» في خلال ساعات قليلة.

وفي اي حال، انضم «سيكت» الى «هندنبرغ» و«غرونر» في «كاسيل» في كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٨، وتم ارساله في مطلع الشهر التالي الى «كوينغزبرغ» لكي يخلف «هوفمان» كرئيس للاركان (القائد فعلياً) على الجبهة الشرقية، ولكي يشرف على تراجع القوات الالمانية المتمردة من «اوكرانيا» و«البلطيق». وقام في مستهل العام ١٩١٩ بتنظيم عودة الفيلق الحر الى دول البلطيق، واعداد الخطط الشاملة التي ادت الى تمكن «فون در غولتس» من الاستيلاء على «ريغا» مرة اخرى في شهر ايار (مايو).

وكان «سيكت» في ذلك الوقت قد أرسل الى فرساي ليشارك كعضو عسكري في اعمال الوفد الالماني المنتدب الى مؤتمر السلام، لذا كان في نهاية حزيران (يونيو) افضل من فهم البنود العسكرية (ومضامينها) التي جاءت في اتفاقية «فرساي». وقد ادى ذلك، الى جانب خبرته الطويلة الفريدة، الى اختياره رئيساً للجنة التحضيرية لجيش السلام، وتزكيته كرئيس لقيادة الجيش. وحين تقاعد «غرونر» في ٧ تموز (يوليو) ، غدا «سيكت» رئيساً للاركان العامة، ولكن ذلك لم يدم طويلاً، بسبب قرار حل رئاسة الاركان رسمياً في ١٥ تموز (يوليو) ١٩١٩.

وكان «نوسكه» في هذه الاثناء قد تعرف على العقيد «فولتر راينهارت» وأُعجب به. وكان «راينهارت» هذا قد عاون وزير الدفاع الجديد في انشاء الجهاز الوزاري وفقاً لقانون «رايخسفيهر» Reichswehr المؤقت. وكان «غرونر» يعتقد بأن زميله «راينهارت» يفتقر الى ما كان يتمتع به «سيكت» من قوة في الشخصية وتوقد في الفكر. ولكن حين قام «نوسكه» بترقية «راينهارت» وتعيينه رئيساً لقيادة الجيش، اخذ «غرونر» يدعو الى جعل «سيكت» على رأس مكتب القوات (كانت دائرة قيادة الجيش في التنظيم الجديد لوزارة الحربية، والذي حل محل جهاز الاركان في الاركان العامة، منوطة بتنفيذ المراقبة الادارية على وحدات الجيش، وكان مكتب القوات مسؤولاً امام مكتب قيادة الجيش عن الاشراف على تنظيم التخطيط والتدريب).

ولا بد ان يكون «سيكت» و«غرونر» قد التقيا مراراً في خلال الفترة الواقعة بين عودة «سيكت» من «فرساي» وتوليه مسؤولية التخطيط لجيش

المانيا الجديد (١٠٠ الف رجل) وتناولا في اثناء لقاءاتهما مستقبل المانيا والجيش الالماني والاركان العامة. (انقطعت اللقاءات فترة وجيزة إبان انتقال «سيكت» الى «لاتفيا» لاقناع «فون در غولتس» بالعمل بشروط الحلفاء، مما ادى الى انسحاب الالمان من ريغا في ١١ تموز. وكان «سيكت» في اثناء الانسحاب قد عاد الى «برلين»، وبدأ العمل الى جانب اللجنة التحضيرية في مقرها الذي اقيم في مبنى الاركان العامة القديم في «بندلرشتراس»).

حل الاركان العامة

ومن المعتقد بأن كلاً من «غرونر» و«سيكت» قد فكرا في امكانية التملص عمداً من التزامات معاهدة «فرساي»، كما انه بالامكان الافتراض بأنهما لم يجدا سبباً لتعارض التملص مع مبادىء الشرف لدى الضابط الالماني. وكان اقل ما يمكن ان يتبيناه، هو ان قرار حل الاركان العامة غير منطقي وغير ملزم ما دام بالنسبة الى جيش لا يزال قائماً.

وأيا كان اسهام «غرونر» في وضع حل لمشكلة مراقبة وتوجيه جيش بلا اركان عامة اساسية، وكيفية تفسير علاقة التنظيم الجديد بالأركان العامة القديمة التي غدا بديلاً عنها، فان المشكلة اضحت الآن مشكلة «سيكت»، بمعنى انه اصبح مسؤولا عن نتائج الحل.

لقد ادى قبول المانيا لمعاهدة «فرساي» الى حل مقر القيادة العليا للجبهة والاركان العامة بصورة آلية. وغدا «سيكت» ولجنته في الواقع التنظيم الجديد، ولكن لوقت قصير. ذلك ان «نوسكه» كان قد بدأ العمل بالاركان الجديدة وبتنظيم القيادة الذي كان «غرونر» والأركان العامة قد وضعاه لجيش السلم بموجب قانون «رايخسفيهر» Reichswehr المؤقت. ورأى «سيكت» ان امام لجنته مشكلة تكييف الخطة وتنظيم القيادة اللذين وضعهما «غرونر» مع متطلبات الجيش الجديد (المؤلف من ١٠٠ الف رجل)، ثم تكييف ذلك بتأن مع خطة وتنظيم بعيدي المدى، قد يساعدان في وقت ما في المستقبل على إنشاء جيش الماني ملائم.

الفصل الثالث عشر: الإبلال السري

حقبة «سيكت»

الجيش الألماني الجديد

اشترط التنظيم الجديد، ووفقاً لمفهوم «غرونر - سيكت» المنفتح، ان تعهد قيادة الجيش ككل الى وزير الدفاع. وتُقدم المشورة العسكرية الى الوزير عن طريق قيادة جيش، هي تنظيم للاركان ولكنه لا يضم هيئة اركان عامة (عملاً بخطة «غرونر» التي عدّلها «سيكت» بما يتلاءم مع معاهدة فرساي). وقد حمل المسؤول العسكري الاول في هذا التنظيم الاداري للاركان اللواء «راينهاردت»، لقب رئيس قيادة الجيش مع شيء من الغموض. ففي حين انه كان بلا جدال رئيساً لأركان، فانه لم يكن رئيس (الـ) اركان العامة، ولا كان قائداً عاماً للجيش، وإنما كان شيئاً ما اقل من الاثنين.

وقد تألفت الاركان، او قيادة الجيش نفسها من اربع شعب رئيسية. كانت الشعبة الاولى شعبة شؤون الافراد، التي كانت بالطبع الوريث المباشر للمجلس الحربي القديم. وكان رئيس هذه الشعبة الجنرال «يوهان ريتر اوند إيدلر فون براون». وكانت الشعبة الثانية شعبة القوات المسلحة، وهذه تسمية خالية من معناها، كان قد حملها «غرونر» و«سيكت» لوكالة عملها القيام بمهام التخطيط والتنسيق التي كانت فيما سبق من مهام الاركان العامة الكبرى. وقد وافق «نوسكه» حينذاك على توصية «غرونر» المطالبة بجعل «سيكت» على

رأس وكالة الاركان هذه. وكانت الشعبة الرئيسية الثالثة شعبة المعدات، التي كانت بإدارة العقيد البارون «فريدريش كريس فون كريزنشتاين»، الذي كان قد لمع كقائد لقوات تركية ابان الحرب. وكانت الشعبة الاخيرة مصلحة ادارة الجيش، التي كانت في البداية بإدارة مدني يعمل بتوجيه مباشر من وزير الدفاع، وبمعزل عن قيادة الجيش. ولكن سرعان ما ادرك «نوسكه» أن ادارة الجيش تحتاج الى عسكري لنقل التوجيهات المدنية وترجمتها (أحياناً). فاختار لهذا المركز الجنرال «هانس فون فيلدمان».

وكان الجيش نفسه يتألف من قيادتين عملياتيتين رئيسيتين، كان «غرونر» قد اعتبرهما اصلا جيشين ميدانيين، احدهما يعمل في الشرق والآخر في الغرب. وبموجب التعديل الذي قام به «سيكت» لمواجهة شروط معاهدة «فرساي» المتعلقة بتحديد عدد افراد الجيش الألماني (١٠٠ الف جندي)، حولت هاتان القيادتان العمليتان الى مقري قيادة فيلقين مع امكانية توسع عمل كل منهما بحيث تشملان جيشاً ميدانيا، تبعاً لما تدعو اليه الظروف او لما تسمح به. ويغطي عمل المقرين سبعة قطاعات عسكرية مناطقية. ويشغل كل قطاع فرقة مشاة بدلا من فيلق، كما كان معمولاً به قبل الحرب. وبالتالي كانت الوحدة العملياتية في القطاع الاول الفرقة الأولى، وكان قائد القطاع قائداً للفرقة ايضاً. وقد كانت اربعة من هذه القطاعات المشتملة على المنطقتين الشرقية والوسطى من المانيا تحت سلطة مجموعة القيادة الأولى (مقرها في برلين) وثلاثة تحت سلطة مجموعة القيادة الثانية (مقرها في كاسيل).

لوتفيتس، وسيكت، وراينهاردت

ومع استقالة «هندنبرغ» وتقاعده، اصبح المسؤول الأول في الجيش الجنرال البارون «فولترمن لوتفيتس»، آمر مجموعة القيادة الأولى. ويبدو ان «لوتفيتس» قد اعتبر العمل كقائد غير رسمي لهيئة الضباط وكناطق باسمها، مهمة من مهامه ما دام انه لم يكن هناك قائد عام ولا رئيس للاركان العامة.

غير ان الجنرال «راينهاردت» اعتبر بصفته رئيس قيادة الجيش بانه صاحب المركز الأول في الجيش، وبالتالي فانه أولى رسمياً في تحمل

مسؤولية القيادة التي ادعاها «لوتفيتس» لنفسه. وقد تصرف «نوسكه» بالتأكيد وكأنما «راينهاردت» هو القائد العسكري للجيش. ولكن يظهر ان «راينهاردت» قد ايقن بأن الغموض يشوب لقبه والمركز الذي كان يشغله، وبأن عدداً من كبار ضباط الجيش ـ سيما معظم قادة القطاعات، الذين كانوا اعلى منه رتبة ـ كانوا موافقين على قيادة «لوتفيتس» الاسمية. من هنا، قرر ان يتفادى المواجهة، ريثما يزداد رسوخ مركزه وسلطته.

ان العادات والتقاليد لا تندثر بسهولة، خصوصاً في صفوف الجيش الالماني. فالرجل الذي تسنم المركز الذي بقي مسيطراً في الجيش لمدة ثلاثة ارباع القرن، كان الجنرال «فون سيكت» وكان من المعروف في الجيش بأن رئيس شعبة القوات المسلحة (سيكت)، كان يمارس عملياً مهمة رئيس الاركان (غير الموجودة)، بالرغم من انه لم يعد هناك جهاز اركان عامة او اركان عامة عليا. وكان يُنظر اليه كرجل من وزن «مولتكه» ـ شليفن، يؤهله ماضيه وخبرته للخدمة كخليفة لهما. من هنا، حتى الضباط الذين قبلوا بـ«لوتفيتس» ناطقاً غير رسمي باسم مجموع الضباط، كانوا مستعدين لتنفيذ اية تعليمات رسمية تأتيهم من «سيكت»، ذلك الضابط المتواضع المغمور حسب تقاليد «شليفن»، الذي لم يحاول الافادة من شهرته او من دوره كرئيس غير رسمي للاركان. واضافة الى ذلك كان مركزه غامضاً، ولقد جاءت معاهدة «فرساي» لتحول دون محاولات تبديد ذلك الغموض. وقد كرس «سيكت» نفسه بكل اخلاص لمعالجة المشكلات الادارية، مثل تسريح الجيش، واعادة تنظيمه، وادامة عمل الاركان العامة الى اقصى مدى تسمح به شروط المعاهدة، ومعالجة المشكلات العملياتية كالتخطيط لحفظ امن المانيا بجيش لا يفي حجمه بشروط بسط سيطرة الحكومة ضمن حدود امة مضطربة، او حماية الحدود الشرقية من اعداء تاريخيين يتحينون الفرصة للثأر. (كانت الحدود الغربية آنئذٍ تحت سيطرة جيوش الحلفاء).

وقد شرع «لوتفيتس» خطوته الاولى لتعزيز مركزه بين الضباط، حالما بدأ تنظيم الجيش الجديد عمله. وفي ٢١ تموز (يوليو)، عقد مؤتمراً ضم كبار ضباط مجموعة القيادة الاولى لمناقشة دور الجيش في تشكيل الرايخ

الجديد، ووضع برنامجه ضمن حدود المعاهدة المقيتة. وكان يحضر المؤتمر على الاقل اثنان من قادة القطاعات (الجنرال بورغهارد فون اوفن قائد القطاع الثالث في منطقة «برلين»، والجنرال «جورج مركر»، قائد القطاع الرابع). واللواء «باول فون ليتوف - فوربك» قائد قطاع «شفيرين» وقادة حاميات في منطقة «برلين» الى جانب كبار ضباط اركان «لوتفيتس»، بمن فيهم صهره الرائد «فون همرشتاين - ايكورد». كما حضر ايضاً اثنان من المع الضباط المتقاعدين، الجنرال «ماكس هوفمان» والعقيد «ماكس بوير» الذي كان مسؤول العمليات تحت قيادة «لودندورف» في «سبا»، وبالتالي ممثلاً لـ «لودندورف» في هذا المؤتمر.

وعرض «لوتفيتس» على المؤتمرين آراءه حول ما يجب على الجيش ان يفعله لاجبار الحكومة على تبني سياسات مقبولة عسكرياً، ومنسجمة مع شرف المانيا وشرف جيشها. وكانت العناصر الرئيسية في برنامجه:

١) رفض تسليم قادة الجيش للحلفاء لمحاكمتهم كمجرمي حرب.

٢) الاصرار على الاحتفاظ بقوة عسكرية كفيلة بدرء خطر البلشفية عن المانيا، سواء كان خطراً داخلياً ام خارجياً.

٣) الحفاظ على وحدة الامة إزاء جميع الحركات الانفصالية، وبخاصة الحركة البافارية.

٤) المطالبة باستبعاد اعضاء الحزب الاشتراكي الماركسي المستقل (الوثيق الصلة بالسبارتاكيين الشيوعيين) من الحكومة.

وبدا ان الحاضرين كلهم كانوا يؤيدون هذه الاهداف بكل حماسة، ولكنهم كانوا منقسمين الى ثلاثة اطراف حول سبل تحقيق الاهداف.

وقدم «لوتفيتس» اقتراحاً جريئاً يقضي بأن يلح الجيش بهذه المطالب، بحيث تُرغم الحكومة على الاختيار بين الانصياع للعسكر، والمواجهة المكشوفة مع قادة الجيش، مبدياً استعداده لاستخدام القوة لاقامة حكم عسكري ديكتاتوري. وأيد اقتراح «لوتفيتس» الجريء هذا العديد من

الحاضرين، من ضمنهم العقيد «فلهلم راينهاردت» (يجب عدم الخلط بينه وبين الجنرال «فولتر (راينهاردت)»، وبطل شرق افريقيا، «ليتوف - فوربك». وابدى اثنان من الضباط على الاقل - «اوفن وميركر» - شكوكا حول الحكمة من وراء اللجوء الى القوة، وحثا على تحقيق الاهداف بممارسة ضغوطات على «إيبرت» بطريقة مباشرة او عن طريق «نوسكه». والطرف الثالث الذي راعه اقتراح «لوتفيتس» المتعلق بالدكتاتورية العسكرية كان يضم **«شتوكهاوزن»** وصهر «لوتفيتس» «همرشتاين - إيكورد»، اللذين اخذا يعبران تدريجاً عن معارضتهما لمثل هذا الاسلوب في العمل، باعتباره اسلوب فاشل بالتأكيد. وكان من بين عناصر الطرف الاخير واحد على الاقل قام بإحاطة «سيكت» علماً حول الاجتماع.

مؤامرة «لوتفيتس - كاب»

قرر «لوتفيتس» تكريس زعامته. ووضع خطط للسيطرة على الحكومة، رغم ان معظم ضباطه لم يكونوا الى جانب الخطوات المتطرفة التي كان يدافع عنها. وقام بتأليف تحالف مع الهيئات السياسية والوطنية المحافظة، وتداول الامر مع ضباط متقاعدين (مثل لودندورف وبوير) وعاملين (مثل ليتوف - فوربك، وراينهاردت، والقائد البحري هيرمان ايرهاردت، قائد لواء بحري من الوية الفيلق الحر). وتابع سعيه لكسب تأييد ضباط اكثر اعتدالا، مثل «اوفن» و«ميركر»، مستنداً الى ان مركزه والشرف العسكري سيدفعانهما الى دعمه حين يجد الجد. كما انه افلح في نقل «شتوكهاوزن»، الذي اعرب بصراحة عن معارضته لأي نوع من انواع الديكتاتورية.

بيد انه لم يكن في نية «لوتفيتس» ان يصبح هو نفسه ديكتاتورا، بل كان في نيته ان يتولى هذا الدور مسؤول حكومي مدني مجرب، وقادر على معالجة المعضلات السياسية والادارية، في حين يقوم هو بتجنيد نفوذه وخبرته العسكرية، دعماً للسياسة. وكان هذا المسؤول المدني الدكتور «فلفغانغ كاب»، الذي سبق له ان عمل مسؤولا في حكومة شرق بروسيا، واشتهر في خلال الحرب كأحد اعضاء حلف عموم المانيا، ومد يد العون الى «لودندورف»، إبان قيام الاخير بتدبير المكيدة التي دفعت بالمستشار «بتمان -

هولفيغ» الى الاستقالة في العام ١٩١٧. وقد رأى «لوتفيتس» فيه الشخص الذي يتمتع بالمؤهلات السياسية الضرورية والخبرة الادارية. فالتقت وجهتا نظر الرجلين حول مستقبل المانيا، فشرعا في خريف ١٩١٩ في التخطيط لاقامة ديكتاتورية مدعومة عسكرياً.

وعلى الرغم من الدليل القاطع على ان كثيراً من مرؤوسيه لم يشاركوه رأيه حول الحاجة الى ديكتاتورية عسكرية لانقاذ المانيا، فان «لوتفيتس» لم يخف عن اركانه احاديث الخيانة وخطط الانقلاب العسكرية. ونتيجة لذلك، ظل «سيكت» مطلعاً بصورة دائمة على تلك الاحاديث، والخطط، حتى بعد نجاح «لوتفيتس» في نقل «شتوكهاوزن» عنوة. وقد قام «سيكت» باطلاع «نوسكه» على هذه التطورات في عدة مناسبات. كما ان وزير الدفاع الذي يبدو انه قد استقى بعض المعلومات حول هذه التحركات من مصادر اخرى، كان يدرك بأن «لوتفيتس» كان محروماً من دعم اركانه له، فاستهان بالخطر نتيجة لذلك، ولم يأخذ تحذير «سيكت» على محمل الجد.

ولكن المؤامرة كانت خطيرة في الواقع، ففي بداية العام ١٩٢٠، اتفق «لوتفيتس» و«كاب» على ان يستوليا على السلطة في نهاية الربيع او في اوائل الصيف. بيد ان امرين مختلفين، وإنما مترابطين، أديا الى اضطراب توقيتاتهما.

ففي ٣/٢/١٩٢٠، قدم الحلفاء الى المانيا قائمة باسماء المسؤولين المدنيين الالمان، الذين يتوجب تسليمهم للحلفاء لمحاكمتهم كمجرمي حرب. واشتملت القائمة (التي قال الحلفاء عنها انها غير مكتملة) على اكثر من ٨٥٠ اسماً، وطالت في معظمها كبار المسؤولين العسكريين (بدءاً من ولي العهد وهندنبرغ) بالاضافة الى كبار الشخصيات الحكومية الرئيسية. (وطالب الحلفاء الهولنديين بتسليم الامبراطور، ولكن الهولنديين رفضوا ذلك). واجتمع رأي جميع الهيئات (ما عدا الاشتراكيين المستقلين والسبارتاكيين) ضد مطالب الحلفاء، بل ان الماركسيين انفسهم انتقدوا قيام الحلفاء بوضع اسماء مسؤولين لا غبار عليهم. ولو ان الحكومة ابدت اية نية

في الاذعان لمطالب الحلفاء (وهذا ما لم يحصل) لاستعد «لوتفيتس» للتحرك وانتزاع السلطة.

وكان الامر الثاني الذي قيد تحرك «لوتفيتس» و«كاب» يتمثل في تقدم لجنة المراقبة التابعة للحلفاء بطلب التسريح الفوري لألوية الفيلق الحر البحرية، التي كانت قد ضمت الى رايخسفيهر Reichswehr في السنة التي سبقت. فقد كانت استخبارات الحلفاء تعلم بأن تلك الألوية لم تكن مدربة تدريباً جيداً وحسب، بل كانت تربة خصبة للحس القومي الالماني ايضاً، (خصوصاً لواء المقدم البحري ايرهاردت). كما ان الحلفاء كانوا يعلمون من دون شك شيئاً عن خطط «لوتفيتس» ومراميه، وعن حقيقة ان للواء «ايرهاردت» دوراً هاماً في خطة «لوتفيتس» القاضية باحكام السيطرة على المانيا.

ولعل «سيكت» كان اكثر ادراكاً لأهمية لواء «ايرهاردت» في خطط «لوتفيتس». وبالتالي لم يكن ليرى سبباً للتخلف عن تسريحه نزولاً عند طلب الحلفاء. وسرعان ما اعلنت الحكومة عن عزمها على الرضوخ للحلفاء، واصدر «نوسكه» اوامره لبدء عملية التسريح في ١٢ آذار (مارس).

وعندما احتج «لوتفيتس» ضد امر التسريح، وقوبلت احتجاجاته بالاهمال، قرر الشروع في انقلابه دون ابطاء. وقام «سيكت» بانذار «نوسكه» من جديد، ولكن «نوسكه» لم يحرك ساكناً هذه المرة ايضاً. وفي مساء ١٠/٣ وجه «لوتفيتس» الى «إيبرت» و«نوسكه» طلبه الاخير بهذا الصدد، ولكن ردهما على طلبه جاء عنيفاً ومفاجئاً. وبدا «لوتفيتس» مرتبكاً لدرجة ان «نوسكه» لم يبال كثيراً بخطر قيام انقلاب، بل انه كان يتوقع مع «ايبرت» توجه «لوتفيتس» اليهما عند الصباح لتقديم استقالته، وحين لم يحدث هذا في اليوم التالي، اصدر «نوسكه» امراً بمنح «لوتفيتس» اجازة اجبارية. ولكن «لوتفيتس» لم يكن مثل «بولانجيه»(*) فقد اتصل بـ«إيرهاردت» الذي كانت حاميته تبعد عن «برلين» مسافة ٢٠ كلم فقط، وامره بتحريك رجاله الى

(*) قام الجنرال الفرنسي «جورج بولانيجه» بتزعم مؤامرة في العام ١٨٨٩ للاستيلاء على السلطة في فرنسا، وحين وجهت اليه تهمة التآمر، ترك رفاقه وفر الى بلجيكا.

المدينة، واشعر «كاب» وغيره من المشتركين في المؤامرة بخطوته، فاستعد هؤلاء الذين استبعدوا وقوع محاولة الانقلاب فترة طويلة، وتهيأوا للسيطرة على الحكومة. وكان لوتفيتس واثقاً من ولاء الحامية الصغيرة المتمركزة في المدينة، كما انه حصل على تعهد بأن تقف الشرطة ورجال الامن الى جانبه.

وفي مساء ١٢/٣، ايقن «إيبرت» و«نوسكه» بانهما اساءا تقدير نوايا «لوتفيتس»، وتحول هدوؤهما الى ترقب في البداية، ثم الى ذعر حين علما بأن قوات «ايرهاردت» في طريقها الى المدينة.

النتائج المأساوية.. إذا ما هوت عصا رايخسفيهر على رأس رايخسفيهر

قبل ان ينتصف الليل بقليل، دعا «نوسكه» كبار ضباط وزارة الدفاع ومنطقة «برلين» الى اجتماع طارىء. وحضر الاجتماع «راينهاردت» و«سيكت»، ورؤساء اقسام قيادة الجيش ووزارة الدفاع والجنرال «بورغهارد فون اوفن»، وقائد القطاع الثالث، اللواء البارون «إريك فون اولدرزهاوزن» رئيس اركان «لوتفيتس» العامة الجديد.

وكشف «نوسكه» امام الحضور عن نيته في إصدار امر الى حامية «برلين» بمقاومة اللواء البحري، ريثما يتم استدعاء مزيد من الحاميات البعيدة لدحر الانقلابيين. وسأل بلغة عاطفية ما اذا كان باستطاعته الاطمئنان الى ولاء الجيش. فبادر «راينهاردت» الى اعلان ولائه وموافقته على ضرورة إصدار اوامر بالدفاع عن المدينة ضد قوات «إيرهاردت».

ثم تكلم «سيكت». وقد قُصّت حكاية هذا الحدث المأساوي عدة مرات، وبكثير من التنميق. وغالباً ما حُذف من القصة ما قام به «سيكت» من نشاطات قبل الاجتماع وبعده، ومن دون ذكر ما حُذف، تصبح كلماته ومواقفه من «نوسكه» غامضة.

لا جدال في انه كان لـ «سيكت» مآخذ على «نوسكه»، لعدم اهتمام الاخير بتحذيراته المتكررة، ولفشله في اتخاذ الخطوات الكفيلة باحباط مؤامرة الانقلاب، وقد استبعد «سيكت» فكرة ان يبادر بنفسه الى اصدار امر باستقدام قوات من خارج «برلين» لحماية الحكومة. إذ ان امراً كهذا لا

ينطوي على كامل قوة سلطة الدولة، الا في حال صدوره عن «نوسكه». وقد كان «نوسكه» واثقاً من ان امره مطاع، من قبل قادة القطاعات بأسرها، في حين قد يعتبر الامر الصادر عن «سيكت» انقلاباً عسكرياً مضاداً، يتزعمه جنرال طموح آخر، بل قد يعجل في حدوث المواجهة العسكرية وإراقة الدماء، وهما امران طالما تمنى تجنبهما بأي ثمن. لكنه اعاد النظر في امكانية استخدام حامية «برلين» ضد «ايرهاردت»، وايقن بأن قوات الحامية يقلون عن مقاتلي اللواء البحري الاشداء عدة وعدداً وتدريباً. اضف الى ذلك ان جميع القادة المحليين موالون لـ«لوتفيتس»، وان مناصرة رجال الشرطة ورجال الامن له محسوم. فلم يعد هناك ما يعيق تحرك المتآمرين.

من هنا، جاء رد «سيكت» على طلب «نوسكه» بالدعم مشوباً بشيء من المرارة. فلقد قال:

«سيدي الوزير، ان الجنود لا يطلقون النار على الجنود. فهل تخطط لمعركة عند بوابة «براندنبرغ»، وقودها جنود كانوا منذ سنة ونصف السنة يقاتلون كتفاً الى كتف ضد العدو؟»

وتتحدث معظم المصادر عن وقوف «سيكت» وانسحابه من الاجتماع، ليمنح نفسه إجازة مفتوحة، بما يعني انه كان بذلك يغسل يديه من المسؤولية، وبأنه لا يملك الشجاعة المعنوية لاتخاذ موقف محدد لمصلحة الحكومة وضد المتمردين العسكريين.

وفي الحقيقة، استمر الحديث بين الرجلين دقائق اخرى معدودة، حيث ان «نوسكه»، الذي كان في هذا الوقت قد امتلكه الانفعال، وجه الى «سيكت» تهمة التواطؤ مع المتمردين سراً. ولم يكلف «سيكت» نفسه عناء تذكير الوزير بتحذيراته السابقة، بل انكر التهمة بكل هدوء، واضاف بقوله: «لكنني اعرف العواقب المأساوية، ولعلي الوحيد الذي يدرك اي نوع من القتال سيجري. فإذا ما انقض الـ Reichswehr على الـ Reichswehr، فسيُقضَى على روح الرفاقية في سلك الضباط، وستحل بالتالي الكارثة الحقيقية التي بذلت الجهود المضنية لتجنبها في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨».

عندها أعلن «نوسكه» بأنه سيستعين بالشرطة، لكن «سيكت» اجابه بتؤدة بأن الوقت لم يعد يسمح بذلك، لان رجال الشرطة تحت سيطرة «لوتفيتس». وحين وجد «نوسكه» ان الجميع، يشاطرون «سيكت» رأيه، باستثناء «راينهاردت» ومساعده الرائد «إريش فون غيلزا» (الذي كان يشتبه بانه كان في عداد المتآمرين)، عاتبهم لتخليهم عنه وهدد بالانتحار. وبعد ان ثاب الى رشده وتمالك نفسه، اختتم الاجتماع.

ظل «سيكت» في غرفة الاجتماع حتى آخر لحظة، ثم عاد الى مكتبه، وزود رؤساء أركان مجموعة القيادات والقطاعات السبع بمعلومات تتعلق بالانقلاب الوشيك، واشار عليهم بتجاهل اي امر يصدر عن اية سلطة غير الحكومة الشرعية. كما قام في وقت او في آخر بالطلب الى «اولدرزهاوزن» بإرسال المعلومات نفسها الى جميع قادة مجموعة القيادة الأولى وعاد من ثمّ الى بيته.

وبعد عودته الى بيته في الصباح الباكر، عمد «سيكت» الى ارسال استقالته الخطية الى الوزارة عن طريق مرافقه. وقام مساعده بدوره بنقل تعليمات «سيكت» الى «هييه»، رئيس اركان دائرة القوات. وكان على هذا الاخير ان يتوجه الى الوزارة بالملابس المدنية، والمكوث هناك في اثناء قيام حركة الانقلاب كممثل عن «سيكت».

وكان «إيبرت» في هذا الوقت قد دعا الى عقد مجلس الوزراء بإلحاح من «نوسكه» وقر الرأي على وجوب مغادرة الحكومة العاصمة والمباشرة في مقاومة المتمردين من «درسدن»، ما دامت مقاومتهم في العاصمة مستحيلة. وفي الساعة الخامسة صباحاً انسل الوزراء بسكينة في موكب من السيارات، بينما كان رجال لواء «ايرهاردت» في هذه الاثناء يتناولون حساءهم في مطعم يقع وراء بوابة براندنبرغ مباشرة، وكان قائدهم يمازح الجنرال «لودندورف» الذي «صدف» ان كان يقوم بنزهة صباحية في ذلك الوقت الباكر.

إنقلاب كاب

استولى «لوتفيتس» و«كاب» على مباني الحكومة في الساعة السابعة صباحاً، لكنهما ما لبثا ان ادركا بأن نصرهما لم يكن ناجزاً. ففي المقام

الأول، قام الحزب الاشتراكي بالدعوة الى اضراب عام يشل الحركة في المدينة. ولعل دعوته كانت بتوجيه من «إيبرت» و«بَوير» و«نوسكه» (رغم انكارهم لذلك فيما بعد). وفي المقام الثاني احجمت حفنة الموظفين المدنيين (باستثناء عدد قليل جداً) الذين حضروا الى مكاتبهم في صباح ذلك اليوم (السبت) عن الاعتراف بسلطة حكومة الانقلاب.

وكان الاخطر من ذلك كله، موقف المسؤولين العسكريين في وزارة الدفاع. فقد استدعي العقيد «بَوير» الى الخدمة الفعلية من قبل «لوتفيتس»، وعُين رئيساً لاركان مجموعة القيادة الاولى، بدلاً من «اولدزرهاوزن» (غير المخلص)، الذي كان قد قدم استقالته، شأنه شأن «سيكت». وبعد ان نصب «لوتفيتس» نفسه وزيراً للدفاع قام بإرسال «بَوير» الى الوزارة لتمثيله. وهناك لم يجد «بَوير» سوى حفنة من الضباط، وقد ارتدوا ملابس مدنية، بتوجيه من العقيد «هييه». وتنفيذاً لتعليمات «سيكت»، قام «هييه» بابلاغ «بوير» بأن الضباط لن يطيعوا سوى اوامر الجنرال «راينهاردت» (الذي كان معتكفاً في منزله) او الجنرال «فون سيكت» (الذي كان معتكفاً في منزله ايضاً)، وكان «لوتفيتس» قد عين الجنرال «فون درْ غولتس» على رأس دائرة القوات بدلاً من «سيكت»، لكن ذلك الضابط أحجم عن زيارة وزارة Reichwehr او تفقد مكاتب رئاسة الاركان، كيلا يتطاول على سلطة «سيكت». وبعد ان اطلع «لوتفيتس» على تقرير «بَوير»، قام بتفقد مكاتب قيادة الجيش، حيث تلقى «هييه» الرسالة نفسها. وقام هذا الاخير بابلاغ «لوتفيتس» ـ بكل احترام ـ بأنه يرى انهيار الحكومة الانقلابية وشيكاً. وتوقف «لوتفيتس» اذ ذاك عن إصدار الاوامر الى اركان قيادة الجيش، واستعاض عن ذلك بالاعتماد على مقر قيادة مجموعة القيادة الأولى لنقل الاوامر الى سائر القيادات العسكرية المنتشرة في أنحاء المانيا.

وقد وصل قسم من تلك الاوامر الى الجنرال «ميركر»، قائد الفرقة الرابعة (او القطاع الرابع) في «درسدن»، وهي تتضمن أمراً باعتقال اعضاء حكومة «إيبرت». ومع ان «ميركر» كان مناهضاً للانقلاب، فإنه كان يدرك بأن «لوتفيتس» لم يعف قط من منصبه بصورة رسمية. ويبدو انه قد وجد صعوبة

في التوفيق بين نداءات الواجب وبين المسؤولية. ويبدو ايضاً انه اطاع هذا الامر الصادر عن قائده الاعلى، وذلك لدى إبلاغه «إيبرت» والوزراء، الذين كانوا قد وصلوا الى «درسدن»، بأن لديه اوامر تقضي باعتقالهم، وحين اجاب «نوسكه» بان الاوامر غير شرعية، قال «ميركر» بهدوء يخالطه الغموض بأنه سوف يعتبر اوامره (اي اوامر نوسكه) دعوة تخوله دعم الحكومة الشرعية. وبعد أن قرر «إيبرت» و«نوسكه» بأن «ميركر» غير جدير بالثقة (ولعلهما كانا مخطئين في ذلك). توجها الى «شتوتغارت»، حيث كان الجنرال «فولترفون برغمان»، قائد القطاع الخامس، في حل من سلطة «لوتفيتس». وما ان وصلا الى المدينة حتى اعلن «برغمان» وقائد مجموعة القيادة الثانية الجنرال «رودريش فون شولر» ولاءهما للحكومة الشرعية.

وكان «سيكت» في هذه الاثناء قد توجه باللباس المدني الى وزارة العدل، لزيارة الدكتور«أويغن شيفر»، نائب المستشار ووزير العدل في حكومة إيبرت ـ بوير». وكان «شيفر» قد تطوع للبقاء في «برلين» لتمثيل الحكومة الشرعية، الامر الذي اربك قوات «لوتفيتس ـ كاب»، وجعلها تسمح له بالبقاء في مكتبه تحت مراقبة احترازية. وافاد «سيكت» نائب المستشار بأنه قدم استقالته فعلا، ولكنه لا يزال يحتفظ بمنصب رئيس دائرة القوات الى حين قبول الاستقالة، كما ابدى استعداده لتقديم خدماته حين تدعو الحاجة. وبعد حديث ودي قصير بين الرجلين، عاد «سيكت» الى بيته، ومكث فيه طوال الايام الاربعة التي سيطرت حكومة «كاب ـ لوتفيتس» في خلالها على «برلين».

وفي عصر يوم الاحد، اعلن الحزب الاشتراكي اضراباً عاماً في جميع انحاء البلاد، وظهرت نتائج الاضراب منذ الساعات الأولى من تنفيذه في صباح اليوم التالي (الاثنين ٣/١٥). فحتى العدد القليل من الموظفين البيروقراطيين الذين توجهوا الى مكاتبهم، وجدوا صعوبة كبيرة في الوصول الى مراكز عملهم، بسبب الشلل الذي اصاب كافة وسائط النقل. وفي معرض مناقشة حكومة «كاب» لطرق مواجهة الاضراب، اقترح المقدم البحري «ايرهاردت» اعتقال جميع قادة اتحاد العمال ورميهم بالرصاص، بل انه باشر في اصدار الاوامر المتعلقة بالاقتراح. غير ان «كاب» ذا الميول العمالية،

استطاع تعطيل اوامر «ايرهاردت» عن طريق «لوتفيتس». وفيما كان «كاب» وبعض الموظفين المدنيين يحاولون جاهدين معالجة مشكلة الاضراب المستعصية، قام «لوتفيتس» والعقيد «بَوير» باستعراض الموقف العسكري في ظل شيء من التشاؤم.

إن إطاعة الاوامر الصادرة عن سلطة اعلى تقليد راسخ في اي جيش، وبصورة خاصة في الجيش البروسي ـ الالماني، ومن هنا. فانه بالرغم من الاوامر المتضاربة التي صدرت في يومي ٣/١١ و٣/١٢، اعتاد قادة القطاعات الاربعة من مجموعة القيادة الأولى على تلقي الاوامر من «لوتفيتس»، في حين لبث القادة الثلاثة الآخرون في حيرة من امرهم. شان الجنرال «ميركر». زد على ذلك ان القادة جميعهم كانوا ـ ككثير من الضباط والجنود العاملين تحت امرتهم ـ متعاطفين مع «لوتفيتس» واهدافه الوطنية المناهضة للحلفاء ولمعاهدة «فرساي». وقد اعلن كل من اللواء «دتسيف فون إستورف»، قائد القطاع الاول، والجنرال «فون برنوت»، قائد القطاع الثاني، والجنرال «فون اوفن»، قائد القطاع الثالث، دعمهم للانقلاب. مع شيء من التردد عن القائد الاخير (فن اوفن). بينما لم يحرك الجنرال «ميركر» ساكناً، بل ظل ينفذ اوامر «لوتفيتس» بقدر كبير من الانتقائية. وكان بذلك القائد الوحيد من بين قادة مجموعة القيادة الأولى، الذي اعتبر نفسه واسطة اتصال بين السلطة الشرعية وسلطة المتمردين. بيد ان تردده في شجب نظام «كاب» جاء في غير مصلحته، حيث انه تعرض للطرد فيما بعد، نتيجة للتحقيقات التي اجرتها لجنة مدنية تشكلت بعد فشل الحركة الانقلابية.

وحيث ان قادة القطاعات الثلاثة من مجموعة القيادة الثانية قد التزموا بالدعم الذي اعلنه الجنرال «فون شولر» لحكومة «إيبرت»، فانه لم يكن امام «لوتفيتس» سوى الاعتماد على مساندة عدد قليل من كبار قادة الجيش. والاهم من ذلك حقاً، هو ان غالبية رؤساء الاركان وضباط اركانات القطاعات والحاميات كانت تعارض النظام الانقلابي. وقد ظل معظم ضباط مجموعة القيادة الأولى والقيادات الفرعية بعيدين عن مراكز عملهم ابان الانقلاب. وكانوا قد قاموا بذلك تنفيذاً لأوامر تلقوها من «سيكت». وهي اوامر كانوا

يستقبلونها بكل تفهم وتقدير، حتى ولو كانت احياناً تتعارض مع ما كانوا يستسيغونه من اهداف «لوتفيتس» و«كاب»[١].

وكان انعدام كفاءة «كاب» وتردده من جهـة، واضطراب المرامي السياسية للجنرال «لوتفيتس» وانصاره العسكريين من جهة ثانية، وصلابة المواجهة التي ابداها العمال إبان اضرابهم العام من ناحية ثالثة، هي الاسباب التي حكمت على الحركة الانقلابية بالاخفاق. بيد ان الذي اكد فشلها هو الولاء الثابت الذي اظهرته الاركان العامة تجاه الحكومة الشرعية. الولاء الذي حال دون تمكن «لوتفيتس» حتى من توحيد مبادرات الدعم التي كان الكثير من كبار الضباط وفئات واسعة من الجيش على استعداد لتقديمها له. واما المهندس الرئيسي لسقوط «كاب» و«لوتفيتس»، فهو «سيكت»، الذي كان جالساً في منزله على مقربة من الهاتف، يوجه تعليمات غير مباشرة الى سيل الزائرين الذين كانوا يقصدونه في «برلين» لاطلاعه على مجريات الاحداث.

وفي صباح يوم الاربعاء ٣/١٧، اعلنت حامية «برلين» ولاءها لحكومة «إيبرت»، وسارعت شرطة الامن الى مطالبة «كاب» بالاستقالة. فلم يلبث «كاب» ان تخلى عن «سلطته» لشريكه «لوتفيتس» وولى هارباً. وفي وقت متأخر من ذلك النهار، قامت مجموعة من جنرالات وعقداء وزارة الدفاع بزيارة «لوتفيتس»، وكان على رأسهم العقيد «هييه»، الذي طالب «لوتفيتس» بالاستقالة، بصفته نائباً لـ«سيكت» وناطقاً باسم المجموعة. لكن «بوير» نعت «هييه» بالمتمرد، وقيل بأن «لوتفيتس» شهر سيفه وهدد «هييه» بالقتل. والحقيقة ان «لوتفيتس» لم يستل سيفه، وإنما هزه ـ وهو في غمده ـ في وجه العقيد الركن الهادىء، واقتصر على الاعتقال. وما كان من «هييه» الا ان انحنى وغادر الغرفة يتبعه بقية أعضاء الوفد.

سيكت يمسك بزمام الامور

وفيما الانتفاضة تشهد نهايتها، حاول «لوتفيتس» عبثاً التفاوض مع

---

(١) See Harold J. Gordon, *The Reichswehr and the German Republic, 1919-1926* (Princeton, N. J.: 1957), for an excellent discussion of the actions and attitudes of the senior officers and the rank and file of the Army during the putsch.

الدكتور «شيفر». فقد رفض نائب المستشار قبول اية رسالة من الجنرال، ما خلا الاستقالة غير المقرونة بشروط، وقام، بعد مكالمة هاتفية مع حكومة «إيبرت»، بالطلب الى «سيكت» بتولي قيادة القوات العسكرية في منطقة «برلين». وقد طالب «نوسكه» بصراحة ان تُسلم تلك القيادة الى «راينهاردت» او الى «اوفن» الذي سبق ان عُين خلفاً للوتفيتس في ٣/١٢. ولكن «شيفر» كان لا يثق «بأوفن»، الذي اظهر براعة عالية في إنقاذ اصابعه من النار، كما كان يعلم جيداً بأن فضل سقوط «لوتفيتس» يعود الى «سيكت»، وهذا ما يجعله احق بالقيادة، بالرغم مما كان عليه «راينهاردت» من ولاء ثابت.

وما ان تسلم «سيكت» المهمة الجديدة، حتى اصدر اوامره بكف ايدي جميع كبار ضباط مجموعة القيادة الأولى الذين وقفوا الى جانب «كاب» و«لوتفيتس»، وكان مقر قيادة مجموعة القيادة الأولى في هذا الوقت تقريباً يشهد مسرحية مأساوية من فصلين، وكانت وقائع الفصل الوجيز منهما استقالة «لوتفيتس» الذي ظل مصراً حتى النهاية على القول بأن كل ما فعله شرعي وطبيعي. وشاءت سخرية الاقدار ان تؤدي استقالته الى تعيين «سيكت»، الجنرال الوحيد الذي استبعده اثناء توليه السلطة، خلفاً له في قيادة الجيش.

وكان الفصل الثاني من المسرحية المأساوية متطابقاً مع الايقاع المتصاعد المعروف في المأساة الاغريقية. ففي بداية حركة الانقلاب، امر «لوتفيتس» باعتقال صهره الرائد «همر شتاين ـ إيكورد» بسبب رفضه لاطاعة الاوامر. وها هو «همرشتاين» الآن يرد التحية بأحسن منها معتقلاً «لوتفيتس». ولكن ما ان علم «سيكت» بذلك بعد ساعات قليلة، حتى اصدر امره باطلاق سراح سلفه في الحال.

وقد قيل بأن «سيكت» وجد في مسؤولية التعامل مع سجين ذي رتبة عالية عبئاً ثقيلاً، ولكن من وجهة تقنية، لا يعتبر الضابط المعتقل سجيناً، ناهيك بأن اطلاق سراح «لوتفيتس» كان الخطوة الأولى في برنامج المصالحة الذي كان «سيكت» قد خطط له. وفيما عدا قرار طرد جماعة الانقلاب، لم يتخذ «سيكت» اي إجراء تأديبي ضد اي من الذين ساندوا الانقلاب. بل ان

قرار الطرد نفسه انحصر في عدد قليل جداً من كبار الضباط ومن ضباط الاركان العامة الذين عصوا امره وساندوا «لوتفيتس» و«كاب».

وكان السبب الأهم الذي دفع «سيكت» الى الاسراع في معالجة ذيول الانقلاب، تصاعد موجة عنف شيوعية في منطقة الرور. فقد توقع السبارتاكيون ان تؤدي الازمة التي مرت بها البلاد الى شل الحكومة والجيش، الامر الذي جعلهم يحاولون بسط سيطرتهم على مصانع الرور ومناجمها.

ولكن النتيجة جاءت مغايرة لتوقعاتهم، وكان الرد عليهم سريعاً ومؤثراً.

من جهة اخرى، بادر «نوسكه» الى تقديم استقالته في ٣/٢٤ بسبب خلافه مع «سيكت» من ناحية، وبسبب الخيبة التي شعر بها إثر قيام «إيبرت» و«بوَير» و«شيفر» باختيار «سيكت»، كقائد عام جديد للجيش بدلاً عنه. وقد احتل مركزه الدكتور «اوتو غيسلر». كما سارع «راينهاردت» بدوره الى تقديم استقالته من رئاسة قيادة الجيش لما رأى انه لم يعد موضع ثقة الحكومة. وما ان تسلم «سيكت» منصبه في ٣/٢٧، حتى عمد الى حث «غيسلر» على تعيين «راينهاردت» قائداً للقطاع الخامس بدلاً من الجنرال «فولنر فون برغمان»، على ان يتولى الاخير قيادة مجموعة القيادة الأولى. وكان «سيكت» يهدف من وراء ذلك إلى مكافأة الضابطين على إخلاصهما.

وهكذا تم في ٣/٢٧ جلاء الغموض الذي كان يكتنف قيادة الجيش قبل قيام الحركة الانقلابية، واختفت بذلك صور «نوسكه - راينهاردت - لوتفيتس» وبقي «سيكت» القائد الاوحد للجيش قولاً وعملاً، مثل رؤساء اركان ما قبل الحرب. بينما مارس خليفته في رئاسة دائرة القوات، اللواء «هييه» عمله على طريقة رئيس هيئة العمليات العليا في عهد الجيش الامبراطوري القديم.

وسرعان ما وجه «سيكت» اهتمامه الى انتفاضة «الرور»، التي كانت قد اشتعلت في المنطقة المنزوعة السلاح. واشار على «إيبرت» مطالبة الحلفاء

بالسماح للقوات الالمانية بدخول تلك المنطقة لأداء مهمة تستغرق عشرين يوماً. وكان واثقاً من ان المدة التي حددها كافية لاخماد الانتفاضة. وحين رفض الحلفاء الطلب، ادخل «سيكت» قواته الى المنطقة في ٤/٢، بعد حصوله على موافقة «إيبرت» وأنجزت هذه القوات مهمتها، وغادرت المنطقة في ٤/١٠. ثم اجهزت بعنف بالغ على بقايا جيوب الانتفاضة في انحاء اخرى من البلاد في ٤/١٥. ورداً على خرق معاهدة «فرساي» قامت القوات الفرنسية، باحتلال «فرانكفورت»، و«دارمشيتادت»، و«دويزبورغ»، ولم تنسحب من تلك المدن إلا في ٥/١٧.

كان «سيكت» قد اضطر الى الاستعانة ببعض وحدات الفيلق الحر (الذي كان قد تقرر تسريحه) للقضاء على الانتفاضة. وكان من بين تلك الوحدات لواء «ايرهاردت»، وكان «ايرهاردت» قد التمس من «سيكت» تقبل ولائه الشخصي لرئيس قيادة الجيش الجديد، ووجد لدى «سيكت» تجاوباً مع تحذير بألا يعتبر التجاوب عفواً عن عدم إطاعته للأوامر، إبان مساندته لـ «كاب». واذا ما فكر «ايرهاردت» لحظة بأن ارجاء قرار التسريح كان يعني الغاء للقرار، فانه كان مخطئاً من دون شك. اذ ما ان سُحقت انتفاضة «الرور»، حتى اصدر «سيكت» امراً باستئناف العمل في قرار التسريح، بدءاً بلواء «إيرهاردت».

سيكت كرئيس غير رسمي للاركان

مارس «سيكت» قيادته للجيش وللاركان العامة طيلة ست سنوات ونصف السنة بأسلوب شبيه الى حد بعيد بأسلوب «مولتكه» و«شليفن». وحينما ابتعد عن الاضواء بصورة مفاجئة في اواخر العام ١٩٢٦، لأسباب سيأتي ذكرها، كان الجيش الالماني قد خرج كلياً من محنة الحرب العالمية الأولى وذيولها، رغم ان القيود التي فرضتها معاهدة «فرساي» كانت لا تزال قائمة. وهذا لا يعني ان اعمال الشغب قد انتهت عقب فشل انقلاب «كاب» وتمرد «الرور»، ولكن «سيكت» كان دوماً سيد الاحداث، وكان قادراً على مواجهتها رغم انشغاله في إعادة تشكيل جيش المانيا الصغير وتقويته بهدوء.

وكان على «سيكت»، عقب انتصار بولونيا في الحرب الروسية -

البولونية (١٩٢٠ - ١٩٢١)، ان يخطط لحماية شرق بروسيا وسيليزيا من التهديد الذي بدأ يشكله تنامي الشعور القومي البولوني التوسعي. وتبلورت خطته في إعادة انشاء ما يشبه الفيلق الحر، تحت اسم القوات العمالية، او ما يسمى بقيادة العمل. وكانت هذه الوحدات، التي سرعان ما اصبحت تعرف باسم «الجيش الاسود» بسبب لون بزات عناصرها، تتلقى الدعم المادي من موازنة الجيش، وبشكل جزئي من تبرعات المنظمات الصناعية والزراعية، التي شُكلت هذه الكتائب من اجلها.

وكان القائد الرئيسي لتلك المنظمات شبه العسكرية، العقيد «فون شفار تسكوبفن». وهو ضابط ركن سابق، يحمل سمة مدنية، ولكنه كان يتلقى توجيهاته عملياً من «سيكت». وكان الاشراف الرسمي المباشر على هذه المنظمة، التي ارتفع عدد أفرادها بسرعة الى ٢٠ الف «عامل»، يتم عبر المقدم «فيدر فون بوك»، رئيس اركان القطاع الثالث. وكانت الاركان العامة تراقب اعمال المنظمة من خلال مجموعة اركان صغيرة في دائرة القوات، ضمت الرائد «فون شلايخر» و«فن همرشتاين - إيكورد».

ولقد قيل بأن هذه كانت المرة الأولى التي تجاوز فيها «سيكت» شروط معاهدة «فرساي». الا انه كان هناك من حاول ان يوفق بين تهربه من الالتزام بشروط المعاهدة العسكرية وبين شرفه العسكري، على اعتبار ان عمله جاء نتيجة لقيام الحلفاء بخرق مضمون الاتفاقية لدى غزوهم لمنطقة «الرور» واحتلالها في العام ١٩٢٣. وفي الواقع، يمكن القول بأن بوادر التهرب من المعاهدة تعود الى التوصيات التي تقدم بها «سيكت» بعد ٥ تموز (يوليو) ١٩١٩، إبان توليه رئاسة اللجنة التحضيرية اولاً ورئاسة دائرة القوات ثانياً.

ومع ان «سيكت» لم يكلف نفسه عناء شرح الدوافع الكامنة وراء ما قام به بأي شكل من الاشكال، فمن الواضح انه لم يعتبر التهرب من معاهدة «فرساي» عملاً يتنافى مع شرفه كضابط ألماني. فهو لم يقسم يمين الولاء امام حكومات الحلفاء، او امام اي قسم من اقسامها المشرفة (على تنفيذ المعاهدة). وهو غير مسؤول امام اي جهة سوى حكومة الجمهورية

(الالمانية)، وبالتالي كانت هذه المسؤولية تفرض عليه بذل كل ما في وسعه لدعم هذه الحكومة، وحماية حدود الامة من اي غزو اجنبي. وهذا يتضمن، كما تقتضي تقاليد الجيشين الالماني والبروسي، مسؤولية حفظ الجيش وحمايته، وتعزيز الروح الرفاقية والشرف الجماعي لسلك الضباط. وكان يؤمن كضابط اركان، بأن لا شيء يضمن القيام بتلك المسؤوليات، سوى بقاء الأركان العامة، التي كانت في نظره (وفي نظر معظم الضباط الالمان لأكثر من قرن) عقل الجيش وقلبه.

من هنا انطوت نيته، منذ توليه المسؤولية ككبير مسؤولي قيادة الجيش، وكرئيس (بحكم الامر الواقع) لاركان التخطيط في الجيش، على التهرب عن سابق تصميم من البند الذي كان يحظر قيام اركان عامة المانية. فقد كان يؤمن بأنه ما دام هناك جيش، فلا بد ان يكون هناك اركان عامة (بغض النظر عن التسمية)، من نمط الاركان العامة التي كانت لـ «شارنهورست»، و«مولتكه» و«شليفن». وكان نصب عينيه دائماً مثال التحدي السري، الذي واجه به «شارنهورست» والمصلحون الامبراطور «نابليون» ومعاهدة باريس.

ومن هنا ايضاً، لم يكن إنشاء **قيادات** العمل نقطة تحول في تاريخ الجيش الالماني لما بعد الحرب، وإنما مجرد حدث في سياق سياسة منفذة لجيش أُحسن إنشاؤه. وهذا النوع من التهرب، اذا لم نقل الخرق المباشر للمعاهدة، لا يمكن اخفاؤه، كما هي الحال فيما يتعلق بالتدريب السري او بنشاطات التخطيط التي كانت تقوم بها الاركان العامة. ولقد علت صيحة لجنة المراقبة التابعة للحلفاء، ولكن الحلفاء كانوا يعترفون بأن الخطر البولوني على المانيا خطر حقيقي. ورغم ان قسماً صغيراً منهم فقط لم يكن ليسره قيام بولونيا بضم سيليزيا او شرق بروسيا او بضم جزء من كل منهما، فان عملاً كهذا سيؤدي الى اندلاع حرب تضطر الحلفاء الى احتلال المانيا للحيلولة دون عودتها الى التسلح. وفي حين ان فرنسا كانت راغبة في ذلك، فان بريطانيا والولايات المتحدة لم تكونا مستعدتين لمثل تلك الخطوة العنيفة. ولذلك، غض الحلفاء النظر عن قيام الجيش الاسود، ووضعوا العراقيل امام نوايا بولونيا.

تقويم تجربة الحرب العالمية الاولى

بدأت الاركان العامة تقويمها للتجربة العملياتية للحرب العالمية الأولى بإشراف الجنرال «غرونر»، فوراً بعد الانسحاب من «الراين» تقريباً. وكان العقيدان «فلهلم هييه» و«أرنست هاسه» اشد الضباط اهتماماً بهذا التقويم، وبصياغة خطط الدفاع عن حدود ألمانيا الجديدة. وكان «سيكت» قد احجم عن السماح للاركان العامة المتسترة في وضعيتها الجديدة تحت اسم دائرة القوات، بالتدخل جدياً في هذا التقويم، او في عملية صياغة مفاهيم تكتيكية وعقائد قتالية جديدة.

واقتفاء لأثر «شارنهورست»، و«موفلينغ»، و«كراوزنيك» و«رايهر»، و«مولتكه» و«شليفن» في الفهم التقليدي للدراسة التاريخية، انغمست الاركان العامة السرية في دراسة الحرب الاخيرة، وكانت هناك عدة نقاط رئيسية مداراً للاستقصاء: فشل خطة «شليفن» في الغرب رغم اقترابها من النجاح، شبه التام، الذي لقيته عقيدة «شليفن» في «تاننبرغ»، «لغز الخنادق»، فشل البريطانيين في استخدام الدبابات في «السوم» و«كامبري» بعد ان كادوا ينجحون، فشل الالمان في استخدام دباباتهم في هجمات «السوم» (١٩١٨)، و«ليس»، و«المارن الثانية»، أهمية القوة الجوية في دعم المعركة البرية، وبصورة خاصة لدى قيام البريطانيين باستخدام القوة الجوية للمساعدة في ابطاء ومن ثم ايقاف الخرق الالماني في «السوم» (١٩١٨).

ووازن المحللون الألمان بعناء كبير بين محاولات الخرق العديدة التي قام بها الالمان والحلفاء على الجبهة الغربية ابتداء من العام ١٩١٤ ومروراً بالعام ١٩١٧، وبين عمليات الخرق الناجحة التي قام بها الالمان في بداية العام ١٩١٨، وذلك للوقوف على اوجه الاختلاف والشبه بينها.

واخذت عملية تقويم خطة «شليفن» في اعتبارها كافة الانتقادات التي يمكن الاطلاع عليها في كتابات المحللين العسكريين الذين سبق الاستشهاد بهم في هذا الكتاب ـ وفي المقابل، قضى حكم الاركان العامة بسلامة مفهوم «شليفن»، وبإمكانية نجاحه فيما لو اخذ من حيث المبدأ بمفهوم قوة الجناح الايمن الساحقة من قبل «مولتكه». كما قضى حكم الاركان العامة بأن اداء

جيش «كوك» الأول في معركتي «اورك» و«المارن» قد دحض ادعاء الجنرال «فالتر بلوم» القائل بأن الاعتبارات اللوجستيكية المعقدة هي التي ادت الى الاخفاق.

وبعد تبرئة ساحة «شليفن» إرضاءً لغالبية ضباط الأركان العامة، بدأ المحللون التنقيب لتحديد الاسباب الرئيسية للفشل.

ففي اشارة ذات مغزى، اولوا عيوب «مولتكه» اهتماماً اقل من اهتمامهم بمنجزات «جوفر». فلقد تمت تعبئة القوات الفرنسية بسرعة اكبر مما كان يتوقعه الألمان. وكانت النقطة الأهم في المحصّلة قدرة «جوفر» في تجاوز الهزائم الأولى التي تعرض لها في «معارك الحدود»، ونجاحه في إعادة نشر الجيش الفرنسي قبل معركة «المارن». وكان واضحاً للنّقاد الألمان، بأنه في ظل الظروف التي كانت قائمة في شهر آب (اغسطس) وبداية شهر أيلول (سبتمبر)، لم يكن بوسع الجناح الأيمن الضعيف الوقوف في وجه قوات «جوفر»، نظراً لمحدودية سرعة المشاة الألمان وقُدرتهم على التحمل.

وفيما يتعلق بنجاح ما سمي بتكتيكات «هوتير»، أبدت المراجعة النقدية الألمانية تحليلات الاركان العامة في زمن الحرب. وقد نُظر الى المرونة في تكتيكات الرمي والحركة كاستخدام منطقي ـ بالنسبة الى المبادىء العسكرية التقليدية ـ للأسلحة الجديدة التي افضت الى بروز ثورة تأثيرات الاسلحة، التي بدأت مع ظهور البندقية ذات السبطانة المحلزنة والرصاصة المخروطية في منتصف القرن التاسع عشر. وكان هذا التحليل يتطلب مزيداً من الجهود. وكان السؤال الاساسي: «لماذا افلت الانتصار الاستراتيجي من يد لودندورف رغم احراز مثل هذه الانتصارات التكتيكية؟».

ومن الامور التي وضحت للمحللين الألمان حقيقة ان التكنولوجيا العسكرية للقرنين التاسع عشر والعشرين قد زادت قوة السلاح زيادة كبيرة، دون ان تتم في المقابل الاستفادة من الحركة الناجمة عن استخدام هذه الاسلحة. ومن الجلي انهم ادركوا بأن هناك علاقة ديناميكية بين قوة النيران والحركية والانتشار[٢]. وان لعدم حدوث تغيير في الحركية مواز للتغيير في قوة

(٢) See William G. Stewart, «Interaction of firepower, Mobility and Dispersion,» *Military Review*, March 1960.

النيران تأثيرين متبادلين في ميدان المعركة. فللتعويض عن العجز في تحريك قوات الاحتياط بسرعة، أنكرت التوجهات التاريخية نحو المزيد من الانتشار، الذي تصاحبه عادة قوة نيران متزايدة، وكان البديل الوحيد حشد القوات بكثافة، كما في الحروب السابقة، مع محاولة لتأمين الحماية من قوة النيران المتزايدة، باللجوء الى الخنادق والمخابىء. ومن هنا، لم يكن التركيز على دور التحصينات الميدانية ليسمح باجراء اي مناورة قبل تحقيق خرق ما، في حين ان تحصينات المدافعين المدعمة بقوة نيران اشد، تجعل الخرق بطيئاً الى حد يسمح للمدافعين بحشد الاحتياطي خلف القطاع الدفاعي المهدد، قبل ان تسمح وسائط التحرك المتاحة للمهاجمين باستغلال الخرق بالسرعة المطلوبة. وتكون النتيجة تكبد الطرفين لخسائر جسيمة، واللجوء الى خط جديد من الخنادق، مقابل تقدم لا يتجاوز بضع مئات من الامتار.

وقد وعت الاركان العامة بالطبع تلك الظواهر في خلال الحرب، وردت عليها باعتماد تكتيكات «هوتير». ولكن رغم نجاح التكتيكات الجديدة هذه في «ريغا» و«كابوريتو» والأيام القليلة الاولى من هجوم «السوم»، فقد افلت النصر من يد الألمان. وقد اصبح السبب الآن واضحاً. اما بالنسبة الى «سيكت»، فان اجابته على السؤال تتلخص بكلمات ثلاث: حركية غير كافية.

وكما حالت محدودية السرعة، والتحمل والحركية لدى المشاة الألمان دون نجاح «مولتكه» في تحقيق خطته في العام ١٩١٤، فانها حرمت الجيش الالماني ايضاً من قطف ثمار الانتصار الاستراتيجي لانجازاته التكتيكية في العام ١٩١٨.

لقد كان لهذه الحركية الميدانية الضعيفة ثلاث نتائج رئيسية:

فبعد ان حققت المجموعات القتالية لتكتيكات «هوتير» الخرق، وجد الألمان انفسهم يتقدمون في ارض عصفت بها اربع سنين من الحرب، فالطرق والجسور مدمرة، والخنادق العميقة تملأ الريف، الذي كان قد تحول الى ارض محروثة بالقذائف. ولم يكن الالمان ، يتمتعون بقدرة لوجيستكية

كافية لتأمين وصول الذخيرة والمؤن وغيرها من الامدادات الى قواتهم التي كانت تشق طريق تقدمها عبر اراض سبخية وعرة المسالك.

وكان الالمان يعانون ايضاً من نقص في القدرة على التحرك الاستراتيجي. فالى جانب افتقارهم الى قوات تحرك سريع قادرة على استغلال الثغرة - وهو الدور الذي كانت تقوم به الخيالة في الحروب السالفة - فانهم كانوا يفتقرون حتى الى الوسائط اللازمة لنقل اعداد كبيرة من المشاة خلف قوات الخرق، ومد القوات المتقدمة بالتعزيزات اللازمة، وتبديل الوحدات المرهقة بأخرى تتمتع بالنشاط والحيوية.

وما ان يتحقق الخرق اخيراً، حتى يسبق مشاة الخط الأول مدفعيتهم، التي لم يكن بمقدورها التقدم بأعداد كبيرة فوق ميدان المعركة المغطى بالمستنقعات. وبسبب تلكؤ قوة النيران في تقدمها، يغدو الألمان المتقدمون بلا قوة نيران تقيهم من ضربات الطائرات البريطانية، او تحافظ على زخم زحفهم باتجاه البريطانيين، الذين كانوا يتمكنون في النهاية من تحريك قواتهم الاحتياطية وسد الثغرة.

إن اعتقاد «سيكت» البدهي بأن التحرك سيكون مفتاح النصر في اي حرب مقبلة، قد ايدته هذه الدراسات التاريخية التي قامت بها الاركان العامة. وقد بدا واضحاً لعدد كبير من محللي الاركان العامة، بأن الاختراع البريطاني الجديد (الدبابة) سيجيب ولو جزئياً على عيوب الحركية الثلاثة عند الألمان. وكان باستطاعة الطائرة بالطبع الاسهام في تأمين دعم متحرك بالنيران. وبفضل ابتكار المدفعية ذاتية الحركة، عن طريق تركيب المدافع فوق عربات مجنزرة، وتركيب هياكل شاحنات فوق جنازير، اصبح بالامكان الحصول على وسائط لنقل الرجال والمؤن بسهولة مماثلة لسهولة تحرك الدبابات.

وكان ثمة ضابط واحد من ضباط الاركان العامة - النقيب هانز غودريان - يولي اهتماماً خاصاً بإمكانية استخدام الدبابات والجرارات مجتمعة لخلق وحدات مشاة راكبة وسريعة الحركة، تستطيع إحراز الانتصار الذي افلت من

قبضة الالمان على ضفاف «المارن» و«السوم» وفي العام ١٩٢٤، اصبح ذلك الضابط معروفاً كأشد المتحمسين في الجيش لمكننة المشاة وتزويدهم بالسيارات.

التعاون مع السوفييت

وفي الوقت نفسه، فان القلق المستمر حيال بولونيا دفع «سيكت» الى الشروع في واحد من اكثر برامجه اثارة للجدل. فلنفس الاسباب التي جعلت بروسيا تسوي خلافاتها مع روسيا القيصرية في سبيل عمل مشترك ضد بولونيا، قرر «سيكت» ضرورة التقارب مع الاتحاد السوفييتي. ومع انه حرص على تحاشي التدخل في الشؤون السياسية، او اتخاذ اي اجراء من شأنه تقييد حركة الحكومة الالمانية، كما حدث في منتصف العام ١٩٢٠، إبان تهديد القوات الروسية لوارسو، فقد كان يبارك بعض المحادثات السرية بين اعضاء من اركانه وبعض اعضاء اركان الجنرال. «ميخائيل توخاتشيفسكي»، ويخطط لتدخل محتمل في بولونيا. اما من الذي امتلك زمام المبادرة في المحادثات العسكرية الروسية ـ الالمانية، فليس واضحاً، وان كان الاعتقاد يميل الى ان الألمان كانوا البادئين في ذلك.

وفي اي حال، وعلى اثر هزيمة الجيش الروسي في الحرب الروسية ـ البولونية، سعى لينين سراً، ولكن بصورة رسمية، للحصول على مساعدة الالمان في اعادة تنظيم الجيش الاحمر. وليس من المؤكد فيما اذا كان ذلك السعي ثمرة المحادثات غير الرسمية بين الضباط الالمان والضباط السوفييت. ولكن «سيكت» وجد فيه فرصة ذهبية. وكان قد شكل مجموعة تخطيط وتنسيق صغيرة (ولعله شكلها استباقاً للطلب الذي تقدم به السوفييت) ضمت ضباطاً اكفاء، منهم العقيد «نيكولاي» والعقيد «هاسه» والمقدم «فون شلايخر». وعقدت محادثات سرية في «برلين» و«موسكو» (كانت الاجتماعات في «برلين» تعقد في منزل شلايخر).

وفي ١٩٢١/٥/٦، تم التوقيع على اتفاقية تجارية المانية ـ سوفييتية. وتمثلت الاهمية العسكرية في هذه الاتفاقية غير العسكرية، في قيام «شركة تعزيز المشاريع الصناعية» في «برلين»، بعد وقت قصير من توقيع الاتفاقية، وكان

مديرها العام ضابط سابق، هو الرائد «فريتس تشونكه». وتبع ذلك اقامة مصنع لطائرات «يونكر» بالقرب من موسكو، وتأسيس عدد من المصانع المشتركة في الاتحاد السوفياتي لصناعة مختلف انواع المعدات العسكرية والذخائر. وقام الجيش السوفييتي في الوقت ذاته بافتتاح عدة مدارس خاصة بالتدريب على الدبابات والطيران، وكانت تلك المدارس تضم الكثير من المدربين والطلبة الالمان. كما أُقيمت في موسكو مفوضية عسكرية سرية المانية، كان يزورها من وقت الى آخر ضباط مجموعة التخطيط والتنسيق التابعة لمكتب القوات.

ولقد نجم عن هذا التعاون العسكري السري بين الالمان والروس العديد من النتائج، لم يكن اقلها التقارب السياسي، الذي تكرس في اتفاقية «رابالو» (١٩٢٢/٤/١٦) على النحو الذي توقعه «سيكت». اما الحلفاء الذين لمسوا بعض ما كان يجري بين الالمان والروس من تعاون عسكري وصناعي، فقد وضعوا في حسابهم بأن اتفاقية «رابالو» تتضمن بنوداً عسكرية سرية. ولكن «سيكت» نفى ذلك صراحة. (وفي اي حال، لم تكن هناك، في ضوء ما كان يجري، حاجة الى اية بنود سرية من شأنها ان تثير استياءً عامة فيما لو كشفت).

وكان الجانب العسكري الهام في هذا التعاون بالطبع اتاحة الفرصة للصناعة الالمانية لكي تواصل خبرتها في انتاج المعدات العسكرية (المحظر انتاجها بموجب معاهدة فرساي)، ولكي تواصل، بصورة خاصة، نشاطها في تطوير نماذج محسنة من الدبابات والطائرات الحربية. ويعادل ذلك في الأهمية اشتراك المانيا في التدرب على هذه الاسلحة المحظورة. كما لم تكن فرصة إجراء تقويم للشؤون والاجراءات والمذاهب العسكرية السوفياتية تقل اهمية عما سلف. وقد كان «سيكت» مرتاحاً الى تحقق كل ما كان يأمله ويتوقعه من الاتصال السري بالاتحاد السوفييتي.

الاركان العامة تستعيد عافيتها سراً

كان «سيكت» في هذه الاثناء يقتفي آثار أسلافه في تخصيص الاهتمام الاكبر لمسألة المحافظة على الاركان العامة وتحسينها وضمان

استمرارها. صحيح انه لم تكن هنالك دورات اساسية لتخريج ضباط اركان عامة جدد، نظراً الى عدم وجود اكاديمية حربية او اي مظهر علني من مظاهر الاركان العامة، ولكن تمت معالجة ذلك باللجوء الى نظام الامتحانات والتوصيات، كما كانت الحال منذ اكثر من قرن مضى. وصحيح انه لم تكن هنالك مدرسة تقليدية، ولكن كانت هنالك دورات اكاديمية عسكرية لا تقل دقة وصرامة، تكونت من برامج مدتها سنتان، ونفذت بصورة لا مركزية في مقرات قيادات القطاعات السبعة.

وبالاضافة الى ذلك، أُخضع الطلبة المتفوقون الذين اجتازوا الدورات السرية المكثفة، لدورات خاصة مدتها سنة واحدة في جامعة برلين. وقد اسندت مهمة الاشراف على مدارس القطاعات وعلى الطلبة المتفوقين في جامعة برلين الى مكتب القوات. ولم يكن هذا النظام الجديد ليجاري نظام الاكاديمية الحربية، ولكن «سيكت» اعتبره بديلاً فعالاً الى درجة معقولة.

ولم تمنع ازمات العام ١٩٢٣ المتكررة «سيكت» من مواصلة اشرافه الشخصي المباشر على نشاطات الاركان العامة التعليمية، وعلى برامج التدريب المكثفة، التي كان ينفذها الجيش ككل. وكان هدف «سيكت» ان يؤمّن بجيش صغير قدرة قصوى تتعدى متطلبات زمن السلم الى متطلبات زمن الحرب، انطلاقاً من قناعته بأن بوسع كل ضابط ان يرتقي بمستوى قدرته على القيادة في زمن الحرب الى درجة او درجتين فوق رتبته في زمن السلم. وقد انبأتنا الايام بنجاح «سيكت» في هذا المضمار نجاحاً ناجزاً.

ازمات ١٩٢٣

حل العام ١٩٢٣ حاملاً معه الشؤوم. ففي ١/٩، اعلنت لجنة التعويضات لدى الحلفاء بأن المانيا قد تخلفت عن تسليم الفحم والخشب. وبعد ذلك بيومين دخلت القوات الفرنسية والبلجيكية المنطقة المنزوعة السلاح لاحتلال المنطقة الصناعية من «الرور». ولم يقف الجيش الالماني في وجه الخطوة الفرنسية هذه، ولكن «سيكت» كان مصمماً على القتال فيما لو تمادى الفرنسيون في تقدمهم. وادى وقوع اغنى منطقة صناعية في ايدي الفرنسيين،

وقيام الفرنسيين بتقديم الدعم للحركات الانفصالية في بافاريا واقاليم «الراين»، وتزايد حدّة تهديدات بولونيا(حليفة فرنسا)، الى اقناع «سيكت» بأن فرنسا في صدد تفكيك المانيا، من دون الحاجة الى شن حرب. فنقل الى السفير الاميركي رسالة وهو يأمل ان تصل الى مسامع الفرنسيين: «المسافة بين دورتموند وبرلين ليست طويلة، ولكنها تمر عبر انهر من الدم». ووصف الغزو الفرنسي علانية بأنه خرق للمعاهدة، لكي يبرر خطوات الاستعداد الالمانية المخالفة للبنود العسكرية من المعاهدة.

وعلى الرغم من تصريحاته الجريئة، وخطواته العلنية والسرية المنافية لشروط معاهدة «فرساي»، فقد اتسمت تقديراته التي رفعها الى المستشار «فلهلم كونو» بالتشاؤم الواقعي. فقد كان يرى بأنه في حال نشوب الحرب، لن يقوى الالمان على طرد الفرنسيين من «الرور» حتى ولو تم استدعاء احتياطي المتطوعين المشكل حديثاً بصورة غير شرعية، بل ساورته الشكوك في إمكانية الحؤول دون محاولة الفرنسيين للتوغل في الأراضي الألمانية، وفي حال قيام البولونيين بغزو المانيا في الوقت ذاته سيفقد الألمان سيليزيا وشرق بروسيا. وتصبح امكانية الدفاع عن «براندنبرغ» وبرلين مسألة غير مؤكدة. ولكن هذا التقويم لم يجعل «سيكت» يتردد في بذل كل جهد - ضمن الحدود الكفيلة بعدم دفع بريطانيا واميركا الى التدخل - استعداداً للقتال على اي من الجبهتين، او على الجبهتين معاً.

وغدا احتمال نجاح فرنسا في تحقيق الاهداف السياسية والاقتصادية الكامنة في عملية احتلال «الرور» وفي دعم النشاطات السياسية في المانيا، احتمالاً جدياً. وقد نجم عن فقدان منطقة «الرور» البالغة الاهمية بالنسبة الى الاقتصاد الالماني، وركود الحركة التجارية بفعل المقاومة السلبية التي أبداها الالمان حيال الاحتلال، وصول المانيا الى حافة الافلاس، مما ادى الى نشوء اضطراب اجتماعي خطير في انحاء البلاد، وعزز احتمال انفصال بافاريا عن الجمهورية الالمانية، وسادت المانيا اقسى معالم التضخم في التاريخ الحديث. فالمدخرات اختفت، واصبح عدد كبير من افراد الشعب اقرب الى شبح المجاعة. كما غمرت البلاد موجة عارمة من العنف، كان معظمها بتدبير

من الشيوعيين. وأدى الوضع الاقتصادي المتدهور الى سقوط حكومة «كونو» في ١٢/٨/١٩٢٣، ومجيء الدكتور «غوستاف شتريزمان»، الذي كان يعتبر افضل من تولى رئاسة الحكومة في «فيمار».

ورضوخاً لما لا بد منه، قام «شتريزمان» في ٩/٢٦ بأول خطوة للوصول الى تسوية مع فرنسا، وكانت الخطوة إنهاء سياسة المقاومة السلبية ضد احتلال «الرور». بيد ان بادرة الاعتدال هذه، ووجهت بانتقادات عنيفة من قبل المحافظين، الذين اعتبروا الخطوة دليل ضعف ومحاولة لاسترضاء العدو. اما حكومة بافايا، التي كانت منذ انقلاب «كاب» في ظل السيطرة اليمينية بزعامة «غوستاف فون كار»، فقد اعلنت حالة الطوارىء، ونصب «كار» ديكتاتوراً فعلياً.

وبوصول خطر انفصال «بافاريا» الى مداه الأقصى، وتعاظم خطر الاضطرابات التي كانت تثيرها الفئات اليمينية على نحو كاد يفوق القلاقل الاخيرة إلتي اثارها الشيوعيون خطورة، دعا «إيبرت» و«شتريزمان» جميع اعضاء الوزارة الى جلسة دامت الليل بكامله، وكان «سيكت» من بين الحاضرين. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي أُعلنت حالة الطوارىء، ومُنح «غيسلر» سلطات شبه مطلقة، مورست بالطبع عبر «سيكبت» وقيادة الجيش.

وعلى الرغم من ان الخطر الرئيسي على السلطة المركزية كان يتمثل في بافاريا، فقد جاء التحدي الأول لسلطة «غيسلر» و«سيكت» من مصدر غير متوقع. اذ حاول الرائد «ارنست بوخروخر»، الذي كان على رأس قوات قيادة العمل في سيليزيا، ان يسيطر «بالقوات السوداء» على «كوسترين»، وكان يستهدف بذلك اتخاذ المدينة كقاعدة انطلاق الى برلين. وكان من الواضح ان «بوخروخر» كان واثقاً من ان معظم رجال Reichswehr سينضمون اليه. ولكن بعد يومين من التعرض للسلطة الوطنية، تبدد انصار «بوخروخر» اثر معركة قصيرة جرت في ١٠/١ بينهم وبين القوات العسكرية المحلية، واعتقل «بوخروخر» مع عدد من قادة التمرد، وامر «سيكت» بحل قيادات العمل في الحال.

وبقيت الازمة البافارية الخطر الاكبر، فقد انضم قائد القطاع السابع،

الجنرال «اوتو هيرمان فون لوسوف» الى «كار» في تحدي سلطة الحكومة المركزية، ورفض في اوائل تشرين الأول (اكتوبر) أوامر و«سيكت» القاضية باسكات صحيفة القوميين الاشتراكيين (او نازيي ادولف هتلر)، التي كانت تبث مشاعر الحقد. وجاء رد «سيكت» و«غيسلر» حذراً، حرصاً منهما على عدم تعجيل المواجهة العلنية بين بافاريا والحكومة المركزية. وفي ١٠/١٩ امر «سيكت» بطرد «لوسوف»، فكان رد «كار» على ذلك إصدار أمر بإبقاء «لوسوف» في منصبه كقائد للفرقة البافارية السابعة، وبجعل رجال الفرقة يقسمون يمين الولاء للحكومة البافارية، معلناً بأن قَسَم الولاء للحكومة المركزية اضحى باطلاً.

ظهور ادولف هتلر

وفيما «سيكت» و«غيسلر» يتدارسان ما قد ينجم عن خطوة ارسال قوات الى «بافاريا» لأعادة السلطة المركزية، ظهرت على مسرح الأحداث شخصية جديدة. فقد انضم «ادولف هتلر»، الذي كان عريفاً إبان الحرب، ثم اضحى زعيماً للحزب القومي الاشتراكي، الى قوات الجنرال «لودندورف»، ورأى هذا الثنائي البغيض في الازمة القائمة فرصة للاستيلاء على السلطة في «بافاريا»، ومن ثم الزحف على «برلين» والاطاحة بالحكومة الشرعية. وكانت النتيجة قيام حركة انقلاب «قاعة البيرة» في ١١/٨، وفشل هذه الحركة في اليوم التالي بعد مواجهة مع الشرطة، القى هتلر خلالها بنفسه الى الأرض لاتقاء رصاص الشرطة، في حين تجاهل «لودندورف» بجرأة بالغة السذاجة نيران البنادق والرشاشات دون ان يصاب بأي أذى، وهو الامر الذي ادخله الى صفحات التاريخ من بابه الواسع. وادرك «لوسوف» في آخر لحظة بأن توجهه الانفصالي غير مدعوم الا بحفنة من رجاله، ففضل العودة الى حظيرة الحكومة المركزية على الانضمام الى «هتلر». بيد ان «حكومة «إيبرت ـ شتريزمان» لم تتنبه للتحول المتأخر الذي طرأ على موقف القائد البافاري (لوسوف). وانطلاقاً من، اعتقادها بأن بافاريا تعيش حالة عصيان معلن، جددت اعلانها لحالة الطوارىء، واسندت السلطات المطلقة هذه المرة الى الجنرال «فون سيكت». وبعد مضي عدة ايام، اعيدت في خلالها السلطة المركزية والنظام الى بافاريا، وأُعيدت السيطرة التامة على الفرقة

البافارية السابعة، عزم الجنرال «سيكت» على تسليم سلطاته الطارئة الى الحكومة المركزية. ولكن «إيبرت» و«شتريزمان» اصرا على ابقاء المسؤولية التنفيذية في البلاد على عاتق «سيكت» والجيش، خوفاً من ان تثير الفئات اليمينية او اليسارية مزيداً من اعمال الشغب في انحاء اخرى من البلاد. ولم يتسلم القادة المدنيون مسؤولية حكم البلاد إلا في ٢/٢٨، اي بعد عودة السلام، وظهور تباشير ازدهار الامة من جديد، وبعد الحاح من «سيكت».

سيكت والجيش الالماني

في مستهل الازمة البافارية، وفي خلال انعقاد جلسة مجلس الوزراء في مساء ٩/٢٦، قال «سيكت» كلمات، طالما استشهد بها خصومه ومنتقدوه - بالاضافة الى منتقدي الاركان العامة الالمانية - كدليل على إخلاصه غير الأكيد تجاه الحكومة. وجرى تصوير ما دار يومئذٍ على النحو التالي: التفت «إيبرت» الى «سيكت» وسأله: «هل سيخلص الجيش لنا ايها الجنرال»؟ فأجابه «سيكت»، غير المسيّس، بفخر وكياسة المغرور: «الجيش يا سيدي الرئيس سيخلص لي».

كانت هذه تقريباً الكلمات التي قيلت في الحوار الذي دار بين الرئيس والجنرال، ولكنها لم تكن كل ما قيل. ففي البداية سأل «إيبرت» الجنرال «سيكت» عن آرائه ومواقفه الشخصية إزاء القضايا التي جعلت الجناح اليميني يرفع صوته في وجه الحكومة. ورد «سيكت» مؤكداً للرئيس بهدوء وحزم ولاءه الكامل للحكومة. وعندما طرح الرئيس سؤاله الثاني حول مدى اخلاص الجيش في هذا المجال، جاء جواب «سيكت» بأن الجيش كقائده مخلص للحكومة، ولم يلمح «سيكت» بل ولم يكن يقصد بالتلميح الى ان الجيش مخلص للقائد أكثر مما هو مخلص للحكومة. كما ان «إيبرت» أو «شتريزمان» او «غيسلر» لم يفسروا كلامه في هذا الاتجاه، وإلا لما تركوه يحتفظ بمنصبه كمنفذ لصلاحيات «غيسلر» شبه المطلقة، والتي كانت قد وضعت في خلال ذلك اليوم، ولما منحوه سلطات مطلقة بعد ذلك بستة اسابيع.

وبالرغم من تزايد نشاط المانيا السياسي، فقد شهدت البلاد في خلال العامين التاليين هدوءاً نسبياً، وكان «سيكت» لا يألو جهداً لتحسين اوضاع

الجيش واركانه العامة. غير ان علاقته «بغيسلر» شابها في هذه الفترة قدر كبير من الفتور. اذ خالج وزير الدفاع اعتقاد بأن «سيكت» كان يتجاهله غالباً، بينما كان «سيكت» يعتمد عليه من اجل شرح اجراءات الجيش وحمايتها من الانتقادات ضمن الرايخستاغ، وضمن لجنة المراقبة التابعة للحلفاء.

هندنبرغ رئيساً

في ١٩٢٥/٢/٢٨، توفي «إيبرت» فجأة، وأخذ مكانه في ٤/٢٦ «فون هندنبرغ»، وكان عمره آنذاك ٧٨ عاماً، وقد كانت العلاقة ودية بين الماريشال الهرم والجنرال الشاب، ولكنها لم تتعد ذلك ومن الواضح ان «هندنبرغ» قد صفح عن «سيكت» دون ان ينسى حقيقة أن «سيكت» الذي وضع خصمه «فلكنهاين» تحت حمايته - قد اكتسب في الحرب العالمية الأولى شهرته كمهندس لانتصار «غورليش». وكانت الخطة من وضع «فلكنهاين»، عُمل بها على اثر رفض الامبراطور للخطة التي كان قد دعا اليها «هندنبرغ» و«لودندورف» لشن هجوم من نوع مختلف على اقصى الشمال.

ولكن لم يعد لهذا الماضي غير السعيد اثر على العلاقة القائمة بين الرئيس والجنرال. ولقد ابدى «هندنبرغ» اهتماماً شخصياً بالشؤون العسكرية اكبر من اهتمام «إيبرت» بها. ومع ان هذا كان يترك احياناً مشاعر الاحباط في نفس «سيكت»، فإنه سهل عليه في المقابل مهمة اقناع الحكومة بتبني وجهة نظره المتعلقة بالسياسات الخاصة بالجيش. بيد ان ذلك زاد بالتالي من مناسبات الاحتكاك بينه وبين «غيسلر».

وفي مستهل العام ١٩٢٦، اتخذ «غيسلر» خطوة اراد بها الاقلال من الاحتكاك، وتأمين موقع يمكنه من ممارسة اشراف فعال عل الجيش. فاستحدث شعبة جديدة للقوات المسلحة في وزارة الدفاع، كان من شأنها ان تعينه على الاتصال بالأسلحة، وان تحسن مستوى التنسيق بين الوزارة وقيادتي الجيش والبحرية. ولم يبدر عن «سيكت» ما يدل على اعتراضه على تلك الخطوة، بل انه زكّى واحداً من افضل ضباطه - العقيد «كورت فون شلايخر» - كرئيس لهذه الشعبة، علماً بأنه لم يسبق ان قامت بينه وبين «شلايخر» علاقة حميمة، كتلك التي قامت مثلا بينه وبين «هييه» و«هاسه» و«فريتش».

ولكن تزكيته ارتكزت على ما لاحظه في «شلايخر» من مقدرة وكفاءة فريدتين، إبان تولي '«سيكت» رئاسة مكتب القوات وقيادة الجيش. وقد بدا لـ «سيكت» ان المنصب الجديد موقع مثالي بالنسبة الى المواهب السياسية التي اظهرها «شلاخير» بشكل واضح.

وليس هناك ما يؤكد بأن «سيكت» كان يبغي من تعيين «شلايخر» شيئاً غير مهمتي الارتباط والتنسيق اللتين كان يهدف اليهما «غيسلر». ويبدو ان رئيس قيادة الجيش «سيكت» لم يحاول ان يستخدم «شلايخر» كعميل له داخل الجهاز المدني في وزارة الدفاع. وفي الواقع، لم يتعد اتصال «شلايخر» بقيادة الجيش واجباته الرسمية. ويبدو من ناحية اخرى انه كسب ثقة «غيسلر» بسرعة كبيرة. ولم يكن ذلك يقلق «سيكت»، إلا ان هناك دليلاً على ان «سيكت» قد استاء من الاسلوب الذي اتبعه «شلايخر» في استغلال علاقته القديمة بابن الرئيس «اوسكار فون هندنبرغ»، وبالماريشال / الرئيس نفسه.

سقوط سيكت

انتهت قيادة «سيكت» للجيش الالماني بشكل مفاجىء في بداية خريف ١٩٢٦. ففي صيف العام نفسه وافق «سيكت» على اشتراك الامير «وليام» - ابن ولي العهد السابق - في مشاهدة المناورات العسكرية. وكانت معاهدة «فرساي» قد حظرت بشدة قيام اي اتصال بين اسرة «هوهنزولرن»، التي كانت قد أبقيت في المانيا، وبين الحكومة او الجيش. هذا بالاضافة الى عاملين:

١) العداء الشديد الذي كان الشعب في ظل المانيا الجمهورية يكنه لهذه الأسرة.

٢) اهمية المفاوضات السياسية التي كانت تجري آنئذ بين المانيا والحلفاء حول سحب لجنة المراقبة من المانيا. ومن هنا، كان حضور الامير وهو يرتدي البزة العسكرية الامبراطورية، يعني بالنسبة الى الحلفاء مضامين سياسية شتى، منها ان «سيكت» قد سمح بحضور الامير بعد ان اجرى مشاورات مع وزير الدفاع «غيسلر» او انه قام على الاقل بابلاغ وزير

الدفاع بقرار السماح للامير بالحضور. ولكن «غيسلر» لم يدر بالأمر الا عبر الصحيفة، التي اوردت نبأ حضور الامير في ٩/٢٥. ولا يخفى كم كان «غيسلر» مستاء من الاسلوب الفوقي الذي كان «سيكت» يمارسه في ادارة شؤون الجيش من دون العودة اليه. وزادت هذه الحادثة من استيائه، وجعلته يوجه الى الجنرال تأنيباً ووجه من قبل «سيكت» بسخرية بالغة اثارت غضب «غيسلر»، ودفعته الى مطالبته بتقديم الاستقالة. وسرعان ما ايد مجلس الوزراء هذا المطلب، ووقف كل من وزير الخارجية «شتريزمان» والمستشار «ماركس» الى جانب «غيسلر».

وخطر في بال «سيكت» أن هندنبرغ» سيرمي بثقله حتماً للدفاع عن قائد جيشه، سيما ان المسألة تتعلق بالأسرة الملكية، التي كان الرئيس ولم يزل يتعاطف معها علانية. غير ان «هندنبرغ» أبلغ «سيكت» بأن لا خيار امامه كرئيس دستوري سوى الاستجابة الى مطلب مستشاره ومجلس وزرائه (ولعل ما قام به «هندنبرغ» كان بتأثير من «شلايخر»، الذي كان يرى في سقوط «سيكت» فرصته لتحسين موقعه الشخصي). ولن يُعرف ما اذا كان موقف «هندنبرغ» هذا وليد اخلاصه، او غيرته من «سيكت»، او وليد مكائد «شلايخر»، ذي النفوذ المتعاظم. وهكذا قام «سيكت» بتقديم استقالته بشيء من المرارة، وقُبلت استقالته فوراً، وسُلم منصبه الى الجنرال «فلهلم هييه».

وهكذا انتهت حقبة «سيكت» في الجيش الالماني - ولعل من الأجدر تسميتها بحقبة «غرونر - سيكت»، ما دام «سيكت» قد خلف «غرونر»، وواصل تنفيذ السياسات التي كان «غرونر» قد بدأها إبان توليه رئاسة الاركان العامة لفترة وجيزة وهامة في الوقت نفسه. ففي اقل من ثماني سنوات، استعاد الجيش الالماني شهرته السابقة كأفضل جيش في العالم، بعد ان كان على حافة الانهيار. وتم ذلك بفضل قائدين قويين موهوبين قاما، إبان انهماكهما في اعادة بناء الجيش، بانقاذ الامة غير مرة من الفوضى السياسية، والحرب الأهلية، بل ومن خطر التفكك.

ولم يكن ظهور هذين القائدين اعجازاً، فقد كانا جاهزين على أهبة الاستعداد لتحمل المسؤوليات، عبر تدرجهما الطبيعي في مراتب هيئة

الاركان العليا في الجيش الالماني. وليس من قبيل الانتقاص من قدرهما القول بأنهما كانا لا يختلفان عن أي ضابط من ضباط الاركان، وإنما قُدّر لهما ان يديرا الاركان في خلال الاوقات العصيبة السالفة الذكر، وان يتخذا قرارات واجراءات هي انعكاس للدراسات العميقة والاعمال العظيمة التي قام بها ضباط الاركان المجهولون، الذين استمروا في اداء مهامهم بكفاءة معهودة، كنتيجة محتومة لعملية الانتقاء والتدريب، التي كان قد بدىء العمل بها من قبل «شارنهورست»، منذ اكثر من مئة عام.

الفصل الرابع عشر: عميقاً في هاوية النازية

هتلر والاركان العامة

لعل ما كتب عن «ادولف هتلر» اغزر بكثير مما كتب عن اي شخصية اخرى من شخصيات القرن العشرين. ويعزو بعض الكتاب برُوز «هتلر» في الدرجة الاولى الى الجنرالات الالمان وضباط الاركان العامة، لأن الجنرالات كانوا يتوقعون (بما يدعو الى السخرية) انهم سيتمكنون من الهيمنة عليه و«استخدامه». ويقول آخرون بأن بؤرة المقاومة الفعالة الوحيدة ضد «هتلر» كانت الجيش، ويؤيد هذا القول المؤامرة التي دبرتها الاركان العامة ضد «هتلر» في ١٩٤٤/٧/٢٠، وكادت ان تنجح.

وفي الواقع، لعل مواجهة الجيش لـ«هتلر» كانت اكبر من المواجهة التي ابداها ضده اي قطاع كبير من قطاعات المجتمع الألماني. ولعل المواجهة التي ابداها ضباط الاركان العامة اكبر من مواجهة سائر الضباط. ولكن قد يكون من قبيل التضليل القول بأن تلك المواجهة كانت شديدة إبان السنين التي سبقت الحرب ـ وان كانت هنالك بعض الاستثناءات في عدة مناسبات ـ: فالاركان العامة كمؤسسة، لم يكن لها اي دور في المؤامرة التي حيكت ضد «هتلر»، رغم الظروف التي كانت تحتم هزيمة المانيا، ورغم ان ضباط الاركان العامة كأفراد كانوا في عداد المتآمرين. واولئك الذين يقولون

بأن مواجهة ضباط الاركان العامة لـ«هتلر» كانت رداً متأخراً على اخفاقاته في الاتحاد السوفييتي إبان الحرب العالمية الثانية، يتجاهلون الحقيقة القائلة، بأنه في الوقت الذي كانت الاركان العامة كمؤسسة ترفض القيود التي فرضتها معاهدة «فرساي»، وتؤيد مسألة إعادة تسليح المانيا، كانت منذ العام ١٩٣٣ وبصورة مستمرة في موقف المعارض لمعظم القضايا الاخرى المتعلقة بالسياسة العسكرية وبالاستراتيجية. ومن جهة اخرى، فإن الذين يميلون الى القول، بأن هذه المواجهة تجعل هيئة الاركان العامة بريئة من انشاء الدكتاتورية النازية واستمراريتها، يتناسون الدعم الكبير الذي تلقاه «هتلر» في اوقات عصيبة من اشخاص مثل «فرنر فون بلومبرغ» و«فولتر فون رايخناو» و«الفرد يودل» بل انهم يقفزون فوق حقيقة ان الرجل الاوحد الذي يتحمل مسؤولية صعود «هتلر» - ولعله يتحمل مسؤولية اكبر من مسؤولية «هتلر» نفسه، وان كان ذلك بغير قصد - كان «كورت فون شلايخر» الضابط الركن الذي وصل الى الشهرة والسلطة بحماية اثنين من المع قادة الاركان العامة: «غرونر» و«سيكت».

اما وقد كثر الحديث عن قصة صعود «هتلر» الى السلطة، فلن يكون ما سيأتي سوى تلخيص لها، وذلك من اجل وضع الاطار الاساسي لدور الاركان العامة في اعادة تسليح المانيا بين العامين ١٩٣٣ و١٩٣٩.

صعود «شلايخر»

أبصر «شلايخر» النور في «براندنبرغ» في ١٨٨٤/٤/٧ لأسرة بروسية - براندبرغية عريقة. وبعد تخرجه في مدرسة عسكرية لاعداد الضباط في العام ١٩٠٠، التحق بفوج مشاة الحرس الثالث - فوج بول فون هندنبرغ القديم - برتبة ملازم ثان. وسرعان ما نسج صداقة حميمة ومميزة مع زميله الملازم الثاني «اوسكار فون هندنبرغ»، الذي كان يصطحبه من وقت لآخر الى منزل الجنرال «فون هندنبرغ». وفي العام ١٩١٠، كان من بين الذين اختيروا للالتحاق بالاكاديمية الحربية، حيث التقى بـ«كورت فون همرشتاين - إيكورد» وقد لفت هذان الشابان انتباه المقدم «فلهلم غرونر»، الذي كان انئذٍ احد ضباط الاركان العامة، ومدرباً غير متفرغ في الاكاديمية الحربية، والذي كان

يعتبرهما انجب طالبين صادفهما في اثناء عمله كمدرب، بل انه كان يعتقد بأنهما متفوقان على طالب آخر من المع طلابه، وهو «فرنر فون فريتش»، الذي كان يتقدمهما بصفين.

وعقب اختتامه للفترة التجريبية في الاركان العامة، عُين «شلايخر» في العام ١٩١٣ كواحد من ضباط الاركان العامة، ورقي الى رتبة نقيب في ١٢/١٨ وامضى معظم فترة الحرب في «برلين» او في القيادة العليا للجبهة في «سبا»، كعضو من اعضاء الاركان العامة العليا، كما انه حاز على الصليب الحديدي بعد فترة وجيزة من الخدمة في الجبهة الشرقية. وفي ١٩١٨/٧/١٥ رقي الى رتبة رائد. وقد برز بين مجموعة من اترابه الضباط المتفوقين، غير ان «لودندورف» انتقد افراطه في اناقته. ومع حلول «غرونر» محل «لودندورف» في رئاسة هيئة العمليات العامة في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨، عُين مساعداً شخصياً للأول، حيث امضى شتاء وربيع العام التالي كمراسل ينقل الوثائق والرسائل من «غرونر» في «كاسل» (كولبرغ فيما بعد) الى «إيبرت» و«نوسكه» في «برلين» و«فيمار». لذا فقد غدا وجهه مألوفاً لدى الشخصيات القيادية، العسكرية والسياسية في ألمانيا. وكان واحداً من اعضاء مجموعة الاركان الخاصة، التي شكلها «غرونر» للاشراف على تنظيم الفيلق الحر واستخدامه، كما اصبح فيما بعد عضواً في مجموعة شبيهة بالمجموعة التي استخدمها «سيكت» للاشراف على مكتب القوات والتنسيق فيما بين انشطته السرية - بما فيها علاقته بالاتحاد السوفييتي، وانشاؤه للجيش الاسود وادارته لعملياته.

اما «سيكت»، الذي خَلَف «غرونر» في العام ١٩١٩، فيبدو ان علاقته بـ«شلايخر» قد اتسمت بالبرودة، غير انه خلافاً لـ«لودندورف»، استغل من وجهة براغماتية مواهب ذلك الضابط الشاب وكفاءته. فانطلاقاً من اعترافه ببراعة «شلايخر» المميزة في الشؤون السياسية وفي التعامل مع السياسيين، قام بتعيينه مساعداً شخصياً له إبان الاشهر الستة التي كان «سيكت» في خلالها الحاكم المطلق الفعلي في المانيا. وغدا «شلايخر» بعد ذلك رئيساً للقسم السياسي في الأركان العامة، وهو برتبة مقدم. ثم اصبح رئيساً لقسم

القوات المسلحة الجديد، الذي كان «غيسلر» قد استحدثه لتأمين الارتباط، كما ذُكر في الفصل السابق، بين وزارة الدفاع ومختلف الادارات والمصالح العسكرية. وفي غضون فترة قصيرة، جعل «شلايخر» من منصبه الموقع الاوسع نفوذاً في «برلين»، وذلك من خلال حسن استغلاله لعلاقته مع اوساط الحكومة ، وللصداقة الحميمة التي كانت تربطه بالرئيس.

ليس هناك ما يؤكد بأن «شلايخر» قد اسهم في اسقاط معلمه السابق «سيكت» ، وليس هناك من جهة اخرى ما يؤكد عدم اسهامه. وفي ضوء ما عرف عنه من شغف بتدبير المكائد ونكران فضائل الذين احسنوا اليه، يصعب علينا ان نتجاهل اعتقاد «سيكت» الراسخ بأن «شلايخر» هو المسؤول عن سقوطه(*).

لقد كانت علاقة «شلايخر» الشخصية بخليفة «سيكت»، الجنرال «هييه»، افضل بكثير من علاقته «بأبي الهول» (كما كان يطلق على سيكت). فقد ارتفع هاجس التدقيق البارد الهادىء، الذي كان «سيكت» يحسب به انفاس «شلايخر»، وبالتالي بدأت دائرة نفوذ «شلايخر» في الاتساع بسرعة كبيرة، وكذا مكائده.

ففي اواخر العام ١٩٢٧، ظهر ان وزير الدفاع «غيسلر» متورِّط بشكل غير مباشر (وربما دون ان يدري) في فضيحة مالية كان من شأنها ان كشفت ضلوعه في عملية اعادة تسليح المانيا السرية. وكان «شلايخر» بمنأى عن خيوط الفضيحة، غير انه اقنع الرئيس بابلاغ «غيسلر» ضرورة تقديم استقالته. ثم بدأ سعيه الحثيث لاعادة الجنرال المتقاعد «غرونر» كوزير جديد للدفاع. ولم يكن «هندنبرغ» راغباً في تعيين «غرونر» وزيراً للدفاع، لأن الاخير كان قد حمّله في وقت سابق مسؤولية قرارات الاركان العامة، التي قضت بالتوقف عن دعم الامبراطور والتوصية بتوقيع معاهدة «فرساي»، ولكنه كان بحاجة إلى رجل عسكري يشغل وزارة الدفاع، وكان يؤثر ان يتولى «فيليسن» المهمة. ولكن «فيليسن» لم يكن ليسمح لنفسه مطلقاً بأن ينظر اليه كمرشح منافس لمدربه السابق في الاكاديمية الحربية ولرئيس هيئة الاركان

(*) أنظر الملحق «د» للاطلاع على رأي مغاير في «شلايخر»

العامة. فاسقط في يد الرئيس، واصبح «غرونر» وزيراً للدفاع في ١٩٢٨/١/٢٠.

غرونر وزيراً للدفاع

مضت سنتان ونيف، والانسجام التام يخيم على ادارة شؤون المانيا العسكرية، فـ«هندنبرغ» ـ الذي سبق له ان تولى رئاسة الاركان العامة ـ كان رئيساً للبلاد، وكان يكِنّ لوزير دفاعه ـ الذي كان بدوره رئيساً للاركان العامة فيما مضى ـ وداً بالغاً. ورغم ما عرف عن «غرونر» من سمات الحيوية والحسم كوزير للدفاع، فانه كان شديد الحرص على استشارة كلٍ من الرئيس والجنرال «هييه» رئيس قيادة الجيش، حول كل ما يتعلق بالسياسة العسكرية، وكان مساعده الأيمن اللواء «فون شلايخر» (الذي كان غرونر يشير اليه دائماً بابنه الروحي) الذي كان يمتلك القدرة على تحريك عجلة السياسة بيسر، بما توافر لديه من علاقات ودية مع كل من الرئيس و«هييه» و«همرشتاين ـ إيكورد» (الذي غدا رئيساً لمكتب القوات في العام ١٩٢٩)، ومع غيرهم من الشخصيات المرموقة في الحكومة الالمانية. وقام «غرونر» بانشاء قسم جديد في الوزارة، هو مكتب الوزارة، للعناية بكل سياسة ذات صلة بالجيش والبحرية، وللقيام بدور الوسيط بين الادارات والمصالح من جهة والوزارات الاخرى والاحزاب السياسية من جهة ثانية.

وما عتم «غرونر» أن وجد نفسه المستشار الفعلي، بسبب اعتلال صحة المستشار «هيرمان مولر» في خلال عام ١٩٢٩، الى جانب سوء حالة وزير الخارجية «شتريزمان» الصحية. الامر الذي القى على عاتقه المزيد من الأعباء، سيما الاقتصادية والسياسية منها، وارغمه على التعرض لما ولّده الركود الاقتصادي البالغ من معضلات اقتصادية وسياسية، رغم قصر باعه في هذا المجال. ولم يكن امامه سوى الاستعانة بـ«شلايخر» الذي ازداد بذلك سلطاناً ونفوذاً.

وكان الركود الاقتصادي قد جلب معه مزيداً من الاضطراب السياسي في المانيا، وهدد بعودة موجة العنف التي كانت قد عمت البلاد في بداية العشرينات كما احتدمت مناقشات الرايخستاغ وعلت الصيحات المناهضة

للقضايا العسكرية. فشرع «شلايخر» يراجع بجدية فكرة سبق ان راودته إبان القلاقل الماضية، وهي فكرة اعادة السلام السياسي والاقتصادي والاستقرار الى المانيا، عن طريق اقامة ديكتاتورية عسكرية، من شأنها ان تحول دون وقوع السلطة في قبضة المتطرفين من اليسار او اليمين(*). وكان «شلايخر» قد اصيب بخيبة في العامين ١٩٢٣ و١٩٢٤، حين رفض «سيكت» انتهاز الفرص التي اتيحت للاستيلاء على السلطة. اما الآن، فان الفرصة المتاحة مع وجود عسكري على رأس الدولة، افضل بكثير مما كانت عليه فيما سبق. ففي ظل الحكومة القائمة وبموجب البند الدستوري الذي سمح لايبرت بمنح «سيكت» السلطة، لا حاجة لان يكون حتى المستشار رجلاً عسكرياً. وغدا من الافضل المجيء بمستشار مدني سهل الانقياد، ما دام «هندنبرغ» رئيساً، و«غرونر» وزيراً للدفاع، و«شلايخر» محركاً للخيوط من وراء الكواليس (ذلك لأن «شلايخر» كان يسعى وراء السلطة لا الشهرة والمجد).

واقترح «شلايخر» اختيار «هاينريش بروننغ» للمستشارية، نظراً لما تحلى به من شجاعة في الحرب ولميوله العسكرية بشكل عام، وقد رفض «بروننغ» اقتراح «شلايخر»، ولكن ذلك لم يثن الجنرال اللجوج، الذي لم يقدر قوة شخصية «بروننغ» حق قدرها. وواصل «شلايخر» محاولاته لاضعاف موقع «مولر» الى ان قدم الاخير استقالته من المستشارية في آذار (مارس) ١٩٣٠، ولكن حجم دور «شلايخر» في هذا الامر غير واضح، ولم يكن «غرونر» يعلم شيئاً عن خطط «شلايخر» ولكنه اعجب «ببروننغ»، ونصح «هندنبرغ» بتعيينه مستشاراً. وبعد الحاح مباشر من «شلايخر»، طلب «هندنبرغ» من «بروننغ» تشكيل الحكومة. ولكن المستشار الجديد فشل في نيل ثقة الرايخستاغ، الامر الذي دفعه الى المطالبة باجراء انتخابات في ايلول (سبتمبر).

وفي خلال تلك الانتخابات، صعد «أدولف هتلر» مرة اخرى الى مسرح التاريخ.

سبيل «هتلر» الى السلطة

كان «هتلر» قد حوكم عقب فشل انقلاب «ميونيخ» الذي قام به في

(*) أنظر الملحق «د» لايضاح هذه الفكرة.

العام ١٩٢٣، وأُدين بتهمة الخيانة، وصدر بحقه حكمٌ بالسجن مدة خمس سنوات، ولكن أُطلق سراحه بعد تسعة اشهر فقط من صدور الحكم. وفي السجن، أُتيح له الوقت الكافي للتفكير ملياً بايديولوجيته. وبالخطط الكفيلة بانشاء الدولة النازية، التي وضع ملامحها في كتابه «كفاحي»، الذي صدر بعد خروجه من السجن، ولقي إقبالاً واسع النطاق مع تعاظم قوة الحركة النازية في خلال العقد التالي.

وكان الدرس الاول الذي استخلصه «هتلر» من فشل «انقلاب ميونيخ»، هو ان العنف على اهميته اسلوب غير مجد لانتزاع السلطة الوطنية، وعزم على ان يصبح حاكماً على المانيا بالطرق الشرعية، تحاشياً لاحتمال وقوع مواجهة جديدة مع الجيش. وسرعان ما اضحى يعرف نتيجة لذلك باسم «أدولف الشرعية».

وتراوحت قوة النازية السياسية بين الصعود والهبوط، مع صعود وضع المانيا الاقتصادي والدولي وهبوطه في نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات، ففي الوقت الذي شهدت المانيا ازدهاراً وتحسناً في علاقاتها مع بريطانيا وفرنسا، وبعض التساهل في دفع التعويضات، واجهت النازية في عام ١٩٢٨ هبوطاً في قوتها السياسية، تمثل في احتلال اثني عشر مقعداً فقط من مقاعد الرايخستاغ الستمائة.

وحين عصف بالبلاد كساد اقتصادي مخيف اتى على ما تحقق في العشرينات، وانتشر اليأس في صفوف الألمان، وتصاعد التناحر الدموي بين زمر النازية والشيوعية، عرف الحزب النازي في العام ١٩٣٠ انتعاشاً تمثل في تزايد عدد المنضمين اليه والمتعاطفين معه من الناخبين الألمان. وفي انتخابات ايلول (سبتمبر) ١٩٣٠، حصل النازيون على ٦ ملايين صوت، واحتلوا ١٠٧ مقاعد، وغدا حزبهم ثاني اقوى الاحزاب في الرايخستاغ، واصبح «هتلر» في هذه الفترة قطباً سياسياً وطنياً معترفاً به في صفوف الزعماء الآخرين.

وقد توقع كثير من هؤلاء الزعماء ان تتاح لهم فرصة الافادة منه

لأغراضهم الخاصة، ولكنهم كانوا في الوقت نفسه يحترمون ثقله السياسي، شأنهم شأن الصناعيين النافذين، الذين شرعوا في دعمه تمهيداً لاستغلاله لمآربهم حسب اعتقادهم.

وعلى الرغم من مكاسب النازية الانتخابية، كان بمقدور «برونغ» تشكيل حكومة ائتلافية، وبالتالي البقاء في منصبه كمستشار. وقد احتفظ «غرونر» بحقيبة وزارة الدفاع في الحكومة الجديدة، ونجح في اقامة علاقة شخصية حميمة، وعلاقة عمل وطيدة مع «برونغ».

وكان «غرونر» اشد المتنبهين لمكاسب النازية في الانتخابات. وقد دفعه قلقه من تنامي خطر النازية، وتزايد جهود «هتلر» لاستمالة ضباط الجيش وجنوده، الى إصدار تعميم في ٢٢/١/١٩٣٠، يحذر فيه من خطر النازية، ويشير من خلاله الى اوجه الشبه بين النازية والشيوعية، ويحث عبره جميع الضباط والجنود على تجنب الانغماس في السياسة. فقد جاء في تعميمه قوله ان «الجيش لا يهمه سوى خدمة الدولة. ففي الجيش يكمن كبرياء الجندي واعز تقاليد الماضي... وهدفنا الوحيد هو خدمة الدولة - بعيداً عن اي حزب سياسي - وصونها، والحفاظ على ديمومتها في وجه الخطر الخارجي والاقتتال الجنوني في الداخل».

ولمس «غرونر» بعد الانتخابات بأن دعاوى النازيين القومية، وكلمات «هتلر» الخطابية قد بدأت تشق طريقها الى الجيش. وتوقع اندلاع صراع مرير في سبيل السيطرة على المانيا، وادرك بأن الجيش سيكون العامل الحاسم لانقاذ البلاد من النازية. فبدأ استعداده للمواجهة.

واستهل «غرونر» خطوات المواجهة في الاشهر الاخيرة من العام ١٩٣٠، بمحاولة اقناع «هييه» بالتقاعد. وكان «هييه» نائباً مخلصاً لـ «سيكت» الا انه كان يفتقر الى الشخصية القوية، التي كان يرى «غرونر» ضرورة في وجودها لمواجهة النازيين - ومحاربتهم اذا اقتضى الامر واستجاب «هييه» لمطلب «غرونر» من غير حرج، الامر الذي مكن «غرونر» من تعيين تلميذه القديم ونصيره الامين «همرشتاين - إيكورد» رئيساً جديداً لقيادة الجيش، بعد حصوله على موافقة «هندنبرغ». كما تمت ترقية الجنرال «فيلهلم آدام» ليتولى رئاسة

قيادة القوات. وشعر «غرونر» بأنه اصبح يمتلك، من خلال الفريق الذي شكله، القوة الكافية في الوزارة في قيادة الجيش، مع الاشارة الى ان «شلايخر»، الذي كان اشد الماقتين لـ «هتلر» وللنازيين، كان احد اعضاء ذلك الفريق.

وايقن «غرونر» في الوقت ذاته ان «شلايخر» قد ضلع، رغم التصميم الصادر منذ عشرة اشهر، في بعض المناورات السياسية التي سبقت انتخابات ايلول (سبتمبر) المفجعة، وتعيين «برونغ» مستشاراً. (لكنه لم يكن يدري شيئاً عن مناورات «شلايخر» التي ساهمت في اسقاط حكومة «مولر»)، من هنا، راح يحذر «شلايخر» من التمادي في الانغماس في السياسة.

شلايخر يشارك النازيين مكائدهم

غير ان «غرونر» كان لا يعلم شيئاً عما كان «شلايخر» يعده. فانطلاقاً من استحالة تجاهل قوة النازيين الانتخابية، ومن حقيقة ان كل ضباط الجيش تقريباً، وغالبية الوطنيين الالمان، كانوا يؤيدون النازيين في بعض الاهداف القومية، فقد سعى «شلايخر» الى تجيير نتائج الانتخابات الاخيرة لحساب الجيش، وباشر في محاولات اجراء اتصالات سرية مع النازيين.

وكان اول الذين اتصل بهم «شلايخر»، النازي «ارنست روهم» الذي كان نقيباً في المشاة ابان الحرب، ثم انتقل الى الخدمة في الفيلق الحر. وبعد ان اصبح تابعاً وصديقاً مقرباً من «هتلر»، جُعل على رأس القوة، شبه العسكرية (قوات العاصفة)، التي كان «هتلر» قد شكلها في عام ١٩٢١، وأتيحت له فرصة تطوير هذه القوات، بما كان يتوافر لديه من خبرة عسكرية، لتحويلها الى قوة منضبطة فعالة تدعم اهداف الحزب السياسية. وكان «روهم» قد احتفظ على مر السنين بصداقة رفيق السلاح البافاري، المقدم «فرانتس هالدر»، احد ضباط الاركان العامة. ولم يكن «هالدر» هذا نازياً، او شريكاً في الفضائح الجنسية التي اثيرت حول «روهم» وليس من المؤكد انه قد رتب بنفسه لقاء «شلايخر» بـ«روهم». ولكن يبدو في اي حال، انه كان عالماً ببعض اللقاءات السرية التي تمت بين النقيب السابق «روهم» والفريق «شلايخر».

وسرعان ما تبين لـ «شلايخر» أن «روهم» لا يزال يكُنّ للجيش الحب والاحترام، رغم ولائه الصريح والشديد لـ «هتلر». كما تبين له ان «روهم» يتوقع صعود «هتلر» الى السلطة في وقت قريب، وان «روهم» نفسه يطمح الى دمج قوات العاصفة بالجيش، بحيث يصبح عملياً القائد العام للجيش النازي الجديد. ولا شك ان فكرة ربط جيشهما الأثير الى قلبيهما بقوات العاصفة كانت فكرة مرفوضة من قبلهما، ولكن «شلايخر» كان في وضع يسمح له بمناقشة «روهم» بجدية حول امكانية جعل قوات العاصفة قوة احتياطية قابلة للاندماج بالجيش في زمن الحرب. بل ان الرجلين توصلا في آذار (مارس) ١٩٣١ الى اتفاق رسمي، ولكن سري، في هذا الصدد. ولم يجسرا على اطلاع رئيسيهما ـ غرونر وهتلر ـ خوفاً من ادانة الرئيسين للاتفاق، كلٌ لاسبابه الخاصة.

وكان «شلايخر» في الوقت ذاته يتداول مع «هتلر» و«غرونر» مباشرة، ومع مندوبيهما، حول المزيد من القضايا السياسية. ومع مرور الوقت، غدا «شلايخر» اكثر قناعة بأنه قادر على استغلال هؤلاء النازيين ومن ثم استبعادهم. ولكن يوميات «غرونر» تبين لنا بأن القادة النازيين لم يتأثروا قط بتُرّهات «شلايخر»، وبأن ثقتهم به كانت اقل من ثقته بهم، الامر الذي جعلهم يخططون بدورهم لاستغلاله ومن ثم استبعاده.

وكان «هتلر» في هذا الوقت يعد نفسه للقيام بمحاولته الأولى للوصول الى سدة الحكم بالوسائل المشروعة. وكان يمتلك الجرأة المتهورة لمنافسة «هندنبرغ» على الرئاسة. ولعل «هندنبرغ» لم يكن ليفكر في خوض معركة إعادة انتخابه، لو لم يبادر «بروننغ» و«شلايخر» وغيرهما الى اقناعه بكل يسر، بأنه الشخص الوحيد القادر على الحؤول دون انتخاب «هتلر» رئيساً.

وفي انتخابات ١٣/٣/١٩٣٢، حصل «هندنبرغ» على اغلبية لا يستهان بها من الاصوات، ولكنه فشل في الحصول على الاغلبية المقررة في الدستور. وبعد حملة تشهير مسعورة، حصل «هندنبرغ» في الجولة التي جرت في ١٠/٤/ على ١٩ مليون صوت تقريباً، بينما نال «هتلر» ١٣ مليون صوت، ونال المرشح الشيوعي «ارنست تالمان» ٣ ملايين صوت. ومع ان

«شلايخر» قد ارتاح للانتصار الذي حققه «هندنبرغ» المشرف على الخَرَف، فان حجم الاصوات التي حصل عليها «هتلر» اكد له حكمة مواصلة استرضائه للنازيين، ولو بصورة مؤقتة. ولكن بما ان كرهه لفكرة ان يصبح «هتلر» مستشاراً كان لا يقل عن كرهه لفكرة ان يصبح «هتلر» رئيساً، فانه كان يعلم بأنه لم يعد امامه وقت طويل لتحقيق فكرة اقامة دكتاتورية عسكرية في عهد «هندنبرغ»، وذلك لاسباب اقلها كبر سن هندنبرغ وتدهور صحته.

شلايخر يسقط غرونر وبروننغ

وكان «غرونر» في الوقت نفسه قد نُبه الى خطر النشاطات التي قامت بها قبيل الانتخابات عناصر «روهم» من قوات العاصفة، وعناصر «هايزيش هملر» من فصائل الدفاع (س س) وهي مجموعة خاصة من قوات العاصفة مكلفة بحراسة «هتلر» ـ فالى جانب محاولة تلك العناصر التأثير على سير التصويت بالقوة والتهديد، فان اوراقاً وقعت في قبضة رجال الشرطة قد دلّت على استعدادها للسيطرة على الحكومة سيطرة فعلية في حال نجاح «هتلر» في الانتخابات. من هنا، حصل «غرونر» و«بروننغ» بعد يوم من الانتخابات على موافقة «هندنبرغ» لحل المنظمتين النازيتين (وكانت هذه الخطوة بالنسبة الى «غرونر» من الأهمية بمكان، لاظهار صدق الموقف الرسمي الألماني من مؤتمر نزع السلاح التابع لعصبة الامم).

ولأسباب غير بيّنة كلياً، عارض «شلايخر» قرار حل القوات النازية، ولعله غالى في تقدير متانة صداقته لـ «روهم» الى حد اعتقاده بأن قوات العاصفة ستقف الى جانبه ضد «هتلر» في وقت الأزمات. وفي اي حال، كان بمقدور «شلايخر» اقناع «هندنبرغ» بالعدول عن قرار الحل. غير ان «غرونر» استطاع بدوره اقناع «هندنبرغ» باتخاذ الخطوة المناسبة، ولكن على اساس قيام «غرونر» ـ وللمرة الثالثة في خلال عمل الرجلين معاً ـ بتحمل مسؤولية هذه السياسة وهذه الخطوة كاملة، علماً بأن «هندنبرغ» كان أولى بتحملها.

وصدر قرار حل القوات النازية في ١٤/٤، واضحى «غرونر» على الفور هدفاً لحملة تشهير نازية عنيفة ومدعومة من قبل كثير من الألمان الوطنيين السذج، الذين آمنوا بالدعاوى النازية.

وبدأ «غرونر» في هذا الوقت يدرك بأن «شلايخر» دائب، بمؤازرة من «همرشتاين»، على تخريب علاقته الرسمية بالرئيس والجيش. ففكر في طرد هذين الضابطين ـ اللذين كانا فيما مضى اقرب الضباط اليه ـ، ولكنه ارجأ هذه الخطوة الى حين اشتداد ساعد حكومة «بروننغ». بيد ان قرار الطرد كان خاطئاً، ذلك ان «شلايخر» كان قد وثق علاقته بـ «روهم» و«غوبلز»و«هتلر»، ووعدهم بالتخلص من «غرونر» و«بروننغ».. وهذه مؤامرة لم يكن «همرشتاين» وغيره من كبار الضباط، الذين نجح «شلايخر» في تأليبهم على «غرونر»، يعرفون عنها شيئاً. ومن جهة اخرى، كان النازيون قد قرروا التخلص من «شلايخر» بعد قيامه بالتخلص من «بروننغ» و«غرونر».

وعند افتتاح جلسات الرايخستاغ في ٥/١٠ شن النازيون على «غرونر» هجوماً عنيفاً. وعندما حاول «غرونر» الدفاع عن نفسه، والرد على عبارات السخرية التي وجهها اليه «غورينغ» وانصاره، انغمس من حيث لا يدري في مناقشة عاطفية حادة لم يكن قد استعد لها مسبقاً. فقد عجزت عباراته المتلعثمة عن التأثير في الأعضاء غير النازيين، وبعد ارفضاض الجلسة، اخبره «شلايخر» بكلمات لا تخلو من اللؤم، بأنه قد فقد ثقة الجيش، وبأن عليه تقديم استقالته.واعتقد «غرونر» بأن «هندنبرغ» سيقف الى جانبه، ولكنه فوجىء باعتذار «هندنبرغ»عن التدخل في المسألة، فقدم استقالته في ٥/١٣. وبعد سبعة عشر يوماً، حقق «شلايخر» هدفه الثاني: حين بادر «هندنبرغ» بتنحية «بروننغ» عن المستشارية بصورة مفاجئة وعند هذا الحد بدأت تتكشف مكائد «شلايخر» امام عدد من الألمان، داخل الجيش وخارجه. وأخذ العسكريون في «برلين» يتندرون قائلين: لا بد ان الجنرال «شلايخر» اميرال، ما دامت عبقريته العسكرية تتجلى في اطلاق الطوربيدات ضد اصدقائه. بيد ان فهم الجيش لازدواجية الادوار التي لعبها «شلايخر» تطلب شهوراً وسنين. وحين قدم «همرشتاين» آيات الاعتذار «لغرونر» كان الوقت المناسب لاغلاق مسارب الفيضان قد ولى الى غير رجعة.

شلايخر يسقط جمهورية فيمار

كان «شلايخر» في خلال الاشهر الثمانية التي تلت، غارقاً حتى اذنيه في المكائد والمؤامرات والمناورات السياسية، التي ادت الى سقوط

جمهورية «فيمار». فنزولاً عند اقتراحه، اختار «هندنبرغ» الضابط السابق «فرانتس فون بابن» مستشاراً. وكانت سمعة «بابن» قد ساءت إبان توليه منصب الملحق العسكري في واشنطن. ذلك انه قام بشكل غير اريب بتنسيق النشاطات الالمانية الهدامة التي ساهمت في دفع الولايات المتحدة الى دخول الحرب الى جانب الطرف المعادي. كما انه لم يكتسب نضجاً سياسياً في الفترة الفاصلة بين عمله كملحق عسكري وتوليه المستشارية، ولم يستطع ان يوجد له سنداً في الرايخستاغ او بين صفوف الجماهير ـ شأنه في ذلك شأن وزير الدفاع «كورت فون شلايخر» ـ الامر الذي جعله يدعو الى إجراء انتخابات عامة جديدة.

ووفاء بوعده لاصدقائه النازيين، تمكن «شلايخر» في ٦/١٥ من اقناع الرئيس «هندنبرغ» بالغاء امر حل قوات العاصفة وفصائل الدفاع. ولا شك ان وسائل الترهيب والترغيب التي اتبعها النازيون المستأسدون إبان انتخابات ٧/١٣، قد اسهمت في نجاح النازيين في احتلال ٢٣٠ مقعداً من اصل ٦٠٨ مقاعد وفي منح النازيين بالتالي اكبر تمثيل نيابي، من اي حزب آخر، يمكن ان يحصلوا عليه في انتخابات ديموقراطية.

وبرفض «هندنبرغ» البحث في تعيين «هتلر» مستشاراً، ورفض النازيين الاشتراك في حكم ائتلافي تحت قيادة أي حزب آخر، لم يبق لتشكيل اغلبية برلمانية سوى ضم الشيوعيين، وهذه خطوة لا يحبذها الديمقراطيون الاشتراكيون ـ ثاني اكبر تمثيل نيابي ـ. في هذا المأزق السياسي، واصل «بابن» حكمه بموجب الاجراءات الطارئة من المادة ٣٨ من الدستور، كما فعل «بروننغ» من قبل، في حين تابع «شلايخر» لعبة شد الحبل حيال كل من «هتلر» و«بابن». ولم تحدث الانتخابات الجديدة التي اجريت في ١١/٦ اي تغيير جذري، مع ان النازيين والديمقراطيين الاشتراكيين فقدوا بعض المقاعد لصالح الشيوعيين فبقي المأزق السياسي على حاله.

وفي محاولة لتجاوز المأزق، قام «شلايخر» باقناع «هندنبرغ» بعرض المستشارية على «هتلر»، مع شروط لا يمكن ان يقبلها الزعيم النازي، وكان في الوقت نفسه يواصل اضعاف نفوذ «بابن» لدى الفيلد مارشال وانتهى الامر

بأن عرض «هندنبرغ» المستشارية على «شلايخر»، الذي حاول التهرب من تولي هذه المسؤولية دون جدوى. وبعد ان اصبح «شلايخر» مستشاراً في ١٩٣٢/١٢/٢، وجد ان مقدرته على التوفيق بين الاحزاب المتنازعة قد خفت عن ذي قبل. سيما بعد ان هجره اصدقاؤه وحلفاؤه السياسيون، وبعد ان رد «بابن» كرة تخريب العلاقة مع الرئيس الى ملعبه. فقدم استقالته في ١٩٣٣/١/٢٨، بعد واحدة من اقصر عهود المستشارية، واقلها انجازات في تاريخ المانيا.

هتلر على رأس السلطة

وبعد مرور يومين، عرض «هندنبرغ» المستشارية على «هتلر» ثانية. وقبل زعيم النازية العرض هذه المرة، رغم اشتراط «هندنبرغ» بأن يُعيّن «بابن» نائباً للمستشار. وهكذا أفضت مناورات «شلايخر» الى مجيء «هتلر» - الرجل الذي حاول «شلايخر» ان يهزمه بمناوراته لاكثر من سنة - الى السلطة، مع آخر من وجه اليهم «شلايخر» «طوربيداته». وقد كان «غرونر» و«برونغ»، او كل منهما على حدة، من القوة بما يكفي لايقاف «هتلر» عند حده. غير ان «هتلر» كان بارعاً في استخدام «شلايخر» لتدمير قوتيهما. وفي انتزاع القوة من «شلايخر» في الوقت نفسه وها هو «هتلر» الذي لا يصفح ولا ينسى، يجد فرصته للقضاء على «شلايخر» نفسه.

واختار «هتلر» لوزارة الدفاع الفريق «فرنر فون بلومبرغ» ضابط الاركان العامة الذي كان من اشد الضباط اعجاباً «بهتلر». وقام «بلومبرغ»، بعد ترقيته الى رتبة قائد المشاة في ١/٣٠، بتعيين «فالتر فون رايخناو» رئيساً لـ Ministeramt. وقد وافق «هتلر» على هذا التعيين بالطبع، لان «رايخناو» كان بدوره من ضباط الاركان الموالين للنازية.

وبعد شهر من تولي منصب المستشارية، عزز «هتلر» سلطته بطريقة دراماتيكية. ففي ليلة ١٩٣٣/٢/٢٧، شب حريق في مبنى الرايخستاغ، رمز حكومة المانيا الدستورية.

وبالرغم من ان النازيين فشلوا في اقناع الرأي العام بأن الشيوعيين كانوا

وراء حادثة إحراق الرايخستاغ، اتخذ «هتلر» من هذه التهمة ذريعة لاخضاع الحزب الشيوعي اخضاعاً تاماً. كما انه اتخذ من اخضاعه للشيوعيين ذريعة لتعطيل الجانب الذي يحمي الحريات الشخصية من الدستور الألماني.

ومع ذلك، لم يستطع «هتلر» الفوز بأغلبية الاصوات في الانتخابات التي جرت في ربيع ذلك العام. ولكن قيامه باعتقال اعضاء البرلمان الشيوعيين، ونجاحه في اقناع اعضاء آخرين، منحه القدرة على تمرير قانون يمنحه سلطات دكتاتورية، وافتتاح حقبة دامت ١٢ عاماً من الحكم المطلق تحت لقب «الفوهرر» (الزعيم).

وبادر «هتلر» في الحال الى تجريد حملة كثيفة لنيل دعم الجيش وولائه. وقد اصابت الحملة نجاحاً ساحقاً، ذلك ان معظم كبار الضباط كانوا يؤيدون مساعي «هتلر» الهادفة الى تحرير المانيا من قيود معاهدة «فرساي»، ويؤيدون اصراره على ضرورة رفع القيود المفروضة على قوة المانيا العسكرية، رغم انهم كانوا يحتقرون «هتلر» كفرد. وكانت تلك الحملة اوفر حظاً في صفوف صغار الضباط، الذين ابدوا إعجابهم واحترامهم لبرنامج «هتلر» الثوري، والذين لم يكونوا قد انقادوا الى دعوة القومية المغالية بعد.

وسارع «هتلر» الى اظهار جديته في عزمه على إزالة القيود المفروضة على مسألة اعادة تسليح المانيا، فوافق على خطة الجيش القاضية بتوسيع حجم الجيش سراً بحيث يصبح مؤلفاً من عشرين او إحدى وعشرين فرقة في غضون ثلاث سنوات. وحين رفض مؤتمر نزع السلاح التابع لعصبة الامم طلب المانيا بمساواة المانيا بحلفاء الحرب العالمية الأولى، امر «هتلر» بسحب ممثل المانيا في المؤتمر، وبانسحاب المانيا من عضوية عصبة الامم في ١٩٣٣/١٠/١٤.

بيك رئيساً للاركان

وكان «بلوبرغ» قد اجرى في هذا الوقت تقريباً تغييرين هامين في قيادة الجيش العليا، بعد ان حاز على موافقة «هتلر». ففي ١٩٣٣/١٠/١، جعل الفريق «لودفيغ بيك»، البالغ من العمر ٥٣ سنة، رئيساً جديداً لمكتب القوات - اي رئيساً للاركان العامة، وكان «بيك» يعتبر واحداً من المع ضباط

هيئة الاركان العامة، كما كان من اصحاب الحظوة في صفوف الحزب النازي، اعترافاً بوقوفه منذ سنوات خلت الى جانب ضابطين من ضباطه كانا قد قدما امام محكمة عسكرية بتهمة نشر الدعاوي النازية. والحقيقة ان وقوف «بيك» الى جانب ضابطيه هدف لم يكن بدافع ولائه أو معاداته للنازية، وإنما بدافع تأمين محاكمة عادله لهما.

وبعد اسبوع من تولي «بيك» مسؤولية مكتب القوات، عين «بلومبرغ» العقيد الشاب (٤٥ عاماً) «فريدريتش (فريتس) فروم» رئيساً لمكتب الجيش العام المنشأ حديثاً. وكان «فروم» احد ضباط الاركان الذين اظهروا كفاءة عالية إبان خدمتهم تحت امرة «شلايخر» في Ministeramt، وكان قد عين في مكتب الجيش العام منذ إنشائه لتنفيذ خطة «برويننغ» و«شلايخر» الهادفة الى توسيع الجيش بمقدار ٥٠ الف رجل بشكل سري.

ومن هنا، كان «بيك» و«فروم» في طليعة الذين تحملوا مسؤولية بعث الجيش الالماني في السنوات القليلة التالية. والمدهش في الامر، ان «همرشتاين» لم يستشر فيما يتعلق بتعيين «بيك» و«فروم»، رغم ان المنصبين اللذين أُسندا اليهما كانا أهم منصبين في قيادته.

وفي كانون الثاني (يناير) من العام ١٩٣٤، لمس «همرشتاين» عجزه حيال الترتيبات القيادية الجديدة، وبدأ يدرك مدى مسؤوليته الشخصية عن نتائج مؤازرته «لغرونر» ودعمه المطلق لـ «شلايخر» فاستقال. وكان بذلك ضحية ثغرات لا قيمة لها في شخصيته، وظروف خارجة عن ارادته، رغم ما عرف به من نباهة واخلاص ونبل. فلقد كان كسولاً لا يحسن استغلال مواهبه الفريدة استغلالاً كاملاً، بل انه كان أسير «شلايخر» الذي كان يقل عنه ذكاء، وإنما يفوقه حيوية. وقد كان في الفترة الاخيرة من خدمته يتمتع بقوة شخصية وقوة ارادة كافيتين للوقوف في وجه «هتلر»، ولكن الفرصة افلتت من يده في العام ١٩٣٤ الى غير عودة.

ورأى «بلومبرغ» ضرورة حلول «رايخناو» - الذي كان قد رُقي في ١٩٣٤/١/١ الى رتبة لواء محل «همرشتاين» المستقيل، ولكن كبار ضباط الجيش اعترضوا على ذلك بشدة، لأنهم كانوا يعتبرون رتبة «رايخناو» أدنى

من ان تسمح له بتولي منصب رئيس قيادة الجيش، كما كانوا يرتابون في دفاعه الشديد عن الاشتراكية الوطنية، ومن توقه الى الاستقلالية الشخصية. وهذا ما لم يكن معظم الجنرالات الالمان ينشدونه في كبير ضباط الجيش الالماني. اما «هندنبرغ» فلم يكن في حاجة الى من يدفعه للوصول الى الاستنتاج نفسه.

فريتش رئيساً للجيش

عُين الفريق البارون «ڤرنر ڤون فريتش»، في ١٩٤٣/٢/١، رئيساً لقيادة الجيش، بعد ان رفض اسم «رايخناو». و«فريتش» ضابط ركن المعي، وأحد مساعدي «سيكت» المفضلين. وكان، كما سوف تظهر احداث المستقبل، واحداً من ضباط الاركان الاكفاء، الذين كانوا يفتقرون الى قوة الشخصية الضرورية لممارسة القيادة الحازمة في وقت الأزمات. وكان ككثير من ضباط الجيش الالماني، متعاطفاً مع النازيين في معارضتهم لمعاهدة «فرساي»، وفي توجههم الى اعادة تسليح المانيا، كما كان مستعداً للعمل الى جانب «هتلر»، انطلاقاً من الرأي الراسخ في اذهان معظم الضباط الالمان، والقائل بأنهم قادرون على إسقاط نظام الحكم الهتلري حين تدعو الحاجة الى اسقاطه. هذا بالاضافة الى ثقته بقدرته وبقدرة مرؤوسيه الاكفاء في الاركان العامة، على كبح ما كان يسميه «بطيش الشباب» عند «هتلر» وزمرته.

وكان شغل «فريتش» الشاغل في هذا الوقت محاولات «روهم» الملحة لتنفيذ المخطط الذي طالما بحثه مع «شلايخر»، وهو المخطط القاضي بدمج الجيش وجيش العاصفة في جيش الماني جديد تحت قيادة «روهم». فقد كان «فريتش» يرفض هذه الفكرة رفضاً قاطعاً لسببين: الأول خشيته من ان يؤدي الدمج الى تخفيض مستوى الجيش الصغير الذي كان قد ورثه عن «سيكت» و«همرشتاين»، والثاني كون الفكرة صادرة عن «روهم» وشركائه الشاذين جنسياً المشاركين كأعضاء في قيادة الجيش العليا. ولم يكن «فريتش» وحده في موقفه هذا، بل كان يشاركه الرأي القائدان «بلومبرغ» و«رايخناو» المتعاطفان مع النازية.

وكان «هتلر» غير غافل عن موقف الجيش تجاه قوات العاصفة. ولما

كان حريصاً اشد الحرص على متابعة جهوده الرامية الى كسب دعم الجيش له، وبما انه لم يغفر لـ «روهم» مفاوضاته السرية مع «شلايخر» البغيض الى قلبه، فقد قرر التضحية بـ «روهم» وقوات العاصفة بغية اكتساب دعم الجيش وتحقيق المغانم التي يمكن ان يجنيها من وراء ذلك الدعم، ولم يكن «هتلر» يعني بقرار التضحية الاكتفاء بالتضحية السياسية، بل كان يعني به التضحية الدموية بكل معنى الكلمة.

التطهير الدموي، ومقتل شلايخر

ليس من المعروف مدى معرفة «فريتش»، او اي من مساعديه بخطط «هتلر» و«هملر»، ولكن من المؤكد تقريباً انهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن فظاعة ما كان يوشك ان يحدث. ولكن لا بد من جهة اخرى ان يكون «فريتش» قد لمس خطراً ما، بدليل انه في يوم الاثنين ٦/٢٥ وضع الجيش في حالة تأهب، وفي فجر السبت ٦/٣٠، بدأت مذبحة وحشية رسمية أشبه بمذبحة سان ـ بارتيلمي ودامت المذبحة يومين. وكان في مقدمة الذين قتلوا في البداية «روهم» والجنرال «فون شلايخر» وزوجته (رغم انهم كانوا في اماكن متفرقة وقتذاك). وفيما يتعلق بمصرع «روهم»، فإن «هتلر» نفسه هو الذي قام باعتقاله واصدار الامر باعدامه في ميونيخ. وكان «غورنغ» في هذا الوقت يبلغ الصحفيين والبسمة المتكلفة تعلو وجهه، بان «شلايخر» قد قتل في «برلين» اثناء مقاومته للذين حاولوا اعتقاله. وسيظل عدد الذين قتلوا في خلال الساعات الست والثلاثين تلك مجهولاً، وان كان قد ذكر على اثر محاكمة بعض مجرمي فصائل الدفاع (S S) في العام ١٩٥٧، بان عدد الذين قتلوا يتجاوز الالف ضحية(*)، من بينهم الجنرال المتقاعد وضابط الاركان «كورت فون بريدوف» الذي كان صديقاً لـ «شلايخر».

وفي خلال هذه الفترة من التغييب الرسمي للقانون، لبثت وحدات الجيش متأهبة في ثكناتها غير آبهة بأصوات الاعيرة النارية، التي كانت تتخللها انفجارات في كل مدينة وفي عدد من اقاليم الريف في انحاء ألمانيا. وفي يوم الاثنين الواقع في ٧/٢، صدر تعميم هنأ وزير الدفاع «فون بلومبرغ»

(*) تصر مصادر اخرى على ان عدد الضحايا لم يتجاوز المئة ضحية.

فيه «الفوهرر [الذي] قام بنفسه بمهاجمة العصاة والخونة، وسحقهم بعزم بطولي وشجاعة مثالية».

وإذا كان يوم ١٩١٨/١٢/٢٤ نقطة سوداء في التاريخ العملياتي للجيش الالماني، فإن الايام الواقعة بين ٦/٨ و١٩٣٤/٧/٢، والتي أغمض الجيش في خلالها عينيه امام الجريمة الجماعية، تعتبر أياماً فخرية الى ابعد الحدود. ومهما كان رأي المرء في «شلايخر»، فانه لم يكن متمرداً ولا خائناً (كما ردد «هتلر» في خطابه أمام الرايخستاغ في ٧/١٣). وقد كان الفيلد مارشال «فون ماكينسن» ورئيس قيادة الجيش السابق الجنرال «فون همر شتاين ـ إيكورد» الرجلين الوحيدين اللذين أعربا عن رأييهما بصراحة وجرأة خلال المذبحة وبعدها. ففي ٦/٣٠، حاول «ماكينسن» مقابلة «هندنبرغ» لدفعه الى ايقاف المذبحة، ولكن الرئيس أبقي بعيداً عن حقيقة ما يجري بأوامر من «هتلر». وبعد حملة التطهير مباشرة قام «همرشتاين» بخطوة جريئة، قوبلت بدعم حماسي، ولكن مكتوم، من قبل العديد من ضباط الجيش، لابعاد تهمة الخيانة الباطلة عن «شلايخر» و«بريدوف»، وقد نجح «همرشتاين» في خطوته تلك، ولكنه اسهم من حيث لا يريد في ابعاد تهمة الخيانة عن «فريتش» ايضاً وهو الذي يتحمل اكثر من غيره وزر الاتهامات التي وجهت الى «شلايخر» و«بريدوف».

وتجدر الاشارة هنا، الى ان عدداً من الضباط العاملين قد أحسوا بالخجل إزاء ما وقع. وكان من المحتمل ان يقوموا بعمل ما، لو انهم وجدوا سانحة لذلك. ولعل أهم هؤلاء الضباط هو الجنرال «لودفيغ بيك»، رئيس الاركان العامة الجديد.

وفاة هندنبرغ، هتلر زعيماً

وفي ١٩٣٤/٨/٢، اي بعد شهر واحد من حملة التطهير الدموية، توفي الرئيس العجوز «فون هندنبرغ». واعلن «هتلر» على الفور بأنه «كزعيم ومستشار» يتولى مهام الرئاسة وسلطاتها. وفي اليوم التالي جعل «بلومبرغ» كل ضابط من القوات المسلحة يقسم يمين الولاء لـ «هتلر» بالذات، وليس للرئيس او للدولة. وقد ذكر بعض الكتاب فيما بعد ان فكرة القسم هذه كانت

من صنع «بلومبرغ». ولكن بما ان وفاة «هندنبرغ» كانت متوقعة منذ وقت طويل، فسيكون من قبيل الغرابة الا يكون «هتلر» قد زرع هذه الفكرة في رأس «بلومبرغ»، انطلاقاً من ادراك الفوهرر ما ينطوي عليه هذا القسم من دلالة روحية في ضمائر الضباط الالمان وتقاليدهم.

ولكن اذا كان «هتلر» يعي جيداً المضامين الكامنة في القسم، فان ذلك لا ينطبق الا على عدد قليل من الضباط الذين اقسموا. ومن الممكن ان يكون «بيك» قد بدأ يوقن بأن مصالح «هتلر» غير متطابقة مع مصالح الجيش، كما كان سواه من ضباط الجيش يعتقدون. ولكن اذا ما صح ذلك، فان المطالب التي رُفعت في عهده كانت من النوع الذي لم يستغرق منه تفكيراً طويلاً.

وكان «بيك» في هذا الوقت قد شرع في انتشال منصب رئيس مكتب القوات من وهدة الغموض التي انحدرت اليها عند انتقال «سيكت» الى منصب رئيس قيادة الجيش آخذاً معه عملياً مسؤولية الدور التقليدي لرئيس الاركان العامة. فالجنرال «فريتش» لم يكن مثل «سيكت» رغم خبرته في رئاسة الاركان ورغم كفاءته التقنية. وكان «بيك» بالنسبة اليه مرؤوساً نجح في استيعاب وتحمل المسؤوليات التي قام «سيكت» باسنادها الى رئيس مكتب القوات. ولم يكن ذلك موضوع اعتراض من جانبه، بل انه لم يشعر قط بأن «بيك» كان يحاول اغتصاب منصبه. وهكذا عمل الرجلان جنباً الى جنب في مهمة بناء جيش المانى جديد.

اعادة تسليح المانيا

كانت عملية اعادة تسليح المانيا في هذا الوقت حقيقة مكشوفة، وان شابها تملق لقيود معاهدة «فرساي» من حين لآخر. وقد ابدى الحلفاء احتجاجهم، الا انهم لم يحركوا ساكناً، فيما عدا قيام بريطانيا، في بداية شباط (فبراير) ١٩٣٥، بدعوة المانيا لارسال ممثلين الى لندن لاجراء مناقشات عقيمة حول مسألة اعادة تسليح المانيا. وفي ١٩٣٥/٣/١٦ اعلن «هتلر» رفضه للبنود المتعلقة بنزع السلاح في معاهدة «فرساي»، وأُلغيت

التسمية «مكتب القوات» في الحال، وحمل «بيك» اللقب الحقيقي لمنصبه ـ رئيس الاركان العامة ـ وابدل بالتالي اسم تشكيل اركانه.

ولقد كان «بيك» ابن «الراين» الذي اختار مرؤوسيه بدقة ـ وبموضوعية الاركان العامة المعروفة ـ، ووافق على ضم المزيد من الضباط الى سلك الاركان العامة، بدون اي اعتبار لأصولهم الجغرافية. وكان واحداً من المفكرين المعروفين بصرامتهم في عُرف «شليفن ـ سيكت»، كما كان، كالكثير من ضباط الاركان العامة الذين ارتقوا الى قيادات عليا ومناصب الاركان، احد رجال المدفعية.

ولشد ما اسعد «بيك»، بعد ان اصبح رئيساً لمكتب القوات (اي رئيساً للاركان العامة، قبل انشاء تلك الاركان رسمياً)، ان يشارك «فريتش» في تطوير خطط توسيع الجيش الالماني، المنافية لمعاهدة «فرساي» وفي وضع هذه الخطط موضع التنفيذ منذ اواخر العام ١٩٣٣ وبداية العام ١٩٣٤. وتركز اهتمامه بصورة خاصة على مناهج دورات الضباط، التي كان «همرشتاين» و«آدم» قد وضعاها في «برلين»، بغية توحيد تدريبات الاركان العامة المشتتة في المناطق. وشرع في تحويل هذه التدريبات الى عمليةاحياء حقيقية للأكاديمية الحربية القديمة.

ومع رفضه لقيود معاهدة «فرساي» الخاصة بالتسلح في ١٩٣٥/٣/١٦، كشف «هتلر» على الفور عن خطة لزيادة تعداد الجيش الى ٥٥٠ الف رجل، اي ما حجمه ٣٦ فرقة. وقد عارض «بيك» ذلك بشدة وطرح خطة بديلة مؤداها زيادة قوام الجيش بصورة اولية الى ٣٠٠ الف رجل، اي الى ٢٠ او ٢١ فرقة، في مدة تتراوح بين عامين او ثلاثة اعوام، ثم تستأنف الزيادة ببطء وبالتدريج، حتى يصل تعداد الجيش الى ٥٠٠ الف رجل في بداية الاربعينات. فتتسنّى بذلك فرصة تدريب المجندين تدريباً جيداً مع المحافظة على مستوى الجيش عن طريق توسيع كادر الضباط بصورة مكثفة ومنظمة. وأحس «بيك» كما احس «سيكت» بأنه ما لم تُتقن قيادة ذلك العدد الكبير من الرجال، فان هؤلاء لن يكونوا سوى مُلقّمي مدافع، ولقد اراد بالتالي ان يحافظ على معايير القيادة الراقية التي كان «سيكت» قد وضعها. أما «هتلر» فانه

لم يعِ مشكلة تأمين مرافق القيادة والتسهيلات والدعم لجيش يتزايد. فكل ما كان يعنيه، ان لدى المانيا الطاقة البشرية، وان كل ما هو بحاجة اليه لبناء جيش كبير هو البدلات العسكرية والسلاح. وقد اوضح لبلومبرغ وفريتش وبيك بأنه يعتبر طروحاتهم حول اضاعة الوقت لتدريب الضباط فذلكة عسكرية. واصر على القول، بأن باستطاعة اي نازي جيد ان يتحول بصورة آلية الى قائد حربي من خلال حماسه الوطني المتعصب. ولم يكن بمقدور «بيك» ان يثني «هتلر» عن اهدافه، ولكنه ظل مصراً على القول بأن تدريب الضابط يتطلب وقتاً كافياً، وايده في ذلك كل من «بلومبرغ» و«فريتش» عندما لم يجد «هتلر» سوى التسليم. بيد انه ظل يلاحق قادة الجيش، ويطالبهم بالاسراع في البناء العسكري.

وفي العام ١٩٣٥، لم يعد هناك ما يمنع «بيك» من الاعلان عن اعادة تأسيس الاكاديمية الحربية. ولكن ذلك الاعلان لم يحل عقدة انتقاء مزيد من المدربين المناسبين، وهي العقدة التي عانت منها دورات الضباط ايما عناء. فما كان امام «بيك» الا الاستعانة بضباط الاركان العامة المتقاعدين، ولو بصورة مؤقتة، واختيار عدد من الضباط العاملين لالقاء المحاضرات وعقد الحلقات الدراسية. وتركز الحرص، كما في السابق، على دراسة التاريخ العسكري، باشراف العقيد المتقاعد «كورت هس». وقد شهدت الاكاديمية الحربية لاول مرة اهتماماً بحملات الحرب الاهلية الاميركية، حيث كان «هس» يعتقد بأن حملات «ستونوول جاكسون» و«يوليسيس غرانت» السريعة، اهم الموضوعات التي يتوجب على قادة جيش الماني، هاجسه الحركة، دراستها.

فروم، رئيس مكتب الجيش العام

وفي هذه الاثناء، كانت القاعدة الادارية لبناء الجيش قد طورت على يد واحد من أكفأ قادة المانيا واكثرهم بعداً عن الاضواء: العقيد «فريدريتش فروم» (الذي كان يفضل التوقيع باسم فريتس).

وكان «فروم» بتوليه رئاسة مكتب الجيش العام، قد انتقل الى ثالث اهم منصب في الجيش الالماني بعد «فريتش» و«بك»، وكان استحداث مكتب

الجيش العام قد تم في الواقع بغرض التنسيق بين عملية توسيع الجيش المتوقعة وبين مسائل تطويرالقوة، والتنظيم، والتسليح. (كان «شلايخر» و«بروننغ» قد خططا لزيادة الجيش بمقدار ٥٠ الف رجل). وكان المكتب الجديد موازياً، نظرياً على الاقل، لاقسام قيادة الجيش الاربعة الرئيسية الاخرى: مكتب القوات (او الاركان العامة)، مكتب شؤون الافراد، مكتب المعدات والمكتب الاداري . ولو ان إنشاء هذا المكتب قد تم قبل الحرب العالمية الأولى، لجعل قسماً من اقسام الاركان العامة، ولكن من الواضح ان «شلايخر» و«همرشتاين»، صاحبي فكرة انشاء المكتب، قد حرصا على عدم الحاق تنظيم مخالف لاجراءات معاهدة «فرساي»، بهيئة مخالفة في حد ذاتها للاتفاقية، وذلك تحاشياً للتمادي في إغاظة الحلفاء.

من هنا قام «بلومبرغ» باختيار ضابط مؤهل ذي تجربة، وإنما صغير السن نسبياً ـ ولو اختلفت الظروف لعُين مسؤولاً عن الامدادات من الدرجة الرابعة او الخامسة ـ لرئاسة هذا المكتب الجديد. وكان مستوى رتبته المنخفض نسبياً يشير الى موقعه المتواضع نسبياً بين اقسام قيادة الجيش الخمسة.

ولكن سرعان ما ابدى «فروم» حرصه على اعتبار نفسه تابعاً لرئيس قيادة الجيش دون سواه، وشدد على ضرورة استشارته، او تلقي توجيهاته في المسائل المتعلقة بحدود مسؤولياته، حتى ولو كان رئيس الاركان معنياً .

ولقد اكتسب «فروم» من جراء خدمته في Ministeramt تحت امرة «شلايخر»، وفي الاركان العامة، وبين صفوف الوحدات القتالية الصغرى في خلال الحرب، تجارب واسعة فريدة، متلائمة الى ابعد الحدود مع مهامه الاخيرة. واتفق انه كان خريج برنامج الاختيار والتجربة الذي وضعته الاركان العامة ايام الحرب، وانه خضع لدورة «سيدان» من دورات الاركان العامة. وزاد بالتالي الى نباهته المتميزة خبرات الجندي في السلم وفي القتال، وخبرات الاركان بدءاً من المستويات الدنيا وانتهاء بالمستويات العليا في الجيش، وفترة من الخدمة في Ministeramt حيث تناول بنجاح الشؤون المالية والضريبية والسياسية المترابطة. وقد كان اداؤه البارع في هذا

المكتب، الدافع الذي جعل «شلايخر» يسهم في السعي الى تعيينه رئيساً لمكتب الجيش العام.

وأضيفت الى مزايا البراعة، والخبرة والذكاء، شخصية تجمع بين القوة والصرامة، وبين اللين والدبلوماسية. وسرعان ما برهن «فروم» على امتلاكه المقدرة على تفويض اي كان بتسلم صلاحياته من دون ان يفقد زمام الامور. وككثير من معاصريه الذين نجوا من جحيم الحرب العالمية الأولى، ساورته شكوك حول اساليب الحرب القديمة، وغدا متشوقاً لاختبار اي نتاج من التكنولوجيا الحديثة، التي وعدت بتحاشي مأزق الخنادق الذي حل في الفترة (١٩١٤ ـ ١٩١٨). كما انه، كان كغيره من اعضاء ذلك الجيل يتمتع بفكر منفتح حيال الاشتراكية الوطنية. وكان حجم ذلك الجيل ضئيلاً، لان تجربة الحرب قد خلفت انطباعاً فريداً في نفوس الفتيان الذين ولدوا ما بين العامين ١٨٨٥ و١٨٩٥، لا بل ان ضآلة حجمه قد نجمت عن حقيقة أنه الجهة التي تكبدت افدح الخسائر في الحرب.

ففي نهاية العام ١٩٣٣، أي بعد تعيينه في منصبه بقليل، توصل «فروم» الى استنتاجات محددة حول كيفية تنفيذ مشروع توسيع الجيش، وكانت وجهات نظره في هذا الصدد مختلفة الى حد كبير عن وجهات نظر الجنرال «بيك» ـ صحيح ان «فروم» قد تفهم مخاوف «بيك» من اخطار عملية التوسيع السريع، الذي من شأنه الانحدار بمستوى الجيش القائم (١٠٠ الف رجل)، وتقويض جميع مخططات وتحضيرات «سيكت»، وصحيح انه تفهم بصورة خاصة سبب الحاح «بيك» على ضرورة المحافظة على مستوى فعالية الجيش القتالية في خلال فترة التوسيع، مهما كلف الامر، تحسباً لتدخل الحلفاء قبل المضي بالمشروع قدماً على اعتبار ان جيشاً صغيراً وقوياً اقدر على ردع الحلفاء من جيش كبير محروم من القوة.

غير ان «فروم» لفت الانتباه الى اعتبارات اخرى. ولعل اهم تلك الاعتبارات حالة الفوضى وانعدام متطلبات التنظيم والبرمجة، التي كانت تسود العلاقة بين الحكومة والصناعة، ساعة وُضعت خطة التوسع العسكري. وفي الوقت الذي كان «بيك» ومعه الاركان العامة في صدد تطوير خطط زيادة

تعداد الجيش زيادة تدريجية ومتأنية، كان الطيران والبحرية مندفعين الى التصنيع وفقاً لخطط كانت قد وضعت في وقت مضى، استباقاً لخطوات رفع قيود معاهدة «فرساي». وكان «غورينغ» القائد العام لسلاح الجو (السري آنئذ)، والرجل الثاني في الحزب النازي، ينسق خطة التطوير الصناعي الربعية التي كان هتلر قد امر بتنفيذها وقام تبعاً لذلك بتحديد عدد من الورش الصناعية والايعاز اليها باتخاذ الاجراءات اللازمة لانتاج مستلزمات سلاح الجو واذا ما تلكأ الجيش في هذه الحال عن طلب ما هو بحاجة اليه من اسلحة، فسيكون من شأن السلاحين الآخرين (الطيران والبحرية) استنفاد طاقة المانيا الصناعية المحدودة (حيث ان عدداً قليلاً من المصانع انخرط في انتاج الاسلحة سراً على نطاق ضيق).

وقام «فروم» وحفنة ضباط الاركان الذين أُلحقوا بمكتب الجيش العام بوضع خطة شاملة متكاملة وقدموها في العام ١٩٣٤ الى «فريتش» ـ مع ارسال نسخة منها إلى «بيك» ولاسباب ادارية. عدة كان في طليعتها موضوع الطاقة الصناعية حثّ فروم قيادة الجيش على الاستفادة من رغبة «هتلر» في التوسع الهائل، وذلك بتوسيع اطار الجيش الى ابعد حد ممكن، وكان من شأن ذلك التأكيد على تأمين المتطلبات الصناعية والتكنولوجية والاقتصادية، التي يمكن للجيش تبريرها بالقول بأنها متوافقة مع خطط التوسع والتعبئة البعيدة المدى. واشار «فروم» الى ان هناك كمية لا يستهان بها من اسلحة الحرب العالمية الأولى. وهي كافية لتسليح الجيش الجديد.. ولكن إدراكاً منه للمشكلات التي كانت تقض مضجع «بيك»، فقد أوصى بالشروع في توسيع الجيش وفقاً لبرنامجين متوازيين ومتزامنين، ينطلق أحدهما من غالبية جيش المئة الف رجل، ويشرع في التوسع ببطء، على النحو الذي كان يطالب به «بيك». وتتحكم في نمو هذا الجيش فرص توفير صغار الضباط المدربين تدريباً جيداً، وتوفير المعدات والأسلحة المتحركة، التي لم تكن حتى ذلك الوقت أكثر من نماذج أولية أو رسوم تخطيطية. ويكون البرنامج الثاني عملية توسيع على مستوى أقل، بدلاً من إنشاء جيش كبير متجدد كلياً، مستخدماً في ذلك عدداً قليلاً من كوادر جيش المئة ألف رجل، وكميات الأسلحة القديمة التي كانت لا تزال في المخازن.

وعارض «بيك» هذه الفكرة في بادىء الامر معارضة تامة، ونجم عن

ذلك مماحكات ومناقشات بينه وبين «فروم» استمرت الى يوم وفاته وسقوط «فروم». ولكن الشعبة التنظيمية من الاركان العامة استحسنت هذه الخطة، واخذت تدافع عنها بحجج منطقية، الى ان أُسقط في يد رئيس الاركان العامة، واضطر الى تبديل موقفه. وبالرغم من تحفظه ازاء ما كان يعتبره غطرسة متهورة من ضابط صغير، وافق «بيك» على خطة «فروم» وقام الرجلان بتقديمها معاً الى «فريتش» وكان رئيس قيادة الجيش بالطبع مطلعاً على افكار «فروم» منذ البداية الامر الذي جعله يجد ضرورة في تبنيها.

ولادة قوة البانزر

انطلاقاً من ذلك، تم في حزيران (يونيو) ١٩٣٤ استحداث قيادة القوات الآلية بإمرة الجنرال «اوزوالد لوتس». وكانت رئاسة أركان القيادة الجديدة هذه من نصيب العقيد «هاينتس غودريان»، بفضل «فروم» الذي استخدم نفوذه في هذا السبيل.

وغودريان واحد من خريجي دورة الاركان العامة في «سيدان». كان قبيل الحرب قد درس لفترة قصيرة (١٩١٣ - ١٩١٤) في الاكاديمية الحربية. وبعد الحرب بسنوات قليلة، اصبح الاختصاصي الاول والداعية لحرب المدرعات في الجيش الالماني. وقد كان تعيينه في قيادة القوات الآلية وأركانها ستاراً يخفي وراءه عمله الدؤوب في سبيل تنظيم قوات الدبابات وتطوير العقيدة والتقنيات الخاصة بحرب الدبابات.

وعلى الرغم مما كان يكتنف العلاقة بين «فروم» و«بيك» من فتور، شهد العام التالي تنسيقاً حثيثاً بين «غودريان» و«فروم» والعقيد «جورج فون زودرشتيرن» رئيس شعبة التنظيم في الاركان العامة، فيما يتعلق بتحضير متطلبات قيادة القوات الآلية من دبابات ومدافع خفيفة، ومدافع مضادة للدبابات، وشاحنات، وعربات نقل، واجهزة لاسلكية ميدانية، وغيرها من المعدات الجديدة. وقد جرى آنذاك اختبار النماذج الاولية، فأدخلت تعديلات على بعضها ورفض البعض الآخر وبعد الموافقة النهائية، صدرت الاوامر للبدء في تصنيعها. وفي نهاية صيف ١٩٣٥، تم تشكيل فرقة مدرعة - او فرقة بانزر - لاغراض التدريب، واخضعت بعد مضي اربعة اسابيع من

التدريب المكثف، لسلسلة من المناورات التكتيكية بحضور كل من الجنرالات «فون بلومبرغ»، و«فون فريتش» و«بيك». وكان من بين الحاضرين ايضاً «فروم» و«زودرشتيرن» والعقيد «إريك فون مانشتاين» وكان هذا الاخير قد عين رئيساً جديدا لقسم العمليات في الاركان العامة بتوصية من قائده السابق «فريتش».

وبعد اختتام المناورات بوقت قصير، اخذت قيادة القوات الآلية اسم قيادة القوات المدرعة، مع الاحتفاظ «بلوتس» كقائد لها وبغودريان كرئيس لهيئة أركانها، وبعد عدة ايام، وفي ١٥/١٠/١٩٣٥ بالتحديد، شُكلت ثلاث فرق بانزر جديدة، وسلم غودريان قيادة إحداها وكان لا يزال يحمل رتبة عقيد فقط.

وكانت هذه ولادة العنصر الجديد من الجيش على النحو الذي استشرفته خطة «فروم». وكان جلياً آنذاك بأن بريطانيا وفرنسا لن تتخذا اي إجراء رداً على التحدي الالماني لمعاهدة «فرساي»، وبالتالي لم يعد هناك سبب لاخفاء حقيقة وجود سلاح مدرعات او نشوء فرق مدرعة جديدة. سيما ان بريطانيا وفرنسا قد اطمأنتا الى الوعد الذي قطعه «هتلر» والذي جاء فيه بأن المانيا ستواصل التقيد بالبنود الاخرى من معاهدة «فرساي» وكان «هتلر» في الواقع، قد امر «بيك» بتحضير خطط لاحتلال منطقة «الراين».

احتلال منطقة الراين

جزمت معاهدة «فرساي» بشكل قاطع، على ان دخول قوات المانية الى منطقة «الراين» يعد «عملاً عدائياً» في نظر الحلفاء، ولكن فيما بريطانيا وفرنسا منهمكتين في العام ١٩٣٦ بالخطر المحدق بالسلام العالمي، بفعل هجوم موسوليني على اثيوبيا، رأى «هتلر» بأن الفرصة قد سنحت لتنفيذ الخطوة الثانية من برنامجه. فأمر الجيش بالسيطرة على منطقة الراين. وحاول «فريتش» و«بيك» اقناعه بتأجيل هذا التحرك ريثما يتم بناء الجيش الجديد، ولكن «هتلر» اصر على موقفه، ووعد في الوقت نفسه بسحب القوات اذا ما ردّت فرنسا بالقوة.

ولما دخلت القوات الالمانية المنطقة في ٧/٣/١٩٣٦، احتجت فرنسا

وبريطانيا، وردت فرنسا بحشد ثلاث عشرة فرقة في وضعية الدفاع على الحدود الألمانية؛ الامر الذي دفع «بلومبرغ»، وبتوجيهات من «بيك»، الى مطالبة «هتلر» بسحب القوات. ولكن «هتلر» قابله بالرفض. وقد قال «هتلر» فيما بعد، بأن الساعات الثماني والاربعين التي تلت دخول القوات الالمانية الى «الراين» قد حبست انفاسه على نحو لم يشهده طيلة حياته، ولكنه صمد امام ذلك المأزق الحرج بكل ما اوتي من جرأة على الخداع. وفهم بأن التردد النفسي لدى كل من فرنسا وبريطانيا، سيطغى على التفوق الهائل الذي تتمتع به قواتهما المسلحة.

لقد كان «هتلر» اريباً في توقيت خطوته، حيث ان المانيا استطاعت ان تحظى بقاعدة عسكرية من دون اطلاق رصاصة واحدة. وهي القاعدة العسكرية التي هوجمت منها فرنسا بعد ذلك بأربع سنوات. وقام «هتلر» إبان احتفاله بانتصاره وبعيد ميلاده في ١٩٣٦/٤/٢٠ بترقية «بلومبرغ» الى رتبة فيلد مارشال، و«فريتش» الى رتبة فريق، كما اصبح «هيرمان غورينغ» و«إريك رايدر» برتبتي فريق في سلاح الجو وفي سلاح البحرية على التوالي.

وكان «بيك» والعديد من جنرالات الجيش (ولعل فريتش احدهم) مستعدين للاطاحة بـ«هتلر» فيما لو قامت فرنسا بغزو «الراين»، اما وقد بورك الاحتلال في جميع انحاء المانيا، فانه لم يعد في وسع، حتى ضباط الاركان العامة الذين كانوا يدركون خطورة خطوة «هتلر»، الا ان يجلوا رأي «هتلر» وجرأته.

وكان «هتلر» دوماً، ومنذ الايام التي وضع فيها كتابه «كفاحي»، يرى في ايطاليا الفاشية الحليف المحتمل ضمن خطته الهادفة الى السيطرة على اوروبا. ومن اجل هذا، استثنى مجموعة الاقلية الألمانية التي كانت تقطن شمالي ايطاليا، من خطته الرامية الى لملمة شمل الشعوب الاوروبية الناطقة بالالمانية في Volksdeutsche. وكانت لـ«موسوليني» من جهة ثانية أطماع في منطقة الدانوب تتعارض مع خطة «هتلر»، فضلاً عن رأيه القائل بأن اي اتحاد يجمع بين المانيا والنمسا يشكل تهديداً على امن ايطاليا. وكان نازيو النمسا

قد حاولوا في العام ١٩٣٤ استلام الحكم في النمسا، حين قاموا بمحاولة انقلاب خاطفة وعنيفة، ولكن محاولتهم فشلت بفعل الحشود الايطالية على الحدود النمساوية، واضطر «هتلر» الى نفي علاقته بمحاولة الانقلاب ولكن ورغم كل هذا، توثقت عرى الصداقة بين الحكومتين النازية والفاشية.

وأدى اندلاع الحرب الأهلية الاسبانية في العام ١٩٣٦ بقيادة الجنرال «فرانشيسكو فرانكو» الى زيادة مستوى التعاون بين «هتلر» و«موسوليني». فقد أرسلت قوات المانية وايطالية الى اسبانيا لمؤازرة «فرانكو» ضد الحكم الجمهوري اليساري، الذي كان يتلقى دعماً من الاتحاد السوفييتي. وفي اسبانيا، اختبر الزعيمان الالماني والايطالي قواتهما المسلحة الجديدة وأرسيا اسس التعاون بينهما. وكانت ايطاليا في هذه الآونة قد اضحت معزولة عن فرنسا وبريطانيا بفعل الغزو الايطالي لاثيوبيا من جهة والعقوبات الاقتصادية التي فرضتها عصبة الامم على ايطاليا من جهة ثانية. وكانت تلك الضغوطات الاقتصادية فاترة بعض الشيء، وذات تأثير ضعيف على الدولة الإيطالية، الا انها ادت الى ظهور إمارات الاستياء في صفوف الشعب الايطالي.

محور روما ـ برلين

مع نضوج الظروف المؤاتية لاقامة حلف رسمي بين ايطاليا الفاشية والمانيا النازية، وُقعت في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦ اتفاقية سرية تحددت بموجبها اهداف السياسة الخارجية المشتركة. وأُذيع نبأ الحلف على العالم تحت اسم محور روما ـ برلين، إشارة الى ان المحور يشكل نواة مركزية يتوجب على بقية انحاء أوروبا الدوران حولها.

وفي تشرين الثاني (نوفمبر)، بادرت المانيا الى توسيع اطار الحلف بتوقيعها معاهدة مناوئة للكومنترن ـ اي مضادة للشيوعية الأممية ـ مع النظام العسكري الياباني. وقامت ايطاليا في شهر ايلول (سبتمبر) التالي بتوقيع تلك المعاهدة، وغدا الحلف يعرف بمحور «روما ـ برلين ـ طوكيو». وكان «فروم» في هذه الفترة يواصل جهوده الحثيثة للتوفيق بين جيش المشاة ـ المدفعية التقليدي والمزود بأسلحة الحرب العالمية الأولى، وبين الوحدات الآلية ـ

الميكانيكية المتحركة الجديدة، التي كان قد تقرر ان تشكل القوة الضاربة الرئيسية من الجيش الألماني. وفي ١٩٣٥/١١/١ رقي «فروم» الى رتبة لواء، وكانت علاقته بالجنرال «بيك» ما تزال على حالها من الفتور، ولكن التنسيق بين الاركان العامة ومكتب الجيش العام غدا اكثر سهولة في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦، بتعيين اللواء «فون مانشتاين» نائباً «لبيك» بصفة كبير مسؤولي شؤون العمليات.

وفي العام ١٩٣٦ ايضاً، بدأ البرنامج السري الخاص بتدريب الرجال المتوسطي الاعمار- الذين حالت معاهدة «فرساي» دون تجنيدهم - يؤتي ثماره. وقد وُزّع هؤلاء الرجال على احدى وعشرين فرقة احتياطية، بغية إنشاء قاعدة جديدة للتعبئة.

خطة هتلر للتوسع

في ١٩٣٧/١١/٥، حدث ما عجل في تعطيل التعاون المثمر الذي كان قائماً بين الاركان العامة ومكتب الجيش العام. ففي ذلك اليوم، اطلع «هتلر» خمسة من كبار مرؤوسيه على خططه الرامية الى التوسع في خلال السنوات القليلة التالية. وكان المسؤولون الخمسة الحاضرون هم وزير الخارجية البارون «كونستانتين فون نويْرات» ووزير الدفاع «بلومبرغ»، والقادة العامون للاسلحة الثلاثة، الفريق «فون فريتش»، قائد القوات البرية، والاميرال «رايدر» قائد سلاح البحرية، والفريق «غورينغ» قائد سلاح الجو. وكان على هؤلاء المسؤولين الكبار تنفيذ خطط التوسع تلك.

كان «هتلر» لا يزال متمسكاً بالبرنامج الذي سبق أن تحدث عنه في كتابه «كفاحي» منذ سنوات خلت. فالامتداد السكاني الالماني يحتاج الى ما يضمن ديمومته في اواسط اوروبا وشرقيها. وبدا ان «هتلر» لم يأت على ذكر بولونيا او روسيا بالتحديد، ولكن الحاضرين لم يشكوا لحظة واحدة بانهما كانا اهم هدفين في نظره. ولكن تقتضي الضرورة قبل كل شيء احتلال النمسا وتشيكوسلوفاكيا، لضمان حدود استراتيجية امثل، وإدخال مزيد من الألمان في حظيرة الرايخ.

وكان من الواضح ان استخدام القوة لتحقيق ذلك امر لا بد منه، وكان احتمال تدخل فرنسا وبريطانيا واحتمال التعامل مع هذا التدخل واردين. وقد حدد هتلر الفترة ١٩٤٣ ـ ١٩٤٥ كآخر موعد لتنفيذ برنامجه، ولكنه اشار الى ضرورة إعداد القوات المسلحة قبل ذلك الموعد، بسبب احتمال توافر فرصة مهاجمة النمسا في خلال العام ١٩٣٨، اي بعد شهرين من عرض الخطة. وبلغ قلق ثلاثة(*) من القادة الخمسة الذين استمعوا الى «هتلر»، ازاء الكارثة الماثلة امام المانيا، حد إقدامهم، بعد استشارة الجنرال «بيك» على مطالبة «هتلر» بإعادة النظر في خططه الامر الذي جعل «هتلر» يستشيط غيظاً، ويقرر، عقب إذعان «بلومبرغ» لمشيئته بعد ذلك بأيام قليلة، إزاحة «نوراث» و«فريتش» من موقعيهما في اقرب وقت ممكن.

سقوط بلومبرغ وفريتش

وحدث ان حكم القدر بأن يكون «بلومبرغ» اول من يفقد منصبه بين القادة الثلاثة، فزواجه من امرأة سيئة الصيت، احدث فضيحة في الجيش، وجعل «هتلر» يطالبه بتقديم استقالته. وبعد ذلك بوقت قصير استبدل «نويرات» «بيواكيم فون رنيبتروب»، الذي كانت ارستقراطية لقبه موضع ارتياب، وشخصيته الخاملة موضع استياء بنظر كبار النازيين.

اما «فريتش»، فكان حظه اسوأ بكثير من حظ الآخرين، حيث انه تعرض لحملة تشهير قاسية، تمثلت في اتهامه بالشذوذ الجنسي، وأُقيل من منصبه، وحُرم من العودة اليه حتى بعد ثبوت براءته في المحكمة العسكرية. وكان «بيك» قد حرضه على رفض طلب الاستقالة واعتقال «هتلر»، واقامة دكتاتورية عسكرية. كما كان قد اطلعه على استعداد الاركان العامة وكبار ضباط الجيش لتأييده رغم قسمهم يمين الولاء لـ«هتلر»، شريطة ان يصدر اليهم الاوامر. بيد ان «فريتش» لم يبدِ استعداداً لتحمل المسؤولية، وبالتالي لم يكن بمقدور «بيك» توقع تحرك الجيش ما لم يتلق الاوامر من قائد الجيش.

(*) الثلاثة هم: نويْرات، وبلومبرغ، وفريتش.

وجمع «هتلر» كبار ضباط الجيش في ١٩٣٨/٢/٤، واعلن قرار طرد «بلومبرغ» و«فريتش». ثم جرى نقل «مانشتاين»، الذي كان يعرف بصداقته الحميمة لـ «فريتش»، الى خارج «برلين»، وعهدت اليه قيادة فرقة مشاة في سيليزيا. ومع ذلك، ظل التعاون المثمر بين مكتب الجيش العام والاركان العامة على حاله، رغم ان «فروم» لم يعمد الى خطب ود نائب «بيك» الجديد، اللواء «فرانتس هالدر».

لقد كان «بيك» يكن كرهاً شخصياً لـ «فروم»، الا انه كان يعتبره اداريا كفؤاً ذا خيال خصب، وزميلاً له اهميته. وقد اعترف «فروم» من ناحيته بفطنة «بيك» وبمناقبيته العسكرية. وكان لا يزال يعتقد بأن رئيس الاركان العامة غير نافذ البصيرة بما فيه الكفاية، ويشعر بشيء من الضيق ازاء المعاناة التي يتكبدها «بيك» قبل اتخاذ اي قرار يتعلق بقضايا هامة. ولكن طالما ابدى «بيك» من ناحيته قابليته للتكيف، ولتقبل التجارب الموثوق بنتائجها والتصرف من غير إبطاء حالما تتخذ القرارات.

في الوقت الذي اعلن عن طرد «بلومبرغ» و«فريتش»، ابلغ «هتلر» جنرالاته توليه منصب القائد العام للقوات المسلحة. ولما كان مركز وزير الدفاع شاغراً بسبب احجام «هتلر» عن تعيين وزير جديد للدفاع، قام الجنرال «فلهلم كيتل»، الرئيس الجديد لـ Ministeramt بتحويل Ministeramt الى هيئة اركان للقوات المسلحة، وبالتالي بتنصيب نفسه رئيساً لاركان «هتلر». وقرر «هتلر» في الوقت ذاته بأن يرقي «رايخناو»، الاثير الى نفسه، ويجعله رئيساً لقيادة الجيش. وهي الخطوة التي كان ينوي القيام بها في العام ١٩٣٣، اي قبل تدخل جنرالات الجيش و«هندنبرغ».

وهنا، جدد حفنة من كبار الضباط، من بينهم الناطق باسمهم الجنرال «غيردفون روندشتيدت» تحركهم للحؤول دون تعيين رايخناو. ورفض «هتلر» الموافقة على تعيين «بيك»، كما كان قد اوصى «روندشتيدت»، وتوصل الى تسوية مع الضباط بتعيين الجنرال «فالتر فون براوخيتش» رئيساً جديداً لقيادة الجيش وترقيته الى رتبة فريق. وجُعل «رايخناو» قائداً لقيادة المجموعة الرابعة، اي عملياً قائداً لجيش ميدان، وما ان انتهى «هتلر» من التعيينات،

حتى بدأ حملة تطهير، تخلص فيها من غالبية كبار الضباط - ومن ضمنهم «روندشتيدت». وكان من بين الذين احيلوا على التقاعد في الفترة ذاتها الجنرالات «فلهلم فون ليب» و«غُنتر فون كلوغه»، و«مكسمليان فون فايخس»، و«فون فتسليبن». ولكن سرعان ما تحقق «هتلر» من استحالة الاستغناء عن اولئك القادة لما يمتلكونه من تجارب ومواهب فأعادهم جميعاً الى الخدمة.

هتلر يعيد تنظيم بُنية القيادة

لقد احدث ترتيب القيادة الجديد، وخلوه من منصب وزير الدفاع، ثغرة خطيرة في آلية التنسيق بين الادارتين العسكرية والمدنية في المانيا، الامر الذي دفع «هتلر» الى اصدار امر بأن يتولى المكتب العام للجيش الكثير من المهمات التي كانت في السابق من مسؤوليات وزارة الدفاع. ويصبح «فروم» بذلك ملزماً بالعمل تحت اشراف اركان القوات المسلحة الجديدة، ونقل التقارير الى هتلر عبر «كايتل»، وغدا فريق العمل الذي أُعد بشق الانفس موزعاً بين الاركان العامة والمكتب العام للجيش. وكان «كايتل»، في ظل هذا الوضع، إما غير قادر على العمل كمنسق للقوات المسلحة، وإما انه كان لا يجرؤ على ذلك. ومع ذلك، فإنه حرص اشد الحرص على عدم إزعاج «هتلر» بالقرارات الادارية. ولم يعد هناك اي تنسيق، الا فيما يتعلق بالاجراءات التي كان «فروم» يتخذها طوعاً إزاء أركان سلاحي البحرية والجو، وإزاء اركان الجيش العامة. ورغم ذلك كله، فان التنسيق الذي حقق سابقاً في عهد «فريتش»، قد استمر العمل به إبان الترتيب الجديد، وإن كان بشيء من التثاقل.

وقبل ان تتاح لفريق قيادة الجيش الجديد فرصة وضع اسس العلاقة الشديدة الأهمية مع المكتب العام للجيش، بادر «هتلر» الى اصدار اوامر باحتلال النمسا.

الضم.. (انشلوس)

لقد سبق لـ «موسوليني» أن حال دون الضم، ولكنه كان في هذه الحال يعني ضم النمسا من قبل المانيا في العام ١٩٣٤. بيد ان ديكتاتور ايطاليا

غدا مع حلول العام ١٩٣٨ اكثر تعاوناً مع حليفه الجديد. وكان بمقدور «هتلر» السير قدماً لتحقيق حلمه الالماني الرومانطيقي القديم، الذي كان ايضاً خطوة في مشروعه التوسعي الواقعي.

وكان في النمسا حزب نازي قوي، يتلقى من المانيا دعماً مالياً، ويتصل بحكومة المانيا النازية بصلة وثيقة. وقد احدثت الشائعات القائلة بأن ثمة محاولة انقلاب أخرى وشيكة جواً من التوتر في خلال العام ١٩٣٧ ومطلع العام ١٩٣٨، حيث جرت هجمات إرهابية بالقنابل، ونُظمت تظاهرات نازية ضخمة، وفي ٢/١١ قبل مستشار النمسا المعتدل «د. كورث فون شوشنيغ» دعوة لمناقشة المشكلات النمساوية ـ الالمانية مع «هتلر» في بافاريا.

واستُقبل «شوشنيغ» من قبل «هتلر» بفظاظة بالغة. حيث قام ديكتاتور المانيا بتسليمه مذكرة يطالبه فيها بأن تصبح النمسا محمية ألمانية بكل معنى الكلمة، اي ان تصبح مستقلة اسمياً، وخاضعة لسيادة المانيا وحكم «هتلر» فعلياً.

ولاسباب ما تزال غير واضحة تماماً، وقّع «شوشنيغ» المذكرة وباشر في تنفيذ ما جاء فيها. وقام «هتلر» عندها بالقاء خطاب موضحاً فيه رأيه القائل بأن سكان النمسا الألمان ينتمون مباشرة للرايخ الالماني، وبأن على النمسا ان تختفي كأمة مستقلة.

وهنا ادرك «شوشنيغ» بأن «هتلر» ينوي نقض ما اتفق عليه، فدعا شعبه في ٣/٩ الى إجراء استفتاء للاختيار بين الاستقلال او الانضمام الى المانيا. وكان المستشار واثقاً من ان الشعب سيصوت الى جانب الاستقلال رغم تعاطفه الشديد مع «الاتحاد»، ومعتقداً بأن «هتلر» سيكون عاجزاً امام ارادة الشعب النمساوي. ولعله كان يعلم ايضاً بأن الجنرالات الألمان كانوا قد اشاروا على «هتلر» بالحاح بألا يتورط في حرب اوروبية قد تنشب بسبب غزوه للنمسا.

غير ان «هتلر» كان واثقاً من ان الحلفاء لن يشنوا حرباً من اجل

النمسا، وكان شكه بنتائج الاستفتاء المقترح اكبر من ان يقرر تعطيله. وقبل موعد الاستفتاء بيومين هدد بارسال جيش الماني الى النمسا ما لم يستقل «شوشنيغ» ويتولى الزعيم النازي النمساوي، «آرثر زايس ـ اينكويرت» الحكم. وجرى حشد قوات المانية على طول الحدود استعدادا للتحرك، وقام النازيون في العاصمة النمساوية «فيينا» بالتظاهر. وحاول المستشار النمساوي، دون جدوى، الحصول على دعم ايطاليا، وبريطانيا، او فرنسا. الامر الذي دفعه الى الاستقالة، بعد ان امر القوات النمساوية بعدم مقاومة الغزو الالماني المؤكد.

وفي اليوم التالي، تدفق الجنود الالمان الى النمسا، واحتلوا البلاد في غضون ساعات قليلة، ودل ترحيب غالبية النمساويين بالغزو، على ان كلاً من «شوشنيغ» وهتلر قد أخطأ في تقديره لنتائج الاستفتاء المحتملة. اما الحلفاء، فانهم رفعوا عقيرتهم بالاحتجاج مرة اخرى، دون ان يحركوا ساكناً.

وفاز «هتلر» في تحديه للجنرالات وفي كسب النمسا. وجال في البلاد جولة المظفر، والقى في اثناء جولته خطباً حماسية، مثنياً فيها على مسقط رأسه وموطن يفاعته. ثم اعلن النمسا إقليماً من اقاليم المانيا. ولم يمض وقت طويل حتى اختفى اسم النمسا عن الخرائط الالمانية.

لقد كانت الخطوة الأولى من برنامج «هتلر» التوسعي ناجحة كلياً. ولكن، بالرغم من النجاحات التي رافقت «هتلر» منذ ١٩٣٤، كان القادة العسكريون الالمان يعلمون بأن الدول الغربية سوف تتخلى عن موقفها السلبي سريعاً. وكانوا يعلمون ايضاً مقدار جاهزية الجيش الالماني وكان التورط في الحرب يعني إلقاء الجيش الى التهلكة. ولكن من جهة ثانية، كانت شعبية «هتلر» الهائلة حائلاً دون القيام بأي عمل ضد الديكتاتور.

تشيكوسلوفاكيا وميونيخ

كانت تشيكوسلوفاكيا هدف «هتلر» الثاني. ففي الاجتماع المشؤوم الذي عقد في ١٩٣٧/١١/٥، صرح «هتلر» عن ضرورة الاستيلاء على النمسا وتشيكوسلوفاكيا معاً ولكن احتجاج قادته العسكريين على ما تقدم به، جعله يقرر الاستيلاء على البلدين في فترتين متباعدتين، مبتدئاً بالنمسا.

ورأى «هتلر» بان الاستيلاء على تشيكوسلوفاكيا سيتم بالقوة،، فبدأ الاستعدادات العسكرية في آذار (مارس) ١٩٣٨ فور احتلال النمسا. وكان قادة الجيش الالماني موقنين بأن الهجوم على تشيكوسلوفاكيا سيدفع فرنسا وبريطانيا الى التدخل في النهاية، كما كانوا خائفين من تبعات ذلك. ولكن ما حدث لـ «نويرات» و«بلومبرغ» و«فريتش» جعلهم يتفادون معارضته صراحة. فخطط بعضهم، بتوجيه من «بيك» للقيام بانقلاب يطيح بـ «هتلر» فور صدور امر الهجوم على تشيكوسلوفاكيا.

وكانت خطة «بيك» الهادفة الى مقاومة «هتلر» تعتمد على زعامة الجنرال «فون براوخيتش»، بصفته كبير ضباط الجيش. فمن دون تلك الزعامة، يصبح خطر الانقسام قائما على غرار ما حدث إثر فشل مؤامرة «كاب». وكان «بيك» يعلم بأن «براوخيتش» يتفق معه حول ضعف استعداد الجيش لخوض حرب كبرى، فدفع اليه ببيان وطلب منه ان يذيع البيان في اللحظة المناسبة. بيد ان رئيس قيادة الجيش الجديد اظهر بأنه اضعف كزعيم حتى من «فريتش». وكان «بيك» حريصاً ـ مثل «سيكت» إبان مؤامرة «كاب» ـ على الا يقوم بخطوة قد تؤدي الى انقسام داخل الجيش، فقدم استقالته في ١٩٣٨/٨/١٨، وهو يظن بأن «براوخيتش» سيحذو حذوه، كي يبادر الرجلان معاً الى قيادة انتفاضة ضد «هتلر» مع صدور امر غزو تشيكوسلوفاكيا.

ولكن «بيك» اصيب بخيبة امل مزدوجة، الأولى احجام «براوخيتش» عن تقديم استقالته، معللاً ذلك بالقول بأنه «جندي واجبه اطاعة الاوامر» وهذا لم يمنع «بيك» من مواصلة العزم على الاطاحة بـ «هتلر»، رغم ان موقف «براوخيتش» كان ينذر بإراقة الدماء في صفوف الجيش. اما خيبة الامل الثانية، فمصدرها موقف الحلفاء المستجد.

فلقد كان البريطانيون والفرنسيون راغبين في تهدئة مخاوف الديكتاتور الالماني، الى درجة ان خضوعهم المؤقت سلب «هتلر» امله في نشوب حرب، وسلب «بيك» وانصاره في الوقت ذاته فرصتهم للقيام بمحاولة انقلاب.

وكانت حجة «هتلر» لتهديد تشيكوسلوفاكيا، وجود جالية المانية كبيرة

في مناطق تشيكوسلوفاكية قريبة من الحدود الالمانية تسمى السوديت. وكان سكان السوديت قد نظموا من قبل حزب نازي محلي بتوجيه من المانيا، وحركت فيهم مشاعر عدائية تجاه موطنهم، رغم ما كانوا يلقونه من معاملة طيبة من الدولة التشيكوسلوفاكية.

وكان رئيس الوزراء البريطاني «نيفيل تشامبرلين» يخشى ان يعجل غزو تشيكوسلوفاكيا في اندلاع حرب عالمية جديدة. ذلك ان الجيش التشيكوسلوفاكي كان جيد التدريب والتسليح، ومستعداً للتصدي للغزو الالماني. ودخول تشيكوسلوفاكيا الحرب يحتم على بريطانيا وفرنسا تقديم العون لها بموجب معاهدة دفاع مشترك(*)، وكان «تشامبرلين» حريصاً على بذل جهوده للحؤول دون قيام الحرب. وفيما أوروبا تتوجس خيفة من نشوب الحرب، قام «تشامبرلين»، بمساعدة من «موسوليني»، بترتيب مؤتمر رباعي في «ميونيخ»، وعقد المؤتمر في ٢٩ و٣٠ ايلول (سبتمبر) بحضور «هتلر»، و«موسوليني»، و«تشامبرلين»، ورئيس الوزراء الفرنسي «ادوار دالادييه». ولم تمثل تشيكوسلوفاكيا في المؤتمر ونتج عن المؤتمر موافقة «تشامبرلين» و«دالادييه» على مطالب «هتلر» كلها، وتوقيع الممثلين الأربعة لدول اوروبا الكبرى على اتفاقية أرغمت تشيكوسلوفاكيا بموجبها على التخلي عن مناطق «السوديت» لصالح «هتلر»، وفي المقابل، وعد «هتلر» بالتوقف عن المطالبة بأي منطقة في تشيكوسلوفاكيا او في اي بلد آخر، واعلن بأن رغباته قد تحققت على اكمل وجه.

وخامر «تشامبرلين» اعتقاد بأنه عاد من ميونيخ وهو يحمل «سلاماً مشرفاً» لانكلترا. ولكن سرعان ما تبين للجميع بان «هتلر» غير مستعد لاحترام ما تعهد به في ميونيخ. ومال اعتقاد «تشامبرلين» وسواه من الذين ساهموا في تخفيف حدة مطامع «هتلر» الى القول بأن محاولات التهدئة قد اكسبت بريطانيا وفرنسا وقتاً للاستعداد لم يكن متوافراً يوم انعقاد مؤتمر ميونيخ. بيد ان حقيقة الامر هي ان المانيا نفسها لم تكن مستعدة بدورها لخوض حرب وكانت فرصة الحلفاء الغربيين للتصدي لمطامع «هتلر» في العام ١٩٣٨،

(*) معاهدة «لوكارنو» ١٩٢٥ الى جانب ضمانات رسميه واضحة ومحددة من قبل فرنسا. كما كان التزام بريطانيا بالدفاع يفرضه تحالفها مع فرنسا.

بدعم من الجيش التشيكوسلوفاكي القوي(*)، اقوى من فرصتهم في العام ١٩٣٩. والاهم من ذلك هو استعداد قادة الجيش الالماني لإزاحة «هتلر» في لحظة إصدار امر الغزو.

وكان «هتلر» يدرك تماماً مخاطر ما كان عازماً عليه. ورغم عدم وجود ما يؤكد اطلاعه على حقيقة خطط «بيك» المحاكة ضده، فان رجال «الغستابو» زوّدوه بمعلومات كافية حول احتمال رفض الجيش لأوامر غزو تشيكوسلوفاكيا. لذا أُخفي نبأ استقالة «بيك» في ٨/١٨ عن الشعب الالماني وعن الحلفاء بالتحديد، مخافة ان يتبين للحلفاء ليس ضعف ألمانيا العسكري فحسب، بل وانقسام الرأي بين قادة المانيا العسكريين ايضاً.

وفي ١٠/١، اي بعد إذعان الحلفاء في ميونيخ بيوم واحد أُعلنت استقالة «بيك»، وكان شبح الانقلاب ضد «هتلر» قد ابتعد في ذلك الوقت. ذلك لان الديكتاتور افلح في استقطاب غالبية الشعب الالماني - وكذا الجيش - بضربته الحاذقة التي عادت عليه بانتصار دبلوماسي على بريطانيا وفرنسا دون اراقة نقطة دم واحدة.

وكانت اراضي «السوديت» التي انتزعت من تشيكوسلوفاكيا في مؤتمر ميونيخ، قد ضمت الى ذلك البلد الصغير بموجب معاهدة «فرساي»، لمنحه حدوداً جبلية قابلة للدفاع استراتيجياً. فمن دون تلك الحدود والتحصينات التي بنيت عليها، اضحت تشيكوسلوفاكيا لا حول لها ولا قوة. ففي ١٩٣٩/٣/١٥، ولم يكن قد مضى على تعهدات «هتلر» في ميونيخ اكثر من ستة اشهر، فاجأت القوات الالمانية العاصمة التشيكوسلوفاكية بهجوم مفاجىء، فضُمت بوهيميا ومورافيا الى المانيا، وجُعلت سلوفاكيا مستقلة اسمياً وخاضعة للسيطرة الالمانية عملياً.

وكان على «تشامبرلين»، بنتيجة هذا الخرق الفاضح لاتفاقية ميونيخ، ان يعترف بالواقع، فسارع الى اعلان تعهد بريطانيا بدعم بولونيا في حال

(*) حامت الشكوك حول مقدار الدعم الذي كان باستطاعة هذا الجيش تقديمه في حال نشوب حرب ضد المانيا، لكون ٢٥٪ من أفراده من أصل الماني، و ١٠٪ بولونيون وهنغاريون.

تعرض الاخيرة الى غزو الماني. وبادر «دالادييه» في اليوم ذاته الى تقديم الضمانة الفرنسية الى بولونيا. ولكن هذين البلدين لم يحركا ساكنا ازاء غزو تشيكوسلوفاكيا.

ولم يكن «هتلر» ليهتم كثيراً بالضمانات الانكلو- فرنسية. ففي غضون سبعة عشر شهراً، نجح في تحقيق الخطوات الاولى من البرنامج الذي عرضه على كبار مساعديه في ١٩٣٧/١١/٥، من غير ان يفقد جندياً واحداً او قطعة سلاح واحدة. وها هو الآن جاهز للتحرك الى اراضي ليبنسروم من بولونيا. وكان يدرك بأن خطوته الجديدة قد تؤدي الى نشوب حرب بين المانيا وبريطانيا وفرنسا، ولكن شعور الاستهتار الذي كان يكنه إزاء قادة هذين البلدين جعله يفكر في احتمال تراجع بريطانيا وفرنسا عن تعهداتهما تجاه بولونيا. واذا ما حدث ان وفيا بالتزاماتهما، فلن يكون قتالهما جدياً لأنهما سرعان ما سوف يسعيان، في اعتقاده، الى عقد محادثات سلام.

هالدر رئيساً للاركان العامة

حين استقال «بيك» في ٨/١٨، احتل منصبه رئيس العمليات العام الجنرال «فرانز هالدر»، الذي كان يحمل وقتذاك رتبة قائد المدفعية. وقد كان «هالدر» البافاري المنشأ موضع احترام بين اقرانه في هيئة الأركان، وبين كبار ضباط الجيش، بيد انه كان غير معروف تقريباً من قبل الجيش والامة. وقد ولد في «فورتسبورغ» بتاريخ ١٨٨٤/٦/٣٠ لأسرة ذات تاريخ طويل في الجيش البافاري. وفي ١٩٠٢ دخل ذلك الجيش كمرشح ضابط، ثم اصبح برتبة ملازم ثان في آذار (مارس) ١٩٠٤. واختير في مقتبل حياته العسكرية كواحد من ضباط الاركان البافارية. ووجد نفسه عند اندلاع الحرب العالمية الاولى وذوبان الجيش البافاري في الجيش الالماني في خدمة القيادة العليا للجبهة، كضابط من ضباط هيئة الاركان العامة العليا.

وبعد الحرب، كان «هالدر» واحداً من ضباط المجموعة، التي اصطفاها الجنرال «هانز فون سيكت» كنواة لجيش المئة الف رجل الجديد. وتنقل «هالدر» في السنوات التي تلت الحرب بين الخدمة في الوحدات

والخدمة في الاركان، ولكنه سلم في العام ١٩٣٠ منصباً قيادياً رفيعا وامضى بقية حياته العسكرية في مناصب هامة في الأركان أو في القيادة.

وقد حدث في العام ١٩٣٠، ان لعب «هالدر» - وكان آنذاك برتبة مقدم - دوراً غامضاً بعض الشيء، وبريئاً كما هو واضح، في صعود «ادولف هتلر» الى السلطة،وذلك بتقديم الجنرال «فون شلايخر» الى «ارنست روهم»، المسؤول الاول عن رجال الصاعقة النازيين ذوي القمصان البنية. وحين اعتلى «هتلر» سدة المستشارية في بداية العام ١٩٣٣، عُين «هالدر» رئيساً لاركان القطاع العسكري التاسع، ثم ما لبث ان رُقي الى رتبة عقيد. وكان «روهم» في الفترة ذاتها يعمل بدأب على وضع الاسس الرامية الى تولي قيادة القوات المسلحة الالمانية. وكان «روهم»- رغم المعارضة الشديدة التي واجهه بها قادة المانيا العسكريين، واثقاً من مقدرته على تحقيق طموحه الهادف الى خلق «جيش الشعب» لمصلحة «هتلر». ولعل تذكر «روهم» لفضل «هالدر» في تدبير لقائه مع «شلايخر» هو الذي دفع واحداً او اكثر من مساعدي «روهم» الى تلمس مساعدة «هالدر» في تدريب قادة الصاعقة (SA) وفقاً لمناهج الاركان العامة الا ان «هالدر» أعلم الجنرال «فون فريتش» في الحال وكانت تلك الواقعة واحدة من الحوادث التي اضطرت «فريتش» الى الاعراب عن تذمره من الصاعقة (SA) امام «هتلر» شخصياً، والى إعداد الجيش لاتخاذ تدابير فورية ضد اي محاولة محتملة قد تقوم بها قوات الصاعقة (SA) للاستيلاء على السلطة بالقوة. وكان «هتلر» عالماً بما يجري، ومدركاً بأن تحريض الجيش ضد الصاعقة قد يطيح به كمستشار. ووجد فيما يجري فرصة لاكتساب ثقة الجيش ودعمه، مضحياً بـ«روهم» و«القمصان البنية». وكانت النتيجة قيام حملة التطهير الدموية في ٦/٣٠ - ١٩٣٤/٧/١.

ومع حلول العام ١٩٣٦، عاد «هالدر» إلى الاركان العامة برتبة لواء، وغدا في نهاية العام ١٩٣٧ برتبة فريق، وعُين رئيساً لقسم في الاركان العامة. وحين اقدم «هتلر» في بداية العام ١٩٣٨ على طرد «بلومبرغ» و«فريتش»، فكر ايضا في طرد رئيس الاركان العامة الجنرال «بيك»، نظراً لموقف «بيك» المتشدد من النازية. بيد انه قرر نقل نائب «بيك»، الجنرال

«اريش فون فانشتاين»، الذي كان صديقاً حميماً لـ«فريتش»، متفادياً بذلك حرمان الأركان العامة من رئيسها ونائبها في آن معاً. ومن الواضح ان «هتلر» قد فكر آنذاك في تسليم رئاسة الاركان الى «هالدر»، ولكن قيل بأنه عدل عن فكرته، ظناً منه بأن «هالدر» كاثوليكي المذهب، وهو الذي عرف عنه كرهه للكاثوليكيين بمقدار كرهه للجنرالات. واذا ما صح هذا القول، فان ظن «هتلر» خاطىء. اذ رغم كون «هالدر» بافارياً، فانه كان بروتستانتياً مخلصاً. وفي اي حال، فقد ابقى «هتلر» الجنرال «بيك» على رأس الاركان العامة، وعهد الى «هالدر» بمنصب «فانشتاين» السابق - منصب رئيس هيئة العمليات العامة، او منصب نائب رئيس الاركان لشؤون الخطط والعمليات - الى جانب رتبة قائد المدفعية.

وحين استقال «بيك»، عاد «هتلر» الى التفكير مجدداً بشأن «هالدر»، خصوصاً بعد ان علم بأن «هالدر» ليس بروتستانتياً مخلصاً فحسب، بل وانه رجل غير معني بالسياسة ايضاً. وقرر بناء على ذلك احلاله محل «بيك» في رئاسة الاركان العامة.

التخطيط لحرب على بولونيا

كانت اولى مهام «هالدر» كرئيس للاركان العامة التخطيط لحرب على بولونيا. وكان «هالدر» قبل ذلك بسنتين ونصف السنة، اي إبان احتلال منطقة الراين، متفقاً مع «بيك» حول خطورة نشوب حرب بين ألمانيا والدول الغربية، بل انه انضم الى مجموعة الجنرالات التي اعدت سراً خطة الاطاحة بـ«هتلر» في حال اعلان فرنسا الحرب على المانيا. ولكن فرنسا لم تعلن الحرب، وتنامت قوة المانيا بشكل ملحوظ في خلال الاشهر الثلاثين التي تلت. ومع هذا، فان «هالدر» وغالبية مرؤوسيه في الاركان العامة، كانوا على قناعة بأن بريطانيا وفرنسا ستشنان حرباً اذا ما بادرت المانيا الى غزو بولونيا، وبأنهما ستقاتلان جدياً، بحيث يغدو انتصار المانيا مسألة غير مؤكدة، خلافاً لرأي «هتلر». ولكن الاوامر صدرت ووقفت غالبية الشعب والجيش وراء «هتلر» بصلابة، وانعدم احتمال قيام انقلاب بعد إحجام «براوخيتش» عن التعاون مع «بيك»، ومن هنا، وضعت الاركان العامة كامل جهودها لاعداد خطة الحرب على بولونيا (الخطة الخضراء) على افضل وجه.

وكنتيجة لاندماج الجيش النمساوي في الجيش الالماني الجديد، ورضوخ «فريتش» و«بيك» (ثم «براوخيتش» و«هالدر» في وقت لاحق) لمشيئة «هتلر» فيما يتعلق بمواصلة توسيع الجيش، بلغ تعداد الجيش في ١٩٣٩/٤/١ نحو مليون رجل، موزعين على واحدة وخمسين فرقة عاملة. (كان هناك حوالى ٧٥٠ الف جندي احتياطي، اي ما يساوي عند التعبئة اثنتين وخمسين فرقة احتياطية وميليشيا). كما بلغ عدد الضباط اكثر من ٢٥ الف ضابط عامل، كان من بينهم ٥٠٠ ضابط يتبع هيئة الاركان العامة. ورغم ان عدد الضباط كان اقل من نصف العدد المطلوب لجيش بهذا الحجم، فقد رأى «هالدر» ان مستوى الضباط في الاركان العامة افضل مما كان عليه سابقاً. ورغم ان مستوى الضباط كان ادنى عموماً من المستوى المطلوب - حيث كان صغار الضباط لا يزالون مفتقرين الى التدريب والتجربة الكافيين - فانه كان مقبولاً على اقل تعديل. وكان لعملية ترقية عدد كبير من ضباط الصف في جيش المئة الف جندي القديم الى رتبة ضابط، دور في توفير العدد اللازم من الضباط.

وكان الجيش يضم اثنتي عشرة فرقة مدرعة وآلية، يمكن اعتبارها جاهزة للقتال بحكم كفاية تدريبها واعدادها، وأربع فرق اخرى جاهزة للقتال الى حد ما. ولكن لم تكن تلك الفرق تشكل سوى ربع مجموع الجيش. وأشد ما كان يُقلق «هالدر» حقيقة ان قلة عدد الضباط - بالاضافة الى النقص الكبير في عدد ضباط الصف ذوي الخبرة والكفاءة في الجيش الذي كان يشهد توسعاً تقليدياً متسارعاً - كان يعني ان عدداً قليلاً من فرق هذا الجزء من الجيش قد خضع لبرامج تدريب ملائمة. زد على ذلك عدم توافر الكمية الكافية من الاسلحة والمعدات العسكرية الحديثة لهذه الفرق. صحيح ان المعدات العسكرية التي غُنمت في تشيكوسلوفاكيا قد سدت جزءاً من هذا النقص، ولكنها زادت في الوقت نفسه من تعقيد مشكلة تأمين مختلف انواع الذخائر وقطع الغيار. ورأى «هالدر» بأن تدريب قادة الجيش ووحداته لن يصل الى المستوى المقبول قبل العام ١٩٤٣ كأقرب موعد.

ومع هذا، كان «هالدر» يعرف، استناداً الى تقارير الاستخبارات، بأن

الجيش البولوني لا يملك الفعالية الكافية، وان كان يساوي الجيش الالماني من حيث الحجم. وكان يعتقد بأنه ما لم يحدث تدخل خارجي، فانه سيكون من السهل على الجيش الألماني المتمتع بحركية عالية هزيمة بولونيا. ولكن كانت تربط بولونيا ببريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتي مجموعة من المعاهدات، وكانت الدولتان الغربيتان (بريطانيا وفرنسا) قد اكدتا مؤخراً عزمهما على القتال الى جانب بولونيا في حال وقوع هجوم الماني عليها. وكان حجم الجيش السوفييتي زهاء ضعف حجم الجيش الالماني الموسع حديثاً، وان كانت مهمة تدريب الجيش الروسي، التي قام بها ضباط المان سراً وتقديرات الاستخبارات الالمانية، قد كشفت لألمانيا مدى ضعف مستوى الجيش السوفييتي بالقياس الى مستوى القوات الالمانية ولكن اذا ما زحف الجيش الاحمر لمؤازرة بولونيا، تتضاءل فرص انتصار المانيا، وينقلب الموقف عندئذ من ضم اراض الى المانيا الى احتمال بفقدان «براندنبرغ» و«سيليزيا» وبروسيا الشرقية.

واذا ما أُضيفت القوات البريطانية والفرنسية الى القوات البولونية والسوفييتية، تصبح المانيا على شفير كارثة، على حد تصور «هالدر». ولقد كان حجم جيشي بريطانيا وفرنسا مجتمعين اقل من حجم الجيش الالماني الجديد، كما كان مستواهما النوعي ادنى من مستواه، وبالرغم من انهما كانا قد قطعا شوطاً في برامج التحديث، الا انهما كانا لا يزالان بشكل عام مجهزين بمخلفات الحرب العالمية الأولى من الاسلحة، اي بأسلحة متخلفة جداً قياساً على اسلحة الفرق الالمانية الجديدة. بيد ان الحليفين الغربيين كانا يتمتعان بفائض لا ينضب من الامدادات بالاسلحة، في حين لم يكن انتاج المانيا الصناعي يقوى على امداد اكثر من اثنتي عشرة فرقة، وبلا احتياط حربي. اضف الى ذلك انه كان لدى الحليفين (شأنهما شأن الاتحاد السوفييتي) عدد كبير من جنود الاحتياط المدربين، بينما اقتصر احتياطي المانيا الى حد بعيد على المحاربين المسنين، الذين سبق لهم ان شاركوا في الحرب العالمية الأولى.

غير ان «هتلر» كان واثقاً من مقدرته على فصل بريطانيا وفرنسا عن الاتحاد السوفييتي بفضل اللجوء الى الحنكة الدبلوماسية. ولم يدر في مخيلته

قط ان تقوم اي من تلك الدول (بريطانيا او فرنسا والاتحاد السوفييتي) بالتدخل، ولكنه اكد للجيش، بأن بولونيا ستتلقى الدعم في اسوأ حال من الاتحاد السوفييتي او من الحليفين الغربيين وليس من الطرفين معاً. ولم يأخذ «هالدر» بتأكيدات «هتلر» كلياً، ولكنه لم يستبعد ان تؤدي الحقائق السياسية الى الموقف الذي اشار اليه «هتلر». وفي هذه الحال، يصبح بالامكان إحراز انتصار خاطف على بولونيا، ومن ثم التحول الى الدفاع الصلب ضد روسيا او الحليفين الغربيين، بما يؤدي الى مفاوضات سلام. ويساعد على الاخذ باستراتيجية كهذه بطء وتيرة التعبئة العامة السوفييتية في الشرق، ووجود خط التحصينات الجديد على طول حدود المانيا الغربية، وهو الخط المعروف بالجدار الغربي او خط سيغفريد، والذي كان قد عُجل في انجازه من قبل منظمة «توتت» Todt النازية، بناء على أوامر «هتلر».

وفيما الجهود منصبة على وضع خطط تفصيلية لاستراتيجية دفاعية يجري العمل بها في حال تطور الاحداث الى الاسوأ، كان «هالدر» في وضع يسمح له بتركيز تخطيط الاركان العامة الرئيسي على استراتيجية ناجحة تحقق الانتصار على (بولونيا) وتقسيم مواقف (الحلفاء). وكان يعزز هذه الاستراتيجية، النتائج الجغرافية التي نجمت عن الانتصارات التي تحققت في النمسا وتشيكوسلوفاكيا فالسبب الوحيد الذي ادى الى انهيار تشيكوسلوفاكيا السريع براعة الالمان في غزو ذاك البلد عبر حدوده الجنوبية غير الحصينة. اما وقد حل الجنود الالمان في سلوفاكيا، فان غرب بولونيا بكامله غدا مهدداً بتطويق مماثل.

وفي الوقت الذي كان التخطيط العملياتي يأخذ طريقه الى حيز الوجود، كانت الاستعدادات الادارية والتنظيمية قائمة على قدم وساق ايضاً.

وعلى الرغم من العقبات التي نشأت امام التعاون والتنسيق بفعل الترتيبات الجديدة التي وضعت للقوات المسلحة، فقد نجح «فروم» و«هالدر» في اقامة علاقة عمل ملائمة لهما ولاركان كل منهما. ناهيك عن ان «فروم» ومساعديه الرئيسيين كانوا من ضباط الاركان العامة.

ومع نهاية آب (اغسطس) ١٩٣٩، توصل برنامج توسيع الجيش، الذي

تخيله «فروم»، واخرجته الى حيز الوجود بفضل جهود ضباط الاركانات العامة في هيئة الاركان العامة العليا وضباط المكتب العام للجيش بالدرجة الأولى، وادى برنامج توسيع الجيش إلى خلق نواة حديثة مختارة لصالح جيش المانيا الجديد. وقد اشتملت هذه النخبة على نحو ٢٠٠ الف ضابط وجندي موزعين في ست عشرة فرقة مدرعة او آلية خفيفة، ومزودين باسلحة ومعدات جديدة في معظمها، وذات قدرة حركية عالية. كان وراء هذه النخبة التي خلفت جيش المائة الف جيش ضخم من المجندين، الذين جهزوا بأسلحة الحرب العالمية الأولى او بالأسلحة التشيكوسلوڤاكية، وجُعلت الخيول واسطتهم الوحيدة تقريباً للتنقل وجر المدافع. وهكذا بلغت قوة الجيش حوالى ١,١ مليون رجل. وكان جيشاً حافلاً بالعيوب، ودون المقاييس التي حددها «غرونر»، و«سيكت»، و«بيك»، و«هالدر»، بل وحتى «فروم». وكان أخطر ما في الامر، افتقار الجيش الى ما كان متوافراً لدى بريطانيا وفرنسا والاتحاد السوفييتي من احتياطي في الاسلحة وفي الطاقة البشرية المدربة. ولكن بفضل جهود القادة الخمسة الذين مر ذكرهم وجهود الضباط المساعدين المجهولين، تحول الجيش الى افضل جيش في العالم، وحافظ على وتيرة تقدمه ونموه بثبات.

الفصل الخامس عشر: انتصارات وهزيمة

التفوق الالماني القتالي ابان الحرب العالمية الثانية

ان حجم البحث حول الحرب العالمية الثانية يفوق حجم ما كتب حول الحرب العالمية الأولى، وتنفرد الانكليزية بالفهارس والعناوين عنها اكثر مما كتب عن الحرب الأهلية الاميركية والحروب النابليونية. ولولا حفنة من الكتب حول الحرب في المحيط الهادىء او في شرقي آسيا، لكان الموضوع الرئيسي لهذا البحث، المتنامي ابداً، صيت القوات المسلحة الالمانية او أداؤها. فهناك من يمتدحها، فيما ينتقص من سمعتها آخرون.

يُبدي سجل الحرب، عاجلاً، علة هذا التركيز على الاداء الالماني، ولولا مهمات ومآثر ثلةّ من قادة التاريخ العظام، لكان التاريخ خلواً، ولما حدث الاداء المرموق، الذي اداه الجيش الالماني في الحرب العالمية الأولى مما يضاهي حجم ومدى الانتصارات الالمانية الأولى، او ليضاهي روعة ادائهم في الدفاع وتنوعه وصلابته(*)

(*) كُتبت هذه الكلمات بإكراه لا يحد. والمؤلف غير خاضع لاحد في احتقاره للنظام النازي البغيض وللمعاملة المريعة التي سيم بها يهود المانيا وبلدان أوروبية اخرى، أو لأنظمة الارهاب التي فرضها ضباط هتلر على الامم المغلوبة. وقد كان الجيش الالماني كمؤسسة بعيداً الى حد كبير عن كل ذلك، ولكنه كان مسؤولاً بشكل مباشر وغير مباشر عن القساوة التي لا تغتفر. (فقد دين على سبيل المثال الفيلد مارشال «كايتل» =

هناك خلاصة احصائية لسجل الاداء العسكري الالماني في الحرب العالمية الثانية في الملحق ح E. ويكشف ذلك السجل، في جوهره، استمرار الالمان في محاربة جيوش الحلفاء الاكثر عدداً، والتي واجهوا عملياً الهزيمة على ايديها. ففي خلال العامين ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ كان التفوق القتالي الالماني على الحليفين الغربيين (الاميركيين والبريطانيين) بنسبة ٢٠ ـ ٣٠٪. وقد اوقع المشاة الالمان في صفوف الاعداء إصابات بلغت، قياساً، ما معدله ٥٠٪ اكثر مما اوقعته في صفوفهم القوات الاميركية والبريطانية المناوئة، تحت كافة الظروف. ويصدق هذا ابان هجومهم ودفاعهم، وابان تفوقهم العددي المحلي، وتفوق خصومهم المعتاد وإبان تفوقهم الجوي او عدمه، وابان انتصارهم وهزيمتهم.

ولقد كان التفوق الالماني على السوفييت في غضون سني الاندحار المريرة تلك على الجبهة الشرقية اكثر بروزاً، رغم ان هامش التفوق كان اقل مما كان عليه إبان الحرب العالمية الأولى. وكان التفوق الالماني في الفعالية القتالية على السوفييت في الايام الأولى للحرب يقارب ٢٠٠٪، وهذا يعني، نسبياً، ان كل فرقة المانية كانت تعادل، على الاقل، ثلاث فرق سوفييتية من حيث الحجم والقوة النارية. وان فرقة المانية واحدة كانت قادرة نظرياً، وفي ظروف دفاعية مؤاتية، ايقاف ما قوامه سبع فرق سوفييتية. وكان هذا التفوق في العام ١٩٤٤ لا يزال يقارب ١٠٠٪، وان الجندي الالماني العادي في الخط الامامي قد اوقع ما معدله ٧,٧٨ اصابات في صفوف السوفييت مقابل كل خسارة جندي الماني. ويجب تعديل هذا الرقم لجلاء حقيقة ان الالمان كانوا في العادة في حالة دفاعية، وانه كان لديهم قدرة حركية اعظم، بسبب ما كان لديهم من مدرعات وآليات داعمة، وان اسلحتهم كانت افضل من اسلحة السوفييت(*). ولكن بالرغم من التسليم بهذه الاعتبارت، كانت عملية درء

= والجنرال «يودل» في محكمة «نورمبرغ» واعدما جزاءً لجرائم الحرب التي اقترفاها، بما فيها جرائم توقيع أوامر عاجلة باعدام سجناء حرب). وقد جرى الاشارة، بصورة غير مباشرة على الاقل، الى مدى تورط الجيش في صفحات لاحقة. ولكن الحقيقة تبقى ـ بصرف النظر عما نظنه في اداء المانيا كأمة من أمم القرن العشرين في خلال الحرب العالمية الثانية ـ بأن القوات المسلحة الالمانية، والجيش تحديداً، بلغت أرقى درجات التفوق العسكري، الذي هو موضوع هذا الفصل.

(*) كانت هنالك استثناءات بالطبع، حيث كان للسوفييت دبابات ممتازة من طرازي «ت ـ ٣٤» و«ستالين»، كما كانت لديهم مدافع م/د فعالة من عيار ٧٦,٢ ملم، بالاضافة الى رشيشات المشاة.

الاصابات اكثر بنسبة ٤ الى ١ لصالح الالمان. وبعبارة اخرى اوقع الالمان اصابات بلغت نسبتها ٣٠٠٪، على اساس حساب رجل لرجل، أكثر ـ مما اوقعه السوفييت بهم.

كان هذا التفوق القتالي على اعداء المانيا نتيجة جهود «غرونر»، و«سيكت»، و«همرشتاين ـ إيكورد»، و«فريتش» و«بيك»، و«فروم» و«هالدر» وغيرهم من ضباط الاركان المتفانين. وكانت اول مناسبة ظهرت فيها طبيعة التفوق العسكري الالماني امام العالم المذهول، حملة بولونيا في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩. ودفع هذا الظهور الخاطف في المهارة العسكرية، في حرب مغايرة تماما لحرب الخنادق في الحرب العالمية الاولى، المراسلين الاجانب الى صياغة اصطلاح «الحرب الخاطفة» Blitzkrieg، للدلالة على اسلوب حديث كما بدا من اساليب الحرب. وكان هناك بالطبع اشياء كثيرة جديدة في الاداء القتالي الالماني. فالعناصر والمفاهيم والمبادىء الاساسية، كانت في الواقع متوافرة ومفهومة لدى القادة في كلا الجانبين، في العام الاخير من الحرب العالمية الاولى. وكان الفارق بين العامين ١٩١٨ ـ ١٩٣٩، هو الاسلوب الذي اعتمده الالمان لاعادة بناء العناصر، ومن ثم تطبيقها مع معدات تقنية محسّنة قليلا، وفقا لعقيدة وخطط قتالية تقليدية لا تختلف عن العقيدة والخطط التي استوعبها «نابليون» وعمل بها. ويصف «ونستون تشرشل»، اعظم المؤرخين المشاركين في الحرب العالمية الثانية بطريقة موضوعية طبيعة هذا الاداء بقوله: «إن تفوق الالمان في الخطة والتدبير والطاقة (في خلال حملة النرويج في العام ١٩٤٠) كان ساطعا، اذ نفذوا بلا هوادة خطة عمل معدة بعناية، ووعوا تماما استخدام سلاح الجو على نطاق واسع وفي مختلف الاوجه. ففي «نارفيك» برز تفوقهم المميّز. اذ ان قوة المانية محسنة ومتنوعة، لا تزيد عن ستة آلاف رجل، احتجزت في الخليج حوالى عشرين الف جندي من الحلفاء طوال ستة اسابيع، ورغم انهم أُخرجوا من البلدة... ففي خلال سبعة ايام، تمكن الالمان من قطع الطريق بين «نامسوس» و«موسين» التي اعتبرها البريطانيون والفرنسيون طريقا صعبة السلوك... وفي «بودو» و«مو»، وفي خلال تراجع قوة «غوبينز» شمالا، كنا دوما متأخرين جدا، ومع انه كان على الاعداء ان يجتازوا مئات الأميال من

الارض الوعرة والمكسوة بالثلج، فقد اجبرونا على التقهقر، رغم ما قمنا به من مآثر البطولة. ومع اننا كنا اسياد البحر، وقادرين على النزول في اي مكان من اي ساحل غير محمي، فقد كان العدو يسبقنا مسافات عبر تحركه براً، رغم ما واجهه من عوائق. وقد أُخذ افضل جنودنا من الاسكتلنديين والحرس الايرلندي، في الحملة النرويجية، بحيوية شبان «هتلر» وخططهم وتدريبهم»[1].

نشوء الحرب الخاطفة

أورد «كلاوزفيتس» في جملة مأثوراته: «كل شيء في الحرب سهل، ولكن اسهله صعب». وكما لاحظ مراقبو الحلفاء ونقادهم الاكفاء، «الدروس» الجلية المستوحاة من الحرب العالمية الاولى، كذلك لاحظها الالمان. وخلافاً لغيرهم، فقد كانت لديهم مؤسسة مهيأة للقيام بأصعب التحاليل لهذه الملاحظات، فتأتي متضمنة تقويماً لخصائص الاسلحة، ومحدودياتها وقدراتها، ومضامين اتجاهات تطور الاسلحة والتكنولوجيا. لذا، تبعاً لمفاهيم تحليلية كان قد بدأها «شارنهوست» واستمر بها خلفاؤه، قامت تلك المؤسسة بترجمة النتائج التحليلية، ثم صياغتها كعقيدة وتنظيم، الى جانب استحداث متطلبات لأسلحة ومعدات جديدة أو معدلة، وتطوير تقنيات ادارية وعملياتية جديدة ومنقحة.

واذا عدنا الى مأثورة «كلاوزفيتس» «السهل الممتنع»، نرى انه كان من السهل على اعداء المانيا ـ عقب عرض القوة الرهيب في بولونيا والنرويج وهولندا وفرنسا ـ ان يروا ما فعله الجيش وسلاح الجو الالمانيان، وان يقتبسوا في خلال الحرب، العقيدة، والتنظيم، والمادة، والتقنيات، بل وان يدخلوا تحسيناً عليها احيانا. لكن، كما يدل سجل ١٩٣٤ ـ ١٩٤٤، كان صعبا، ومستحيلا في الواقع، على هؤلاء الاعداء البارعين في التقليد، أن يضاهوا الاداء الالماني، حتى بعد ان انحطّ مستوى ذلك الاداء بسبب النقص في الطاقة البشرية والمادية.

---

(١) Winston Churchill, *The Gathering Storm,* Vol. I of *The Second World War* (Boston: 1948), pp. 648-649.

ومن السهل ايضا على المؤرخ، بعد مضي سنين على تلك الحقيقة، ان يلاحظ ان الالمان قد حققوا تلاؤم المبادىء العسكرية الاساسية، التي مضى عليها وقت طويل واستوعبت جيدا، مع تطورات التقنية الحديثة، كي يأتوا بآلة حرب وطريقة قتال معدلة ومختلفة عما شهدته الحرب العالمية الأولى. لكن رغم سهولة الامر، بالقياس الى الماضي، فقد كان صعبا ايضا في ذلك الحين، حيث ان الالمان وحدهم استطاعوا الاخذ به، وغدوا قدوة للآخرين.

رغم ان اتفاقات «سيكت» مع الاتحاد السوفييتي سمحت لبعض العسكريين الالمان باكتساب التجربة والالمام بالدبابات، فان ابعاد معاهدة «فرساي» حالت، لمدة طويلة، دون التجربة العملية على نطاق واسع، وبالنتيجة، راح الضباط الالمان في الفيلق الآلي يطالعون بنهم كتابات ضباط وانصار الدبابات البريطانيين المتحمسين، مثل «مارتل» و«فولر» و«بازل ليدل هارت»، كما طالعوا ما كتبه اختصائيو القوة المدرعة الفرنسيون مثل «شارل ديغول». وكان الالمان ابان اعترافهم بفضل الحرب المدرعة وبشائرها[2]، يستبقون الفرنسيين والبريطانيين في تطوير المفاهيم والعقيدة الرامية الى تنسيق عمليات المشاة مع عمليات سلاح جو، وهذا ما توصلوا اليه بفضل تحليلاتهم الدؤوبة لتجربة الحرب العالمية الأولى[*].

ولقد وجد انصار الدبابات في المانيا، كما في بريطانيا وفرنسا وامريكا، ان هناك ثمة من يعارض فكرة تبني الدبابات وحرب الدبابات على نطاق واسع. ولهذا اسباب عدة، منها: روح المحافظة الفطرية عند العسكريين السديدي الرأي؛ الذين وعوا ان الاخطاء العقائدية الخطيرة قد تعرض امن وطنهم للمخاطر، والاشمئزاز الكبير من الآلات القذرة المزعجة الداخنة ذات الجنازير الهادرة، واخيرا الحنين لمثل الفروسية وقد كان من الصعب (وليس من المستحيل) التغلب على مثل هذه المفاهيم التقليدية في المانيا بقدر ما كان صعباً في البلدان الاخرى.

---

(٢) See, for instance, Heinz Guderian, *Panzer Leader* (New York: 1952) p. 20.

(*) انظر الصفحة ٢٥٣.

فرغم كل ما جاء في مذكرات «غودريان» من شكوى حول نقص الادراك بين صفوف القادة وكبار ضباط الاركان العامة، فقد كتب ايضاً عن التقدم الحثيث تجاه تشكيل تنظيمات ووضع مذاهب خاصة بالدبابات وبتقنيات القوة المدرعة، وذلك في العشرينات واوائل الثلاثينات. ورغم انتقاد «غودريان» ولفشل رئيس الاركان العامة «بيك» في ادراك قدرات حرب المدرعات المتحركة، تبقى الحقيقة بأن المانيا، تحت قيادة «بيك»، قد اوجدت دوماً داخل جيشها الكبير جيشاً متحركاً من النخبة بمقدار ما كانت الصناعة الالمانية قادرة على تأمين الاسلحة والمعدات. وادرك «بيك» كسلفه «سيكت» أن المدرعات وسلاح الجو كانا قادرين على **توفير الحركة** التي كانت مثيرة للارتباك في الحرب العالمية الاولى. وكان «غودريان» بلا شك، رائد التحرك نحو عقيدة حرب المدرعات، ولكن كان هناك عدد من ضباط الاركان العامة الشبان لا يقلون عنه كفاءة وادراكاً، وقادرين على القيام بأعباء القيادة بدلا عنه. اما مدى الاختلاف بين المانيا من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة ثانية فقد تمثل في بقاء «مارتل» و«فولر» و«ديغول» انبياء منبوذين في ديارهم(*).

خصائص الحرب الخاطفة

كان مذهب التحرك المدرع الجديد الذي طور على يد «غودريان» وزملائه ضباط الاركان العامة في قوات البانزر الجديدة، دمجاً للدبابات والعربات المدرعة في المفاهيم الجوهرية لتكتيكات «هوتيير». ولعل العنصر الاهم في المذهب ـ تماما كما كان في عامي ١٩١٧ و١٩١٨ ـ هو الحصول على عنصر المباغتة، حيث تتقدم فصائل صغيرة او مجموعات قتالية من الدبابات والمشاة المدرعة المحمولة على **الجرارات**، بسرعة، تحت غطاء نيرانها الخاصة، ونيران المدفعية ذاتية الحركة، وطائرات الدعم القريب من القاذفات المنقضة.

وبمجرد تحقيق الاختراق، تقتحم المجموعات القتالية قُدماً،

(*) ينطبق هذا على ليدل هارت بدرجة اقل، ما دام انه توصل الى ايجاد تسوية بين مبادىء الحرب الهجومية لدى كل من «فولر» و«مارتل»، وحاول جعل مفاهيم الحرب المدرعة متلائمة مع عقيدة قتال دفاعي اكثر شيوعاً.

محاولة تدمير او تشتيت اية قوى معادية تصادفها. وعندها، وبسرعة، يستثمر القادة المحليون، مستفيدين الى الحد الأقصى من الاتصالات اللاسلكية، الاختراقات المحققة بكل ما ملكت ايديهم، كما يبعثون في الوقت نفسه بتفاصيل العملية الى مقرات القيادات الأعلى. وكان التأكيد في مستوى الانساق ينصب على الجرأة والسرعة وقوة الصدمة وقوة النيران. ويتم كل ذلك بشكل لا يسمح للعدو باستعادة صوابه، او بدفع احتياطيه لسد الثغرة. وقد استدعي الطيران لقصف اية مقاومة عنيدة او ليعزز اي نجاح يتحقق. اما نظام الامداد (اللوجستيكي) المجهز تماما والمتنقل بيسر في المناطق الوعرة، فكان يحافظ على تدفق الامدادات من وقود وذخيرة وطعام الى رؤوس الحراب المتقدمة.

وبمعنى اشمل، تشبه هذه الحرب تلك التي شنها «الاسكندر الكبير» و«جنكيز خان» و«نابليون» مع تعديل ملائم لاستخدام أحدث ما انتجه العلم والتكنولوجيا. وكانت حربا من النوع الذي كان «شليفن» قادراً على استيعابه جيداً وتحبيذه من دون شك. وكان السؤال: هل يمكن تطبيق المفهوم عمليا؟ ام ان هناك عوامل خفية تحول دون النجاح كما حدث في عامي ١٩١٤ و١٩١٨.

بدا الجواب جليا لرئيس قيادة الجيش «براوخيتش»، ولرئيس هيئة الاركان العامة الجديد «هالدر»، في غضون ساعات من الهجوم الاول على بولونيا في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٩. وتأكد الجواب في خلال اسبوعين. فقد دُمر الجيش البولوني، الذي عبأ ٨٠٠ ألف رجل تقريبا، تدميراً شاملاً على يد جيش الماني قوامه حوالى ١,٢٥ مليون رجل مؤطرين في ستين فرقة، تسع منها مدرعة او ميكانيكية، تشكل جيش النخبة داخل الجيش. وكان مجمل الاصابات الالمانية ٤٤ الف رجل، بين قتيل وجريح ومفقود، في حين بلغت الاصابات البولونية، من قتلى وجرحى، دون الأسرى، ٢٦٦ الف اصابة، وقع معظمها في الاسبوعين الاولين.

ويمكن تحليل هذه الاحصاءات بالطريقة التي حللت بها الاداء القتالي في الحرب العالمية الاولى، فاذا استُعمل العامل نفسه (١,٣) لندخل في

الحساب الموقف البولوني، الدفاعي عامة، لتبين ان كل ١٠٠ بولوني قد اوقعوا ٤,٠ من الاصابات يوميا في صفوف الالمان. بينما اوقع كل ١٠٠ الماني ١,٥٢ اصابة في صفوف البولونيين يومياً. وكان هذا التفوق الالماني في تسجيل الاصابات بنسبة ٤ الى ١ تقريباً، دافعاً الى القول (بناء على بحث إحصائي آخر متعلق بالحرب العالمية الثانية) ان التفوق الالماني في الفعالية القتالية دنا من نسبة ٢ الى ١[*].

ان كثرة ما كتب حول عمليات الحرب العالمية الثانية يحدو بنا الى تلخيص تلك الحملات في هذه الصفحات، فبديلاً عن ذلك، كما كانت الحال في الحرب العالمية الاولى، هناك صور عملياتية قليلة تبرز بعض صفات الجيش الالماني والمنجزات الفريدة لقادته، الذين ارتقى معظمهم عبر هيئة الاركان العامة، ومنجزات الاركان العامة نفسها، في حالتي النصر والهزيمة.

ابين إيمايل

كان هناك على سبيل المثال، الاستيلاء الدراماتيكي المثير على حصن «إيبن إيمايل» والذي كان عنصراً حيوياً في نجاح الغزو المباغت لهولنده وفرنسا في ١٠ ايار (مايو) ١٩٤٠. وقد قدّر ضابط من الجيش الامريكي، قام فيما بعد بتحليل هذا المظهر من مظاهر الهجوم الالماني للعام ١٩٤٠، ان الهجوم النموذجي كان يتطلب فعلياً اكثر من ٤٠٠٠ الماني، ويستغرق اسبوعاً او اكثر، كي يشقوا طريقهم عبر جنوب هولنده ويجتازوا قناة «البرت» ليستولوا على الحصن[٣] ولو امكن آنذاك ايقاف الهجوم الالماني بكامله، لتسنى للحلفاء الوقت الكافي كي يكملوا احتلالهم المخطط لخط «ديل» في بلجيكا الوسطى، ولكان اختلف مجرى الحرب العالمية الثانية. ثم شرح ما حدث بالفعل قائلا: «ان سبعة وسبعين رجلا يقودهم قائد شجاع وعشر طائرات شراعية تكلف ٧٧ الف مارك، و٥٦ متفجرة ذات حشوات جوفاء قد هزموا

(*) ويؤيد ذلك أيضاً القول بأن اداء الجيش البولوني كان من ناحية احصائية افضل من اداء الجيش الروسي في مرحلة متأخرة من الحرب. ولكن البولونيين عانوا من ثغرتين: الأولى: انهم لم يؤمنوا المساحة الواسعة للتراجع، وهي المساحة التي انقذت الجيش الاحمر في العام ١٩٤١. والثانية: فيما كان الجيش البولوني يحاول بجسارة الاستفادة الى اقصى حد من المساحة المحدودة المتوافرة، تلقى ضربة من الخلف من قبل حليف إسمي كانت تربطه به اتفاقية عدم اعتداء وهو الاتحاد السوفييتي.

(٣) Colonel James E. Mrazek, *The Fall of Eben Emael* (Washington, D.C.: 1970), p. 187.

٧٨٠ رجلا كانوا يدافعون عن اقوى حصون الدنيا... في يوم واحد او اكثر قليلا، ولكن القتال الحاسم جرى في الدقائق العشرين الاولى»[٤].

وقد بات مؤكداً ان فكرة هجوم الطائرات على حصن «إيبن إيمايل» كانت فكرة «هتلر» وحده ومن الصعب تصديق هذا اذ انها كانت عنصراً اساسياً من خطة كبيرة ومعقدة وضعتها هيئة اركان الجنرال «هالدر»، وقامت بتنسيق تفاصيلها الاركانات العامة المساعدة في الانساق الأدنى. لكن يظل منشأ الفكرة اقل اهمية من كيفية تخطيط الهجوم، والشكل الذي نُفذت فيه العملية فعليا.

لقد اوكلت المهمة في اواخر تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٩، الى الفريق «كورت شتودنت»، وهو ضابط سابق خدم في هيئة الاركان العامة، وكان عضوا في هيئة اركان سلاح الجو الالماني إبان تأسيس سلاح الجو هذا في العام ١٩٣٣. وقد اصبح الآن جنرالا في سلاح الجو وقائداً للفرقة السابعة المحمولة جوا والمشكلة حديثا. وقد زُود وهيئة اركانه بنتائج دراسات اركان الجيش العامة حول الهجمات على قلاع الحرب العالمية الاولى، وأُطلعوا على إمكانات جديدة للهجوم بفضل نجاح العلماء الالمان في اختراع الحشوات الجوفاء بعد الحرب[*] وكانت البقية من شأن «شتودنت».

وقد انشأ «شتودنت» قوة مهمة قوامها اقل من مئة رجُل، كرسوا انفسهم طيلة ستة اشهر لحل مشكلات الوصول الى الحصن بواسطة طائرة شراعية وتدمير قبابها الست الفولاذية الضخمة - كانت كل قبة مزودة بمدفعين من عيار ١٢٠ ملم - بالاضافة إلى اثنتي عشرة «مِنْعَة» مزودة بمدافع من عيار ٧٥ ملم، وعدد من الرشاشات والمعاقل المحصنة المضادة للطائرات. وقد تم في خلال شتاء وأول ربيع ١٩٤٠: التدريب على المهمة في حقل قريب «هيلدشايم» في المانيا، حيث أُقيم عليه نموذج بالحجم الطبيعي لقمة الحصن كانت قد أخذت له صور جوية.

وعندما شُن الهجوم فعليا في ليلة ٩ - ١٩٤٠/٥/١٠، سارت الامور

(٤) *Ibid.*, p. 183.

(*) كانت هذه تعديلاً لما يسمى بتأثير «مونرو» Munro او الانفجار البؤري الذي باستطاعته خرق صفائح التدريع الثقيل في السفن الحربية والدبابات والقبب الفولاذية الصلبة للتحصينات الحديثة.

على نحو مغاير للمطلوب. فقد فشلت طائرتان شراعيتان من أصل الطائرات العشر في الوصول، وكانت إحداهما طائرة قائد قوة الاقتحام(الذي تمكن فيما بعد من بلوغ الهدف في خلال المعركة). وأُصيب بعض افراد الطليعة لدى هبوطهم فجرا على قمة الحصن، وجرح آخرون بنيران المدافعين. لكن الخطط كانت قد اخذت مثل تلك الامور الطارئة في حسابها وتابع الرجال مهمتهم برباطة جأش، فدمروا اسلحة الحصن وصدوا محاولات الهجوم المضاد، ثم سيطروا على قمة الحصن، الى ان وصلت ارتال الاقتحام الالمانية الى ضفة القنال بعد ساعات قليلة، وارغمت البلجيكيين على الاستسلام.

ولم تكن ردة فعل الرجال المحمولين في الطائرتين الشراعيتين، اللتين لم تتمكنا من الوصول في الوقت المحدد، أقل إثارة للاهتمام من نجاح العملية نفسها. فطائرة الملازم «رودولف فيتسيغ»، آمر قوة الاقتحام، قد حطت على بضعة اميال من «كولونيا»، بعد ان انفصل حبل قطرها، فاستولى الملازم على سيارة، ووصل الى قاعدة جوية قريبة، واستطاع ان يقنع ربان طائرة نقل تابعة لسلاح الجو الالماني بأن يقطر طائرته الشراعية ويخرجها من الحقل الذي حطت فيه. وعند الضحى، اي بعد ساعات قليلة، وصل «فيتسيغ» وطاقمه المؤلف من ثمانية رجال الى أعلى الحصن حيث كان القتال على اشده.

وحطّت طائرة جماعة (مغيرة) اخرى، كانت قد طارت قبل الاوان، في جنوب هولندا، وحاول رجالها الوصول الى الحصن، لكنهم واجهوا مقاومة وهم يدنون من جسور القنال فقتل قائد الجماعة في حين استطاع مساعده، العريف «ماير» ورجاله السبعة اسر أربعين بلجيكياً. وظل «ماير» عازما على الوصول الى الحصن، فراح يتسلق العوارض الخشبية الملتوية المتبقية من جسر متهدم، تاركا رجاله واسراهم في مكان مستور ظليل على ضفاف القنال. لكن سرعان ما امطر البلجيكيون «ماير» ورفاقه بوابل من النار من مختلف جوانب الحصن، ففقد العريف الاتصال ببقية افراد جماعته، الذين هوجموا وأُجبروا على الانتقال مع اسراهم. ورافق «ماير» الموجات الاولى من الاقتحام الالماني البري عبر القنال، وانضم الى رفاقه في الحصن في الصباح

التالي، فيما انضمت جماعته، وهي تقتاد ١٢١ اسيراً، الى جزء آخر من قوة الاقتحام.

كانت هذه ميزات الروح والتفاني ومهارة القتال ـ حصيلة التدريب المكثف المركز ـ التي لم تكسب حصن «ابين إيمايل» فحسب، وإنما سحقت سريعا كل مقاومة هولندية وبلجيكية وفرنسية.

جزيرة كريت

بعد مضي عام كان الجنرال «شتودنت» قائدا لعملية اوسع بكثير، تساوي سابقتها من حيث نجاحها ولكنها تفوقها من حيث الكلفة. وكان حينئذ قائدا للفيلق الحادي عشر المحمول جوا، والمؤلف من فرقته السابعة المحمولة جوا والفرقة الجبلية الخامسة. وبعد الاجتياح الالماني ليوغوسلافيا واليونان ـ وهي عملية ذكية الخطة، وضعها واشرف عليها «هالدر» وهيئة اركانه العامة في مدة عشرة أيام ـ أُوكل الى «شتودنت» وفيلقه مهمة الاستيلاء على جزيرة كريت. فكان على الفرقة السابعة المحمولة جواً، التي تضمنت معظم من اشتركوا في معركة «ابين إيمايل»، ان تقوم بانزال جوي على مطارات الجزيرة الرئيسية، ثم تتلوها الفرقة الخامسة في طائرات نقل الى المطارات المستولى عليها. وكان على بعض وحدات المشاة الملحقة وآليات الفرقتين السابعة والخامسة اللحاق بهما في أساطيل من السفن الصغيرة، انطلاقاً من جنوب اليونان، وعبور بحر كريت ليلا لتجنب اي تدخل محتمل من اسطول البحر الابيض المتوسط البريطاني، الذي كان بقيادة الاميرال «السير اندرو كاننغهام».

وكانت قوة الدفاع عن كريت مؤلفة من حوالى ٢٥ الف جندي بريطاني (كان نصف هذه القوة تقريبا قد سحق إبان الحملة اليونانية)، وحامية يونانية قوامها ١٤ الف رجل. وكان قائد الدفاع عن الجزيرة اللواء النيوزيلندي «برنارد سي. فرايبرغ». ومع ان قوام القوة الاجمالية الموجودة تحت إمرة «شتودنت» (بالاضافة الى الوحدات الملحقة التي كان من المقرر وصولها بحراً) كان اكثر من ٢٠ الف جندي بقليل، فقد علمت القيادة الالمانية

العليا، ان المدافعين تنقصهم المدفعية والاسلحة الثقيلة، واعتقدت ان العملية يمكن ان تنجح بدعم كثيف من سلاح الجو الالماني.

وفي ٢٠/٥، وبعد مضي اسبوع على إغارات سلاح الجو الالماني، التي دمرت معظم طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني في كريت، وطردت البقية الى مصر، هبط مظليو «شتودنت» قرب المطارات الرئيسية في «ماليمي» و«خانيا» و«ريتيمنون» و«هيراكليون» (كانديا). ورغم الهجمات البريطانية المضادة الشرسة، استطاعت وحدات المظليين انشاء مهابط صغيرة للوحدات الصديقة المحمولة جواً، ومن ثم هاجم الالمان المطارات الثلاثة، فردهم المدافعون البريطانيون واليونانيون على اعقابهم. وصمد الالمان في مواقعهم بانتظار وصول تعزيزات وامدادات عسكرية بحرا.

لكن هذه التعزيزات لم تصل قط. ومع ان الخسائر التي سببتها الغارات الالمانية الجوية كانت فادحة، فقد احتفظت سفن الادميرال «كاننغهام» بالسيطرة على البحر حول كريت ودمرت قافلتين بحريتين صغيرتين في ليلتي ٢٠ - ٢١ و٢١ - ٢٢ من ايار (مايو).

وفي الحادي والعشرين، زج «شتودنت» الجزء الاكبر من بقية فرقته السابعة بواسطة الطائرات الشراعية التي حطت قرب «ماليمي» إدراكا منه ان الامل الوحيد في النجاح هو الهجوم من الجو، عندها نجح المظليون والجنود المحمولون بالطائرات الشراعية في الاستيلاء على جزء من مدرج المطار. وسرعان ما شرعت طائرات النقل باحضار العناصر الباقية من الفرقة السابعة والفرقة الجبلية الخامسة. ولم يحلق من الطائرات التي حطت في البداية سوى عدد قليل. ذلك لان بعضها قصفه البريطانيون عند اقترابها من المطار، وبعضها تحطم عند الهبوط، وبعضها رُمي بالمدافع والرشاشات في اثناء نزولها ولكن التعزيزات التي وصلت بهذا الاسلوب المكلف كانت كافية لتمكين الالمان من الاستيلاء على بقية المطار عند هبوط الليل. وفي الثاني والعشرين أبعد المدافعون البريطانيون مسافة كافية بحيث لم تعد اسلحة المشاة البريطانيين الخفيفة تطال مدرج المطار. وفي مساء الثالث والعشرين وصلت الفرقة الخامسة كلها، وبذلك اصبح بمقدور «شتودنت» شن هجوم

للاستيلاء على الجزيرة. وفي مساء السادس والعشرين أبرق «فرايبرغ» الى القاهرة يفيد بأنه لم يَعُد بوسعه السيطرة على الجزيرة، وفي خلال الأيام الاربعة التالية أُخلي حوالى ١٧ ألف جندي يوناني وبريطاني الى مصر تحت وابل من القصف الألماني الكثيف.

وكان المدافعون اليونانيون والبريطانيون يمتلكون دفاعات عديدة حسنة التجهيز على اراضي المطارات وفي مواقع مطلة عليها، بالاضافة الى الدعم الهام من البحرية الملكية. أما الالمان فكانوا ينعمون بتفوق جوي، ودعم هائل. ومع ذلك، فان نجاح الجنرال «شتودنت» في الاستيلاء على كريت بقوة محمولة جواً لا يزيد تعدادها على ١٥ الف رجل بدون مدفعية او اسلحة ثقيلة، او آليات في البداية - وايقاع الهزيمة بقوة تفوق قوته بثلاثة اضعاف تقريبا، يعتبر عملاً فذا في التاريخ العسكري.

ولحسن حظ الحلفاء ان «هتلر» قد ارتاع لهول الخسائر التي ألمّت بالقوات المحمولة جواً إبان العملية (٥٦٧٠ رجلا، معظمهم من مظليي الفرقة السابعة و١٥١ طائرة نقل من اصل ٦٥٠ طائرة و١٢٠ طائرة اخرى قد اعطبت لكنها ظلت قابلة للتصليح). وفي اي حال لم يقم الالمان بأية عملية محمولة جواً كبيرة اخرى في خلال الحرب.

اما المدافعون اليونانيون والبريطانيون، فقد تكبدوا ٣٤٨٠ اصابة، ووقع ١١ ٨٣٥ منهم في الأسر ولعل ٦ آلاف يوناني لجأوا الى تلال كريت او تنكروا بملابس مدنية واختفوا بين السكان المدنيين. وقد خسر اسطول الاميرال «كاننغهام» اربعة طرادات وست مدمرات اغرقتها الطائرات الالمانية، كما اصيب عدد من السفن بأضرار فادحة. في حين بلغت الاصابات في الافراد ٢٠١١ قتيلاً، وحوالى الف جريح.

وبعد اقل من شهر، نقلت الاركان الالمانية القوات التي اكتسحت يوغوسلافيا واليونان، واناطت بها غزو الاتحاد السوفييتي - عملية باربروسا - التي بدأت في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١. وقامت القوات الالمانية بانجازات رائعة لا نظير لها في الاسابيع الاولى للغزو. وكان من بين الانجازات تلك

التي قام بها الفيلق ٥٦، وهو قسم من مجموعة جيوش الشمال التابعة للفيلد مارشال، «فون ليب». وكان قائد الفيلق الجنرال «فون مانشتاين». وبما ان «مانشتاين» كان من ابرز قادة الحرب، كما قيّمه زملاؤه الجنرالات فيما بعد، يجدر بنا استعراض حياته حتى هذه الفترة، وذكر الخلاف الكبير الذي تورط فيه قبل اشهر قليلة.

إريش فون مانشتاين

وُلد «فون مانشتاين» في «برلين» في ١٨٨٧/١١/٢٤ من عائلة عسكرية بروسية عريقة(*). وبعد تخرجه من المدرسة الحربية في العام ١٩٠٦ اصبح ملازما في الفوج الثالث من حرس المشاة. وبعد ست سنوات اختير للاكاديمية الحربية فأنهى السنة الاولى من برنامج السنوات الثلاث في ١٩١٣ - ١٩١٤. خدم بامتياز باهر في فرنسا وبروسيا الشرقية، وبولندا وبلاد الصرب، وأُصيب بجرح بالغ في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤، لكنه استأنف الخدمة في ايار (مايو) ١٩١٥ قريبا من الجبهة كضابط اركان. ثم ما لبث ان ضُم الى هيئة الاركان العامة، حيث خدم كضابط عمليات في عدد من أركان جيش وفرق حتى وضعت الحرب اوزارها. وبعد الحرب اصبح احد ضباط الاركان الذين اختارهم «سيكت» للجيش الجديد (١٠٠ الف رجل) حيث خدم في الاركان العامة الكبرى وفي القوات معا.

وفي العام ١٩٣٤، غدا العقيد «مانشتاين» بصفته رئيس اركان القطاع الثالث في اقليم «برلين»، شديد الاهتمام بالعمل التجريبي الذي كان يقوم به الجنرال «لوتس» والعقيد «غودريان» حيال قيادة القوات الآلية، فأقام مع «غودريان» صداقة شخصية ممزوجة بالاحترام المهني المتبادل. واستمرت هذه العلاقة الى ما بعد ترؤس «مانشتاين» لفرع العمليات في الاركان العامة الكبرى في العام ١٩٣٥. وفي تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٦، رُقي الى رتبة لواء - وسبق في ذلك معظم معاصريه - واصبح نائبا للجنرال «بيك».

وفي شباط (فبراير) ١٩٣٨، اعفي من مهامه في الاركان العامة، نظرا

(*) كان ابوه الجنرال ادوارد فون ليفينسكي؛ الذي مات وهو (اي مانشتاين) في نعومة اظفاره. تبناه الفريق جورج فون مانشتاين، سلف امه، الذي كان احد ابناء عائلة عسكرية معروفة اخرى.

للشك الذي ساور «هتلر» والنازيين ازاء صداقته الحميمة مع الجنرال «فون فريتش». وأُوكلت اليه في البداية قيادة فرقة في «سيليزيا»، واصبح بعدها رئيسا لاركان الجيش المعد لاحتلال تشيكوسلوفاكيا. وفي آب ١٩٣٩، غدا رئيسا لاركان الجنرال «فون رونشتدت»، الذي قاد مجموعة الجيوش الشرقية ابان غزو بولونيا. وعندما نقل «رونشتدت» الى الغرب في تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٣٩، لقيادة مجموعة الجيوش (أ) المشتركة في خطة غزو اوروبا الغربية، انتقل معه «مانشتاين»، وفي خلال ذلك الشتاء، وبعد تعديل خطط الغزو وتنقيحها بات «مانشتاين» منغمسا في مناقشة الجنرال «هالدر»، رئيس الاركان العامة، حول تفاصيل تلك الخطط.

الخطة الصفراء - «هالدر» ضد «مانشتاين»

كانت خطة الاركان العامة لغزو فرنسا - والمعروفة باسم Fall Gelb، او الخطة الصفراء -، مبنية في الدرجة الاولى على تقدير الصعاب في خرق خط «ماجينو» في شمال شرقي فرنسا. وكان خط التحصينات هذا، الذي اقيم بين عامي ١٩٣٠ - ١٩٣٤، يمتد على طول الحدود الالمانية - الفرنسية، انطلاقا من سويسرا في الجنوب الى مونميدي في الشمال. ولم تكن هناك تحصينات مماثلة بمحاذاة معظم الحدود البلجيكية - الفرنسية، لأن الفرنسيين كانوا ينوون - في حال وقوع غزو الماني لبلجيكا - نقل معظم قواتهم الى بلجيكا، ليحولوا دون نجاح خطة «شليفن» الالمانية المحسنة.

وقد تطابقت وجهة نظر الاركان العامة الالمانية مع وجهة نظر الاركان العامة الفرنسية، بأن تحصينات خط «ماجينو» كانت اضخم من ان يخترقها اي اقتحام، ما دام هنالك استراتيجية بديلة ممكنة. لذا قام «هالدر» وضباطه بدراسة امكانية وضع خطة حديثة مستوحاة من خطة «شليفن». فخلصوا الى ان هذه الخطة تحمل من امكانات النجاح ما لم يخطر ببال الفرنسيين. فان هم استطاعوا اختراق الدفاعات القائمة شرقي هولندا وبلجيكا بسرعة، تولد امل في امكانية مواجهة الجيوش البريطانية والفرنسية المتقدمة في وسط بلجيكا، قبل ان تتسنى لها فرصة اتمام انتشارها. (كان الاستيلاء على «إبين - إيمايل» عنصرا هاماً في هذا السياق). ورأى الالمان انهم قادرون، في ظل

ظروف كهذه، وعن طريق حشد قوات كبيرة حشدا سريعا في هولندا وبلجيكا، دحر الحلفاء، وردهم الى داخل فرنسا، وبالتالي يتم تجنب خط «ماجينو». وامل «هالدر» ان يستطيع الوصول بمفهوم «شليفن» الى خاتمة ناجحة، وهو المفهوم الذي اساء «مولتكه» الصغير استعماله.

لم ترق هذه الخطة لـ«مانشتاين»، اذ تطلبت حشد معظم الفرق المدرعة الالمانية والقسم الاعظم من فرق المشاة قبالة الحدود الهولندية تحت قيادة مجموعة الجيوش «ب» التي كانت بأمرة الجنرال «فون بوك». اما مجموعة الجيوش «أ» المؤلفة من عدد اقل من فرق المشاة، فقد انتشرت بقيادة «رونشتدت» قبالة بلجيكا واللوكسمبورغ. وكان عليها العمل كهمزة وصل بين قوة «بوك» الضاربة وبين مجموعة الجيوش «سي» التي كانت بإمرة الجنرال «فون ليب»، ومنتشرة في مواقع دفاعية قبالة خط «ماجينو». وقد ظن «مانشتاين»، متذكرا مدى اقتراب خطة «شليفن» من النجاح في العام (١٩١٤)، ان الفرنسيين سيتوقعون هذه الخطة نفسها، وان الالمان سيفقدون عنصر المفاجأة. ولما كانت جيوش الحلفاء - وحتى بدون البلجيكيين والهولنديين - تقارب القوات الالمانية عدة وعددا، اوجس «مانشتاين» خيفة من ان تكون سانحة النجاح ضئيلة. ولكن عندما افصح عن آرائه للاركان العامة، اجابه «هالدر» بحدة: «إننا نعي هذا كله كما تعيه انت، والبديل الوحيد هو اقتحام باهظ الثمن لخط ماجينو».

أما «مانشتاين»، وقد ناقش المسألة مع «غودريان» الذي كان يقود فيلقا مدرعا، فقد اصر على ان هناك بديلا آخر، والمح الى ان الفرنسيين والبلجيكيين لم يحشدوا اكثر من قوات صغيرة في منطقة احراج «الآردين» الوعرة، وخلفها في شرقي بلجيكا وشمالي اللوكسمبورغ. وكان من الواضح انهم اعتقدوا بأن هذه المنطقة الجبلية المغطاة بالاحراج غير مناسبة لتحرك الأرتال المدرعة وللعمليات الخاطفة الالمانية. وقد استنتج «مانشتاين» بأن مخططي الحلفاء كانوا يعوّلون على احتمال يتلخص بأنه في حال اقدام الالمان على تحرك واسع عبر الآردين بدافع من قصر نظرهم، يصبح بالامكان اعاقتهم ريثما يستقدم الاحتياط للسيطرة على خط نهر «الموز» الذي يمكن حمايته بيسر.

بيد ان «مانشتاين» و«غودريان» أيقنا بأن في الامكان شن هجوم مدرع مفاجىء عبر الآردين، والتقدم بسرعة كافية لحرمان الحلفاء من فرصة تنظيم دفاع قوي على نهر «الموز»، وللقيام بعملية اختراق شاملة. كما ايقنا بأنه اذا ما رُفعت وتيرة الهجوم، فان القوات المدرعة الالمانية ستتمكن من الوصول الى القنال الانكليزي قرب «بولوني» و«كاليه»، وعزل جيوش الحلفاء في بلجيكا، وبذلك تحقق هذه العملية، غير المتوقعة، عنصر المباغتة. فضلا عن ان الخطة، ستفيد عمليا من توقع الحلفاء لخطة «شليفن» جديدة، لأن هذا التوقع سيساعد على استدارجهم الى فخ في بلجيكا وهولندا.

ولم يكن «هالدر» في البدء متحمساً لخطة «مانشتاين». فقد سبق لـ«هتلر» ان قدم اقتراحات مشابهة في نهاية خريف ١٩٣٩، وواجه «هالدر» يومها مشقات في سبيل إثبات «استحالة»تنفيذ عمليات كهذه. فقد كان يشك في قدرة المدرعات الالمانية على اجتياز «الآردين» بالسرعة التي قدرها «مانشتاين» ووعد بها «غودريان». وكانت هناك ايضا مشكلات التموين والامداد عبر طرق «الآردين» الضيقة التي يسهل اغلاقها. ولكن رغم ذلك، انكبَ «هالدر» واركانه من جديد على دراسة امكانية الاخذ بهذه الخطة.

وكان «رونشتدت» في هذا الوقت قد اقتنع كليا بصوابية خطة «مانشتاين» والح بأن يولي «هالدر» و«براوخيتش» الخطة اهتماما اكبر.. ونزولا عند اصرار «رونشتدت»، اقيم سجال حرب في مقر قيادته في «كوبلنتس» للوقوف على مدى صوابية خطة «مانشتاين». واسفر السجال عن نتائج مؤيدة لخطة «رونشتدت» و«مانشتاين» و«غودريان».

ورغم ان «براوخيتش» و«هالدر» لم يكفا عن إبداء الشكوك، فان معارضة «هالدر» السابقة قد اهتزت بفعل نتائج السجالات، التي استعرضها مع الاركان العامة بتفصيل بالغ. وبعد اجراء سجال آخر في ٢/١٤، بات «هالدر» مقتنعا بأن «مانشتاين» كان على حق، ورفع الى «براوخيتش» توصيته تبني فكرة «مانشتاين» ونقل معظم الفرق المدرعة والميكانيكية من مجموعة جيوش «بوك» الى مجموعة جيوش «رونشتدت». وهذا ما حدث.

ولكن في مطلع شباط (فبراير)، بدا «براوخيتش» منزعجا من حماس

«مانشتاين» لاقتراحه، لدرجة انه امر بانتقاله من مجموعة جيوش «رونشتدت»، وتسليمه قيادة فيلق جديد في سيليزيا. واستُدعي «مانشتاين» في ٢/١٧ - دون ان يعرف بان «هالدر» قد اقتنع بفكرته في النهاية - الى برلين لمقابلة «هتلر». وكان «مانشتاين» حينذاك في طريقه الى تسلم مهمته الجديدة. واتيحت له في اثناء المقابلة فرصة التعبير عن آرائه بالتفصيل حول العمليات المنتظرة. وقد سر لموافقة «هتلر» على آرائه، دون ان يدري بأن «هتلر» كان قد عرض اقتراحات مماثلة في وقت مضى. من هنا استنتج «مانشتاين» عند صدور الامر بالعملية في ٢/٢٠ متضمناً التغييرات التي اوصى بها، بأن ذلك كان نتيجة حديثه مع «هتلر»، ذلك انه لم يكن يعلم بأن خطته قد لقيت قبولا من «هالدر» قبل مقابلته لـ «هتلر».

الآراء والقوى المتعارضة في الغرب

اثبتت خطة «مانشتاين» انها المفهوم العملياتي المثالي للجيش الميداني الالماني، الذي تنامى حتى غدا تعداده يقارب ٢,٥ مليون رجل مؤطرين في ١٣٦ فرقة. ونتيجة لتجربة الحرب في بولونيا، حولت الفرق الخفيفة الميكانيكية الاربع الى فرق مدرعة بكل معنى الكلمة، وشكلت فرقة مدرعة جديدة بحيث اضحى العنصر المتحرك في الجيش مؤلفا من عشر فرق مدرعة وسبع فرق ميكانيكية. وقد ضمت الفرق العشر المدرعة هذه ٢٥٤٧ دبابة، بينها ١٤٧٨ دبابة خفيفة مسلحة برشاشات فقط او بمدافع آلية من عيار ٢٠ ملم، و٦٨٧ دبابة متوسطة مزودة بمدافع من عيار ٥٠ ملم، و٢٧٨ دبابة ثقيلة مزودة بمدافع من عيار ٧٥ ملم، اما الدبابات الـ ١٣٥ الباقية فقد اعدت كدبابات قيادة.

وكان جيش الميدان الانكلو- فرنسي اقل عددا نوعا ما- يزيد عن المليونين قليلا- ومنظما في ١١٢ فرقة(٥). وعندما انضم اليه ٦٠٠ الف بلجيكي

(٥) It is surprising that precise figures on manpower, divisions, and tanks are not available. The numbers given here are based upon analysis of various sources, including German records in the U.S. National Archives, William L. Shirer, *Collapse of the Third Republic* (New York: 1969); A. Goutard, *The Battle of France, 1940;* and T.D. Stamps and V. J. Esposito, *A Military History of World War II* (West Point: 1953).

و٤٠٠ الف هولندي، اصبح الحلفاء يتفوقون على الالمان تفوقا عددياً ملحوظا. وكان البريطانيون والفرنسيون يمتلكون دبابات اكثر (حوالى ٣٦٠٠ دبابة) تساوي الدبابات الالمانية بالنوعية على الاقل بل ان كثيرا منها كان افضل من الدبابات الالمانية تسليحاً وتدريبا. بيد انه كان هناك فارق جوهري في تنظيم وحدات الحلفاء المدرعة وفي مفهوم استخدامها. فقد كان لدى الفرنسيين ثلاث فرق مدرعة وثلاث فرق من الخيالة الخفيفة الميكانيكية. ولكن كان اكثر من نصف القوات الفرنسية المدرعة موزعا بين فرق المشاة، او موضوعا في الاحتياط ككتائب وافواج. وحتى الفرق المدرعة وفرق الخيالة الميكانيكية فكانت موزعة بين عدة جيوش فرنسية.

ومن الناحية الثانية، ركزت العقيدة الألمانية على مبدأ الكتل بتجميع الدبابات في فرق مدرعة، وتجميع الفرق المدرعة في فيالق ومجموعات. وكان للمدفعية والمشاة مهمة دعم الدبابات دعما قريبا، حيث كانت المدفعية تركّز عادة خلف خط التماس مباشرة، وكان الرمي يتركز على الاماكن المكشوفة. وكانت وحدات المراقبة الجوية والقوات البرية المدرعة الخفيفة مندمجة في مجموعات استطلاعية لمساندة كل مجموعة من مجموعات الجيوش. وكان المهندسون متوافرين ومستعدين لزرع الالغام وتأمين العبور. في حين كانت مدافع م/ط موزعة في مواقع متقدمة، وقادرة على حماية نقاط عبور الانهار والنقاط الاجبارية من غارات الحلفاء الجوية. وكان وجود مدافع ٨٨ ملم المضادة للطائرات مفيدا من وقت الى آخر، بصفتها السلاح الوحيد الفعال ضد معظم مدرعات الحلفاء الثقيلة. وباستخدام الاتصالات اللاسلكية، كان القادة الالمان اقدر على السيطرة على وحداتهم من الحلفاء. وبكلمة اعم، كان الالمان يعملون كفريق متكامل مدرب وفقا لعقيدة وتكتيكات مناسبة، مستفيدا من الخبرات القتالية في بولندا، ومن التدريبات التي خضع لها ثانية في شتاء ١٩٣٩ - ١٩٤٠ لاستيعاب تلك الخبرات.

معركة الفلاندر

عندما وقع الهجوم الالماني في العاشر من ايار (مايو) ١٩٤٠، سارت

العمليات حسبما تصورها «مانشتاين» ، واسفرت عن انتصار الماني في واحدة من أخطر الحملات واشدها حسما في التاريخ العسكري.

وبدءاً من سقوط حصن «إيبن إيمايل»، نُفذت الخطط الالمانية بدقة متناهية. بالطبع لم يكن الامر سهلا كما يبدو، فقد كان هناك قدر كبير من الدراما والشهامة والقتال العنيف، ولكن كلما بدت الامور تسوء او تنحرف عن خطها المرسوم، كان الالمان يستعينون بـ«مهمة التكتيكات» للمساعدة على بلوغ اهدافهم وسط استعراضات من الجرأة والابداع والخيال.

لقد وصل رأس الحربة المدرع من مجموعة الجيوش «أ» الى «الموز» في اليوم الثاني من بدء القتال (١٢/٥)، تماما كما توقعت المناورات في «كوبلنتس». وفي المساء ذاته لاحظ الرائد «فالترفينك» ضابط العمليات في فرقة «البانزر» الاولى من فيلق «غودريان»، التشابه الكبير بين مجرى العمليات على ارض الواقع وبين لعبة الحرب (المناورة). فقد وصلت وحدات الفرقة الى الاماكن ذاتها من النهر دونما تغيير في المهام. فأخرج من طي ملفاته الامر الذي كان قد اصدره في عملية المناورات، في كوبلنتس بتاريخ ١٤/٢، ووجهه الى الفرقة مع تغيير في تاريخ الهجوم. وفي الصباح التالي، شقّت فرقة البانزر الاولى طريقها عبر النهر بجوار «سيدان»، بدعم جوي قريب من سلاح الجو الالماني. وفي الوقت نفسه، كانت فرقة البانزر السابعة بقيادة الجنرال «إرفن رومل» «تحقق عبورا ناجحا في شمال «دينان».

وسرعان ما قامت الوحدات اللاحقة بتوسيع رؤوس الجسور، فيما اكملت الدبابات الهادرة تقدمها غربا. ومع حلول ١٥/٥ كان الجيش الفرنسي السابع قد تبعثر، وجناح الجيش الثاني الايسر قد قضي عليه.

وفي ذلك الصباح تلقى «ونستون تشرشل»، الذي كان قد عُين حديثا رئيسا للوزراء، مكالمة هاتفية من نظيره الفرنسي «بول رينو» مفادها: «لقد هزمنا، وخسرنا المعركة». وفي وقت لاحق من ذلك الصباح، استسلم الجيش الهولندي ايضا. وكتب تشرشل في مذكراته: «اني لم افهم عنف الثورة الناتجة منذ الحرب الاخيرة، عن هجوم حشد من المدرعات الثقيلة

السريعة الحركة»(٦). وفي الحقيقة انه لمشكوك في ان يكون احد خارج المانيا ـ وبولندا المهزومة ـ، باستثناء «شارل ديغول»، قد فهم هذه الثورة قبل ان تعصف به.

طار «تشرشل» عصر ذلك النهار الى باريس، حيث تلقى ورئيس الوزراء الفرنسي «رينو»، رسالة مقتضبة من الجنرال «غاملان»، القائد العام الفرنسي، حول الخرق الذي احدثه الالمان عند نهر «الموز». وقد كتب «تشرشل» في وقت لاحق: «وعلى الفور سألت الجنرال «غاملان»: «متى وأين ينوي مهاجمة مجنبات (قوات الخرق الالماني) فكان جوابه: نقص في العدد، نقص في العدة، نقص في الطريقة. ثم اتبع ذلك بهزة كتفين يائسة»(٧).

قامت وحدات من المشاة الالمان الراجلين باللحاق مع رواحلهم بالطليعة المدرعة والراكبة، لتطهير منطقة الخرق من فلول جيش العدو، وتعزيزها، وتوسيع نطاقها، والدفاع عنها. وسرعان ما اتضح ان هذه الوحدات كانت عاجزة عن مجاراة سير التقدم المدرع مسافة عشرين الى ثمانين ميلا يوميا، الامر الذي ترك ثغرة غير محمية خلف رأس الحربة. ولقد اقلق هذا الوضع القيادة الالمانية، ولكن لم يكن باستطاعة الحلفاء دخول هذه المنطقة وعزل رأس الحربة، لعدم كفاية وسائل الاستطلاع لتحديد موقع رأس الحربة، وعدم صلاحية الوسائط المتحركة المخصصة للهجوم المعاكس، وسوء استخدامها.

وكان فيلق مشاة «مانشتاين»، الواصل حديثا من سيليزيا، احدى وحدات النسق الثاني المساندة، وقد اشترك في آخر عمليات معركة الفلاندر وفي هزيمة فرنسا الحاسمة في الشهر الذي تلى. وفي مطلع ١٩٤١ تسلم قيادة الفيلق ٥٦ (وهو عبارة عن تشكيل مدرع) الذي كان محتشداً في بروسيا الشرقية استعداد للقتال ضد الاتحاد السوفييتي.

---

(٦) Winston Churchill, *Their Finest Hour,*, Vol. II of *The Second World War* (Boston: 1949), p. 43.

(٧) *Ibid.*, p. 49.

مانشتيان في عملية «باربروسا»

لقد أعطيت خطة غزو الاتحاد السوفييتي الاسم الرمزي «عملية باربروسا». وبالرغم من التأخيرات التي نجمت عن غزو البلقان المفاجىء، فقد حشدت هيئة اركان الجنرال «هالدر» في اواسط حزيران (يونيو) في بروسيا الشرقية وبولنده وسلوفاكيا وهنغاريا اضخم قوة ميدانية في تاريخ المانيا: ١٤٩ فرقة (١٣٥ منها فرق المانية والاخرى رومانية وهنغارية) ضمت اكثر من ثلاثة ملايين رجل، و٣٣٥٠ دبابة، و٦٠٠ الف عربة، و٦٢٥ الف حصان. (والاستمرار في استخدام وسائط النقل التي كانت تجرها الخيل، تذكرنا بالخيول التي استخدمها الجيش الالماني في العام ١٩١٤ والتي بلغ عددها ٧٢٦٦٧٠ حصاناً)[٨].

وعندما بدأت «عملية باربروسا» في ٢٢ حزيران (يونيو) ١٩٤١، شكل فيلق «مانشتاين» السادس والخمسون رأس حربة مجموعة جيوش الشمال المتقدمة الى «ليتوانيا»، بغية التوجه بعد ذلك نحو «لينينغراد». وبعد اربعة ايام، حقق في خلالها تقدماً سريعا بمعدل ٥٠ ميلا في اليوم، قامت قواته المتقدمة بعمليات عبور اقتحامية مباغتة لنهر «دفينا» واحتلت مدينة «دفنسك» بعد استيلائها على جسرين هامين، دون ان تمنح المدافعين المصعوقين الفرصة لتنفيذ التخريبات وتفجير العبوات المعدة مسبقاً، وسُمح لـ «مانشتاين» بعد انضمام الجيش الى قوة العبور في ٧/٢، ان يستأنف الزحف الى الشمال الشرقي. وبحلول ٧/١٥ قطعت عناصره المتقدمة زهاء ٢٥٠ ميلاً اخرى نحو بحيرة «ايلمن» ـ بمعدل يزيد عن ٢٠ ميلا يوميا ـ حيث كان على «مانشتاين» وفيلقه مواجهة التطويق السوفييتي ريثما تنضم اليه بقية قوات الجيش بعد اربعة ايام.

واعقبت هذه المنجزات، في منطقة غير ملائمة لعمل الدبابات والعربات، سلسلة من المعارك الناجحة ضد الهجمات السوفييتية المضادة، كان من شأنها لفت الانظار نحو «مانشتاين»، فما ان قتل لغم سوفييتي الفريق «اوجين ريترفون شوبرت» قائد الجيش الالماني الحادي عَشر في القرم، حتى

(٨) Ropp, *op. cit.*, p. 184.

اختير «مانشتاين» على الفور بديلا عنه. وفي خلال ايلول (سبتمبر) احتل «مانشتاين» (الذي قام ايضا بقيادة الجيش الروماني الثالث) معظم شبه جزيرة القرم رغم المقاومة السوفييتية العنيفة، وحاصر السوفييت الباقين في «سيفاستوبول» وشبه جزيرة «كيرتش». وقد صمد في مواقعه في خلال الهجوم السوفييتي المضاد في الشتاء، وفي تموز (يوليو) ١٩٤٢، استولى على «سيفاستوبول»، وطهّر شبه جزيرة «كيرتش». وكان هذا سبب ترقيته الى رتبة فيلد مارشال.

وفيما كان الهجوم الالماني في صيف ١٩٤٢ يدنو من ستالينغراد والقوقاز، نقل «مانشتاين» الى القيادة في جبهة لينينغراد. ورغم عدم اهلية قواته، فقد كان يعول عليه في الاستيلاء على لينينغراد. وشأنه شأن «هالدر» ـ الذي كان على خلاف متزايد مع «هتلر» ـ، قلق «مانشتاين» من التعليمات التي تلزمه بالقيام بهجوم كبير منفصل عن الجهد الالماني الرئيسي في اقصى الجنوب. ومع ذلك فقد حاول المستحيل بكل اخلاص، ورغم فشله، استطاع في ايلول (سبتمبر) ان يدمر جيش الصدمة السوفييتي الثاني الذي قام بهجوم معاكس بالقرب من بحيرة «لادوغا».

حصد «هتلر» في ١٩ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٢ نتائج هجماته المتباعدة التي قامت بها قوات غير مؤهلة تأهيلا كافيا، وقيادة تدعو للسخرية. وقامت الهجمات السوفييتية المضادة في شمال ستالينغراد وجنوبها باختراق الجيوش الالمانية الرومانية المنهكة، ونجحت في ١١/٢١ في تطويق الجيش الالماني السادس داخل ستالينغراد وحولها. وفي ذلك اليوم أمر، «مانشتاين» ان ينقل مقر قيادة جيشه من جبهة لينينغراد، لتشكيل مجموعة جيوش جديدة (مجموعة جيوش الدون) مؤلفة من الجيش السادس المطوق، وجيش البانزر الرابع المعطوب، والجيش الروماني الثالث (الذي كان مطوقا ايضا)، والجيش الروماني الرابع. وفي الاسابيع التالية نجح «مانشتاين» في خلق جبهة جديدة بما ملك من تعزيزات وبما وضعت تحت قيادته من فلول مبعثرة. ولو ان «هتلر» سمح للجيش السادس ان يشق طريقه الى خارج الطوق، كما رغب كل من قائده الجنرال «فريدريش باولوس» و«مانشتاين»، لما تغيرت النتيجة العامة، ولكن كان من المحتمل ان يحقق الهجوم

المعاكس انتصارا محليا على الاقل. وبسبب عناد «هتلر» ورفضه لانسحاب الجيش السادس اصيبت المانيا بأقسى هزيمة عسكرية حاسمة منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨، وفقدت بذلك اي امل بالانتصار على الاتحاد السوفييتي.

ومع هذا، وبعد اكثر من ستة اشهر بقليل، استطاع «مانشتاين» ان يقدم الى «هتلر» انتصارا محليا كافياً لاستعادة التوازن وايقاف السوفييت، بل ولامكانية اجراء مفاوضات سلام. واعداداً للمرحلة قام «مانشتاين» في آذار (مارس) ١٩٤٣، بهجوم مباغت على «خاركوف»، فأكسب المانيا بذلك نصرها الكبير الاخير على الجبهة الشرقية.

معركة كورسك

حضّ «مانشتاين» على الاستفادة من هذا الفوز بقطع نتوء تشكل حول «كورسك»، نتيجة الانتصار في «خاركوف»، ووافقت قيادة الجيش العليا على العملية، كما وافق «هتلر» في البداية، ثم أجلها مدة شهرين، لانه آثر الانتظار حتى تغدو دبابات «البانثر» و«التايغر» الالمانية المحسنة حديثا متوافرة بأعداد كبيرة. وقد اغفل تماما الحقيقة التي اشارت اليها هيئة الاركان العامة، وهي ان معدل انتاج الدبابات في الاتحاد السوفييتي كان اكبر بكثير من معدل الانتاج الالماني. ولو ان عملية «القلعة Citadel»، سارت كما خطط لها «مانشتاين» في مطلع ايار (مايو)، لكان نجاحها شبه مؤكد، ولكن في تلك الاثناء كان السوفييت قد جعلوا من نتوء «كورسك» منطقة محصنة بشكل قل نظيره في تاريخ الحرب الحديثة، وحشدوا خلف الجبهة قوات احتياطية ضخمة.

وعندما هاجم الالمان في ٥ تموز (يوليو) ١٩٤٣، كانت لديهم قوة يزيد مجملها عن ٩٠٠ الف رجل منتشرين حول نتوء «كورسك»، وكان ثلث هذه القوة تقريبا جزءا من مجموعة جيوش الوسط تحت قيادة الفيلد مارشال «فون كلوغه». وكان ثلثاها تقريبا محتشدين في الجنوب ضمن مجموعة جيوش الجنوب تحت قيادة «مانشتاين». وكان في مواجهة ذلك حوالى ١،٣ مليون

جندي سوفييتي، وما لا يقل عن ٣٠٠ الف جندي في الاحتياط مستعدين لخوض القتال.

وعلى الجانب الشمالي من النتوء، أوقف الجيش التاسع من مجموعة جيوش الوسط. وعلى الجانب الجنوبي، تقدم جيشا «مانشتاين» (جيش البانزر الرابع ومفرزة كمبف) بعد سبعة ايام من القتال الشرس، مسافة تزيد على ٣٥ كلم نحو «اوبويان»، واخترقا منطقة الدفاع السوفييتية عند منتصف الطريق المؤدية الى «كورسك». وقد كان هذا انجازا خارقا، نظرا الى قوة الدفاعات وتماسك المقاومة السوفييتية، والى التفوق العددي السوفييتي. ولكن في ١١ تموز (يوليو) زج السوفييت في هذه الجبهة بجيش احتياطي مدرع، الامر الذي اوقف تقدم الالمان، وأفضى الى اعظم معركة دبابات في التاريخ. وفي الايام التي تلت، زج السوفييت بمزيد من قوات الاحتياط، وارغموا الالمان على التقهقر.

ويذكر «مانشتاين» في مذكراته، بأنه كان بوسع قواته صدّ هذا الهجوم المضاد، والمضي قدما للاستيلاء على «كورسك». ويصر على القول بأن السبب الوحيد لعدم حدوث ذلك، صدور امر «هتلر» في ٧/١٣، بايقاف الهجوم، كي يصبح بالامكان ارسال الاحتياط الى الغرب، انطلاقا من خشيته من قيام الحلفاء بغزو صقلية. ولهذا ـ يتابع «مانشتاين» في مذكراته: «وجب على مجموعات الاقتحام... الانسحاب الى خطوط انطلاقها الاساسية»، ثم يختتم بقوله: «وهكذا انتهى الهجوم الالماني في الشرق الى اخفاق تام، مع ان قوات العدو المواجهة للجيشين المهاجمين التابعين لمجموعة جيوش الجنوب، قد تكبدت خسائر تعادل اربعة اضعاف ما تكبده الجيشان من القتلى والاسرى والمفقودين»[٩].

ولم يغال «مانشتاين»، سواء في سرد الحقائق ام في حجم ما اوقعه الالمان في صفوف الجيوش السوفييتية المحصنة جيداً من خسائر. بيد ان تقييما موضوعياً يفضي الى الاستنتاج بأن الفرق الالمانية المنهكة وجميع

(٩) Erich von Manstein, *Lost Victories* (Chicago: 1958), 449.

قوات الاحتياط التي زُجت لم يكن بمقدورها صد الهجوم السوفييتي المضاد، حتى لو لم يتدخل «هتلر».

«مبادىء هيئة الاركان العامة ووجهة نظرها» حول الدفاع

خاض «مانشتاين» في خلال الاشهر الثمانية التي تلت، سلسلة من معارك الاعاقة الدفاعية ضد الجيوش السوفييتية التي كانت تفوق جيشه عددا بنسبة ٣ او ٤ الى واحد، واحيانا بنسبة ٧ الى واحد. وفي الوقت نفسه كان في جدل لا ينتهي مع «هتلر»، الذي كان رفضه مواجهة الواقع ومعارضته المتكررة للانسحابات، يهددان بوقوع كوارث جديدة لا حصر لها ككارثة «ستالينيغراد». وفي ١٩٤٤/٣/٣٠، أعفى «هتلر» «مانشتاين» من القيادة بنتيجة تآمر «غورينغ» و«هملر» و«كايتل»، الذين كانوا يهابون «مانشتاين» ويكرهونه.

وتضم مذكرات «مانشتاين»(١٠) في صفحاتها الاخيرة، بعض الملاحظات الهامة حول «النضال الدائم الذي كان علينا خوضه ضد القائد الاعلى لانتزاع الاعتراف بالضرورات العملياتية».

«كانت مطالبنا المكررة لاقامة نقطة بؤرية واضحة عند الموقع الحاسم . . . ولنيل حرية التحرك بوجه عام، مجرد تجسيد ظاهري لصراعنا. كانت القضية الاساسية تتمحور حول مفهومين متضاربين للاستراتيجية والتكتيك العام:

١) مفهوم «هتلر» الناجم عن صفات خاصة وآراء فردية. . . لشخصية دكتاتور آمَنَ بقوة إرادته، لا ليكسب تأييد جيوشه اينما يمكن ان تحل فحسب، بل، وحتى ليضيق الخناق على العدو. . . ولكنه الدكتاتور نفسه الذي جنّب نفسه المجازفات خشية ما تنطوي عليه من تهديد لمهابته، والذي، رغم عبقريته، افتقر الى اساس المقدرة العسكرية الحقيقية.

٢) مفهوم مقرات قيادة مجموعة جيوش الجنوب (اي «مانشتاين») المبني على مبادىء هيئة الاركان العامة الالمانية ونظرتها التقليدية. . . وهي وجهات نظر القادة العسكريين الذين، بفضل ثقافتهم وتدربهم، ما زالوا راسخي

(١٠) *Ibid.*, pp. 547-548; the emphasis is Manstein's.

الاعتقاد بأن الحرب كانت فناً، ، يشكل وضوح التقويم وجرأة التقرير فيه العنصرين الاساسيين، فناً لا يحقق نجاحاً الا في العمليات المتحركة فقط، لأن من خلال هذه العمليات وحسب، كان تفوق القيادة الألمانية والقوات المقاتلة قادراً على تحقيق فعاليته الكاملة».

كانت «مبادىء الاركان العامة الألمانية، ونظرتها»، كما يقول «مانشتاين»، ما تزال عوامل هامة في أداء الجيش الالماني، عوامل ظلت تمارس نفوذاً ملحوظاً على كل ضابط وجندي حتى الانهيار الالماني النهائي، في خلال العام التالي. ولم تعد الأركان العامة نفسها منذئذ العنصر الهام لصياغة السياسة العسكرية او الاستراتيجية الالمانيتين.

افول الاركان العامة

بدأ افول الاركان العامة، بصفتها المؤسسة العسكرية الاولى في المانيا، عند تولي «هتلر» منصبي وزير الدفاع وقائد القوات المسلحة في مطلع العام ١٩٣٨. وقد كان «هتلر» في ذلك قد أنشأ هيئة قيادة خاصة به حملت اسم «القيادة العليا للقوات المسلحة (OKW)، وكانت بإمرة الجنرال «كايتل». وقد ضمت هذه القيادة عدداً من الضباط الأكفاء، ممن امتلكوا خبرات في الأركان العامة، كتعويض عن انعدام كفاءة «كايتل». وكان من بين هؤلاء الضباط الجنرال «الفرد يودل»، الذي تولى هيئة العمليات فيها. ورغم ان القيادة العليا للقوات المسلحة لم تكن منظمة او مجهزة بالعنصر البشري المؤهل للمسؤولية، فقد اخذت تنتزع باطراد الدور الاستشاري الذي كانت تتولاه تقليدياً هيئة الاركان العامة في الجيش، (قيادة الجيش العليا عملياً OKH). وتسارع انهيار قيادة الجيش العليا إبان مؤتمر «ميونيخ» عندما عزل «هتلر» الجنرال «بيك» من منصبه كرئيس للاركان العامة، ومع ذلك، لعبت «قيادة الجيش العليا»، تحت قيادة خلف «بيك» الجنرال «هالدر»، دورها التقليدي على الاقل فيما يتعلق بالجيش وقائد الجيش الفيلد مارشال «فون براوخيتش»، وذلك في خلال اعداد العمليات وسيرها في بولندا وفرنسا والاراضي الواطئة (هولنده). وفي خلال الاشهر الستة الاولى من الحملة على الاتحاد السوفييتي.

بيد أن افول نفوذ الاركان العامة وهيبتها كان واضحاً إبان تدخل «هتلر» في عمليات الحملة السوفييتية، باصداره الامر بتطويق جيب «كييف» في آب وايلول ١٩٤١، إذ انه اوقف بهذا الامر الاندفاع الرئيسي باتجاه موسكو، التي كانت قلب الاتحاد السوفييتي الاقتصادي والسياسي، وملتقى خطوطه الحديدية. كما أتاح للسوفييت متنفسا كي يعيدوا تنظيم دفاعاتهم ويحسنوها في تلك النقطة الحيوية. فعملية تحويل الجهد هذه دلت على ان نصراً في الاتحاد السوفييتي لا يمكن تحقيقه قبل الشتاء. ولكن «هتلر» كان قد سبق له ان رفض مطالب «فروم» و«هالدر» الرامية الى تأمين مصادر لتجهيز الجيش لعمليات الشتاء، انطلاقاً من انه لم تكن هناك حاجة لذلك.

وعندما أوقفت هجمات الجيوش السوفييتية المضادة، الجيوش الألمانية المنهكة، وغير المهيأة لحملة شتوية في ١٩٤١/١٢/٦ أبى «هتلر» ان يعترف بأن الفشل ناجم عن اخطاء عديدة في أحكامه، بل انه انبرى يلوم القائد العام للجيش «براوخيتش» وقادة الجيوش الرئيسة، بحجة انهم لم يكونوا يتمتعون بروح هجومية كافية. وقد كف ايديهم جميعاً ومنح نفسه القائد العام للجيش، وتولى كافة مسؤوليات القيادة.

هالدر في مواجهة «هتلر»

ومع ان «هتلر» لم يعزل «هالدر»، فقد قلّص من اهمية هيئة الاركان العامة، بانتزاعه مسؤولية رئيس الاركان التقليدية في مجال تعيين ضباط الاركان وتحديد مهامهم، وتحويل المسؤولية الى مكتب شؤون افراد الجيش، الذي اصبح بدوره تحت اشراف «هتلر» مباشرة بصفته القائد العام للجيش..

ومنذ ذلك الوقت حدّ «هتلر» كذلك من كافة مسؤوليات الاركان العامة المتعلقة بالعمليات في الجبهة السوفييتية، وعهد بمسؤولية العمليات في المسارح الاخرى الى قيادة «كايتل». فأحدث هذا شبه ارتباك يائس في جميع الخطط الالمانية، نظراً الى ان «قيادة الجيش العليا» بقيت مسؤولة عن الاشراف على نشاطات الجيش العسكرية غير العملياتية، وعن تنسيق نشاطات الجيوش الميدانية مع الجيش البديل الذي كان بامرة الجنرال «فروم». ولكن

رغم هذا الارتباك، بقي جهاز الجيش يعمل بفعالية مدهشة. ويعود الفضل في ذلك الى كفاءة «هالدر» و«فروم» و«يودل» وضباطهم الرئيسيين في الاركان العامة، وليس الى «كايتل» العاجز.

ولم يكن «هالدر» مستعدا على اي حال للتنازل عن آخر مسؤولية من مسؤوليات الاركان العامة، لكون تلك المسؤولية مبرر وجود الاركان العامة، كما كان يرى ذلك مؤسسوها، «شارنهورست» وجماعته المصلحون. وكانت تلك المسؤولية تتمثل في الحؤول دون تدخل الملوك (او الدكتاتوريين) غير العسكريين، عبر إسداء النصيحة السليمة اليهم، او باتخاذ إجراءات معاكسة لاجراءاتهم. وقد ازدادت العلاقات سوءاً بين «هتلر» و«هالدر»، وكان هذا الاخير لا يتورع عن اظهار ازدرائه لجهل «هتلر» في الامور العسكرية. وقد اعترض بشدة على خطة «هتلر» الرامية الى شن هجوم في ثلاثة اتجاهات في صيف ١٩٤٢. اذ انه لم يجد مبررا لتوزيع القوات الالمانية الجرارة باندفاعات متزامنة نحو الشرق باتجاه الدون وستالينغراد، ونحو الجنوب الشرقي باتجاه القوقاز، ونحو الشمال باتجاه لينينغراد، وتمكين قوات سوفييتية وفيرة العدد من ضرب جناح او اجنحة القوات المهاجمة المكشوفة. وكان من شأن ذلك اثارة غضب «هتلر»، ودفعه الى رفض احتجاجات «هالدر» غير الدبلوماسية. وفكر «هالدر» بالاستقالة ـ كما اعتقد العديد من زملائه ـ لكنه خشي ان تؤدي استقالته الى مجيء خلف له لا يجرؤ على مناقشة القرارات التافهة مع «هتلر». وفي آب (اغسطس) وايلول (سبتمبر)، وفيما كانت الهجمات الالمانية نحو ستالينغراد والقوقاز تعرض الاجنحة الضعيفة للوحدات المهاجمة الى هجوم سوفييتي مضاد محتمل، احتج «هالدر» ثانية، وبفظاظة متزايدة. وشعر «هتلر» في ١٩٤٢/٩/٢٥، بأنه لم يعد يطيق التطاول عليه، فطرد «هالدر» في اقسى صورة، وعين مكانه ضابطاً اصغر سناً يتمتع بالكفاءة، ولكنه يفتقر الى الخيال وكان ذلك الضابط هو اللواء «كورت زيتزلر».

زيتزلر رئيساً للاركان العامة

لم يكن «زيتزلر» في الواقع سهل الانقياد كما توخاه «هتلر»، لكن كانت تعوزه الألمعية الفكرية التي اتصف بها معظم اسلافه في مكتب رئاسة

الاركان، وغدا عملياً الضابط التنفيذي العسكري عند «هتلر»، اكثر منه رئيس اركان حسب التقليد البروسي ـ الالماني. ويمكن القول بأن هيئة الاركان التي اسسها «شارنهورست» قد قُضي عليها منذ اعفاء «هالدر».

لقد ورث «زيتزلر» بالطبع، الوضع الذي رفضه «هالدر»، والذي انهار في ١١/١٩ كما توقع «هالدر» وبذل «زيتزلر» قصارى جهده لجعل «هتلر» يصدر اوامر تسمح لجيش الجنرال «باولوس» السادس بمحاولة الخروج من طوق ستالينغراد. ولكن الحجج التي عرضها هو و«مانشتاين» في سبيل ذلك بدت بلا معنى، عندما وعد «غورينغ» بأن يواصل تموين الجيش السادس عن طريق الجو. ومع ان «غورينغ» اظهر عجزه إزاء ادارة عملية كهذه ـ وهي عملية لم يكن بالامكان تنفيذها بنجاح ـ تجاهل «هتلر» كل المؤشرات الدالة على مصير الجيش السادس المشؤوم. وقد حاول «زيتزلر» إضفاء صبغة دراماتيكية رمزية على الوضع في «ستالينغراد» عن طريق تقليص وجباته ووجبات هيئة الاركان كلها الى حدود ما كان يتيسر من طعام لكل جندي من الجنود المحاصرين في المدينة. ولما بات «زيتزلر» هزيلا منهكا، امره «هتلر» بان يستأنف تناول وجباته الكاملة، ورفض في الوقت نفسه قبول استقالته.

كانت هذه اولى المرات الخمس، في غضون الاثنين والعشرين شهراً من خدمته كرئيس لقيادة الجيش العليا، التي حاول «زيتزلر» الاستقالة اثناءها وكانت المحاولتان الاخيرتان إبان عزل «مانشتاين»، لكن «هتلر» رفض استقالته الشفوية والخطية. وفي ١٩٤٣/٩/٢٤ منحه «هتلر» رتبة منصب جنرال المشاة، ثم رقاه في ١٩٤٤/١/٣٠ الى رتبة فريق اول.

المؤامرة ضد هتلر

في ١٩٤٤/٧/٢ ساور «هتلر» الشك في ان يكون معظم ضباط هيئة الاركان متواطئين في محاولة اغتياله، فطرد «زيتزلر»، الذي كان قد قضى فترة في السجن. واستطاع وزير التسليح «البرت شبيير»، الذي كانت تدور حوله بعض الشكوك ايضا، ان يقنع «هتلر» بأن «زيتزلر» كان على علم بالمؤامرة.

ولعل اكبر مأساة شخصية في محاولة اغتيال «هتلر» في ٧/٢٠ كانت مأساة الفريق الأول «فروم»، علما بأن «فروم» لم يعان من الاذلال والاضطهاد

اللذين عانى منهما الكثير من المتواطئين المتهمين بالتآمر، لانه رفض الاشتراك في المؤامرة. ولم يكن أحد يعلم أكثر منه كيف كانت سياسات «هتلر» تقود المانيا الى هزيمة ودمار حتميين، لكنه، كغيره من كبار الضباط الالمان، شعر بأن قسم ولائه الشخصي لـ«هتلر» يمنعه دون الاسهام بأي جهد للاطاحة بالديكتاتور. وكان كلما حاول احد المتآمرين اقناعه باسلوب دبلوماسي بالمشاركة، لجأ الى التهرب من الموضوع بلباقة. ومع ذلك، اعتقد المتآمرون بأن سينضم اليهم حالما يتم التخلص من «هتلر». وكان هذا بالطبع، رأي العقيد «الكونت كلاوس فون شتاوفنبيرغ»، احد زعماء المؤامرة، ورئيس اركان «فروم». وكان «شتاوفنبيرغ» الرجل الذي وضع القنبلة بقصد اغتيال «هتلر».

وفي ٧/٢٠، طلب المتآمرون من «فروم» الانضمام اليهم، ظنا منهم ان «هتلر» قد قُتل، ولكنه سرعان ما اكتشف «فروم» ان «هتلر» لا زال حيا فحاول اعتقال القادة المتمردين، الامر الذي دفع «شتاوفنبيرغ» الى احتجازه في مكتبه. ووضع حارس مسلح عند باب المكتب. وعندما انكشف امر المؤامرة استطاع «فروم» الهرب من مكتبه، حيث تولى القيادة في «برلين»،! وامر بمحاكمات واعدامات عاجلة بحق عدد من عناصر المؤامرة، ومن بينهم «شتاوفنبيرغ». كما انه القى القبض على خصمه القديم الجنرال «بيك» احد الزعماء الرئيسيين، ومنحه فرصة الانتحار. وعندما لم يفلح «بيك» في قتل نفسه، ووجد ملقى على الارض وسط بركة من الدم، امر «فروم» جنديا بالاجهاز عليه.

ولم يصدق «هتلر» ان «فروم» لم يكن من المتآمرين، بل اعتبر تحركاته في مساء ٧/٢٠ محاولات إنسان مذنب لاخفاء ذنبه. كما ان «هتلر» لم يغفر لـ«فروم» حؤوله دون التمتع بمنظر تعذيب «شتاوفنبيرغ» و«بيك» حتى الموت ـ كما جرى بالنسبة الى بعض المتآمرين الاخرين مثل الفيلد مارشال «فون فيتسليبن» والجنرال «كارل هاينريش فون شتولبناغل». ومهما يكن، فقد اثبتت الواقعة بأن «فروم» كان على دراية تامة بالمؤامرة، وانه فشل في الكشف عنها. فأودع في السجن شهوراً عدة ثم نُفّذ فيه حكم الاعدام في آذار (مارس) ١٩٤٥ رغم محاولات «شبيير» لاطلاق سراحه. ويبقى القول بأن

ما قام به في الساعات الأخيرة لمحاولة الانقلاب المسلّح والدوافع الكامنة وراءه اصعب من ان تحدد.

واسند منصب «فروم»، كرئيس للتجهيزات وقائد للجيش البديل الى «هاينريش هملر»، رئيس الغستابو وقوات الصاعقة غير انه لم يكن بوسع هذا الزعيم النازي فعل شيء يذكر سواء لجهة ارجاء انهيار المانيا المحتوم، ام لجهة التعجيل به.

غودريان رئيساً للاركان العامة

وبالرغم من حتميته ، تأخر موعد الانهيار بفعل مبادىء الاركان العامة ونظرتها التقليدية، التي تحدث «مانشتاين» عنها.

وقد عين «هتلر» الفريق اول «غودريان» المعروف بأنه لم يتورط في المؤامرة، بديلاً عن «زيتزلر». وكان «غودريان»، احد المع قادة قوة القتال المتحركة في التاريخ. وكان ضابط ركن كفؤاً، ولكن لم يكن فريد زمانه في هذا المجال. فقد كان شأنه شأن زيتزلر- يفتقر الى المقدرة الفكرية التي كانت تتطلبها مهام القيادة العليا وفق تقاليد الاركان العامة. ولم يكن لهذا الامر تأثير كبير، ايجابي او سلبي، على نتيجة الحرب. وقد بذل «غودريان» قصارى جهده لانقاذ الموقف على الجبهة الشرقية، وهو الموقف الذي وصفه بأنه «رهيب». وحتى لو ان «هتلر» تقبل نصيحته، لما تغير في الامر شيء، لأن الموقف كان آنئذ يائساً.

لقد كان «غودريان» احد قادة الجيش الذين كف «هتلر» ايديهم بالجملة، إبان عملية التطهير التي قام بها عقب الاخفاق الالماني في احتلال موسكو، في كانون الاول (ديسمبر) ١٩٤١. وبعد عام من الركود، عُين «غودريان» مفتشاً عاماً للقوات المدرعة في ١٩٤٣/٣/١. وقد بدا يومها انه استعاد ثقة «هتلر»، غير انه اوشك ان يفقدها عندما حاول اقناع الديكتاتور بتعيين قائد عام للجيش. فقد رأى- مثل «فروم» و«شبيير»- بأنه ما لم يحل قائد عسكري متفرغ كليا محل هتلر المتفرغ جزئياً، فلن يكون هناك تحسن حقيقي في الوضع العسكري. وقد صادف أن اشار المارشالان «فون مانشتاين» و«فون كلوغه» معا على «هتلر» بما تقدم به «غودريان». واعتبر

«هتلر» ذلك مؤشراً الى ان الاركان العامة تدبر مؤامرة ضده. وسرعان ما احس «غودريان» بنوبات قلبية حادة، الا انه تعافى كليا حين عينه «هتلر» رئيسا للاركان العامة.

فريدولين فون سينغر أوند إتيرلن

كان من بين الذين فهموا «مبادىء الاركان العامة ونظرتها التقليدية» وأعجبوا بها وتبنوها، ضابط جدير بعضوية الاركان العامة، ولكن القدر حرمه من تلك العضوية، وهو الضابط «فريدولين (فريدو) رودولف تيودور فون سينغر اوند اتيرلن».

ان حياة هذا الرجل المهنية نافذة على تفكير ومواقف ضابط الماني معاد للنازية بكل حماس وحمية، ذي فردية مميزة، وورع عميق. ضابط استطاع ان يتكيف مع مذاهب الاركان العامة وان يكافح بايمان راسخ وفاعلية في سبيل وطنه، حتى في ظل ديكتاتورية كان يمقتها. ومن الممكن ايجاد الجواب عن هذا التناقض الظاهري في مذكراته الحربية الرصينة[١١]، التي تعد من اهم الكتابات العسكرية حول الحرب العالمية الثانية. وكان من بين مآثره البطولية إبان القيادة على ثلاث جبهات في خلال الحرب، نجاحاته في قيادة فيلق، تلك النجاحات التي سمت الى مصاف عملية «الجنرال شيفر- بويادل» في معركة «لودز» (١٩١٤) باعتبارها احدى المآثر الناصعة في التاريخ العسكري الحديث.

ولد «فون سينغر اوند إيترلن» لعائلة ارستقراطية من «بادن» في «فالدشوت» بتاريخ ١٨٩١/٩/٤. نال منحة بريطانية للدراسة في «اوكسفورد» من ١٩١٢ الى ١٩١٤. واصبح كما كتب فيما بعد ضابطا ناجحا بمحض الصدفة. وعندما نشبت الحرب العالمية الاولى، كانت امامه سنة دراسة اخرى لنيل درجة دكتوراه في الفلسفة، لكنه ما لبث ان استُدعي الى الخدمة في فوجه الاحتياطي ومنح رتبة ضابط، وخدم طوال الحرب على الجبهة الغربية كضابط في مدفعية الميدان. وكان بعد الحرب واحداً من الضباط غير النظاميين القليلين، الذين اختيروا للبقاء في جيش «سيكت» ذي المئة الف

(١١) F. R. T von Senger und Etterlin, *Neither Fear nor Hope* (New York: 1964).

رجل. وزكي في العام ١٩٢١ بعد قضائه عامين في مدرسة الخيالة في هانوفر، للانضمام الى هيئة الاركان العامة، واجتاز الامتحانات المتعلقة بذلك. ولكن، لما كان سنه يتجاوز الثلاثين عاماً، فقد جعل ضابطاً ميدانياً بدلا من الحاقه بهيئة التدريب في الاركان العامة، وخدم مع فوج الخيالة لمدة احد عشر عاماً في «غوتنغن».

وفي مطلع العام ١٩٣٤، ومع بداية توسع الجيش الالماني وازدياد مهام الاركان العامة، استُدعي «سينغر»، الذي كان برتبة رائد وقتذاك، الى برلين وضم الى الاركان العامة. وغدا في خلال السنوات الاربع التالية احد اعضاء قسم العمليات في الاركان العامة العليا. واستطاع ان ينتزع اعجاب الجنرالات «بيك» و«همرشتاين - إيكورد» و«فريتش»، ورغم اعترافه، كما كتب لاحقاً، بأن الخيالة كانت من «مفارقات الحرب». شأنها شأن الكثير من خيالة جيوش سائر دول العالم في عقود ما بين الحربين، فان عاطفته تجاه الخيل والخيالة كانت من القوة بحيث كان راضياً بالعودة الى «غوتنغن» في العام ١٩٣٨ لتولي قيادة فوج الخيالة الذي سبق ان خدم فيه.

ولقد قاتل في العام ١٩٤٠ كقائد لفوج (ولواء فيما بعد) خيالة ميكانيكية، وكان ذلك إبان غزو هولندا وبلجيكا وفرنسا. وقام لواؤه في ٦/١٩ بالتسابق مع فرقة الجنرال «ارفين رومل» (فرقة البانزر السابعة) لنيل شرف احتلال «شيربور» Cherbourg.

وبعد عامين من الخدمة كضابط ارتباط في روما، رقي «سينغر» الى رتبة لواء، وارسل في اواخر العام ١٩٤٢، اي بعد انهيار الجبهة الالمانية في شمال ستالينغراد وجنوبها مباشرة، الى الجبهة الشرقية لتولي قيادة فرقة بانزر. وقامت فرقته السابعة عشرة «بانزر» التابعة لجيش «البانزر» الرابع، الذي كان قد شكل حديثاً كواحد من مجموعة جيوش الدون، بتصدر المحاولات الفاشلة لتحقيق خرق يؤدي الى فك الطوق السوفييتي المحيط بالقوات الالمانية المحاصرة في ستالينغراد. وخاض إذاك عمليات ناجحة، تتوجت بالاشتراك في الهجوم المضاد الذي شنه «مانشتاين» على «خاركوف» في ربيع العام ١٩٤٣.

سينغر في صقلية وكورسيكا

ادى إنجاز «سينغر» الفريد كقائد لفرقة «بانزر» الى ترقيته في صيف ١٩٤٣ الى رتبة فريق، وتعيينه في منصب جديد. وكان النصر البريطاني - الاميركي في تونس قد اعقبته استعدادات الحلفاء لهجوم على ايطاليا عبر البحر الابيض المتوسط. ورغم ان الحلفاء قد وضعوا خطة متقنة ارادوا بها ايهام الالمان بأن قواتهم تستعد لغزو «سردينيا»، فان هيئة العمليات في قيادة الجيش العليا الألمانية قد تحسبت الى ان هدف الحلفاء هو صقلية. وكان المارشال «البرت كسيلرينغ»، قائد قوات المحور في المسرح الجنوبي، في حاجة الى ضابط الماني كبير، يجمع بين خبرة الاركان العامة والخبرة القتالية، لكي يتولى قيادة قوات المانية في صقلية، وليمثله كضابط ارتباط مع قائد الجيش الايطالي في الجزيرة. وكان «سينغر» انسب ما يكون لتلك المهام.

وما كان بمقدور «سينغر» ايقاف زحف الحلفاء المحتوم على صقلية، ولكنه خطط ووضع ترتيبات لبدء انسحاب متقن للفرق الالمانية والايطالية المنهكة من الجزيرة. ولم يكن «سينغر» موجوداً في الجزيرة للمشاركة في عملية الانسحاب، التي نفذها ببراعة الجنرال «هانز هوب»، قائد فيلق «البانزر ١٤». فقد كان «كسيلرينغ» قد اختاره لقيادة وحدات الجيش والبحرية والطيران في جزيرتي «سردينيا» و«كورسيكا»، حيث كانت مهمته الاسمية تنسيق الدعم الالماني للدفاع الايطالي في هاتين الجزيرتين، استباقاً لهجوم برمائي مبكر يشنه الحلفاء. ولكن الاهم من ذلك هو انه كانت لديه تعليمات من «كسيلرينغ» تقضي بالاستعداد لاخلاء الوحدات الالمانية في حال انحراف ايطاليا عن خط تحالف دول المحور.

وقد حدث الانحراف في ٩/٨، ونجح «سينغر»، بالخديعة والدبلوماسية والقتال ضد الجنود الايطاليين ورجال العصابات الفرنسيين، في تجميع قواته في جنوب كورسيكا، واخراج جميع المفارز الالمانية من سردينيا في وقت واحد، وقد تلقى في ٩/١٤ اوامر من «هتلر» باعدام جميع الاسرى من الضباط الايطاليين، والذين كان عددهم يقارب ٢٠٠ ضابط. لكنه ابلغ

«كسيلرينغ» برقياً بأنه لن ينفذ الاوامر. ولم تكن هذه المرة الأولى او الاخيرة التي يرفض «سينغر» فيها تنفيذ اوامر نازية منافية لقوانين الحرب. ولو انه مني بهزيمة واحدة، لكان عرضة لأمر «هتلر» بالاعدام. ولكن نجاحاته جعلته بمنجاة من عاقبة عدم اطاعة الاوامر.

واتم «سينغر» عمليات الاخلاء الشاقة من «كورسيكا» في ١٠/٣، رغم سيطرة الحلفاء على البحر والجو، وحظي بتنويه شخصي من «هتلر» تقديرا لحسن ادارته «لعملية كان اتمامها بهذا الشكل امراً لا يمكن تصوره». واطلع «سينغر» بعد الحرب، على ان نقاشاً قد دار في قيادة الجيش العليا، حول ما اذا كان يستحق ثناء لما حققه من نجاح ام عقاباً على عصيانه. وقيل له بأن «رأي مؤيديه قد رجح الثناء على العقاب». وفي الحقيقة ان «هتلر» وقيادة الجيش العليا قد وافقا على قرار «كسيلرينغ» بمكافأة «سينغر» بتسليمه قيادة الفيلق «١٤ بانزر»، الذي كان قائده السابق - الجنرال «هوب» - وقد نقل الى الاتحاد السوفييتي لتولي قيادة جيش هناك.

سينغر وفيلق البانزر الرابع عشر

سيطر فيلق «البانزر ١٤» على مساحة كبيرة من الجزء الغربي والاوسط من جبهة جيش الجنرال «هاينريش فون فيتنغهوف - شيل». (الفيلق العاشر) وفي الجهة المقابلة من جبهته في وادي نهر «فولتورنو»، قام الجيش الاميركي الخامس باقتحامات عديدة، مرغماً الالمان على الانسحاب ببطء، ومع حلول منتصف كانون الثاني (يناير)، كان الفيلق ١٤ قد تراجع الى المواقع المعدة سابقاً فيما كان يُسمى بخط «غوستاف» خلف نهري «غاريليانو» و«رابيدو» للالتقاء في مدينة «كاسينو» الصغيرة، عند تقاطع طريق روما - نابولي وخطها الحديدي مع نهر «رابيدو».

وعند هذا الخط، تمكن «سينغر» وفيلقه الرابع عشر، طوال الاشهر الخمسة التي تلت، من صد هجمات الحلفاء المتكررة، والتي عرفت اعنف ثلاث معارك منها باسم معارك «كاسينو». وكانت احدى نتائج نجاحه ذاك تولية «سينغر» طوال الفترة الباقية من الحرب قيادة خمس فرق او اكثر - جيش صغير عملياً - رغم انه كان قائد فيلق، ورغم ان الفيلق كان يتألف

عادة من فرقتين او ثلاث فرق. وقد عامله «كسيلرينغ» كقائد جيش، رغم معرفته بأن «هتلر» لم يكن في وارد الموافقة على ترقية ذاك الجنرال الكاثوليكي المناهض للنازية بشدة الى رتبة قائد جيش. ولكن «كسيلرينغ» استطاع على الاقل انتزاع موافقة «هتلر» على ترقية «سينغر» الى رتبة قائد قوات «البانزر» عقب انتصاره الحاسم الاول في «كاسينو».

ويمتاز ثناء «سينغر» على مرؤوسيه من القادة، بعد انتصاراته في «كاسينو»، بما تضمنه من كلمات حول المحارب الالماني والجيش الالماني:

«إن انتصارنا في «كاسينو» يعكس الامثلة الكثيرة التي يحفل بها تاريخ الحرب، حيث تتوقف النتائج على قوة شخصية القائد في ارض المعركة. فمن المعروف لدى الجميع، ان صاحب الفضل في حصيلة معركة «كاسينو» الأولى، هو اللواء «باد»، وان فضل متابعة التقدم الى المدينة يعود الى الفريق «هايدريش». وقد كان هذان القائدان في الوقت ذاته قدوة لجنودهما. ولكن يجدر بي هنا ان آتي على ذكر قادة السرايا والكتائب والافواج، الذين يظل معظمهم غير معروفين فهم الذين يقومون بأعباء القتال التلاحمي، وهم الذين يبلورون قيمة الجنود بما يتوافر لديهم من شجاعة وتفان، فكثير منهم يحملون «صليب الفارس» او «الصليب الحديدي»، وكثير آخرون يرقدون بسلام ابدي بين الصخور، إن ثباتكم في الاوقات العصيبة وولاءكم لقادتكم سيظلان في الذاكرة. واذا ما ذكرت اسم واحد من افضلكم، فاجعلوا اسمه رمزاً لكم. ذلك اني اتوق لانتهاز الفرصة كي اخفض سيفي امام قبر الرائد «كنوت»، الذي دافع عن «كاسينو» في المعركة الاولى، وسقط كما يسقط الابطال وهو يقود فوجه بعد منحه وسام «صليب الفارس» بيوم واحد. وكما قاتل هذا القائد، قاتل الجنود، خصوصاً جنود المشاة، من دون ان انسى الطلائع، ورماة المدافع والراجمات، والممرضين وكاشفي الالغام وسائقي الشاحنات والرواحل، الذين كانوا يتقدمون على طرق التموين المعرضة للنيران بصورة دائمة».

غراينر وزنسفوس، جنرالان نموذجيان

لعل اشد ما يلفت الانتباه بشأن استغلال القيادة لرجال مثل «سينغر»

ومثل «شتودنت» و«مانشتاين»، هو ان اداءهم لم يكن غير عادي. فنظرة فاحصة الى عمليات الالمان الحربية، في خلال الحرب العالمية الثانية، تكشف ـ مع بعض الاستثناءات والزلّات ـ عن المواصفات المشتركة التي كان يتمتع بها قادة الفرق والفيالق والجيوش ومجموعات الجيوش، سواء في حال النجاح ام في حال الفشل، وفي الدفاع كما في الهجوم. والمواصفات هي: رباطة الجأش، والكفاءة، والجرأة، وسعة الخيال، واستغلال الفرص المتاحة.

فقد كان هناك على سبيل المثال الفريق «هاينس غراينر»، قائد فرقة المشاة ٣٦٢ ابان تدفق الحلفاء من رأس جسر «أنزيو»، وكان «غراينر» (الذي سبق ان اثنى عليه «مانشتاين» لادائه كقائد فوج وضابط ركن) عائداً من إجازته، حين كانت فرقته تتعرض لهجوم ساحق مدعم بالطيران من قبل فرقة المشاة الثالثة والفرقة المدرعة الأولى الاميركيتين في ٢٣ و٢٤ ايار (مايو). وقد افادت استخبارات الحلفاء بأن الفرقة ٣٦٢ قد «دمرت». وحين بدأت الفرقة المدرعة الأولى استثمار الخرق في ٢٦ ايار (مايو) عبر «فيليتري» في منطقة الفرقة ٣٦٢، لم تكن تتوقع اية مقاومة حقيقية. ولكن في يوم من اشد ايام الحرب هولاً، لم تستطع الفرقة ٣٦٢ الصمود تحت قيادة «غراينر» الفذة فحسب، بل نجح هجومها المعاكس ايضا في رد جنود الدبابات الاميركية المذهولين الى مواقع انطلاقهم.

والرجل الثاني الذي يستحق الذكر، هو الجنرال «فرانز زنسفوس»، قائد الفرقة ٣١٢ «فولكس غريناديـر» التي قامت في ١٩٤٤/١٢/١٦ بهجوم عبر نهر «سوير»، لحماية المجنبة اليسرى لهجوم الآردين (المعروف لدى معظم الاميركيين بمعركة «النتوء» او معركة الآردين الثانية). وقد كان هدف الفرقة محدداً؛ تثبيت اكبر عدد ممكن من الوحدات الاميركية، والحؤول دون نقل الاحتياطي شمالا في مواجهة الجهد الالماني الرئيسي. وكان معظم عناصر الفرقة شباناً صغاراً، ومجندين ذوي تدريب سيىء، او رجال احتياط متقدمين في السن، تم استدعاؤهم الى الخدمة مع بدء إطباق جيوش الحلفاء على المانيا، ولم يكن مبعث المشقة تعقيد مهمة الفرقة الناجم عن ضرورة القيام بهجوم عبر نهر فقط، بل كان على الفرقة ايضاً ان تواجه قوة اميركية تفوقها

عدداً وخبرة، هي فرقة المشاة الرابعة. وبعد ان حققت **مفاجأة تامة**، استطاعت الفرقة الالمانية دحر الفرقة الرابعة ليومين على التوالي، ثم اوقفت تقدمها بفعل التعزيزات الاميركية التي وصلت في اليوم الثالث، واتخذت مواقعها في الأرض التي غنمتها، وصدت الهجمات المعاكسة المتكررة التي قامت بها قوات اميركية تتفوق عليها بشكل ملحوظ.

لقد كانت قيادة الجنرال «زنسفوس» بالطبع عاملاً هاماً في ذلك العمل البطولي المدهش. ولكن الفضل يعود ايضاً الى هيئة اركان «هالدر» و«زيتزلر» و«غودريان». فقد رفض هؤلاء باستمرار السماح بتقليص مدة التدريب وبرامجه التي كان يخضع لها صغار الضباط وضباط الصف، رغم جهود «هتلر»، الرامية الى احداث تغيير في تلك البرامج، فانطلاقاً من قناعتهم بان القيادة الهزيلة لا تعني اداء هزيلاً وحسب، وإنما تعني ايضاً وقوع اصابات كبيرة، تمسكوا بمواقفهم، وارغموا «هتلر» على التراجع. وهذا ما سمح لـ «زنسفوس» ان يتوقع الحصول على اداء جيد من وحدات مؤلفة من رجال غير مدربين كما يجب في بعض المجالات.

وقائمة الجنرالات الذين كانوا قادرين على ابراز مثل تلك الفعالية القتالية طويلة بطول قائمة الجنرالات، فعلى مستوى القيادات العليا تخطر في البال اسماء من قبيل «روتشتدت» «كسيلرينغ»، «رومل»، «بوك»، «ليب»، «كلوغه»، «كليست»، وغيرهم كثر. ومن المشكوك فيه ان يكون اي جيش قد ضمّ مثل هذا العدد الهائل من القادة الاكفاء الرفيعي المستوى.

تنقل «سينغر» عبر الجبهة الايطالية

من الانسب بشكل خاص العودة الى ذكر الجنرال «فون سينغر اوند اترلين» كمثال اخير للقيادة الحربية الفذة، التي افرزها سلك الضباط الالمان في خلال الحرب العالمية الثانية. فقد كان «سينغر» ذا فردية خاصة فلا شيء فيه يحمل اي مظهر من مظاهر «العسكرية البروسية»، سواء مولده او مظهره او اعماله، ومع ذلك، فهو كغيره من الافراد غير التقليديين الذين صعدوا الى القمة في الجيش الالماني، قد كيّف ذاته، واخضعها للانضباط وللعمل باخلاص وتعاون لا يحيدان، وفقا لعقيدة محددة بدقة ـ رغم مرونتها ـ. وقد

قام بذلك دون ان يفقد شيئاً من فرديته الشخصية. وهذا ما جعله متميزاً ونموذجياً.

ومن الممكن القول بأن أبرز عمل بطولي لقائد فيلق في خلال الحرب العالمية الثانية، كان ذلك الذي انجزه «سينغر»، بعد وقت غير طويل من فترة الاستراحة الوجيزة، التي حققها دفاع «غراينر» الباهر عن «فيليتري» لصالح الجيش الالماني الرابع عشر، الذي كان آنذاك يطوق «انزيو». ففي ذلك الحين كان فيلق «سينغر» الرابع عشر «بانزر» ينسحب بتؤدة من «كاسينو»، بسبب تمكن الجيش الاميركي الخامس من اختراق الفيلق ٥١ على جهته اليمنى، مثبتاً الجناح الايمن للجيش العاشر المدمر. وعندما انهار خط الجيش الرابع عشر، سحب «سينغر» فرقتين الى تلال «البان». وكان بذلك يقاتل عملياً على جبهتين بهدف انقاذ بقية فيلقه الى جانب الفيلق ٥١ المعرض لتهديد حقيقي. ولكن بدا مع انهيار الجيش الرابع عشر ان لا سبيل لمنع الفيلقين السادس والثاني الاميركين من التقدم الى وادي نهر «التيبر» في الجهة الشمالية الشرقية.

وكان المارشال «كسيرينغ» يهم تخفيض حجم فرق الجيش العاشر في أقصى الغرب، حين خف الضغط بصورة مفاجئة. وبدلاً من التوجه الى وادي التيبر، وهو الامر الذي كان «كسيلرينغ» يخشاه ادار الجنرال «مارك كلارك» جيشه الخامس شمالا باتجاه روما. وكان «كلارك» هذا قد ذاع صيته كمحرر روما، ولكنه اضاع فرصته لانهاء الحملة الايطالية في صيف ١٩٤٤،لان «كسيلرينغ» وجد سانحته ايضاً لانقاذ ما تبقى من جيشه الرابع عشر بجيشه العاشر المعافى (رغم كل ما تعرض له من تدمير).

واصدر «كسيلرينغ» امرا الى فيلق «البانزر ١٤» (كان لا يزال ضمن الجيش العاشر) باللحاق بالجيش العاشر، الذي كان في ذلك الوقت في تراجع مرتبك الى المؤخرة في الغرب. واحتج على هذا الامر الجنرال «فون فيتنغهوف»، قائد الجيش العاشر لأنه كان يخشى ان يفقد احسن معاونيه «سينغر» وهو الامر الذي دعا «كسيلرينغ» بالطبع الى ابقاء «سينغر» في الجيش الرابع عشر. فقد كان «كسيلرينغ» قد سرح لتوه قائد الجيش الرابع عشر

الجنرال «فون ماكينسين»، ابن المشير الشهير في الحرب العالمية الأولى. وكان من دون شك يبغي تسليم «سينغر» قيادة الجيش الرابع عشر، ولكنه كان يعلم استحالة ذلك، نظراً الى رفض «هتلر» القاطع تولية ضابط معاد للنازية مثل «سينغر» قيادة جيش. بيد انه كان متأكداً من ان الفرصة سانحة لاستعادة عافية قواته عن طريق «سينغر» وفيلقه.

لقد كانت المهمة التي اوكلت الى «سينغر» غير عادية إذ كان على فيلقه الانتقال الى الغرب عبر جبهة فيلق الجناح الايمن للجيش العاشر، لتأمين الاتصال بين الجيش العاشر والجيش الرابع عشر المشتت، ومن ثم مواصلة التقدم غرباً عبر كامل جبهة فيلقي الجيش الرابع عشر، وكان عليه عند وصوله الى البحر، اتخاذ مواقع دفاعية وايقاف عمليات المطاردة التي كان الحلفاء يقومون بها حتى الطرق الساحلية الممتدة من روما الى بيزا وفلورنسا. ولكن لم يكن «كسيلرينغ»، في ظل مثل هذا الموقف البالغ الدقة، قادراً على سحب فيلق «البانزر» الرابع عشر او سحب فرق هذا الفيلق من خط الجبهة (وهنا يتجلى الوجه المثير من هذه العملية). فقد كان تحرك فيلق «بانزر» (من ٥ الى ٧ فرق) يفرض عبور جبهتي جيشين إبان الانسحاب بالقوة، في ظل مطاردة وضغط عنيفين من قِبَل الحلفاء.

استغرق التحرك اسبوعين. وحين وصلت فرقة مجنبة «سينغر» اليمنى الى الساحل القريب من «غروزيتو»، نفذ فيلق «البانزر» الرابع عشر (الذي كان في هذا الوقت يشكل القسم الاعظم مما تبقى من الجيش الرابع) اوامر قائد المسرح، فتمركز، وارغم الحلفاء على ايقاف مطاردتهم. وبفضل التعاون غير المقصود كليا بين الرجال الثلاثة - الجنرال «كلارك»، والمارشال «كسيلرينغ» وبالتحديد الجنرال «فون سينغر أوند إترلين» - قُدِّرَ للحملة الايطالية أن تستمر لعشرة اشهر مريرة اخرى.

وفي رسالة عين الفيلق وقائده ابان المعركة، قوّم «فيتنغهوف»، قائد الجيش العاشر، ذاك الانجاز قائلا:

«لقد استطاع فيلق «البانزر» الرابع عشر سحب فرق «البانزر» وفرق رماة

القنابل «بانزر» المشتبكة على جبهته، ومكّنها من تنفيذ مهمتها الجديدة، الهادفة الى حماية المجنبة اليمنى، بسرعة كانت كافية في اللحظة الاخيرة لاحباط محاولة العدو للخرق باتجاه الشمال، والحيلولة دون ما كان سيرافق الخرق من تدمير للجبهة الالمانية. وقد تخللت تنفيذ هذا التحرك مشاق نادرة، بحيث ان التغلب عليها قد شكل ابداعا في فن القيادة العسكرية، وانجازا جديدا اضيف الى انجازات الفيلق السابقة الرفيعة المستوى»[١٢].

وكانت هذه واحدة فقط من بين الاعمال القيادية العسكرية الرائعة والمتعددة في الجيش الألماني، إبان تلك السنة الحافلة بالكوارث.

---

(١٢)

الفصل السادس عشر: أقل من الإنسان الأسمى (سوبرمان)

وجهة نظر مغايرة

مع انني شدّدت على تفوق الاداء العسكري الالماني في الحربين العالميتين، يظلّ بالامكان، إنصافاً، ان أُقيم ذلك الاداء بطريقة اكثر سلبية. فلنطرق برهة لنتبين كيف يمكن صياغة مثل هذا التقييم السلبي في أُطر محددة، وكيف يتوافق والوقائع.

لقد خسر الالمان الحرب العالمية الأولى، وكذلك الثانية. هاتان الحقيقتان البسيطتان تقدمان دليلاً بدهيّاً على ان العبقرية العسكرية الالمانية - سواء كانت عبقرية فردية او مؤطرة في مؤسسة، لم تكن تقوم بواجبها على نحو جيد في غضون هاتين الحربين. وقد اشيع ان التركيز على القدرة التقنية الاكيدة لدى الجهاز العسكري البروسي - الألماني قد حدا بالمعجبين الى غضّ النظر عن نقائص تركيبته.

واذا كان الالمان يملكون هذا التفوق، فلِمَ قضى العديد منهم في جيب «فاليز - ارجنتون»؟ ولِمَ استسلم العديد منهم في تونس؟ ولماذا لم يطاردوا الانكلو - اميركيين حتى البحر في «ساليرنو» او «انزيو» او النورماندي؟ ولماذا عجزوا عن الاستيلاء على لينينغراد المحاصرة؟

هل تُجسِّدُ حوادث العام ١٩٤٤ - عندما كانت الهزائم تَتْرى على الالمان - لغزاً ام اعجوبة المانية في الهزيمة النكراء؟ ثم ان الامر الذي ساعد الالمان في الغرب، هو ان الحلفاء قد ابتعدوا كثيراً عن خطوط إمدادهم. وكانت هذه مشكلة من مشاكل الحلفاء، وعلاوة على ذلك، فقد كان تقدم الحلفاء (بمجرد ان خفّت مشكلة الامداد) بطيئاً بسبب رداءة الطقس والتضاريس غير المناسبة للعمليات الهجومية. ولذا، وبسبب ما لدى الالمان من مهارات تقنية، لم تكن تواجههم مشكلة انشاء دفاع فعال في ظل ظروف كهذه.

في العام ١٩٤٤، بتوافق التضاريس والطقس من جهة، مع افول اهمية مسرح الاحداث، والتضارب التكتيكي الانكلو- اميركي من جهة اخرى، سمحت ايطاليا للالمان بانشاء خط دفاعي فعال عبر شبه الجزيرة، فكان دفاعاً حاذقاً اكثر منه إعجوبة.

وفي الشرق كان السوفييت، الذين لم يكونوا قد استردوا العافية بعد عمليات «ستالين» التطهيرية في الثلاثينات، بطيئي التقدم لانهم بدورهم ذهبوا بعيداً عن خطوط الامداد. وفي الواقع كانت قدرة الالمان على متابعة الحرب في خلال العام ١٩٤٤ ناجمة عن منجزات «ألبرت شبيير» المرموقة في الانتاج الحربي، اكثر مما كانت ناجمة عن اية قدرة قتالية للجيش الالماني.

وفي نظر الذين يرون قيمة ضئيلة يتلمّسونها من المؤسسات العسكرية الالمانية، كان الفشل الرئيسي في هذه المؤسسات في الحرب العالمية الثانية، كما في الأولى، فشلا في الفهم الاستراتيجي. فما نفع الكفاءة التقنية اذا كان التخطيط الاستراتيجي غير مناسب، ولا يفي بالمراد؟!

لقد كانت الحرب العالمية الأولى، ايضاً، موصومةً بعدّة هفوات استراتيجية المانية. فهناك، مثلاً، توزيع القوات على عدة جبهات: فرنسا، الاتحاد السوفييتي، ايطاليا، تركيا، البلقان، وافريقيا. وكان التنسيق مع تركيا والنمسا - هنغاريا غير وافٍ، فضلاً عن انه لم يكن ذي قيمة. ولقد بَنَتْ الاركان العامة خططها واستعداداتها على ان الحرب ستكون قصيرة الامد.

وتتويجاً لهذا جاءت خطة شليفن لغزو هولندا لتؤكد دخول انكلترا - والقوة البحرية البريطانية - الحرب. كان هذا متوقعاً لأن القادة الألمان الموجهين عنايتهم للقتال البري، لم يكونوا قد استوعبوا الأهمية الاستراتيجية للقوة البحرية، كما لم يدركوا كُنْه قوة الولايات المتحدة العسكرية.

وقد قيل انه عند بدء الحرب، كشفت نتائج حملة «المارن» عن نقاط ضعف خطيرة في جهاز القيادة الألماني. ومن هذه الاخفاقات الافتقار للاتصالات بين مقرات القيادة العليا وجيوش المعركة، وتنازُل «مولتكه» عن الامرة القيادية تنازلاً فعلياً للمقدم «ريتشارد هينتش»، الذي كان يتشاور مع رؤساء الأركان فقط وليس مع قادتهم. وقد نوّه أحد النقاد جازماً بأن القيادة الألمانية في الاشهر الأولى للحرب كانت اشبه بمسرحية اخطاء تراجيدية - كوميدية بعيدة عن كونها قيادة ذات قدرة او تفوق مؤطر في مؤسسة.

ومن اهم الخصائص المميزة في عمل القوات الالمانية، كما تشهد مذكرات الحلفاء ويومياتهم الانتظام الذي يمكن ضبط مواقيته، كأن يمكن تحديد الوقت الذي كانت تستغرقه رمايات مدفعيتها.

وكان هناك عيب كبير آخر في الاركان العامة، وهو عجزها عن إقامة علاقة مرضية مع السلطات المدنية. اذ كانت مقرات القيادة العليا تملي اوامرها على حكومة الامبراطور. ومن اكبر هفواتها بالتأكيد القاء كل ثقلها لصالح حرب غواصات واسعة النطاق. فلو لم تفعل ذلك لظهرت امكانية التفاوض على السلام في العام ١٩١٧.

وقد تكررت الحكاية نفسها ابان الحرب العالمية الثانية؛ اذ جرى مجدداً العمل على توزيع القوات على عدة جبهات، واتصف عمل القوات الالمانية بدوره بالانتظام الدقيق الثابت. واغفلت القوة البحرية ثانية كما سبق ان أُغفلت قوة الولايات المتحدة، واضحى توقع وقوع حرب خاطفة امراً لا مناص منه. وكانت الثغرة الكبرى انعدام التنسيق الالماني - الياباني الاستراتيجي ضد الاتحاد السوفييتي.

وربما كان الاهم هو عجز الالمان في الحرب العالمية الثانية عن ادراك

التبعات الاستراتيجية للقوة الجوية، فقد أنشىء سلاح الجو الألماني على يد قادة مشاة سابقين مثل «ميلش» و«كيسلرينغ» لاستخدامه كمدفعية طائرة فوق ارضْ المعركة. وقد فشل الالمان في ادراك القدرات الاستراتيجية للقوة الجوية ـ كما ادركها «دوهي» في ايطاليا، و«ترينتشار» في بريطانيا، و«ميتشل» في امريكا من قبل ـ وكشف عن خطأ مميت في الذهنية العسكرية الالمانية.

وكما كان الحال في الحرب العالمية الاولى، لم تستطع الاركان العامة تحقيق علاقة طيبة مع سلطة المانيا المدنية، والتي برزت اهميتها بعدما اتضح انها خسرت الحرب. ورغم ان «روشتدت» استطاع في حزيران «يونيو» ١٩٤٤ ان يخاطب «هتلر» ـ عبر «كايتل» ـ بقوله «إعْقد صلحاً، ايها الأحمق!» فان ضباط الاركان، المخلصين لقسم الولاء لـ «هتلر»، تركوا «هتلر» يتابع توجيه دقّة الحكم حتى اضحت البلد قاطبة في قبضة قوات العدو.

واشار النقاد كذلك الى نقطة اخرى هامة يقارن فيها بين الاركان العامة الالمانية وبين آلة قيادة الحلفاء في الحرب العالمية الثانية. فبعد انهيار فرنسا في منتصف ١٩٤٠، حظي الألمان بفرصة ذهبية لغزو بريطانيا. ورغم انهم كانوا يملكون خطة ـ عملية اسد البحر ـ فانهم عجزوا عن تنفيذها الى النهاية. أما الحلفاء، فانهم لم يفلحوا على الساحل الفرنسي في العام ١٩٤٤ فحسب، بل انهم نفذوا عدة عمليات برمائية ناجحة في جبهات اوسع نطاقاً وانتشاراً من الجبهات التي ركز الالمان عليها اهتمامهم.

واخيراً، وعلى ضوء نتائج المعارك في الحربين العالميتين الأولى والثانية، يمكن التساؤ ل حول اسس القول بأن القادة الألمان كانوا افضل من مناوئيهم. فالموهبة في الواقع لا تعترف بالهوية، ويعزز هذا القول ذكر اسماء مثل «فوش» و«بيرشينغ» و«اللنبي»، و«سليم» و«مونتغومري» و«الاسكندر» و«لوكريك» و de Lattre de Tassighy، و«جوكوف» و«كونييف» و«مارشال» و«ايزنهاور» و«ماك آرثر» و«برادلي»، و«باتون»، ولو ان الالمان قاموا بدراسة الحرب والاعداد لها، لملكوا المبادرة وتفوقوا على خصومهم الذين كانوا اقل استعداداً في مستهل الحرب، لكن ما ان عبأ هؤلاء الخصوم كل قوتهم، حتى فقَد الالمان ميزة المبادأة التي تحلوا بها بصورة مؤقتة.

من هنا فان النجاحات العسكرية التي حققتها بروسيا ـ المانيا ارتكزت على مرحلة عابرة من الهيمنة التقنية في الحرب. فالفشل الذريع الذي مني به الجهاز العسكري الالماني في خلال الحربين جاء نتيجة التقيد بالاختصاص ـ خلافاً لاجهزة الحلفاء العسكرية..

تقييم متوازن

من المفيد إيلاء الاهتمام الى الاخفاقات الالمانية ولنجاحات العدو المتعددة على القوات العسكرية الالمانية، ولو لمجرد التزوُّد برسم منظوريّ لأهداف «شارنهورست» واتباعه المصلحين، ولأي مدى وفت هذه الاهداف بالمطلوب او لمْ تفِ لدى الجيوش البروسية ـ الالمانية الاخيرة.

فقد لحظ المصلحون في حملتي «فرايدلاند» و«يينا» برهاناً دامغاً على ان هيمنة بروسيا العسكرية السابقة في اوروبا قد كانت مؤقتة عابرة، وانه لم يكن للبروسيين مزايا عسكرية تَبَزُّ مزايا الفرنسيين او السوفييت، وان التقليد العسكري لم يكن ليعني شيئاً في حال القاء تبعاته على كواهل قادة عاجزين أو قادة غير عسكريين، وان عهد الجهود الملكية الخاصة قد ولى الى الابد.

ومن هنا، كانت الاصلاحات التي قاموا بتأطيرها، وعمد خلفاؤ هم كرؤساء اركان بتهذيبها وتخليدها مبنية على فرضية ان البروسيين، جنوداً وقادة، كانوا عرضة لعوارض الضعف في الجسد والعقل شأنهم شأن اعدائهم في الحاضر والمستقبل. وكان حلهم لمسألة امن بروسيا في هذا الحال، بتأسيس نظام من شأنه تسخير مصادر القوة والطاقات الانسانية الطبيعية من ناحية، وتحجيم نقاط الضعف البشرية للفرد البروسي العادي؛ وهي نقاط كانوا يعونها تمام الوعي.

ورغم افتخار البروسيين الشديد ببروسيا وبمآثرها العسكرية، فانهم لم يأخذوا بالاوهام الموحية بأن أي نظام يستطيع القضاء على الخطايا البشرية او خلق بشر متفوقين. ومع اخذ كل ذلك بالاعتبار، فليس ثمة من طريق لتقييم المدى الذي بلغه المصلحون في تأطير القدرة العسكرية افضل من استعراض الاخفاقات البروسية ـ الالمانية المتتالية في ظل هذا النظام المؤطر. فلنستعرضها بالتالي:

لقد كانت الخسائر الالمانية في جيب «فاليز ـ ارجنتون» مادية محضة. اذ فقدوا حوالى ١٠ آلاف قتيل و٣٠ الف جريح على الأقل، وحوالى ٥٠ الف اسير، وبلغت اصابات الحلفاء في العمليات نفسها حوالى ٤٠ الفاً. ورغم فداحة خسائر الحلفاء فانها لم تثنهم عن مطاردة الالمان المهزومين ابان واحدة من اعظم انجازات الاسلحة البريطانية والاميركية.

ويؤكد العسكريون الالمان في مذكرات ما بعد الحرب ان الجيب في «فاليز ـ ارجنتون» ما كان ليظهر لو لم يأمر «هتلر» جنرالاته ليس بالتصدّي والقتال من مواقع متعذّر الدفاع عنها فحسب، بل دفعهم عملياً الى ايقاع انفسهم في الفخ عن طريق الهجوم المضاد، وقد يصح ما يؤكده العسكريون الالمان، ولكن على ضوء هدف «شارنهورست»، فمن الأجدى ان نرى كيف تصرف الالمان عندما اساء قادتهم المدنيون استخدامهم. فقد كانت هناك قوات المانية، تناهز ٢٠٠ الف محارب مطوقة عملياً في وسط النورماندي من قبل مشاة من الحلفاء قارب مجموعها المليون جندي. وكانت القوات الالمانية هذه تحت رحمة إغارات جوية متواصلة، قامت بها قوات جوية تكتيكية لم يسبق لها مثيل من حيث القوة. واللافت للنظر بخصوص الجيب هذا هو ان الالمان الذين الفوا انفسهم في هذا الموقف بغض النظر عن الاسباب، شقوا طريقهم وانقذوا ما يزيد عن نصف القوات التي كان من المقدر فقدانها لو كان الحلفاء لا يقلون عنهم حنكة ويقظة. ومن هذا المنطلق استطاع الالمان كسر الطوق الاميركي ـ البريطاني المحيق بهم، رغم هزيمتهم.

وفي تونس كان بين قوات المحور التي استسلمت للحلفاءالمنتصرين في ايار (مايو) ١٩٤٣ حوالى ١٠٠ الف الماني. ومن الصعب، نوعاً ما، فهم سبب اعتبار ذلك نقطة سوداء في تاريخ الالمان ما دام انهم كانوا بين خياري الاستسلام امام القوة الساحقة او التعرض للإبادة المجانية ـ شأنهم في ذلك شأن الاميركيين في «باتان» و«كاريغادور» او البريطانيين في «سنغافورة». فقد صمدوا امام قوات الحلفاء الاكثر عدداً طوال ستة اشهر، رغم ان الحلفاء كانوا في بداية الحملة اقرب الى هدفهم النهائي (تونس) مما كان عليه الالمان. ذلكم هم الالمان انفسهم، الذين قيّم إنجازاتهم في شمال افريقيا

ضابط بريطاني، وملؤه الحسرة، في مذكراته عن «الدروس المريرة» في خلال الحملة هذه:

لا شك ان الالمان كجنود، على شتى المستويات، كانوا جنوداً محترفين اكثر من البريطانيين. فإلمامهم بالاسلحة المتيسرة لديهم وحسن استخدامهم لها اظهرهم كمتفوقين.. كانوا جنوداً اشداء مَهَرَة، انضباطيين ذوي شكيمة لا تلين... وصلوا الى مستوى لم يتبوأه الا قلة من البريطانيين في نادر الاحوال، لكن نسبة كبيرة من قوات الجيش الثامن فاتها إحرازه[١].

وثمة مبرر وجيه لسبب عدم قيام الالمان بارجاع البريطانيين والاميركيين حتى البحر في «ساليرنو» و«انزيو» و«النورماندي»، فقد كانت قوة الحلفاء العسكرية من العظم بحيث لم يكن الالمان قادرين على مضاهاتهم. وقد ورد في احد المنشورات الاميركية مثالان مختلفان يُستشهد بهما ـ احدهما على مستوى استراتيجي كبير، والآخر على ادنى مستوى تكتيكي ممكن ـ يستعرضان تأثير هذا التفوق المادي. فلقد اوردت مجلة «التايمز» في عددها الصادر في ٥/٤/١٩٧٦ نبأ وفاة الفيلد مارشال البريطاني «مونتغومري»، وعلقت على انتصاره الرائع في العلمين قائلة:

«كان تحت امرة «مونتغومري» ابان هجومه المدروس في ٢٣/ ١٠/١٩٤٢ ٢٣٠ الف مقاتل و١١٠٠ دبابة مقابل قوة «رومل» التي كان قوامها ٨٠ الف مقاتل و٢٦٠ دبابة. وعندما انتهت المعركة كانت الخسائر البريطانية ثلاثة اضعاف خسائر العدو». ومع ذلك كان «مونتغومري» فخوراً بانتصاره المكلف الى درجة انه اطلق على نفسه لقب «فيكونت العلمين».

ويستشهد «ستيوارت هـ. لوري» S.H. Loory في آخر كتاب له بكلمات للعقيد المتقاعد في الجيش الاميركي «ديفيد هـ. هاكورث» الذي تحدث عما تعلمه حول البراعة الألمانية القتالية:

«لا يغيب عن بالي الملازم اول الالماني الذي أُسر، وكلفت انا بحراسته في معسكر لاسرى الحرب في العام ١٩٤٦، فقد كان فظ الطلعة، وكنت فتى يافعاً ذا وجه طافح بالبثور. وكان يحسن النطق بالانكليزية مما جعلني

(١) Michael Carver, *Tobruk* (London: 1964), p. 255.

اتعمد مضايقته بقولي: «حسناً، ما دمتم شديدي البأس وذوي قوة خارقة، فكيف تفسر كونك اسيراً الآن وتحت حراستي»؟ فأجاب وهو يتفرس بي: «حسناً، سأقول لك: كنت على هذه التلة كقائد بطارية من ستة مدافع م/د من عيار ٨٨ ملم. وكان الاميركيون ما ينفكون يرسلون دبابات على طول هذا الطريق. وكنا كلما ارسل الاميركيون دبابة ندمرها، ولكن ذخيرتنا نفدت ولم تنفد دبابات الاميركيين. هذه هي الحقيقة بإيجاز»[٢].

وليس أدل على ما كان بمقدور الالمان فعله في ظل ظروف صعبة كان الحلفاء في خلالها يملكون عنصري المفاجأة والتفوق العددي مما جرى بعد عام، ابان عمله «ارنهم - ينجمين» (ايلول - سبتمبر ١٩٤٤) المعروفة بالاسم الرمزي «ماركت غاردن» Market Garden. فقد استطاع الالمان دحر الحلفاء (رغم رجحان الميزان العددي ضدهم).

والدليل حاسم في الواقع، انطلاقاً من حقيقة ان الجنود الالمان واصلوا القتال بمهارة وثبات ابان الحرب العالمية الثانية، رغم ان عالمهم كان ينهار من حولهم، ذلك انهم كانوا يعللون النفس بوجود امكانية المقاومة المجدية. وقد علق عالمان من علماء النفس الاميركيين كانا قد خدما في قسم الحرب النفسية التابع لمقر قيادة الجنرال ايزنهاور، على رباطة الجأش العسكرية عند الألمان بما يلي:

«مع ان الجيش الالماني كان اقل عدداً، وبالمعنى الاستراتيجي، ادنى كمّاً في العتاد، فقد ظل يحتفظ على كل الجبهات، بدرجة عالية من التماسك التنظيمي والفعالية القتالية عبْرَ سلسلة من التراجعات المتواصلة تقريباً لفترة دامت عدة سنوات. وفي المرحلة النهائية، انفرطت الجيوش الالمانية الى قطاعات منفصلة، ودحرت بقاياها مع انقطاع خطوط الاتصال والقيادة الرئيسة. ومع ذلك استمرت المقاومة، التي كانت اكثر من رمزية لدى معظم الفرق الى ان تم القضاء عليها بطريقة حالت دون تمكن الكتائب والسرايا من العمل بشكل متماسك بسبب انقطاع خطوط الاتصال. ولم يكن التفكك الناجم عن حالات الفرار ملفتاً للنظر، في حين بقي

(٢) Stuart H. Loory, *Defeated: Inside American's Military Machine* (New York), p. 39.

الاستسلام الفعلي، افراداً ومجموعات محدوداً جداً اثناء الحملة الغربية كلها»[٣].

ان الفشل الالماني في الاستيلاء على لينينغراد مثال آخر على رحابة مسرح العمليات في الحرب العالمية الثانية حيث المدّ الالماني فاق قبضتها وسيطرتها. فكما في ستالينغراد جوبهوا بعدو اكثر عدداً واشد ضراوة وعزماً، كما اعوزتهم الموارد لانجاز المهمة. هذا، بالطبع، اتهام آخر يوجه للاستراتيجية الالمانية واهدافها الاستراتيجية. بيد ان المؤرخ الموضوعي لا يملك من جديد الا ان يعتمد التعليل الوارد في المذكرات العسكرية الالمانية التي وضعت بعد الحرب: لو لم يتحكّم «هتلر» بالاركان العامة بإصداره اوامر لشن هجومات موزعة رعناء، لما وقعت الكوارث تلك.

وأما فيما يتعلق بتعافي الجيش الالماني من كوارث منتصف العام ١٩٤٤ فمن الصعوبة بمكان ايجاد مآثر عسكرية اخرى اجدر بأن تطلق عليها صفة «أعجوبة». فانطلاقاً من ان التفسير **الأولي** هو تفسير واقعي نسبياً لم يكن الالمان هم الذين صنعوا الأعجوبة، وإنما الحلفاء الذين منح حذرهم المفرط وتثاقلهم الالمان فرصة النهوض من كبوتهم ومع ذلك فنادراً ما استطاعت جيوش مهزومة كلياً النهوض على هذا النحو المدهش في اول فرصة سانحة. ولا يذكر مثال تاريخي مشابه.

ولا جدال في ان «البرت شبيير» يستحق الثناء لدوره في حدوث «الاعجوبة» التي امنت المعدات التي استخدمتها الجيوش الالمانية المتعاقبة في هجومها المضاد الباهر في كانون الاول (ديسمبر). ولكن يجدر التيقن بأنه لم يفعل سوى وضع مفاهيم الانتاج وخططه التي سبق للاركان العامة ان رفعت توصية بها وقام «هتلر» باهمالها موضع التنفيذ. وفي الحقيقة لم يكن لأعجوبة «شبيير» حظ من النجاح دون التعاون الوثيق الذي ابداه وليد الاركان العامة الالمانية الجنرال «فريتس فروم».

ان القاء اللوم على هيئة الاركان الالمانية العامة لعدم كفاءة

(٣) Edward A. Shils and Morris Janowitz, «Cohesion and Disintegration in the Wehrmacht in World War II,» *The Public Opinion Quarterly*, Vol. 12, No. 2 (Summer, 1948), p. 280.

الجيوش النمساوية والتركية والبلجيكية ابان الحرب العالمية الثانية يقلل من البراعة الالمانية في حسن استخدام جنود منخفضي المستوى في حرب ائتلافية. كما ان انتقاد الالمان على فشلهم في تنسيق استراتيجيتهم مع اليابان في الحرب العالمية الثانية لا يقل واقعية عن القاء اللوم على رؤساء اركان الحلفاء مجتمعين لفشلهم في تنسيق استراتيجي مع السوفييت. فكما ان رقصة التانغو تحتاج الى راقصين اثنين، فان التعاون يحتاج الى فريقين.

ولقد فشلت المانيا في الاعداد لحرب طويلة مرتين، لكن، في كلتا الحالتين، بمجرد ما اتّضح للالمان بأنهم يخوضون الحرب الطويلة، كانت لقيادتهم العسكرية تصورات اكثر واقعية، لما يجب عمله، مما كان لعناصر اخرى في المجتمع الالماني. من هذا المنطلق لم يكن تخطيطهم بعيد المدى - تمييزاً له عن مكنون قدرتهم على صنع الحرب - .

وقد طرحت الانتقادات حول خطة «شليفن» مستوى ادنى من تخطيط الحلفاء على بساط البحث في غير مكان. ولكن ان ننسب القرار البريطاني في دخول الحرب الى خطة «شليفن»، فذلك امر غير واقعي؛ اذ كان الالمان يعلمون ان البريطانيين والفرنسيين حلفاء، وان دخول بريطانيا الحرب امر مسلم به. وكان الاندفاع المخطط له عبر هولندا، او في قسم منه على الأقل مصمماً للتقليل من تأثير اشتراك بريطانيا في القتال.

بيد ان هناك مصداقية اعمق للتوكيد القائل بأن الاركان العامة الالمانية قللت من اهمية القوى البحرية والطاقة العسكرية لدى الولايات المتحدة. وقد كانت موافقة «هندنبرغ - لودندورف» على شن حرب غواصات غير مقيدة غلطة كبيرة - مع ان حملة الغواصات كانت قريبة من النجاح. غير ان العلة الاساسية لهذه الغلطة تكمن في عيب آخر في الاركان العامة - وهو اخفاقها في إقامة علاقة مُرضية مع السلطة الحكومية المدنية. هذه كانت بالطبع الخطيئة المميتة في جهاز الاركان العامة، الذي اولي اهتماماً كبيراً في صفحات سابقة من هذا الكتاب، ذلك الجهاز الذي عجز «شارنهورست» والمصلحون عن انشائه على نحو يجعل الجيش يستجيب لارادة الشعب او ارادة ممثليه في الحكومة.

وبالنسبة لاخفاقات حملة «المارن»، فان تبينها ممكن بمجرد استعادة الاحداث الماضية والتأمل فيها. فقد كان هنالك جنرال مجبول بالانسانية، ذو شكوك حول قدراته. وكان هذا الجنرال قد اختير من قبل الامبراطور خلافاً لتوصيات رئيس الاركان الاسبق؛ ففشل إبان الازمات الحادة. ولا اساس للانتقادات الموجهة الى مهمة «هنيتش»؛ فقد تصرف «هنيتش» وفقا لحيثيات النظام، واتخذ القرارات الصائبة بشأنها، وباسم رئيس الاركان. وقد عمل النظام على نحو جيد، رغم الفشل السابق الذي مني به رئيس الاركان، وكان ذلك احد الاسباب التي حالت دون تحول الهزيمة الى كارثة. ولو سارت الامور في وجهة اخرى - وهو ما كاد ان يحصل - لوُجه اللوم المقذع الى «جوفر»، بصرف النظر عن وجود مبررات لهذا اللوم او عدم وجودها.

ولا جدال في ان للانتقادات الموجهة الى انتظام السلوك الالماني اسساً، ولكن بمقدورنا توجيه انتقادات مماثلة لليابانيين - بل هذا ما فعلناه، ومذكرات الالمان حافلة بانتقادات مماثلة حول اعدائهم - بما فيهم نحن -. ومثل هذه الانتقادات لا تستطيع - بغض النظر عن اسسها - نكران حقيقة ان الالمان المنهجيين بزّوا اعداءهم بشكل دائم في مجالي الابتكار والارتجال العسكريين.

ومن اكثر الانتقادات العسكرية المبررة التي وجهت الى المانيا في الحرب العالمية الثانية إغفالها القوة الجوية الاستراتيجية، علماً بأن هناك كثيراً من الاميركيين يعتقدون ان تركيزنا على القوة الجوية الاستراتيجية فتح بعض الثغرات الخطيرة في مجال الدعم الجوي التكتيكي البريطاني والاميركي، وقد كان الالمان بلا شك، على خطأ نوعاً ما، لكنّ مشكلتهم كانت - كمشكلة الاميركيين - توزيع الموارد فآثروا ان يحققوا تكاملاً امثل بين القوات العسكرية البرية - الجوية ومذاهبها.

وكان الاخفاق الاكبر الذي منيت به الاركان العامة الاكبر في الحرب العالمية الثانية سوء تقديرها المفرط الى حد الكارثة لقوة السوفييت، فلو ان «هتلر» عامل الروس البيض والأوكرانيين كشعب متحرر لا كعبيد، ولو انه لم يتدخل بالتخطيط العسكري في خلال صَيْفي ١٩٤١ و١٩٤٢، لجاءت

النتيجة مغايرة تماماً، لكن نظرته، بلا شك، كانت واقعة تحت تأثير آراء الاركان العامة البالغة التفاؤ ل كالتي عبّر عنها «هالدر» في مفكرته بعد بدء الحملة باثني عشر يوماً: «لقد ربحنا الحرب، وعلينا انهاؤ ها فقط...» ولا يشرف الاركان الالمانية في ان تقديرهم للطاقات السوفييتية العسكرية لم يكن احسن من تقدير الاركان في بريطانيا او فرنسا او الولايات المتحدة.

ان التساؤ ل حول ما اذا كان بمقدور الاركان العامة لعب دور اكبر في اطاحة «هتلر»، او ما اذا كان من واجبها ذلك، امر قابل للنقاش.

ونوقشت هذه المسألة بإسهاب على صفحات سابقة لاظهار مدى صعوبة الاجابة عليها بوضوح. ويأخذ بناصية هذه المسألة التساؤ ل حول ما كان يتوجب على الجنرالات الالمان والاركان العامة عمله إزاء الوحشية النازية في بولونيا والاتحاد السوفييتي خاصة حيال فظائع حملة الابادة ضد اليهود. هل ياترى كان الضباط الاميركيون أو البريطانيون سيتصرفون خلافاً لذلك في ظل ظروف مماثلة؟ علينا ان نأمل ذلك.

ومن ناحية اخرى، ليس انتقاد الاركان العامة الالمانية لفشلها في تطوير قدراتها في العمليات البرمائية ازاء الحلفاء عملاً بناء الى حد ما. فبالحقيقة، تبدو خطتهم للعملية البرمائية الرئيسية والوحيدة في مواجهة عملية «أسد البحر»، انها كانت خطة سليمةً ووافية. ولكن العمليات البرمائية التي قام بها الحلفاء كانت تعتمد على السيطرة على الجو والبحر. وكان من الجرأة والابداع الى درجة كافية لتطوير خطة ناجحة لو انهم استطاعوا السيطرة على الجو بصورة مؤقتة، وهذا ما لم يستطع سلاح الجو الالماني تحقيقه ـ ولم يكن بمقدوره تحقيقه حتى ولو جرى اعداده للحرب الجوية الاستراتيجية ـ لذا لم تجرّب الخطة اطلاقاً.

اما من حيث المقارنات القائمة على مقارنة القائد ـ بالقائد، نداً بندٍّ، فنراها بدورها مقارنات غير مجدية جداً. ومن الممكن طبعاً إعداد لوائح طويلة بأسماء جنرالات الحلفاء الأكفاء، كما يمكن ايضاً اعداد لوائح طويلة تندرج فيها امثلة على إخفاقات قيادات الحلفاء او ترددها او ارتباكها والمقارنة على صعيد مجموعات الجيوش والجيوش والفيالق والفرق وعند القيام

بالاعداد تكشف لنا مقارنة الند للند ـ سواء على صعيد تظهر في كل حرب ان القادة الالمان الاكفاء والمجربين والناجحين على كل مستوى اكثر عدداً من مجموع قادة اعدائهم وحلفائهم. ومع ان الحلفاء لم يكونوا يحتكرون حالات الوقوع في الاخطاء او الارتباك او التردد، فان قائمة اخطاء الالمان اقصر بكثير من قائمة الحلفاء. ولم يكن بمقدور اي دارس للحرب الحديثة او متمرس بها وبصورة جدية ورسمية ان يقوم باجراء مقارنة بين القوات الالمانية وبين اعدائها على اي صعيد كان ما عدا المقارنات المأخوذة عن «تشرشل» و«كارفر» و«روسي» وغيرهم ، والتي تشهد على تفوق الالمان الكبير في ميدان القتال. وقد نميل الى التفكير ان هذه المزايا الناجمة عن اعداد ابكر وافضل قد انخفض مستواها بعد ان عبأ الحلفاء قواهم وتكيفوا مع ظروف المعارك بسرعة، ولكن الوقائع تبين ان هذا التفكير غير صحيح. فالالمان احتفظوا بتفوقهم على ارض المعركة في خلال الحربين حتى النهاية، رغم تأثيرات الاستنزاف والانهاك الحربي.

ولقد لَحَظ باحثان مجندان امريكيان هذه الظاهرة، وعلقا بقولهما:

> **«رغم الكوارث المتكررة ظل الجيش الالماني متماسكاً الى درجة انه بقي يقاتل بفاعلية الى ان دُحر. ويعزى التماسك الالماني على ارض المعركة مباشرة الى تقدير الجندي لضباطه المباشرين ولِصف ضباطه كرجال شرفاء، جديرين بالاحترام الفائق، ويعنون من جهتهم بجنودهم. وقد اختير ضباط الجيش الالماني بدقة، وهم عملياً ذوو ثقافة تفوق ثقافة الالماني العادي. زِدْ على ذلك ان رقي مقاييس اختيار الضباط الالمان ظل يعمل بها طيلة فترة الحرب.. ويمكن عَزو مزايا الجيش الالماني القتالية الى مزايا قيادته الى حد بعيد... فالمثال التاريخي الالماني في غضون الحرب العالمية الثانية يبرز كواحد من مظاهر الاحتراف والتماسك العسكريين[٤].**

---

(٤) Paul L. Savage and Richard A. Gabriel, «Cohesion and Disintegration in the American Army,» *Armed Forces and Society,* Vol. II, No. 3 (Spring, 1976), p. 40. This thoughtful, carefully researched article makes a distressingly powerful argument that the American Army «disintegrated» in Vietnam and in the process compares that Army and its leadership most unfavorably to the performance of the German Army and its leaders in World War II.

سرد كتابان واسعا الانتشار، في منتصف السبعينات، قصة النجاح البريطاني (المعزز بمساعدة اميركية كبيرة) في الكشف عن اشد الشيفرات الالمانية سريةً في الحرب العالمية الثانية[٥]. وقد كانت نتيجة ذلك النجاح تنبه استخبارات الحلفاء وقادة الحرب البريطانيين والاميركيين وكبار قادة الميدان الى محتويات خطط الالمان العملياتية تكتماً. ومن الصعب تقدير مقدار هذه المقّدرة بالنسبة للحلفاء، لكن من المؤكد انها كانت قيّمة للغاية. وكما نوّه المؤلفان بجلاء ان هذه القدرة على «قراءة البريد الألماني» في مناسبات شتى عنت الفرق بين انتصار الحلفاء وهزيمتهم، ومما لا شك فيه كان لذلك تأثير هام على النتيجة النهائية للحرب.

ويتبادر الى الذهن فوراً ملاحظتان: «من حسن حظ الحلفاء انهم كانوا يتمتعون بهذا التفوق التقني والتكنولوجي الاساسي على الألمان ـ كتفوقهم في حقل الانتاج الصناعي الحربي ـ كي يواجهوا التفوق القتالي الالماني. وفي الوقت عينه منحت حقيقة التفوق في الاستخبارات معلومات حديثة وموثوقة حول آخر الخطط العسكرية الألمانية. فكم كان لافتا للنظر قدرتهم على اداء مهامهم في ارض المعركة اداء جيداً رغم انهم اضاعوا معظم فرص المباغتة، في الوقت الذي كان الحلفاء قادرين على وضع الخطط والاستعدادات لكل عملية عسكرية المانية هامة[*].

من المسلم به عموماً ان «نابليون» «وهانيبال» كانا عبقريين في فن الحرب. وقد كان لكليهما هفواته كبشر، وكانت هفواتهما في كل مرة تسهم في ايقاع الهزيمة بهما على ايدي اعداء اكثر عدداً واشد قوة. ولكن ليس هناك سوى القليل من المؤرخين المحترمين، او النقاد العسكريين الذين قد يقولون بانهما ليسا عبقريين لانهما هزما في النهاية، او ان اخصامهما المظفرين كانوا قادة افضل منهما.

وفي الحقيقة ان «بلوشر» و«ولينغتون» اعترفا بصراحة بقدرة «نابليون»

(٥) F. W. Winterbottom, *The Ultra Secret* (New York: 1974), and Anthony Cave Brown, *Bodyguard of Lies* (New York: 1976).

(*) الاستثناء الهام الوحيد في هذا المجال هجوم الالمان على الأردين في كانون الاول ١٩٤٢، حيث بدا ان تفاصيل العملية لم يجر نقلها عبر أجهزة الاتصال اللاسلكي.

الخارقة، وان «سيبو» الافريقي عبر بطريقة غير مباشرة على الاقل عن تقديره لعبقرية «هانيبال».

لقد كانت هيئة الاركان العامة الالمانية مؤسسة عناصرها من البشر، وكان لها ما للبشر من هنات ونقاط ضعف اسهمت ولو جزئياً على الأقل، في الحاقِ هزيمتين كبيرتين بها في خلال هذا القرن. ومع ذلك فان اداء الاركان العامة والجيش الذي بنته في كلتا الحربين المشؤومتين يمكن مقارنته على صعيد التفوق العسكري باداء «نابليون» و«هانيبال» وهما في اوجهما. ولعله من هذا المنطلق لا نغالي اذا قلنا ان الاركان العامة الالمانية قد افلحت ابان سعيها لتأطير التفوق في الشؤون العسكرية ضمن مؤسسة في تأطير العبقرية العسكرية نفسها.

الفصل السابع عشر: تأطير التفوق في مؤسسة

ما سبب قدرة «المانيا» في مطلع القرن العشرين على انجاب العديد من القادة امثال «هندنبرغ»، و«لودندورف»، و«هوتيير»، و«هوفمان»، و«شيفر - بويادل»، و«كيسلرينغ»، و«مانشتاين»، و«مودل»، و«رومل»، و«شتودنت»، و«زيغر أوند اترلين»؟ ولماذا أبلى صغار القادة والجنود الالمان بلاء حسناً في ظل قيادة كهذه في حربين عالميتين؟ ولماذا اوقعوا في صفوفنا اصابات اكثر مما اوقعنا في صفوفهم؟ ولِمَ كان هذا التفوق القتالي الالماني يتميز دوماً بمخيلة اعظم ومبادرة أجرأ - على كل المستويات من القمة حتى القاعدة - عكس ما نراه في الافلام الاميركية وبرامج التلفزيون؟

يبدو ان هناك خمسة تفسيرات فرضية ممكنة:

١) تفوق الدم الالماني المعزز لفكرة «هتلر» «العرق السيد».

٢) الالمان يتكيفون بالفطرة مع الحياة العسكرية وصناعة الحرب، لدرجة اعلى من تكيف ابناء القوميات الاخرى.

٣) حارب الالمان ببأس اشد واستماتة اكبر مما حارب الحلفاء لانهم كانوا يواجهون الهزيمة وخطر غزو وطنهم إبان الحربين.

٤) تاريخياً، اوجدت الحضارة الالمانية مجتمعاً يشجع الفعالية المنهجية والتقليد العسكري، ويستقطب خيرة عقولهم وامكاناتهم.

٥) اوجد الالمان مؤسسات عسكرية تفوق ما اوجدته البلدان الاخرى كماً ونوعاً.

لأعالج كلًا من هذه التفسيرات بإيجاز.

ليس هناك برهان علمي يؤيد الجزم القائل بتفوق العرق الالماني. ويشير علماء الوراثة الى ان لا عرق المانياً قائم بذاته بين الاعراق. وان الشعوب الآرية او الشعوب الهندية ـ الاوروبية تشتمل على قوميات وصبغات (الوان) تتنافى والمفهوم النازي المصطنع للجرماني الشمالي الاشقر كآري متميز. علاوة على ذلك، فان الجرمان الشماليين ذوي البشرة الشقراء هم اقلية بين الجرمان واذا أنعمنا النظر بصور «هتلر» وغيره من القادة النازيين لا نرى بينهم جرمانياً شمالياً اشقر سوى «غورينغ»، الذي لم تكن صورته توحي بالشيء الكثير.

إن الذين يعرضون هذه الفرضية، يخلطون ما بين التأثيرات الحضارية والبيئية والمميزات الخلقية الفطرية. وهذه هي المغالطة الجوهرية في الفرضية الثانية رغم انها وضعت ودُعمت بأمثلة تاريخية مختارة لتبدو معقولة ظاهرياً. ولكن بالرغم من سجل الخبرة القتالية الالمانية المذهل منذ منتصف القرن التاسع عشر، وبالرغم من بعض الامثلة على التألق العسكري قبل ذلك الحين، فان الاستعراض الموضوعي للسجل التاريخي لا يتطرق الى اي مثال حول قدرة التكيف الالمانية الفريدة مع الشؤون العسكرية قبل مطلع القرن التاسع عشر.

وبالنسبة الى الفرضّية الثانية، فانه من التهور التوكيد على ان لا شيء في الشخصية الالمانية من شأنه ان يجعل الالمان اكثر استعداداً للجندية من الشعوب الباقية. كما وانه من التهور تماماً ان يؤتى بتوكيد معاكس. (ولا يكلف المرء سوى العودة الى سمعة الفرق الالمانية في الفيلق الفدرالي الحادي عشر ابان الحرب الاهلية الاميركية) وهنا اوافق «غوردون كرايغ» القول فيما كتب: «ان تحديد الملامح القومية لشعب ما عمل محفوف

بالمخاطر، وغير مضمون النتائج في احسن الاحوال، وان الافكار المرتكزة على مثل هذا العمل عرضة لان تفقد مصداقيتها» وهذه الفرضية لا يمكن إثباتها.

ويجرنا هذا الى الفرضية القائلة بأن الاداء الالماني في الحربين العالميتين كان لافتا لان الدفاع عن وطنهم استحث فيهم الهمم الفريدة. ومما لا شك في صحته، ان الاداء الالماني قد سما به توق الالمان الى صون الوطن من الغزو. واذا ما صح ذلك لتفسير تفوقهم، فأنى لنا تعليل حقيقة التفوق الذي ابدوه على الحلفاء عند تقدمهم الى باريس، أو وارسو، او كييف؟ والفرضية هذه لا تجيب عن السؤال.

اما بالنسبة الى الفرضية الرابعة، فالالمان كغيرهم من الشعوب، قد تشكلوا تاريخياً بالمؤثرات الاجتماعية والثقافية والجغرافية منها خاصة، وانعدام وجود الحدود القابلة للدفاع بسهولة قد جعل المانيا ساحة وغى منذ العهد الروماني. والاهتمام بحماية هذه الحدود، كان بالطبع عاملاً هاماً في قضايا المانيا العسكرية طوال القرنين الماضيين ونيف. وقد كان هذا الاهتمام ايضاً ذا تأثير كبير في حض الشعب على احترام الجيش ودعمه، وعلى حث الشخصيات الالمانية وافضلها على السعي وراء المهن العسكرية. كما كان له دور في جعل المدنيين مهيأين سلفاً للحياة والتعبئة العسكريتين.

ويبدو الشعب الالماني ومنظماته حقاً منهجيين واكفاء، وميالين لاظهار حبهم لروح التنظيم. ومع هذا، فان الكفاية وروح الفوج اللذين اسهما في المقدرة العسكرية الالمانية بدون شك، قد افضيا الى نوع من الحماقة، التي أسفرت عن هزيمة منكرة على يد «نابليون» في «يينا». فضلا عن ان ليس للالمان مرتكز ثقافي معزز للكفاءة. وقد سبق التنويه بان الحلفاء. والبريطانيين على وجه الخصوص، فاقوا الالمان في ميداني الاستخبارات والتجسس المترابطين. وبرغم العبقرية التي سخرها «فروم» و«سيبير» عملياً، فان الشك قائم حول ما اذا كانت ادارة الانتاج الصناعي الالمانية إبان أي من الحربين العالميتين مؤهلة على غرار الادارة في اميركا او المملكة

المتحدة. من هنا، فانه من الواضح بأن الميزات الثقافية لا تؤمن سوى جزء من الاجابة في احسن الاحوال.

وهذا يؤدي بنا الى الفرضية الاخيرة. وهي فرضية ذات ظاهرة من الظواهر التنظيمية، وهي وحدها التي تعطي اجوبة ثابتة عن الاسئلة التي تظهر لدى محاولة ربط التأثير الثقافي بالاداء العسكري الالماني. والمنظمة المسؤولة عن هذه الظاهرة هي بالطبع، هيئة الاركان البروسية، التي اصبحت فيما بعد هيئة الاركان العامة الالمانية.

ان التفسير الجوهري للقدرة القتالية الالمانية ولنوعية قوتها العسكرية، كما ظهرتا في الحربين العالميتين، يكمن في تنظيم هيئة الاركان البروسية/الالمانية وعملها. ففي التاريخ العسكري، لا نلقى الاداء الثابت والمقارن باداء الجيوش الالمانية في الحربين العالميتين، الا في الجيوش التي قادها عباقرة عسكريون امثال «الاسكندر» و«هانيبال» و«يوليوس قيصر» و«غوستافوس ادولفوس» و«جنكيز خان»، و«نابليون»، ومثل هذه المقارنة توحي تلقائيا بان الالمان قد جعلوا التفوق العسكري في مؤسسة من خلال هيئة الاركان العامة.

وهنا نجد حل الجواب عن السؤال حول سببية وكيفية بلاء الالمان في الحرب. فقد استوعب قائدا الفيلق والفرقة في الجيش البروسي، في خلال عامي ١٨١٤ و١٨١٥، المبادىء العسكرية، ولكن لم يكن بوسع «غنايزناو» و«بلوخر» الاطمئنان الى الاداء الملتزم بتلك المبادىء، ما لم يتم ذلك تحت اشرافهما المباشر. وامسى قائدا الفيلق والفرقة بعد نصف قرن، وتحت قيادة «مولتكه» جنديين متفانيين في سبيل التفوق العسكري، لدرجة ان الاداء السليم وفقاً للمبادىء والعقائد السليمة، اصبح طبيعة ثابتة فيهما، وبحيث غدا باستطاعة «مولتكه» الاطمئنان الى ادائهما حيثما كان، هذا النوع المؤكد من الاداء، دل على ما يمكن إعتباره الفارق الابرز بين جيوش المانيا ابان الحربين العالميتين من جهة وبين خصومهما من جهة اخرى. وليس الالمان وحدهم هم الذين فهموا النظرية العسكرية، او حلّلوا التجارب العملياتية الحربية، كما انهم ليسوا من احتكر الكفاءة العسكرية. ولكن الامر الذي

تفردوا فيه هو الاداء المتفوق، والمعوّل عليه بثبات في اوساط الجيش، وفقاً للعقيدة والنظرية.

لم يكن الجنود والقادة البروسيون في العام ١٨١٥ يملكون ما يؤكد بان انسالهم سيكونون جنوداً خارقين، كالذين حاربوا الحلفاء في الحربين العالميتين. كما لم يظهر في الحروب النابليونية ما يوحي بانهم كانوا اجدر بتلك النقلة من البريطانيين او الفرنسيين او الاميركيين، او من الجنود الروس في خلال الحقبة ذاتها، او في القرن العشرين.

وفي خلال القرن الفاصل بين ١٨١٥ و١٩١٤، كان التطور المهني العسكري الهام الوحيد الذي تفردت به بروسيا والمانيا بين بقية البلدان، هو خلق الاركان البروسية (الالمانية فيما بعد) والمميزات الخاصة للجرمانية التي ميزت الاركان العامة تلك عن اركانات البلدان الاخرى المقلدة. وقضية الاحتراف هذه هامة، لان تورط المانيا في الحربين العالميتين، وخسارتها للحربين، كان غير مرتبط بالتنظيم الاحترافي او التعليم، او اداء الاركان العامة الالمانية بأي شكل من الاشكال. فالاركان العامة لم تكن مجرد رمز للكفاءة العسكرية الالمانية، وإنما العلة الأولى لوجودها.

ولقد تعرض عدد من المؤرخين لدور الاركان العامة في السياسة الالمانية بشكل شامل، وكان من ابرز هؤلاء المؤرخين «فالتر غورليتس» و«جون ويلر ـ بينيت»، و«غوردون غرايغ». ويجب الا يُغفل او يُنسى الدور السياسي لمؤسسة يفترض فيها ان تكون بعيدة عن السياسة، ولكن لا علاقة له بالسؤال العسكري الاساسي: **كيف استطاعت الاركان العامة الالمانية خلق جيش من اناس عاديين تمكنوا دوماً من انزال الهزائم بجيوش اخرى قوامها اناس عاديون ايضاً؟**

ان الجزء الاعظم من الجواب، ان لم يكن كله، كامن في النجاح الذي حققت الاركان العامة من خلاله الهدف الاساسي الذي من اجله وُجِدَتْ: تأطير التفوق في مؤسسة وبكلمة اخرى هناك امكانية تلخيص الاسلوب الذي انجزت الاركان العامة هدفها عبره في عشر عبارات متداخلة:

١) الانتقاء.
٢) الامتحان.
٣) التدريب المتخصص.
٤) التوكيد على الدراسة التاريخية.
٥) غرس روح المبادرة.
٦) المسؤولية.
٧) التوجه نحو الكمال التكتيكي التقني.
٨) موضوعية التحليل
٩) التجدد.
١٠) عملية التخمير.

كان ضباط الاركان العامة الالمانية صفوة الجيش، تم اختيارهم بعناية قل نظيرها في اي جيش آخر، ولما كانت التأثيرات الثقافية قد اجتذبت دونما جدل، نسبة هامة من خيرة رجالات المانيا الى الجيش، فان عملية الانتقاء هذه قد منحت الاركان العامة نسبة عالية جداً من المع نوابغ الامة.

كان الامتحان بالضرورة جزءاً اساسياً في عملية الانتقاء، كما كان احد متطلبات الترقية، حتى بين الضباط الذين لم يتم اختيارهم للاركان العامة. فقد تطلبت الامتحانات من كل الضباط ان يدرسوا مهنتهم بجدية، مضيفين بذلك فهماً واداء احترافيين محسّنين في اوساط الجيش كله(*).

وكان التدريب المتخصص، بالطبع، احد عناصر اعداد وتنمية قدرات ضباط الاركان في كافة الجيوش. اما الالمان فقد تميزوا بتعليم مكثف وتدريب عملي ومناورات، لم يحظ بها اي جيش حديث آخر، فيما خلا الجيش السوفييتي، منذ الحرب العالمية الثانية. ومن الجدير بالملاحظة، ان نظام التثقيف والتدريب العسكري السوفييتي الحالي مماثل للنظام الالماني الى حد بعيد.

ولقد علقت الاركان العامة الالمانية اهمية كبيرة على دراسة التاريخ

(*) لقد ذكر بأن اكبر نقاط ضعف جيش الولايات المتحدة، فشله في استخدام الامتحانات كأساس للترقية او لاختيار ضباط الأركان العامة.

العسكري. (وتحضرنا هنا كتابات «كلاوزفيتس» رغم قلة عدد الذين قرأوها) ففي طريقه الى القمة، ترأس المشير «فون مولتكه» قسم التاريخ العسكري في الاركان العامة، وادت به دراساته التاريخية المنشورة الى الاعتراف به كواحد من افضل مؤرخي المانيا، العسكريين منهم والمدنيين. وجعل «شليفن» من دراساته التي يتضمنها كتابه «كاني» اساساً لخطته الشهيرة، التي أسيء فهمها مراراً. ومع ان تنظيم هيئة الاركان قد عُدل على مر السنين، فقد ظل قسم التاريخ جزءاً اساسياً من أجزائه. وقد كتب كثير من ضباط الاركان العامة حول أهمية التاريخ العسكري. ولقد لاحظ معظمهم الخطر في البحث عن الدروس التكتيكية او التقنية الجامدة المستوحاة من الدراسة التاريخية، الا انهم كانوا يؤكدون دائماً على اهمية التاريخ للحصول على اسس نظرية للعلم العسكري، ولتفهم الاداء البشري ابان مختلف أوضاع الصراع.

واذا كان هناك جانب من جوانب الاداء العسكري قد حظي باهتمام اكثر من غيره في الاركان العامة، وفي جميع ميادين التدريب في المانيا، فهو تشجيع المبادرة الفردية. ويلخص هذا الاهتمام المركز الجنرال الاميركي «البرت ودماير» آخر ضابط اميركي درس في الاكاديمية الحربية قبل الحرب العالمية الثانية، بالمفهوم القائل: «عندما يساورك الشك، اهجم»(*) وهذا طبعاً ما فعله «غروناو» لانقاذ الجيش الالماني الاول في «أورك».

وليس هناك من دليل مباشر على كون التركيز العسكري الالماني على المخيلة والمبادرة الفردية وليد جهد واع هادف لتطابق اي ملمح ثقافي الماني تقليدي من ملامح روح الفوج. ولكن اذا لم يكن جهداً واعياً، فلعله كان دافعاً لا واعياً من دوافع منظري الاركان الالمانية. ويتضح نجاح هذه الجهود في تشجيع المبادرة والمخيلة في حقيقة ان الالمان قد تفوقوا في هذا المجال اكثر من اي مجال آخر، وعلى جميع المستويات، إبان الحربين العالميتين.

وكانت المسؤولية، وهي من اسس الاركان العامة، مفهوماً مشابهاً، لا

(*) اثناء مناقشة مع المؤلف.

مطابقاً، للمبادرة. فقد كانت في جانب منها، الرغبة في تحمل المسؤولية المقترنة بالمبادرة، بل انها كانت الادراك بأن كل جندي او ضابط الماني بمثابة درع واق لاخيه الالماني. فاذا ما رأى اي عنصر (جندي أو ضابط) بأن ثمة خللاً ما، شعر بأن مسؤوليته تتطلب تدخله بغض النظر عما قد يواجهه من اخطار جسديّة. وقد نجد في معظم الجيوش، امثلة مماثلة على الالتزام الشخصي ولكن ليس بالمقدار الذي نلحظه في الجيش الالماني. وقد يجد المرء في صفحات التاريخ نزعة معادلة لما سلف في القوة ومعاكسة لها في الهدف. والمعني بالنزعة هذه مجانبة التورط في مشاكل الآخرين.

وكل من طالع وثائق الاركان العامة، لم يملك سوى الاندهاش من موضوعية تحليلات هيئة الاركان وتقديراتها. ولم يصدق هذا عن محاولتهم تحليل اسباب الهزيمة او الفشل فحسب، بل ايضاً في تقديرهم للاداء التقني أو التكتيكي لشعوب اخرى، سواء في حالة السلم ام حالة الحرب، حيث انه لم يكن في الأركان العامة عقدة الاعتراف بالواقع.

لقد تميز الغرض من الاكتمال التقني - التكتيكي بالجهود المتواصلة لتحسين المذهب العسكري والتكتيكات، الى جانب التدريب والاداء العمليين، وحتى الحرب العالمية الأولى لم تتول الاركان العامة مسؤولية التنظيم العام او التدريب في الجيش الالماني، اذ كان هذا واجب وزارة الحربية، التي كانت الاركان مجرد جزء شبه مستقل منها، لكن وزير الحربية كان دائماً ضابطاً برتبة جنرال وعضواً سابقاً في الاركان العامة، ومتأثراً بكل خصائص واهتمامات الاركان العامة. ولا شك ان وزير الحربية كان يولي دراسات الاركان العامة المتعلقة بالتنظيم والتدريب عناية خاصة. وكل من يقول بأن مسؤولية هيئة اركان ما قبل الحرب العالمية الأولى كانت منحصرة في وضع العقيدة والتخطيط دون تطبيق العقيدة عملياً أو وضع التنظيم المؤهل لتنفيذ الخطط، يفوته فهم كيف كان الجهاز العسكري الالماني يعمل بصرف النظر عن مخططات التنظيم. فابتداء من «سيكت»، اصبحت مسؤولية الاركان العامة هذه واضحة بدون لبس.

لقد كان هناك عزم متواصل لدى ضباط الاركان (وليس لدى رؤساء

الاركان وحدهم) لضمان ليس بقاء المؤسسة فحسب، بل وعدم تخلفها عن ركب الزمن ايضاً، بسبب التمسك الاعمى بالتقليد والعادة. فكان التجدد يتم جزئياً بعملية الانتقاء الدقيق، التي كانت تأتي بعقول وقيادة جديدة الى المؤسسة، كما كان يتم بذل الجهود الفعالة المدروسة لتجنب محاذير التقليد والممارسة والعادة وفي الوقت ذاته بتشجيع المعايير السامية بالتركيز الحكيم على التقاليد.

ولقد تمت عملية التخمير بفضل تأثير الاركان العامة بعدة طرق: ففي المقام الاول، اخضع الضباط الذين درسوا في المدارس والكليات ولكنهم فشلوا في تولي مراكز في هيئة الاركان العامة، لقدر كبير من التدريب المتخصص الذي خضع له ضباط الاركان العامة. ثانياً، كانت الصحف العسكرية المتضمنة كتابات ضباط الاركان حول التاريخ العسكري والنظرية العسكرية الحديثة، تقرأ بشغف من قبل الضباط الالمان كلهم، سيما ان سمعة هيئة الاركان قد شجعت هؤلاء الضباط على التكيف مع الافكار والمفاهيم المتجلية فيما قرأوه. ولا شك في ان الجميع قد استفادوا من المناهج التدريبية التي ابتكرتها أو أوحت بها هيئة الاركان العامة، مع التشديد على بلوغ حد الكمال في تنفيذ التدريب القتالي، مقترناً بتشجيع المبادرة. واخيراً كان يناط بضابط او اثنين على الاقل من اركان كل فرقة - وكان عادة آمر الفرقة وضابط عمليات الاركان - وضباط اركان آخرين بتولي مسؤولية مقرات القيادات العملياتية او المناطقية كلها... وكان هؤلاء الضباط يصدرون الاوامر، ويأتون بالأمثلة، ويشرفون على التدريب، ويدلون بتعليقاتهم، كما كانوا يلقون المحاضرات. وكانت هذه العملية في غاية الفعالية، كما بدا في أداء العرفاء بل والمجندين، الى جانب الجنرالات إبان الحربين العالميتين.

لقد حاولت في متن هذا الكتاب، الاشارة، من خلال عملية فحص تاريخي، الى اثر الاركان العامة في المؤسسة العسكرية الالمانية وفي الاداء الالماني إبان الحرب. وفي بعض الحالات، كان ذلك التأثير واضحاً ومباشراً، وفي حالات اخرى غير واضح وغير مباشر. ولا شك في ان هناك المزيد لنتعلمه حول هذا الموضوع. ومع ذلك، يبدو الدليل الراهن كافياً (في

نظري) لدعم الافتراض القائل بأنه كان لدى الاركان الالمانية الكثير مما له علاقة بالتفوق العسكري الالماني في القرنين التاسع عشر والعشرين، اكثر من اي عامل منفرد آخر.

ومن المحتمل ان تواجه هذه الفرضية تحدياً من العسكريين والاساتذة على مختلف المستويات. وقد يتحدى بعض الاميركيين الذين شاركوا في الحرب العالمية الأولى او الحربين العالميتين معاً، المقدمة المنطقية الاولى، ويصرون على ان وحداتهم لم تكن بمستوى خصومها الالمان فحسب، بل انها تفوقت عليها عملياً. ومن الواضح ان مثل هؤلاء المحاربين قد حالفهم الحظ بالخدمة في وحدات ذات فعالية قتالية فاقت فعالية الوحدات الاميركية الاخرى، كما هو مبين في الشكل E—3 من الملحق E. وكانوا اوفر حظاً، على سبيل المثال، من المشير البريطاني «السير مايكل كارفر» في ضوء تعليقاته حول الحرفية الراقية عند الجنود الالمان الذين حارب ضدهم.

ومن الممكن، بالطبع، قبول الدليل على التفوق العسكري الالماني في الحربين العالميتين دونما الاقتناع بأن هذا التفوق كان بفضل الاركان العامة الالمانية، او اية عبقرية او تفوق مؤطر في مؤسسة. وقد يبدو لبعض الناس ان التوكيد الالماني على خصال الجندية، كالشجاعة والقوة والجرأة الرياضية، والالتزام القومي بمفاهيم الانضباط (الضبط والربط)، يهيىء قاعدة للتفوق العسكري الالماني اكثر واقعية مما يهيؤه التوكيد على التعلم من الكتب الموجودة في هذه الفرضية. مثل هذا التحدي قد يؤيد الفكرة القائلة ان الالمان كانوا محاربين جيدين بفضل مزاياهم العسكرية وبفضل ثقافتهم.

يجدر ان نتذكر المزايا العسكرية (التفاني في سبيل الواجب، والشهامة، والاستخفاف بالخطر والموت) لم تكن حكراً على الالمان، وانما حفلت بها السجلات الاميركية والبريطانية والسوفييتية بالوفرة التي حفلت بها سجلات الجيش الالماني. وتبرهن سجلات الجيوش ايضاً، ان الاكتساب الفكري يمكن ان يقترن بمزايا الجندية في هذه الجيوش، كما هي الحال في الجيوش الالمانية. والحقيقة ان معظم القادة اللامعين في هذه الجيوش قد جمعوا بين هذه المزايا. ويكمن الفرق، على كلٍ، في الاسلوب الذي نشد

الالمان به جمع هذه المزايا جمعاً منسقاً ومدروساً، حيث لم يكن يتم اختيار الضابط الالماني للعمل في الأركان العامة قبل أن يبدي حيوية وشجاعة وشخصية قوية، الى جانب الذكاء الذي يتعدى المعدل. وكانت ميزة الجيش الالماني الفريدة جهوده المنظمة الرامية الى خلق جنود من الدرجة الأولى وأساتذة ذوي تفكير مستقل من كل رجل برهن على مقدرة في جمع هذه المزايا في شخصه.

ينظر الى الشخصية المفكرة، في معظم الجيوش، بعين الريبة والعداء. فهو رمز للتحدي المعهود للسلطة وخط الحزب. وقد وجد مثل هذا الموقف الطبيعي في الجيش الالماني ايضاً، ولكن كان يوازنها من ناحية اخرى جهود الاركان الالمانية المتعمدة والهادفة الى تشجيع المفكرين ومكافأتهم.

وبالنسبة الى محاسن الانضباط (الضبط والربط) العسكرية، فقد استوعبها الجنود الألمان إبان الحربين العالميتين استيعاباً جيداً. ولكن لم يغرب عن بالهم هذه الميزات، يجب ان يحدها الذكاء ويضبطها الادراك، بل وضعوا نصب اعينهم عبارة الامير «فريدريك تشارلز» لرائد في الجيش: «ان صاحب الجلالة جعل منك رائداً ظناً منه انك تعرف متى تخرج على طاعته». لكن «هتلر» اغفل في الحرب العالمية الثانية حكمة الامير هذه، كما اغفلها جنرالاته الذين تكيفوا مع صرامة «هتلر». فكانت النتيجة سلسلة من أسوأ هزائم المانيا.

قد يتخذ بعض الالمان، بل وبعض ضباط الاركان العامة، من مسألة عدم اطاعة الاوامر ركيزة للتساؤل فيما اذا كان من الواجب اعادة مسؤولية التفوق العسكري الى الاركان العامة، فهم شديدو الميل، مثلاً، الى ربط مأثورة الامير «فريدريك تشارلز» بمفهومهم لتكتيكات المهمة، والتي يعتبرونها حقاً عنصراً هاماً في الاداء القتالي الالماني التاريخي. ولا ننسى ان «مولتكه» قد اعتمد على هذا المفهوم اعتماداً قوياً. وجوهر هذا المفهوم هو ان الآمر المساعد هو المسؤول عن بذل الجهود في كل الاوقات، في سبيل تنفيذ مفهوم مهمة رئيسه، سواء كانت لديه اوامر ام لا، او سواء كانت اوامره الاخيرة تلائم موقفاً مغايراً. وفي الواقع كانت تكتيكات المهمة مفهوماً مديناً

لـ «شارنهورست» ولمن جاء بعده، وعلى رأسهم «مولتكه». لقد كان من ابداع الاركان العامة المدروس، وكان بالفعل قريباً جدا من صميم اهتمامات الاركان العامة.

ويطلعنا سجل الاركان العامة الالماني على الكثير من الامثلة المتعلقة بالهنات البشرية، كقصر النظر، والغرور، والخطأ في الحكم والتمييز، والغيرة، والتردد، ونقص الخيال، والمعارك الخاسرة التي لم تكن خسارتها محتومة. ولكن كل هنة من هذه الهنات يمكن العثور عليها في سجل «الاسكندر» او «نابليون»، مع اننا نعتبرهما عبقريين، لانهما تعرضا للهنات هذه بدرجة اقل من عدويهما، ولانهما، في خلال اهتمامهما بالتفصيل والاكتساب الفكري، كانا دوماً يسبقان خصومهما. لقد كانت هذه هي الصفة الاساسية للاركان العامة، وكما تبدو اصلاً حسب تصور «شارنهورست»، انها ساعدت الرجال المفتقرين على الصعيد الفردي لمزايا العبقري، لكي يتصرفوا بطريقة مؤسساتية تفضي الى نتائج لا تحققها سوى العبقرية.

(١) Craig, *op. cit.*, p. XIII

خاتمة

بعض المضامين

في العام ١٩٥٤، عندما وافقت حكومات حلفاء الحرب العالمية الثانية الغربيين المنتصرين على السماح لألمانيا باعادة تسليح قواتها تسليحاً محدوداً، انطلقت صرخة خوف من شعوب بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، وبلجيكا، وهولندا، وفي المانيا ارتاع عدد غير قليل من الوطنيين الالمان الذين لم ينسوا تاريخ امتهم العسكري والمشبع بالروحية العسكرية، ولا سيما النواحي التي استخدمت فيها القوة العسكرية الالمانية في الحربين العالميتين. لقد ارتاعوا لمجرد تصور احياء الجيش الالماني فكيف يمكن نسيان اهوال «اوشفيتس» و«بلزن» و«بوخنفالد» و«داخاو»؟ وكيف يستطيع الحلفاء إعادة تسليح امة استعملت قوتها العسكرية، ليس في سبيل ابادة اليهود فحسب، بل ومن اجل اخضاع بقية اوروبا واستعبادها ايضاً، في ظل سياسة القمع الجماعي الوحشي الهادفة الى محو اي احتمال نشوء قيادة لأية انتفاضة ضد السيطرة الالمانية؟

وفي العام ١٩٥٥، ولمّا اشتد عضد الجيش الالماني الجديد، كانت حكومة المانيا الغربية صادقة في جهودها الهادفة الى تجنب نشوء الروح العسكرية المستقلة لالمانيا امبريالية، ولتحول ايضاً دون اللجوء الى الذرائع

التي اعتمدها «سيكت» وخلفاؤه للتملص من قيود الحلفاء المفروضة في معاهدة «فرساي». ومع هذا، استمر الاعتراض القوي على فكرة اعادة التسلّح الالماني. وفي حين كانت بعض المناظرات العدوانية وتحريف الحقائق وتشويهها، والاستشهاد بفقرات خارجة عن نصوص المعاهدة[1] داحضة لذاتها - الامر الذي جعل تصديقها صعباً على الاساتذة او رجال الدولة او اخذها مأخذ الجد - فإن العقلاء من الناس لم يقدروا ولا يقدرون على تجاهل الاسلوب الذي استخدمت فيه المانيا قوتها العسكرية، مرات عدة في القرن الماضي، كي تجلب المأساة على اوروبا وعلى جزء كبير من العالم ايضاً.

ومن الواضح ان الساسة الاميركيين والبريطانيين والفرنسيين الذين وافقوا على اعادة تسليح المانيا، لم ينسوا التاريخ الحديث. وكانوا مدركين لحقائق تاريخية اخرى جعلتهم يتبينون التهديد السوفييتي - الستاليني. لذلك فالأخطار التي يمكن ان تنجم عن اعادة التسليح الالماني، تفرض موازنتها مع الاخطار التي يمكن ان تنجم عن التوسع السوفييتي والشيوعي بدون اعادة تسليح الدولة الالمانية. وفي هذا السياق، لم يكن امام صانعي سياسة الحلفاء الغربيين سوى السماح باعادة تسليح المانيا الغربية، بل انهم شجعوا هذا التسليح لمصلحة العالم الغربي المشتركة.

والعامل الوحيد المؤثر في هذا القرار، هو التمييز الذي تصوره صانعو السياسة الغربيون، او تراءى لهم على الاقل، بين القوة العسكرية وسوء استخدامها. ففي الاقطار الغربية اجيزت القوة العسكرية - رغم تجاهلها في الغالب - كوسيلة لاكتساب الامن ازاء البلدان العدوانية او التوسعية المجاورة. ولكن علينا الا ننسى ان هذه الاقطار المحبة للسلام قد استخدمت القوة العسكرية فيما مضى لتوسيع حدودها من لندن حتى «كايب تاون» و«تاسمانيا»، ومن باريس حتى الدار البيضاء وتاهيتي، ومن نيويورك حتى سان فرانسيسكو ومانيلا.

ومن الممكن القول بأن - الاستراتيجية العسكرية الالمانية - خطة «شليفن» - هي التي ادت الى قيام المانيا بغزو بلجيكا الحيادية، وان بعض

(١) See, for instance, Charles R. Allen. Jr., *Heusinger of the Fourth Reich* (New York: 1963).

قادة البحرية الالمانية يتحملون مسؤولية سباق التسلح مع بريطانيا ولو بصورة جزئية. وهو السباق الذي اسهم في الانجراف نحو الحرب قبل العام ١٩١٤. ولا يمكن الانكار بان قادة الجيش الألمان او بكلمة اخرى رؤساء الاركان العامة، كانوا يميلون كلياً الى دخول الحرب في العام ١٩١٤ من منطلق انها فرصة لانهاء التهديد الخطير الذي كان يتمثل في التحالف الفرنسي - الروسي. وأما فيما يتعلق بالحرب العالمية الثانية فيمكن القول ايضاً، بان المعارضة العسكرية للاتجاه الجريء الذي قاده «هتلر» نحو الحرب، لم تكن بسبب المعارضة لسياسته، بل كانت مجرد تعبير عن ان العسكريين لم يكونوا يصدقون بأن المانيا مستعدة للحرب او انهم اوجسوا ريبة في قدرة امتهم على قهر الحلف الذي كانت سياسات «هتلر» تدفعه نحو التشكل.

ورغم التسليم بهذه الحقائق فقد كان واضحاً لقادة الحلفاء في الخمسينات، بأن القوات المسلحة الالمانية في الحربين العالميتين كانت ادوات للسياسة وليست مسؤولة عن تحديد الاهداف العدوانية لحكومتها. ولعل الأهم في نظر صانعي السياسة الغربيين انه قبل هاتين الحربين كانت القوات العسكرية الالمانية تحت سيطرة انظمة عسكرية سلطوية، ولم يكن للشعب الالماني سلطة على القوات المسلحة ولا رأي فيما يتعلق بأوجه استخدامها. وبالتالي، لو ان قيوداً اكثر واقعية قد فرضت على استخدام القوات الالمانية على نحو مغاير لقيود معاهدة «فرساي»، ولو ان العناصر غير العسكرية في المانيا نفسها قد شجعت على تنمية نظامها الدستوري المؤدي الى سيطرة الديموقراطية على القوات المسلحة لظهر عندئذٍ ان الاخطار الناجمة عن اعادة تسليح المانيا غير ذات موضوع، خصوصاً مع وجود خطر آخر.

إن من الاستخفاف الفادح بالتاريخ عامة، وبالتاريخ الالماني خاصة، ان نستنتج بأن كل اخطار الروح العسكرية الالمانية المستقبلية قد تلاشت، اما لان المانيا الغربية أقامت حكماً ديموقراطياً، او لأن قيوداً واقعية ظاهرياً تتيح لالمانيا ان تمتلك تشكيلات قتالية تتعدى الفيلق فقط ضمن اطار منظمة حلف شمال الاطلسي (ناتو) العسكرية، علاوة على ذلك، فان حقيقة ان حكومة المانيا الغربية قد وضعت اجراءات وسياسات كفيلة بضمان السيطرة المدنية

على القوات المسلحة، هي حقيقة لا تضمن بذاتها للشعب الالماني او لشعوب العالم الاخرى بأن هذا الجيش سيظل خاضعاً لسيطرة الديموقراطية الشعبية. ولا ننسى بعد هذا بأن تجربة المانيا السابقة في الحكم الشعبي الديموقراطي لم تدم طويلاً، ناهيك بأنها قد فشلت.

اضف الى ذلك ان بعض اشد الحركات توسعية وشوفينية في التاريخ، قد وقعت في ظل دول ديموقراطية بدءاً من أثينا بيركليس، ومروراً بروما شيشرون، ووصولاً الى بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة في القرن التاسع عشر. ويبيِّن التاريخ ان الديموقراطية والقومية غير متضاربتين او متناقضتين مع الشوفينية والتوسعية. من هنا فان من غير المدهش ان يكون صعود «هتلر» واعادة تسليح المانيا في الثلاثينات، قد تيسرا بدعم شعبي للنازيين ولجملة اهدافهم.

وثمة امر آخر له اعتباره، وهو ان المانيا الشرقية ليست ديموقراطية بالطبع، وان هناك دليلاً على ان قواتها المسلحة رغم تشكيلها على غرار قوات موسكو، قد حملت ملامح عديدة - بما فيها العقيدة العسكرية وآلة السيطرة - من تاريخ المانيا القديم، وما دام هناك دولتان المانيتان منفصلتان فثمة خطر يظل قائماً وهو وجود امل في ان توحي اعادة توحيد الدولتين الى احداهما او كلتيهما بسياسات مشبعة بروح المغامرة العسكرية كما حدث فيما مضى. فهل اعادة توحيد المانيا تحت حكم اي منهما يشكل تهديداً اكبر لسلام اوروبا والعالم؟

ليست هذه الا بعض اهم الاسباب التي تجبر شعوب العالم الغربي على الارتياب بدولة المانية اعيد تسليحها، وبخطوة اعادة إحياء كفاءة عسكرية رفيعة المستوى، سواء في صفوف القوات المسلحة في المانيا الغربية او القوات المسلحة المشكلة في المانيا الشرقية. ومع ذلك، فمن وجهة نظر حلف شمال الاطلسي قد اتخذ القرار المدروس باعادة تسليح المانيا، بحيث يكون من قبيل تدمير الذات فرض قيود على قوات المانيا الغربية المسلحة الجديدة بغرض اضعاف فعاليتها عمداً.

وتدل التجربة حتى الآن - ولحسن الحظ انها لم تُختبر في معارك

حقيقية - على ان الجهود الكبيرة المبذولة لضمان قدر من الديموقراطية ولضمان ديمومة السيطرة المدنية المحكمة، لم تؤثر في كفاءة الجيش الالماني وفعاليته داخل الجيش، كما ان هناك ادلة واضحة بأن وحدات ذلك الجيش تعمل ضمن اطار حلف شمال الاطلسي بفعالية يمكن مقارنتها على الاقل بفعالية قوات الشريكين الكبيرين الآخرين في الحلف: الولايات المتحدة وبريطانيا. وقد طور الالمان في الستينات دبابة «ليوبارد» - مستخدمين المدفع البريطاني - التي كانت آنذاك افضل دبابات العالم، كما كانوا رواداً في تصميم اسلحة ومعدات جيدة اخرى لحسابهم ولحساب قوات اخرى في حلف شمال الاطلسي.

هناك حقيقة تاريخية مشجعة واحدة، على الاقل نعرضها لمن يهمهم مستقبل المانيا عسكرية جديدة - ويجب ان يكون - هؤلاء وجميع المفكرين في العالم الغربي، بما فيهم المفكرون الالمان - وهي ان معظم الجهود الالمانية التي تركزت - قبل ظهور قوة مسلحة المانية جديدة في العام ١٩٥٦ - على ضمان سلطة شعبية مدنية على القوات المسلحة البروسية - الالمانية عبر حكومة ديموقراطية مسؤولة، قد بذلت من قبل الرجال عينهم الذين اوجدوا مؤسسة السيطرة، التي ضمنت التفوق العسكري البروسي - الالماني. وكان «شارنهورست» وصحبه من المصلحين قد ركزوا اهتمامهم الأول على خلق جيش للشعب، لاسباب تتعلق بالامن القومي البروسي، الذي يظل هدفاً مشروعاً بكل معنى الكلمة، لكنهم كانوا ايضاً متأثرين بمثال الطغيان العسكري في فرنسا النابليونية المجاورة.

وحري بالأميركيين (الذين يتساءلون عن مدى التضارب القائم بين الديموقراطية والتفوق العسكري، او عن مدى اسهام بعض جوانب جهاز الاركان العامة الالمانية في تحسين كفاءة اميركا العسكرية) ان يركزوا اهتمامهم على هذه الحقيقة المشجعة في تاريخ المانيا العسكري وفي اسس الاركان العامة الالمانية. ومن الواضح ان الرجال الذين اسسوا جهاز الاركان العامة الالمانية لم يروا اي تضارب بين الكفاءة العسكرية وبين السيطرة الشعبية الدستورية على القوات المسلحة. ويظهر السجل العسكري بشكل

واضح بان فشلهم في تحقيق السيطرة الدستورية المطلوبة، يعود الى اسباب سياسية وليس الى الفعالية العسكرية لجهاز الاركان الجديد.

وقد علق الضباط الاميركيون، الذين شهدوا التدريبات، والمناورات الالمانية الغربية، بتقدير واعجاب على كفاءة الاداء الالماني وقدرة الجنود الالمان على التصرف بسرعة ومرونة وفاعلية حيال ظروف المناورة المفاجئة. واظهر ضباط الاركان العامة في المانيا الغربية قدرات رائعة على مختلف مستويات الاركان في حلف شمالي الاطلسي. وتبدو الديموقراطية الحقة والتفوق العسكري الالماني التقليدي متساوقين عملياً، على النحو الذي تخيله «شارنهورست».

ومما يلفت الانتباه ان بعض العسكريين الاميركيين المعجبين بالاركان العامة الالمانية، قد بذلوا الجهود في خلال اكثر من قرن، لدفع الولايات المتحدة الى تبني جهاز الاركان العامة الالمانية او بعض جوانبه. وكان في مقدمة المعجبين بفعالية الاركان الالمانية، «ايموري ابتون»، احد ألمع المفكرين العسكريين الاميركيين. وقد لفتت آراؤه (التي نشرت بعد وفاته) وآراء «آرثر واغنر» اهتمام وزير حربية مدني، كان يبحث عن طرق لتحسين مؤسسة عسكرية ثبت عدم اهليتها ابان الحرب الاسبانية - الاميركية، وسرعان ما بدا واضحاً للوزير «إليهو روت» ذي العقل المنطقي، ان الاركان العامة هي الدواء الناجع. ولكن «روت» واجه معارضة شديدة من القائد العام للجيش الفريق «نلسون مايلز» الذي رفض النظام المقترح لانه، حسب رأيه محاولة لخلق عسكريتاريا تيوتونية غريبة في الولايات المتحدة.

ومع ان جهود «روت» قد اصابت نجاحاً في تأسيس هيئة اركان عامة اميركية، فان الولايات المتحدة لم تحظ بجهاز منظم ومؤهل او فعال عسكرياً كجهاز المانيا. وكان من الاسباب الرئيسية لذلك المعارضة العاطفية الصارخة، التي عبر عنها الافراد، مثل الجنرال «مايلز» الذين رأوا في الاركان العامة مسحة دكتاتورية (توتاليتارية) تتنافى مع مثل اميركا الديموقراطية.

لقد اظهرت هيئة اركان الجيش العامة الاميركية فعاليتها في خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة. وكانت حينذاك شبيهة في معظمها بالاركان العامة على غرار الاركان العامة الالمانية. ولعل تلك الهيئة، وما تولد منها من تدريب عسكري ونظام تثقيفي، كانت العنصر الرئيسي الذي ادى الى توسع الجيش الاميركي في خلال الحرب العالمية الثانية توسعاً سريعاً وفعالاً. اما اليوم فقد تلاشت الاركان العامة التي تصورها «روت» ووجهها رؤساء الاركان مثل «مارتس»، و«بيرشينغ» و«سمرول» و«فاك آرثر»، و«كرايغ» و«مارشال». ولم يعد لجيش الولايات المتحدة او لقواتها المسلحة هيئة اركان عامة حقيقية.

والسؤال هو: هل تحتاج الولايات المتحدة الى هيئة اركان عامة شبيهة بالاركان العامة الالمانية، ام انها تستطيع تحقيق الفعالية العسكرية الفضلى من خلال تسخير مبدأ العمل الحر الاميركي لمصلحة القوات المسلحة؟ وقد يدور في الخلد التساؤل عما اذا كان جهاز الاركان العامة لا يزال ملائما للولايات المتحدة، حتى وان لم يكن متضارباً مع الديموقراطية الاميركية. وبعد، فإن العالم قد تغير كثيراً منذ عهد «مولتكه» و«شليفن»، بل ومنذ عهد «سيكت» و«بيك». ولعل التكنولوجيا الحديثة والنظرية التنظيمية الحديثة ايضاً قد جعلتا نظام الاركان العامة شيئاً تجاوزه الزمن تماماً كالقاطرة البخارية. وأخيراً، لا يزال هناك شك في إمكانية ملاءمة النظام الذي أجاد في ظل المانيا (توتاليتارية)، مع القوات المسلحة في اميركا الديموقراطية.

ان الاسئلة هذه تفتقر حالياً الى اجوبة شافية. ولكن هناك سببين عامين للقلق بشأن فشل الولايات المتحدة في امتلاك نظام اركان شبيه بالنظام الالماني وبشأن التعجيل في وضع دراسة جادة تجيب عن الاسئلة الهامة.

هناك اولاً عدد من الاسباب تحدونا الى الاعتقاد بأن الفعالية العسكرية الاميركية اليوم ليست من نوعية الفعالية العالية التي كانت تتمتع بها المانيا بفضل نظام الاركان العام فيها(*). وهناك بعض الدلالة ايضاً، الى انه بالرغم

(*) ج. أ. شتوكفيش J. A. Stockfisch اقتصادي ومحلل عمليات، درس سياسات أميركا والمانيا الدفاعية. يعيد «شتوكفيش» الفارق في الكفاءة جزئياً الى حقيقة ان الجيش الالماني في عهد المانيا الامبريالية على الأقل كان محصناً ضد الانغماس في سياسات البرلمان المالية، بفضل الاجراءات الدستورية للسلطة (كانت موازنة الجيش من صلاحيات العرش) وبفضل سياسة بسمارك الذي جعل دورة اقرار موازنة الجيش تمتد بين ٥ و٧ سنوات. (راجع كتاب شتوكفيش «محاريث في السيوف»، نيويورك ١٩٧٣، صفحة ٨٥).

الملاحق

من سمو مستويات العمل والكفاءة العملياتية، فان اداء جنود وضباط القوات المسلحة الاميركية ليس من مستوى اداء الضباط الالمان في الحرب والسلم، في ظل الاركان العامة الالمانية[٢].

وهناك ثانياً، ان الخصم الخطير الوحيد للولايات المتحدة هو الاتحاد السوفييتي. وفي حين ان الولايات المتحدة قد تجاهلت عموماً ـ ولم ترفض ـ مثال الاركان العامة الالمانية، فان الاتحاد السوفييتي قد انكب على دراسة المثال الالماني واقتباسه. فهيئة اركان القوات المسلحة السوفييتية تشبه في تنظيمها واسلوب عملها تنظيم واسلوب جيش المانيا ما قبل الحرب. والنظام التثقيفي العسكري للقوات المسلحة السوفييتية مشابه للنظام الذي وضعه «شارنهورست» و«كلاوزفيتس» لبروسيا، وعدله قادة امثال «مولتكه» و«شليفن»، و«سيكت»، و«بيك»، لألمانيا. ويبدو ان السوفييت يعتقدون بأن الالمان قد تفوقوا على قواتهم في الحربين العالميتين، بفضل نظام السيطرة ذلك والنظام التثقيفي المرتبط به.

وليس من الضرورة الاسراع في اقتداء المثال السوفييتي، لسبب بسيط هو انه قد لا يكون نظاماً مثالياً او مرغوباً فيه او ملائماً للولايات المتحدة. فالقادة السوفييت المعاصرون لم يظهروا بانهم معصومون عن الاخطاء السياسية او العسكرية، كما لم يظهروا شيئاً من الكفاءة الدائمة. ومع ذلك، وفي ضوء الحقائق التاريخية وردود الفعل السوفييتية ازاء بعض الحقائق التاريخية، فان الولايات المتحدة ستتعرض للخطر، اذا ما واصلت تجاهلها للمثال السوفييتي الحالي او لمثال هيئة الاركان العامة الالمانية، التي اظهرت عبقريتها في سبيل الحرب مراراً، ولاكثر من قرن من الزمان، في ميادين القتال الدامي.

(٢) See, for instance, Savage and Gabriel, *op. cit.*, p. 344.

الملحق (أ)

التسلسل الزمني للأحداث

١٨٠٦	١٤ تشرين الاول (اكتوبر)	معركة يينا ـ أورشتادت
١٨٠٧	١٤ حزيران (يونيو)	معركة فريدلاند
١٨٠٧	٩/٧ تموز (يوليو)	اتفاقات تيلست
١٨٠٧	٢٥ تموز (يوليو)	تشكيل لجنة عسكرية لاعادة تنظيم الجيش باشراف شارنهورست
١٨٠٨	١ آذار (مارس	اعادة تأسيس دائرة الحرب (وزارة الحرب) في بروسيا
١٨٠٨	٨ ايلول (سبتمبر)	اتفاق باريس
١٨٠٩	٦/٥ تموز (يوليو)	معركة ڤاغرام
١٨١٢	٧ ايلول (سبتمبر	معركة بورودينو
١٨١٢	١٩ تشرين الاول (اكتوبر) ٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر)	تقهقر نابليون من موسكو
١٨١٢	٣٠ كانوز الاول (ديسمبر	معاهدة توروغن
١٨١٣	١١ آذار (مارس)	تعيين شارنهورست رئيس العمليات في الاركان العامة
١٨١٣	٢ ايار (مايو)	معركة لوتزن
١٨١٣	٢٨ حزيران (يونيو)	موت شارنهورست في براغ
١٨١٣	٢١ تموز (يوليو)	تعيين غنايزناو رئيس العمليات في الجيش بصورة مؤقتة
١٨١٣	١٩/١٦ تشرين الاول (اكتوبر)	معركة لايبزغ.
١٨١٤	١١ ايار (ابريل)	تنحية نابليون عن العرش
١٨١٥/١٨١٤		مؤتمر فيينا
١٨١٤	٣ حزيران (يونيو)	تعيين بوين اول وزير للحربية في بروسيا
١٨١٤	١ ايلول (سبتمبر)	اعادة تنظيم دائرة الحرب كوزارة حرب
١٨١٤	٣ ايلول (سبتمبر)	القانون البروسي للتجنيد العام
١٨١٥	١٨ حزيران (يونيو)	معركة واترلو
١٨١٥	٢٢ حزيران (يونيو)	تنحية نابليون للمرة الثانية
١٨١٥	٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر)	صلح باريس

السنة	التاريخ	الحدث
١٨١٦	٣١ كانون الثاني (يناير)	اعادة تنظيم اركان العمليات العامة كأركان عامة
١٨١٩	تموز (يوليو)	مراسيم كارلسباد
١٨١٩	تشرين الثاني (نوفمبر)	استقالة بوين
١٨٢١	١١ كانون الثاني (يناير)	تعيين موفلينغ رئيس اركان الجيش
١٨٢٤/١٨٢٥ شتاء		فصل الاركان العامة عن وزارة الحرب
١٨٢٩	٢٩ كانون الثاني (يناير)	تعيين كراوزنيك رئيساً للاركان العامة
١٨٣٦		بدء العمل بقانون الخدمة العسكرية الالزامية في بروسيا
١٨٤١		اعادة تعيين بوين وزيراً للحربية
١٨٤٨/١٨٤٩		الحرب الدانيماركية ـ البروسية الأولى
١٨٤٨		محاولات الجمعية الوطنية البروسية لتطهير سلك الضباط
١٨٤٨	١٣ ايار (مايو)	تعيين «رايهر» رئيساً للاركان العامة
١٨٥٧	٧ تشرين الاول (اكتوبر)	«مولتكه» يتسلم مهامه كرئيس للاركان العامة
١٨٥٩	نيسان (ابريل)/تموز (يوليو)	الحرب النمساوية ـ الفرنسية
١٨٥٩	٥ كانون الاول (ديسمبر)	تعيين الجنرال «فون رون» وزيراً للحربية
١٨٥٩	كانون الاول (ديسمبر)	بداية ازمة اصلاح الجيش في بروسيا
١٨٦٠	٥ ايار (مايو)	مجلس النواب يرفض سن قانون اصلاح الجيش
١٨٦٢	٢٣ أيلول (سبتمبر)	مجلس النواب يرفض تحويل مشروع اصلاح الجيش رفضاً قاطعاً
١٨٦٢	٢٤ ايلول (سبتمبر)	تعيين بسمارك رئيساً لوزراء بروسيا
١٨٦٤		الحرب الدانيماركية ـ البروسية الثانية
١٨٦٦	حزيران (يونيو)/آب (اغسطس)	منح رئيس اركان الجيش حق اصدار اوامره الى القوات الميدانية مباشرة
١٨٦٦	٣ تموز (يوليو)	معركة «كوينغراتش» (سادوفا او هراديك كراكوف)
١٨٦٧	٣١ كانون الثاني (يناير)	اعادة تشكيل الاركان العامة بحيث اصبحت تتألف من مؤسسة رئيسية ومؤسسة مساندة
١٨٦٧	نيسان (ابريل)	ازمة لوكسمبورغ بين فرنسا وبروسيا
١٨٦٧	٩ تشرين الثاني (نوفمبر)	صدور قانون الخدمة الالزامية في مجموعة المقاطعات الالمانية الشمالية

السنة	التاريخ	الحدث
١٨٧٠/١٨٧١		الحرب الفرنسية ـ البروسية (الفرنسية ـ الالمانية)
١٨٧٠	١٦/١٨ آب (اغسطس)	معركتا «مار ـ لاتور» و«غرافلوت»
١٨٧٠	١ ايلول (سبتمبر)	معركة «سيدان»
١٨٧١	١٨ كانون الثاني (يناير)	تأسيس الامبراطورية الالمانية
١٨٧١	٢٨ كانون الثاني (يناير)	استسلام باريس
١٨٧١	٢٧ نيسان (ابريل)	الاركان العامة البروسية ـ الالمانية تصدر اول مذكرة لشن حرب على جبهتي فرنسا وروسيا
١٨٨٣	٢٤ (مايو)	منح رئيس الاركان البروسية ـ الالمانية العامة حق الاتصال المباشر بالعرش
١٨٨٧	٣٠ تشرين الثاني (نوفمبر)	صدور مذكرة للاركان العامة تتعلق بشن حرب وقائية ضد روسيا
١٨٨٩	٨ نيسان (ابريل)	تعيين «فالدرسي» رئيساً للاركان العامة
١٨٩٠	١٨ آذار (مارس)	استقالة «بسمارك»
١٨٩١	٧ شباط (فبراير)	تعيين «شليفن» رئيساً للاركان العامة
١٨٩٤	تموز (يوليو)	وضعت الاركان العامة خطة استراتيجية جديدة لشن حرب على جبهتين
١٨٩٥	حزيران (يونيو)	فتح قناة «كييل»
١٨٩٧	٢٢ كانون الثاني (يناير)	قدم «فالدرسي» مذكرة الى وليام الثاني تتعلق بالانقلاب
١٩٠٥	كانون الاول (ديسمبر)	خطة «شليفن»
١٩١٣	١ تشرين الاول (اكتوبر)	اكبر زيادة في تعداد الجيش الالماني منذ العام ١٨٧١: فقد ارتفع العدد الى ٧٦٠٩٠٨ (صف ضابط وجندي) بعد زيادة مقدارها ١٣٦ ألف رجل

١٩١٤/١٩١٨		الحرب العالمية الأولى
١٩١٤	١٣ آب (اغسطس)	تشكيل دائرة المواد الحربية في وزارة الحرب البروسية
١٩١٤	٢٦/٣٠ آب (اغسطس)	معركة تاننبرغ
١٩١٤	٥/١٢ ايلول (سبتمبر)	معركة المارن
١٩١٤	٦/١٥ ايلول (سبتمبر)	معركة البحيرات المازورية
١٩١٤	١٤ ايلول (سبتمبر)	تغيير في القيادة العليا للجبهة (OHL): استبدل «مولتكه» بـ «فالكنهاين».
١٩١٤	١ تشرين الثاني (نوفمبر)	تعيين «هندنبرغ» قائداً عاماً للجبهة الشرقية (Oberost) وكان «لودندورف» حينذاك رئيس الاركان العامة للجبهة.
١٩١٤	١٦/٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر)	معركة لودز
١٩١٥	٤/٢٢ شباط (فبراير)	معركة الشتاء
١٩١٥	ايار (مايو)/حزيران (يونيو)	الخرق عند «غورليش - تارنوف»
١٩١٥	٧ ايار (مايو)	غرق السفينة «لوزيتانيا»
١٩١٦	شباط (فبراير)/كانون[1] (ديسمبر)	معركة فردان
١٩١٦	تموز (يوليو)/تشرين[2] (نوفمبر)	معركة السوم
١٩١٦	٢٩ آب (اغسطس)	تغيير في القيادة العليا للجبهة :(OHL) تعيين «هندنبرغ» رئيساً للأركان العامة، وتعيين «لودندورف» رئيس اركانه
١٩١٦	٢ ايلول (سبتمبر)	جعل القيادة العسكرية للسلطات المركزية في قيادة الجيش العليا قيادة مركزية
١٩١٦	ايلول (سبتمبر)/كانون[1] (ديسمبر)	هزيمة رومانيا
١٩١٧	٣/٥ ايلول (سبتمبر)	معركة ريغا
١٩١٧	تشرين[1] (اكتوبر)/كانون[1] (ديسمبر)	معركة كابوريتو
١٩١٨	آذار (مارس)/نيسان (ابريل)	الهجومان الالمانيان على السوم وليس
١٩١٨	تموز (يوليو)	معركة المارن الثانية
١٩١٨	١٨ تموز (يوليو)	بدء هجوم الحلفاء المعاكس

١٩١٨	٨ آب (اغسطس)	«يوم الجيش الالماني الاسود»
١٩١٨	٢٦ تشرين الاول (اكتوبر)	استقالة «لودندورف»، وحلول الجنرال «غرونر» محله
١٩١٨	٢٨ تشرين الاول (اكتوبر)	تمرد البحارة في كييل
١٩١٨	٩ تشرين الثاني (نوفمبر)	اعتزال «وليام» الثاني العرش، تعيين «هندنبرغ» القائد الأعلى للقوات المسلحة
١٩١٨	١١ تشرين الثاني (نوفمبر)	الهدنة
١٩١٨	٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر)	صدور امر عن قيادة الجيش العليا يقضي بانشاء منظمات متطوعين (الفيلق الحر)
١٩١٨	كانون الاول (ديسمبر)	السبارتاكيون يدحرون الجيش في برلين
١٩١٩	٥/١٥ كانون الثاني (يناير)	سحق انتفاضة السبارتاكيين في برلين
١٩١٩	٦ آذار (مارس)	صدور قانون الميليشيا الوطنية المؤقت
١٩١٩	٢٨ حزيران (يونيو)	معاهدة فرساي
١٩١٩	٣٠ حزيران (يونيو)	انتقال قيادة الجيش العليا الى «كولبرغ»
١٩١٩	٣ تموز (يوليو)	استقالة «هندنبرغ» وخلافة «غرونر» له
١٩١٩	٧ تموز (يوليو)	مصادقة المانيا على معاهدة فرساي، استقالة «غرونر» وحلول «سيكت» محله
١٩١٩	١٥ تموز (يوليو)	حل الاركان العامة
١٩١٩	١ تشرين أول (اكتوبر)	إنشاء وزارة دفاع الرايخ وتعيين راين هارت رئيساً لقيادة الجيش.
١٩١٩	١١ تشرين أول (أكتوبر)	تعيين سيكت رئيساً لمكتب القوات (الأركان العامة).
١٩٢٠	١٣/١٧ آذار (مارس)	مؤامرة كاب
١٩٢٠	٢٦ ذار (مارس)	تعيين «سيكت رئيساً لقيادة الجيش
١٩٢٠	٢/١٠ نيسان ابريل	قمع اعمال الشعب في الرور
١٩٢٠	١١ ايار (مايو)	صدور مرسوم سري خاص بتدريب متطوعين غير متفرغين
١٩٢١	كانون الثاني (يناير)	تقديم مذكرة «سيكت» حول امكانية مضاعفة تعداد الميليشيا الوطنية
١٩٢١	٨آذار (مارس)	احتلال الحلفاء لـ«دوسلدورف»، و«دويزبرغ» و«روهرورت» بسبب التأخر عن دفع التعويضات
١٩٢١	٢٣ آذار (مارس)	موافقة الرايخستاغ على قانون الدفاع

١٩٢١	٦ ايار (مايو)	عقد الاتفاق التجاري بين المانيا وروسيا
١٩٢٣	١١ كانون الثاني (يناير	احتلال الحلفاء للرور .
١٩٢٣	٢٧ ايلول (سبتمبر)	قيام «ايبرت» بنقل السلطات التنفيذية الى وزارة دفاع الرايخ، وبداية ديكتاتورية «سيكت» (التي انتهت في ١٩٢٤/٣/١)
١٩٢٣	١١/٨ تشرين٢ (نوفمبر)	انقلاب «هتلر» في قاعة البيرة
١٩٢٥	٢٦ نيسان (ابريل)	انتخاب «هندنبرغ» رئيساً للجمهورية
١٩٢٥	١٦ تشرين الاول (اكتوبر)	اتفاقات «لوكارنو»
١٩٢٦	١ شباط (فبراير)	تشكيل دائرة الجيش تحت قيادة العقيد «فون شلايخر»
١٩٢٦	٨ تشرين الاول (اكتوبر)	استقالة «سيكت».
١٩٢٨	٢٠ كانون الثاني (يناير)	تعيين «غرونر» وزيراً للدفاع
١٩٢٩	١ آذار (مارس)	تشكيل مكتب الوزارة، تعيين الجنرال «فون شلايخر» نائباً دائماً لوزير دفاع الرايخ «غرونر»
١٩٣١	٨ تشرين الاول (اكتوبر)	تولي وزير الدفاع «غرونر» منصب وزير الداخلية ايضاً
١٩٣٢	١٣ آذار (مارس)	اعادة انتخاب «هندنبرغ» رئيساً وانتصاره بذلك على «هتلر»
١٩٣٢	١٤ نيسان (ابريل)	صدور اوامر «غرونر» بحل منظمتي جيش العاصفة النازي و«س س» شبه العسكرية
١٩٣٢	١٣ أيار (مايو)	استقالة «غرونر»
١٩٣٢	٣٠ ايار (مايو)	قيام «هندنبرغ» بطرد «برونينغ»
١٩٣٢	٢ حزيران (يونيو)	«شلايخر» يصبح وزيراً للدفاع في عهد «بابن»
١٩٣٢	١ كانون الاول (ديسمبر)	قيام الميليشيا الوطنية بلعبة حرب تحسباً لوقوع حرب اهلية
١٩٣٢	٣ كانون الاول (ديسمبر)	تعيين «شلايخر» مستشاراً
١٩٣٣	٣٠ كانون الثاني (يناير)	تعيين «هتلر» مستشاراً

١٩٣٣	آذار (مارس)	تشكيل سلاح الجو الالماني كفرع ثالث من القوات المسلحة
١٩٣٤	٣٠ (يونيو)/١تموز(يوليو)	حـزيـران حملة التطهير الدموية
١٩٣٤	٢ آب (اغسطس)	وفاة «هندنبرغ»، وتولي «هتلر» منصبي المستشار ورئيس الدولة معاً
١٩٣٥	١٦ آذار (مارس)	شجب «هتلر» القيود التي فرضتها معاهدة فرساي على مسألة اعادة تسليح المانيا، والعودة الى العمل بنظام الخدمة العسكرية الالزامية، وبدء اعادة التسليح بشكل علني.
١٩٣٦	٧ آذار (مارس)	اعادة احتلال منطقة الراين
١٩٣٧	٥ تشرين الثاني (نوفمبر)	«هتلر» يناقش مستقبل برنامج العدوان ابان انعقاد مؤتمر جمع بينه وبين وزير الخارجية وقادة القوات المسلحة العامين
١٩٣٧	٢١ كانون الاول (ديسمبر)	صدور توجيهات وزارة الحرب بصدد القضية الخضراء (حرب ممكنة ضد تشيكوسلوفاكيا)
١٩٣٨	٤ شباط (فبراير)	طرد «بلومبرغ» و«فريتش»، و«هتلر» يصبح وزيراً للدفاع، وتشكيل القيادة العليا للجيش (OKW) برئاسة «كايتل»
١٩٣٨	١٣/١٢ آذار (مارس)	ضم النمسا
١٩٣٨	٢٩//٣٠ ايلول (سبتمبر)	مؤتمر ميونيخ
١٩٣٨	١ تشرين الاول (اكتوبر)	احتلال مناطق السوديت التشيكوسلوفاكية
١٩٣٩	١٤ آذار (مارس)	ضم بقية الاراضي التشيكوسلوفاكية واقامة الدولة السلوفاكية
١٩٣٩	٣ نيسان (ابريل)	صدور توجيهات قيادة الجيش العليا بصدد القضية البيضاء للهجوم على بولونيا
١٩٣٩	١ ايلول (سبتمبر)	بداية الحرب العالمية الثانية بالهجوم على بولونيا

١٩٤٠	٩ نيسان (ابريل)	الهجوم على الدانيمارك والنرويج
١٩٤٠	١٠ ايار (مايو)	بداية الهجوم في الغرب وبداية معركة الفلاندر
١٩٤٠	٥ حزيران (يونيو)	بداية معركة فرنسا
١٩٤٠	١٠ حزيران (يونيو)	دخول ايطاليا الحرب
١٩٤٠	٢٢ حزيران (يونيو)	إستسلام فرنسا، وتوقيع هدنة في «كومبيين».
١٩٤٠	٢٣ حزيران (يونيو)	بداية الاستعدادات للهجوم على الاتحاد السوفييتي
١٩٤٠	حزيران (يونيو)/آب (اغسطس)	معركة بريطانيا
١٩٤٠	آب (اغسطس)/ايلول (سبتمبر)	وضع خطط للنزول في بريطانيا (عملية اسد البحر)
١٩٤١	نيسان (ابريل/ايار(مايو)	حملة البلقان
١٩٤١	٢٠/٣١ ايار (مايو	معركة كريت
١٩٤١	٢٢ حزيران (يونيو)	الهجوم على الاتحاد السوفييتي ـ عملية بربروسا
١٩٤١	٥/٦ كانون[1] (ديسمبر)	بداية الهجوم السوفييتي المعاكس
١٩٤٢	٢٨ حزيران (يونيو)	بداية الهجوم الالماني في فصل الصيف في روسيا
١٩٤٢	٢٤ آب (اغسطس)	بداية معركة ستالينغراد
١٩٤٣	٣١ كانون[2](يناير)/٢شباط (فبراير)	استسلام القوات الالمانية في ستالينغراد
١٩٤٣	١٨ شباط (فبراير)	اعلان الحرب الشاملة في المانيا
١٩٤٣	تموز(يوليو)/آب (اغسطس)،	وقوع معارك في كورسك
١٩٤٣	٨ ايلول (سبتمبر)	انسحاب ايطاليا من المحور
١٩٤٣	١١ ايلول (سبتمبر)	نزول الحلفاء في ساليرنو
١٩٤٤	٤ حزيران (يونيو)	استيلاء الحلفاء على روما
١٩٤٤	٦ حزيران (يونيو	نزول الحلفاء في النورماندي
١٩٤٤	حزيران (يونيو/تموز (يوليو)	إبادة مجموعة جيوش الوسط في روسيا البيضاء
١٩٤٤	٢٠ تموز (يوليو)	محاولة فاشلة لاغتيال هتلر
١٩٤٤	١٦ كانون الاول (ديسمبر)	بداية الهجوم الالماني في الآردين (معركة الآردين الثانية)

١٩٤٥	١٦ نيسان (ابريل)	بداية الهجوم السوفييتي على برلين
١٩٤٥	٣٠ نيسان (ابريل)	انتحار «هتلر»
١٩٤٥	٨ ايار (مايو)	توقيع وثيقة الاستسلام

الملحق «ب»

قيادة بروسيا ـ المانيا السياسية والعسكرية ١٨٠٨ ـ ١٩٤٥

التاريخ	رئيس الدولة	الوزير الأعلى، او الوزير الاول او المستشار	وزير الحربية	رئيس الاركان العامة
١٨٠٨/٣/١	فريدريك وليام الثالث (من ١٧٩٧/١١/١٦ الى ١٨٤٠/٦/٧	البارون كارل فون شتاين (منذ تشرين الاول، اكتوبر، ١٨٠٧)	اللواء(*) غيرهارد فون شارنهورست (حتى ١٨١٠/٦/١٧)	اللواء(*) غيرهارد فون شارنهورست (حتى ١٨١٠/٦/١٧)
تشرين الثاني (نوفمبر)		الكونت الكسندر دوهنا والبارون كارل التنشتاين (حتى كانون الاول، ديسمبر، ١٨٠٩)		
كانون الثاني (يناير) ١٨١٠		الامير تشارلز اوغوست فن هاردنبرغ (حتى تشرين الثاني، نوفمبر، ١٨٢٢)		
٦/١٧			اللواء(*) ك. ارنست فون هاكه (حتى آب، اغسطس ١٨١٣)	الجنرال(*). ك ارنست فون هاكه (حتى آذار، مارس، ١٨١٢)

(*) بصورة مؤقتة

التاريخ	رئيس الدولة	الوزير الأعلى، او الوزير الاول او المستشار	وزير الحربية	رئيس الاركان العامة
آذار، (مارس)، ١٨١٢				الفريق(*) اول غوستاف فون راوخ (حتى آذار، مارس، ١٨١٣)
١٨١٣/٣/١١				الجنرال غيرهارد غون شارنهورست (حتى ١٨١٣/٦/٢٨)
٧/٢١				الجنرال كارل فون غنايزناو (حتى حزيران، يونيو، ١٨١٤)
١٨١٤/٦/٣			الجنرال ل.ج. هيرمان فون بوين (حتى تشرين الثاني، نوفمبر، ١٨١٩)	الجنرال كارل فون غرولمان (حتى تشرين الثاني، نوفمبر، ١٨١٩)
تشرين الثاني، (نوفمبر)، ١٨١٩			الجنرال ك. ارنست فون هاكه (حتى تشرين الاول، اكتوبر، ١٨٣٣)	الفريق(*) ج.ج. أو. أ روهل فون ليلنشترن (حتى ١٨٢١/١/١١)
١٨٢١/١/١١				الفريق البارون ج.ف.ف. موفلينغ (حتى ١٨٢٩/١/٢٩)

(*) بصورة مؤقتة.

١٨٢٢/١١/٢٦		منصب الوزير الاول شاغر. قام الملك بدور الوزير الأول		
١٨٢٩/١/٢٩				الفريق ج.ف. فون كراوزينيك (حتى ١٨٤٩/٥/١٣)
تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٣٣			الجنرال جوب فون فتسليبن (حتى ١٨٣٧)	
١٨٣٧			الجنرال ج.جي. غوستاف فون راوخ (حتى ١٨٤١/٣/١)	
١٨٤٠/٦/٧	فريدريك وليام الرابع (حتى ١٨٦١/١/٢)			
١٨٤١/٣/١			الجنرال ل.جي. هيرمان فون بوين (حتى ١٨٤٧/١٠/٦)	
١٨٤٧/١٠/٧			الجنرال فرديناند فون روهر (حتى ١٨٤٨/٤/٢)	

١٨٤٨/٣/١٤		الكونت ادولف هـ. فون ارنيم بويتسنبورغ (حتى ١٨٤٨/٣/٢٤)		
٤/٢		لودولف كامباهاوزن (حتى حزيران، يونيو، ١٨٤٨)	الفريق(*) ك.ف فون رايهر (حتى ١٨٤٨/٤/٢٦)	
٤/٢٦			الجنرال الكونت اوغست فون كانيتس (حتى ١٩٤٨/٦/١٦)	الجنرال كارل ف. فون رايهر (حتى ١٨٥٧/١٠/٧)
٦/٢٧		ديفيد هانزمان ورودولف فون اورزفالد (حتى ١٨٤٨/٩/١٠)	الجنرال البارون ل. روث فون شركنشتاين (حتى ١٨٤٨/٩/٧)	
٩/٧			الجنرال ارنست فون بُفول (حتى ١٩٤٨/١١/٢)	
٩/٢١		الجنرال أرنست فون بفول (حتى ١٨٤٨/١١/٢)		
١١/٢		الجنرال فريدريتش ف		

(*) بصورة مؤقتة.

		فون براندنبرغ (حتى ١٨٥٠/١١/٦		
١١/٨			الجنرال كارل أ. فون شتروثا (حتى ١٨٥٠/٢/٢٧	
١٨٥٠/٢/٢٧			الجنرال اوغست فون شتوكهاوزن (حتى ١٨٥١/١٢/٣١	
١١/٦		البارون اوتو فون مانتوفن (حتى ١٨٥٨		
١٨٥٢/١/١			الجنرال ادوارد فون بونين (حتى ١٨٥٤	
١٨٥٤			الجنرال الكونت فريدريتس فون فالدرسي (حتى ١٨٥٨/١١/٦	
تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٥٧	الامير الوصي على العرش وليام (حتى ١٨٦١/١/٢			
١٨٥٧/١٠/٢٩				اللواء هيلموت فون مولتكه (حتى ١٨٨٨/٨/١٠

١٨٥٨		الامير تشارلز هو هنزولرن - زيغمارينغن (حتى آذار، مارس، ١٨٦٢)		
١٨٥٨/١١/٦			الجنرال ادوارد فون بونين (حتى ١٨٥٩/١١/٢٨	
١٨٥٩/١٢/٥			الجنرال البريشت فون رون (حتى ١٨٧٣/١١/٩	
١٨٦١/١/٢	وليام الاول (حتى ١٨٨٨/٣/٩			
١٨٦٣/٩/٢٤		اوتو ادوارد ل. فون بسمارك (حتى ١٨٩٠/٣/١٨ (مستشار في ١٨٧١		
١٨٧٣/١١/٩			اللواء جورج فون كامكه (حتى ١٨٨٣/٣/٣	
١٨٨٣/٣/٣			اللواء باول برونزارت فون شيلندورف (حتى ١٨٨٩/٤/٨	

١٨٨٨/٣/٩	فريدريك الثالث (حتى ١٨٨٨/٦/١٥)			
٦/١٥	وليام الثاني (حتى ١٩١٨/١١/٩)			
٨/١٠				الجنرال الكونت الفرد فون فالدرسي (حتى ١٨٩١/٢/٧)
١٨٨٩/٤/٨			الجنرال جوليوس فون فيردي دو فيرنوا (حتى ١٨٩٠/١٠/٤)	
١٨٩٠/٣/٤		الفريق ليو فن كابيريفي (حتى ١٨٩٤/١٠/٢٨)		
١٠/٤			الجنرال هانز سي. جي. فون كالتنبورن - شتاخاو (حتى ١٨٩٣/١٠/١٩)	
١٨٩١/٢/٧				الفريق الاول الكونت الفرد فون شليفن (حتى ١٩٠٦/١/١)
١٨٩٣/١٠/١٩			الجنرال فولتر	

			برونزارت فون شيلندورف (حتى ١٨٩٦/٨/١٤)	
تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٩٤		الامير لكودفيغ هوهنلوهه (حتى تشرين الاول، اكتوبر، ١٩٠٠)		
١٨٩٦/٨/١٤			الجنرال هاينريش فون غوسلر (حتى ١٩٠٣/٨/١٥)	
تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٠٠		الكونت برنهارد فون بولوف (حتى ١٩٠٩/٧/١٤)		
١٩٠٣/٨/١٥			الجنرال كارل فون آينم (حتى ١٩٠٩/٨/١١)	
١٩٠٦/١/١				الفريق اول هيلموت فون مولتكه (حتى ١٩١٤/٩/١٤)

١٩٠٩		ثيوبالد فو بيتمان ـ هولفيغ (حتى تموز، يوليو ١٩١٧)			
٨/١١			الجنرال يوسياس هيرنغن (حتى ١٩١٣/٦/٧)		
١٩١٣/٦/٧			الجنرال اريش فون فالكنهاين (حتى ١٩١٥/١/٢١)		
١٩١٤/٩/١٤				الجنرال اريش فون فالكنهاين (حتى ١٩١٦/٨/٢٩)	
١٩١٥/١/١٥			الفريق ادولف فيلد فون هو هنبورن (حتى ١٩١٦/١٠/٢٩		
١٩١٦/٨/٢٩				فيلد مارشال باول فون هندنبيرغ (حتى ١٩١٩/٧/٣)	

	الجنرال اريش لودندورف (حتى ١٩١٨/١٠/٢٦)				

١٠/٢١			الجنرال هيرمان فون شتاين (حتى ١٩١٨/١٠/٩)					
تموز (يوليو) ١٩١٧		جورج ميخائيلس (حتى تشرين الاول، اكتوبر، ١٩١٧)						
تشرين الاول (اكتوبر)		الكونت جورج فون هرتلينغ (حتى تشرين الاول، اكتوبر، ١٩١٨)						
تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨		الاميرماكس فون بادن (حتى ١٩١٨/١١/١٠)						
١٠/٩			الفريق هاينريش شوخ (حتى ١٩١٨/١١/٩)					
١٠/٣٠					اللواء فيلهلم غرونر (حتى ١٩١٩/٧/٣)			
١٩١٨/١١/٩	لا رئيس للدولة (حتى ١٩١٩/٢/١١)	فريدريش ايبرت (حتى ١٩١٩/٢/١١)	لا وزير للحربية(*) (حتى كانون الثاني، يناير ١٩١٩)					

(*) عُيِّن هندنبرغ قائداً أعلى للقوات المسلحة، واصبح غرونر رئيساً مؤقتاً للاركان العامة.

١٩١٩/١/٢			العقيد فولتر راينهاردت (حتى ١٩١٩/٢/١٣)					
٢/١١	فريدريش ايبرت (حتى ١٩٢٥/٥/٢٨)	فيليب شايدمان (حتى ١٩١٩/٦/١٩)						
٢/١٣					غوستاف نوسكه(*) (حتى ١٩٢٠/٣/٢٥)			
٦/٢٢		غوستاف بَوَر						
٧/٣				الفريق فيلهلم غرونر (حتى ١٩١٩/٧/٧)		لم يجر تعيين أحد نائباً لرئيس الاركان العامة		
٧/٧				اللواء هانز فون سيكت (١٩١٩/٧/١٥)				
٧/١٥				حُلّت الاركان العامة				
١٩١٩/١٠/١							اللواء فُولتر راينهاردت (حتى ١٩٢٠/٣/٢٦)	
١٩١٩/١٠/١١								الفريق هانز فون سيكت (حتى ١٩٢٠/٣/٢٦)

(*) أول وزير للدفاع.

١٩٢٠/٣/٢٦	هيرمان مولر (حتى ١٩٢٠/٦/٢٥)				أوتو غيسلر (حتى ١٩٢٨/١/١٩)	الفريق هانز فون سيكت (حتى ١٩٢٦/١٠/٦)		
١٩٢٠/٣/٢٨								اللواء فيلهلم هيي (حتى شباط «فبراير» ١٩٢٣)
٦/٢٥		كونستانتين فيهرنباخ						
١٩٢١/٥/١٠		جوزف فيرت						
١٩٢٢/١١/١٤		فيلهلم كونو (حتى ١٩٢٣/٨/١٢)						
شباط (فبراير) ١٩٢٣								اللواء أوتو هس (حتى تشرين الاول «اكتوبر» ١٩٢٥)
١٩٢٣/٨/١٢		غوستاف شتريزمان (حتى ١٩٢٣/١١/٢٣)						
١١/٢٣		وليام مكوس						
١٩٢٥/١/١٥		هانز لوتر (حتى ١٩٢٦/٥/١٢)						

٢/٢١	وفاة الرئيس ايبرت			
٥/١٢	ف. م باول فون هندنبرغ (حتى ١٩٣٤/٨/١)			
تشرين الاول (اكتوبر)				
١٩٢٦/٥/١٤		فيلهلم ماركس		
١٩٢٦/١٠/٧				
١٩٢٧/١/٢٧				
١٩٢٨/١/٢٠				
١٩٢٨/٦/١٣		هيرمان مولر (حتى ١٩٣٠/٥/٢٧)		
١٩٢٩/١٠/١				

			اللواء فيلهلم فيتسيل
		الجنرال فيلهلم هيي (حتى ١٩٣٠/١٠/٣١)	
			اللواء فيرنر فون بلومبرغ (حتى ١٩٢٩/٩/٣٠)
	الفريق فيلهلم غرونر (حتى ١٩٣٢/٥/١٣)		
			اللواء البارون كورت فون هامرشتاين - إيكورد (حتى ١٩٣٠/١٠/٣١)

١٩٣٠/٣/٣٠		هاينريش بروننغ (حتى ١٩٣٢/٥/٣٠)						
١٩٣٠/١١/١							الفريق اول البارون كورت هامرشتاين - إيكورد (حتى ١٩٣٤/١/٣١)	اللواء ڤيلهلم آدم (حتى ١٩٣٣/٩/٣٠)
١٩٣٢/٦/١		فرانز ڤون بابن (حتى ١٩٣٢/١١/١٧)				الجنرال كورت ڤون (شلايخر حتى ١٩٣٣/١/٢٨)		
١٩٣٢/١٢/٢		الجنرال كورت ڤون شلايخر (حتى ١٩٣٣/١/٢٨)						
١٩٣٣/١/٣٠		أدولف هتلر (حتى ١٩٤٥/٤/٣٠)				الفريق اول ڤيرنر ڤون بلومبرغ (حتى ١٩٣٨/١/٢٧)		
١٩٣٣/١٠/١								الجنرال لودفيغ بيك (حتى ١٩٣٨/١٠/١٣)
١٩٣٤/٢/١							الفريق اول ڤيرنر ڤون فريتش (حتى ١٩٣٨/٢/٣)	

١٩٣٤/٨/٢	أدولف هتلر (حتى ١٩٤٥/٤/٣٠)			
١٩٣٨/٢/٤				
١٩٣٨/١٠/٣١				
١٩٤١/١٢/١٩				
١٩٤٢/٩/٢٤				
١٩٤٤/٧/٢١				
١٩٤٥/٣/٢٩				
١٩٤٥/٤/٢٩		انتحار ادولف هتلر		

	أدولف هتلر (حتى ١٩٤٥/٤/٣٠)	الفريق اول فالتر فون براوخيتش (حتى ١٩٤١/١٢/١٩)	
			الجنرال فرانز هالدر (حتى ١٩٤٢/٩/٢٤)
		أدولف هتلر (حتى ١٩٤٥/٤/٣٠)	
			الفريق كورت زيتزلر (حتى ١٩٤٤/٧/٢٠)
			الفريق أول هانز غودريان (حتى ١٩٤٥/٣/٢٨)
			الجنرال هانز كربس (حتى ١٩٤٥/٥/٧)

الملحق «ت»

الاداء الالماني ابان الحرب العالمية الاولى

إحصاءات اجمالية، خمس عشرة معركة من معارك الحرب العالمية الأولى:

سنعرض في (الشكل ت - ١) احصائيات اجمالية تقريبية لخمس عشرة معركة من معارك الحرب العالمية الأولى، عشر منها على الجبهة الغربية وخمس على الجبهة الشرقية ضد روسيا. ومن بين المعارك العشر اربع معارك ضد الفرنسيين، وخمس معارك ضد البريطانيين، ومعركة واحدة ضد الاميركيين. وهذه المعارك معروفة باسماء شائعة، وتواريخ، ومرفقة بالفترة الزمنية التي استغرقتها كل منها، وبأهم القوات المشتركة فيها، وبالوضع العملياتي (هجوم او واحدة من الدفاع) نسبة الى النجاح او الاخفاق.

والعمود الاحصائي الاول يعرض القدرات التقريبية للقوات المتحاربة.

والعمود الثاني يقدم بعشرات الألوف ومئات الألوف، العدد المقبول بصورة اجمالية للاصابات التي مني بها كل طرف. ففي المعارك الاربع التي جرت على الجبهة الشرقية، والتي نجم عنهاوقوع عدد لا بأس به من الاسرى الروس في قبضة المانيا، ثم عرض ارقام الاصابات التي تضمنت الاسرى (وهي الارقام التي رُسم تحتها خط) وارقام الاصابات الخالية من عدد الأسرى (وهي الارقام التي لم يرسم تحتها خط).

وينتقل العمود التالي بالاصابات الاجمالية الى عدد الاصابات في اليوم الواحد. ويظهر العمود الذي يليه النسبة المئوية لاصابات اليوم الواحد بالقياس الى الارقام الدالة على القدرات الأولية او القدرات الاجمالية المبينة في الجهة اليسرى.

ويزودنا العمود الذي يأتي بعد هذا بقيمة اشير اليها بكلمة Score لعرض عدد الاصابات في اليوم الواحد، كنسبة مئوية للقوة المحدثة للاصابات واستنتاج ذلك بمطابقة اصابات احد الاطراف المتحاربة مع الرقم الدال على القدرة الأولية او الاجمالية للطرف الآخر، اي «الاصابات الواقعة في اليوم الواحد لكل مئة جندي».

ويدل العمود الاخير على «القيمة النسبية للفعالية» ويكيف قيمة «الاحصاء النسبي» بحيث يعكس بصورة تقريبية الميزة العملياتية الناجمة عن الموقف الدفاعي: وباستخدام العوامل الناتجة عن عامل الميزة الدفاعية (التي استُمدت من بحث شامل حول الحرب العالمية الثانية (انظر الملحق ج)، ولكن لم يجر اختبارها بشكل مركز إزاء تجربة الحرب العالمية الأولى)، نحصل على التقييم التالي: ١,٣ للدفاع السريع، و١,٥ للدفاع المحضّر، ١,٦ للدفاع المحصن. وفي

الشواهد المأخوذة من المعارك الأولى من الحرب، حيث كان كلا الطرفين المتحاربين يهاجمان (وبالتالي يلجآن الى الدفاع السريع بصورة جزئية على الاقل) قدر العامل الناتج بـ ١,٢ ومن هنا، فان قيمة الفعالية النسبية انعكاس تقريبي لقدرة الاطراف المتحاربة في كل معركة على ايقاع الاصابات والمقادير المنخفضة في المعارك الطويلة انعكاس جلي لظاهرة مشار اليها في التحليل المفصّل للحرب العالمية الثانية - وهي ان القيمة النسبية للفعالية لأي قوة عسكرية تنحدر بشكل مطرد في القتال الطويل الامد.

مقارنة احصائية للمقدار النسبي للفعالية

يمثل الجدول التالي (الشكل ت-٢) تحليلاً احصائياً مبسطاً للمعطيات في الخلاصة الاحصائية للمعارك الخمس عشرة.

الجزء الاول، الاجمالي، يظهر خلاصات للمعارك الخمس عشرة، وللمعارك العشرة التي جرت على الجبهة الغربية، والمعارك الخمس التي جرت على الجبهة الشرقية.

الجزء الثاني يبين مقارنة بين معدل فعالية ايقاع الاصابات على مستوى الامة. وفي كلا الشاهدين تظهر الحسابات المتعلقة بالجبهة الشرقية نوعين من النتائج: الأول النتائج المتعلقة بالاسرى الروس الذين سقطوا بيدَ الالمان، والثاني النتائج الخالية من هؤلاء الاسرى.

ان التفوق الالماني الثابت في مجال ايقاع الاصابات في صفوف جميع الخصوم المتحالفين، واضح، حتى في المعارك التي أُرغم الجنود الالمان المرهقون فيها على مواجهة جنود اميركيين يرفلون بالحيوية والنشاط.

الجدول (ت-١)

إحصائيات اجمالية لخمسة عشر معركة من معارك الحرب العالمية

التاريخ	المعركة	امدها (بالايام)	القوات المتحاربة
١) ١٤ - ١٩١٤/٨/٢٣	الحدود	١٠	الجيوش الالمانية، جيوش فرنسا الغربية
٢) ٢٦ - ١٩١٤/٨/٢٩	تاننبرغ(*)	٤	الجيش الالماني الثامن، الجيش الروسي الثاني
٣) ٥ - ١٩١٤/٩/١٠	المارن	٦	الجيوش الالمانية، جيوش فرنسا الغربية
٤) ٩ - ١٩١٤/٩/١٤	البحيرات المازورية(*)	٥	الجيش الالماني الثامن، الجيش الروسي الاول
٥) ١١ - ١٩١٤/١١/٢٥	لودتس	١٥ •	الجيش الالماني التاسع، مجموعة الجيوش الروسية (N.W)
٦) ٧ - ١٩١٥/٢/٢١	معركة الشتاء(*)	١٥	الجيشان الالمانيان الثامن والعاشر، الجيش الروسي العاشر
٧) ٢ - ١٩١٥/٥/٤	غوريش - تارنوف(*)	٣	الجيش الالماني الحادي عشر، الجيش الروسي الثالث
٨) ٩/٢٥ - ١١/٨/ ١٩١٥	شامبانيا الثانية	٤٥	الجيش الالماني الثالث، الجيش الفرنسي الثاني (+)

التاريخ	المعركة	امدها (بالايام)	القوات المتحاربة
٩) ١/٧ - ٣١/١٠/١٩١٦	السوم الأولى	١٢٣	الجيش الالماني الثاني، الجيش البريطاني الرابع والجيش الفرنسي السادس
١٠) ٩ - ٢٤/٤/١٩١٧	اراس	١٥	الجيش الالماني السادس والجيش البريطاني الثالث،
١١) ١٦ - ٣٠/٤/١٩١٧	ايسن الثانية (هجوم نيفيل)	١٥	الجيش الالماني السابع (+) والجيشان الفرنسيان الخامس والسادس (+)
١٢) ٣١/٧ - ٦/١١/١٩١٧	الايبر الثالثة	٩٨	الجيش الالماني الرابع والجيشان البريطانيان الثاني والخامس
١٣) ٢١/٣ - ٩/٤/١٩١٨	السوم الثانية	٢٠	مجموعة جيوش «روبرخت» الالمانية والجيوش البريطانية الثالث والرابع والحامس
١٤) ٩ - ٣٠/٤/١٩١٨	ليس	٢٢	الجيشان الالمانيان السادس والرابع والجيش البريطاني الاول
١٥) ٢٦/٩ - ١١/١١/١٩١٨	الموز - ارغون	٤٧	مجموعة جيوش غالفيتس الالمانية والجيشان الاميركيان الاول والثاني.

الموقف: نجاح	الموقف: فشل	القوة	الاصابات	الاصابات في اليوم	نسبة الاصابات في اليوم	مقدار	مقدار الفعالية
هجوم		١,٢٠٠,٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	١,٦٧	٢,٥٠	٢,٠٨
	هجوم	١٣٩٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	٣٠٠٠٠	٢,١٦	١,٤٤	١,٢٠
هجوم		١٨٧٠٠٠	١٣٢١٢	٣٣٠٣	١,٧٧	١٦,٠٤	١٣,٣٧
						٤,٦٨	٣,٩٠
	هجوم	١٦٠٠٠٠	١٢٠٠٠٠	٣٠,٠٠٠	١٨,٧٥	٢,٠٦	١,٧٢
			٣٥٠٠٠	٨٧٥٠	٥,٤٧		
	هجوم	٩٠٠,٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	٥٠٠٠٠	٥,٥٦	٤,٦٣	٣,٨٦
هجوم		١٢٠٠٠٠٠	٢٥٠٠٠٠	٤١٦٦٦	٣,٤٧	٤,١٧	٣,٤٨
هجوم		٢٨٨,٦٠٠	٤٠٠٠٠	٨٠٠٠	٢,٧٧	٨,٦٦	٧,٢٢
						٣,٤٧	٢,٨٩
	هجوم	٢٧٣,٠٠٠	١٢٥,٠٠٠	٢٥,٠٠٠	٩,١٦	٢,٩٣	٢,٤٤
			٥٠,٠٠٠	١٠,٠٠٠	٣,٦٦		
هجوم	هجوم	٢٦٠٠٠	٦٠٠٠	٤٠٠٠	١,٥٤	٢,٤٤	٢,٠٣
هجوم	هجوم	٤٠٠,٠٠٠	٩٥٠٠٠	٦٣٣٣	١,٥٨	١,٠٠	٠,٨٣
هجوم		٢٥٠,٠٠٠	٤٠٠٠٠	٢٦٦٧	١,٦٧	٥,٦٠	
						٢,٦٧	
	دفاع سريع	٣٠٠٠٠٠	٢١٠٠٠٠	١٤٠٠٠	٤,٦٧	٠,٨٩	
			١٠٠٠٠٠	٦٦٦٧	٢,٢٢		
هجوم		١٧٥٠٠٠	٢٥٠٠٠	٨٣٣٣	٤,٧٦	٣٨,١٠	٣٨,١٠
						١١,٤٣	١١,٤٣
	دفاع محضّر	٣٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	٦٦٦٦٧	٢٢,٢٢	٢,٧٨	١,٨٥
			٦٠٠٠٠	٢٠٠٠٠	٦,٦٧		
دفاع محصن		١٩٠٠٠٠	٦٠٠٠٠	١٣٣٣	٠,٧٠	١,٧٠	١,٠٦
	هجوم	٥٠٠٠٠٠	١٤٥٠٠٠	٣,٢٢٢	٠,٦٤	٠,٢٧	٠,٢٧
دفاع محصن		٢٥٠٠٠٠	٥٠٠٠٠٠	٤٠٦٥	١,٦٣	٢,١٨	١,٣٦
	هجوم	٦٠٠٠٠٠	٦٧٠٠٠٠	٥٤٤٧	٠,٩١	٠,٦٨	٠,٦٨
دفاع محصن		١٢٠٠٠٠	٧٥٠٠٠	٥٠٠٠	٤,١٧	٤,٦٧	٢,٩٢
	هجوم	٢٧٦٠٠٠	٨٤٠٠٠	٥٦٠٠	٢,٠٣	١,٨١	١,٨١

(*) الاصابات مع الاسرى في صفوف القوات السوفييتية الأرقام التي تحتها خط، والاصابات بدون الاسرى الارقام التي ليس لها تحتها خط.

الموقف نجاح	فشل	القوة	الاصابات	الاصابات في اليوم	نسبة الاصابات في اليوم	مقدار	مقدار الفعالية
دفاع محصن		٤٨٠٠٠٠	٤٠٠٠٠	٢,٦٦٧	٠,٥٦	١,٦٤	١,٠٣
	هجوم	١٠٠٠٠٠٠	١١٨٠٠٠	٧,٨٦٧	٠,٧٩	٠,٢٧	٠,٢٧
دفاع محصن		٢٠٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	٢٠٤١	١,٠٢	١,٥٣	٠,٩٦
	هجوم	٣٨٠٠٠٠	٣٠٠٠٠٠	٣٠٦١	٠,٨١	٠,٥٤	٠,٥٤
هجوم	هجوم	٨٧٠٠٠٠	١٩٠,٠٠٠	٩٥٠٠	١,٠٩	١,١٥	١,١٥
دفاع محصن	دفاع محصن	٥٥٠٠٠٠	٢٠٠٠٠٠	١٠٠٠٠	١,٨٢	١,٧٣	١,٠٨
هجوم	هجوم	٥٠٠٠٠٠	١٧٥٠٠٠	٧٩٥٥	١,٥٩	١,٣٩	١,٣٩
دفاع محصّن	دفاع محصن	٤٠٠٠٠٠	١٥٢٥٠٠	٦٩٣٢	١,٧٣	١,٩٩	١,٢٤
	دفاع محصن	٣٨٠٠٠٠	١٢٦٠٠٠	٢٦٨١	٠,٧١	٠,٧٣	٠,٤٦
هجوم		٦٠٠٠٠٠	١٣٠٠٠٠	٢٧٦٦	٠,٤٦	٠,٤٥	٠,٤٥

الجدول (ت ـ ٢)

مقارنة احصائية لمقدار الفعالية في الحرب العالمية الاولى

١. اجمالي

	عدد المعارك	مجموع القوات المتحاربة	مجموع الخسائر	معدل الخسائر في اليوم	معدل مقدار الفعالية
الحلفاء	١٥	٨٣٢٩٠٠٠	٣٠٩٩٠٠٠(*)	٤,٨٦	١,٢٤
الالمان		٦٢٥٠٠٠٠	٢٠٤٤٠٠٠	٢,٠٤	٥,٥١ (أو٢,٦١)(*)
حلفاء الغرب	١٠	٦٨٩٦٠٠٠	٢٣٤٩٠٠٠	١,٤٨	١,١٠
الالمان		٥٠٩٠٠٠٠	١٨٦٦٠٠٠	١,٨٧	١,٦٣
الروس		١٤٣٣٠٠٠	٧٥٠٠٠٠(*)	١,٥٠	١,٥٠
الالمان	٥	١١٦٠٠٠٠	١٧٨٠٠٠	١٣,٢٦ (أو ٤,٥٨(**))	٥,٧٥ (معدل المعدلات)

(*) مع حذف الاسرى الروس في ٤ معارك.

(**) الموز ـ ارغون.

٢. مقارنات بين الامم المتحاربة

	عدد المعارك	معدل مقدار الفعالية
الفرنسيون		١,٣١
الالمان	٤	٢,٠١ أو ١/١,٥٤
البريطانيون		١,٠٧
الالمان	٦	١,٥٦ أو ١/١,٤٥
الاميركيون		٠,٤٥
الالمان	١(**)	٠,٤٦ أو ١/١,٠٢
الروس		١,٥٠
الالمان	٥	١٣,٢٦ أو ١/٨,٨٤ (أو ١/٣,٠٥(***))أو (٤,٥٨)(**)

(***) ٤١٠ آلاف من هؤلاء كانوا اسرى روس في تاننبرغ، والبحيرات المازورية، ومعركة الشتاء وغورليش.

الملحق ث

دفاع عن شلايخر(*)

يؤخذ على «شلايخر» عادة شغفه بالمكيدة، وهذا يذكّر بالكلمات التي يختارها المؤرخون عند الحديث عن الشجاعة: فهم يخلعون على القوات الصديقة صفات «البطولة»، وينعتون استبسال العدو بالتعصب في احسن الأحوال. وفي معرض تقويم اعمال «شلايخر» تقويماً إيجابياً بشكل عام، كان يمكن وصف معظم «مكائده»، ان لم يكن كلها، «بالمبادرات البارعة»، فيما لو حالفها النجاح. ولا يغيب عن بالنا، بأنه حالما يحل التفسخ في النظام الدستوري لبلد ما، تغنم الشخصيات البعيدة عن الاضواء، والقابضون على نواحي القوة، سلطة اكبر من السلطة التي بين ايديهم. وعلى كل من يرغب في تحقيق اي غرض استخدام الابواب الخلفية، شاء ذلك ام ابى.

لقد حُرم «شلايخر»، بموته على يد «هتلر»، من فرصة الدفاع عن نفسه امام منتقديه، بينما تسنى لـ «غرونر»، و«باين» و«برونينغ»، وغيرهم كتابة مذكراتهم. بل ان «غوبلز» نفسه استطاع ان ينشر يومياته. وكل ما توافر من كلمات حول «شلايخر» لا يتعدى كتاباً هزيلاً من وضع «تيلو فوغلسانغ»[١] من هنا، يجدر بنا الانطلاق مما تيسر من الحقائق، لوضع اساس معقول لبعض الاسئلة والتحليلات.

١) لقد بدأ احتضار جمهورية «فيمار» في صيف ١٩٣٠، حين غدا البرلمان مشلولاً. فمنذ ذلك الحين، مارست الحكومة أعمالها بمراسيم، استناداً الى المادة ٤٨ من الدستور. وتعرض نظام البلاد السياسي للانحلال، ثم تبعه النظام الاقتصادي، الذي لم يكن قد مضى زمن طويل على تخطيه لاسوأ كارثة تضخم في التاريخ. وجعل هذا الوضع الجيش واحداً من المؤسسات الوطنية القليلة التي حافظت على تماسكها، وفرض عليه دوراً سياسياً ما كان لقادته أي خيار فيه. وغدا رفض اي دور سياسي عملاً سياسياً هاماً في ذاته. ولما كان قائد الجيش «همرشتاين» غير ناشط اصبح «شلايخر» الرجل الوحيد القادر على ادارة الدفة السياسية. ولربما قبل ذلك الدور بسرور. فماذا كانت دوافعه؟ الغرور؟ الطموح؟ الرغبة في خدمة بلاده؟ حس الواجب؟ لا ادري واظن بأن دوافعه هي التي ذكرت مجتمعة. اما ايها كان الغالب؟ فلا اظن ان احداً يدري؟

٢) لقد كان «شلايخر» من النباهة بما يكفي لمعرفة ان الانغماس المكشوف في السياسة سوف يعني حتماً الانجرار الى السياسات الحزبية، وبالتالي الحاق الضرر بنفوذه وبالجيش. لذا مكث في الظل يدير خيوط اللعبة من وراء الكواليس. وكان ذلك امراً غير مألوف بالنسبة الى

(*) من رسالة تلقاها المؤلف من الدكتور فرانتس أوهل - فيتلر.

(١) Thilo Vogelsang, *Kurt von Schleicher (Gottingen: 1965)*.

رجل السياسة، رغم انه من الممكن التساهل بشأنه بالنسبة الى ضابط، دفعه تفسخ النظام السياسي الى الانغماس في السياسة، والمخاطرة بتقويض ادانة الجيش، في حال توغله في السياسات الحزبية.

٣) كانت الشروط التي عمل «شلايخر» في ظلها اسيرة حقيقة واحدة: منذ ان اصبحت البلاد امام خطر المجاعة، اضحت غالبية الشعب تعتقد بأن الديموقراطية قد فشلت، وانه لن يتمكن احد من وضع حل للمشكلات سوى دكتاتور. ومن المؤكد ان آراء جبهة «هارتسبرغر»، والشيوعيين، والوطنيين الالمان والاشتراكيين الوطنيين قد تباينت حول الجهة التي سوف يأتي منها الرجل القوي، ولكنهم كانوا مجمعين على رفض النظام القائم، ويسيطرون على نحو ٦٠٪ من اصوات الناخبين.

٤) إزاء هذا الدور الذي أُعطي للجيش في ظل تلك الشروط، كان على «شلايخر» ان يواجه سؤالاً واحداً فقط: كيف السبيل الى تفادي ديكتاتورية الراديكاليين، رغم تشوق غالبية الناخبين اليها؟

وحسبما أراه، كان «شلايخر» واحداً من السياسيين والضباط القلائل الذين واجهوا تلك المعضلة في تلك الفترة، بصراحة، وبعيداً عن الاوهام وكان من الواضح انه لا يمكن الحفاظ على الديموقراطية طويلاً ما دام البرلمان مشلولاً، وما دام الناس يؤيدون الاحزاب التي تعدهم بالتخلص من الديموقراطية. وبدت الديكتاتورية في نهاية المطاف أمراً محتوماً، مستندة في ذلك على ما تبقى من العناصر ذات التفكير المنطقي من الامة، ومصممة على اساس تحقيق ثلاثة اهداف:

١) حل المشكلات التي لم يكن بمقدور البرلمان المشلول حلها.

٢) ابقاء الابواب مفتوحة امام اعادة تشكيل حكومة ديموقراطية.

٣) والاهم من كل ذلك، ابقاء الراديكاليين بعيدين عن السلطة.

وهذا ما حاول «شلايخر» ان يفعله. فقد كان يعلم بأنه لا يمكن تفادي مجيء ديكتاتور، الا بتجاهل الأماني البيّنة لغالبية الناخبين. وكان المطلوب، بكلمة اخرى، المجيء برجل قوي من بين الاشخاص الاكثر اعتدالاً. وبما أن الديموقراطيين الاشتراكيين قد ابعدوا «نوسكه» فيما مضى، فلم تعد اي جهة قادرة على تأمين ذلك الرجل القوي، سوى الجيش. وعليه، فقد ظهر امام «شلايخر» خياران:

١) التقرب من الديموقراطيين الوطنيين، شق حزبهم وممارسة الحكم بدعم من العناصر العقلانية منهم، وكاد ان يحقق نجاحاً ناجزاً في ذلك - حيث جعل «شتراسر» Strasser نائب هتلر، ينشق عنهم ولكنه لم يفلح لسوء حظه في كسب الجزء الأكبر من الحزب.

من هنا، لم يبق من بديل سوى الديكتاتورية العسكرية المستندة على دعم اتحادات العمال السري أو العلني. ولا شك بأن هذا الحل لم يكن الحل المرغوب فيه ولكن هل كان هناك حل آخر؟ ومرة اخرى، أصبح «شلايخر» قاب قوسين او ادنى من النجاح، ولكن الاتحادات (الممثلة بثيودور ليبارت)، أظهرت موقفاً متذبذباً، إثر ذلك قام الاشتراكيون الديموقراطيون (الممثلون بـ أونو ويلس) بإعادتهم الى حظيرتهم.

وقُضي على «شلايخر» منذ تلك اللحظة، سياسياً في الدرجة الأولى، ثم جسدياً فيما بعد. وغدت الطريق مفتوحة امام «هتلر». فممارسة «شلايخر» لمهام المستشارية كانت من اسوأ ما شهده تاريخ المانيا. ولكن هل هذا دليل على عجزه؟ او دليل على قصر نظر الاتحادات، التي سرعان ما حُلّت، او قصر نظر الاشتراكيين الديموقراطيين، الذين سرعان ما رفعت عنهم حصانة القانون؟

قد يكون «شلايخر» شخصية غير متجانسة كثيراً، رغم اننا نحسن صنيعاً اذا ما وضعنا في بالنا بأننا ننظر اليه بشكل اساسي بعيون خصومه ـ بدءاً من «غرونر» مروراً بـ «برويننغ» و«بابن»، ووصولاً الى «غوبلز». ولكنني اعتقد بأن «شلايخر» كان الشخصية الهامة الوحيدة في جمهورية «فيمار»، اذ كان لديه تصور واضح للوضع، وواجه ذلك الوضع بشكل صريح. هذا فضلاً عن انه كان الرجل الوحيد الذي امتلك خطة عملية للحيلولة دون مجيء دكتاتورية راديكالية، رغم حماسة غالبية الناخبين لها.

وهذا في نظري يجعله واحداً من اكثر الشخصيات إثارة للاهتمام في الجمهورية المحتضرة الاخيرة. ولعل وضوح الرؤية لديه، ونبذه للاوهام، ومنطقية خططه، ومقته للشيوعية وللراديكالية النازية، قد استمدت كلها من خدمته في الجيش وثقافته في الأركان العامة. ولا مفر من القول بأنه فشل. ولكن هل فشل على نحو مهين؟ لقد كان فشله ناجماً في المقام الأول عن اعتقاد غالبية الناخبين بأن علاج مشكلات البلد كامن في دواء لا يمكن ان يرضى به ولقد ثبت فيما بعد بأنه دواء مهلك. وكان فشله أخيراً، ناجماً عن عجز الاتحادات والاشتراكيين الديموقراطيين عن تجاوز موقفهم التقليدي تجاه العسكريتاريا، التي لم تنتقد بقسوة كما انتقدت في سيرة «هتلر» الاخيرة. وهذا اعجب ما في الامر، ما دام معظم الجنرالات و«شلايخر» من بينهم حتماً، قد تجاوزوا منذ زمن طويل الموقف التقليدي للارستقراطية العسكرية من الطبقة العاملة.

واتساءل احياناً، ماذا كان يمكن ان يحدث لو ان «شلايخر» لم يكن ارستقراطيا، وانما من اصل متواضع كـ «هتلر»، ولو لم يكن جنرالاً، وانما عريفاً تحول الى سياسي. لعله كان بمقدوره آنذاك ان يفلح في اقناع الاتحادات بتقبل دكتاتورية من لدنه، مرتكزة على قوة الجيش، ومعدّة لابقاء الراديكاليين بعيداً عن السلطة، ولكان قدر المانيا واوروبا كلها مختلفاً وليس اسوأ بالتأكيد. فبعد اسابيع قليلة من رفض الاتحادات حتى التفاوض مع «شلايخر»، لم تفعل هذه الاتحادات شيئاً لابعاد رجل مدني آخر، من اصل متواضع، عن السلطة. ولم يبق امامها سوى ان تدرك بأنها، شأنها شأن المانيا كلها، لم تختر اهون الشرين.

---

(٢) Joachim Fest, *Hitler* (Frankfurt: 1974), p. 499.

«الملحق ج»

الأداء الألماني ابان الحرب العالمية الثانية

الأداء في مواجهة حلفاء الغرب

في عملية تطوير وبلورة «طريقة المحاكمة الكمية لتحليلات المعارك التاريخية»[١] (QJMA) حصلت مؤسسة «التقويم التاريخي والبحث» (HERO) على معطيات اساسية عائدة لاكثر من مئة اشتباك من اشتباكات الحرب العالمية الثانية، الى جانب معطيات اضافية حول حروب كوريا والشرق الأوسط. وقد اخذ من تلك المعطيات (الجدول ج ـ ١) ما يخص نحو ٨٧ اشتباكاً على مستوى فرق وفيالق من بين القوات الالمانية وقوات الحلفاء الغربيين ويشتمل الجدول ج ـ٢ خلاصة لقسم من المعطيات الخاصة بكل من تلك الاشتباكات (مع ربط معطيات ج ـ٢ بمعطيات ج ـ ١ بأرقام مميزة) وتتضمن الخلاصة مزيداً من المعلومات كتحديد وحدات الحلفاء والالمان، وتحديد أوضاعها بالقياس الى النجاح او الفشل، مع الاشارة الى نسبة الاصابات في اليوم الواحد، مقدار الفعالية. والعمود الاخير في الجدول (ج ـ٢) يدل على النسبة العددية للطاقة البشرية للقوات المتنازعة.

ويمثل الشكل (ج ـ٣) مقارنة احصائية بين مقدار الفعالية الالمانية وحساب فعالية الحلفاء في الاشتباكات السبعة والثمانين المذكورة، والمقارنة هذه شبيهة بالمقارنة التي أُجريت لاشتباكات الحرب العالمية الأولى في الملحق «ت». (وعلى القارىء التنبه الى ان المعدلات الواردة في الجزء الثاني من الجدول (ج ـ ٣) تعكس المعدلات الاجمالية المستقاة من كامل المعطيات الاساسية، وليس من الخلاصات الخاصة بتصنيفات الموقف، والنجاح، والفشل). ويكاد تفوق مقدار الفعالية الألمانية على حساب فعالية حلفاء الغرب في الاشتباكات السبعة والثمانين هذه، يماثل التفوق الملحوظ في الاشتباكات العشرة المأخوذة كعينات من الحرب العالمية الأولى.

والجدول (ج ـ ٤) يدرج الفعالية القتالية ومعدل مقدار الفعالية للفرق التي اشتركت في ثلاثة اشتباكات او اكثر من الاشتباكات السبعة والثمانين المدرجة في الجدول (ج ـ ١) ونلاحظ بأن معدل الفعالية القتالية للوحدات الالمانية يتجاوز فعالية وحدات الحلفاء بنسبة تقارب ٢٣٪.

الأداء في مواجهة السوفييت

ان معطيات (HERO) الخاصة بالجبهة الشرقية اقل شمولية من المعطيات الخاصة بالجبهات الغربية، ولكن الجدولين التاليين يظهران بأن نسبة تفوق الفعالية القتالية الالمانية كانت اكبر بكثير من نسبة التفوق على حلفاء الغرب، مع انها لم تكن راجحة بمقدار النسبة التي سجلت في الحرب العالمية الأولى.

ويقدم الجدول (ج ـ ٥) بعض الاحصائيات حول قطاع «اوبويان» من معركة «كورسك»،

حيث شن فيلق البانزر ٤٨ الالماني في تموز (يوليو) ١٩٤٣ هجوماً على جيش الحرس السادس والجيش المدرع الأول السوفييتيين دام سبعة ايام. وبرغم تفوق السوفييت العددي بنسبة ٣ الى ٢، قام الالمان في خلال الايام السبعة هذه بالتقدم حوالى ٣٥ كلم، وسط تحصينات لم يشهد العالم مثيلاً لها منذ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٨. ولم يوقف هذا التقدم سوى قيام السوفييت بزج جيش مدرع جديد واحتياطيات اخرى في المعركة، الامر الذي غير نسبة القوة تغييرا كاملا ولم يكن هذا التقدم ممكناً الا في حال بلوغ نسبة تفوق الفعالية القتالية الالمانية على الفعالية القتالية السوفييتية ١٦٨٪ على الأقل، اي ما يعادل ٢,٦٨ من قيمة الفعالية القتالية. (CEV) وفي معظم الامثلة التي اخضعتها HERO للدراسة، كان مقدار الفعالية اكبر من قيمة الفعالية القتالية. وكان يساوي عادة مربع قيمة الفعالية القتالية. ولكنه كان في هذا المثال اقل نوعاً ما، ولعل السبب عائد الى التحصينات الكثيفة التي احتمى السوفييت بها.

ويقدم الجدول (ج - ٦) بعض الاحصائيات العامة المتعلقة بالجبهة الشرقية لعام ١٩٤٤. ففي خلال القسم الاعظم من ذلك العام، كان الالمان على وشك الانهيار، ولكنهم لم ينهاروا. ففي ضوء التفاوت في القوة بين الجانبين، كان ذلك ممكناً لو كان ٢,٥ مليون الماني (مع موقف دفاعي) يتمتعون بتفوق في الفعالية القتالية على السوفييت بما يقارب الـ ٨٨٪، او لو كانوا يتمتعون بتفوق في قيمة الفعالية القتالية بمعدل ١,٨٨. ولسوف يلاحظ بأن التفوق الالماني في حساب الفعالية على السوفييت كان بمعدل ٦ الى ١ تقريباً، ولعل هذا يعكس شغف السوفييت في الهجوم الكثيف مهما كلف ذلك من خسائر.

(الشكل ج - ١)

اشتباكات مختارة من الحرب العالمية الثانية

حملة ساليرنو ٩ - ١٨/ ١٩٤٣/٩

١) مرفأ ساليرنو، ٩ - ١٩٤٣/٩/١١
٢) المدرج ٩ - ١٩٤٣/١١
٣) دهليز سيلي - كالور، ١٩٤٣/٩/١١
٤) مصنع التبغ، ١٣ - ١٩٤٣/٩/١٤
٥) فيتري (١)، ١٢ - ١٩٤٣/٩/١٤
٦) باتيباليا (١)، ١٢ - ١٩٤٣/٩/١٥
٧) فيتري (٢)، ١٧ - ١٩٤٣/٩/١٨
٨) باتيباليا (٢)، ١٧ - ١٩٤٣/٩/١٨
٩) ايبولي، ١٩٤٣/٩/١٨/١٧

حملة فولتورنو، ١٢/ ١٠ - ١٩٤٣/١٢/٨
الاشتباك:

١٠) غرازانيسي، ١٢ - ١٩٤٣/١٠/١٤
١١) كابوا، ١٩٤٣/١٠/١٣
١٢) تريفليسكو، ١٣ - ١٩٤٣/١٠/١٤
١٣) مونتي اسيرو ١٣ - ١٩٤٣/١٠/١٤
١٤) كايازو، ١٣ - ١٩٤٣/١٠/١٤
١٥) كاستيل فولتورنو، ١٣ - ١٩٤٣/١٠/١٥
١٦) دراغوني، ١٥ - ١٩٤٣/١٠/١٧
١٧) القنال (١)، ١٥ - ١٩٤٣/١٠/٢٠
١٨) القنال (٢)، ١٧ - ١٩٤٣/١٠/١٨
١٩) فرانكو ليزي، ٢٠ - ١٩٤٣/١٠/٢٢
٢٠) مونتي غراندي، ١٦ - ١٩٤٣/١٠/١٧
٢١) سانتا ماريا اوليفيتو، ٤ - ١٩٤٣/١١/٥
٢٢) مونتي لونغو، ٦ - ١٩٤٣/١١/٧
٢٣) بوزيلّي، ٦ - ١٩٤٣/١١/٧
٢٤) مونتي كامينو (١)، ٥ - ١٩٤٣/١١/٧
٢٥) مونتي كامينو (٢)، ٨ - ١٩٤٣/١١/١٢
٢٦) مونتي روتوندو، ٨ - ١٩٤٣/١١/١٠

٢٧) مونتي كامينو (٣)، ٢ - ١٩٤٣/١٢/٦
٢٨) كالابريتو، ١ - ١٩٤٣/١٢/٢
٢٩) مونتي ماجوري، ٢ - ١٩٤٣/١٢/٣

حملة أنزيو ٢٢/١ - ١٩٤٤/٢/٢٩

الاشتباك:

٣٠) آبريليا (١)، ٢٥ - ١٩٤٤/١/٢٦
٣١) المصنع، ١٩٤٤/١/٢٧
٣٢) كاميوليوني، ٢٩ - ١٩٤٤/١/٣١
٣٣) كاميوليوني، هجوم معاكس، ٣ - ١٩٤٤/٢/٥
٣٤) كاروسيتو، ٧ - ١٩٤٤/٢/٨
٣٥) الدفاع عن نهر موليتا (١)، ٧ - ١٩٤٤/٢/٩
٣٦) آبريليا (٢)، ١٩٤٤/٢/٩
٣٧) المصنع، هجوم معاكس، ١١ - ١٩٤٤/٢/١٢
٣٨) مجاز البولينغ، ١٦ - ١٩٤٤/٢/١٩
٣٩) نهر موليتا (٢)، ١٦ - ١٩٤٤/٢/١٩
٣٩) نهر موليتا (٢)، ١٦ - ١٩٤٤/٢/١٩
٤٠) فيوشيا، ٢١ - ١٩٤٤/٢٣

حملة روما ١١/٥ - ١٩٤٤/٦/٤

الاشتباك:

٤١) سانتا ماريا انفانتي، ١٢ - ١٩٤٤/٥/١٣
٤٢) سان مارتينو، ١٢ - ١٩٤٤/٥/١٣
٤٣) سبينو، ١٤ - ١٩٤٤/٥/١٥
٤٤) كاستيلّو نوراتو، ١٤ - ١٩٤٤/٥/١٥
٤٥) مونتي غراندي، ١٧ - ١٩٤٤/٥/١٩
٤٦) فورميا، ١٦ - ١٩٤٤/٥/١٨
٤٧) ايتري - فوندي، ٢٠ - ١٩٤٤/٥/٢٢
٤٨) تيراسينا، ٢٢ - ١٩٤٤/٥/٢٤
٤٩) هجوم موليتا، ٢٣ - ١٩٤٤/٥/٢٤
٥٠) طريق انزيو البانو، ٢٣ - ١٩٤٤/٥/٢٤
٥١) تحرير انزيو، ٢٣ - ١٩٤٤/٥/٢٥
٥٢) سيسترنا، ٢٣ - ١٩٤٤/٥/٢٥
٥٣) سيزي، ٢٥ - ١٩٤٤/٥/٢٧

٥٤) فيلّيري، ١٩٤٤/٥/٢٦
٥٥) فيلا كروسيتا، ٢٧ - ١٩٤٤/٥/٢٨
٥٦) محطة كامبوليوني، ٢٦ - ١٩٤٤/٥/٢٨
٥٧) اورديا، ٢٨ - ١٩٤٤/٥/٣٠
٥٨) لانوفيو، ٢٩/٥ - ١٩٤٤/٦/١
٥٩) كاميوليوني، ٢٩ - ١٩٤٤/٥/٣١
٦٠) تارتور تيبر، ٣ - ١٩٤٤/٦/٤

من لومان الى ميتز ١٤/٨ - ١٩٤٤/٩/١٤

الاشتباك:

٥٠١) نهر السين، ٢٣ - ١٩٤٤/٨/٢٥
٥٠٢) موزيل - ميتز، ٦ - ١٩٤٤/٩/١١
٥٠٣) ميتز ١٩٤٤/٩/١٣
٥٠٤) شارتر، ١٩٤٤/٨/١٦
٥٠٥) مولون، ٢٣ - ١٩٤٤/٨/٢٥

حملة السار ٨/١١ - ١٩٤٤/١٢/٧

الاشتباك:

٦٠١) شاتو سالين، ١٠ - ١٩٤٤/١١/١١
٦٠٢) مورانج - كونتيل، ١٣ - ١٩٤٤/١١/١٥
٦٠٣) بورغالتروف، ١٤ - ١٩٤٤/١١/١٥
٦٠٤) بايرندورف (١) ٢٤ - ١٩٤٤/١١/٢٥
٦٠٥) بايرندورف (٢)، ١٩٤٤/١١/٢٦
٦٠٦) بورباخ - دورشتل، ٢٧ - ١٩٤٤/١١/٣٠
٦٠٧) اتحاد السار ١ - ١٩٤٤/١٢/٢
٦٠٨) سينغلينغ - بينيغ، ٦ - ١٩٤٤/١٢/٧
٦٠٩) نهر السيل، ٨ - ١٩٤٤/١١/١٢
٦١٠) مورانج - فولكومون، ١٣ - ١٩٤٤/١١/١٦
٦١١) فرانكالتروف - سانت افولد، ٢٠ - ١٩٤٤/١١/٢٧
٦١٢) دورشتيل - فيربر سفيلر، ٢٨ - ١٩٤٤/١١/٢٩
٦١٣) نهر السار ٥ - ١٩٤٤/١٢/٧

مطابقة	معطيات الحلفاء					معطيات الألمان					تحليل
الاشتباك	وحدات الحلفاء	الوضع		نسبة الاصابات في اليوم	مقدار الفعالية	الوحدات الالمانية	الوضع		نسبة الاصابات في اليوم	مقدار الفعالية	نسبة الطاقة البشرية
		نجاح	فشل				نجاح	فشل			
الاول	فرقة المشاة ٤٦ البريطانية	-	هجوم	٣,٩٥	١,٠٢	الفرقة ١٦ بانزر	دفاع محضّر	-	٠,٩٤	٣,٨٥	٣,٠٤
الثاني	فرقة المشاة ٥٦ البريطانية	-	هجوم	٢,٩٨	٠,٩٩	الفرقة ١٦ بانزر	دفاع محضّر	-	٠,٧٨	٢,٧٥	٣,٠٤
الثالث	فرقة المشاة ٤٥ الاميركية	-	هجوم	٢,٠١	١,١٢	الفرقة ١٦ بانزر	دفاع مستعجل	-	٠,٧١	٢,٤٥	١,٤٦
الرابع	فرقة المشاة ٤٥ الاميركية	دفاع مستعجل	-	١,٥٨	١,٩٦	الفرقتان ١٦و٢٩بانزر	-	هجوم	٢,٣٨	٢,٥١	١,١٦
الخامس	فرقة المشاة ٤٦ البريطانية	دفاع مستعجل	-	٢,٢٥	١,٧٨	فرقة هـ . غويرينغ بانزر	-	هجوم	١,٥٠	٢,٣٠	١,١٦
السادس	فرقة المشاة ٥٦ البريطانية	دفاع مستعجل	-	٣,٦٥	١,٦١	فرقة ١٦ بانزر +	-	هجوم	١,٨٩	٣,٨٦	٠,٧٦
السابع	فرقة المشاة ٤٦ البريطانية	دفاع مستعجل	-	٠,٦٧	١,٥٩	فرقة ١٦ بانزر	-	اعاقة	١,٥٠	١,٧٤	١,٤٢
الثامن	فرقة المشاة ٥٦ البريطانية	هجوم	-	١,٠٢	٠,٩٨	فرقة ١٦ بانزر	-	اعاقة	٠,٧٩	٢,٠٢	٢,١١
التاسع	فرقة مشاة ٤٥ الاميركية	هجوم	-	١,٢٤	٠,٩٦	الفرقتان ١٦و٢٦بانزر	-	اعاقة	٠,٩٠	٢,٤٤	٢,٣٢
العاشر	فرقة المدرعة ٧ البريطانية	هجوم	-	٠,٨٥	٠,٦٨	الفرقة ١٥ بانزر غرينادير	-	دفاع محضّر	٠,٣٣	٢,٠٥	١,٨٠
الحادي عشر	فرقة المشاة ٥٦ البريطانية	-	هجوم	٢,٤٩	١,٠٨	فرقة هـ . غروينر بانزر	دفاع محضّر	-	١,١٨	٣,٩٤	٢,١١
الثاني عشر	فرقة المشاة ٣ الاميركية	هجوم	-	٠,٧٢	٠,٧٥	فرقة هـ .غرونر بانزر	دفاع محضّر	-	٠,٥٢	٢,٥٠	٢,٥٥
الثالث عشر	فرقة المشاة ٤٥ الاميركية	هجوم	هجوم	٠,٣١	١,٢٦	الفرقتان ٣و٢٦ بانزر	إعاقة	إعاقة	١,٠١	١,٢٢	٣,٣٠
الرابع عشر	فرقة المشاة ٣٤ الاميركية	هجوم	-	٠,٣٦	٠,٥٨	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	-	إعاقة	٠,٤٠	١,٦٦	٢,٨٣
الخامس عشر	فرقة المشاة ٤٦ البريطانية	هجوم	-	١,١٣	٥,٥١	الفرقة ١٥ بانزر غريناذير	-	دفاع محضّر	٠,٢٥	٢,٩٤	٢,١٨
السادس عشر	فرقة المشاة ٣٤ الاميركية	هجوم	-	٠,١٣	٠,٨٩	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	-	اعاقة	٠,٣٣	١,٣٣	٣,٣١
السابع عشر	فرقة المشاة ٤٦ البريطانية	هجوم	-	٠,٤٢	٠,٩٣	الفرقة ١٥ بانزر غرينادير	-	دفاع محضر	٠,٥٧	١,٧٣	٢,١٥
الثامن عشر	فرقة المدرعة ٧ البريطانية	هجوم	-	٠,٤٣	٠,٧٥	الفرقة ١٥ بانزر غرينادير	-	دفاع محضّر	٠,٢٨	١,٦٠	١,٧٩
التاسع عشر	الفرقة المدرعة ٧ البريطانية	هجوم	هجوم	٠,١٨	٠,٩٦	الفرقة ١٥ بانزر غرينادير	دفاع محضّر	دفاع محضّر	٠,١٨	١,٠٦	١,٧٣
العشرون	فرقة ٥٦ البريطانية	هجوم	-	٠,٦١	٠,٧٦	فرقة هـ .غرونر بانزر	-	دفاع محضّر	٠,٤٦	٢,٢٠	٢,٢٧
الواحد والعشرون	فرقة المشاة ٣٤ الاميركية	هجوم	-	١,٢٣	١,٢٨	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	-	دفاع محضّر	١,٦٩	٣,٢٨	٢,٦٧
الثاني والعشرون	فرقة المشاة ٣ الاميركية	-	هجوم	١,٠٩	١,٣٤	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	دفاع سريع	-	١,٤١	٢,٨٢	٢,٥٣
الثالث والعشرون	فرقة المشاة ٤٥ الاميركية	-	هجوم	٠,٣٧	٠,٥٤	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	دفاع سريع	-	٠,٢٠	١,٥٩	٣,٢٥
الرابع والعشرون	فرقة المشاة ٥٦ البريطانية	-	هجوم	٠,٤١	٠,٨١	الفرقة ١٥ بانزر غرينادير	دفاع سريع	-	٠,١٠	٢,٠٦	٢,٨٩
الخامس والعشرون	فرقة المشاة ٥٦ البريطانية	-	دفاع مستعجل	١,٩٨	٠,٤٢	الفرقة ١٥ بانزر غرينادير	هجوم	-	٠,١٤	٢,٢٤	٠,٥٦
السادس والعشرون	فرقة المشاة ٣ الاميركية	-	هجوم	٠,٣٤	٠,٦٦	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	دفاع سريع	-	٠,٢٥	١,٣٦	٢,٠٦
السابع والعشرون	فرقة المشاة ٥٦ البريطانية	هجوم	هجوم	٠,٦٧	١,٢٥	الفرقة ١٥ بانزر غرينادير	دفاع سريع	دفاع سريع	١,٠٦	٣,٢٥	٦,٣١
الثامن والعشرون	فرقة المشاة ٤٦ البريطانية	هجوم	هجوم	٠,٧٠	٠,٨٤	الفرقة ١٥ بانزر غرينادير	دفاع سريع	دفاع سريع	٠,١٣	٢,٩٥	٢,٣٤
التاسع والعشرون	فرقة المشاة ٣٦ الاميركية	هجوم	-	٠,٧٢	٠,٥٩	الفرقتان ١٥ و٢٩ بانزر	-	دفاع سريع	٠,٣٠	١,٨٢	١,٦٩
الثلاثون	فرقة المشاة ١ البريطانية	هجوم	-	٢,٩٩	٠,٨١	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	-	دفاع مستعجل	٠,٧٤	٤,٦٠	٢,٨٧
الواحد والثلاثون	فرقة المشاة ١ البريطانية	دفاع سريع	-	٠,٣٤	٠,٧٣	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	-	هجوم	٠,٤٦	١,١٠	١,١٧
الثاني والثلاثون	فرقة المشاة ١ البريطانية	-	هجوم	١,٣٩	٠,٨٧	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	دفاع محضّر	-	٠,٤٩	١,٧١	١,١٨
الثالث والثلاثون	فرقة المشاة ١ البريطانية	دفاع مستعجل محضر	-	٧,٤٥	٣,١٤	فرقة البانزر وقاذفات الرمانات	-	هجوم	٢,٥٣	٣,١١	٠,٣٧
الرابع والثلاثون	فرقة المشاة ١ البريطانية	دفاع مستعجل محضر	-	٤,٠٩	١,٥٦	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	-	هجوم	٠,٦٤	١,٤٧	٠,١٧
الخامس والثلاثون	فرقة المشاة ٤٥ الاميركية	دفاع مستعجل محضر	-	٠,٨١	١,٤٠	فرقة المشاة ٥٦	-	هجوم	٠,١٣	١,٣٣	٠,٥٤
السادس والثلاثون	فرقة المشاة ١ البريطانية	-	دفاع مستعجل محضر	١,٧٥	١,٣٥	فرقة البانزر وقاذفات الرمانات	هجوم	-	٠,٩٨	٢,٠٨	٠,٦٤
السابع والثلاثون	فرقة المشاة ٤٥ الاميركية	-	هجوم	٠,٤٣	١,٧٧	فرقة ٧١٥ مشاة خفيفة	دفاع مستعجل محضر	-	١,٤٦	١,٥٠	١,٦٤
الثامن والثلاثون	فرقة المشاة ٤٥ الاميركية	دفاع مستعجل محضر	-	١,٦٠	١,٨٨	٤ فرق	-	هجوم	١,٣٣	١,٢٦	٠,٣٨
التاسع والثلاثون	فرقة المشاة ٥٦ البريطانية	دفاع مستعجل محضر	دفاع مستعجل محضر	٤,٣٤	١,٨٨	فرقة المشاة ٥٦ وفرقة ٤ مظليون	هجوم	هجوم	١,٦٩	٤,٥٦	٠,٤٥
الاربعون	فرقة المشاة ٤٥ الاميركية	دفاع محضر	-	٠,٩٧	٠,٧٨	١١٤ مشاة خفيفة	-	هجوم	٠,٥٦	١,٢٨	٠,٨٨
الواحد والاربعون	فرقة المشاة ٨٨ الاميركية	هجوم	-	١,٤٨	٣,٠٩	الفرقتان ٩٤ و٧١	-	دفاع سريع	٥,٥٩	٢,٣٣	٢,٠٢
الثاني والاربعون	فرقة المشاة ٨٥ الاميركية	هجوم	هجوم	٣,١٩	٢,٦٢	فرقة المشاة ٩٤	دفاع سريع	دفاع سريع	٤,٤٢	٤,٤٦	٢,٢١
الثالث والاربعون	فرقة المشاة ٨١ الاميركية	هجوم	-	٠,٩٤	٢,٨٩	الفرقتان ٩٤ و٧١	-	اعاقة	٤,٤٤	١,٩٥	٢,٢٣
الرابع والاربعون	فرقة المشاة ٨٥ الاميركية	هجوم	-	١,٦٣	١,٩٨	فرقة المشاة ٩٤	-	دفاع سريع	٢,٩٥	٣,٠٤	٢,١٩
الخامس والاربعون	فرقة المشاة ٨٨ الاميركية	هجوم	-	٠,٧٦	٢,١٠	فرقة المشاة ٩٤	-	دفاع مستعجل	٣,٦٤	٢,٣٣	٢,٨٧

السادس والاربعون	فرقة المشاة ٨٥ الاميركية	هجوم	-	٠,٥٨	٢,٠٦	فرقة المشاة ٩٤	-	إعاقة	٣,١٥	٢,٧٧	٣,٠٤
السابع والاربعون	فرقة المشاة ٨٨ الاميركية	هجوم	-	٠,٥٣	١,٥٠	فرقة المشاة ٩٤	-	إعاقة	١,٩٠	٣,١٤	٢,٤٥
الثامن والاربعون	فرقة المشاة ٨٥ الاميركية	هجوم	-	٠,٤٩	١,٦٤	فرقة المشاة ٩٤	-	دفاع مستعجل	١,٩٠	٤,٣٤	٢,٩٢
التاسع والاربعون	فرقة المشاة ٥ البريطانية	هجوم	-	٠,٦٧	٢,٤٣	فرقة المظليين ٤	-	دفاع سريع	١,٨٦	١,٩٢	١,٣٨
الخمسون	فرقة المشاة ١ البريطانية	هجوم	-	٠,٥٦	٢,٤٨	فرقة المشاة ٦٥	-	دفاع سريع	٢,١٦	١,٥٨	١,٥٣
الواحد والخمسون	فرقة المدرعات ١ الاميركية	هجوم	-	١,٤٦	٢,٠٤	الفرقتان ٣ و٣٦٢	-	دفاع سريع	٣,٥٢	١,٧٤	١,٢٧
الثاني والخمسون	فرقة المشاة ٣ الاميركية	هجوم	-	٢,٥٤	٢,٤٨	فرقة المشاة ٣٦٢	-	دفاع سريع	٤,٥٢	٢,٩٤	١,٦٧
الثالث والخمسون	فرقة المشاة ٨٥ الاميركية	هجوم	-	٠,٣٠	١,٤٣	فرقة ٢٩ بانزر	-	دفاع على جبهة واسعة	١,٣٤	١,٤٧	٢,٥٨
الرابع والخمسون	فرقة المدرعات ١ الاميركية	-	هجوم	٥,٢٥	٣,٨٤	فرقة المشاة ٣٦٢	دفاع سريع	-	١٠,٧٠	٣,٥٤	١,١٩
الخامس والخمسون	فرقة المشاة ٣٤ الاميركية	-	هجوم	٠,٨٧	٢,٢٩	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	دفاع سريع	-	٢,١٨	١,٤٥	١,٣١
السادس والخمسون	فرقة المشاة ٤٥ الاميركية	هجوم	-	٠,٩٣	٢,٣٤	فرقة المشاة ٦٥	-	دفاع سريع	٢,٧٤	١,٧٦	١,٨٠
السابع والخمسون	فرقة المشاة ٥ البريطانية	هجوم	-	٠,٥٢	١,٨١	الفرقة ٤ مظليون	-	دفاع سريع	١,٦٣	١,٦٠	٢,٠٣
الثامن والخمسون	فرقة المشاة ٣٤ الاميركية	-	هجوم	١,١٩	١,٩٧	الفرقة ٣ بانزر غرينادير	دفاع سريع	-	٢,٨٦	٢,٢٤	٢,٨٣
التاسع والخمسون	فرقة المدرعات ١ وفرقة المشاة٤٥ الاميركيتان	هجوم	هجوم	١,٤٦	٢,٠٢	الفرقتان ٣ و٦٥	دفاع سريع	دفاع سريع	٢,٩١	٢,١٦	١,٨٨
الستون	فرقة المشاة ١ و٥ البريطانيتان	هجوم	-	٠,٧٥	٢,٣٦	الفرقة ٤ مظليون	-	دفاع سريع	٣,٩٢	٢,٤٤	٣,٥٠
٥٠١	الفيلق ٢٠ الاميركي	هجوم	-	٠,١٩	١,٢٠	الجيش الاول	-	دفاع محضر	٢,٠١	١,٤٨	٢,٧١
٥٠٢	الفيلق ٢٠ الاميركي	هجوم	-	٠,٤٦	١,٠٩	الجيش الاول	-	اعاقة	٠,٦٨	١,٦٠	١,٤٤
٥٠٣	الفيلق ٢٠ الاميركي	-	هجوم	٠,٥٩	١,١١	الجيش الاول	دفاع سريع	-	٠,٥٣	١,٧٦	١,٥٤
٥٠٤	فرقة المدرعات ٧ الاميركية	هجوم	-	٠,٧٢	١,٩٧	الجيش الاول	-	دفاع مستعجل	٦,٩٥	٢,٢٤	١,٨٨
٥٠٥	فرقة المدرعات ٧ الاميركية	هجوم	-	٠,١٩	١,٠٣	فرقة المشاة ٤٨+	-	دفاع محضر	٢,٠٢	٢,١٣	٢,٨٧
٦٠١	فرقة المدرعات ٣٥و٢٦و٤ الاميركية	هجوم	دفاع مستعجل	٠,٨٢	١,١٤	الفرقة ١٣ س س	دفاع سريع هجوم		١,٩٩	٣,٢١	٣,٩٠
٦٠٢	فرقة المدرعات ٤ الاميركية و	هجوم	-	١,٥٤	٠,٨٧	الفرقة ١١ بانزر وفرقة مشاة ٣٦١	-	إعاقة	٠,٨٧	٣,٥٤	
	عناصر الفرقة ٣٥	-	هجوم	٠,٨٩	١,٢٧	فرقة المشاة ٣٦١	اعاقة	-	١,٠٨	١,٩٨	١,٥٩

٦٠٣	فرقة المدرعات٤الاميركية و عناصر من الفرقة ٢٦	هجوم - دفاع مستعجل	-	٠,٣٧	١,٤١	فرقة بانزر ليهر وفرقة المشاة ٣٦١	-	دفاع مستعجل هجوم	٢,٠٩	١,٢٦	١,٤٨
٦٠٤	فرقة المدرعات ٤ الاميركية	هجوم	-	٠,٣٥	١,٥٤	فرقة بانزر ليهر	-	دفاع مستعجل	٣,٣٣	١,١٧	٢,٣٧
٦٠٥	فرقة المدرعات ٤ الاميركية	-	هجوم	٠,١٦	١,٠١	فرقة بانزر ليهر	إعاقة	-	١,٠٧	٠,٧٦	٢,٤٢
٦٠٦	فرقة المدرعات ٤ الاميركية	هجوم	-	٠,٧٠	٠,٧٣	١١ بانزر، بانزرليهر وفرقة	-	دفاع محضر	١,٠٨	١,٩٣	٣,٢٧
٦٠٧	فرقة المدرعات ٤ الاميركية			٠,٧٠	٠,٧٣	٢٥ بانزر غرينادير					
٦٠٨	فرقة المدرعات ٤ الاميركية	-	هجوم	٠,٥١	٠,٩٢	الفرقة ٢٥ بانزر غرينادير وبانزر١١	دفاع سريع	-	١,٢١	١,٥٢	٣,٠٢
٦٠٩	الفيلق ١٢ الاميركي	هجوم	-	٠,٨٦	١,٦٩	الفيلقان ١٣ س س و٨٩	-	دفاع سريع	٤,١٤	٢,٧٩	٤,٢٢
٦١٠	الفيلق ١٢ الاميركي	هجوم	هجوم	٠,٨٧	١,٧٤	الفيلقان ١٣ س س و٨٩	اعاقة	اعاقة	٣,٢٣	٢,٥٤	٣,٢٦
٦١١	الفيلق ١٢ الاميركي	هجوم	-	٠,٤٦	١,٤٥	الفيلقان ١٣ س س و٨٩	-	إعاقة	١,٩١	١,٨٢	٢,٧٥
٦١٢	الفيلق ١٢ الاميركي	-	هجوم	٠,٢٧	١,١٣	الفيلقان ١٣ س س و٨٩	إعاقة	-	١,٣٢	١,٢٩	٢,٩٣
٦١٣	الفيلق ١٢ الاميركي	هجوم	-	٠,٤٢	١,٣٩	الفيلقان ١٣ س س و٩٠	-	إعاقة	١,٨٨	١,٤٧	٢,٨٦

الجدول (ج - ٣)

مقارنة احصائية بين فعالية القوات الالمانية وفعالية القوات الحليفة ابان الحرب العالمية الثانية

١ . إحصاء إجمالي، الالمان في مواجهة الحلفاء
(٧٨ اشتباكاً)

	تعداد القوات المشتركة في الاشتباكات	عدد الاصابات الاجمالي	معدل الاصابات في اليوم الواحد	معدل الفعالية
الحلفاء الغربيون	١,٧٨٣,٢٣٧	٤٧,٧٤٣	١,٢٥	١,٤٥
الالمان	٩٤٠,١٩٨	٤٨٥٨٥	١,٨٣	٢,٢٥

٢ . إحصاء بالنسبة للموقف، في مواجهة الحلفاء
(٧٨ اشتباكاً)

		الحلفاء	الالمان	التفوق الالماني
هجوم	ناجح	١,٤٧	٣,٠٢	٢,٠٥
	فاشل	١,٢٠	٢,٢٨	١,٩٠
دفاع	ناجح	١,٦٠	٢,٢٤	١,٤٠
	فاشل	١,٣٧	٢,٢٩	١,٦٧
	المعدل(*)	١,٤٥	٢,٣١	١,٥٩

(*) المعدلات مستندة على المعارك كلها.

الجدول (ج - ٤)

تقديرات غير نهائية

معدل الفعالية القتالية للفرقة بالاستناد الى معطيات ٧٨ اشتباكاً

الفرق/الفيالق	عدد الاشتباكات	معدل حدة الاشتباكات	معدل التباين عن الطبيعي	معدل الفعالية	الفعالية القتالية المقدرة	ملاحظات
الولايات المتحدة الاميركية						
الفرقة ١ مشاة	٣	٦,٧٧	-٠,٠٨	٢,٦٣	٨٦,٦٠	حملة روما فقط. تبدو القيمة عالية
الفرقة ٣ مشاة	٤	٤,٨٠	-٠,٨٧	١,٣١	٦٦,١٧	تبدو القيمة منخفضة
الفرقة ٤ مشاة	٨	٣,٩٥	-١,٤٧	١,١١	٦١,٥٩	
الفرقة ٣٤ مشاة	٥	٤,١٤	-١,٥٢	١,٤٠	٦٥,٢٨	
الفرقة ٤٥ مشاة	٩	٤,٢٩	-١,٣٠	١,٤٠	٦٤,٥٠	
الفرقة ٨٥ مشاة	٥	٥,٢٨	-١,٧٣	١,٩٥	٧١,٩٥	حملة روما فقط
الفرقة ٨٨ مشاة	٤	٥,٠٢	٠,٢٨	٢,٤٠	٨٤,٦٤	حملة روما فقط
الفيلق ١٢	٥	٤,٧٨	-٠,٤٨	١,٤٨	٦٩,٦٩	
الفيلق ٢٠	٣	٣,٩٣	-١,٩٣	١,١٣	٦٠,٠٩	
معدل الفعالية الاميركية					٧٠,٠٦	

الفرق/الفيالق	عدد الاشتباكات	معدل حدة الاشتباكات	معدل التباين عن الطبيعي	معدل الفعالية	الفعالية القتالية المقدرة	ملاحظات
بريطانيا						
الفرقة ١ مشاة	٨	٥,٧١		١,٦٦	٧٠,٣٧	
الفرقة ٥ مشاة	٣	٤,٤٧		٢,١٣	٧٤,٩٢	تبدو القيمة عالية
الفرقة ٧ مشاة	٣	٢,٩٧		١,١١	٦٤,٥٠	
الفرقة ٤٦ مشاة	٦	٥,٢٧		١,١١	٦٥,٧٦	تبدو القيمة منخفضة
الفرقة ٥٦ مشاة	٩	٥,٥٦		١,٠٨	٥٤,١٤	
معدل الفعالية البريطانية					٦٥,٩٤	
معدل فعالية الحلفاء					٦٨,٥٩٪	
المانيا						
فرقة هـ. غورينغ بانزر	٥	٣,٥٢	٠,٥٧	٢,٥٤	٨٧,٤٣	
فرقة بانزر ليهر	٤	٤,٧٠	٠,٥٧	١,٢٨	٧٠,٦٣	
فرقة ٣ بانزر غرينادير	١٦	٤,٢٤	٠,٦٥	٢,١٠	٨١,٨٣	تبدو القيمة منخفضة
الفرقة ٤ مظليون	٤	٦,٠٣	١,٢٥	٢,٦٣	٩٠,٩٠	تبدو القيمة منخفضة
الفرقة ١١ بانزر	٥	٣,٨٨	١,١٨	٢,٤٤	٨٨,١٣	
الفرقة ١٥ بانزر غرينادير	٩	١,٥٢	٠,١١	٢,٠٩	٧٩,٩٠	
الفرقة ١٦ بانزر	٧	٣,٥٠	-٠,٣٨	٢,٨٤	٨٨,٦٢	
الفرقة ٦٥ مشاة	٥	٥,٨٢	٠,٥٤	٢,٢٨	٨٣,٨٧	
الفرقة ٩٤ مشاة	٨	٦,٤٦	-٠,٠٩	٣,٠٥	٩٢,٠٣	
الفرقة ٣٦٢ مشاة	٣	٩,١٠	-١,١٦	٢,٧٤	٨٤,٣٣	
الفيلق ١٣ س س	٥	٧,٠٨	٠,٧٦	١,٩٨	٨٠,٦٠	
معدل الفعالية الالمانية					٨٤,٣٦٪	تتجاوز معدل الحلفاء بـ ٢٣٪

الجدول (ج - ٥)(*)

مقارنات احصائية في معركة كورسك

قطاع اوبويان ٥ - ١٩٤٣/٧/١١

	السوفييت	الالمان	المعدل
القوة البشرية	٩٨٠٠٠	٦٢٠٠٠	١,٠٠ -١,٥٨
الدبابات والمدافع الهجومية	٨١٧	٦٥٠	١,٠٠ -١,٢٦
قطع المدفعية (٧٥ملم وما فوق)	١٦٧٥	١٠١٤	١,٠٠ -١,٦٥
طلعات الدعم الجوي، تقديرية طلعة/طائرة	٣١٥٠	٣١٥٠	١,٠٠ -١,٠٠
الاصابات	٢٢٠٠٠	١٣٦٠٠	١,٠٠ -١,٦٢
الاصابات/اليوم	٢٤٤٤	١٥١١	١,٠٠ -١,٦٢
النسبة المئوية للاصابات/اليوم	٢,٤٩	٢,٤٩	١,٠٠ -١,٠٢
خسائر الدبابات	٤٥٠	٣٥٠	١,٠٠ -١,٢٩
قيمة فعالية القتال النسبية (تقريبية)	١,٠	٢,٣٥	٢,٣٥ -١,٠٠
مقدار الفعالية	١,٣٩	٢,٥٥	١,٨٣ -١,٠٠

الجدول (ج - ٦)

مقارنة القوة السوفييتية والالمانية على الجبهة الشرقية، ١٩٤٤

	السوفييت	الالمان	المعدات
قوة القوة الميدانية	٦١٠٠٠٠٠	٣٥٠٠٠٠٠	١/٢,٤٤ -١/١,٧٤
فعالية القتال النسبية(**)		٢٥٠٠٠٠٠	(*)١/١,٨٨ -١/١,٣٤
مجموع الاصابات في المعارك وفي غير المعارك	٧٠٠٠٠٠	١٨٠٠٠٠٠	
اصابات في غير المعارك	٢٠٠٠٠٠(تقديري)	٧٠٠٠٠٠	
خسائر المعارك	٥٠٠٠٠٠(ادنى)	١١٠٠٠٠٠	١,٠٠/٤,٥٥
معدل التبديل الميداني لكل رجل (٣,٥ مليون جندي الماني)	٠,١٨	١,٤	٧,٧٨/١,٠٠
مقدار الفعالية النسبية(**)			٥,٩٨/١,٠٠

(*) يلاحظ ان البيانات الواردة أعلاه مختلفة عن البيانات [illegible]دة في كتاب «ارقام وتنبؤات وحرب» للمؤلف نفسه.

(**) مع اعتبار عامل الدفاع الالماني: ١,٣.

الملحق (د)

هالدر اللغز(*)

كان الجنرال «فون سيكت» يعرف في اوساط الجيش الالماني بأبي الهول. وكان الجنرال «فرانز هالدر»، الرئيس الحقيقي الاخير لهيئة الأركان العامة، صموتاً ومحيّراً مثل «سيكت» تماماً. ولا يزال دوره على رأس مقاومة الجيش لـ «هتلر» في خلال الحرب العالمية الثانية غير معروف، ولعله سيظل كذلك.

وقع اختيار «هتلر» على «هالدر» كرئيس لهيئة الاركان العامة في ايلول (سبتمبر) ١٩٣٨ كي يحل محل الجنرال المعادي للنازية «لودفيغ بيك»، لقناعة «هتلر» بأن «هالدر» جندي بعيد عن السياسة كلياً. وبالرغم من سعة معرفته بالرجال، عجز «هتلر» عن معرفة حقيقة شخصية «هالدر» الغامضة. صحيح ان «هالدر» كان لا يأبه كثيراً للشؤون السياسية، وبأنه وطد العزم على البقاء بعيداً عن السياسة، ولكنه كان في الوقت نفسه معادياً للنازية بشدة، وأحد الذين شاركوا «بيك» في مؤامرة ازاحة «هتلر»، عندما أدى خضوع بريطانيا وفرنسا في مؤتمر ميونيخ الى جعل ذلك مستحيلاً. ومن الواضح أنه لم يكن يرى أي تناقض بين تفاديه للسياسة، والرغبة في إزاحة ديكتاتور شرير.

وقد التقى «هالدر» بعد الحرب عسكريين من جبهة الحلفاء، وعدداً من المؤرخين الالمان والاميركيين، وتحدث اليهم حول الخطوط العريضة لدوره السري، كواحد من قادة مقاومة النازية، ابتداء من ١٩٣٩ حتى تموز (يوليو) ١٩٤٤، كما تحدث اليهم حول جولات التعذيب والتحقيقات التي تعرض اليها في السجن ابتداء من تموز (يوليو) ١٩٤٤ والى ان اخرج من «داخاو» في أيار (مايو) ١٩٤٥، غير انه لم يكشف قط تفاصيل اعمال المقاومة التي قام بها، ولم يدافع عن نفسه كما يجب امام اتهامات الاخفاق في انتهاز الفرص التي سنحت له للاطاحة بـ«هتلر» في العام ١٩٣٩ وفي مناسبات اخرى لاحقة. ولكنه المح الى انه سيكون هناك مزيد من«المعلومات الخاصة بمجموعة المقاومة الصغيرة داخل مقر القيادة العليا، مرتكزة حولي انا»[1]

ولا يقل التعليق التالي غرابة عما سبقه: «إنني شخصياً املك دليلاً بأنه كان من شأن أصلي البافاري ان يؤدي الى وقوع مجابهة صامتة على الأقل بين القادة، الذين كان القسم الأعظم منهم

(١) "Command and Commanders in Modern Military History," *Proceedings*, Second Military History Symposium, U.S. Air Force Academy, Colorado Springs, Colo., 1971, p. 191. This was an excellent opportunity for Halder to present himself and his wartime activities in the most favorable possible light. He deliberately passed it up.

(*) اقتبست من مقدمة «يوميات الفريق أول فرانز هالدر حول الحرب، كولورادو سبرينغز، ١٩٧٦.

ينحدر من عائلات عسكرية بروسية، ولهذا السبب، كان المشكوك فيه ان يكون هناك اي تنفيذ مباشر لأي اوامر صادرة عني»(٢).

وهكذا، نجح «هالدر» في إخفاء جميع نشاطاته التآمرية عن «هتلر» وعن رجال الغستابو (رغم الشبهات القوية التي حامت حوله بعد محاولة الاغتيال التي وقعت في ١٩٤٤/٧/٢٠). وكان في خلال السنوات الاربع التي خدم فيها كرئيس لهيئة الاركان العامة، شديد الحماس لخدمة المانيا باخلاص، واطاعة اوامر زعيم المانيا، شأنه في ذلك شأن الذين سبقوه من رؤساء الاركان. ومن الجلي انه كان مثلهم واثقاً في البداية في قدرة عبقرية الاركان العامة المؤطرة في شكل مؤسسة، على سد الثغرة الناجمة عن جهل رأس السلطة السياسية للشؤون العسكرية، سواء كان ذلك في زمن السلم او في زمن الحرب.

وكان «هالدر» يعرف بأن «هتلر» يختلف عن الملوك والاباطرة والرؤساء، الذين عايشهم رؤساء الاركان السابقون، وكان عليه في خلال اربع سنوات من توليه رئاسة الاركان، ان يتعلم بأنه كان للعبقرية العسكرية المؤطرة في مؤسسة حدود ابان حكم «هتلر». ففي خلال تلك السنوات، قام «هتلر» بتقويض الاركان العامة عملياً. من هنا، فقد كان «هالدر» آخر رئيس حقيقي للاركان العامة التي اوجدها «شارنهورست»، بالرغم من ان ثلاثة رؤساء اركان قد خلفوه قبل ان تضع الحرب أوزارها.

وكان «هالدر» قد دوّن في مذكراته الشخصية، ملاحظات تتسم بالغموض والاجتزاء حول اهم ما حدث إبان السنوات الثلاث الاخيرة من رئاسته للاركان، وسجل الاحداث التي ادت الى سقوطه والى انهيار الاركان العامة الاثيرة الى قلبه، والى دمار المانيا. وقد اضحت تلك الملاحظات تعرف باسم «يوميات الفريق اول فرانز هالدر حول الحرب».

ومن سوء الحظ، ان اليوميات الخاصة لا تظهر سوى جانب من شخصية «هالدر»، كرجل، وكجندي، وكموجّه لما يمكن ان يقال بأنه اروع آلة حرب في التاريخ العسكري بأسره. ومع ذلك، فانه بالامكان العثور على بعض التلميحات في مداخلاته المتفرقة. ويمكن الحصول على معلومات هامة اضافية من خلال المقارنة بين ما جاء في سجلات ووثائق اخرى حول الأحداث التي تناولها «هالدر» في يومياته(٣). اضف الى ذلك ان «هالدر» قد تعاون، بعد الحرب، مع المعنيين بالتاريخ العسكري في الجيش الاميركي، لجمع سلسلة من الدراسات، كان قد وضعها المان كبار حول الحرب. ويستطيع المرء استخلاص الشيء الكثير بما يتعلق بتوجهات «هالدر» وتفكيره الاستراتيجي، اذا ما قرأ مقدماته وتعليقاته، الواردة في الدراسات التي كان قد اعدها زملاؤه.

(٢) *Ibid.*, p. 197.

(٣) See, for instance, Earl F. Ziemke, "Franz Halder at Orsha: The German General Staff Seeks a Consensus," *Military Affairs*, December 1975, p. 173.

لقد كان جميع رؤساء الاركان، بدءاً من «شارنهورست» وانتهاء «بهالدر»، رجالاً خارقي الذكاء وجنوداً عظيمي القدرة. ولكن، فيما خلا «شارنهورست»، و«شليفن» الى حد ما(*)، لا يمكن اعتبار اياً من هؤلاء الجنود اللامعين عبقرياً من وزن «نابليون» او «فريدريك الاكبر». غير انهم مثلوا مع اترابهم في الأركان العامة، وبشكل جيد التفوق العسكري المؤطر في مؤسسة.

ويُصنّف هؤلاء الرجال، رغم تباينهم الكبير كأفراد، في فئتين عامتين. فهناك المفكرون ذوو الوعي السياسي، الذين استوعبوا مثل «شارنهورست» علاقة الجيش بالدولة واولوها حرصهم، كما اظهروا عنايتهم بمسؤولياتهم تجاه الدولة والتاريخ، ولكنهم عملوا دائماً على اخضاع آرائهم الخاصة كلياً لقرارات السلطة العليا. وهناك من جهة اخرى المركزيون العسكريون المثقفون ايضاً، الذين لم يكونوا يهتمون بالسياسة (او لعلهم كانوا لا يملكون متسعاً من الوقت، او كانوا خائفين) او بكل ما يمت الى السياسة بصلة. وكان ابرز اولئك «مولتكه»، الذي تدعمت مكانته في التاريخ بوجود العبقري السياسي «بسمارك» الى جانبه.

وكان «بيك» آخر رئيس اركان يتمتع بوعي سياسي في صف رؤساء الاركان المبتدىء «بشارنهورست» و«غنايزناو»والمار«بفلهلم غرونر» و«هانز فون سيكت»، بينما كان «هالدر» آخر رؤساء الاركان ـ اذا جاز لنا تجاوز خلفائه الثلاثة ـ المركزيـن العسكـريين، الذين تصدرهم «كارل فون موفلينغ» فـ«مولتكه»و«هندنبرغ»ـ لودندورف. وكان من سوء حظ موقعي «هندنبرغ» و«لودندورف» في التاريخ، انهما لم يحظيا بـ«بسمارك» يؤازرهما، وكذا الامر مع «هالدر».

وبعد الحرب قام بعض جنرالات المانيا، ولفيف من الاساتذة غير العسكريين الاجانب، بانتقاد احجام «هالدر» عن تحدي «هتلر»، وانصياعه لاوامر «هتلر» القاضية بشن حروب عدوانية. وقد كتب الجنرال «فريدريك هوسباخ» قائلا بان «هالدر»قد سخر سمعة القيادة العليا لمشيئة قيادة سياسية لا اخلاقية، وقامر بها من موقع الضعف... وعلى صعيد أمن الامة، فشل «هالدر» في تحمل مسؤولياته السياسية والعسكرية والاخلاقية»(٤).

ويقوّم «غوردون كريغ» في كتابه «سياسة الجيش الالماني» بمقارنة «هالدر» بـ«بيك» مقارنة سلبية، لان «هالدر» كما يقول «كريغ» «لم يكن سهل التأثر بالقضايا الاخلاقية»(٥). وقد يكون هذا الرأي غير منصف بالنسبة الى «بيك» او الى «هالدر». ومع ذلك فمن المحتمل ان يكون كل من «هوسباخ» و«كريغ» محقاً من حيث المبدأ، وانطلاقاً من الفائدة المكتسبة من الادراك المتأخر الموضوعي. ولكن ماذا كان بمقدور «هالدر» ان يفعل حينذاك؟ وماذا حقق «بيك» حين سلك

(*) لم تتوافر لكلا الرجلين فرصة تسنم قيادة عليا ابان الحرب.

(٤) Hossbach, *Zwischen Wehrmacht und Hitler*, as quoted in Craig, *op. cit.*, p. 497.

(٥) Craig, *op. cit., p. 499.*

طريقاً غير طريق «هالدر؟»(*). لقد كان «هالدر» جندياً ذا ضمير حي، تفانى بما امتلك من ملكة عسكرية في اداء ما كان يراه واجباً عليه. لقد كانت ملكته العسكرية جيدة حقاً وكان من الجدارة التقنية بحيث يستحق المقارنة بـ«مولتكه». ولكن الفوارق بين الرجلين كثيرة، وملكة «هالدر» لم تكن كافية لتحقيق المعجزات التي كان «هتلر» يحتاج اليها كي ينتصر.

(*) كان الجنرال فريدريش فروم ـ منافس قديم لبيك ـ قد سمح لبيك بالانتحار بعيد فشل مؤامرة اغتيال هتلر في ١٩٤٤/٧/٢٠. وقد عذب النازيون فروم فيما بعد، ونفذوا فيه حكم الاعدام.

الفهرست

الصفحة

الموضوع

عباقرة الحرب

يتحدث هذا الكتاب عن عباقرة الحرب من سنة ١٨٠٧ - ١٩٤٥ والحروب التي خاضوها شارحاً بالتفصيل معطيات كل معركة وميزات كل قائد، وهو في مجمله تاريخ مفصل للفترة التي تمتد من ١٨٠٧ - ١٩٤٥ حين كانت الحروب على قدم وساق بين سائر البلاد الأوروبية التي كانت حتى الحرب العالمية الأولى امبراطوريات أو ملكيات لها طابعها المميز وتقاليدها المتوارثة.

ولقد أفرزت تلك الحروب من القواد الكبار عدداً كبيراً كان لكل واحد منهم أسلوبه في الحرب ووسائله في التخطيط، فمنهم من وصل القمة واستقر عليها، ومنهم من بلغها ثم هوى، ومنهم من لم يغادر السفح، لكنهم جميعاً في النهاية رجال حرب دخلوا التاريخ ونسجت حولهم القصص القريبة من الخرافات.

ودار الزمن دورته فاختفت دول وبرزت أخرى وصغرت دول وعظمت أخرى حتى ان بعضها امتدت واتسعت بحيث أصبحت الشمس لا تغيب عن ممتلكاتها ولكنها ما عتمت - بعيد الحرب العالمية الثانية - أن تقلصت لتأخذ حجمها الطبيعي أو دونه فكيف حدث هذا وذاك ومن المسؤول عن تغيير المعادلات؟ ذاك ما يحدثنا عنه هذا الكتاب.

المؤسسة العربية
للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون - ساقية الجنزير - ت ٨٠٧٩٠٠/١
برقياً موكيالي بيروت - ص. ب: ٥٤٦٠ - ١١ / بيروت

الثمن ٥٦ ل.ل